خليل الرواف

صفحات مطوية
من تاريخنا العربي الحديث



طبعة ثانية

Jadawel جداول

خليل إبراهيم الرواف

صفحات مطوية
من تاريخنا العربي الحديث

مذكراتي خلال قرن من الأحداث

Jadawel جداول

الكتاب: صفحات مطوية من تاريخنا العربي الحديث
المؤلف: خليل إبراهيم الرواف

جداول
للنشر والترجمة والتوزيع
الحمرا ـ شارع الكويت ـ بناية البركة ـ الطابق الأول
هاتف: 00961 1 746638 ـ فاكس: 00961 1 746637
ص.ب: 5558 ـ 13 شوران ـ بيروت ـ لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

الطبعة الأولى عن جداول: شباط / فبراير 2013
الطبعة الثانية: آب / أغسطس 2013
ISBN 978-614-418-130-0

طبع في لبنان
Copyright © Jadawel S.A.R.L
Hamra Str. - Al-Baraka Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2013 Beirut
Second Published 2013 Beirut

صورة الغلاف: مديحة العجروش

فهرس الموضوعات

الإهداء

إلى روح الإمام عبد العزيز آل سعود رحمه الله
موحِّد جزيرة العرب، وباعث نهضتها،
وجامع شمل المسلمين.

خليل الرواف

مقدمة للطبعة الثانية

لقد نفدت الطبعة الأولى من كتاب العم خليل بن إبراهيم الرواف «صفحات مطوية من تاريخنا العربي الحديث: مذكراتي خلال قرن من الأحداث» بعد سنوات قليلة من تاريخ نشرها. ولقد تحدثتُ مع ابنتيْ عمي؛ الدكتورة آسيا الرواف والأستاذة أميمة الرواف واللواء المتقاعد عبدالرحمن الرواف ابن عقل الرواف، وقد كان من المقربين جدًّا من العم خليل على ضرورة إصدار طبعة ثانية من الكتاب ولكن الانشغال بظروف العمل والحياة أخَّر إصدار الطبعة الثانية بعض الوقت، وقد جاء سؤال الكثيرين من المهتمين بالتاريخ وأدب الرحلات والأصدقاء والأقرباء عن الطبعة الثانية ليؤكد أهمية إصدارها. ولقد حرصت الدكتورة آسيا، جزاها الله خيرًا، على نشر الطبعة الثانية وعملت بالتنسيق مع الأستاذ محمد السيف، جزاه الله خيرًا، على تحقيق ذلك.

في هذه المقدمة البسيطة للطبعة الثانية من كتاب العم خليل الرواف أبدأ بحمد الله وشكره على نشر هذه الطبعة من الكتاب، والتي سيتبعها، إن شاء الله، طبعات أخرى لاحقة. تحدثتُ في مقدمة الطبعة الأولى عن مرافقتي للعم خليل في رحلة ممتعة وشيقة لأميركا خلال صيف 1991م والتي توّجها الله بعثوره على ابنه نواف في ولاية فلوريدا بعد فراق طويل. لحظة اللقاء بين الأب والابن كانت مؤثرة جدًّا ولن أنساها ما حييت. وأثناء تلك الرحلة زرنا أيضًا مجموعة من العائلات اللبنانية في مدينة سيدر رابدس في ولاية أيوا، ومن بينها عائلتَيْ عجرم وعاصي، وقد كان العم خليل إمامًا لمسجد أنشأته هاتان العائلتان وغيرها في الثلاثينيات من القرن العشرين في سيدر رابس، وقد كان أول أو ثاني مسجد تمّ تأسيسه في أميركا. وكان لقاء العم خليل بتلاميذه اللبنانيين وقد أصبحوا أطباء ورجال أعمال ومهندسين مشهورين لقاءً مؤثرًا جدًّا. وبقينا في ضيافتهم عدة أيام، نأكل ما لذّ وطاب من المأكولات اللبنانية الشهيرة. واصطحبني العم خليل أيضًا أثناء رحلتنا

إلى أميركا في صيف 1991م لزيارة العمارة التي كان يسكن بها في نيويورك في الأربعينيات الميلادية من القرن الماضي، ورحّب بنا حارس العمارة، وقد كان من الأميركيين الأفريقيين، ولكنه لم يسمح لنا بالصعود إلى الشقة التي كان عمي يقطنها لوجود ساكنين بها. ولما أخبر العم خليل حارسَ العمارة أنه كان يعرف الممثل الأميركي الشهير جون وين أثناء إقامته قديمًا في لوس أنجلوس بكاليفورنيا ازداد ترحيب حارس العمارة بنا، ونادى حراس العمارات المجاورة وأخبرهم بأن هذا الرجل- مُشيرًا للعم خليل- كان صديقًا لجون وين في لوس أنجلوس، وأحد الحراس طلب توقيع عمي فكتب عمي على ورقة عبارات بعضها بالإنجليزية وبعضها بالعربية وذيّلها بعبارة تقول «صديق جون وين» ثم وقّعها وأعطاها للحارس الذي طلبها.

توفي العم خليل، رحمه الله، في مدينة الرياض يوم الجمعة 14 شعبان 1421هـ، الموافق 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2000م عن عُمرٍ يناهز المئة وعامين. وفي الأشهر الأخيرة قبل وفاته كان يتحدث معي كثيرًا عن والده إبراهيم وشقيقيه محمد عيد وياسين، رحمهم الله جميعًا، كما كان يُكثر من الثناء على الأمير سلمان بن عبدالعزيز، وولده الأمير أحمد بن سلمان، رحمه الله، الذي أعانه على نشر كتابه، وهو أكبر إنجاز له في حياته، كما كان يقول العم خليل.

كثيرًا ما أرجع إلى كتاب العم خليل وأتمتع بقراءة بعض صفحاته، وأذكر أن العم خليل قال لي أثناء زيارتنا لأميركا في صيف 1991م: «إن الأميركيين قوم طيبون وبسطاء في المعشر وإذا عاملتهم على هذا الأساس ووثقوا بك، فإنك تحصل منهم على ما تريد».

آمل أن يجد القارىء العربي في هذا الكتاب ما هو مفيد له، وأن يتمتع بقراءة الصفحات المطوية من التاريخ العربي ومن الصفحات غير المطوية لسيرة العم خليل الرواف، رحمه الله.

عثمان الرواف

مقدمة ابنتيْ المؤلف

أثناء قراءتنا لكتاب والدنا خليل الرواف «صفحات مطوية من تاريخنا العربي الحديث: مذكراتي خلال قرن من الأحداث» تعلمنا الكثير عن حياة والدنا قبل وجودنا في هذه الحياة، وعن كثيرٍ من الأمور التي تفاعل معها قبل أن نُصبح ابنتيه. كنا نقول أثناء اطلاعنا عليها من الكتاب: «هذا هو بابا خليل، رحمه الله» إنسان مغامر، قنوع يحب الاطلاع ومعاشرة الآخرين. وكما كان يفخر بنا وبدراستنا وعملنا، فإننا أيضًا نفخر به والدًا ومغامرًا ومربيًا، من رحلاته مع العقيلات إلى تجواله في الولايات المتحدة الأميركية، من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها، تجد الإنسان نفسه، الذي تملؤه روح المغامرة والطموح والكفاح.

لن ننسى يا والدنا الحبيب أبدًا القصص المرحة والشيقة التي كنتَ ترويها لنا عن رحلاتك مع العقيلات ومنجزات حياتك الكثيرة أثناء إقامتك في الولايات المتحدة الاميركية وبعض القصص المرحة التي واجهتك أثناء زيارتك لأميركا عام 1991م مع ابن عمنا عثمان.

وكانت هذه المذكرات - كما ذكر الدكتور عثمان في مقدمته - قد صدرت في طبعتها الأولى ونفدت سريعًا، ثم واجهتنا مشكلة السؤال من قبل عدد كبير من المهتمين والباحثين ممن يريدون أن يطّلعوا على تجربة الوالد ورحلته الطويلة في الحياة، وكان للندوة التي عقدتها وزارة الثقافة والإعلام على هامش معرض الرياض الدولي للكتاب في عام 2009م بعنوان «خليل الرواف نجدي في أميركا» والتي شارك فيها عدد من المهتمين، دور كبير في إعادة الطلب على الكتاب والسؤال عنه، لذلك قررنا إعادة طباعة الكتاب ونشره في الوطن العربي ليكون متوفرًا لدى القارىء العربي.

رحمك الله يا والدنا الحبيب وأسكنك فسيح جناته ولنا في حياتك، إن شاء الله، سيرة حسنة.

ابنتاك د. آسيا خليل الرواف وأميمة خليل الرواف

مقدمة المؤلف للطبعة الأولى

لا شك أن كتابة المذكرات هي من أصعب ضروب الكتابة، إن لم تكن أصعبها على الإطلاق، بل إنها في كثير من الأحيان تمثِّل معاناة حقيقية يعيشها الكاتب وهو يضع مذكراته بين أيدي الناس.

وقد يرى البعض أنه ما دام الأمر كذلك، كان بالإمكان النأي عن مصدر المعاناة أصلًا.

ولكن الأمر بالنسبة إليّ شيء آخر، ذلك أن حياتي التي امتدّت - بحمد الله - إلى ما يقارب القرن من الزمان، قد شهدت صفحات من تاريخنا المعاصر، عزَّ عليّ أن يطويها الزمان وتصبح في حكم النسيان.

وبوصفي أحد شهود العيان لأحداث محلية وإقليمية وعالمية وقعت خلال هذا القرن منذ مطلعه، وكان لها تأثيرها المباشر على حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فقد رأيت أن مسؤوليتي أمام التاريخ وواجبي تجاه بلادي يحتِّمان عليّ أن أجعل ما شهدته وعشته مُلكًا لكل قارىء وباحث، لعلّي أكون بذلك قد ساهمت بتوفير مادة أرجو أن تكون ذات قيمة وفائدة.

وأقول إن مبعث الصعوبة والمعاناة هنا ناجم عن تشعُّب الأحداث وتداخلها وحرصي على تسلسلها، حتى تأتي في سياق سلسٍ ومنطقي. وأعتقد أنني قد وفِّقت في ذلك إلى حدٍّ كبير، خاصة وأنني قد بدأت تدوين مذكّراتي بشكل منتظم منذ مطلع هذا القرن، ولم يكن عمري وقتها قد تجاوز الخامسة عشرة، الأمر الذي ساعدني في تأمين تسلسل الأحداث إلى أبعد حدّ. أمّا التكرار الذي قد يجده القارىء أحيانًا، فهو أمر اقتضته مواقف بعينها، وقد حرصت على أن يأتي في سياق لا يخلُّ بانسيابية الأحداث وتتابعها.

جُبتُ مع العقيلات أنحاء الجزيرة العربية، والعراق، ودمشق، ومصر، والأردن، وفلسطين، وأنا صبيٌّ غضّ الإهاب، عركتني الصحراء بشدّتها وصقلتني

بأصالتها، وساقتني المغامرة إلى أن أعبر المحيط الأطلسي وأقتحم عالم أميركا الغامض الرهيب، سافرت عبر ولاياتها المتباينة في طبيعتها وفي سكانها وعاداتها وتقاليدها.

وقد حظيتُ قبل بالعيش في رحاب الملك عبد العزيز - طيَّب الله ثراه - وسدَّد خطوات أبنائه من بعده، لمواصلة هذه المسيرة الظافرة، التي بدأها الإمام عبد العزيز من لا شيء غير إرادة قوية وإيمان راسخٍ من العمل واستنهاض هذه الأمة وتوحيد صفِّها، وتفجير طاقاتها الهائلة بفَراسة عَربية أصيلة. وأن أشهد بأمِّ عيني عظمة شخصية عبد العزيز رحمه الله وعبقريته الفذة، وحنكته السياسية التي أخذت ألباب دهاقنة السياسة في العالم، ونظرته البعيدة وبرِّه برعيته، وحزمه الراسخ الذي لا يعرف التراجع عن المواقف، إحقاقًا للحق وإزهاقًا للباطل دون أن يخشى لومة لائم.

وللحقيقة أقول: إن أيّ واحدة من هذه السجايا النبيلة تصلح لأن تكون موضوعًا لمجلدات ضخمة وأبحاث حقيقية، ويكفيه فخرًا أن عبد العزيز رحمه الله قد خلَّف للتاريخ مواقف عظيمة ومادّة قيمة.

ولم تكن فترة وجودي في أميركا أقل شأنًا من الفترة التي عشتها في المشرق، من حيث ارتباطها بخدمة بلادي. لقد أقمت في الولايات المتحدة الأميركية ما يقرب من أربعة عشر عامًا تنقَّلت خلالها في اثنتين وأربعين ولاية، وتزوّجت من امرأتين أميركيتين، وكانت لي نشاطات متعدِّدة في الدعوة الإسلامية. كما وفقني الله كثيرًا في أعمالي التجارية في مدينة نيويورك، ولكن الحنين إلى الصحراء كان يشدّني دائمًا إلى نجد. ولقد تشرَّفت أثناء وجودي في أميركا بمرافقة الأمير فهد بن عبدالعزيز عندما قَدِم ضمن أمراء الوفد السعودي برئاسة الأمير فيصل، رحمه الله، للمشاركة في توقيع ميثاق الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو عام 1945م.

وقبيل انتصاف هذا القرن بسنتين، غادرت أميركا وعدتُ إلى الوطن بعد أن تجاوزت الخمسين من عمري بسنوات قليلة، وفي السنوات العشر الأولى التي تلت عودتي من الولايات المتحدة مارست بعض أنواع التجارة، وعملت وكيلًا للأمير طلال بن عبد العزيز في المنطقة الغربية، وعندما أصبح سموه وزيرًا للمواصلات

عملتُ معه في إدارة المشتريات في الوزارة. وأشرفت بعد ذلك على طباعة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية لصالح رابطة العالم الإسلامي. وأمضيت الكثير من أوقاتي في رحلات وأسفار عديدة إلى الدول العربية وأوروبا والولايات المتحدة. وبعد أن تجاوزت السبعين من عمري أصبحت حياتي أقل إثارة وصخبًا من أيام الشباب والكهولة، وفقدت بعد قدوم الشيخوخة اهتمامي بالتجارة ولكنني حافظت على حبِّ الترحال والقراءة والكتابة.

ومنذ أن تجاوزت الخامسة والستين من عمري، حاولت التفرُّغ لكتابة مذكراتي في هذا الكتاب، ولكن كثرة الأوراق التي دوَّنت عليها أيام حياتي وعلمي بضخامة المهمة الملقاة على عاتقي إضافة إلى كثرة رحلاتي وأسفاري، كل هذا كان دائمًا يعيقني عن إنجاز الكثير من الكتاب. وأمضيت عقدين كاملين من عمري أقرأ في ملاحظاتي القديمة، وهي أساس مادة هذا الكتاب، وأدوِّن منها صفحات قليلة بين الحين والآخر. وبعد أن انتهيت من تدوين مذكرات حياتي في أقسام متَّصلة متسلسلة استعنت عام 1406هـ/ 1986م بالدكتور سهيل زكار، رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق، لمراجعة مذكراتي وتنظيمها في صيغة كتاب. ولقد أعانني مشكورًا وقام بمراجعتها وتنظيمها وتلافي بعض التكرار الذي جاء فيها. وفي عام 1409هـ/ 1989م أطلعتُ ابن شقيقي الدكتور عثمان الرواف، أستاذ العلوم السياسية المشارك في جامعة الملك سعود، على مسوّدة الكتاب وأبدى مشكورًا بعض الملاحظات المهمة، وأعانني منذ ذلك الوقت على إخراج الكتاب في شكله النهائي.

ولقد سهَّل الله لي بعد ذلك أمر طبع ونشر الكتاب بفضل جهود صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن سلمان بن عبد العزيز، رئيس مجلس إدارة المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق، الذي تولى برعايته طبع ونشر وتوزيع الكتاب في وقفة إنسانية وفكرية ووطنية أسجِّلها له مدى التاريخ.

فشكري الجزيل للأمير الشهم أحمد بن سلمان، الذي كسب الشهامة أبًا عن جدّ، وللأخوة العاملين في المجموعة السعودية للأبحاث والنشر، الذين ساهموا في إبراز الكتاب لحيِّز النور، وخاصة سعادة العضو المنتدب للمجموعة الأستاذ

عبد المحسن العكاس والأستاذ أحمد محمد محمود، لجهودهما المقدَّرة في الإشراف على طبع ونشر الكتاب.

كما أنني أتوجه بالشكر والامتنان للدكتور سهيل زكار، ولابن شقيقي الدكتور عثمان الرواف على المجهود الكبير الذي بذلاه في مراجعة وتنقيح وإعداد هذا الكتاب، ولقد تفضَّل كلٌّ منهما مشكورًا بكتابة تقديم موجز للكتاب. كما أنني أتوجه بالشكر والامتنان أيضًا إلى السيدة مريم الخشي، المجازة في الحقوق والآداب ومدرِّسة الأدب العربي بدمشق، التي قامت بتحقيق الكتاب من الناحية اللغوية. وكذلك أشكر السيدة أماني بنت صلاح الدين أبو قورة، زوجة مأمون الرواف ابن شقيقي ياسين، المجازة في الآداب من جامعة دمشق في قسم اللغة العربية، والتي تعمل حاليًّا مساعدة لمديرة إدارة التوجيه المهني بالرئاسة العامة لتعليم البنات في المملكة، وذلك لمساهمتها القيِّمة أيضًا في التحقيق اللغوي للكتاب. كما أشكر الأستاذ علي الطاهر على المساعدة القيِّمة التي قدَّمها في تدقيق وتصحيح الطباعة الأخيرة للكتاب.

بقي أن أضيف أخيرًا أن الكتاب ينقسم إلى جزأين أساسيين، يعرض الجزء الأول لحياتي في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ورحلاتي مع العقيلات. ويستعرض الجزء الثاني أحداث هجرتي إلى الولايات المتحدة الأميركية. ولقد ألحقت هذين الجزأين بخاتمة موجزة لخَّصت بها بعض أهم الأحداث والعبر المستقاة من حياتي التي أعقبت عودتي من أميركا إلى الوطن الغالي. كما ذكرت قصة لقائي بالابن نواف بعد فراق خمسة وأربعين عامًا، وبعد بحثٍ مُضنٍ وشاقّ أعانني فيه ولد أخي الدكتور عثمان الرواف وبعض الإخوة الآخرين. فآخر مرة رأيت نوافًا قبل فراقه كانت في نيويورك في عام 1366هـ - 1947م وأول مرة رأيته فيها بعد ذلك كانت في فلوريدا في صيف 1412هـ - 1991م. ولله الحمد وبه نستعين.

خليل إبراهيم الرواف

الرياض 1994م

تقديم أول

الأحداث التي شهدها الوطن العربي والعالم الإسلامي في هذا القرن جليلة، وهي إن كانت من بعض الجوانب مرتبطة بما شهده العالم ككل، تبقى النتائج التي عانى منها المسلمون أعظم مأساوية وأشدّ خطرًا، فلقد وقعت بلدان المسلمين، بما في ذلك الوطن العربي، تحت سيطرة الدول الصليبية المستعمرة، وزالت من الوجود وحدة المسلمين، وألغيت الخلافة، ووجِّهت ضربات ماحقة إلى نمط العيش الذي سادَ منذ قيام الإسلام سواء ثقافيًّا أو اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا إلى غير ذلك.

ولم تكتَفِ الصليبية المعاصرة بتمزيق شمل المسلمين وإزالة فكرة دار الإسلام مقابل دار الحرب من الوجود، بل ألغت الهوية الإسلامية، وأوجَدَت الحدود المصطنعة وأحلَّت الانتماء إلى الدول الحديثة محلّ الانتماء إلى الأمة العظمى، وسخَّرت الإمكانات والطاقات الاقتصادية والتوجهات العامة للمسلمين لصالح دار الحرب وفائدتها، وما زالت الأمور قائمة هكذا.

وليست الصورة كلها مظلمة بالمرّة، بل يلاحَظ أنّ الشعوب المسلمة ثارت ضدَّ هذا كله، وحقَّقت حريتها وجرت محاولات لجمع الشمل، وكان من المحاولات الأصلية ما شهدته شبه القارة الهندية وشبه جزيرة العرب.

لكن قوى الصليبية حالَت دون تمكينها من الوصول إلى غاياتها العظمى، فلقد شهدت شبه جزيرة العرب حركة إصلاحية إسلامية أصيلة، وحظيت هذه الحركة في القرن الحالي بقيادة الملك عبد العزيز آل سعود، ونجح هذا الملك في توحيد غالبية أجزاء جزيرة العرب.

إن هناك حاجة ماسّة لدراسة ما نزل بالعرب والمسلمين في هذا القرن ومعالجته من منظار عام شامل لا من المنظار الإقليمي المحض.

إنه ليس في نيتي الآن البحث في هذا الموضوع، بل التقديم لكتابٍ له علاقة مباشرة به، ويعدُّ مصدرًا أساسيًّا من مصادر التأريخ له، وهذا الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية لمواطن عربيٍّ مسلم أصيل، ولد بدمشق، وانتمى بالأصل إلى أسرة عربية عريقة من أُسَر قبائل تميم النجدية، وكان مسرح نشاطاته الأولى مختلف بلدان المشرق العربي، لكنه لم يكتَفِ بذلك، بل ذهب إلى العالم الجديد، حيث أوقف حياته هناك لفترة طويلة في سبيل خدمة العرب والمسلمين.

يخيل لي أنَّ صاحب هذه السيرة هو شاهد القرن العشرين الوحيد بين أحياء مواطني المشرق العربي، ولد - أمدَّ الله في عمره - في العشر الأواخر من القرن الماضي وهو ما زال - والحمد لله - وافر النشاط، نقيَّ الذاكرة، فيه كل الحيوية والدماثة والاستقامة مع إيمان راسخٍ، وسجايا عربية وخُلق كريم.

إنه الشيخ خليل الرواف، الذي ولد كما أشرت في دمشق من أسرة نجدية عريقة، مارست العمل التجاري بين مختلف بلدان المشرق العربي، واختصَّت بتجارة الإبل وتقديم الحماية والمرافقة لقافلة الحجيج الشامية.

ومرت حياة الشيخ خليل بثلاث مراحل، قضى المرحلة الأولى منها مواطنًا ينتمي لبلدان المشرق العربي، ثم أمضى المرحلة الثانية في الولايات المتحدة الأميركية، وعاش - وما زال والحمد لله - يعيش المرحلة الثالثة في المملكة العربية السعودية.

لقد تعرَّف في فترة ما بين الحربين إلى المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود، وأعجب به أيّما إعجاب، وآمَن بالرسالة التي يحملها، وأوقف نفسه على العمل تحت راية مليكه وفي سبيل الحركة الإصلاحية الإسلامية، وعلى هذا كانت علاقاته بالملك عبد العزيز متينة جدًا، واستمرّت هذه العلاقة المتميِّزة قائمة حتى الآن مع ملوك وأصحاب السمو أبناء الملك عبد العزيز.

قبل هجرته إلى الولايات المتحدة تولّى تنفيذ عددٍ من المهام الكبرى لصالح مليكه، وفي المهجر - حيث كان المهاجر السعودي الأول - أوقف جميع طاقاته على خدمة مليكه ووطنه واستطاع أن ينجز الكثير الكثير، وفي الوقت نفسه ظلَّت العروبة راسخة في قلبه، والانتماء إليها مسيطرًا على جوارحه، فكان أن نَشَط في

سبيل بناء مدينة في فلوريدا لجمع شمل العرب والمسلمين في الولايات المتحدة، وكان نشاطه هذا نشاطًا دعويًّا في سبيل الإسلام.

لقد رعى الجاليات العربية، وعلَّم ناشئتها اللغة العربية والإسلام، وأسَّس العديد من المدارس، وعمل إمامًا للمسلمين في نيويورك لفترة طويلة، ونتيجة جهوده تجاوز عدد الذين هداهم الله إلى الإسلام على يديه الألف.

إنَّ مَن ينظر إلى مجمل نشاطاته ورعايته لرجالات العروبة في الولايات المتحدة من سياسيين وموفدين إلى الأمم المتحدة ومهاجرين، وإلى خططه في الوقوف في وجه الصهيونية، لتتولاه الدهشة، فما أنجزه وقام به يعجز عنه الجمع الكبير من الرجال. ولا غرابة في هذا ففي تراثنا العديد من الرجال أخبرنا أنّ كل واحد منهم سيبعث أمة وحده، ولا شك أن خليل الرواف واحدًا منهم.

لقد اعتادت الأمم والدول في عصرنا أن تتولى تكريم رجالاته ومنحهم الألقاب والأوسمة، ومن الألقاب (بطل الدولة) أو (الأمة)، وعندي أن خليل الرواف بطل حقيقي من أبطال الأمة العربية غير المعروفين، ولا شك أنه بطل بالنسبة إلى الكثيرين من مواطني المملكة العربية السعودية.

وقد تولّى الشيخ خليل كتابة سيرته هذه، بأسلوب خاص به، فيه لمسات شاعرية وحسٌّ مرهف وصدق وصفاء، واقتصر دوري على قراءة المواد التي كتبها، وتبويبها وتقسيمها إلى فصول، وإلغاء بعض التكرار وليس كله، دون أن أتدخّل في الأسلوب أو الأفكار أو المقاصد، وقمت في الوقت نفسه بالإشراف على إعداد السيرة للطباعة، ومن ثم كتابة هذه المقدِّمة الموجزة.

الأمل كبير في أن يتمَّ إنجاز وطبع جميع الإنتاج الأدبي للمرحلة الأميركية مع ما كتبته عنه الصحافة الأميركية، والصحف العربية في الولايات المتحدة في وقته.
وما زال الشيخ الرواف قادرًا على الكتابة بكلِّ صفاء والتعبير عن مقاصده وغاياته كما كان يفعل قبل نصف قرن مضى، ومن الأدلَّة على ذلك المقال (الموجود ضمن ملاحق الكتاب) الذي كتبه في أواخر الثمانينيات يصفُ فيه مشاعره تجاه إنجازات التنمية التي حققتها المملكة العربية السعودية بقيادة حكّامها المخلصين الأوفياء لدينهم ولوطنهم.

أرجو أن تحصل الفائدة من هذه السيرة، وأن يستفيد منها كلُّ مهتمٍّ بتاريخ العرب الحديث والمعاصر، والله تعالى من وراء القصد وهو الموفق إلى الصواب، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سهيل زكار(*)

دمشق 21/ 9/ 1988

10/ 2/ 1409هـ

(*) رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق سابقًا.

تقديم ثانٍ

لقد لعب «التاريخ الشفهي» دورًا مهمًّا في إثراء دراسات التاريخ الإنساني، كما ساهم في توضيح معالم بعض أحداث التاريخ ومن ضمنها - دون شك - التاريخ الحديث للجزيرة العربية.

والتاريخ الشفهي هو الروايات الخاصة بالأحداث وما حولها، كما نأخذها من رواية الأشخاص الذين عايشوها أو عاصروها. وقد يمكِّننا التاريخ الشفهي أحيانًا من توثيق بعض الأحداث المهمة التي قد يغفل المؤرخون عن تدوينها. ولكن الأهمية الأساسية للتاريخ الشفهي تأتي من احتوائه على بعض المعلومات التي قد تمكِّن أساتذة التاريخ من إدراك طبيعة العلاقات الإنسانية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخاصة بفترة تاريخية محددة. فلقد تطورت دراسات التاريخ الحديثة بشكل كبير وأخرجت التاريخ كما يرى بعض أساتذته من دائرة الإنسانيات إلى دائرة العلوم وأصبح هناك فرق واضح بين المؤرخ وعالم التاريخ، فالمؤرخ يهتم أساسًا بتدوين وتوثيق أحداث التاريخ، والمتخصص بدراسة التاريخ يحاول فهم العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية التي ساهمت في توجيه الأحداث التي يدرسها. ويشتمل التاريخ الشفهي - إذا دُوِّن - على مادة مهمة لكلٍّ من المؤرخين وأساتذة التاريخ، ولكن فائدته الأساسية تكون من نصيب الأساتذة، الذين يحاولون فهم الأحداث وتفسير العلاقات والتفاعلات المؤثرة بها.

ويقدِّم كتاب العم خليل الرواف - خاصة في جزئه الأول - مادة علمية خصبة لأساتذة التاريخ والمؤرخين العرب، فالكتاب يشتمل في ثناياه على بعض الروايات والمشاهد المرتبطة ببعض أهم أحداث تاريخ المشرق العربي الحديث، ويمكن الاستفادة منها في فهم نمط الحياة والتفكير الذي كان سائدًا لدى سكان الحضر والبادية، والتفاعلات التي كانت قائمة بينهما في العقود الثلاثة الأولى من هذا

القرن. كما يشتمل الكتاب أيضًا على طبيعة العلاقات الإنسانية والتجارية والاجتماعية التي كانت سائدة في تلك الفترة.

إن قصة الكتاب هي قصة قرن كامل تقريبًا، تعود بداية أحداثه إلى دمشق في السنوات الأولى من القرن العشرين، وتمتد حتى الوقت الحاضر وخاصة إلى أوائل التسعينيات الميلادية، حيث التقى العمّ خليل الرواف بولده نواف في فلوريدا بأميركا في صيف العام 1991م، ولقد بدأتُ بمساعدة العم خليل في البحث عن ولده الذي اختفت به والدته الأميركية في زحام نيويورك في عام 1947م، منذ أيام دراستي في الولايات المتحدة الأميركية في السبعينيات ولكن جهودي وجهوده لم تثمر إلّا في الرحلة التي صحبته بها إلى الولايات المتحدة في أعقاب حرب الخليج. ولقد عرفت عن العمّ خليل أثناء تلك الرحلة أكثر ممّا عرفته عنه طيلة حياتي السابقة. فلقد رأيت رجلًا وقد تجاوز التسعين من عمره يستيقظ في الخامسة من صباح كل يوم، ليصلي الفجر ويقرأ القرآن قليلًا ثم يقوم بكيّ ملابسه وتنظيف حذائه بنفسه. وفي السادسة صباحًا كان يغادر الغرفة بعد أن يوقظني من النوم ويتّجه إلى مطعم الفندق، ليتناول طعام الإفطار وقد لبس أفضل ثيابه وأحسنها. أشياء كثيرة رأيتها عن قرب وتأملتها من كثب، وأدركت أن تجربة حياته الطويلة قد علّمته أشياء كثيرة وجعلت منه إنسانًا متميزًا يرى الأشياء بمنظار خاص، منظار يعود من الحاضر إلى بداية هذا القرن. منظار يمتد من حاضرة دمشق البسيطة إلى بادية الجزيرة العربية ومنها إلى حضارة أميركا المتقدمة والمعقدة.

إن فصول الكتاب الأولى لا تحكي فقط حقبة أحد أبناء العقيلات وتنقلاته. ولكنها تَصِف أيضًا الظروف السياسية والاجتماعية للجزيرة العربية وبلاد الشام في مطلع القرن العشرين قبل وأثناء وبعد الحرب العالمية الأولى. في فصول الكتاب الأولى يجد القارىء وصفًا دقيقًا لرحلات وتجارة العقيلات، كما يجد وصفًا شيّقًا لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك الفترة في دمشق والحجاز وبغداد والقاهرة والرياض وحائل والكويت والزبير والبصرة والمحمرة ومعان وغيرها من المدن العربية، مثل زحلة وبيروت، إضافة إلى أهم مضارب القبائل العربية في المملكة وسوريا والعراق. وفي فصول الكتاب الأولى يتعرّف القارىء

على المزيد من قوة الملك عبد العزيز وحنكته، كما يرويها أحد الأشخاص الذين عاصروه وأحبّوه. وفي فصول الكتاب الأولى يطّلع القارىء أيضًا على بعض التفاصيل التي تؤكّد أهمية المملكة ودورها في السياسة العربية منذ الثلاثينيات الميلادية، أي منذ السنوات الأولى لعمر المملكة الفتية. فلقد كانت الزعامات العربية الوطنية التي قاومت الاستعمار في سوريا والعراق ومصر وفلسطين تتطلّع نحو المملكة بوصفها الدولة العربية الوحيدة المستقلة في تلك الفترة.

وإن الجزء الثاني من الكتاب لا يحكي فقط قصة رحلة ابن العقيلات إلى أميركا، ولكنه يصف الولايات المتّحدة ومعالمها وحضاراتها، كما شاهدها وتفاعل معها أحد أبناء البادية العربية وحاضرها بعد وصوله إليها في منتصف الثلاثينيات الميلادية.

وقد يجد الإنسان صعوبة في إطراء عمّه، ولكن الدكتور سهيل زكار، جزاه الله خيرًا، كفاني مهمة القيام بهذا الأمر. ولقد قرأت مسودة كتاب العمّ خليل وأبديتُ بعض الملاحظات وعملت معه خلال السنوات الثلاث الماضية لإخراج الكتاب، وأعدنا معًا في مرات عديدة تصنيف وتبويب فصول الكتاب، حتى خرجت بصورتها النهائية، وأثناء قراءتي لمسودة الكتاب لاحظت تعدُّد مواهب العم خليل، حيث وجدت فيه التاجر والمغامر والرحالة والداعية الإسلامية والقارىء المثقف. والآن وقد بلغ العم خليل - أطال الله عمره ومتّعه بالمزيد من الصحة والعافية - الخامسة والتسعين أراه لم يزل منكبًّا على القراءة والكتابة محافظًا على هواية السفر وشديد الاهتمام بصلة الرحم.

ويشتمل الكتاب في - جزأيه الأول والثاني - على العديد من الأحداث المهمة، والقصص الطريفة التي تهمّ القارىء العربي أيًّا كان. فالكتاب يشتمل على حِكَم وعبر الحياة المأخوذة من تجربة رجل مكافح مغامر عاش شبابه في البادية العربية وحاضرها ثم انتقل منها في الثلاثينيات من هذا القرن ليعيش مغامرة أخرى مع ناطحات السحاب في نيويورك ولوس أنجلوس، وتمكّن من التكيُّف مع الحياة الجديدة بالرغم من الفجوة الحضارية الهائلة التي واجهته عند هجرته إلى الولايات

المتحدة الأميركية. ويشتمل الجزء الثالث المختصر على بعض أهم الأحداث التي واجهت العم خليل بعد عودته إلى الوطن في الخمسين من عمره، وكذلك على قصة عثوره على ولده الأميركي نواف الذي أقرّ الله به عينيه بعد فراق خمسة وأربعين عامًا.

عثمان ياسين الرواف(*)

الرياض 25/ شوال/ 1414هـ
6/ نيسان/ 1994م

(*) أستاذ العلوم السياسية المشارك في جامعة الملك سعود سابقًا.

كلمة التدقيق والتحقيق

كاتب ومؤرخ وأديب للقرن العشرين... صاحب الأمانة والرسالة والقلم...

مؤلفه هذا ضخم، وأثره قيِّم...

مطولة تاريخية موثوقة!

وملحمة نثرية رائعة! المغامرات والمشاهدات والمفاجآت والتأزمات... جرت على قلمه بانسياب عفوي سلس ندي... وخيال حسِّي ناطق!

طال فيه نفسه... ورضخت نفسه لتقلبات الدهر والأقدار، سعدت ونعمت... شقيت وسُجنت وحُرمت!!

إلى أن ناءت عليه بكلكلها الأثقال... وضاقت عنه آفاق الكون والعالم الجديد على رحبه... فرمت به فوق رمال جزيرته الخشنة الدافئة، سليمًا معافى صحيحًا... يكتب ويسجِّل ويؤرخ.

إنه الشيخ خليل الرواف

مريم الخشيّ(*)

(*) مدرِّسة الأدب العربي في دمشق، حاصلة على إجازة في الحقوق والآداب العامة.

الجزء الأول

في بلاد الشام وشبه الجزيرة والعراق

الفصل الأول

العثمانيون والبريطانيون وقصة للوالد معهما

إنَّ ما أدوِّنه على هذه الصفحات وأرويه من تاريخنا العربي المعاصر هو من الأحداث التي مرّت بي، ومررت بها، منذ أن بلغت العاشرة من العمر، ولقد عاهدت نفسي على أن أقصَّ ما رأيته بعيني ولمسته بيدي، دون زيادة، أو نقصان وأن أقول الحق، فيما أدونه، سواء كان عن شخصي، أو عمّن يتناوله قلمي، ويقع تحت مجهري.

لقلد قلبت الأمور من جميع الوجوه، حتى أجد منفذًا صالحًا يوصلني إلى ما أنا عازم عليه فيما أكتبه، وبعد أن استعرضت مختلف المواضيع المختزنة بذاكرتي اخترت أن أبدأ بما يلي:

حاول العثمانيون قبل الحرب العالمية الأولى ببضع سنين، الاتِّصال بالأمير عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود وكان في مستهل شبابه وعنفوانه، ينتقل من نصر إلى نصر، ويحالفه التوفيق في أعماله منذ أن فتح الرياض عام 1319هـ/ 1902م، وكانت لا تزال الألسن تلهج بذكره، وتتحدث عن انتصاراته لا سيما بعدما قضى على سميه الأمير عبد العزيز بن رشيد، حاكم مدينة حائل، عام 1324هـ/ 1906م.

كان الأتراك يحاولون إرسال قوة تركية، من القوات المرابطة في مدينة البصرة من أعمال العراق، التي كانت بقيادة الجنرال سليمان شفيق باشا، لمناوشة وإزعاج البريطانيين في الخليج العربي، الذين كان قد تمَّ لهم عقد معاهدات مع حكام الخليج العربي وامتثلوا بموجبها لأمرهم، وبقوا تحت حمايتهم، فما لبثت بريطانيا أن مالت نحو إمارة الكويت وعقدت مع أميرها معاهدة أجبرتها على الرضوخ لأوامرها، لمدة مائة سنة كاملة، بعدها تنال استقلالها، ولقد مكث هؤلاء الحكام في إمارة الكويت

تحت الانتداب البريطاني عشرات الأعوام، ثم نالوا استقلالهم. وكان أول وفد رسمي تركي حظي بالمثول بين يدي الأمير عبد العزيز بن سعود، برئاسة الفلسطيني توفيق فرعون، الدمشقي المولد، مرسلًا من قبل جمال باشا، القائد العام للجيش التركي المرابط في سورية، وحمل توفيق فرعون معه تحيات القائد التركي، وهدية مناسبة للأمير السعودي، ورسالة لطيفة الألفاظ، محكمة التعابير يعِدُه فيها - القائد التركي - بإرسال المعدّات الحربية اللازمة ليقوم بمناوشة القوات البريطانية المرابطة في الخليج العربي. وكان من مرافقيه الأستاذ صبري الطباع الذي يعمل تاجرًا للحبوب في مدينة عمان. ولكن سفير الحكومة التركية بدا وكأنه يملي شروط إسطنبول على الأمير عبد العزيز الذي أوقفه عند حدِّه وطرده من الرياض.

لما يئست حكومة الأتراك من كسب صداقة الأمير عبد العزيز، اتجهت إلى ابن الرشيد، أمير حائل وزعيم قبيلة شمر، فقدّمت له الأموال والأسلحة الألمانية الخفيفة، التي لم يكن لها مثيل في الديار النجدية ممّا عدّ سلاحًا فتاكًا في ذلك الوقت.

نجح البريطانيون في مفاوضاتهم مع الأمير عبد العزيز بن سعود، واتّفق الجانبان على أن يلزم الأمير عبد العزيز بن سعود جانب الحياد إذا نشبت الحرب بين الحلفاء من جهة والأتراك والألمان من جهة أخرى، وألّا يقدِّم أيّ معونة لأيٍّ من الفريقين، ومقابل ذلك يقدم البريطانيون لابن سعود أسلحة وذخيرة حربية، مع ما كان يحتاج إليه من عتاد ومتاع.

وقَّع الأمير عبد العزيز آل سعود هذه المعاهدة مع السير بيرسي كوكس، القائد الأعلى للجيش البريطاني، وتُعرف هذه المعاهدة بمعاهدة العقير وأبرمت عام 1334هـ/ 1915م، أي بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بعام واحد.

بقيت بنود هذه المعاهدة سارية المفعول حتى سنة 1927م، عندما عقد البريطانيون معاهدة جديدة مع الملك عبد العزيز آل سعود الذي أصبح وقتها ملكًا للحجاز، وسلطانًا لنجد وملحقاتها وكانت هذه المعاهدة معاهدة متوازنة عقدت بين ندَّين، كما وصفتها الصحف العربية والأوروبية. وألغَت ما تقدَّمها من المعاهدات بين الملك عبد العزيز والحكومة البريطانية.

كان الأمير عبد العزيز آل سعود قد شَرَع في تغيير حياة أهل البادية القاسية الذين لم يستقر بهم المقام في مكان واحد من واحاتها، فقد كانت القبائل تطرق

سُبُل الصحراء وتنتقل من موضع إلى آخر، طلبًا للكلأ والمرعى لمواشيها. ولم تكن لهذا تشعر بأيِّ نفوذ وسلطان عليها، لا من آل سعود ولا من آل الرشيد ولا من أحد آخر. لقد أراد الأمير عبد العزيز استبدال حياة أهل البادية من بداوة فوضوية شديدة العصبية، إلى حياة مدنية أفضل، فقدَّم لهم المساعدات المادية وأرسل إليهم الدعاة يعلمونهم أمور دينهم وقواعده وأركانه. وأمور الجهاد لإعلاء كلمة التوحيد، والذود عن الشريعة الإسلامية، وأقام لهم سمو الأمير عبد العزيز بن عبدالرحمن القرى العديدة في الصحراء الواسعة، وأصبح العديد منهم على شيء من المعرفة بنصوص الشريعة الإسلامية.

ثم استقرّوا، ومارسوا الزراعة في أطراف القرى، وغدوا قوّة جبارة يُخشى بأسها، ويُحذر بطشها، وانتشر ذِكر هذه القوة في أطراف الجزيرة العربية، فوصل مكة في الحجاز، والأردن وعمان، ومشارف دمشق، وربوع دجلة والفرات في العراق، واستحوذ هذا التطبيق للدين الحنيف على عقولهم وتشرَّبته نفوسهم، وأصبحوا أشدّاء على مَن لا يفهم معانيه ولا يؤدّي فروضه وواجباته.

أقف هنا قليلًا لأدع القارىء يستنتج ممّا قرأه من وصف الأمير عبد العزيز بن سعود، ووضعيته في ذاك الوقت، ومعاملته لرسول الحكومة العثمانية وطرده من البلاد، وموقفه من أهل البادية.

أولًا: كانت وضعية سمو الأمير عبد العزيز غير واضحة يتخلَّلها عدم الاستقرار، كان في حرب سجال بينه وبين خصمه اللدود، وسميه عبد العزيز بن رشيد، حاكم حائل، ومَن أتى بعده من أمراء آل الرشيد وحكام بقية المقاطعات في أطراف الجزيرة.

ثانيًا: جاء اهتمامه بتحضير البادية ومساعدة أهلها، بإنشاء القرى ليضمن ولاء هؤلاء العربان المتمردين عليه حينًا، والنابذين لأوامره أحيانًا، وليتفقَّهوا في الدين وليكونوا من مؤازريه في تحقيق ما فيه عزّ العرب والإسلام، واسترجاع مجدهم الداثر، فذلك كان مطمحه، وتلك كانت أهدافه.

ثالثًا: سعيه الحثيث لاستتباب الأمن في ربوع الجزيرة العربية، والضرب على أيدي العابثين بالنظام والاستقرار في هذه البلاد المقدسة.

كانت هناك أشياء أخرى كثيرة مختزنة في ذهنه أراد تحقيقها وفي مقدِّمتها :

أولًا : القضاء على الإمارات القائمة داخل الجزيرة العربية ومنها إمارة آل رشيد .

ثانيًا : الحدّ من نفوذ مشايخ القبائل الذي استشرى في ربوع الجزيرة وتنظيمه، حتى ينعم سكانها من الحضر ومن البادية بالراحة والأمان، وليتسنّى لقاطني المدن والقرى في نجد وما حولها القيام بأعمالهم التجارية دون خوف، وليهتموا بشؤون مزارعهم .

ثالثًا : توحيد الجزيرة العربية، واستقلالها استقلالًا تامًّا، تحت علم واحد وحكومة واحدة، فلا يدع لأيٍّ أجنبي نفوذًا فيها .

أما الأسباب التي حملت الأمير عبد العزيز على معاملة رسول الحكومة التركية بهذه الشدة وطرده من الرياض فكثيرة منها :

أولًا : عدم ثقته بالحكومة العثمانية، وعجرفة قادة جيوشها، وبطانتهم .

ثانيًا : تخطيط الأتراك وحلفائهم من الألمان، وعزمهم على مدِّ خطٍّ حديدي يصل البصرة من أعمال العراق ببرلين الألمانية مارًّا بالعاصمة التركية إسطنبول . وهذا ما كان يحذره الأمير عبد العزيز آل سعود، خوفًا من جعل البلاد العربية مسرحًا للقتال، بين الأتراك، وبين الإنجليز، الحامين للإمارات العربية والذين كان لديهم قاعدة عسكرية قوية في الخليج العربي، وكان وراء هذه القاعدة سفن حربية تجوب مياه المحيطات، ومن وراء ذلك البلاد الهندية المستعمرة البريطانية الكبرى التي كانت تمدّ البريطانيين بالرجال والغذاء، ولن تقف الحكومة البريطانية مكتوفة الأيدي، إذا حاول الأتراك وحلفاؤهم من الألمان إنشاء هذا الخط الحديدي لقربه من الخليج، ومن إمارة الكويت، ومن مستعمرتهم الهندية، وفي الوقت نفسه حتى لا تتمكن الحكومة العثمانية من وضع نجد والبلدان العربية تحت سيطرتها، وحرمان سكانها من منفذ من منافذ الحرية يستنشقون منه نسماتها العليلة .

ثالثًا : العداوة التاريخية مع العثمانيين . لقد سبق لآل سعود حكم أرجاء واسعة من شبه الجزيرة، ممَا أغضب الأتراك غضبًا شديدًا، وأثاروا دعاية واسعة النطاق

ضدّهم في جميع الأقطار العربية والإسلامية، ووصموهم بالكفر والزندقة، وسعوا إلى إخراجهم من الحظيرة الإسلامية، وتقوّلوا عليهم الأقاويل لتنفير الأمة الإسلامية منهم، كما أوعزوا إلى حكومة محمد علي باشا في مصر بمحاربتهم، وطردهم من ديارهم، وتعهدت الحكومة العثمانية آنذاك للقادة المصريين بمنحهم إمارة الحجاز ونجد إذا وفِّقوا في عملهم .

قاتل المصريون السعوديين بسلاح فتاك لم يكن لدى السعوديين آنذاك سلاحٌ يماثله، ونجح المصريون في مهمَّتهم، فأخرجوا السعوديين من ديارهم، وواصلوا زحفهم إلى أن وصلوا بلدة الدرعية مقرّ العائلة السعودية، وأقام المصريون الخنادق حول الدرعية، وأخذوا يمطرونها بمدافعهم، فهدَموا الكثير من أبنيتها، وألقوا القبض على أميرها عبدالله، وأرسلوه إلى إسطنبول، فأعدِم فيها، وما تزال آثار هذه الخنادق قائمة إلى يومنا هذا في المرتفعات المطلّة على الدرعية، كل ذلك كان للقضاء على نهضة آل سعود الدينية ورسالتهم المحمدية والحقيقية، وقد ذكر هذه النهضة الدينية عميد الأدب العربي، الدكتور طه حسين، في مقال كتبه بالإنجليزية في مجلة «أوبن كورت» التي كانت تصدر في شيكاغو بأميركا بعنوان «الحياة الأدبية في الجزيرة العربية» ولقد أطلعني عز الدين التنوخي، أحد الوطنيين السوريين الملمِّين بالإنجليزية، على هذا المقال في نهاية العشرينيات قبل سفري إلى الولايات المتحدة بعدة سنوات ورأيت فيه خير صورة لقرّاء اللغة العربية عن العرب وعن حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولهذا كتبت إلى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين واستأذنته في نشر بحثه بالعربية، وبعد الحصول على موافقته، أعطيت المقال إلى مكتب النشر العربي بدمشق الذي كان يُشرف عليه الأستاذ ظافر القاسمي، رحمه الله، الذي أصبح فيما بعد نقيب المحامين بدمشق، وطلبت منهم الإشراف على ترجمته ونشره، وتمَّ طبع مقال الدكتور طه حسين في كتيِّب صغير مع مقدِّمة موجزة وضعها مكتب النشر العربي بدمشق وجاء فيها :

«نشرت ترجمة هذا البحث في مجلة أوبن كورت التي تصدر بشيكاغو بأميركا وقد رأى فيه الشيخ خليل الرواف خير صورة لقرّاء لغة الضاد عن الحياة الأدبية في جزيرة العرب، ولا سيما أن الذين بحثوا في حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب

أهملوا أثرها في الحياة الفعلية والأدبية، وإن الدكتور طه حسين قد عالج هذا في بحثه الدقيق الذي نتقدَّم به إلى القرَّاء، بتفكيره العميق وأسلوبه الرشيق، لذلك استأذن حضرته الدكتور طه حسين في نشر هذا البحث فتفضَّل حفظه الله ورعاه - بالإذن - ولقد عهد الشيخ خليل الرواف إلى مكتبنا بالإشراف على طبعه ونشره، فكان لنا بذل في شرف الموضوع وشرف المؤلف وشرف صاحب الفكرة ما نسجِّله في أول صفحة من صفحات هذه الرسالة»، ولقد احتفظت ببعض النسخ من هذا المقال المهم وأهديت عددًا منها إلى بعض الأمراء والكتّاب في المملكة. وقد جاء في مقال الدكتور طه حسين(*):

«على أن الباحث عن الحياة العقلية والأدبية في جزيرة العرب لا يستطيع أن يهمل حركة عنيفة نشأت فيها أثناء القرن الثامن عشر فلفتت إليها انتباه العالم الحديث في الشرق والغرب واضطرّته أن يهتم بأمرها وأحدثت فيه آثارًا خطيرة هانَ شأنها بعض الشيء ولكنها عادت فاشتدت في هذه الأيام وأخذت تؤثِّر، لا في الجزيرة وحدها، بل في علاقاتها بالأمم الأوروبية أيضًا. وهذه الحركة هي حركة الوهابيين التي أحدثها محمد بن عبدالوهاب شيخ من شيوخ نجد».

قلت إن هذا المذهب جديد قديم معًا(**)، والواقع أنه جديد بالنسبة إلى المعاصرين، لكنه قديم في حقيقة الأمر، لأنه ليس إلّا الدعوة القوية إلى الدين الخالص النقيّ المطهَّر من كل شوائب الشِّرك والوثنية. هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي ﷺ، خالصة لله وحده، ملغيًا كل واسطة بين الله وبين الناس. هو إحياء للإسلام العربي، وتطهير له ممّا أصابه من نتائج الجهل، ومن نتائج الاختلاط بغير العرب. فقد أنكر محمد بن عبدالوهاب على أهل نجد ما كانوا قد اعتادوا من جاهلية في العقيدة والسيرة، كانوا يعظِّمون القبور ويتَّخذون بعض الموتى شفعاء عند الله، ويعظِّمون الأشجار والأحجار ويرون أن لها من القوة ما

(*) نظرًا إلى أهمية مقال الدكتور طه حسين فسوف أستعرض مقتطفات منه في مواضع مختلفة من الكتاب إضافة إلى نشره بالكامل في الملاحق.

(**) ولئن كنّا نختلف مع الدكتور طه حسين على وصفه الحركة الوهابية «بالمذهب» إلّا أننا نحرص على نشر ما جاء فيه دون أي تغيير أو حذف أو إضافة.

ينفع ويضرّ. وكانوا قد عادوا في سيرتهم إلى حياة العرب الجاهليين فعاشوا من الغزو والحرب، ونسوا الزكاة والصلاة وأصبح الدين اسمًا لا مسمّى له، فأراد محمد بن عبدالوهاب أن يجعل من هؤلاء الأعراب الحفاة المشركين قومًا مسلمين حقًّا على نحو ما فعل النبي ﷺ بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرنًا.

هكذا عادت الحياة القوية إلى مذهب أحمد بن حنبل الذي تبعه النجديون ونُشرت كتب ورسائل كثيرة لابن تيمية وابن القيم، واستفاد العالم العربي كله من هذه الحركة العقلية الجديدة.

أثناء هذه الحركة العنيفة ظهر حول الأمراء المجاهدين من أهل نجد جماعة من الشعراء أخذوا يفتخرون بانتصارهم في المواقع ويعتذرون عمّا يصيبهم من الهزيمة. وليس من الممكن أن يُقال إنهم جددوا الشعر وأحدثوا فيه ما لم يكن.

لكنهم على كل حال عادوا به إلى الأسلوب القديم، وأسمعونا في القرن الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة في لغة عربية فصيحة هذه النغمة العربية الحلوة التي لم تكن تُسمع من قبل. هذه النغمة التي لا يقلِّد صاحبها فيها أهل الحضر، ولا يتكلَّف فيها البديع وإنما يبعثها حرة، ويحمِّلها كلّ ما تجيش به نفسه من عزّة وطموح، إلى المثل الأعلى ورغبة قوية في إحياء المجد القديم».

إلى هنا نقف عن متابعة حديث عميد الأدب العربي، الدكتور طه حسين، ونعود لتتمّة نظرتنا في موقف سمو الأمير عبد العزيز بن سعود من البريطانيين، وعقد معاهدة بينهما. فمن أسبابها ومسبِّباتها الآتي:

أولًا: لقد تحقق للأمير عبد العزيز أن البريطانيين يأخذون اتفاقاتهم مأخذ الجدّ، سواء مع الأمم الأوروبية أو مع غيرها من الأمم الأخرى، فلا خوف على ابن سعود منهم، فلا يلحقون به ضررًا، أو ينقضون ما أبرموه معه من الاتفاقيات، وفي الوقت نفسه كانوا على أبواب حربٍ مع الألمان والأتراك.

ثانيًا: لم يكن في بنود هذه المعاهدة شيء يحذَر منه الأمير عبد العزيز أو يخافه، فلقد كان في هذه المعاهدة هو الرابح المستفيد.

لقد ازداد نفوذ الأمير عبد العزيز في أوساط القبائل العربية، وقويت شوكته،

وامتثل سكان البادية لأوامره، وتحقَّقت بعض طموحاته بعد توقيعه على هذه المعاهدة، وكان نصرًا مؤزَّرًا لكِلا الطرفين، حاكم نجد سمو الأمير عبد العزيز والبريطانيين معًا. وانقلبت موازين القوى الآن، فبعدما أخفق العثمانيون في التقرُّب من حاكم نجد عبد العزيز، ودعوته لمضايقة البريطانيين في محمياتهم على الخليج وشغلهم، والقيام بمناوشات حربية ضدهم، نجده بعد هذه المعاهدة يقتحم بجنوده أسوار مدينة الأحساء ويأسِر مَن كان فيها من أفراد حاميتها الأتراك.

كان من أنبل الأعمال التي قام بها الأمير عبد العزيز بعد دخوله الأحساء ظافرًا بعثَه بأسراه من الجنود الأتراك إلى البصرة من أعمال العراق، التي كانت لا تزال راضخة للحكم التركي، معزَّزين مكرمين، بعد أن دفع لهم رواتبهم المتأخِّرة، الأمر الذي حمل القائد التركي في البصرة، سليمان شفيق باشا، إلى تقدير هذا العمل المجيد للأمير عبد العزيز آل سعود.

كان عمل عبد العزيز فضلًا وكرمًا ونبلًا منه، وسيذكر التاريخ – الذي لم يحدثنا بعد عن هذه الأريحية – المسلك الحسن الذي سلكه الأمير مع أسراه الأتراك، بعد دخوله إلى الأحساء، حيث ترك موظفي الحكومة التركية في مراكزهم يديرون شؤون مدينتهم، وكان منهم مدير المالية المعروف باسم الأفندي، وكان الدكتور عبدالله الدملوجي ضابطًا في الجيش التركي فاستصحبه الإمام عبد العزيز معه إلى الرياض، فأخذ يدير الشؤون الخارجية تحت مراقبته شخصيًّا.

هكذا الدنيا تدور وتتقلَّب الأيام وتجمع بين المتخاصمين والمتنافرين، فبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بثماني سنوات، وقع نظري في مكة المكرمة في أوائل عام 1927م، على القائد التركي سليمان شفيق باشا، بقامته المربوعة، وبوجهه الوردي، وبياضه الناصع، وكان يفوق بياض شعره المنتشر بوجهه، قد قابلته في مجلس وزير المالية معالي الشيخ عبدالله السليمان، وكان ضيفًا محترمًا على المملكة العربية السعودية.

واصل بعد هذا المغفور له الملك عبد العزيز جهاده في سبيل توحيد الجزيرة العربية ونشبت المعارك الكبيرة الطاحنة بمآسيها وويلاتها بين عبد العزيز ومَن يقف أمامه، لصدِّه عن المُضيِّ فيما أوقف نفسه عليه، من رفع شأن العرب في جزيرتهم.

وجمع كلمتهم تحت راية مؤمنة واحدة، يسير على نهج مَن تقدَّمه من آل سعود، مقتفيًا آثارهم في اتِّباع ما أمر الله به أن يوصل، ومراعاة تعاليم الدين الإسلامي الحنيف والتمسُّك بالشريعة الإسلامية، واتِّخاذها دستورًا له، يسير حسبما أمر الله، وأخذ يجاهد في سبيل الله ويجالد من أجل عزِّ العرب والإسلام، وانضوت إلى لوائه المدن والقرى في شبه جزيرة العرب، وامتثل أمراء القبائل العربية ومشايخها لأوامره، ورأوا فيه إمامًا لها وللمسلمين لا سيما بعدما شهدوا ذلك الرجل الفذّ وقد أخذ يسترجع ما مضى من عزِّ العرب الغابر ومجدِّهم الدائر.

أنتقل بعد هذا العرض الموجز لأوضاع المغفور له الملك عبد العزيز إلى شأنٍ آخر لي فيه نصيب:

لقد كنت في حياتي كثير الأسفار والتنقُّلات، فلا أذكر منذ أن بلغت الثانية عشرة من العمر، حتى اجتزت الثمانين، أنني مكثت بشكل متواصل في مدينة واحدة أو في مكان محدَّد، أكثر من أربعة أشهر، باستثناء سنة واحدة قضيتها إلى جانب والدي المرحوم إبراهيم المحمد الرواف، أثناء إقامته في مدينة حائل، عندما كان ضيفًا على آل الرشيد. فلم أغادر حائل ليوم واحد طيلة تلك المدة.

كانت دمشق في ذاك الوقت هاجعة رابضة لا حراك بها، لقد قضى على نشاطها وحركتها الوطنية الدائمة الدائبة حاكمها العسكري القائد العام للجيوش التركية في الشرق الأوسط، جمال باشا، الذي علَّق على أعواد المشانق رجالات دمشق المطالبين باللامركزية من الحكومة العثمانية، ومنذ ذلك الحين أضيف إلى اسم جمال باشا كلمة السفاح.

اتَّصف هذا القائد العثماني بشدَّة المراس، وقوة الإرادة، وهما من الصفات الحسنة الممتازة، إذا اجتمعتا بالرجل السياسي اللبق، أو بالقائد المحنَّك رفعتاه حتى السماء.

لكن هذا القائد كان بعيدًا عن السياسة اللينة المرنة، وكثير الافتقار لدهائها وحنكتها. عظيم الغرور متغطرسًا غاية الغطرسة أرعن، وقد اكتسب ذلك من حياته العسكرية ومن البيئة المحيطة به.

عرَفَ والدي هذا القائد من خلال زميله عبدالرحمن باشا اليوسف، أحد

الأكراد الموالين للحكومة العثمانية، من مواليد دمشق، الذي تزامل مع الوالد سبعة وعشرين عامًا، أثناء قيامهما في المحافظة على الحجيج الشامي، فكان عبدالرحمن يتقدَّم الحجيج هو وستمائة جندي نظامي، ويسير والدي ورجاله المائة والخمسون من النجديين في مؤخرة الحجيج للمحافظة عليه من عربان بادية الحجاز وغيرهم، وذلك قبل إنشاء الخط الحجازي الذي قام بتبرّعات المسلمين التي قيل عندئذٍ إن معظمها جاء من مسلمي الهند.

لقد تعرَّف والدي إلى القائد العام للجيش التركي، جمال باشا، ومع مرور الأيام أحكمت العلاقة بينهما وتوثّقت علاقتهما على الرغم من الفارق الخلقي بينهما، فلقد جمعت بينهما ظروف الحاجة المتبادلة لكلٍّ منهما.

كان الحكم التركي جاثمًا بكل ثقله على رؤوس أبناء بلاد الشام، ولم يدع لهم منفذًا واحدًا يستنشقون من خلال فجواته نسمة واحدة من نسمات الحرية، فكانوا لا يرون حتى وميضًا خافتًا من أشعّتها الذهبية، وكان الكبت والظلم والاضطهاد، مخيمًا على رؤوسهم كالظلمات المدلهمة بعضها فوق بعض، الأمر الذي شلَّ حركتهم، فغدوا كالدمى لا يُرى لهم حركة ولا يُسمع لهم صوت ولا همس.

كانت المجاعة تجتاح مدن سورية وكلّ ركن من أركان قراها، والموت جاثمٌ بينهم باسطًا ذراعيه يستقبل كلّ من سقطت ورقة حياته من المجموعة السورية وخيرة شبابها يتأرجحون بأجسامهم المنهكة على أعواد المشانق، وأجبر من تبقّى من أُسرِهم على مغادرة أوطانهم إلى الأناضول في البلاد التركية، تاركين وراءهم كل ما كانوا يملكون من متاعٍ وعقار وأمل وذكريات، وفتيانهم يُساقون إلى الخدمة العسكرية كما تُساق البهائم إلى مجازرها، وكان أفراد الدّرك ورجال الشرطة يلاحقون مَن امتنع من الشبيبة العربية عن الانضمام إلى الجيش التركي، ولَكَم كان قليل الحظ مَن عثرت عليهم الشرطة من الشباب اليافع. كنت تراهم يُساقون كالأنعام، ويمشون أمام رجال الدرك والشرطة بخطى متثاقلة مضطربة كما يمشي القائد المنكسر العائد مهزومًا من جبهة الحرب، تراهم قاصري الطرف خافضي الجناح، يُساقون جبرًا وقهرًا إلى الموت.

كانت دارنا قائمة في صدر الحارة التي تُعرف بحارة أجليقين، في محلّة الحقلة المتفرعة من حيِّ الميدان، أحد أحياء دمشق، عاصمة بني أمية، وكان لهذه الحارة مدخلٌ واحد، ولدارنا شرفة كبيرة ذات أربع نوافذ تطلُّ على كلِّ داخلٍ لهذه الحارة.

وأجليقين اسم لعائلة كردية نزحت من حي الأكراد القائم تحت أقدام جبل قاسيون واستقرّت في هذا الحارة.

كان ربُّ هذه العائلة مصطفى أجليقين يحمل رتبة عسكرية ممتازة، وقد خلَّف أربعة شبان من زوجته، التي عُرفت بين أهل الحارة بانتسابها إلى قبيلة شمر من فخذ العبيد. اقترن هؤلاء الشبان الأربعة بعائلات عريقة من العائلات الدمشقية، وكانوا يسكنون جميعهم في منزل واسع، يأكلون على مائدة واحدة، ويأخذون مصروفهم اليومي هم وذرِّياتهم من والدتهم الشمرية صاحبة الإرادة والإدارة القوية.

لقد ترك لهم والدهم مصطفى أموالًا وعقارًا وبساتين ومزرعة في غوطة دمشق تُعرف بالدلبة التي كانت بنهاية الثمانينيات في آخر عهد لي بها لم تزل تُدار بواسطة أحد أحفاد مصطفى أجليقين.

كان يقطن هذه الحارة سبع عائلات من أهل القصيم وهم: الكحاما، عبد العزيز وصالح الكحيمي، والنجادا حمود وعبود النجيدي، وسالم الطويان، والأشقاء الثلاثة عبد العزيز وعبدالله وسليمان المحيسن، ونايف السليمان الصالح، ووالدي إبراهيم المحمد الرواف، وعمي محمد الأحمد الرواف، وعائلة الجميل من مدينة الرس. وكان يزاملهم في السكن عائلتان من مدينة القبيسة من أعمال العراق: رجب العرين، ودياب الشويدر.

كما كان يشاطرهم في السكن عائلة أحمد محمد عثمان وكانت له سمعته الحسنة في الأوساط الدمشقية، وقد أنجب ولدًا سماه (محمدًا)، وثلاث نسوة إحداهن والدتي، والثانية اقترنت بسعود بن سليمان الصالح، والثالثة اقترن بها أبو عبدو محمد الكوركلي من كركوك من أعمال العراق.

كانت هذه العائلات، كعائلة واحدة، يسود فيها الإخاء الإنساني، وحُسن الجوار. ومع الأسف هُدمت منازل هذه العوائل جميعها إلّا بيت واحد هو منزل

أخوالي من آل محمد عثمان، وأُنشىء مكان هذه المنازل طريق عمومي واسع، وأقيم جسر كبير يصل شرقي دمشق بغربها.

لا تزال دار أخوالي قائمة مسكونة، محافظة على خشبها المنقوش بالذهب في إحدى صالاتها الواسعة، وهو من الخشب المتين الذي لا يُفسد متانته تقلب الأيام، ومر السنين، وهذه الأخشاب محلّاة بنقوش مزركشة وتُعدُّ من الآثار القيّمة، فالنقوش تغطي الجدران الأربعة من السقف ولقد دُفع لعائلة عثمان (400 جنيه) ذهبي مقابل هذه النقوش فأبوا إلّا حفظها في هذا المحل، وهي محفوظة بزخرفتها الأنيقة المزركشة وألوانها الذهبية الفاخرة، تحكي خبر أعمال صنّاع مدينة دمشق وشطارتهم.

نشأت في هذه الحارة بين هذه العائلات المحترمة، وقضيتُ وقت الصبا والشباب في أزقتها، ولا يزال عالقًا بنظري صورة ذاك الشيخ الوقور عبدالكريم السناني، من مدينة عنيزة، وهو زائر لهذه العوائل، وبرغم ما أصاب تجارته من الخسائر المتتابعة لبعض السنين، بقي محافظًا على ابتسامته العذبة، وكأني أراه الآن يسير بخطى وئيدة ثابتة عالي الرأس، يرتدي الملابس الأنيقة الجميلة الزاهية، يتوكّأ على عصاه مارًّا بمنازل هذه العائلات، ينتقل من زيارة عائلة إلى غيرها، وكان والدي إبراهيم المحمد الرواف، والعمّ محمد الأحمد الرواف يبادلانه الزيارات. فرحم الله الجميع.

كان سوق الجِمال في دمشق يسمى (الزفتية) وكان يؤمُّ هذا السوق تجّار العقيلات لبيع إبلهم أو لشراء الإبل، وكان حي الميدان قريبًا من الزفتية، وفي هذا الحي قهاوي عقيل ومنها قهوة عائلة الطميغا من مدينة عنيزة، كان يؤمها التجار ويتداولون الأحاديث عن تجارتهم، وعن أسواق فلسطين والقطر المصري، وقد رزق الله صاحب هذه القهوة ذرية صالحة، عُرِف عنهم حسن المعاملة والصدق في تجارتهم. ومن غريب الصدف أنني كنت وقرينتي الأميركية الأولى نأخذ غداءنا في أحد مطاعم وادي الربوة، وهو متنزه جميل على ضفتيه سبعة أنهر يجري ماؤها، فتُسقي مزارع دمشق وقد أتى على ذكر ربوة الوادي أمير الشعراء شوقي، فوصفها بقوله:

وربوة الوادي في جلباب راقصة ... الساق كاسية والنحر عريان

والحور في دُمَّر أو حول هامتها ... حور كواشف عن ساق وولدان

عند انتهائنا من الطعام، توجهنا لدفع الثمن، فقيل لنا: إن ذاك الرجل الجالس مع رفيقه قد دفع الثمن، فالتفتُّ إليه، وكان متوجهًا نحونا وسلم قائلًا: إني أحد أبناء الطميغا، صاحب قهوة العقيلات، فشكرته وقدَّرت ضيافته.

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، كانت دارنا تضم نفرًا من الشباب المتخلفين عن الانضمام إلى الجيش التركي، وأخذت الجندرمة تقوم بتفتيش المنازل، عساها تعثر على الأفراد المتخلفين، وكانت دارنا بعيدة كل البعد عن الشبهات، أليست هي دار الشيخ إبراهيم الرواف، الملتزم للجيش التركي بتقديم الجمال التي تحمل المؤن والذخائر للجيش المزمع توجّهه إلى قناة السويس لمحاربة البريطانيين؟ وله صلة قوية مع القائد العام للجيوش التركية، جمال باشا، وزميل عبدالرحمن باشا اليوسف في سفراته لبيت الله الحرام للمحافظة على الحجاج من أهل البادية.

بهذه الكلمات كان يتحدَّث عمدة الحارة مع الجندرمة والشرطة ليمتنعوا عن تفتيش دارنا، وقد احتضنت هذه الدار أيضًا، فيما بعد، عددًا كبيرًا من الثوار أثناء الثورة الدرزية عام 1342هـ - 1924م التي قام بها سلطان باشا الأطرش، ضد الفرنسيين عند محاولتهم هضم حقوق الدروز وهدر كرامتهم، واشتعلت هذه الثورة مدة سنة كاملة، انضم إليها رجالات القرى والمدن السورية، وذكر أمير الشعراء الجماعة الدرزية في مرثاته لدمشق عندما ضربت بمدافع الفرنسيين، وأتت على الأحياء الأرستقراطية في درّة الشرق دمشق، فقال:

وما كان الدروز قبيل شر ... وإن أخذوا بما لا يستحق

ولكن زاده وقُراة ضيف ... كينبوع الحصى خشنوا ورقوا

لهم جبل أشم له شعاب ... فكل جهاته كرم وخلق

كان يقطن أيضًا مدينة دمشق عائلات كثيرة من النجديين العقيلات، منهم البسام، والرميح، والعصيمي، وعبدالله الحليسي، التاجر المحترم صاحب المواقف

الجليلة في الكرم، والعباس، ونفر من آل الشبل، والربدي، ومن أبناء العقيلات في دمشق من أصبح من التجار المرموقين، مثل أبناء محمد العصيمي وحمد القاضي والمنيف وولد شقيقتي خالد محمود الكحيمي وغيرهم، ومنهم من اعتلى الوظائف الدبلوماسية والحكومية، فلقد تقلَّد أشقائي محمد عيد، وياسين الرواف منصبَي قنصل معتمد المملكة العربية السعودية في سورية ولبنان أثناء الانتداب الفرنسي وقد اعتلى محمد عيد منصب وزير مفوض في بغداد أثناء الحكم الهاشمي ومنصب قائم مقام جدة، في حين عيِّن ياسين حاكمًا إداريًا للمدينة ومعاونًا للأمير فيصل، عندما كان نائب والده الملك عبد العزيز في الحجاز وكذلك الشيخ عبد العزيز الكحيمي رحمه الله سفير المملكة سابقًا في الأردن ولبنان والعراق، وابن شقيقتي الشيخ أحمد محمود الكحيمي الذي يعمل حاليًا سفير حكومة خادم الحرمين الشريفين في لبنان والذي عمل في الأردن والعراق وسوريا سفيرًا للمملكة العربية السعودية.

من أبناء عقيلات دمشق أيضًا السفير السعودي المتقاعد، رواف محمد الرواف، رحمه الله، وشقيقه عبد العزيز الرواف الذي كان يعمل في وزارة الدفاع في الرياض، وولد شقيقي محمد عيد، رياض الرواف القائم بأعمال السفارة السعودية في دمشق. وفي الرياض أيضًا يعمل في التجارة في الوقت الحاضر أولاد شقيقي ياسين، إبراهيم ومأمون وحسان الرواف أشقاء الدكتور عثمان الرواف الذي يعمل في الوقت الحاضر أستاذًا في العلوم السياسية بكلية العلوم الإدارية بجامعة الملك سعود بالرياض. ولقد عمل في الكلية نفسها في السابق أستاذ القانون الدكتور صالح الكحيمي ولد السفير عبد العزيز، رحمه الله، وشقيقه الدكتور رشيد، مدير الخدمات الطبية ورئيس قسم الجراحة بالمستشفى العسكري بالرياض. وشقيقهم إبراهيم يعمل بوزارة الخارجية السعودية ورابعهم سليمان يدير أعماله التجارية.

الجدير بالذكر أيضًا أن الأخ ماجد الشبل، المذيع المعروف في إذاعة وتلفزيون المملكة، ينحدر من عائلة الشبل النجدية التي كانت مقيمة في دمشق. ومن تجّار العقيلات الذين تردّدوا على دمشق دون أن يستقرّوا بها، سليمان العبد الله الرواف، وسليمان محمد الرواف الذي أصبح ولده محمد مديرًا لمطار بيشة، وعقل الناصر الرواف، الذي أصبح ولده عبدالرحمن بن عقل الرواف من كبار

ضباط البحرية السعودية، ومن أولاد عمومتي الذين زاروا دمشق في مرحلة متأخرة، أذكر منهم الشيخ محمد الرواف أمير مدينة عرقة.

من سكان عرقة الشيخ عبدالرحمن الرواف أبو حمد، رحمه الله، وكان من أوائل أعوان المغفور له مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز في أوائل حكمه تغمَّده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته، ولم يزل ولداه محمد وعبدالله الرواف وثانيهما نائب أمير عرقة يقيمان في مزرعتهما مع أبنائهما الذين يعملون في الدوائر الحكومية في الرياض. ومن أبناء عمومتي أيضًا ناصر الرواف، رحمه الله، الذي عمل في السابق بإدارة شؤون البادية في وزارة الداخلية.

أستميح القارىء عذرًا إذا أطلت عليه استعراض أفراد أسرتي، ولكن عاطفة القربى أثّرت على قلمي أثناء ذكري للعقيلات.

من المفيد أن أذكر أن كثيرًا من الأسر النجدية كانت تقطن القطر المصري، ومنهم الشيخ فوزان السابق، الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية في القاهرة وأخوه عبد العزيز، وكذلك حمد المديفر، وعبد العزيز الحجيلان وعبد العزيز الجاسر ولهؤلاء خيول عربية في إسطبلات خاصة. ومن العقيلات في عمّان عائلة الجمعان والمنيف من القصيم.

أعود مجددًا إلى متابعة حديثي عن جمال باشا السفاح وأعماله:

كان ما يشغل بال القائد التركي ويأخذ قسمًا كبيرًا من وقته، هو: تهيئة الجيش التركي المزمع إرساله نحو مصر وزحفه على قناة السويس، لقتال البريطانيين وإجلائهم عن أرض الكنانة، وكان لا بد لهذا الجيش من اجتياز رمال غزة ورفح والعريش، الكثيفة والسير عبر مسالكها وطرقها الوعرة، ولمّا لم تكُن أدوات النقل متوفِّرة في ذاك الزمن، كما هي الآن، لم يكن أمام الجيش التركي من أدوات النقل سوى الجمال والخيل والبغال، فهي وحدها التي كان يمكنها نقل المعدّات الحربية الثقيلة والذخائر المختلفة والمواد الغذائية.

استدعى القائد التركي بعضًا من التجّار الدمشقيين إضافة إلى الوالد الذي التزم بتوفير ثلاثة آلاف جمل، وألف من أشدتها، والتزم بقية التجار بتأمين الآلاف من الإبل لتوضع تحت تصرُّف الجيش المزمع إرساله للزحف نحو قناة السويس.

ولم يتمكن التجار من الوفاء بجميع التزاماتهم من الإبل ومنهم الوالد، إذ وعدت الحكومة التركية أن تدفع للتجار بالليرات الذهبية ثمن ما يقدِّمونه من الإبل، ثم ما لبثت أن استبدلتها بالليرات الورقة التركية وكانت تنقص أربعين في المائة عن قيمة الليرة الذهبية، وهكذا امتنعت القبائل العربية عن بيع جمالها، فما كان من القائد التركي إلّا أن استدعى التجار ووضعهم في السجن، الواحد تلو الآخر، إلّا الوالد الذي رافق الوفد الذي أرسله جمال باشا إلى الحجاز برئاسة عبدالرحمن باشا اليوسف للاجتماع بالشريف حسين، الحاكم الإداري لمكة المكرمة، للتفاوض معه بشأن الحرب التي يوشك أن يتطاير شرَرها، ولم يوفَّق الوفد في مقابلة الشريف حسين، وعاد أدراجه إلى دمشق، بعد وصوله لمدينة الرسول محمد ﷺ.

أقام عبدالرحمن باشا اليوسف حفلًا في منزله دعا إليه كبار رجالات الجيش التركي، ودعا أيضًا بعض كبار الأجانب المقيمين في دمشق، وكان من بينهم آنسة بريطانية تُدعى (الآنسة بيل)، وكانت موفدة لجريدة الأخبار اللندنية، لدراسة معالم الشرق والوقوف على آثاره، وكانت مغرمة بحب الآثار، والوقوف على معالم البلدان العربية، والكتابة عنها، وخاصة آثار العراق ومعالمه، وطلبت أثناء الحفل من عبدالرحمن اليوسف المساعدة للوصول إلى العراق، وعرَّفها صاحب الحفل على والدي إبراهيم الرواف الذي كان بين المدعوين لهذا الحفل، وكان ذلك في أوائل فصل الصيف وكان تجّار العقيلات الذين يطرقون الطريق إلى بغداد، لم يمارسوا السفر في هذا الفصل لانشغالهم لدى القبائل العربية لشراء الإبل منها، والتوجه بها إلى دمشق، وفلسطين والقطر المصري، وأرسل الوالد معها شقيقه العم عمر المحمد الرواف واثنين من رفاقه، كان أحدهما رجلًا ممشوق القامة حسن الوجه سريع الحركة واسمه أبو الروق، فأوصلوها إلى بغداد، ولم تتّصل بوالدي ولم يرها طيلة سنين عديدة إلى أن حدث أن قابلها فيما بعد في الكويت وعلم أنها موظفة كبيرة في استخبارات الجيش البريطاني.

لم يشكّ الوالد يومها في أمرها، ولم يرتب بمقاصد ذهابها لبغداد ظنًّا منه أنها كانت تصدُقه القول، وأنه ليس لها أيّ مهمة أخرى في بغداد، ولم تداعب أفكاره التصوّرات أو يخطر بباله، أن هذه الآنسة سيكون لها شأن يذكر، وكان يعتقد أن

القصد من وراء زيارتها لبغداد الاطِّلاع فقط على آثارها ومعالمها، كما أخبرته، فلم يطرق ذهنه أن القصد من وراء تنقلها في الأمصار العربية هو سبر غورها، والاجتماع بزعمائها، والوقوف بنفسها على كل ما خفي من أمور ساكنيها، للاطلاع على ما كانت تكنه نفوسهم، وما اختلج في خواطرهم عن السلطان المقيم في إسطنبول الذي يحكم بقايا إمبراطورية مترامية الأطراف التي أصبحت تُعرف بالرجل المريض والتي سيخوض البريطانيون معها حربًا شعواء لا هوادة فيها.

لقد بعد عن تفكير والدي، ولم يخطر ببال أحد في ذلك الوقت أنّ النساء يقمن بمثل هذه الأعمال الغامضة للسياسة البريطانية.

أعود للحديث عن جمال باشا، الذي ازدادت همومه ومشاكله السياسية، فلقد كانت أفكاره مشوشة متداخلة، وحواسه مضطربة، وكان ممّا يشغله موقف شيخ قبيلة الرولة صاحب النفوذ القوي بين القبائل السورية، فقد كانت قبيلته أكثر القبائل عددًا وعدة، وأشد بأسًا، وأقواها شكيمة، وأطوعها انقيادًا لشيخها النوري بن شعلان، وولده الأمير نواف، الذي خلَّف ولدين، أكبرهما الأمير فواز الشعلان.

لم يرتح القائد التركي جمال باشا لتنقلات النوري المريبة بين القبائل العربية وقد سبق لهذا القائد جمال أن ألقى القبض على النوري بن شعلان، وأودعه السجن في دمشق لبضعة أيام، فثارت قبيلته، واستشاط ولده الأمير نواف غضبًا، فخاف القائد من مغبّة عمله، لا سيما بعدما هدَّد ولده الحكومة العثمانية، فأطلق سراحه.

في الصباح الباكر لأحد الأيام استدعى القائد التركي والدي وبادره بقوله: إنك يا شيخ إبراهيم من المخلصين لهذه الدولة (يعني الحكومة العثمانية) لقد خدمتها أكثر من ربع قرن، كما خدمها قبلك والدك بضع سنوات، وإني على يقين من إخلاصك لها، ولولا ثقتي بك، وتقديري لخدماتك لها لما استدعيتك في هذا الصباح الباكر، وإني أصارحك القول إنني غير واثق بهذا البدوي، ولا بتنقلاته المريبة بين القبائل، وقد علمت أخيرًا بالصداقة المتينة بينك وبين هذا الشيخ وولده نواف، وأرغب أن تذهب إلى مضارب ابن شعلان، وتشتري بعض الإبل من قبيلته ثم تدعوه وولده نوافًا لزيارتك في دمشق، فإذا وفِّقت بإحضارهما إلى دمشق سأغض الطرف عمّا تبقّى عليك من التزامك للإبل، ووعد والدي بأمور أخرى،

احتفظ بها الوالد في نفسه، وبقيت مكتومة في صدره إلى أن قضى نحبه، ولم يفصح عنها، رحمه الله.

بهذا فاتح جمال باشا السفاح والدي، وتحدَّث إليه وهو يعبث بشعيرات لحيته السوداء التي كانت تملأ أقسام وجهه ثم نهض من مقعده، وأخذ يسير ذهابًا وإيابًا ويترنّح بقامته المربوعة وعيناه لا تستقرّان بمكان، فيخيَّل للناظر إليه أنه يفتِّش عن شيء فقده.

تردَّدت في هذه اللحظة الحرجة المثيرة في ذهن والدي أفكار كثيرة واستعرض صورًا سريعة ومرّت أمامه أشياء مختلفة (كما تمرُّ الصور المتحرِّكة على الشاشة البيضاء) تحمل معها هموم الدنيا في فظاعة الإنسان خسَّة نفسه وأخذ يردِّد بينه وبين نفسه قائلًا: إن القبائل امتنعت عن بيع ماشيتها، إلّا إذا دفع ثمنها بالعملة الذهبية، وتوقّف التجّار أيضًا عن شراء الإبل للسبب نفسه، وأخذ القائد العام يودعهم السجن واحدًا بعد الآخر، وخشيَ الوالد أن يحدث له ما حدث لهؤلاء التجار من زملائه إذا لم يتظاهر بالموافقة على رغبة جمال باشا وقرَّر الوالد، رحمه الله، بسرعة أن يبيِّن للقائد جمال موافقته على القيام بما أمر به، وهنا قطَعَ القائد على والدي تفكيره بقوله: ماذا تقول يا شيخ إبراهيم وبمَ كنت تفكِّر؟ ألم تستحسن هذا الأمر أم أنك لن تتمكن من القيام به؟

فأجابه: نعم أيها القائد، إنها لفكرة صائبة، ونظرة وقّادة رائعة، وإنك لعظيم أيها القائد الملهم، إن أفكاري سبقتني إلى مضارب ابن شعلان، لقد كنت أفكر في كيفية إنجازها، وبالخطّة التي سأتبعها، وسأقوم بقضائها خير قيام، وأكون عند حسن ظنِّك، وسأترك دمشق في القريب العاجل إن شاء الله.

كان لكلمات الوالد في نفس القائد وقعها الحسن، فأشرقت أسارير وجهه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة النصر والظفر، وقبل أن يغادر والدي غرفته، ناوله بدرة من المال، قائلًا: خذ هذه المنحة لتستعين بما فيها على سفرك يا شيخ إبراهيم، فتناولها والدي بكلتا يديه المضطربتين، ثم شكره وانصرف، ولكن في الحقيقة كيف ودَّعه، وبأيِّ صورة ترك مجلسه، إنه لم ينتبه لذلك، فكان مضطربًا فكريًّا ونفسيًّا من الصدمة القاسية التي بادره بها هذا القائد.

لقد كان موقف والدي حرجًا جدًّا للصداقة المتينة القديمة العهد التي تربط بينه وبين ابن شعلان، وكان الوالد واثقًا من تلبية الشيخ لدعوته، ولم يخامره شك في ذلك، وكانت الهواجس والأفكار الطيبة منها والخبيثة تتردَّد في مخيلته، سائلًا نفسه: أأُذعن لرغبة القائد، خوفًا منه أو طمعًا في مغرياته ضاربًا عرض الحائط بالصداقة المتينة بيني وبين الشيخ النوري وولده الأمير نواف. أم كيف أتعدّى العُرف وأتخطى حواجزه؟ لا تربطني بهذا القائد غير رابطة العقيدة التي يتظاهر بها وأنا أمتُّ لهذا الشيخ بروابط متينة محكمة، إنها اللغة والوطن والتراث والعقيدة، والدم العربي والأصل المشترك والصداقة.

أين أكون من تأنيب ضميري الذي سيلازمني طيلة حياتي وفي غدوي ورواحي، وفي كل مكان أتركه أو أقيم به، إذا حقّقت رغبة القائد التركي الخبيثة الشرسة؟ لم يقترف هذا الشيخ ما يُستنكر، حتى أقدِّمه لقمة سائغة لهذا القائد الطائش.

كان هذا كله، بل أكثر منه يختلج في صدر والدي، كما فهمت منه، وقد فكَّر قليلًا ثم استخار الله، وقرَّر أن يترك دمشق ويغادرها دون رجعة إليها، ما دام الحكم التركي جاثمًا في ربوعها رابضًا على ظهور أهلها.

كان قرار والدي هذا قاسيًا جدًّا، فالبُعد عن مركز تجارته وفراق الأهل، ليس بالأمر الهين، ولا بالسهل أبدًا، لقد هانت على الوالد، رحمه الله، هذه الأمور كلها في سبيل الحفاظ على صداقة الشيخ ابن شعلان وولده نواف وعدم الغدر بهما.

حال دون مغادرة والدي لدمشق بالسرعة المطلوبة، شريكه السيد خليل السمان، وكان واحدًا من تجار دمشق الأخيار، فقد كان طريح الفراش، وقضى العرف واستلزم الشرف والمروءة ألّا يدع هذا الرجل الطيب فريسة للقائد التركي المتمرِّد الشرس. وقضى الله وقضاؤه الخير، حيث لم تمْضِ إلّا أيام قلائل حتى انتقل السيد السمان إلى لقاء الله عزّ وجل، وكان والدي على معرفة بأحوال عائلة السمان من الوجهة المالية، فأخبر السيد رشدي ولد خليل السمان بما عزم عليه من مغادرة دمشق دون رجعة، ما دام الحكم التركي جاثمًا عليها، ثم نصحه بأن يغادر دمشق هو الآخر.

ترك الوالد مدينة دمشق بعد سبعة أيام من مقابلة القائد التركي، متوجهًا إلى البادية، حيث مضارب النوري بن شعلان، فاستُقبل استقبالًا طيبًا من قبل صديقه النوري، وأسرَّ الليلة التي قدم في نهارها للشيخ بما كان يضمره القائد التركي في دمشق من الغدر به والمكر له ولولده نواف. قائلًا له: لقد هجرت دمشق لهذا السبب، فخُذْ حذرك من هذا القائد الطائش، فشكره النوري وقدَّر عمله حق قدره.

أقام والدي خمسة أيام يتمتع بما يغدقه عليه ابن شعلان من كرم الضيافة، ومرّت قافلة التجّار العقيلات متوجِّهة إلى العراق وكانت القافلة برئاسة العمّ محمد الأحمد الرواف، فواكبها الوالد ورجاله الأربعة إلى أن حطّت رحالها في بلدة الرزازة، من أعمال العراق، وكانت تابعة للشيخ فهد بن هذال، شيخ قبيلة عنزة، وكانت قبيلة عنزة في أوج عزها لكثرة خيراتها من المواشي والإبل والخيل والغنم، وبما كان يلقيه على أفراد هذه القبيلة الضابط البريطاني (المستر لثمن) من الذهب.

غادر الوالد ورفاقه الرزازة متوجِّهًا إلى الكويت، وكانت إمارة الكويت وقتئذٍ تحت الحماية البريطانية، شأنها في ذلك شأن الإمارات التسع، القائمة على الخليج العربي، وكانت تُعرف بالمحميات البريطانية التسع. ورافقه في سفره هذا رجل يُدعى حسين كاشي من شيعة العراق، وأحد العملاء البريطانيين المرابطين في البصرة وضواحيها، وقد عهد إليه بمرافقة والدي ورفاقه الأربعة الشيخ فهد بن هذال، الذي كان على اتّصال دائم بالقيادة البريطانية المرابطة بمكان يُدعى (العشار) بين البصرة وبغداد. وكان ذلك أثناء توجّه البريطانيين إلى بغداد لاحتلالها.

عند وصول الوالد ورفاقه بلدة الكويت، أنزله أميرها الشيخ جابر الصباح في ضيافته، وفي صباح اليوم الثاني استدعى الشيخ جابر والدي، وتحدثا معًا برهة من الزمن عن الوضع الراهن في سورية وبقية البلدان العربية، وفي أثناء حديثهما وجّه الشيخ جابر سؤالًا لوالدي قائلًا: ما الذي حدا بك لزيارتنا في هذه الأيام الحرجة؟

أخبره الوالد عن سبب حضوره وبما كان يضمره القائد التركي، جمال باشا، لرئيس عشائر الرولة النوري بن شعلان، غير أن الشيخ جابرًا كان قلقًا وخائفًا من احتمال الأذى الذي قد ينال الوالد من البريطانيين، وكان يلاحَظ على الشيخ جابر القلق أثناء حديثهما، وحاول الشيخ جابر أن يغطي قلقه بكلمات الترحيب، لكن

تلاشت كلماته الطيبة وترحابه الحار، أمام قلقه، وكان ممّا قاله للوالد: «إن آل الصباح، وسكان الكويت يرحّبون بقدومكم، ولكن الإنجليز في ظروفهم الحاضرة كما ترى، مقيِّدون أيدينا وشالون حركتنا، وخازموننا من أنوفنا» (ووضع سبابة يده على أنفه) قائلًا: وكما تعلم أن الحرب بين الإنجليز والترك في أوج معمعتها، وقد أسرَّ لي القنصل البريطاني عندما أخبرته بقدومك، بقوله: لدينا أخبار عنه، إنه يساعد الأتراك أعداءنا، فأجابه الوالد، سأشرح للبريطانيين سبب قدومي، وأخبرهم أنني بطريقي إلى نجد وسوف لا تذكر بسوء أيها الأمير إذا أراد البريطانيون مضرّتي أو أصابني مكروه منهم، والناس تعرف حق المعرفة أن ليس لك من الأمر شيء، وسأغادر الكويت بعد غد إن شاء الله، فأجابه الشيخ جابر بقوله: هذا إذا لم يحتفظ بك الإنجليز كرهينة، أو كجاسوس تركي، ثم سكتا هنيهة، فاستأذن والدي الشيخ جابر لأخذ راحته وودّعه ثم انصرف.

في مساء اليوم نفسه، استدعى القنصل البريطاني والدي وتحدثا حديثًا عاديًا لا يُشتَم منه أي نفور أو قلق من زيارته للكويت. وقال له القنصل إن القائد العام البريطاني السيد برسي كوكس يرغب في مقابلتك، وفي الصباح الباكر غدًا ستنقلك باخرة حربية للبصرة للاجتماع بالقائد العام.

رافق والدي على الباخرة حسين كاشي، وفهم منه الوالد، أن البريطانيين مهتمون براحته وقال له: لقد طلبوا من والد زوجتي السيد عويد ليهيىء لك مكانًا مريحًا لائقًا في داره بالبصرة، لئلا تشعر بضيق أو ملل أثناء زيارتك.

رست الباخرة في ميناء البصرة، وكان السيد عويد مع نفرٍ من البريطانيين بانتظار الوالد، فصافحهم واحدًا واحدًا ثم توجّه هو والسيد عويد إلى داره.

أثنى والدي فيما بعد ثناء عاطرًا على الحاج السيد عويد ووصفه بقوله: كان في أوائل العقد الخامس، طلِق اللسان، سلس الحديث، ذا عقيدة إسلامية متينة، يستشهد أثناء حديثه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة، وكأنه يقرأ في كتاب، وقد تمتّع بنفوذ كبير في قومه، وحاول البريطانيون أن يكسبوا عطفه وصداقته ليُدنوه من حظيرتهم، فلم يفلحوا، لأنه كان يعتبرهم دخلاء على بلده، وقد تخلّى عن ولده شكري عندما عيّنه البريطانيون رئيسًا للشرطة في البصرة، فلم

يجتمع بولده شكري ولم يسمح له بزيارته طيلة أيام الاحتلال البريطاني للعراق.
ولم يكتم السيد عويد نفوره من نسيبه، حسين كاشي، زوج ابنته، وكان دومًا يؤنّبه أمام الناس ويناديه بقوله: يا عميل الإنجليز، اغرب عن وجهي، غير أن حسين كاشي لم يُصْغِ لتأنيب ختنه، وبقي يتردّد على منزله أثناء زياراته المتكررة للبصرة، وفي مساء اليوم الذي قَدِم فيه الوالد إلى البصرة استدعاه القائد العام للجيوش البريطانية السيد برسي كوكس وبعد الترحيب والمجاملة، فاجأ القائد البريطاني والدي بعدة أسئلة هذا بعضها:

ألم تجتمع بالقائد العام التركي في سوريا، منذ شهرين وبضعة أيام، وعلى انفراد؟ ألم تكن من المتعهدين بآلاف الإبل لتنقل معونات الجيش التركي أثناء زحفه نحو القناة؟ ألم تكن من أعضاء الوفد الذي أرسله القائد التركي جمال باشا إلى الحجاز، وكان يرأسه عبدالرحمن باشا اليوسف للاجتماع بأمير مكة الحسين بن علي وولده فيصل؟ ألم يُسجن زملاؤك التجار، وبقيت أنت حرًّا طليقًا؟

أجاب والدي القائد البريطاني بكل هدوء كعادته، ودون انزعاج أو اضطراب أو تلعثم وردَّ على كل جملة قالها بكلمة نعم. وهنا احمرّ وجه القائد البريطاني، وأبدى انزعاجه لإجابة والدي بهذه الكيفية، وغيَّر لهجته الرقيقة التي قابل بها الوالد، ثم نطق بصوت عالٍ مزعج، وضرب بيده على طاولة كانت أمامه، إذا كنت تعترف بكل هذا ففيمَ كنت تفكر أن نقابلك به؟

أفلا نكون على حق إن شككنا بقدومك، واعتبرناك جاسوسًا تركيًا؟ فأجابه الوالد: رفقًا أيها القائد، إنني لم أكن جاسوسًا، ولم آتِ لزيارة الكويت بطريقي إلى نجد لالتقاط الأخبار، ثم حدَّثه عن الأسباب التي خرج لأجلها من دمشق شارحًا له الظروف القاسية التي مرَّ بها.

سكت القائد البريطاني قليلًا، وأطرق رأسه، ثم رفعه، وكأنه وثِق بما قاله الوالد وعاد وخاطبه بلطف وهدوء، ثم سأله عن المدّة التي قضاها بسفره من دمشق إلى الكويت وعن ساكني الصحراء التي مرّ بها، وعن فهد بن هذال شيخ عنزة.
وقبل أن يغادر والدي مجلس القائد البريطاني، قال له: غدًا ستقابلك الآنسة (بيل) رئيسة القسم السياسي، ألا تذكرها؟ لقد تعرفت عليها في دمشق منذ خمسة أعوام

في الحفل الذي أقامه في منزله عبدالرحمن باشا اليوسف على شرف ضباط الجيش التركي، وقد طلبَت منك مساعدتها للذهاب إلى بغداد ولبَّيت طلبها، ألا تذكرها؟
فقال الوالد نعم، لقد تذكّرتها، وكأنها أمامي الآن بفستانها الحريري المشجَّر، وسوارها الفضّي، لقد رجتني أن أهيىء لها السفر إلى بغداد لتدرس معالمها وتطّلع على آثارها، وإني لسعيد بلقياها، ثم ودّعه عائدًا إلى دار السيد عويد، منشرح الصدر، مطمئن القلب، ناعم البال بعد الخوف الذي أصابه إبان وصوله إلى الكويت. ولم تصطبر الآنسة (بيل) لليوم الثاني لتجتمع بالوالد، بل بادرت فأرسلت إليه بسيارتها وترجمانها الهندي. ففي عصر ذاك اليوم استقبلت الآنسة (بيل) والدي استقبالًا حارًا، وكانت - كما أخبرني الوالد - يدها اليمنى بيده تصافحه ويدها الثانية تربت بها على كتفه، وكأنما اجتمعت به مرارًا، وزالت الكلفة بينهما، وبادرت الوالد بقولها: ها هي الأيام تجمع بيننا مرة ثانية يا شيخ إبراهيم، وإني لسعيدة بلقائك وكم تمنّيت أن أجتمع بك قبل هذا، لأعبِّر لك عمّا يكنّه ضميري لك من الإخلاص والولاء والشكر على حسن صنيعك معي فيما مضى من الأيام، تابعت حديثها بلهفة زائدة، ودون أن تترك للوالد مجالًا للتحدث معها، أو مجاراتها بما تبديه قائلة:

هناك أمر من الأهمية بمكان لدى دائرة الاستخبارات البريطانية ستكلِّفك بالقيام به، وليس هو بالصعب عليك القيام به، إنك وجيه في قومك، ومن عائلة محترمة معروفة عند أهل الحضر والبادية، إن القلم السياسي في دائرة الاستخبارات البريطانية خصّصت الملايين من الجنيهات لتنفقه في هذا السبيل، وحتى الآن لم تظفر بالرجل الكُفْء ليقوم به، وقد تحدَّثت مع القائد العام السيد بيرسي كوكس في هذا الموضوع ورشَّحتك للقيام به، وقد أخذت موافقته على ذلك، وكلّ ما يُطلب منك هو أن تجمع خمسمائة رجل من بلدتك بريدة، ومن القصيم، أو من أهل البادية لتشغلوا ابن الرشيد المرابط في الحجر بإحدى محطات سكة حديد الخط الحجازي وتضغطوا عليه حتى يعود إلى بلدته حائل. وستقدِّم لك الحكومة البريطانية ما تحتاج إليه من الأموال والأرزاق والأسلحة.

إذا كان هذا يفيدك، فأخبرني غدًا لأهيِّىء اجتماعك بالقائد العام وبدائرة

الاستخبارات للتداول بينكم، وتطلب ما تريده في إنجاز مهمتك، أليس هذا بالأمر الهين عليك، فما رأيك؟ ولم يصطبر الوالد إلى الغد، بل شكرها على حسن ظنِّها وثقتها واعتذر عن أداء المهمة بسبب انشغاله بالتجارة، فأردفت قائلة:

إننا في معركة وفي حرب ضروس، ستغيِّر خارطة العالم، وتتطلب منّا الإسراع بالقيام بمثل هذه الأمور، ثم سكتت قليلًا وأردفت قائلة: أنت الآن تَعِب وسنتابع حديثنا غدًا إن شاء الله.

بعد ساعة من ذهاب والدي، عاد إليه مترجمها الهندي المسلم، وأبدى لوالدي نصائحه ليوافق على ما عرضته عليه الآنسة (بيل) قائلًا له: إنه من الصعب عليك رفض ما عرضته عليك الآنسة (بيل)، إن البريطانيين في حرب مع الأتراك وحلفائهم من الألمان، وإنك متّهم لديهم بالجاسوسية لحساب الأتراك، أعداء البريطانيين، ولولا معارضة الآنسة (بيل) لقلم الاستخبارات، ووقوفها بوجوههم، وإزالة ما علق بأذهانهم من أنك جاسوس تركي، لكُنت الآن وكأنك لم تكن.

بهذا التعبير، وبهذا اللفظ، بهذا التهديد، والإنذار خاطب المترجم الهندي والدي وقبل أن يغادر المترجم منزل والدي قال له: إننا مسلمون، ونصيحتي لك هي نصيحة المسلم لأخيه المسلم، فاتبَع ما أبدته لك الآنسة (بيل)، ولم يستحسن الوالد إنذار المسلم الهندي، فصمّم على عدم تلبية مطلب الآنسة (بيل)، وفي اجتماعه معها قدَّم لها كثيرًا من الأعذار لعدم تلبيته لرغبتها، فقالت له: إنك لصديق عزيز ولن أنسى معروفك لي من قبل ومن الصعب عليَّ أن أتخلى عن مساعدتك، وأتركك فريسة عنادك بين يدي رجال الاستخبارات البريطانية، وأعود وأكرِّر قولي: إننا في حرب مع الأتراك والألمان حلفائهم وقد سبق أن وصمك رجال الاستخبارات البريطانية بأنك من أتباع أعدائهم الأتراك، فوقفت أمامهم وأزلت من أفكارهم السيئة ما وصموك به، فتجنُّبًا للقيل والقال، ورفعًا للشبهات عنك أرى أن تلتزم بتقديم عشرين ألف رأس من الغنم للجيش البريطاني، وهكذا كان، وعند انتهاء الوالد من تقديم ما تعهّد به والتزم بتقديمه للجيش البريطاني، خصَّص له ولمن معه منزلًا في مدينة الزبير، تحت مراقبة البريطانيين، مع مائة وخمسين جنيهًا تُرسل إليه شهريًا. وبقيت الآنسة (بيل) صديقة للوالد طيلة حياتها، أي إلى أن توفيت عام 1344هـ - 1926م، في مدينة بغداد.

مدينة الزبير إحدى المدن العراقية، لا يفصلها عن مدن نجد سوى صحراء واسعة وكان يقطن هذه المدينة عدد كبير من العائلات النجدية المعروفة، ومنهم الزامل، والبسام، وأبا الخيل، وآل إبراهيم، وغيرهم، وكان ممّن هاجر إليها أحد أجدادي عيسى بن رواف قبل مائة من السنين، وشيَّد فيها جامعًا كبيرًا يحمل اسم العائلة، ويُسمى بجامع ابن رواف، وحدث آنذاك أن قَدِم شقيقي ياسين الرواف من دمشق وأقام بجانب والدي في مدينة الزبير.

مكث الوالد رحمه الله بهذه المدينة أحد عشر شهرًا، ولم يتسنَّ له مغادرتها إلّا مرة واحدة تلبية لدعوة تلقّاها من الشيخ خزعل، حاكم مقاطعة المحمرة، لاستقبال الأمير عبد العزيز بن سعود القادم إلى البصرة، وأقام الوالد في قصر الشيخ خزعل، الفخم بضخامته وبتنسيقه وبأناقة فرشه وبأدب خدمه، فقد كان فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان من راحة ومتعة، وكان يتردَّد على هذا القصر أمراء الكويت آل الصباح أصدقاء الشيخ خزعل ينعمون بالراحة والهدوء وكان آخرهم الشيخ مبارك الصباح، وعند مغادرة الشيخ خزعل ووالدي برفقتهما شقيقي ياسين متوجّهين إلى لقاء الأمير عبد العزيز بن سعود التفت الشيخ إلى ولده (جاسب) الذي كان يخلفه في ممارسة الحكم أثناء غيابه قائلًا: «جاسب ما أريد أن أوصيك ارجع وشوف»، إنها جملة صغيرة عظيمة المعاني حمَلَت بين كلماتها كل المعاني التي أراد الحاكم قولها إلى من سيخلفه في الحكم، ثم غادر الشيخ خزعل ووالدي وشقيقي القصر الفخم متوجِّهين إلى البصرة للسلام على الأمير عبد العزيز رحمه الله.

قدَّم الشيخ خزعل والدي للأمير قائلًا: الشيخ إبراهيم الرواف وولده ياسين، فأجابه سموه بقوله: إننا نعرف هذه العائلة، إنهم منّا يا أهل نجد، وأحب سموه ملاطفة شقيقي ياسين، قائلًا له: هل ترافقنا لبلدكم بريدة وتترك هذا الشايب؟ - أراد بالشايب الوالد رحمه الله - فأجابه شقيقي بقوله: تأمر طال عمرك، بيد أن شقيقي ياسين تخلَّف آنذاك عن ركب الأمير عبد العزيز.

مقاطعة المحمرة وأميرها الشيخ خزعل بلاد عربية، تقع ما بين العراق والكويت وإيران وتُعرف الآن باسم عربستان، وقد أطلق العرب على هذه المقاطعة اسم الأهواز (الأحواز)، وكانت تُعرف لديهم بهذا الاسم، وكان آخر حكامها

الشيخ خزعل، يتمتع باستقلال داخلها ولا سلطة لأحد عليه، يتصرّف بإدارة شؤونها الداخلية كما يشاء ويريد، ولكن بما أن هذه المقاطعة قريبة من الكويت، وكانت الكويت تحت الحماية البريطانية فقد رضخ الشيخ خزعل للبريطانيين، وأذعن لأوامرهم فيما يتعلق بالمسائل الخارجية.

عند قيام رضا بهلوي شاه إيران بثورته على البريطانيين في إيران، ضمّ مقاطعة المحمرة إلى الإمبراطورية الإيرانية، ودمجها في دولته وألقى القبض على أميرها الشيخ خزعل، فسيق أسيرًا إلى طهران وحوسب حسابًا عسيرًا، وأودِع السجن إلى أن توفاه الله، ودُفن هذا الأمير العربي في مقبرة دار السلام بالنجف من أعمال العراق.

كان والدي يتمتع باحترام زائد من أهل الزبير وغيرهم، ومع هذا مكث في هذه المدينة مسلوب الحرية مقيدًا بأوامر البريطانيين، ولقد ضاق ذرعًا من إقامته في بلدة الزبير، وما كان له أن يشعر بهذا الضيق والملل وهو موجود بين أناس يربطهم به دم ونسب. فهم كانوا من خيرة العائلات النجدية، أروه من ضروب الإكرام ما لم ينْسَه أبد الدهر، غير أن الحرية التي لا يماثلها شيء في هذه الحياة كانت تدعوه للرحيل، ففكّر رحمه الله بمغادرة الزبير والفرار منها خلسة دون أن يشعر به الإنجليز. أرسل والدي أحد رجاله إلى البادية لشراء الركائب لتنقلهم من الزبير إلى نجد وضرب موعدًا مع هذا الرسول أن يأتيه في آخر ليلة من شهر جمادى الأولى، وقبل الليلة التي جعلها موعدًا بينه وبين رسوله، أخذ بعض رفاقه في نقل أمتعتهم خارج مدينة الزبير وأبقوها وديعة عند رجل للمحافظة عليها.

كانت ليلة باردة حالكة الظلام، وقد أوى الناس إلى مضاجعهم، وعندما هدأت حركة الشوارع غادر والدي ورفاقه منزلهم إلى المكان الذي كانت تنتظرهم فيه نجائبهم، فامتطوها ميمِّمين شطر مدينة حائل ملتجئين إلى آل الرشيد.

الفصل الثاني

مع قافلة العقيلات
من دمشق إلى بريدة وحائل

عاودت والدي ليلتها ذكريات سلَفَت عن اجتماعه في كلٍّ عام مع آل السبهان في مكة المكرمة - وكان آل السبهان يترأسون الحجيج العراقي المار بمدينتهم - والتداول معهم وتبادل الأحاديث الشيِّقة طيلة أيام الحج، وبعد سيرٍ دام بضعة أيام في الصحراء الواسعة بانت لهم على مسافة قريبة مدينة حائل، فدخلوها وهم آمنون.

لم يكن أميرها سعود بن عبد العزيز بن رشيد موجودًا فيها، لقد كان هو وبعض من رجالات حائل ومن عرب شمر مرابطين في الحجر وهي إحدى محطات السكة الحديدية الممتدة من دمشق إلى المدينة المنورة للمحافظة على السكة الحديدية، تعزيزًا للحامية التركية المرابطة في المدينة المنورة التي كانت تأتيها أرزاقها من دمشق بواسطة القطار الحديدي، وكان الأتراك خلال فترة الحرب الأولى يخشون من الأمير فيصل بن الحسين ويخافون من قيامه بتخريب هذا الخطّ الذي كان الطريق الوحيد الذي يؤمِّن الجيش التركي المُرابط بالمدينة المنورة بالمؤن والأرزاق.

استُقبل والدي استقبالًا لائقًا من قبل آل السبهان وأنزلوه منزلًا لائقًا، وكان الحكم في مدينة حائل بيد سعيد المحمد يمارسه نيابة عن الأمير سعود بن عبد العزيز الرشيد، وكان محترمًا من قبل الجميع، ولاستخلاف هذا الأمير لسعيد المحمد أسباب خاصة ترتبط بمسألة وصول الأمير سعود إلى عرش حائل.

لقد دان الأمير بالفضل بوصوله إلى عرش حائل إلى أخواله آل السبهان وأكثر من هذا دان لهم بالفضل بالحفاظ على حياته، وإنقاذه من أبناء عمومته من آل عبيد، فقد فتك هؤلاء بإخوانه الثلاثة: متعب ومشعل ومحمد أبناء عبد العزيز بن رشيد،

وحاولوا القضاء عليه وعلى ما تبقّى من ذرية عبدالله بن الرشيد ليستأثروا بالحكم من دونهم، وهنا تدخّل أخواله من آل السبهان ففرّوا به إلى المدينة المنورة.

تسلَّم الحكم في حائل آنذاك سلطان بن حمود العبيد، لكن لم يمْضِ على حكمه سوى بضعة أشهر، حتى دبَّ الخلاف بينه وبين أخويه سعود وفيصل، وقتل سعود أخاه سلطان، وفرَّ الأخ الثالث فيصل إلى الرياض والتجأ إلى الأمير عبد العزيز بن سعود. وعندما علم حمود السبهان بالخلاف الذي دبَّ بين أبناء حمود العبيد الثلاثة، غادر مع آله المدينة متوجهين إلى حائل ترافقه جماعة من شمر، ومعهم ابن أختهم سعود الرشيد، وكان في ريعان شبابه، لم يبلغ الحلم بعد، واستولوا على مدينة حائل، وألقوا القبض على سعود بن حمود العبيد وقتلوه في الغرفة التي قَتَل فيها أخاه سلطان، واعتلى عرش إمارة حائل سعود بن عبد العزيز الرشيد.

إنها لمأساة عظيمة، ونكبة بالغة شديدة حلّت بآل الرشيد، يقتل الأخ أخاه في سبيل الحكم والسلطان، وما كان لهم أن يقوموا بهذا العمل الذي ذهب بهم وبملكهم، وكانوا من قبل ذلك آمنين.

كان لوالدي معرفة قوية بآل السبهان، وصداقة متينة تربطه بهم، دامت أكثر من ربع قرن، وذلك أثناء اجتماعه بهم في موسم الحج، فلقد كان آل السبهان أمراء الحجيج العراقي المتَّجه إلى مكة المكرمة تواكبهم قوافل أهل العراق كما ذكرت سابقًا. وكان من آل السبهان في مدينة حائل عندما قدم والدي إليها الشيخ علي بن حمود السبهان وكان شابًّا يافعًا لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وكان مجلسه يضمّ رجالات حائل، كانت والدته قوية الشخصية وتُعينه على اكتساب بعض النفوذ عند النائب في مدينة حائل، وهو الذي خلفه - كما ذكرت - الأمير سعود بن عبد العزيز الرشيد أثناء غيابه في الحجر، المكان القريب من مدائن صالح وهذا يعيدنا إلى قصة استخلاف الأمير سعود بن الرشيد لسعيد المحمد في حكم حائل الذي يرتبط بمسألة صراع الأشقاء وأبناء العمّ على السلطة، فإن إخوان الأمير سعود الثلاثة قد قتلوا، كما رأينا، على يد أبناء عمومتهم من آل العبيد. ولهذا فإن استخلاف أحد أبناء عمّه عبدالله ومحمد الطلال الرشيد كان أمرًا مستبعدًا. ولم

يفضِّل الأمير سعود من ناحية أخرى أن يستخلف أخواله السبهان، لكي لا يثير نقمة أبناء عمه عبدالله ومحمد الطلال الرشيد ويدفعهم للثورة عليه أثناء غيابه في الحجر. وسوف نرى أن نهاية الأمير سعود بن الرشيد قد جاءت فعلًا على يد ابن عمه عبدالله بن طلال الرشيد. في ظلِّ تلك الظروف وجد الأمير سعود - كما اعتقد - أن من الحكمة استخلاف سعيد المحمد الذي عمل سنوات طويلة في خدمة الأمير محمد الرشيد يوم أخضع نجد كلها لحكمه، لقد كان سعيد المحمد مقبولًا من قبل الجميع في حائل.

ترك مدينة دمشق الأخ الشقيق الأكبر محمد عيد الرواف، رحمه الله، متوجهًا إلى العقبة، حيث كان الأمير فيصل بن الحسين مقيمًا مع جنوده، وتوجّه بعدها إلى القطر المصري لمقابلة شركاء والدي أبناء المرحوم خليل السمان لتصفية حسابات شركتهم مع الوالد، حسب التعليمات التي أرسلها إليه الوالد، أثناء إقامته في مدينة حائل، وكان آل السمان قد نقلوا تجارتهم من دمشق إلى القطر المصري.

بعد مضي شهرين من قدوم والدي إلى مدينة حائل لائذًا ولاجئًا بحمى آل الرشيد - لا أعني لاجئًا حقيقيًّا كبقية اللاجئين الذين كانوا في حائل من أهل القصيم، ومن شيوخ القبائل، لأنه كان زائرًا لائذًا - بقيت وحيدًا في مدينة دمشق فقد تركها بعد والدي أشقائي محمد عيد، وياسين، وهكذا بقيت المسؤول عن أفراد عائلتي.

دمشق درّة الشرق ونبراس مجده وسؤدده عاصمة الأمويين، ولقد عناها الشاعر أحمد شوقي بقصيدته الخالدة التي بكى فيها المجد الداثر، عندما أمطرها الفرنسيون بمدافعهم:

سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي ... جلال الرزء عن وصف يدق
ولي مما رمتك به الليالي ... جراحات لها في القلب عمق
رباع الخلد ويحك ما دهاها ... أحقًّا أنها درست أحق؟
وقيل معالم التاريخ دكت ... وقيل أصابها تلف وحرق

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق
وما كان الدروز قبيل شر وإن أخذوا بما لا يستحق
ولكن سادة وقراة ضيف كينبوع الحصى خشنوا ورقوا
لهم جبل أشم له شعاب موارد في سماء الجو عبق
لكل لبؤة ولكل شبل نضال دون غايته ورشق
كأن من السموأل فيه شيء فكل جهاته شرف وخلق

دمشق البلد الذي أبصرت عيناي فيه النور لأوّل وهلة، دمشق البلد الذي ترعرت في كنفه، أظلّتني سماؤه ورويت من مائه، وغذّتني ترتبه، بقيت وحيدًا فيها. وحيدًا في هذه البلدة العظيمة إحدى عجائب الدنيا السبع - كما يُقال عنها في الأساطير - ولم يفُتني ما كان يقاسيه سكان دمشق ويعانيه رجالها شيبًا وشبابًا من كبتٍ واضطهادٍ من زبانية التركي الجائر، وكنت أسمع بأذني وأرى بعيني ما يُحاك في هذا البلد العزيز من مؤامرات للقضاء على مجده الداثر، وعزّه الغابر وإبادة كل أثر عربي فيه، لغة وعادات وأخلاقًا، الأمر الذي دفع رجاله إلى مقاومة الحكم التركي بجهد متواصل ودأب دائم. كانت اللغة التركية تدرَّس إجباريًا بالمدارس العربية السورية، وكان الكثير من الطلاب لا يبدون اهتمامًا بدراستها، وكم من مرة أخرجت من الدروس للسبب نفسه، ومرارًا كنت تحت رحمة عصي المعلم لعدم انتباهي لما يلقيه علينا الأستاذ من قواعدها، فقلّت رغبتي في ارتياد المدارس والوقوف على أبوابها فهَجَرتها جميعًا، لا كرهًا للعلم، بل اشمئزازًا ممّا ألاقيه من عنت وجبروت هؤلاء الأساتذة الأتراك.

انقطعت الصلات بيني وبين زملائي من الطلبة، وشعرت بوحدة وفراغ لا نهاية لهما، وكانت تعاودني دومًا ذكريات طيبة سلفت وما زلت أذكر انصرافنا من المدرسة عائدين إلى منازلنا، سالكين طريقًا متطرفًا بعيدًا عن أنظار الناس وأسماعهم نغني ملء أفواهنا نشيدًا أسَرّ به إلينا أحد أساتذة مدرستنا من أبناء العرب، فكم كان حماسنا شديدًا، وكان يخيل إلينا أن أصواتنا تخترق أجواء الفضاء، وأن العالم كله آذان تصغي إلينا وحناجر تردِّد معنا هذا النشيد:

لتدم هذه البنية... تنمو وتغدو صبية... أزفها شجاعًا... فلا ترى منسية... تلدن كل همام من فارس مقدام... يمزق الطغام بهمّة وردية... يشعل نار الحرب لدقّ عنق الكلب... وأخذ حق العرب من أمة تركية.

ها أنا ذا وقد تقدَّمت بي السن أدرك أنه كان هناك أكثر من سبب واحد من الأسباب جعلتني أهجر المدارس، وأهمل تلقي العلوم.

في هذه الفترة من الزمن قَدِمَ أحد أعمامي: محمد الأحمد الرواف إلى دمشق بتجارته، التي كانت تمارسها عائلتي، أبًا عن جد، وهي شراء الإبل من عرب نجد ومن عرب العراق وتصديرها إلى فلسطين ودمشق والقطر المصري، كما كان تجار الإبل من العقيلات يفعلون، ومكثت شهرًا واحدًا في دمشق إلى أن أتمَّ بيع ما كان بيده من الإبل. وكنت دومًا من المثابرين على حضور مجالسه سواء كان ذلك صباحًا أم مساء، وكنت أجد لذة ووقتًا ممتعًا وأنا أستمع لأحاديثه الطريفة، وأشهد لباقة عدله يوم كان يفصل بخلافات التجّار العقيلات، فقد كان يفصل بين الناس في خلافاتهم التجارية بعد أن يستمع لشكاياتهم، وغالبًا ما كان يفصل بينهم بما يراه لصالح المختصمين، فيرضون بحكمه.

حَكَم مرة بين متخاصمين من التجار، فلم يَرْضَ أحدهما بحكمه، وعند عودتهما لبلدهما بريدة أعاد ذلك الرجل شكواه إلى القاضي وعندما علم القاضي أن هذا الأمر قد سبق وفَصَل فيه محمد الأحمد الرواف في دمشق ما كان منه إلّا أن ثبَّت ما حكم به ابن رواف وأجبر المشتكي على الامتثال والقبول بالحكم وقال:

هو تاجر ورضيتم أن يَحكُم بينكم في المسائل التجارية وهو أعلم بها مني، ورفض شكواه.

وكان سروري عظيمًا عندما فاتحني العمّ محمد الأحمد في إحدى سهراته الليلية التي أقضيها دومًا إلى جانبه، برغبته أن أكون رفيقه في سفرته القادمة إلى العراق لشراء الإبل من قبيلة عنزة، وتابع حديثه قائلًا:

لدي ناقلة ذلول شقراء اللون، ذات عينين واسعتين، وعنق طويل، وقوائم مستقيمة وظهر عريض يرتاح عليه راكبها. هي غاية في الخفة واللياقة البدنية، سأجعلها مطيَّة لك إذا استجبت لرغبتي، وعزمت على السفر بصحبتي. لقد كان

رحمه الله لبقًا في حديثه، وسبك عباراته، واختياره لأرق الألفاظ، وأقربها إلى القلب، وأخذ يشوّقني إلى هذه الرحلة ويعدِّد مزاياها لأذعن لإرادته، وأتمَّ حديثه قائلًا:

سيكون سيرنا في صحراء واسعة لا نهاية لها، وسنقطع في سيرنا جبالًا ووهادًا لا حصر لها، وسنمرُّ بجماعات من قاطني الصحراء أصحاب البيوت المشرَّعة التي لا أبواب لها، أفلا يسرُّك يا ابن أخي أن تطَّلع على أحوالهم، وطرق معيشتهم فترى ترحيبهم بالضيف، وحديثهم العذب، وهم يقدِّمون له كل ما لديهم من نفيس الطعام وشهيِّه، هذا إذا كان لديهم شيء منه، فأحيانًا لا يكون عند أحدهم غير حبّات من التمر ورشفة من اللبن، فيقدِّم كلَّ ما لديه لضيفه بكل ترحاب، إنك يا ابن أخي ستقدِّر هؤلاء القوم وتعتزُّ بهم كعربي عندما تعلم مقدار ما يقاسونه من مشقَّة بالغة، وتعب لا يتحمله إلّا هؤلاء القوم أثناء إحضار طعامهم من المدن والأمصار القريبة لهم، إنهم ينقلون قوتَهم وبعض حاجاتهم على ظهور أباعرهم، فيقضون في مهمة جلب الزاد يومين أو ثلاثة أيام فإذا ما استضافهم أحد قدَّموه له ووجوههم مشرقة وثغورهم باسمه. إن أهل البادية يا ابن أخي أكرم نفسًا وأحسن ضيافة من جميع خلق الله من البشر المنتشرين على وجه هذا الكوكب الأرضي، إني لا أبالغ في القول، بل هي الحقيقة، فلا يعدُّ كرمنا نحن أهل الأمصار شيئًا يُذكر أمام كرمهم، إن طعامنا وما نقدِّمه لضيوفنا هو موجود في منازلنا، وفي متناول أيدينا، فلا نحتاج لسفر طويل كثير التعب والمشقة، ولا نشدّ الرحال كما يفعل أهل البادية، بل نرسل أحد رجالنا ليحضره من الأسواق التي لا تبعد عنّا إلّا خطوات قليلة، ولقد علَّمت هؤلاء الذين نتحدث عنهم مفاجآت الصحراء وتقلبات المناخ فيها وضيق سبل معايشها - الصبر والتحمل، واختبرتهم بوعورة طرقها وقساوة العيش في ربوعها ومع هذا يمارسون كرم الضيافة ببشاشة وهدوء.

إن تغيرات المناخ في البادية، تختلف عنها في المدن والأمصار، ففي البادية تتقلَّب فيما بين برد قارس يقصم العظم إلى جوٍّ حار تلفح سمومه الوجوه وتصهر شمسه الأدمغة، ويعمي تراب زوابعه الأبصار - إلى جوٍّ طبيعي هيِّن ليِّن كله سرور

وحبور عندما تهطل السماء على الأرض مدرارًا، وتبكيها بدموع غزار، فتكتسي الأرض بساطًا أخضر سندسيًّا، فيصبح الحوار (ابن الناقة) إذا رفع رأسه تناول ثدي أمه، وإن طعن رأسه في الأرض تناول من عشبها وخضرتها، ولهذا قيل: أنعم من حوار الربيع. هذه يا ابن أخي الأطوار التي يتقلب فيها سكان البادية فيستمرئون مضض العيش فيها فنجدهم قانعين بحياتهم التي يتقلبون في أعطافها، فلا يضجرون، ولا يسأمون ولا يتبرمون منها، مستسلمين لتقلبات الدهر والزمان، فإذا صادفت واحدًا منهم يتجوّل في هذه الصحراء الواسعة، وقد مضى عليه يوم أو بعض يوم لم يتذوق في غضونها طعامًا، تحيِّه، فيجيبك على تحيتك بتحية مثلها أو أحسن منها، فإذا ما سألته: كيف حالك يا أخا العرب فيبادرك بلهجة قوية، ونبرة شجية، فيها كل معنى من معاني الرجولة: بخير ولله الحمد. لم يشْكُ إليك أمره، أو يسألك طعامًا يسدُّ به رمقه. بهذه الطريقة سلكوا، وعلى هذه الصفات جبلوا.

أما عن أحاديثهم يا ابن أخي فإنها شيِّقة ممتعة، فإذا ما أصغيت إليهم وهم يتجاذبون أطراف الحديث في رابعة النهار، أو وهُم يتسامرون في كنف الليل حول مواقد نيرانهم المشتعلة المضيئة كالشمس في رابعة النهار، فلا تسمع كلمة نابية تخرج من أفواههم، فجلّ أحاديثهم تدور حول الرجولة والكرم وإغاثة الملهوف ونجدة المظلوم. يتحدثون عن ذاك الرجل الشهم الأبي الذي لا يستنجد به أحد إلّا أخذ بيده وبذَلَ ما في وسعه من جاهٍ ومال ليرفع الضيم عنه.

وعن الذي قدَّم لضيوفه نعجته التي لا يملك غيرها، والتي كان يقتات بلبنها صغاره، فيذبحها ويقدِّمها لضيفه إبقاءً على حسن سمعته، أو خوفًا من عارٍ يلحق عشيرته. وعن ثانٍ يأبى أن يكون أقل قومه شرفًا ونبلًا، إذا ما دعي لمكرمة من المكارم. هذه هي الأخلاق يا ابن أخي، وهذا هو السمت العربي الذي يتحلى به ساكنو الصحراء، إنّك في مقتبل العمر، وأمامك حياة طويلة محاطة بشوائب كثيرة، وسيكون سفرك هذا وما ستلقاه في غضونه وما ستلاقيه من خير أو شر، أو نعيم أو شقاء، لك عونًا في المضي في هذه الحياة وسيهديك إلى الخير، وشيئًا آخر أهمسه بأذنك، أفلا ترغب أن تجتمع بوالدك وأخيك ياسين؟ ألم تشتَقْ لرؤيتهما؟، فمن المحتمل أن تلقاهما. كان رحمه الله يحدِّثني وكأنني بلغت الأربعين من العمر، إن

حلاوة حديثه، وطلاوة معانيه، وعذوبة نبراته كلها حملتني على تلبية طلبه، والرضوخ لمشيئته، والخضوع لإرادته، قائلًا: يا عم لقد شوّقتني لرؤيا الصحراء، والتجول في ربوعها، فقد حدثتني عن ساكنيها وقاطنيها، قبل أن أسير في سهولها ووهادها، ورغّبتني في صحبتك قبل أن أواكبك ولا يخامرني شك في أنني سأكون مغتبطًا في هذه الرحلة، فقال: بارك الله فيك وهذا ما تعشمته فيك، ثم وضع في يدي جنيهين اثنين قائلًا: اشترِ لك فروة لتمنع عنك حرارة الشمس فإنَّ ما يمنع البرد يمنع الحر، وبعض ما تحتاج إليه في رحلتك ثم تركني وذهب ليأوي إلى فراشه.

إنني لعاجز عن التعبير عمّا أبدته والدتي من الغبطة والسرور، عندما أعلمتها بما تمَّ بيني وبين العم محمد الأحمد الرواف، فاغرورقت عيناها بالدموع، وضمّتني إليها، وطبعت على جبهتي قبلة حارة ما أزال أشعر بدفئها، فيها كل معنى من معاني الحب والحنان، التي تضفيها الأمهات على أبنائهن، وقالت: وفِّقت يا بني إنها فرصة لك ستتيح لك الاجتماع بوالدك وأخيك ياسين، وأشارت بيدها إلى سجادة صغيرة الحجم ملقاة في واحد من أركان الغرفة، كانت تؤدي عليها فروض الصلاة لآخذها معي لتكون فراشًا لي أثناء رحلتي، ما أزال محتفظًا بها حتى الآن، وقد سافرت معي كثيرًا إلى بلدان العالم، والقارات الأربع التي تجوّلت في ربوعها.

ودخلت في اليوم التالي على العم محمد وهو في مجلسه، وجلست في جانب منه، وكان مجلسه يضمّ سبعة رجال، واسترعى انتباهي أكوام من الذهب المرصوص رصًا متقنًا على بساط المجلس، وأشار العم محمد إلى الأكوام الذهبية الستة قائلًا: هذا حلالكم والله أبدى لكم، وكان هناك كوم متطرِّف قال عنه إنه مكسبهم هذا العام. وقام رجل منهم وفرّق الكوم الذهبي إلى ثلاثة أقسام، فأعطى العم محمد ثلث هذا القسم ووزّع القسمين الباقيين على الرجال الستة كلٌ على حسب دراهمه التي استلمها منهم العم محمد منذ ستة أشهر مضت.

بعد تناولهم طعام الغداء، قال أحدهم: ومتى عزمتم على السفر إن شاء الله؟ فأجابه العم: بعد ثلاثة أيام، فقالوا نترك أموالنا معكم يا أخ محمد لشراء الإبل في هذا العام ولكم الثلث من مكسبها إن شاء الله.

لم يضمَّني مجلسٌ كهذا المجلس من قبل ولم يسبق لي أن رأيت مثل هذا في

حياتي، فتعجَّبت من هذا التصرف البسيط، وبهذه الكيفية التي لا تكلُّف فيها، توزع الأموال على الشركاء دون كشوف حساب، فحاولت سؤال العم لأستفسر منه عمّا رأيت، فخانتني الجرأة والشجاعة.

أعرف من الرجال السبعة رجلين فقط، أحدهما السيد شريف السمان من مدينة دمشق والثاني أبو مصطفى الضبع، فالأول رضيع والدتي وكان يقوم هو وأفراد عائلته بزيارتنا في أيام الأعياد، وفي غيرها من المناسبات، وكان من المحافظين على صلة الرحم ومودة القربى، وهما من تراثنا العربي ومثلنا العليا.

والثاني من بلدة ببيلا - إحدى قرى دمشق القريبة منها - وكان وجيهًا في قومه، ويعتبرونه شيخًا لهم في بلدتهم وهو صاحب مزارع كبيرة، مربوع القامة ضخم الجثة، كبير الهمة، صاحب ذوق سليم، وكان يقوم بإهدائنا - في كل عام - ممّا تنتجه مزارعه من فاكهة وزيت وزيتون ورأسين من الغنم يعلفهما شهرين كاملين، ثم يقدِّمهما لنا في أيام عيد الأضحى، وكنا نبادله هديته، ونقدِّم له الهدايا كالكسوة له ولعائلته في فصل الشتاء وفي فصل الصيف، والأرز والسمن والسكر والتمر من منتوجات نخيلنا في بريدة، وكنا نتزاور كعائلتين.

من غرائب الصدف عندما زرت عائلته في ربيع عام 1407هـ - 1987م، قال لي ولده: زارنا بعد وفاة والدي عمّك محمد الأحمد الرواف، وقدّم لنا صرة كبيرة من الذهب لا أعلم مقدار ما فيها من النقود الذهبية، قائلًا: هذه أموال والدكم المرحوم أبي مصطفى مع أرباحها فرحمة الله على عمكم، فقد كان رجلًا شهمًا كريمًا، وقد استلمها منه شقيقي الأكبر.

أعود ثانية إلى سياق خبر مرافقتي لعمي رحمه الله، لأذكر أنني ذهبت إلى المكان المعد للركائب، فألقيت نظرة على الذلول التي وصفها العمّ محمد وجعلها مركبًا لي في سفرتنا، فأعجبت بها وبجمالها الرائع، وقوائمها المشوقة، ودَنا مني وقتها حمد - المهتم بشؤون الركائب - قائلًا: إنها لجميلة جدًّا ومن أنجب مثيلاتها من الركائب، إنها صغيرة السن، وخفيفة الجري، أتعرف ما اسمها؟ إنها المزيونة، وناداها باسمها فتقدَّمت إليه بخطى وئيدة تتمايل على مهل، وتختال في مشيتها حتى كانت قاب قوسين منه. وأدنت رأسها منه حتى لمست راحة يده

بمشافرها، حتى ليخيل للناظر إليها ساعتئذٍ أنها أشبه بطفلة تقبِّل يدي والدها، وذكَّرني منظرها وتهاديها في مشيتها بقول شاعر منفوحة أعشى قيس إذ يقول:

غـراء فـرعـاء مـصـقـول عـوارضـهـا   تمشي الهوينا كما يمشي الوجل الوحل

قطع تفكيري بها قول حمد لها: ما عندي سكر يا مزيونة، وكان من عادته أن يقدِّم لها قطعة من السكر، كلما ناداها أو اقترب منها، ثم التفت نحوي بجسمه المربوع، وبثغره الباسم، قائلًا: هذه سفن البر يا عم خليل، ما يصبر على قساوة الصحراء واختلاف أنوائها إلّا هي ومثيلاتها، يمرُّ عليها سبعة أيام وهي محمّلة بالأثقال، دون أن تضع في فمها شيئًا من الكلأ، وتقضي سائرة في الصحراء، في وقت الصيف أربعة أيام أو خمسة دون أن تدخل في جوفها نقطة ماء، وتلا قوله تعـالـى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾[1]، ولـذلـك سمِّيت بسفينة الصحراء، وهنا أخرجتُ من جيبي ما تبقّى معي من الجنيهين اللذين أعطانيهما العم محمد، قائلًا له: اشترِ ثوبًا لك، وسكّرًا للمزيونة.

اتّجهت الليلة التي سبقت مغادرتنا دمشق إلى مجلس العمّ محمد، فألفيت في حوشه الواسع سبع ركائب: ذلولي وهجين عمي، وخمس نجائب كنّ يفترشن صحن الحوش الواسع، وكان حمد وأربعة أنفار معه يهيئون أمتعة السفر من زادٍ وغيره وقد قدّمهم لي حمد كمرافقين لنا في سفرتنا، ثم توجّهت نحو مجلس العم محمد، وقبل أن ألجه سمعت رنينًا خافتًا لم أسمع مثله من قبل، فأطللت من نافذة المجلس، فوجدت العم محمد مشغولًا بوضع جنيهات من الذهب في أكياس من الأقمشة البيضاء طول الواحد متر، وعرضه خمسة عشر سنتميترًا تقريبًا، وخرج العمّ محمد من المجلس ونادى الرجال الأربعة، وأعطى كل واحد منهم كيسًا، فقاموا بربطها على بطونهم تحت ثيابهم، ثم سألهم هل أنجزتم كل شيء، وأردف قائلًا سنصلي الصبح ونغادر دمشق باكرًا إن شاء الله، ثم التفت إلي قائلًا بصوته الجهوري، اذهب أنت وحمد وأحضرا متاعك، ثم عُدْ إلينا لنقضي ما تبقّى من الليلة سوية.

(1) سورة النحل، الآية: 7.

كانت تلك أول أوامر تلقيتها من العم محمد، قالها بنبرة غريبة، لم أسمعها منه قبل هذا، وبصورة قاسية ليس فيها معنى من معاني اللين واللياقة، فقد كان رحمه الله عندما يعتزم على السفر، يلقي أوامره دون هوادة على من معه، كما يلقيها القائد على جنوده.

أثناء وضع ملابسي بالخرج - وهو أشبه بحقيبة السفر، كان استعماله سائدًا قبل أن يُستبدل بالحقائب الحديثة، ويسود التنقُّل بالوسائل المريحة كالسيارات والطائرات بدلًا من الخيل والجمال - كانت والدتي تراقبني بنظرات من عينيها المخمليّتين، وبوجهها الناحل وقد غمره الحزن، وعلته الكآبة، فكأني بها تخاطب نفسها قائلة: بالأمس تركني ربُّ البيت والد أبنائي وبناتي، ثم تبعه واحد منهم، ومن بعده غادرنا ثانيهم وها أنا ذا أودِّع ثالثهم.

أقول هذا بعد أن طويت التسعين من العمر، واختبرت الحياة غثَّها وسمينها وما يتخلَّلها من هناء وشقاء وصحة وسقم، وغدوت أبًا لبنين وبنات، ولمستُ ما يجول بخاطر الوالدين، وما تختلج به نفوسهم أثناء توديعهم لفلذات أكبادهم. لقد كنت في ذاك الوقت لا أشعر بشعور الوالدين اللذين مارسا الحياة وتقلَّبا في مخاطرها، فقد كان تفكيري وانتباهي وكل حاسّة من حواسي منصبَّة على السفر والصحراء التي حدَّثني عنها العم محمد فجزى الله الوالدين خير جزاء، وأحسن منقلبهم وجعل مثواهم الجنة.

في الهزيع الأخير من الليل، بعد أن تنفَّس الفجر، وكاد الصبح أن يشرق، أدنيت الركائب ووضع على ظهورها الأكوار والأشدة، وأخذ كلٌّ منّا يحكم وضعها، ويثبت ربطها - وأيقظت حركتنا ورغاء ركائبنا - الطيور في أوكارها، وأخذت تودِّعنا بتغريدها العذب، وبتصفيق أجنحتها المتواصل وكأنّي بها كانت تطلب لنا السلام، وبعد أن أدَّينا فريضة صلاة الفجر جماعة، امتطينا ظهور ركائبنا، وخلَّفنا جلق وراء ظهورنا، وسرنا نستنشق نسيم الصبح العاطر. ونمتِّع أعيننا بمنظر السماء في الفجر الباكر، مارِّين بمتنزهات دمشق وحدائقها الوارفة الظلال، وبغوطتها المكتظة بالأشجار، وبأنهارها المبعثرة هنا وهناك، ميمِّمين وجهتنا إلى قرية ضمير، آخر قرية من قرى دمشق الشرقية التي وصلناها بعد أن قطعنا مقدار ثلاثين كيلو مترًا في إحدى عشرة ساعة على ظهور ركائبنا.

وتكامل في اليوم التالي - الذي اتّخذناه راحة لأبداننا، منتظرون - بقية القافلة، وكانوا خليطًا من الناس منهم الميسور ومنهم من دون ذلك.

تكامل عددنا وبلغ مائتين وأربعين رجلًا، وكان الوقت صيفًا، شمسه شديدة الحرارة، وهواؤه عظيم السخونة، لذا كانت هنالك حاجة كبيرة إلى الماء ولقد ملأنا القِرب من ماء ضمير، لتحمله ركائبنا وجمالنا، إذ كان بيننا وبين آبار الماء ثلاثة أيام بلياليها، وعلى هذا لا بد لنا من السير ليلًا.

فلمّا جن الليل، وتلألأت أنجمه، وطلّ الفجر من علياء سمائه، وكشف بنوره ضياء النجوم الكواكب، وأخذ يتهادى في سيره بين كواكب السماء ونجومها، يغازل تلك ويلاطف الأخرى فتتمايل أمامه ثالثة فيتغافل عنها ويتركها وشأنها. في هذه اللحظة نادى المنادي: توكّلوا على الله وكانت تلك إشارة البدء بالمسير. فامتطينا ركائبنا، وأخذت تنهب بنا الأرض وتطويها بخطاها الواسعة ومع هذا كنت لا تسمع لخطاها وهي سائرة جلبة ولا حسًّا لأنها كانت تجاري الليل بهدوئه وسكونه.

إنك لا تسمع لسفن البرِّ على ضخامتها وعظم حجمها جلبة ولا لأقدامها صوتًا في مسيرها، وهي بهذا بخلاف الأنعام ذات القوائم الأربعة كالخيل والبغال والحمير، لقد جعل الله الإبل للإنسان ليتَّخذها مطيته في هذه الصحراء الواسعة، تحمل أثقالنا، ونوجِّهها كما نشاء، ولنتخذ من جلودها وأوبارها وأصوافها (أثاثًا ومتاعًا) إلى حين والبعير على الرغم من ضخامة جثته، وطول عنقه، وكبر رأسه، جعله الله مسالمًا، لا يكاد يميز بين الأشياء، فلو أدرك قوة الخصال التي أنعم بها الله عليه لما أمكن لأحدٍ الاقتراب منه، ولكن الله سبحانه وتعالى لطيف بخلقه، تجد الوليد يصرفه بكل وجه كما قال الشاعر:

لقد عظم البعير بغير لب	فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الوليد بكل وجه	ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوي	فلا نكر لديه ولا نفير

إن السير ليلًا في السفر متعة للمسافرين خاصة في الصحراء وفي أيام القيظ

منها، يوم يكون البدر كاملًا يتهادى في القبة الزرقاء، وكانت الرفاق قريبة من بعضها في ميولها وأمانيها.

سرنا تلك الليلة بضع ساعات كما سنسير في الليالي القادمة، وقبل أن تغور النجوم وتكشف لمعان أنوار الصباح استرحنا ساعة من الزمن، افترشنا فيها - كما يقال - الأرض والتحفنا السماء، وبعدما سرنا ثلاثة أيام بلياليها وردنا آبار الماء المعروفة باسم (الماة) وعندما كمل سيرنا اثني عشر يومًا متواصلًا، ظهرت لنا عن بعد مضارب عرب الدهامشة من قبيلة عنزة بمكان يسمى (الصيهد) من أعمال العراق.

كان العم محمد الأحمد الرواف رئيسًا لهذه القافلة، وكانت قوافل التجّار في ذلك الزمن عرضة لغزوات أهل البادية، فقد كانت هذه الغزوات قائمة على قدم وساق، يتغلب القوي على الضعيف، وكان لأهل البادية نفوذٌ قوي وسلطة واسعة، كانوا يتمردون على حكام الجزيرة العربية، أعني الحكام المتنافسين من آل سعود في جنوب نجد وآل الرشيد في شمالها، وكانت التجارة في ذاك الوقت عرضة للسلب والنهب والقتل دون مبالاة، لذلك اضطرّت القوافل إلى اصطحاب رجل من كل قبيلة خشية بأسها وخوفًا من سطوتها كقبائل شمر والحويطات وبني صخر، حماية لبضائعها التجارية وحتى لا يتعرّض لها أحد من هذه القبائل.

أما بالنسبة إلى قبائل عنزة والسبعة والفدعان، فإن القافلة كانت إذا قابلت غزوًا من هذه القبائل تقدِّم قليلًا من المال لرئيس الغزو وهو ما كان يُعرف باسم «خوّة».

لم يعترض قافلتنا في سيرنا في الصحراء أي غزو من عربان البادية ولله الحمد، وفي يوم من أيام مسيرنا في عرض الصحراء، كان النهار قائظًا شديد الحر، وكانت أشعة الشمس ولهيبها يلفح الوجوه، وأنفاس الصحراء سمومًا تلهب العيون، وكنت ترى أفراد القافلة وقد توشَّح كلٌّ بردائه، ضامًّا جسده، في فروة من جلد الغنم، إذ إن ما يمنع البرد وزمهريره يمنع القيظ وسموم هوائه، فلقد كان العرق الذي يتصبَّب من أجسامنا بسبب لبس الرداء يبرِّد الهواء الحار الذي كان يلفح أجسامنا ويجعله عليلًا مخففًا لقيظ النهار وحرارة شمسه. وبينما نحن على

ظهور ركائبنا كالدمى لا حراك بنا ولا صوت لنا ولا حسّ، إذا بصوتٍ عذبٍ شجيٍّ يقطع أوصال هذا السكون، ويبدِّد كآبة هذا الهدوء، صدرَ عن واحد من أفراد القافلة أخذ يترنم بأغنية قديمة معروفة قائلًا:

إن غـــرّبـــوا يـــا ويـــلاه	وإن شـــرّقـــوا طـــاب الـكـيـف

وردد هذه الأغنية مرارًا حسب غناء أهل نجد ومنهم العقيلات، فسمع مَن بجانبه فأجابه بنغمة حلوة شجية عذبة مثلها، وردَّد البيت الآتي:

يا أهل الركايب صبي وشايب	يا من يبادلني صبي بشايب

ثم صحا آخر من غفوة المسير فوق الإبل وهو يقول:

يـهـل الأشـدة الله يـرده	معكم عزيز العين الله يرده

ثم تبعه آخر، فغنى غناء حماسيًّا فيه من الفخر والرجولة الكثير، وكان صاحب هذا الغناء الحماسي غازيًا مع قومه من قبيلة العمارات - فخذ من أفخاذ عنزة - وجدوا لدى وصولهم إلى الآبار أعداء لهم مرابطين على الماء، وكان ذلك في أيام الصيف الشديد الحرارة وكانت مطاياهم شديدة العطش، فما كان منه إلّا أن أنشد بصوته العذب الأبيات الآتية:

الجيش مضمي وله حنة	ما من عذر يالعمارات
يا ربعنا ما بها كنه	سرورًا على الماء سبحات
من مات خلوه للجنة	ما ينعى واحد فات

فنشط أفراد العقيلات جميعًا، وأخذت كل جماعة منهم تنشد الأشعار وتغني بها ولكم كان حلوًا شدوهم وغناؤهم وهم يرددون:

يا صالحه يوم دوّاره	عين الغزيل إذا هجت
يا بطن حمرا ضحى الغارة	قهارة الزود ان هجت
ما هي من البيض قماره	وأصدق من لي نوي الحجه
ركابها فك سنجاره	يوم البنادق لهن عجه

ثم اجتمع أفراد من هذه القافلة يصغون لما يسمعونه من قصيدة التسعة المنتمين إلى قبيلة مطير الذين لم يتمكن عبد العزيز بن رشيد من التغلب عليهم طيلة النهار كله، فانقلب راجعًا عنهم إلى قومهم المقيمين بمكان بعيد، يبعد عنهم مقدار بضعة كيلوات، إني لا أحفظ غيبًا القصيدة كلها إلّا أبياتًا منها:

يوم نط الرقيبه رأس مجذوبه	قال زالوا وطاكم الجيش زلال
قال أنا شفت شوف لا بليتوا به	شوف ريب ومنه القلب يهتال
لحقه الخيل بالتومان مركوبه	واكفت الخيل ومنها الدم شلال
يوم لحق الأمير لحقه الشوبه	لا قرايا ولا مزبن ولا جال
يا عمارين يسوق الموت مجلوبه	ما هكينا على الدنيا لنا تال
من شريق الضحى يا غافر التوبه	لين غابت وحنا هوش واقتال

يقال إن عبد العزيز بن رشيد صادف المطران التسعة أنفسهم بعد سنة في إحدى غزواته أثناء تنقُّله في البادية، فتمكَّن من قتل ثمانية منهم وأبقى حيًّا على الشاعر الذي قال هذه القصيدة.

كانت هذه أعمالهم وهم سائرون في الصحراء الواسعة أثناء النهار، وفي صيفه الشديد الحرارة، أما في أوقات الليل فكنتَ تراهم يتحدَّثون وهم حول نيرانهم النيرة بأحاديثَ شجية وشيقة. تسمع أحدهم يسرد لهم ويقصُّ عليهم قصة رجل من ساكني القرى كان شاعرًا مرموقًا وفارسًا مشهورًا من آل العنقري، طلب يد فتاة من إحدى القبائل فرفضته، قائلة: هذا فارس زين يلعب، أما في الحروب فلا يتمكن من خوض المعارك وصولاتها، فغزا هذا الفريق قومًا من أعداء قبيلتهم ولمّا تبيَّن لهذا الفارس الشاعر أن الغزاة كادوا أن يتغلبوا عليهم، ركب فرسه وأخذ يقاتل هؤلاء الغزاة فقتل منهم الكثير وأخذ رسن كل فرس قتل راكبها، وبعد أن فرَّ الغزاة ذهب إلى بيت الفتاة وأنشد قائلًا بعد أن ألقى أرسان الخيل التي قضى على فرسانها:

وراك تزهد يا ريش العين فينا	تقول خيّال القرى زين تصفيح
يوم الفضول بحلتك شارعينا	والخيل بأخوانك سوات الزنانيح

يوم انكسر رمحي جذبت السنينا ... أودعت عنك الخيل صم مدابيح
الطيب ما هو للطاعنينا ... وامفرق بين الوجيه المفاليح
للبدو والي بالقرى ظاعنينا ... كلٍ عطاه الله من هبّة الريح
هيا اعطني الحق هيا اعطينا ... وان ما عطيتينا والله لا صيح
لصيح صيحة من غدا له جنينا ... وإلا خلوجٍ ضيّعوه السواريح

فما كان منها إلّا أن قدِمَت إليه معتذرة شاكرة، قائلة: إذا كنت لا تزال ذلك المغرم العاشق فإني على أتمّ استعداد للاقتران بك.

كنت من بين مَن أصغى من المستمعين لقصيدة قالها أحد الأشراف لولده مالك يوصيه بها، ليتبع ما جاء فيها، ويتّخذها منهجًا وسلوكًا لما يفعله في الحاضر وفي المستقبل، وإليك أبيات منها:

يا مالك افهم لابتي يوم أوصيّك ... حيثك صغير واقدر آمرك وانهاك
أعط الرجال حقوقها قبل تاليك ... ولا تدعي بالعق والحق يكفاك
وأعرف ترى ما وطئ الفعر واطيك ... ولا أنت أغلى من الجماعة هذولاك
واعلم ترى مكة ولاها ابن أخيك ... لو تطلبه خمسة دواوين ما أعطاك

بهذه القصص وبهذه الأشعار كانوا يقضون وقتهم ليلًا في صحرائهم الواسعة، وكنت لا تسمع في أحاديثهم كذبًا ولا لغوًا.

كان النوم في أحد أيام سفرنا هذا يداعب عيون العم محمد الأحمد، وكنت تراه مرة يلقي برأسه على صدره ثم لا يلبث أن يرفعه عائدًا به إلى وضعه الطبيعي، فدنوت منه حتى حاذى ذلولي هجينه، فالتفت نحوي قائلًا: ما بك يا خليل، هل تشكو من شيء، فأجبته إنني لم أشْكُ من شيء أبدًا، وإني ولله الحمد على ما يرام، ثم أردفت قائلًا: ولكني أراك هذا اليوم يا عم والنوم آخذ منك مأخذه، فقال: يا ابن أخي إننا على ظهور ركائبنا نسرد كما تسرد الخيل، خاصة في مثل هذا اليوم، شمسه دانية، وحرّه شديد، فعساك لم تشعر بتعب، وأردف قائلًا: هل لك في محادثتي ليذهب عني هذا الإغفاء وأنجو من النوم.

هنا تذكّرت مجلسه في دمشق والجنيهات المرصوصة على بساط الغرفة، فاهتبلتها فرصة لسؤاله قائلًا:

لا أزال أذكر يا عمّ ذلك اليوم الذي دخلت فيه مجلسك وكان يضمُّ شركاءك من تجّار دمشق، وتوزيعك الأموال عليهم دون أن أرى كاتبًا أو شهودًا. فهل لك أن تحدِّثني عن هذه الكيفية البسيطة التي اتّخذتها يوم ذاك؟ قال: يا ابن أخي قلت لك أن تحدثني لا أن تسألني!

فأجبته عفوًا يا عم، إنني لم أحاول إزعاجك، ولكن شيئًا ما زال غامضًا علي، وعالقًا بذاكرتي لم أفهمه بعد، لذا أحببت سؤالك عنه. فهل لك أن تحقّق رغبتي فتكشف لي عن هذا الغموض إنني بأشد الشوق لسماعه، فأجابني حسنًا إذا كنت تريد ذلك فاستمع لما أقول:

نحن ما يسموننا بالعقيلات من التجار النجديين ليست لدينا أموال طائلة تغنينا عن سؤال التجار، ومدّنا بأموالهم كشركاء لنا، لذا نستعين بما نأخذه منهم من الأموال فنضيفها إلى أموالنا ثم نذهب للبادية نشتري الإبل من العربان، عندما تكون هذه الإبل هزيلة نوعًا ما، ويكون أصحابها بحاجة ماسّة لبيعها، ليكتسوا ويكتالوا من أثمانها، ثم نمكث في البادية شهرين أو أكثر، فتخضرّ الأرض ويكثر عشبها ومرعاها، فتأخذ هذه الماشية بالنمو والاعتدال، فنعرضها في الأمصار: دمشق، وفلسطين، والقطر المصري ونبيعها بأثمان مرتفعة عمّا شُريت به، ثم نعود إلى شركائنا من التجار، وندفع لهم أموالهم مع أرباحها، ونحتفظ بثلث الأرباح، لأننا لا ندفع خسارة إذا حصلت لا سمح الله، أفهمت يا ابن أخي؟ فقلت: ألا تعرضون على شركائكم أوراقًا تبيّن لهم مشتراكم لهذه الإبل وأوراقًا مثلها في بيعها؟ فأجاب: لا نحتاج لشيء من هذا القبيل، ولو سئلنا أن نقدّم حسابات في أوراق تثبت شراء الإبل وبيعها لاستنكفنا عن سؤالهم بمدنا من أموالهم، ولكنها الثقة المتبادلة، قائمة فيما بيننا، يا ابن أخي: إن تجار دمشق أخيار طيبون، قلوبهم طاهرة نقية لا موقع فيها للشك، أو الريبة في معاملاتهم معنا، فاصْغ لما سأقوله لك:

كان ذلك منذ ثمانين عامًا خلت، وقد توفي أحد هؤلاء التجار الدمشقيين الذين كانوا يتعاملون مع العقيلات تجار الإبل، بينما الورثة يفتشون في دفاتره، عثروا مدونًا فيها الآتي:

بيد علي من أهل بريدة (300) ليرة عثمانية استلمها يوم الجمعة من شهر رجب 1275هـ، كشريك مضارب معنا، له ثلث الربح، ولا يدفع خسارة إذا حلَّت بتجارته لا سمح الله. وتحتها مدون بالحبر الأحمر: استلمنا أموالنا كاملة، وكان مكسبنا 75 ليرة عثمانية أخذناها منه وأرجعنا له رأس المال الأول ومقداره (300) ليرة عثمانية في تجارة ثانية كشريك مضارب، له ثلث الربح، ولا يدفع خسارة، إذا حصلت بتجارته لا سمح الله.

بيد محمد من أهل الزلفي (200) ليرة عثمانية استلمها يوم الجمعة من شهر رجب 1274هـ كشريك لنا مضارب يأخذ الثلث من الربح ولا يدفع خسارة إذا حصلت لا سمح الله، وهكذا وجد الورثة عدّة أسماء مدونة في هذا الدفتر لم يذكر فيه أسماء عائلاتهم، بل ذكر البلد الذي كان ينتمي إليه هؤلاء التجار، فلقد كان التجار الدمشقيون يثقون بالتاجر العقيلي النجدي، فيسلمونه أموالهم ولا يكتبون بينهم أوراقًا تثبت هذه التجارة، كما لا يذكرون كنيته، بل يشيرون إلى اسمه الأول واسم بلدته، وكانوا يغضّون الطرف عن سؤالهم عن الكنية خوفًا من اشمئزازهم ونفرتهم.

أفلا يحق لنا يا بن أخي أن نحترم ونقدِّر المعاملة الطيبة لهؤلاء التجار الأخيار؟! وفيما نحن في ذلك قطع علينا هذا الحديث رؤيتنا للصيهد ومضارب ابن هذال.

بعد سنين مضت، أخذت أفكِّر وأقارن، بين ذاك الزمن، الذي لم يمْضِ عليه سوى عدد قليل من عشرات السنين، وبين هذا الزمن الذي نعيش فيه، والذي تتتابع أيامه مسرعة، كجري السحاب، تحمل معها البؤس والشقاء، والكذب والخداع والنصب والمكر الشيء الكثير.

في هذا العصر الذي يسمونه بعصر النور والمدنية، عجبًا كيف اختلفت فيه القيم الإنسانية وتدحرجت فيه تيجان الثقة عن رؤوس أربابها، وانتزعت الأمانة وانهار فيه الخلق وفسدت الضمائر، وأصبح الرجل لا يأتمن أخاه.

وإذا سلَّم تاجر لآخر أيّ بضاعة مهما كان ثمنها زهيدًا، تسمع صرير الأقلام على ورق المكوك، يشبه حفيف ورق الأشجار، وكم من تاجر اختلس، وكم منهم ابتلع أموال غيره من التجّار دون خجل أو حياء.

أعود بعد هذا الاستطراد ثانية إلى سياق الحديث فأقول: كانت رحلة طويلة شاقة، وشيقة وممتعة بالنسبة إليّ، فقد كنت أصغر إنسان في هذه القافلة، التي كانت مكونة من مائتين وأربعين رجلًا، وقد تمتَّعت بقسطٍ وافر من عطف رجالها، حيث كنت أتنقل في مجالسهم، من جماعة لأخرى، أشاركهم أعمالهم، وأشاطرهم أنسهم، وهم جلوس حول مواقد نيرانهم، يتداولون الأحاديث الشيِّقة، في الليالي المقمرة، وكانت لا تخلو أحيانًا من غناء وأهازيج يعطي الليل بهجة، والأنفس سرورًا.

على مساحة كبيرة من سهول هذا الصيهد انتشر العديد من البيوت المنسوجة من شعر الماعز وكانت بيوتًا مختلفة الأحجام متفاوتة القياسات طولًا وعرضًا كان منها كبير الحجم ومنها الصغير، منها ما هو قائم على عمودين، ويسمّى في عُرف العرب بـ(المكورن) وآخر على ثلاثة ويسمى بـ(المثولث) منها المروبع، والمخومس، إلّا بيت الشيخ فهد بن هذال، شيخ قبيلة الدهامشة، فقد قام على سبعة أعمدة وسمِّي بالمسوبع.

قبيلة (عنزة) قبيلة قديمة كبيرة تتفرع منها: قبيلتا السبعة، والفدعان اللتان تقطنان في سوريا، وفرع يقطن ما بين تبوك والمدينة المنورة.

ونظرًا إلى المحل الذي كان يتعاقب على بلدان نجد، هاجرت هذه القبيلة إلى بلاد العراق منذ زمن بعيد لما تُنبته أرضها من العشب.

تفرَّقت القافلة ورجالها المئتان والأربعون شخصًا على هذه البيوت، وأنخنا ركائبنا بجانب بيت مربوع، هو بيت جزاع بن مجلاد، أحد مشايخ هذه القبيلة، وكان من معارف العم محمد الأحمد الرواف، بل من أصدقائه.

إن ما يسترعي الانتباه، ويلفت النظر، في هذه القبيلة هو كثرة مواشيها، مئات من آلاف رؤوس الغنم منتشرة كالجراد في واحات هذا المكان الفسيح، المسمى (الصيهد) وآلاف من الإبل ومئات من الخيل المسوَّمة آخذة مرابطها أمام كل بيت من هذه البيوت.

كان منظرها جذابًا فيه روعة وبهجة، كنت ترى الآلاف من الجمال عند ورودها الماء، خاصة مياه نهر الفرات، آلافًا مجتمعة بعضها مع بعض، بألوانها

المختلفة، وأحجامها المتفاوتة وأول ما يتبادر لذهن مشاهدها وللنظار إليها قوله: (أنّىٰ) لهذه الآلاف المؤلفة من هذه الإبل، المندمج بعضها مع بعض أن تنفصل كل مجموعة منها عن الأخرى؟ وأنى لأوليائها أن يتعرَّف كل منهم على ماشيته؟ لم يكن الأمر صعبًا فسرعان ما كنت تراها، بعد أن تطفىء حرارة جوفها من مياه نهر الفرات العذبة، تسمع مناداة رعيانها، ينادونها بأصواتهم العذبة، فيتجه كل واحد منها نحو صوت راعيه فتنفصل هذه الآلاف بعضها عن بعض، ويسير الواحد تلو الآخر، وراء مناجيه، وكان منظرًا جذابًا وإنه لمن المؤسف جدًّا أن تضمحل هذه الآلاف من الإبل، والمئات من الخيل المسومة، وأن تتغير حياة أهل البادية في معيشتها وسلوكها، وحتى في سمتها وأخلاقها. تبدَّلت العادات الطيبة في المجتمع الصحراوي البدوي، وتغير فيه ذاك السلوك الحسن وأخذ يبتعد عن التراث العربي الرائع المجيد، ومثله العليا.

لم نشاهد أثناء سيرنا من سورية حتى العراق أيّ جماعة من أهل البادية، ولم نصادف أي رجل منهم، فقد كان الوقت صيفًا، وسكان البادية كانوا يقيمون في فصل الصيف قريبًا من المدن والقرى، حيث كانوا يبيعون بعضًا من ماشيتهم ويكتالون بأثمانها ما يحتاجون إليه من الزاد، ويكتسون هم وأفراد أسرهم، ويشترون ما يرغبون فيه من الثياب.

لم نمكُث لدى قبيلة الدهامشة سوى بضعة أيام، ولم يتسنَّ لنا شراء الإبل منها لارتفاع أثمانها، فأفراد القبيلة، لم يكونوا بحاجة لبيع ماشيتهم، لكثرة ما بأيديهم من الأموال التي كان ينثرها عليهم الضابط البريطاني (ليثمن) بغير حساب. لقد كان هذا الضابط الذي يلقِّبه الأعراب بالصاحب البريطاني ضابطًا بقلم الاستخبارات البريطانية وقد عهدت إليه حكومة الاحتلال البريطاني بتهدئة القبائل العراقية والوقوف على أحوالها واختبار ميولها وأهوائها، فكان يأكل مع أفرادها ويسايرهم في ميولهم وأهوائهم، وكان مضرب الأمثال في الشجاعة وتحمُّل الصبر، ولم تنقصه الجرأة الأدبية ولا الشجاعة، فسبر غور هذه القبائل ودرس عاداتها وطبائعها ولغتها ووقف على كل خفية من خفاياها، وكان يلبس ملابس العرب، ويجلس في مجالسهم، ويتجاذب معهم أحاديثهم ويفصل بينهم في خصوماتهم.

كان له مضيف في البادية يمكث فيه دائمًا ويستقبل الضيوف فيه، ويعالج أمورهم كواحد منهم، ويقضي بينهم في منازعاتهم، ويفصل بشرعهم وعاداتهم، وقد رأيته، رأي العين، في رابعة النهار، ممتطيًا صهوة جواده، متوشِّحًا بلباسه العربي المكوَّن من عقال مقصَّب وكوفية زرقاء، وثوب ذي أردان، وحذاء ملون، متمنطقًا بحزام من الجلد، ودون عباءة يتجول بين بيوت الدهامشة بمفرده، لا حاشية تتبعه، ولا رفاق يمشون بجانبه أوَلَم يكن ضيفًا لفهد بن هذال، شيخ قبيلة الدهامشة؟ الكل يحترمه ويجلُّه، يحترمونه كضابط بريطاني، ويجلّونه كضيف لشيخهم فهو شأنه في ذلك شأن الكثير من الضبّاط البريطانيين الذين كانوا يؤمّون البلدان العربية قبل الحرب العالمية الأولى، خاصة مَن كان يتعامل منهم مع القبائل العربية.

لسوء حظ هذا الضابط أنه دار فيما بعد حديث بينه وبين الشيخ ضاري الحمود، شيخ قبائل الزوبع، وأحد الناقمين على الحكم البريطاني في العراق، لم يستسغه الشيخ ضاري، وكان ولده خميس حاضرًا، ولما رأى خميس والده قد نفر بهذا الضابط، ما كان منه إلّا أن شهر سلاحه بوجهه، ورماه بطلقة من مسدسه، فأرداه قتيلًا.

كان لمقتله وقع سيىء لدىٰ قومه من البريطانيين المستعمرين للعراق، وخسرت فيه دائرة الاستخبارات البريطانية رجلًا فذًّا، أطلعها على ما خَفِي عليها من أمور أهل البادية العراقية من صغيرة وكبيرة، وما لبث البريطانيون أن ألقوا القبض على قاتله خميس ابن الشيخ ضاري الحمود شيخ قبيلة الزوبع، وأعدموه رميًا بالرصاص. كانت الأخبار تتساقط علينا من بغداد عاصمة العراق المحتل، فالبريطانيون صارمون في حكمهم يستعملون القوة في تنفيذ مآربهم وغاياتهم، ودون هوادة، شأن كل مستعمر وكان للبريطانيين هيبة شديدة، أجبرت ساكني بغداد على الخضوع لهم، والركون لإرادتهم، فلم يجرؤ أحد من أفراد الشعب أن يأتي بأيِّ حركة يُشتَمّ منها النفور والاستنكار لهذا الحكم الأجنبي الغاشم.

كان أفراد الجيش البريطاني من الهنود منتشرين في كل شارع، وأمام كل مدخل من مداخل أزقتها، واقفين بالمرصاد لكلِّ مَن تحدِّثه نفسه بالتمرُّد والعصيان،

حتى أفراد الشرطة المنوط بهم حفظ الأمن كانوا من أفراد هذا الجيش من الهنود، وكان نادرًا ما يقع نظرك على شرطي وطني قائم بعمل ما.

لم يكن أمل سكان بغداد ضعيفًا بجماعة المعدان، القاطنين على شط الفرات فقد كانوا كثيري العدّة ذوي قوة وشكيمة، ولم يعتصرهم الحكم البريطاني بعد، لذا كانوا أمل العراقيين المنشود لوضع حدٍّ لحكم المستعمرين.

على ذكر المعدان القاطنين على شاطىء الفرات، فإنهم كانوا ولا يزالون أباة للضيم ذوي شهامة وكرم وشجاعة ملموسة موروثة كابرًا عن كابر. لقد حفظ التاريخ في طياته، أن جميل بن تميم المعداني، الوسيم الأغر، والشاعر اللبق، والفارس المغوار، كان قد تغلّب على شاطىء الفرات في زمن الخليفة العباسي أمير المؤمنين المأمون، فأرسل قوة وراءه، ولمّا مَثَل بين يديه، رأى الخليفة المأمون أمامه، فتى وسيمًا، جميل الطلعة، ذا هيبة ووقار، فأراد أن يختبره ليرى أين وسامته من قوة منطقه، وشجاعته وشهامته، فأمر بالسيف والنطع فأُحضرا، فقال الخليفة: يا جميل، إن كان لديك حجّة فادْلُ بها أو عُذر فَأْتِ به، فقال جميل: يا أمير المؤمنين، إن الذنوب تُخرِس الألسنة، وتُصدِّع الأفئدة، لقد كبر الذنب، وعظم الأمر، ولم يبْقَ إلّا عفوك أو انتقامك، فأرجو أن يكون أقربهما منك وأوفرهما لديك أولاهما بأخلاقك وأنشد يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنًا ... يراقبني من أيّما أتلفّت
وما ذا الذي يدلي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرىء ممّا قضى الله يفلت
يعزّ على الأوس بن تغلب موقف ... يسل عليَّ السيف فيه وأسكت
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن أموت حتمًا موقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
فإن عشت عاشوا ناعمين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت ماتوا
فكم قائل لا أبعد الله روحه ... وآخر جذلان يسر ويشمت

فقال أمير المؤمنين: اذهب يا ابن تميم، لقد غفرت لك الصبوة، وتركتك للصبية.

غادرنا العراق، والحالة فيه غير مستقرة، وأهله بانتظار الغد، وما يفاجئهم به من عبره وتقلباته، وبعد مسير دام عشرة أيام، قضينا ساعات نهارها، وبعضًا من ساعات لياليها نحثّ السير في منخفضات الصحراء ومرتفعاتها، وفي وهادها وعلى رمالها ألقينا عصا الترحال بمدينة بريدة عاصمة القصيم.

بريدة المدينة التي تعاقبت عليها من الزمان أحداث واختبر أهلها عبر الدهر وتقلبات الأيام، كم من الأمراء تعاقب على حكمها، منهم من مَلَك ناصية الأمر في الإصلاح ومنهم من كان دون ذلك.

لقد جعلها موقعها الجغرافي محطّ آمال الفاتحين، فهي قائمة في منتصف الصحراء وفي متوسِّط البلدان النجدية خضعت لأمراء من آل سعود وآل الرشيد، فترة من الزمن، فمرَّة تخضع لحكم هؤلاء، وتارة تميل لأولئك. وأحيانًا تستقلّ وتختار حاكمها من بين أهلها. أضف إلى ذلك جودة مناخها وطبيعتها، ومواردها الزراعية، وما تنتجه من ثمار النخيل.

لفترة طويلة من تاريخها وقعت تحت تصرُّف أمرائها من آل مهنا، فنبه شأنها، وازداد نفوذها وأصبح أمراء نجد الآخرين يحسبون حسابها، ويتودَّدون إليها ويغازلونها من قريب ومن بعيد.

لكن بعد أن تمكَّن الأمير عبد العزيز بن عبدالرحمن رحمه الله من السيطرة على نجد ومن توحيد الصفوف، وجمع الكلمة، ولمِّ الشمل، أقام عليها أميرًا من غير أهلها، لا حطًّا من شأنها، ولكن لسبب تصارع أهلها فيما بينهم، ولئلّا يفضِّل عبد العزيز جماعة على أخرى، وقد شارك حاكمها رجال من خيرة أبنائها، كانوا يعرفون بـ (الجماعة).

بريدة، المدينة الجبارة الرابضة على الرمال، والمحاطة بالنفود من جهاتها الأربع، لها تجارة واسعة، وزراعة قائمة، ومناخ جاف، تتعاقب عليها الفصول السنوية الأربعة، الصيف وشدّة حرِّه، والخريف ولطف هوائه، والشتاء وقسوة برده، والربيع وبهجة طقسه.

بريدة من أهم المدن النجدية، أهلها مغرمون بحب الأسفار وارتياد الديار، والتنقل في الأمصار، يمارسون تجارتهم في البلدان العربية جميعها، فيجلبون لهذه البلاد المواشي والأنعام، وإنها المدينة التي تستقبل التجار من أهلها القادمين ومعهم أصناف الأقمشة، ومختلف أدوات القهوة وأنواع من الزاد كالأرز وخلافه، يشاطرهم تجار الماشية من العقيلات من مدينة عنيزة، التي ذكرها الريحاني في كتبه فوصفها بباريس نجد، وكان هذا اللقب اسمًا على مسمى، ويُقال بأن الريحاني زار بريدة ولم يلْقَ ترحابًا كبيرًا من أهلها. فذهب إلى عنيزة التي استقبله أهلها على الرحب والسعة.

كان بعض تجّار العقيلات يطيلون إقامتهم في دول تجارتهم. وبهذه المناسبة أسرد قصة طريفة مشهورة بين العقيلات حصلت بين والد وولده منذ سبعين عامًا: سافر حمد المديفر من مدينة بريدة بتجارته إلى مصر، تاركًا ولده محمدًا في الأشهر الأولى من عمره، واستقر الوالد في القطر المصري في مدينة المطرية، مسكن الشيخ فوزان السابق، وزيرنا المفوّض في القطر المصري، وكانت المطرية الموطن الرسمي لتجار العقيلات، ولهم فيها إسطبلات لخيولهم التي يعدّونها للسباق، منهم الشيخ فوزان السابق والمديفر وابن حجيلان وغيرهم.

كبر محمد ولد حمد المديفر، وتزوّج في بريدة وأنجب أنجالًا، ووالده حمد ما زال مقيمًا في القطر المصري.

توجّه محمد (الابن) بتجارته للقطر المصري كما كان يفعل العقيلات، وبرفقته كثير من التجار النجديين، ونزلوا بمدينة القنطرة على الضفة الشرقية من قناة السويس وجرت العادة أن تستقبل جماعة التجار العقيلات المقيمة بالقاهرة - التجار القادمين من البلدان النجدية لشراء مواشيهم، وكان حمد المديفر والد محمد المديفر مع هؤلاء المستقبِلين.

من غريب الصدف أن حمد المديفر، استضاف أحد هؤلاء التجار، وكان هذا التاجر هو ولده الذي تركه وهو ما زال في الأشهر الأولى من عمره، وأثناء تناولهما القهوة مرَّ بهما تاجر نجدي كان يعرف الولد ووالده، فقال: قرت عينيك يا حمد بولدك محمد، فأجابه المديفر أين هو ولدي؟ فقال له: هو أمامك الذي

ترشف القهوة معه، وهنا نهض الوالد والولد وأخذا يقبِّلان بعضهما، حامدين الله على سلامتهما، فكان منظرًا لطيفًا، ومفاجأة سارة لكلٍّ منهما.

بريدة هي المدينة التي كافح أهلها، وجاهدوا جهادًا مريرًا، في سبيل تعزيز كلمتهم والاحتفاظ بعاداتهم وأخلاقهم، فبقيت محافظة على سمعتها وأحدوثتها، ومكانتها الأدبية والاجتماعية والاقتصادية إلى يومنا هذا، كبقية البلدان النجدية.

وعند قيام الإمام الملك عبد العزيز آل سعود، وفي أثناء عمله لتوحيد الكلمة، ولمِّ الشمل المبعثر في الديار النجدية، رأت بريدة فيه زعيمًا ملهمًا، وقائدًا بطلًا يعمل لصالح البلاد، حيث أعاد لها الكثير من مجدها الغابر، وعزِّها الإسلامي الداثر، آزره أهلها وناصروه في جميع غزواته وحروبه، وقدَّموا له المال والرجال.

في هذه المدينة التي هي موطن من مواطن آبائي وأجدادي، كنت مغتبطًا، أجالس أهلها في مجالسهم، وأتمتَّع بكرم ضيافتهم، وأمرح في مزارعهم، وأشاركهم غدوهم ورواحهم خارج المدينة ونحن نتنقل على طعوس رمالها الذهبية.

كنت وأبناء عمومتي ذات مرة نتنزَّه بأطراف المدينة، فالتقينا سمو الأمير تركي، الابن الأكبر للملك عبد العزيز واقفًا بجانب جواده، وهو على أهبة ركوبه، وبعد تبادلنا التحية قال سموه لأحد أبناء عمومتي: مَنْ هذا الولد، وأشار سمّوه بيده نحوي؟ فأجابه أحدهم: هذا خليل ابن عمنا إبراهيم الرواف، من مواليد دمشق أتى لزيارتنا، فقال سموه: مرحبًا بك يا خليل، أنت في ديرتك، وبين أهلك وعشيرتك، ثم امتطى جواده وسار متوجهًا نحو بريدة، وكانت المرة الأولى والأخيرة التي قابلت سموه فيها، فقد انتقل إلى رحمة الله بعد ذلك ببضعة أشهر، في سنة الرحمة عند انتشار مرض الإنفلونزا في أنحاء الجزيرة العربية، فقد قضى هذا الوباء على كثير من ساكنيها أثناء الحرب العالمية الأولى، وسمو الأمير تركي ابن عبد العزيز هو شقيق الملك سعود بن عبد العزيز.

كان السلطان عبد العزيز في حروبه يستعين بأهل الحضر والبادية، فكان يحدِّد مكان تجمُّع القوات ويأتي المقاتلون من الحضر والبادية مزوّدين بمؤونتهم وبعضهم يحمل سلاحه. من الحضر كانت تأتي الخبر وكانت كل خبرة تأتمر بأمر قائدها،

ومن البادية تأتي القبائل تحت إمرة شيوخها، كان القائد عبد العزيز يوزع عليهم الأسلحة والعتاد، وكانت المعارك غالبًا لا تدوم أكثر من عدة أيام. وفي بداية حروبه الأولى لم يحقِّق ابن سعود انتصارات كبيرة كما مُنِي ببعض الهزائم وذلك بسبب انسحاب بعض المقاتلين من أهل البادية من المعارك.

فكر السلطان عبد العزيز، ثم فكّر، فتبيَّن له الحلّ في إرسال العلماء من أهل الرياض والقرى المجاورة لها إلى أهل البادية، ليزهدوهم في الحياة البدوية، وليحبِّبوا إليهم الجهاد، والسكن في المدن والقرى، الأمر الذي استفادت منه القبائل العربية التي باتت تُعرف بالإخوان، كما حقق لهم الراحة والحياة الأفضل في انتقالهم من الحياة البدوية الجافة إلى الحياة الحضرية، وأغدق عليهم الهبات الكبيرة والعطايا الكثيرة، ومنح زعماء هذه القبائل قطعًا كبيرة واسعة من الأراضي لإنشاء القرى وبناء منازل لهم ولقبائلهم التي تتبعهم، وبالفعل أقاموا مائة بلدة وقرية وأخذ الوعّاظ يهدونهم إلى اتِّباع الشريعة الإسلامية التي أمر الله بها، والتي جاء في مواد دستورها القرآني قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1].

لقد قام العلماء والوعّاظ خير قيام بما كُلِّفوا به، وأخذوا يحبِّبون إليهم الجهاد، وأخذ أهل البادية يبيعون مواشيهم، بصورة لم يَعتَدْها الناس من قبل، في أسواق المدن والقرى لكي يتفرّغوا للجهاد فقد أصبحوا بهذه الأنعام من الزاهدين.

إنه لأمر عجيب، بل ومن الغرابة بمكان، وبعيدًا عمّا يتصوّره العقل أو يتخيله، أو يخطر ببال إنسان. هل يُعقَل أو يتصوّر أحد، أن البدوي الذي يهتم غاية الاهتمام بإبله، ويعنى بماشيته عناية فائقة تزيد عن اعتنائه بنفسه وبولده، ويبذل في سبيل نموها كلّ غالٍ لديه وثمين، وينتقل بها في الصحراء، تلفح وجهه سمومها، وتُعمي بصره أتربة زوابعها، وتُدمي قدميه وعورة وهادها وجبالها، كل ذلك يهون عليه، وهو سمِحَ النفس مطمئن البال، طلبًا للكلأ والمرعى لماشيته، ويقاسي في سبيل ذلك من المشاق ما لا يطاق، ولا يحلو له الكلام إلّا عنها، ولا يتلذّذ إلا

(1) سورة النساء، الآية: 59.

بذكرها، ولا يطيب له المنام إلّا في معاطنها، ينفر منها في يوم وليلة، ويبتعد عنها، وتغدو في نظره تعاسة وشقاء، فينبذها نبذ النواة.

إن الإنسان يحقّ له أن يتساءل عن الأسباب التي حملت الأعراب على التخلّي عن ماشيتهم، والنفور منها، هو هذا الأمر، أعني أمر الدين.

وهكذا تمَّ للإمام عبد العزيز بن سعود ما أراد من ردِّ أهل البادية إلى أمورهم الدينية وبناء المدن والقرى لهم وتعليمهم الحرث والزرع.

بدأت في هذا الوقت بعض قبائل البادية مثل: مطير، وعتيبة، وشمر، وحرب، والعجمان، تهجر الحياة البدوية، وبدأوا في بناء المدن والقرى في الصحراء العربية الواسعة، وأخذوا على أنفسهم الالتزام بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وبما أنهم كانوا حديثي عهدٍ بتعاليمه، كانت تصرُّفاتهم قاسية لا تخلو من غلوٍّ في العقيدة وخشونة في سبيل الدعوة.

أرجع الآن إلى ما بدأنا به وهو الحديث عن مدينة بريدة فأقول: أقمنا في بريدة مدّة تزيد على الشهرين وقد استقبلت العم محمد الأحمد الرواف ومَن معه من التجار استقبالًا حافلًا، إذ كان قد قضى في غربته بعيدًا عنها ثمانية عشر عامًا.

إني لا أزال أذكر تلك المفاجأة اللطيفة السارّة عند قدومنا إلى مدينة بريدة إذ برز من المستقبلين شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، يسأل الناس، أين والدي محمد الأحمد؟ فدُلَّ عليه وتوجّه الشاب نحو والده، وأناخ الوالد مطيته، وعانق ولده عناقًا طويلًا، قبّله قبلة حارة لا يعلم إلّا الله مدى وقعها في نفسه، فقد كان هذا الشاب جنينًا في بطن أمه، يوم ترك والده مدينة بريدة، متنقلًا بتجارته بين مدن العراق وسوريا وفلسطين والقطر المصري.

غادرت مدينة بريدة، برفقة العمّ محمد، متوجِّهين إلى مضارب قبيلة شمر لشراء الإبل من العربان، فوجدنا رجلًا من رجال الأمير سعود بن رشيد، أخبر العمّ محمدًا أن والدي ما زال في مدينة حائل، وبصحبته شقيقي ياسين، فنظر إليّ العم محمد، قائلًا: هل لك أن ترى والدك؟ فوقعت كلمته مني موقع السمع والطاعة فودَّعت العمّ محمدًا وتوجَّهت إلى مدينة حائل برفقة رجال ابن الرشيد بقيادة سرور العبد العزيز.

تقاسمت في مدينة حائل، عاصمة آل الرشيد، الواقعة في شمال نجد، مع والدي وشقيقي ورفاقهما، غرف البيت الواسع الذي أعدّه آل السبهان لسكناهم. وكان هذا لأحد أمراء البيت الرشيدي، وأمام قصر الحكم برزان، وبجانب المسجد، لم يفصله عن القصر الرشيدي سوى مكان فسيح يسمّى المسحب. كان أمير حائل - كما سبق - أن ذكرت هو سعود بن عبد العزيز المتعب، مخيّمًا مع أخواله من السبهان، ونخبة طيبة من سكان حائل في مكان يدعى (الحجر) على بعد أميال قليلة من مدائن صالح، والحجر هذه هي إحدى محطات السكة الحديد التي كانت تصل دمشق بالمدينة المنورة، كان يؤمُّها صباح كل يوم قطار قادم من دمشق يحمل لها الزاد والزوار، وما تنتجه دمشق من الأقمشة، وكان لفاكهتها الشهية شأنٌ يُذكر لدى سكان مدينة الرسول محمد ﷺ.

مكثتُ في حائل شهرًا واحدًا قبل أن يعود إليها أميرها ابن الرشيد، وهي بلدة هادئة جميلة، تختلف عن مدينة بريدة في بعض نواحي الحياة، فقد وهبها الله ما لم يهِبْ غيرها من البلدان النجدية، لطفًا في هوائها، وجودة في مناخها، وعذوبة في مائها، ونظافة في شوارعها ولباقة في أهلها وأناقة، ممّا جعلهم يختلفون في نضارة وجوههم واعتدال أجسامهم عن ساكني نجد ومستوطنيها، وكان ذلك قبل أن يمنَّ الله سبحانه وتعالى على أهل بريدة وما حولها بالماء الغزير، فلقد تفجَّر الماء في هذه البقعة من الأرض بكثرة فتضاعف إنتاجها الزراعي بصورة لم يسبِقْ لها مثيل في المملكة العربية السعودية، وكان اندفاعه من الأرض مقدار عشرة أمتار دون استعمال المكائن التي ترفع المياه إلى علوٍّ شاهق.

يتمتَّع أهل حائل بقسط من الحضارة، وتغلب على الكثير منهم عادات أهل البادية وطبائعهم في حياتهم الاجتماعية، وكانوا دومًا على استعداد للانضواء إلى راية آل الرشيد في حروبهم وغزواتهم، لقد كانوا يلبّون نداء أميرهم عندما يستنجد بهم، فهم أهل نخوة وكرم وشهامة وإباء، شأنهم في ذلك شأن أهل المدن والقرى النجدية. إنها بلاد من خيرة البلدان النجدية، تربتها خصبة وثمارها يانعة. وقد راعَ والدي عند تلبية دعوة الشيخ محمد السبهان إلى بستانه بحدر الديرة من مدينة حائل، رؤيته فيه كثيرًا من أشجار الفاكهة المختلفة، والأساليب الزراعية التي كان

يستعملها في هذا البستان، فقال له والدي: إنك يا أخ محمد من خيرة المزارعين وأحسنهم، فأجابه: إننا يا أخ إبراهيم لا نهتم كثيرًا بشؤون الزراعة فلم يترك لنا أمراؤنا، الوقت الكافي لنقوم بتعهُّدها واستغلالها، فدومًا ينادوننا لغزوٍ فنجيبهم إلى ندائهم، فغدونا والحالة هذه لا بدوًا مع البدو، نرعى المواشي ونغزو، ولا حضرًا مع الحضر نمارس تجارتنا ونهتم بزراعتنا، وأتمَّ حديثه بمثلٍ نجدي قديم قال: «صرنا كمعايد القريتين لا شاف خير ولا سلم من ملامة».

كان الحكم في مدينة حائل - كما سبق القول - بيد سعيد المحمد وكان في الخامسة والثمانين من عمره، ومن المخلصين لأعمامه آل الرشيد وقد استخلفه أميرها سعود، أثناء غيابه في الحجر، وكان يشارك سعيد المحمد من آل السبهان المتخلفين في حائل، فلهم كانت الزعامة المطلقة في حكم هذه المدينة، وإمارة حائل، لكونهم أخوال الأمير سعود بن عبد العزيز آل رشيد الذين ساعدوه على استرداد حكمه. وقَدِم آنذاك الشيخ فوزان السابق بصحبة ثلاثة مرافقين إلى حائل من القطر المصري بطريقه إلى بريدة، وزار الوالد، وكان ممّا قاله للوالد: إنك يا شيخ إبراهيم بدار الغربة وربما تحتاج إلى بعض المال، وإني لسعيد بأن أقدِّم لكم كلّ ما تحتاجونه من الأموال، فشكره الوالد كثيرًا، ثم أخبره قائلًا: أنا بخير ولله الحمد.

كانت تربطنا وفهد العبد الله أبا الخيل - وكان لاجئًا عند آل الرشيد - أواصر القربى، وكان فهد من أمراء أبا الخيل المهنا، من حكام بريدة، قبل أن يضمّها الإمام عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود إلى مُلكه، ويوحِّدها مع بقية البلدان النجدية.

كنت أتردّد إلى منزله الذي كان لا يبعد كثيرًا عن منزلنا في حائل، وأصغي إلى أحاديثه التي يتطرّق فيها لأخبار حكم آل مهنا لمدينة بريدة، وكان يقصُّ علينا واصفًا ما كان لمدينة بريدة من مركز سياسي ممتاز، ومركز تجاري واسع.

يقطن بجوار منزلنا لاجيء آخر هو: أبو صفرة من قبيلة مطير وكان مشهورًا بشجاعته وفروسيَّته.

مرض أبو صفرة، وقام والدي بزيارته، وكنت بصحبته أثناء حديثهما وما زلت

أذكر قوله لوالدي: يا شيخ إبراهيم إن الدنيا تتغير وتتقلب، ففي ريعان شبابي خضت كثيرًا من الحروب، وشهدت معارك لا تحصى، ولا تخلو بقعة من جسدي من «صواب»، إما برصاصة أو بشفرة سيف أبو بطعنة رمح وما قدّر الله لي أن أموت في ساحات القتال، ثم زفر زفرة قلت إن روحه ذهبت معها إلى خالقها، وتابع حديثه قائلًا: إنني أموت الآن موت الكلاب على هذا الفراش، فواساه والدي بكلمات خيّل إليّ أنها كانت بردًا وسلامًا على قلبه المفجوع.

كذلك كان في مدينة حائل لاجىء آخر هو الشاعر محمد العوني، من أهل بريدة، وكان يتنقل في مجالس آل الرشيد والسبهان فيصغي الحاضرون في هذه المجالس إلى أحاديثه المرحة، ويأنسون لِما كان يُلقيه على مسامعهم من الشعر المثير اللاذع. وحدث بين أمير حائل سعود بن رشيد، وقبيلته عربان شمر، بعض الخلافات، فغادرت قبيلة شمر الأراضي النجدية إلى العراق، فقطن قسم من هذه القبيلة بالجزيرة التي بين النهرين المتوسطة بين بغداد والموصل، حيث الأرض الطيبة والمناخ المعتدل والكلأ والمرعى، وكانت هذه فرصة استغلّها النوري بن شعلان زعيم قبيلة الرولة الكثيرة العدد والعدّة الحربية واستعان بعودة أبوتايه، شيخ قبيلة الحويطات، إحدى القبائل الأردنية، واستولوا على مدينة الجوف التابعة لإمارة حائل. وعَلِم بذلك سعود بن رشيد فاتّصل بالشاعر اللاجىء محمد العوني ليَنظُم قصيدة من قصائده المثيرة، يستنجد فيها بقبيلة شمر ويستنفرها على عدوه ابن شعلان، وأرسلها مع ابن أخيه عبدالله الطلال، ثم توجّه إلى مدينة سكاكا القريبة من الجوف، منتظرًا وصول النجدة من قبيلة شمر.

حلّ ابن أخيه ضيفًا على قبيلة شمر، وتلا قصيدة الشاعر العوني على مسامع رجالها ومنهم الفارس المغوار ضاري بن طوالة يستنجدهم فيها، ويثير حماستهم ومروءتهم وغيرتهم، فما كان منهم إلّا أن لبّوا نداء أميرهم وتوجّهوا إلى مدينة سكاكا لنجدة الأمير وإخراجه من مأزقه الحرج الذي هو فيه.

تقابل الفريقان: فرسان قبيلة شمر من جانب وقبيلة أبوتايه وقبيلة الرولة من جانب آخر، وكانت موقعة شرسة انتصرت فيها قبائل شمر، وولّت قبيلتا الرولة والحويطات الأدبار وتخلتا عن مدينة الجوف.

ممّا يُذكر حول هذه الموقعة الحربية، عن لسان عودة أبوتايه الفارس الشجاع الذي لم يُذكر عنه أنّه فرّ من ميدان معركة خاضها قط، والذي لم يخسر موقعة واحدة طيلة حياته، قوله: لم يخطر ببالنا أن تُنجِد قبيلة شمر أميرها سعود بن رشيد بهذه السرعة بعد نفورها عنه، وتأخذ بيده، لقد اغتنمنا أنا والنوري بن شعلان الفرصة واحتللنا الجوف ومنها توجّهنا إلى مدينة سكاكا لاحتلالها، فألقينا فيها الحصار على الأمير ابن رشيد، فحاصرناه عدة أيام، وفي أثناء تلك الأيام ترامى إلى مسامعنا أن شمر قادمة لنجدة أميرها، وما كان إلّا يوم أو بعض يوم حتى نشب القتال، بيننا وبين قبيلة شمر، وبينما كنت أخوض المعركة بثبات وصمود وقعت عيني على خيَّال يمتطي جوادًا أصفر، عاري الرأس، منتفج الشعر، يحثّ جواده نحوي، والله لم يرتعش قلبي في حروبي الكثيرة كما ارتعش لرؤية هذا الفارس، فلمّا قرب مني صاح بأعلى صوته أخو شما ضاري بن طوالة، فما كان مني إلّا أن أدرت رأس فرسي فرارًا منه، فكانت بداية هزيمتنا.

من عادات العرب المتّبعة والمستحسنة، بل ومن صميم أخلاقهم، ألّا يبخسوا أعداءهم شيئًا من قوتهم، ولا يرون من عار إذا أبدوا شجاعة أعدائهم في حروبهم، ولا يرون في ذلك سبَّة ولا عارًا.

يذكرني عودة أبوتايه وصراحته في حديثه عن هذه الموقعة التي انهزم فيها، وفرَّ خائفًا من وجه ضاري بن طوالة - بقول الشاعر الجاهلي، عبدالشارق الجهني وهو يصف معركة جرت بين قومه وبعض القبائل:

فجاءوا عارضًا بردًا وجئنا ... كمثل السيل نركب وازعينا
فنادوا يا لبهنة إذ رأونا ... فقلنا أحسني ضربًا جهينا
فلما لم نَدَعْ قوسًا وسهمًا ... مشينا نحوهم ومشوا إلينا
شددنا شدة فقتلت منهم ... ثلاثة فتية وقتلت قينا
وشدوا شدة أخرى فجروا ... بأرجل مثلهم ورموا جوينا
وكان أخي جوين ذا حفاظ ... وكان القتل للفتيان زينا
فأبوا بالرماح مكسرات ... وأبنا بالسيوف قد انحنينا

فباتوا بالصعيد لهم أحاح ولو خفت لنا الكلمى سرينا

زرت في آخر يوم من أيام شهر رمضان المبارك لعام 1336هـ - 1918م - وكنا لا نزال في مدينة حائل - قصر برزان مقرّ الحكم بصحبة الرجل الطيب محمد العلي المهتم بشؤون ضيافتنا، وكنت على موعد معه ليُريني المطبخ الكبير في هذا القصر (والقدر جولان) الذي هو مضرب الأمثال في سعته، لقد كان قدرًا كبيرًا، قائمًا على أربع قواعد من البناء، يبلغ طوله ثلاثة أمتار، وبدائرة قطرها متر ونصف المتر، يستوعب ثلاثة من الإبل، تُرفَع إليه بسلاسل من حديد، وتُنزل منه الإبل بواسطة هذه السلاسل، وله «حنفيات» - أي (بزابيز) - حسب قول أهل نجد، ضخمة يتسرَّب منها المرق، وإذا أريد غسله، ينزل فيه رجل فيقوم بغسله، وقد راقبت إنزال الإبل الثلاثة فيه، وكان المطبخ واسعًا جدًّا، يلعب فيه الخيال - كما قال لي محمد العلي - ملقى في أحد أركانه ما يقرب من مائة وخمسين رأسًا من الغنم خلاف الإبل الثلاثة وكلها جاهزة للطبخ، فكان منظرًا رائعًا يلفت إليه الأبصار.

ممّا يُذكر عن جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله بعد فتح حائل أنه لمّا دخل إلى هذا المطبخ لم تأخذه غبطة السرور والغرور وإنما ملأت الدموع عينيه بالشكل الذي أثار حيرة وزرائه. وأعتقد أن حزن عبد العزيز كان تقديرًا من قائد عربي مغوار لمكانة وكرم ورجولة خصومه الذين هزمهم في ساحات المعارك، هذه هي الشيم العربية القديمة التي بقيت نابضة بالحياة في داخل نفس الملك عبد العزيز.

لقد كان عبد العزيز عطوفًا كريم النفس، لذا نَقَل آل الرشيد وأتباعهم بعد هزيمته لهم إلى عاصمة مملكته الرياض، وأغدق عليهم من النعم ما خفَّف عنهم محنتهم، التي حلَّت بهم، فقرَّبهم منه وساوى بينهم وبين آل سعود في العطاء وما يحتاجون إليه في هذه الحياة.

نعود لنواصل حديثنا عن مدينة حائل في صباح عيد الفطر في المسحب، المكان الفسيح، أمام قصر برزان، كانت الموائد العديدة منسَّقة تنسيقًا جميلًا، منها ثلاثة مناسف، ذات قواعد ترتفع عن الأرض قليلًا، وكان لكل من هذه المناسف ست حلقات كبيرة ضخمة مرصوصة بأطرافه يحتوي كل منها على كمية من الأرز،

تعلوه ناقة مقطوع رأسها وقوائمها، وحولها خمسة رؤوس من الغنم، هذا ما كان يحتويه كل منسف من هذه المناسف الثلاثة وغيرها من المناسف العديدة المنتظرة في هذا المسحب.

كان مجلس والدي ومجلسي إلى أحد هذه المناسف الذي خُصِّص للأمير سعود بن رشيد، فكنت لا أرى الجالسين أمامي من الجهة الثانية من المنسف، لِما كان يعلوه من الأرز واللحم، فقد كان - كما قلت - على هذا المنسف ناقة وحولها خمسة من الغنم. وقبل البدء في الطعام حضر عبدان مفتولا السواعد، فارعا الطول بثيابهما البيضاء الناصعة، وشمَّرا أردان ثيابهما عن ذراعيهما، وسلّا سيفيهما، وأخذا يفصلان سنام الناقة عن بعضه، فكان الدهن ينساب من خلال مواقع سيفيهما، كما ينساب ماء المطر في جداول الهضاب.

إنّه لمنظرٌ شفاف بديع بقي عالقًا بناظري منذ ذلك الحين، ولن أنساه. وكان من العادات المتبعة عند آل الرشيد، الذهاب في صيف كلِّ عام لبستان السبهان في محل يسمى (عقدة) شمال حائل، من جبال (أجأ، وسلمى).

ودُعِي والدي وكنت بصحبته لحضور هذه النزهة، وأثناء جلوسنا مع أمير حائل، قام حمد الغاشم، المعروف بلباقته وظرفه، وخفّة دمه وروحه، وأخذ يخلع مشالح الحاضرين من على أكتافهم، ثم بدأ يأخذ مشلح الأمير سعود بن رشيد، وهكذا كان شأنه مع بقية الحاضرين واستثنى من الموجودين والدي وأنا معه، وكان يُلقي على كلِّ مَن أخذ مشلحه كلمات كلها ظرف وخفّة ولما انتهى من عمله، غمز الأمير سعود عبيده فألقوه في بركة من الماء والطين واغطسوا فيها رأسه حتى توارى عن الأنظار، ثم قام وعلى وجهه المكسوّ بالطين، ابتسامة الظفر، وفي فمه لسان ذرب.

أواصل حديثي عن مدينة حائل وما أحلى الحديث عنها، لقد أقمتُ تسعة أشهر في ربوعها، كانت من أنفس أيام حياتي ولم ينغِّص علينا عيشتنا اللذيذة التي كنّا ننعم فيها باحترام زائدٍ وإكرام متواصل لا من آل الرشيد وآل السبهان فحسب، بل من سكان هذه المدينة الطيبة، سوى الوباء الذي عم البلدان النجدية كلها، وذهب ضحيته خلق كثير.

مرَّ هذا الوباء فاختطف الأمير تركي، أكبر أنجال الإمام عبد العزيز بن سعود،

كما توفيت فيه قرينته المحبة إليه، شقيقة الأمير عبد العزيز بن مساعد، والدة نجليه الأمير محمد والملك خالد رحمهما الله، فقد كان يستشيرها في بعض الأمور ويأخذ برأيها ونصائحها.

أثناء هذا المرض الذي قضى على كثير من رجال نجد، كنت أتردَّد مع والدي على منازل أهالي حائل نحمل معنا علاجًا من بعض أعشاب الحجاز يسمى (سنامكي) كنّا نقوم بغليه بالماء مقدار ساعة من الزمن، ونعصر فوقه الليمون ليخفِّف من حدة مذاقه ونسقيه للمرضى، فبحكمة الله ما شرب منه أحد إلّا عافاه الله.

مكثنا بعملنا هذا عدة أيام نتردّد على بيوت المصابين بهذا الداء (الإنفلونزا) وفي اليوم الأخير مرضتُ وبقيت طريح الفراش عشرة أيام.

لمّا عاد سعود بن رشيد ومعه أهالي حائل، من محطة سكة الحديد المسماة بالحجر، التي أقام فيها تسعة أشهر، إلى إمارته حائل، عاد وهو يحمل في نفسه خيبة أمل من العثمانيين، ويكنُّ في قلبه أمرين هما: الندامة والأمل، الندامة على الزمن الطويل الذي واكبَ فيه ركب آل عثمان الأتراك عند أفول نجمهم، والأمل بتحسين الصلات مع الحسين بن علي أمير مكة وأنجاله الذين انتشر حكمهم في الحجاز كله حتى وصل إلى أطراف نجد، وكانوا الأعداء لخصمه الأمير عبد العزيز ابن سعود.

فأوحى إلى أخواله آل السبهان بما كان يجول في نفسه ويتردَّد في خاطره من الحسرة والندامة على ضياع الأيام مع قوم مالَ حظُّهم وقَرُبَ أفول نجمهم، وها هم يغادرون البلاد العربية بلا رجعة إليها، فارّين أمام فيصل بن الحسين وجنوده من عرب البادية. وما لبث الأمر بنا وبالأمير سعود بن رشيد غير وقت قصير، لا بل قصير جدًّا حتى وردتنا الأنباء تشير إلى دخول فيصل بن الحسين وجنده دمشق عاصمة الأمويين منتصرًا.

كان لانتصار فيصل بن الحسين وتحريره لمدينة دمشق، وقعه الحسن لدى والدي إبراهيم الرواف، الذي غادر مدينة دمشق منذ عامين فرارًا بنفسه من حاكم دمشق التركي جمال باشا، الذي طلب منه - كما ذكرت سابقًا - الذهاب إلى مضارب النوري بن شعلان شيخ قبيلة الرولة، ودعوته وولده الأمير نواف لزيارته في

دمشق للقضاء عليهما، فقد كانت الصداقة متينة بين الشيخ نوري ووالدي، فغادر الوالد كما قلت دمشق دون رجعة إليها ما دام الحكم التركي جاثمًا وقائمًا في ربوعها، وأبى الامتثال لأوامر السفاح التركي.

طالَ مكوث الوالد في مدينة حائل سنة كاملة، ومن قبلها سنة أخرى أقامها في كلٍّ من الكويت ومدينة الزبير التي احتُجِز فيها من قبل البريطانيين.

هيأ الوالد الآن نفسه للعودة إلى مدينة دمشق، واستأذن من الأمير سعود بن رشيد ومن أخوالهم آل السبهان، شاكرًا لهم حسن ضيافتهم، وفي مقدِّمتهم الشيخ علي بن محمد السبهان الذي كان مجلسه الواسع يضمّ رجالات حائل، وكم من مرّة انتظمنا مع الوافدين للسلام عليه، وفي إحدى زياراتنا له طلب مني تلاوة القرآن الكريم فتلوت ما تيسَّر من أوائل سورة يوسف.

في اليوم الذي غادرنا فيه مدينة حائل، بعد مكوثنا فيها ما يقرُب من عام، وعند عودتنا من وداع سمو الأمير سعود بن رشيد ألفينا أمام منزلنا، ثلاث ركائب، وفي داخل المنزل رجلين من رجال الأمير، يحمل كلٌّ منهما بندقية موزر ألماني، من السلاح الذي كانت ترسله لسموه الحكومة العثمانية، فسلَّماها لوالدي، مع بدرة من المال، لا أعلم مقدار ما كانت تحتويه من النقود حتى يومنا هذا، وقال أحدهما إن أمام المنزل يا شيخ إبراهيم ثلاث ركائب هدية من الأمير سعود، وكان هذا الرجل أحد رجال الأمير سعود، سليمان العنبر والد محمد العنبر، فودَّعنا هذين الرجلين، وغادرنا مدينة حائل المدينة الطيبة نحن وخمسة أشخاص من أهلها مع سرور العبد العزيز الذي كان يحمل رسالة من الأمير سعود بن رشيد إلى الأمير فيصل بن الحسين في دمشق، تحتوي على تهانيه الحارّة بدخوله دمشق فاتحًا وطردِه الأتراك منها، ويسأله في هذه الرسالة أن يعيد إليه ما استولى عليه الجيش العربي من الأموال والأمتعة والذخيرة الحربية التي قدَّمتها له حكومة الأتراك، والتي كانت بعُهدة وكيله رشيد الناصر. لقد أراد الأمير سعود لهذه الرسالة أن تكون فاتحة عهدٍ جديد بينه وبين الحسين بن علي حاكم مكة المكرَّمة، والمنادي بنفسه ملك العرب، وأنجاله الثلاثة الإخوة: علي أمير المدينة المنورة، وعبدالله الذي كان يجهِّز حملة لقتال الإمام عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، وثالثهم فيصل الذي أخذ يُعِدُّ العُدَّة ليتربّع على عرش سورية.

الفصل الثالث

استعراض للجيش في المدينة المنورة ومعركة في تربة

عقدنا العزم على التحرُّك صوب المدينة المنورة مرقد الرسول ﷺ ودار هجرته، وكانت تنتابنا بعض المخاوف من قطَّاع الطرق الذين، سمعنا أنهم منتشرون في المنطقة بين حائل والمدينة، يعترضون سبيل كل عابر، يهدِّدون الأمن ويجعلون من السفر عبر تلك الصحراء مغامرة يصعب الإقدام عليها. غير أننا توكّلنا على الله وبدأنا مسيرتنا نحو يثرب، نستتر تحت جنح الظلام لنتفادى قطَّاع الطرق وقد يسَّر الله لنا طريقنا ولم يقابلنا شيء يُذكر سوى بعض الطلقات النارية التي كنّا نسمعها من آنٍ لآخر.

لم يعترض سبيلنا أحد، حتى وصلنا المدينة المنورة، مرقد الرسول محمد ﷺ، ودار هجرته، وكان الأمر خلافُ ما ترامى إلينا من الأخبار، أثناء إقامتنا في حائل من أنّ حبل الأمن، بين حائل والمدينة مضطرب، وغير مستتب، وقطَّاع الطرق منتشرون هنا وهناك، وتحت كل شجرة من أشجار الصحراء، فهذا ما أخبرنا به قبل مغادرتنا مدينة حائل، وكنّا نواصل السير تحت تأثير هذه الأخبار لقطع المسافة، متسلِّلين بجناح الليل، ومستترين بظلامه الحالك.

بعد مسيرٍ دام ستة أيام لم نَلْقَ في غضونها ما نغَّص علينا إلّا بعض طلقات نارية صوِّبت علينا، ليلًا، لم نعلم مصدرها، تابعنا السير، إلى أن تراءت لنا المنارات الأربع لمسجد الرسول محمد ﷺ والقبة الخضراء، فدخلنا المدينة المنورة وقت الظهيرة، وكان علي بن الحسين أميرًا عليها.

بلغ عدد نفوس المدينة المنوَّرة قبل الحرب العالمية الأولى سبعين ألف

مواطن، وكان قطار سكة الحديد الذي يصل المدينة المنوّرة بمدينة دمشق، يطرق أبوابها صباح كل يوم، فيوقظ صفيره المتواصل سكانها من رقادهم، وكان يحمل إليهم عددًا كبيرًا من زوّار المسجد النبوي القادمين للصلاة فيه والسلام على الرسول محمد ﷺ، قادمين من مختلف البلاد الإسلامية، تاركين وراءهم أهلهم وأوطانهم وكلّ ما يملكونه من متاع الدنيا وناقلين معهم ما كانت تحيكه سورية من المنتوجات الوطنية، وما تنتجه تربتها من الخُضَر والثمار، فكانت حالتها الاقتصادية تنمو بسرعة، وتتطوّر مع تقدُّم الزمن، لذلك عمَّ الرخاء كافة طرق الحياة فيها، ودخلت في طور جديد من التقدم والازدهار.

عاش أهل المدينة يتمتعون بهذه الحالة الزاهرة، وبهذا الوضع الجميل، وما جاءهم به من الخيرات، ولكن للدهر تقلباته وأطواره، فلقد جاءت الحرب العالمية الأولى بويلاتها وفواجعها، ودخلت الحكومة التركية في معمعتها فكانت حليفة لألمانيا والنمسا، واستعَرَ لهيب هذه الحرب الضروس، وأصاب أهل المدينة الكثير من أضرارها، وداهمتهم خطوبها وأهوالها.

كان في الجيش التركي المتمركز في المدينة المنورة قبل دخول الجيش العربي إليها بعض من الضبّاط العراقيين مثل جميل الراوي، الذي رافق الأمير علي بن الحسين، أثناء إمارته على المدينة المنورة بعد تسليمها، وبقي ملازمًا له إلى أن توّج ملكًا على الحجاز بعد تنازل والده عن الحكم، ومنهم ضابط عراقي آخر يدعى شكري البغدادي، وكان شاعرًا لبقًا، وقد قصَّ علينا القصة التالية في منزل الشيخ عبدالقادر المغيربي، فقد كنا ضيوفًا عنده، قال:

كان فخري باشا القائد التركي العام، قد سلب نفائس الحرم النبوي، وبعث بها إلى الأستانة وكان من هذه النفائس، التاج الذي كان قائمًا على ضريح مرقد فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

عندما يئس هذا القائد التركي من الصمود أكثر ممّا صمد، وأدرك عدم مقدرته على المحافظة على المدينة من هجمات العرب المتكرِّرة، لمَس من بقي معه من الضبّاط والجنود يأسه وقنوطه، ولقد قمتُ بنظم قصيدة عزمت على إلقائها بين يدي القائد العربي عند دخوله المدينة المنورة فاتحًا، جاء فيها:

الله الله يـا أبـنـاء فـاطـمـة   هل أخذه التاج يرضيكم ويرضيها

وواصل حديثه بقوله: وبينما كنت أتأهّب للرقاد إذا بباب منزلي يطرق بشدّة ففتحته منزعجًا فوجدت لدى الباب ضابطًا، ومعه جنديان، دعوني لمقابلة القائد فخري باشا، فصُعقت لهذا النبأ، وكان أوّل ما تبادر لذهني، أن فخري باشا عَلِم بهذه القصيدة، فأرسل هؤلاء الجنود لإلقاء القبض علي لتأديبي لهذه الخيانة العظمى، التي جزاء مَن يرتكبها الإعدام.

أدخلتُ الضابط والجنديين إلى المنزل، وطلبتُ منهم الانتظار قليلًا بينما أستبدل ملابسي، فدخلتُ غرفتي ثم أخذت بتمزيق أوراق القصيدة، وكانت نسخة منها عند السيد عبدالقادر المغيربي، ولم أُطلِع عليها أحدًا غيره، ثم سرتُ برفقة الضابط والجنديين إلى لقاء القائد فخري، فدخلت عليه وحييته، ولا أدري هل ردَّ علي تحيّتي أم لا، لقد كنتُ بحالة تشبه حالة من فَقَد جميع حواسه، ووجدتُ القائد مضطرب الأعصاب، مكفهرّ الوجه واضعًا كِلتا يديه خلف ظهره، يذرع بخطاه أرض غرفته الواسعة فتحقَّق لديَّ ما فكّرت به من قبل، ومكثتُ واقفًا بمكاني كأني على رأسي الطير، وقد تسمَّرت قدماي فلم أُبْدِ حِراكًا وأخذَت خلجات قلبي تضطرب، والهواجس تنتابني وتهزني هزًّا عنيفًا، وقلتُ في نفسي، أَبَعْدَ خدمتي الطويلة في الجيش العثماني تلحق بي الخيانة؟ ولم أَدْرِ كم قضيتُ من الوقت واقفًا وما نبّهني من ذهولي، وشرود أفكاري إلّا قول القائد: اجلس يا شكري.

فتنفَّست الصعداء وجلستُ على أقربِ مقعدٍ مني، ثم التفت إليَّ، قائلًا: إن لديّ أمرًا بالغ الخطورة مَلَك تفكيري طيلة الأيام الماضية، إنّ الحرب قد انتهت بفوز بريطانيا وحلفائها، وقد قرّرت ألّا أَدَعَ هؤلاء الأعراب يحتلّون المدينة وفيها حجر قائم على حجر، وصمَّمت على أن أنقلَ ما أمكَنَ من نقله من الذخيرة الموجودة في المدينة، وأضعها في الحرم الشريف وأجعله مقر قيادتي وإقامتي، حتى إذا ما تغلَّب الأعراب علينا قمتُ بتفجير هذه الذخيرة، وتركتُ المدينة وحرمها لهؤلاء الأعراب قاعًا صفصفًا، وغادرتُ هذه الحياة وأنا راضٍ بما قمتُ به، ونظرًا إلى منزلتك عندي، وثقتي بك، أبديتُ إليك هذا الأمر، لتكون على استعداد

لمغادرة المدينة، عند أول إشارة تصدُرُ مني إليك لتقصّ على الملأ قضيتي، وما قمتُ به من الأعمال في سبيل الإسلام وشرف الجيش العثماني.

أطرقتُ إلى الأرض إثر سماعي قوله ووضعتُ رأسي بين يدي، ومكثت وقتًا يسيرًا أفكّر بما قاله هذا القائد الطائش، المغلوب على أمره، وتحقّق لي أنّه قد مسّه شيء من الخبل، وَدَدْتُ، لو أنه اطّلع على القصيدة وقام بإعدامي فذلك خير لي من أن أرى المدينة وحرمها تتفجر فيه هذه الكميات الكبيرة من الذخيرة الحربية، إنها مرقد الرسول محمد ﷺ، فرفعتُ رأسي وبادرتُ القائد فخري بقولي: أيها القائد إن الحكومة العثمانية مقدِّرة لك عملك، ووقوفك بوجه هذه الطغمة العربية طيلة هذه السنين سواء فجَّرتَ هذه الذخيرة في الحرم النبوي مرقد الرسول محمد ﷺ أم لم تفجّرها، وسواء سلّمت مدينة الرسول للأعداء أم لم تُسلِّمها، وإنّ التاريخ يحتفظ بالذكرى لكثيرٍ من أمثالك، سيذكرهم بكثيرٍ من الإعجاب والتقدير، ولن يبخسهم حقهم، وإنّك قائدٌ متدين تخشى الله وتتّقيه، فإنْ أقدَمْت على هذا العمل، فالمسلمون لن يغفروا لك هذه الزلّة قطّ وستلحقك دعواتهم بما لا يسرّك، ما تعاقبت الأيام، ومرَّت السنون، وإنّ التاريخ سيذكرك وحكومتك بما لا يشرِّفك، ففكّر بالأمر قليلًا قبل إقدامِك على هذا العمل المشين، وإني سوف أحتفظ بما ذكرته لي في قرارة نفسي، فلا أبوح به لأحد.

ما انتهيت من قولي حتى أخذَت قواه بالانهيار، ووقع مغشيًّا على الأرض، ولم يَفِقْ من غيبوبته إلّا بعد وقت طويل، ثم نهض متخاذلًا، ولم ينبَس ببنت شفة، وغادر غرفة مكتبه فاتَّبعته حتى دخلَ غرفة النوم واستلقى على الفراش.

هذا ما قصّه علينا الضابط الشاعر شكري البغدادي، وأحببت أن أدوِّن قصيدته في أحد فصول هذا الكتاب، ولكن أنّى لي هذا، فقد انتقل الشيخ عبدالقادر المغيربي والشاعر أيضًا إلى رحمة الله، كما أنني لا أعرف عنوان ولده محمد المغيربي الفتيح، فكتبتُ إلى الشاعر الكبير الشيخ إبراهيم الغزاوي نائب رئيس مجلس الشورى، مستفسرًا منه عن زميله الشيخ محمد المغيربي ولد المرحوم عبدالقادر المغيربي، فوافاني كتابه وبه عنوان زميله بالإسكندرية، فاتّصلت به، وتراسلتُ معه ولكنني لم أتمكن من الحصول على القصيدة.

بعد سقوط المدينة المنوّرة، تحت ضغط الجيش العربي، وهجماته المتكرِّرة، استسلم القائد التركي فخري باشا، وسيقَ أسيرًا إلى منطقة قناة السويس، وسُلِّم للبريطانيين، وقلت فيما تقدَّم، إنَّ تعداد نفوس المدينة المنورة قبل الحرب العالمية الأولى بلغ سبعين ألفًا، فمنهم مَن هاجر إلى دمشق ومنهم من توجّه إلى مدينة حائل، ومنهم من قضى نحبه جوعًا، ومنهم من لحق به الوباء، ففاضت روحه لخالقها، ولم يَبْقَ من السبعين ألفًا من السكان، عند دخول الجيش العربي بقيادة الشريف عبدالله بن الحسين، سوى سبعة آلاف مواطن، كانوا خائري العزائم منهكي القوى. هكذا هي الحروب وويلاتها، إنها آفة الحضارة، وعثرة في سبيل التقدم والازدهار.

بدأت الحياة تدُبُّ في البقية الباقية من سكان المدينة، بعد حصار شديد مُحكَم دام سنتين، وأخذت شوارعها تعجّ بأفراد الجيش العربي المنتصر، وقد دخل يحمل معه الزاد والكساء، بقيادة الشريف عبدالله الابن الثاني للحسين بن علي ملك الحجاز، وكان يختلف عن شقيقه الأكبر، الأمير علي بن الحسين أمير المدينة.

كان الشريف عبدالله لا يهتم كثيرًا بشؤون المدينة وقاطنيها، وقد ترك ذلك لأخيه الأكبر علي وكان كلّ همِّه وتفكيره، موجّهًا لغزو البلاد النجدية ومقاتلة الملك عبد العزيز بن سعود في عقر داره.

وكان عدد أفراد جيشه أثناء حصاره للمدينة المنورة، ستة آلاف مقاتل، بكل متطلّباته من طهاة وحرّاس ومواصلات، مع الفِرق الطبية، ولوازمها، وكان أغلب أفراد هذا الجيش من القبائل العربية، وقليل من الحضر من أهل المدن وقد انضمّ إليه الجنود من مخلّفات الجيش التركي من أبناء البلدان العربية كدمشق والعراق، فبلغ ثمانية آلاف جندي، ألفان منهم كانوا مدرَّبين تدريبًا عسكريًّا ومعهم معداتهم الحربية، وقبل أن يعزم هذا الجيش على التوجّه إلى البلدان النجدية، أقام الأمير عبدالله عرضًا عسكريًّا دعا لحضوره أهل المدينة، وزوّارها، وكان والدي من هؤلاء الزوار وكنت برفقته.

وقف الشريف عبدالله - القائد الأعلى للجيوش العربية - على قدميه مقدار ساعة من الزمن يحيِّي الجيش المار أمامه، وفي أثناء هذا الاستعراض التفت

الشريف عبدالله نحو والدي، قائلًا بنبرة نجدية: «وش تقول يا شيخ إبراهيم في هذا الجيش، هل يمكن لابن سعود وبدوه الحفاة مواجهة هذا الجيش والثبات أمامه؟». . وواصل حديثه قائلًا: «إنني أريد الأحساء من وراء الرياض». فأجابه الوالد: (لا حول ولا قوة إلا بالله ويقضي الله أمره).

عند عودتنا من مشاهدة هذا الاستعراض قال والدي، وكان التأثُّر باديًا على محيّاه: أنّى لهذا القائد المتعجرف اقتحام حدود نجد، إنّ دون ذلك خرط القتاد، ثم أردف يقول: لكنها الفتنة قد استيقظت ولعَنَ الله موقظها.

كان من حضور هذا الاستعراض سرور العبد العزيز رسول ابن رشيد لفيصل في دمشق، وكان طيلة هذا الاستعراض فرحًا مستبشرًا يُبدي إعجابه، عند مرور كل سريّة من سرايا الجيش، ومن شدّة فرحه قال: سيكون ابن سعود بين هذا الجيش، وبين شمر وأميرها سعود بن عبد العزيز بن رشيد كحَبِّ البُرِّ، بين راحتي الطاحون.

هذا ما قاله عبد ابن الرشيد المدعو سرور العبد العزيز، ولم يكن يعلم أنّ هذا الجيش سيُهزم شرَّ هزيمة وستلوكه الألسن في كل ركن من أركان العالم. ولم ينتظر سرور عبد العزيز طويلًا، في المدينة المنورة، ولم يمكث لتأتيه أخبار هذا الجيش المعجب به، بل واصل سيره إلى مدينة دمشق، لمقابلة الملك فيصل، ليسلِّمه رسالة أمير حائل سعود بن رشيد.

كنت ووالدي نقضي كثيرًا من الساعات في الحرم المدني نجلس على السدَّة القائمة خلف مرقد النبي ﷺ وخليفتيه من بعده أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهي السدَّة التي خُصِّصت للقائمين على مراقبة الحرم الشريف، المهتمين بشؤون نظافته من الآغوات كانوا يقيمون عليها شعائرهم الدينية من صلاة وتسبيح واستغفار، ويأخذون عليها قسطًا من الراحة بين الصلوات، وكانوا موضِعَ تقدير واهتمام الزائرين والمصلين، فسواد وجوههم الداكن وبياض ثيابهم الناصع وطول أجسامهم الفارعة وسكونهم وهدوئهم الملازم لهم، جعل الإنسان لا يملُّ مشاهدتهم، وكانت الحكومة العثمانية ترسلهم من إسطنبول ليقوموا بخدمة الحرم النبوي الشريف والحرم المكّي.

للآغوات هؤلاء أوقاف كثيرة في البلدان الإسلامية، وفي كل عام كانت تقوم

جماعة منهم بالذهاب إلى البصرة من أعمال العراق، حيث كان لهم فيها أوقاف كثيرة من نخيل وبيوت ومخازن.

أثناء جلوسي بالحرم النبوي، كانت تعاودني ذكريات جميلة طيِّبة مرّت أمامي مسرِعة الواحدة تلو الأخرى، لقد تذكّرت النبي ﷺ تاركًا مكّة البلد الطيب مسقط رأسه ومهد طفولته وشرخ شبابه، البلد الذي تلقّى فيه رسالة ربه، فرارًا بدينه وبنفسه من أذى قريش، ومن جبروتها وقسوتها عليه، وعلى من اتّبعه.

تذكرته ﷺ، عندما أتته الدنيا الواسعة، تسعى بين يديه، فأهمَلها وجعل همَّه إقامة مسجد متواضع يقيم فيه الصلاة، ويمارس فيه وعظه وإرشاده.

وتذكرته ﷺ وأهل طيبة والمهاجرين، وهم يحفرون الخنادق في أطراف المدينة، خوفًا وحذرًا واستعدادًا لمقاتلة جيوش قريش وأحلافها القادمين لينغصوا عليه ﷺ وعلى المهاجرين حياتهم الهادئة في المدينة المنورة، فكان ﷺ ينفض ما علق بشعر وجهه من التراب ويترنَّم مُنشدًا:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

تذكرته ﷺ وحزنه الشديد في موقعة أُحد التي قُتِل فيها عمه حمزة رضي الله عنه، يوم شقت جوفه، هند بنت عتبة وأخرجت منه الكبد ومضغته بأسنانها تشفيًا وانتقامًا لأربعة من آلها قضوا نحبهم في معركة بدر التي نشبت بين المسلمين والمُشركين.

تذكرته ﷺ وهو في موقعة حنين، يوم أن ولّى المسلمون الأدبار أمام الأعداء، يوم أن نظر أحد كبار المسلمين، فرأى عددهم الوفير فقال: لا نغلب اليوم من قلة، قالها بفخر وزهو، وعدم اكتراث بالأعداء الذين أمطروا المسلمين بنبالهم، وحملوا عليهم حملة شعواء لا هوادة فيها، وبين لحظة وأخرى انقلب المسلمون إلى المعركة وقاتلوا قتال المستميت فما سِرُّ هذه اللحظة الطيبة المباركة؟ هل هي السكينة التي أنزلها الله على الرسول وعلى المؤمنين؟ أم هي جنود الله من الملائكة التي لا تُهزم، والتي أنزلها الله للدفاع عن رسوله الأمين محمد ﷺ وعن المسلمين، حذرًا من تصدُّع المؤمنين وحفاظًا على ترابطهم؟.

تذكرته ﷺ عندما استتبَّ له الأمر بالمدينة، فأرسل سُعاته يحملون كتبه إلى

ملوك البلدان المجاورة يدعوهم فيها للإسلام وكان منهم النجاشي ملك الحبشة والمقوقس عزيز مصر، وهرقل عظيم الروم، وكسرى إمبراطور الفرس، وقد رفض عظيما الفرس والروم دعوة محمد ﷺ.

تذكرته ﷺ ومَن هاجَر معه من أهل مكة ومَن آزره من الأنصار من مستوطني طيبة، تذكرتهم يوطّدون دعائم الدين العظيم والمدنية الحقيقية، وحكم الشورى الإسلامي، يتداولون البحث في تبليغ رسالتهم للناس جميعًا، تلك الرسالة العظيمة بسماحتها ونُبلها التي غيّرت وجه التاريخ، وأسدت للإنسانية البليغة التي قال عنها المنصفون ممّن قُدِّر لهم تدوين ما جاءت به الرسائل السماوية: إنها خير الرسالات التي بشّر بها الأنبياء والرسل.

تذكرتُ حزن المسلمين عندما انتقل النبي ﷺ من هذه الحياة الدنيا إلى الرفيق الأعلى، وتذكّرت وقْعَ هول ما فاجأ المسلمين عند وفاته، الأمر الذي حدا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أن يشهر سيفه، ويصيح بالملأ من حوله قائلًا: من قال إن محمدًا قد مات علَوت رأسه بهذا الحسام، ولم يهدِّىء من روعه ويُنزِل السَّكينة على قلبه إلّا قول أبي بكر الصديق عندما خطب في الناس - في يوم هزّت فيه الفاجعة قلوب المسلمين وتركتهم مذعورين غير مصدقين قائلًا: مَن كان يعبد محمدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومَن كان يعبُد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(1) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتئذٍ: والله كأني لم أتلُ هذه الآية. ثم كانت وقفة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة وقوله فيها: لقد اخترت لكم أحد هذين العُمَرين، وأشار بيده إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح وعمر بن الخطاب، فنهض عمر بن الخطاب، وقال: أيكون هذا وأنت حيٌّ؟ ثم بايعه وبعد ذلك كانت بيعة الناس في المسجد الجامع.

تذكرت أيضًا ما أحاط بالمسلمين من الأهوال، في حروبهم مع أهل الردّة، بعد وفاة النبي محمد ﷺ عندما امتنعت غالبية قبائل الجزيرة عن أداء الزكاة،

(1) سورة آل عمران، الآية: 144.

وصمّم أبو بكر رضي الله عنه على قتالها، وخالفه عمر بن الخطاب، خوفًا على الإسلام أن يخذل ولم يمْضِ بعد على وفاة النبي ﷺ سوى بضعة أشهر، الأمر الذي حمل أبا بكر على أن يمسك بتلابيب عمر بن الخطاب، ويجذبه إليه، قائلًا: «يا عمر، أشُجاع في الجاهلية وجبان في الإسلام، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدّونه لرسول الله لقاتلتهم عليه».

عارَضَ عمر بن الخطاب وكذلك المسلمون أبا بكر رضي الله عنه مرة ثانية، عارضوه في تسيير جيش أسامة بن زيد إلى تبوك في ذلك الوقت العصيب، الذي كان فيه المسلمون بعد وفاة النبي ﷺ من اختلافٍ حول تسيير هذا الجيش، لكن أبا بكر رضي الله عنه خالفهم جميعًا قائلًا لهم: والله لا أفل لواء عقده رسول الله ﷺ.

كان أبو بكر على حق في كِلتا الحالتين، وكان قتاله للمرتدين، لا ليملأ خزائن الدولة من الزكاة، بل حفظًا لحقوق الفقراء والمساكين الذين ينالهم النصيب الأكبر من الزكاة، وليس فيهم من ناصر يذود عن حقوقهم ويحفظها لهم، سوى أولي الأمر من المسلمين.

أمّا وقوفه بوجهِ من اعترض على تسيير جيش أسامة إلى تبوك، فقد جعل مَن كان يفكّر بالردَّة عن الإسلام يرجع عن تفكيره لِما رأى من قوة للإسلام لمّا سيّر مثل هذا الجيش العرمرم.

أوصى أبو بكر الخليفة الأول للرسول محمد ﷺ هذا الجيش وصية بليغة فيها كل معنى من معاني الإنسانية، وقد حفظها التاريخ بين طيّاته، بكثيرٍ من الإعجاب والتقدير، وكان ممّا جاء في وصيته لأسامة بن زيد وقواته: (لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تقطعوا نخلًا، ولا تفسدوا زرعًا، ولا تحرقوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بعيرًا إلّا للأكل) وكان النبي ﷺ قد أمر أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يكونا جنودًا في هذا الجيش. ولمّا بويع أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة استأذن من أسامة بن زيد بإبقاء عمر ابن الخطاب في المدينة.

إن الهدوء الشامل الذي تتمتع به هذه المدينة العظيمة وصفاء أديمها، يوحي للمرء بما قام به ﷺ من جلائل الأعمال لصالح البشرية، وما خلّفه من كريم الذكر،

لقومه العرب. كل هذا جال بخاطري، وداعب ذاكرتي أثناء جلوسي في الحرم الشريف.

كنت أتردّد في بعض الفترات على البقيع، المقبرة الطاهرة التي ضمّت رفات النخبة الصالحة من آل البيت ومن الأنصار والمهاجرين، فلقد تآخى الأنصار والمهاجرون أحياء وأمواتًا، أحياء بعد أن قدّم الأنصار للمهاجرين من أهل مكة ما كان لديهم من زاد ومتاع، فأثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ . . . وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1]، وأمواتًا حين ضمّهم بقيع الغرقد جميعًا. وتذكرت ما أصابهم من الأذى، وما لحقهم من صنوف العذاب والآلام، في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، ونصرة دين الله، حتى تمّ لهم الفوز المبين، ونشر الإسلام راياته في كثير من بلدان هذا الكوكب الأرضي، واندمجت فيه خلائق من الأمم المتباينة، والمختلفة ألسنتهم وألوانهم فجعلتهم أمة واحدة يُرجى خيرها ويُخشى من بأسها.

مكثت مع والدي في مدينة الرسول محمد ﷺ خمسة عشر يومًا منتظرين زيارة أميرها الشريف علي بن الحسن إلى مدائن صالح، لنكون برفقة سموّه بناءً على طلبه.

كان في المدينة المنورة عدد غير قليل من الجنود السوريين من بقايا الجيش العثماني المرابض بالمدينة، وجاء إليها جنود آخرون من مدينة جدّة كانوا قد انضموا إلى الثورة العربية عند قيامها، وبقوا في جدة ومكة المكرمة، فبلغ عدد هؤلاء الجنود أربعمائة جندي سوري لم تسمح لهم حكومة الأشراف بمغادرة الحجاز، إلّا بعد أن يقوموا بإصلاح الخطّ الحديدي من المدينة المنورة حتى عمان، وكان قد نَسَف قسمًا منه لورنس الضابط البريطاني، ومَن كان معه من أهل البادية، وخصّصت الحكومة الهاشمية لكلٍّ من هؤلاء الجنود راتبًا شهريًّا محترمًا.

قام هؤلاء الجنود بعملهم خير قيام حتى إصلاح الخط الحديدي إلى مدائن صالح، ثم إلى محطة (الحجر) المكان الذي كان يقيم فيه الأمير سعود بن رشيد

(1) سورة الحشر، الآية: 9.

قبل حصار المدينة، ولم يمْضِ وقت طويل على مكوثنا في المدينة المنورة حتى أقلّنا القطار الحديدي برفقة الأمير علي بن الحسين إلى مدائن صالح، فأقام الشريف علي بها ليلة واحدة ثم غادرها عائدًا إلى المدينة ليتفقّد شؤون رعيته فيها، وكان الشيخ محمد المغيربي الفتيح مع المدعوين لمرافقة الأمير علي بن الحسين، وقد ألحق فيما بعد بالمستشارين لدى جلالة الملك عبد العزيز بعد فتح الحجاز، والتقينا في مدائن صالح بتاجر من العقيلات هو الشيخ سليمان الرميح، وكان معه ستون رأسًا من الخيل، أتى بها من العراق لعرضها في أسواق مكة والمدينة، وكانت بريطانيا آنذاك تقوم بتقديم الأموال الطائلة للعائلة الهاشمية في مكة المكرمة، على أن ينفقوها على ساكني البادية في الشهر الذي يستلمونها، وكان الشريف عبدالله يغدق الأموال على الناس دون حساب وخاصة على الذين كانوا يقدمون له الهدايا، حيث اعتاد أن ينقدهم أضعاف أثمانها، لذا كان العديد من التجار ومن أهل البادية، يقدمون له الهدايا من الخيل والإبل والغنم، طمعًا في ما ينالونه من الأعطيات.

أقمنا في الحجر عشرة أيام كاملة ضيوفًا، على التاجر سليمان الرميح، وكان من أصدقاء والدي المخلصين. وفي هذه الفترة من الزمن أخذت أخبار الشريف عبدالله وجيشه الزاحف على الديار النجدية تتساقط علينا تباعًا، وأنه وصل بلدة (تربة) من الحدود النجدية وأقام فيها بضعة أيام استعدادًا لمواصلة زحفه على نجد، وأن هذا الجيش قد أوقفه عن الزحف قوّة مؤلّفة فقط من ثلاثة آلاف مقاتل من قوات الإمام عبد العزيز بن سعود من الإخوان ومعهم الشريف ابن لؤي، وهو من أفراد العائلة الهاشمية الموالين للملك عبد العزيز، وكان الناس لا يصدّقون أخبار اندحار هذا الجيش، وما حدث له، ويقولون إنها أخبار مبالغٌ فيها، وهل من الممكن لجيش لجب كهذا مؤلّف من عشرة آلاف مقاتل، مستعدًّا استعدادًا كاملًا ومجهزًا بالمدافع والرشاشات، أن تقضي عليه قوة لا تتجاوز الثلاثة آلاف مقاتل من الإخوان من جيش ابن سعود؟ ذلك أنه لم يفلت من هذا الجيش إلّا عدة مئات، وأربعون فارسًا منهم الشريف عبدالله . . . لقد خامرت الناس الشكوك قائلين: إن هذا لم يحدث، فلسنا في زمن الفتوحات الإسلامية يوم أن كان عدد قليل من المسلمين يقاتل العدد الذي يفوقهم عددًا وعدّة مستمدين قوتهم من الإيمان بالله ورسوله.

إن ملحمة بدر ذهبت مع الأمس الغابر، ولن تعود مرة ثانية، وليس في الثلاثة آلاف مقاتل رسول، يبشرهم بأن ربَّهم سيمدّهم بآلافٍ من الملائكة تقاتل معهم، كما حدث للمسلمين في بدر وفي موقعة حنين. وإن موقعة اليرموك وغيرها من المواقع كالقادسية وحطّين لن تعود مرة ثانية. وبالرغم من أن أخبار انتصار جيش الملك عبد العزيز كانت أشبه بالخيال إلّا أن والدي رحمه الله كان أكثر المصدِّقين لها لعلمه ببأس أهل البادية وشدَّتهم في القتال وعمق إيمانهم في عقيدة السلف التي يقاتلون لأجلها.

سرعان ما تعاقبت علينا الأخبار فأزالت ما علق بنفوس الناس من الشكوك والأوهام، ولقد كانت الموقعة فاصلة بين ابن سعود والأشراف، وتخلّت بعد هذه الملحمة بريطانيا شيئًا فشيئًا، عن الأشراف وعن مدِّهم بالأموال الطائلة، وقدَّمت لهم نصائحها في تجنُّب الحرب مع ابن سعود ولكنهم لم يصغوا لنصائحها فنقضت بريطانيا ما وعدَت به الملك حسين بن علي في مساعدته لإقامة مُلكٍ له يتبوّأ على عرشه، يضم البلدان العربية جميعها، وبدأ نذير الانحلال يعصف بالحسين وأبنائه علي وعبدالله وفيصل، ورابعهم زيد، الذي لم يعهَد إليه بعمل يقوم به أثناء الثورة العربية الكبرى، وهو من أمّ تركية وُلِد أثناء وجود الملك حسين في تركيا، وكان آنذاك مندوبًا عن مقاطعة الحجاز في البرلمان العثماني في إسطنبول.

بعد مرور خمسة أشهر على هذه المعركة الدامية اجتمعنا في دمشق بأحد النجديين من أهالي بريدة، وكان من شهود هذه الملحمة، وكان واحدًا من الأربعين خيالًا الذين قدِّر لهم البقاء أحياء من العشرة آلاف مقاتل فقد كان منهم مَن انضمّ إلى جماعة ابن سعود، وقليلهم لاذَ بالفرار.

حدَّثَنا هذا النجدي قائلًا: عند بلوغنا مدينة الطائف، أمعنّا السير إلى (تربة) فأتتنا أنباء عن أن عددًا كبيرًا من جنود ابن سعود على مقربة منّا، فرتَّبنا مواقع الجيش على عجل، وكان ترتيبه على غير نظام يكفل له المناعة، فقد كان بلا قلب ولا جناح، وكانت القوّات النظامية بمدافعها ورشاشاتها في وسط المعسكر تقريبًا، تُحيط بها خيام أهل البادية من جهاتها الثلاث وحرص الشريف عبدالله على أن لا يغادر القائمون على المدافع وكبَّلهم بالحديد، وما كنّا نظنّ أنَّ الإخوان جيش ابن سعود سيفاجئوننا ليلًا، غير أن ظنَّنا خاب، فلم نشعر ونحن في الهزيع الأخير من

الليل إلّا والطلقات النارية، توَجَّه إلينا من كل فجّ، فأخذت مدافعنا تطلق قنابلها والرشاشات تحصد مَن كان أمامها دون تمييز بين الصديق والعدو. وبدأنا نسمع صياح الإخوان وانتساباتهم (إخوان مَن طاع الله) وترديد أقوالهم في هذا الليل البهيم (هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها)، فهلعت قلوبنا خوفًا ورعبًا، واختلَّ نظامنا فلم ندْرِ ماذا نفعل ولا أين نذهب، لولا نباهة رجل من خُدَّام الشريف عبدالله الذي رأى مكانًا لم يصله الإخوان بعد، فنبَّه الأمير إليه، فقرَّرنا الفرار مع الأمير عبدالله مرغمين، لولا هذا الخادم لحلَّ بنا الدمار والهلاك، ولكن الله سلَّم وأراد لنا الحياة.

أقمنا في مدائن صالح عشرة أيام، نمتطي ظهور الجياد، وننتقل في هذه الصحراء الواسعة من مكان لآخر. ونعرِّج أحيانًا بطريقنا إلى ذلك الوادي الموحش القائم بين جبلين، مسَّت جوانبهما يدُ الطبيعة مسًّا متقنًا لا اعوجاج فيه، كأنَّ يد البنّاء مرّت بهما منذ وقت قريب وأتقنت صنعها.

عتا هؤلاء القوم - قوم صالح - عتوًّا كبيرًا، ورفضوا أمر ربهم، ونبذوا شرائعه وأحكامه، وها هي مساكنهم خاوية على عروشها لم تُسكَن من بعدهم، تنبىء بما كانوا يفعلون، لقد مرّت بها عصور عديدة فأهلكهم الله وتركهم عبرة لمن لا يأتمر بأوامر ربه. ويفصل هذين الجبلين عن بعضهما، وادٍ عظيم يتفاوت عرضه ما بين مائة متر إلى أن يصل في بعض جهاته إلى مائتي متر، وادٍ موحش، لم تمنحه الطبيعة شيئًا من مناظرها الخلابة، فلا شجرة فيه، ولا نبت، ولا ماء، ولا تَسمع فيه تغريد طير ولا صوت دابّة تدبُّ عليه.

غادر التاجر النجدي الشيخ سليمان الرميح مكان إقامته في الحجر هو وخيوله إلى المدينة المنورة، ومنها إلى مكة المكرمة، وأزمعنا السير على ظهور نجائبنا إلى مدينة تبوك، البلدة الهادئة ذات المناخ الجيد، وكانت في ذلك الزمن تستوعب القليل من السكان وأقمنا فيها يومًا وليلة ثم توجَّهنا إلى مدينة معان، وكانت تابعة لحكومة الحجاز، لم تنضم إلى شرقي الأردن بعد، وكان القائم بإدارة الحكم فيها رضا باشا الركابي، الدمشقي المولد.

أقلّنا في صباح اليوم الثاني القطار إلى مدينة عمان - عاصمة الأردن الآن -

وكانت آنذاك تحت الحكم البريطاني، لم يصل إليها الشريف عبدالله بعد، وكان يقطن مدينة عمان في ذلك الوقت بعض مئات من مهاجري الشركس، منتشرين في جبالها ووديانها كانوا هنا وهناك يزرعون أرضها ويتعهدون تربتها، وكانوا بسطاء في معيشتهم، ومضى بنا القطار الحديدي إلى أن وصلنا دمشق في اليوم نفسه.

الفصل الرابع

دمشق ورحلات البادية

مشاهد من التاريخ العربي

دمشق مهد طفولتي، ومرتع صباي، حيث تمرُّ أمامي دائمًا ذكريات الماضي وصور لأيام خلَت، يوم أن كانت الحياة فيها هنيئة مرحة، وذلك قبل الحرب العالمية الأولى، وقبل أن يعتري البلدان السورية ما اعتراها من ويلات وفواجع أثناء هذه الحرب وبعدها، لقد عمَّت الأوطان العربية جميعها، وانتشرت فيها الفوضى والاضطرابات وتفتَّت جمعُها وغدَت بعد عزِّها وسؤددها في ذلّ واستكانة وخمول وتفرقة ممقوتة وانحلال جسيم. أذكر شقيقي الأكبر محمد عيد عندما رآني ذات يوم أعبث بتدخين سيجارة على قارعة الطريق، ولم أكن بلغت العاشرة من عمري بعد، وكان قريبًا منّي فلم أنتبه له، فضربني على مؤخرة رأسي ضربة كادت أن تَذهب بلُبِّي، فوقعت من شدَّتها على الأرض، وعندما عُدت من أميركا، بعد أن تجاوزت الخمسين من عمري، اعتذر لي عمّا بدَرَ منه، قائلًا: سامحني أيها الأخ على تلك الضربة القاسية فقد كنتُ خائفًا أن أذهب من الدنيا قبل أن أعتذر لك، وطبَعَ على جبيني قبلة فيها كثير من الاعتذار.

ذكرته يوم أن أخذ الوسادة من تحت فخذي ليرى موضع الكسر فيه، وكان الجرح قد أصابته البرودة، فصحتُ بأعلى صوتي من شدّة الألم، وذلك أنني كنت ممتطيًا صهوة حصان، خارج دمشق، فطرحني أرضًا، فكسرت رجلي، وجبرت مرتين، وحتى الآن لا أزال أميل قليلًا في مشيتي، وبعدها لم يمنع عني شقيقي محمد عيد شيئًا كنت أطلبه منه، حتى ملابسه الجديدة كنت أستعملها قبل أن يلبسها، فقد كنت مليء الجسم، وكانت ملابسه وأحذيته، قريبة جدًّا ممّا ألبس.

أذكر رفاقي في المدرسة، سالم الطويان وخليل النجيدي، وكلاهما من النجديين من بلدة بريدة ومن مواليد دمشق، وقد رافقتهما ذات مرة إلى خارج المدينة ودخلنا أحد بساتينها، فتسلقت شجرة مشمش، وكان بأعلى أغصانها عدّة ثمرات، فقلت لهما: خذا هاتين الثمرتين، وكنت ثالثهما حيث وقعتُ معهما على الأرض فمكثتُ عشرين يومًا طريح الفراش، كما تذكّرت قفزي من علوٍّ شاهق، فاختلّ موضع في قدمي حملني على أن لا أترك المنزل إلّا بعد ثلاثين يومًا. وأذكر خصومتي مع أحد رفاقي، فتناول حجرًا وقذفني به فأصاب جبهتي، ولا يزال أثر هذه الضربة ظاهرًا بأعلى ناصيتي.

أذكر عمّي عمر الرواف شقيق والدي، عندما نهرني من مجلسه ليلًا أمام الجالسين، وكان الوقت صيفًا، فما كان مني إلّا أن جمعت أحجارًا، وأخذت ألقيها عليه، وعلى زوّاره وكان بين الشارع ومجلسه جدار قليل الارتفاع، فخرج ليضربني فلُذت بالفرار. إنها شقاوة الأولاد، وعبث الطفولة.

أذكر (أبو الروق) - أحد مرافقي والدي في سفراته للحجاز، وكان رجلًا كبير الجثة قد تجاوز الثمانين من عمره - وذلك عندما أراد الجلوس على كرسي كان بجانبي وسحبته من تحته قبل أن يجلس، فوقع على ظهره، وبقي يشكو من ألم هذه الصدمة حتى وافاه أجله... حقًّا إنها شقاوة الأولاد، وعبث الطفولة.

في أحد الأيام استصحبتني خادمة كانت تتّصل بعائلتي إلى أحد أسواق دمشق، فوقفت عند أحد الدكاكين لشراء حاجات العائلة، فانزلقت رجلي ووقعت أرضًا، وكانت إحدى العربات سائرة، فمرَّ أحد دواليبها على رجلي، ففصل اللحم عن العظم، فمكثت طريح الفراش مقدار عشرة أيام حتى التأم الجرح وعاد اللحم ليغطي عظام رجلي اليسرى.

أذكر - وعمري لم يتجاوز السابعة - يوم أخذتني زوجة خالي مع نسوة من جيرانها إلى المحكمة الشرعية، وأخبرتني أنه إذا سُئلت في المحكمة عن اسمك، فقل اسمي نعمان عثمان، وإن هذه السيدة والدتي وأن أشير إليها، وكان ولدها نعمان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، ولم يكن لزوجة خالي ولد غيره، وكانت الحكومة العثمانية تطلب كلَّ من بلغ من العمر الثامنة عشرة لينتظم في صفوف الجيش التركي فمثَلتُ بين يدي القاضي الشرعي وسألني عن اسمي فأجبت نعمان

عثمان، وهذه والدتي وأشرت إليها بيدي، أي إلى زوجة خالي والدة نعمان بن محمد عثمان وكان خالي ذا وجاهة لدى السوريين، ولا أدري هل وجاهته التي شغلت دورًا مهمًّا في هذه القضية أم دراهمه التي أنفقها في هذا السبيل لبقاء ولده نعمان بعيدًا عن الانخراط في الجيش التركي، لعله استخدام الاثنين معًا الوجاهة، والدراهم ليصبح عمر ابنه سبعة أعوام فلا يُدعى إلى الخدمة بالجيش التركي.

وأرى طيف أستاذي الشيخ محمد بهجت البيطار رحمه الله، وهو يقوم بتدريسنا تفسير القرآن الكريم، في مدرسة التوفيق بدمشق، وأول درس أعطانا إياه كان في تفسير سورة «النبأ» ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾[1] عمّ يتساءلون، وقد وقف أمام السبورة وكتب ﴿عَمَّ﴾ عن أي شيء ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسأل بعض العرب بعضًا ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2] وهو خبر نبوتك يا محمد، إلى أن أتى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾[3] وكان علينا أن نحفظ ما يلقيه علينا غيبًا، وكان يعلّمنا أيضًا التوحيد والفقه. وبهذه المناسبة أذكر أنني عندما دُعيتُ من قبل الجالية العربية في سيدر رابدس من ولاية أيوا في أميركا طلبت جاليتها العربية المؤلفة من ثلاث عشرة عائلة إسلامية، ثمانية عائلات منها من جب جنين البقاع من أعمال لبنان، طلبت مني إلقاء كلمة على مسامع الحاضرين في الحفل الذي أقيم في ناديهم في سيدر رابدس، فلم يحضرني أيّ شيء سوى أنني فسّرت لهم سورة «النبأ» كما تعلّمتها من الأستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار، فنال ذلك إعجابهم ورضاهم حتى إن أحدهم قال: هذا هو الرجل الذي نطلبه للقيام بتعليم ناشئتنا، وكانت مدرسة الجالية تضمّ أربعين طالبًا صغارًا وكبارًا، نساءً ورجالًا.

أعود بالذاكرة إلى مدرستي في دمشق، لأذكر بالخير مدير المدرسة السيد عبدالحكيم الطرابلسي، لقد كان يلقي علينا دروسًا في التاريخ وكان ضليعًا به وكان يحدِّثنا عن الفتوحات الإسلامية وعن الوقائع التي استعرَ لهيبها بين المسلمين والمشركين، كاليرموك، والقادسية، وحطين، ويعدِّد لنا أبطالها، واصفًا شجاعتهم وحسن أحدوثتهم أثناء فتوحاتهم، وروى لنا أخبار فتوح الشام وما قاله هرقل عظيم

(1) سورة النبأ، الآية: 1.
(2) سورة النبأ، الآية: 2.
(3) سورة النبأ، الآية: 17.

الروم عند فراره منها: (سلام عليك يا سورية، سلامًا لا اجتماع بعده) وحدَّثنا عن خالد بن الوليد قائد جيش المسلمين، أنه كان مرابطًا حول دمشق عندما تلقّى من أمير المؤمنين الخليفة الثاني للرسول الأعظم محمد ﷺ عمر بن الخطاب، كتابًا يأمر بعزله وتسليم القيادة لأبي عبيدة عامر بن الجراح، وكانت المعركة ما تزال دائرة بين المسلمين والروم فأبقى خالد الكتاب معه حتى انتهت المعركة بنصر المسلمين، ثم سلَّم كتاب العزل إلى أبي عبيدة، وانتظم خالد في صفوف المسلمين كفردٍ منهم.

يقف المرء متعجبًا مذهولًا تجاه تصرف عمر بن الخطاب، الذي وافته الأخبار بانتصارات قائد جيش المسلمين خالد بن الوليد، وما أظهره من الشجاعة والبسالة والخبرة العسكرية، في حروبه، وفي فتوحاته ما يفوق الوصف، وعند اجتماع عمر بخالد أخبره عمر: «إنني والله لم أعزلك من القيادة، إلّا خوفًا من الناس أن تُفتَتن بك، فتأخذك نشوة النصر، فتغتر بتفوقك، فتكون من الهالكين»، فأجابه قائلًا: «لا فرق عندي بين أن أقاتل قائدًا أو غازيًا مجاهدًا».

كما أن الإنسان ليأخذه العجب من نُبل هذا القائد المخضرم، وامتثاله لأمر الخليفة بتخلّيه عن القيادة وتسليمها لقائد غيره وتحوّله جنديًّا تحت قيادته، ووضع نفسه تحت تصرُّف هذا القائد الجديد الذي اختاره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بديلًا عنه. إنها العقيدة الإسلامية الثابتة، والأخلاق العالية المتينة التي يقاتلون لرفع شأنها، ويضحُّون بكلّ غالٍ لديهم في سبيل نشرها.

إنه الإيمان الثابت بنبالة أغراضهم من وراء حروبهم وهذا ما دعا كُتّاب الغرب ومفكّريه المنصفين، أن يأتوا على ذكر الفتوحات الإسلامية، وأن تدهشهم المدنيَّة العربية وما لاقاه المسلمون من المتاعب الجمّة في سبيل نصرة الدين الإسلامي الحنيف، فقال غوستاف لوبون الفرنسي الجنسية، الذي يتبع تعاليم الكنيسة المسيحية: «ما عرف التاريخ فاتحًا أرحم من العرب» وإن المدنية العربية من أروع ما عرفه التاريخ وإن المرء كلّما تعمّق في دراستها، تجلَّت له أمور جديدة، واتَّسعت الآفاق أمامه، وثبت له أن القرون الوسطى، لم تعرف الأمم القديمة إلّا بوساطة العرب، وأنهم هم الذين نقلوا إلى أوروبا مدنية أنعشتها في الماديات، والعقليات، والأخلاق، وهم الذين فازوا وحدهم بنشر المواد الجوهرية عن المدنية

وأعني بها الدين، والأوضاع والصنائع بين عناصر جديدة من غير عناصرهم، وأن العرب أول من علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين، وإذا ما قِسْتَ العرب بالشعوب الأوروبية الحديثة أمكنك أن تقول: إنهم من حيث العقل والأخلاق، أسمى مكانة من كل الأمم التي عاشت قبل النهضة، وقد فاقوا بأخلاقهم أجداد الأوروبيين بكثير.

قال الكونت (هنري ديك سترا): إن أتباع محمد هُم وحدهم الذين استطاعوا الجمع بين الرفق في معاملة مغلوبيهم والرغبة في نشر دينهم، وهذه الرغبة هي التي دفعت العرب إلى الفتوحات العظيمة، فنَشَر الإسلام راياته خلف جيوشه الظافرة، ولم يتركوا أثرًا للجور.

في هذا الصدد قال (دوسن): إن المدنية الأوروبية، بل المدنية الغربية كلها مدينة للعرب بثمرات حكمة الأقدمين، وإنَّ فتوحات العرب في إمبراطورية الإسلام من القرن السابع حتى الخامس عشر تُعَدُّ إحدى عجائب التاريخ.

من المدهش أن يصبح العرب وكانوا في أول أمرهم على الفطرة عنصرًا فاتحًا، وأن يصبحوا سادة نصف العالم في مائة عام، ومن أشدِّ العجب حماستهم العظيمة وسرعتهم البالغة في تحصيل العلوم، وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم حتى بلغوا مستوى عاليًا في مائة سنة، بينما الجرمانيون لمّا فتحوا الإمبراطورية الرومانية، قضوا ألف سنة قبل أن يقضوا على التوحُّش، وينهضوا بإحياء العلوم.

كلها ذكريات شيِّقة شجية يلذُّ لي الإسهاب بها. وهذه فقرة قصيرة من كتاب محمد والمحمديين للكاتب (سمث)، حيث قال:

«إن أعجب العجب في حياة محمد أنه لم يَدَّعِ القدرة على إتيان المعجزات فأيما شيء قاله إنه يستطيع أن يفعله، رآه أتباعه وهو يفعله ولم ينسب أحدًا إليه معجزة من المعجزات، لقد ظلَّ محمد إلى آخر حياته وليس له من لقبٍ يعتزُّ به إلّا أنه نبي مرسل من عند الله دون أن يكون له جيش قائم، ولا دخل ثابت، إذا كان لأي إنسان أن يدَّعي بحق تلقي الوحي من الله فإنه محمد، فقد كانت لديه كل السلطات دون أن يكون له أداتها ولا وسائلها، وإنه لحدثٌ منفرد بالتاريخ، أن يؤسس محمد شعبًا وإمبراطورية ودينًا».

وهكذا فقد حفظ التاريخ للعرب إنسانيتهم ورحمتهم وتسامحهم، وإن أوروبا التي غزت الشرق في الحروب الصليبية، لتسلبه خيراته، وتنتزع منه طمأنينته وتعبث في إصلاحاته وأخلاقه، يدفعها الجشع، ويثير غيظها وحسدها، قد ارتدَّت عنه خاسرة الصفقة، خائبة الأمل، وأعطاها الشرق من روحانيته وسموِّ أخلاقه، ونبل غاياته، درسًا بليغًا، قال فيه العلماء المنصفون أمثال (لانس) و(بتي) ما معناه: «إن الحروب الصليبية عادت على الغرب بخيرات لا تستقصى، ولو لم يكُن فيها غير تحطيم التعصُّب الكنسي، وما رآه الصليبيون عيانًا من تسامح المسلمين وتساهل مشاهير أمرائهم، لكفى بها فائدة، وأخذت أوروبا عن العرب عادات الفضيلة والمدنية».

بعد هذا الاستطراد أعود إلى سياق الحديث عن رحلتنا من المدينة إلى دمشق، حيث كانت عاصمة الأمويين عند وصولنا إليها، تضطرب اضطرابًا شديدًا، لاختلاف زعمائها فيما بينهم حول توجيه سياستها الخارجية، وذلك على الرغم من الغبطة التي كانت تغمر قلوب ساكنيها، وما كانوا فيه من سرور وحبور، بتتويج الملك فيصل على عرش سورية، وظهر على مسرح السياسة فيها آنذاك: السيد شكري القوتلي وعبدالرحمن الشهبندر، وجميل مردم بك، ونبيه العظمة، وخالد الحكيم، وقد شرعوا يجاهدون مع ساساتها القدامى، أمثال إبراهيم هنانو وإحسان الجابري، وفارس الخوري، وهاشم الأتاسي، وغيرهم من الزعماء والرجالات.

ونقف قليلًا لندرس الحوادث التي داهمت سورية، وتعاقبت عليها، بعد تتويج الأمير فيصل بن الحسين ملكًا عليها.

أظهر الملك حسين بن علي في بادىء الأمر، استياءه الشديد، وعدم رضاه، عمّا أقدم عليه ولده فيصل، بمناداته ملكًا على عرش سورية، من دون أن يأخذ رأيه، أو يستشيره، وهو الملك الذي نادى بنفسه ملكًا على البلدان العربية جميعها بما فيها سورية، فإذا بنجله فيصل يُقدِم على هذا العمل، فيقبل أن يتوّج على قطر عربي، وكان الحسين بن علي قد أخذ وعدًا، من البريطانيين أن يكون ملكًا على الأقطار العربية بكاملها، وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وبناء على هذا الوعد قام بثورته العربية وبمناصرة الحلفاء.

كان موقف البريطانيين شديد الوطأة على الملك فيصل بن الحسين، فقد كانوا ينظرون إليه، كأحد قادتهم يأتمر بأمرهم، وما كان له أن يتسرّع، ويتصرَّف هذا التصرف الذي اعتبره والده الملك حسين عملًا غير صالح، كما أنهم لم يخفوا انزعاجهم ممّا حدث، فقد رفضت بريطانيا الاعتراف بملكيته وبحكومته وتركته وعرشه والسوريين وتخلَّت عن التزاماتها، لقد كان البريطانيون والفرنسيون متفقِّين على أن تكون سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.

المعروف عن الفرنسيين سرعة التأثُّر، لذلك استشاطوا غضبًا، وامتلأ القائد العام الفرنسي، غورو، غيظًا على فيصل وعرشه والسوريين جميعًا، واستنكرت فرنسا عمل فيصل أشد استنكار، وواصلت احتجاجها للبريطانيين، وأخذت تطالبهم بتنفيذ معاهدة سايكس - بيكو السرّية، التي اقتسموا فيها حينئذٍ فيما بينهم البلدان العربية المنفصلة عن الدولة العثمانية، وما كان للبريطانيين أن يتغافلوا عن احتجاج الفرنسيين وهم الموقِّعون معهم، على اقتسام البلدان العربية، المنكودة الحظ، فكان نصيب الفرنسيين سورية ولبنان، وللبريطانيين فلسطين والأردن والعراق، أما القطر المصري فبقي في ظلِّ الاحتلال البريطاني ولم يفلح جنود الأتراك بزعامة جمال باشا وقصَّروا عن المضي في رمال غزة والعريش للوصول إلى قناة السويس.

وبينما كانت الأمور على هذه الصورة في أوروبا، لم يَرَ الملك فيصل بُدًّا من الذهاب إلى باريس، للتفاوض مع الفرنسيين، ولكنه لم ينجح وعاد إلى حلفائه في لندن، فأحالوه على باريس، فرجع إليها مرة ثانية، واجتمع بالوزير الفرنسي كليمنصو ووافقه فيصل على مشروع اتفاقية، فانقلب إلى سورية راجعًا يحمل معه مشروع الاتفاقية، وكان من الصعب على فيصل بن الحسين التوفيق بين حماس الوطنيين الراغبين بالمحافظة على وضعيتهم ومكاسبهم، والضغط السياسي العسكري الفرنسي.

اشتدَّ ساعد الجنرال غورو، المقيم الفرنسي في بيروت، وأرسل إلى الحكومة السورية برئاسة هاشم الأتاسي، إنذارًا، يطلب فيه موافقتها على شروط خمسة هي:

أولًا: التخلي عن الخط الحجازي من رياق إلى حلب، وإعطائه للفرنسيين لإدارته.

ثانيًا: قبول الانتداب الفرنسي.

ثالثًا: إلغاء التجنيد الإجباري، وتسريح الجيش.

رابعًا: قبول التعامل بالعملة الورقية.

خامسًا: معاقبة العصابات والأشقياء.

أرسل هذا الإنذار في 26/ 10/ 1338هـ الموافق 12 تموز/ يوليو سنة 1920م، وأعطى الفرنسيون للسوريين مهلة خمسة أيام لتنفيذ هذا الإنذار، وفي الوقت نفسه توجَّه الجيش الفرنسي من لبنان إلى حدود سورية، يرأسه الجنرال (غرابيه) وهو مصمم على احتلال سورية.

وجد السوريون أنفسهم مجبَرين على قبول شروط الجنرال (غورو) الخمسة، رغم ما بها من فداحة، ومسٍّ بكرامة استقلالهم، بَيْدَ أن الجنرال (غورو) رفض قبول السوريين لشروطه الخمسة، بحجّة أنها أتت متأخِّرة عن الوقت المحدَّد ببضع ساعات، ثم وجَّه الجيش الفرنسي لاحتلال سورية، ولم يكن لدى السوريين قوة تستطيع الوقوف أمام الجيش الفرنسي الزاحف، بعدما سرَّحت الحكومة السورية جيشها، تحت ضغط الإنذار الذي تلقّته وقبلته، ولم يَرَ فيصل بُدًّا من اللجوء لحلفائه البريطانيين، طالبًا منهم التوسُّط، لصدِّ هذا الجيش، فلم يصغوا لتوسلاته قائلين له ألست أنت ملكًا، ولك عرش قائم، وحكومة مستقلة؟!.

أجبر السوريون على مقاتلة الفرنسيين حفظًا لشرفهم، وإبقاء على كرامتهم فجهَّزوا أنفسهم بما لديهم من سلاح، وتوجَّه قسم من الشعب السوري، ومعه بعض أفراد من جيشه الذي سُرِّح منذ أيام - إلى ميسلون، وكان من ضمن المقاتلين في ميسلون عدد من النجديين الذين قَدِموا إلى دمشق مع قوات الملك فيصل بن الشريف حسين، وقد كتب شقيقي ياسين فيما بعد عدّة مقالات في الصحف السورية يَذكُر فيها بطولة النجديين في ميسلون. ولم يتمكّن الجيش السوري من الوقوف طويلًا أمام قوة الجيش الفرنسي، واستشهد وزير الحربية، وقائد الجيش السوري يوسف العظمة، ودخل الفرنسيون دمشق منتصرين، برئاسة الجنرال (غرابيه) وبعد أسبوع من دخول الجيش الفرنسي إلى دمشق، حضر الجنرال (غورو) من لبنان، وكان أول عمل قام به في دمشق، هو زيارة ضريح البطل الإسلامي،

صلاح الدين الأيوبي، ورفع رجله على حافة ضريحه، ووضع حسامه عليه وقال: «صلاح الدين، ها نحن قد عُدنا»، لقد كانت جملة قوية قاسية، كشفت القناع عمّا يكنُّه الغربيون من التعصُّب الذميم، وأنبأت عن مقدار ما كان في نفوسهم من الحقد والضغينة، فسجلها التاريخ بكثير من الاشمئزاز، ووَدَّ كثير من كتّاب الغرب، لو لم يتفوَّه الجنرال (غورو) بهذه الجملة، فقد بقيت كلماته يتداولها زعماء العرب في خطبهم، وفي كل مجتمع وفي كل حديث لهم، يستشهدون بها على تعصُّب الغربيين الذميم، وصحيح أنه انطوت الآن صفحة مريرة خالدة من الجهاد العربي، لكنَّ نار الجهاد بقيت حيَّة يكسوها الرماد، حتى يتطاير شررها وتعود مستعرة حامية.

إن عبارة (غورو) ليست غريبة في الحقيقة عن الغطرسة العسكرية الغربية، ألَم يقل المارشال (اللنبي) متباهيًا بعد احتلال القدس عام 1355هـ (1917م): «اليوم انتهت الحروب الصليبية»؟ إن (غورو) ومن قبله (اللنبي) قد خرقا قواعد اللياقة العسكرية وأظهرا جانبًا من الحقد الغربي تجاه المسلمين.

إن المرء لتعتريه الدهشة، ويأخذه العجب كل مأخذ ويستوقفه الاستغراب، تجاه الموقف الذي أبداه البريطانيون، نحو الملك فيصل بن الحسين، حليفهم بالأمس، وتخلِّيهم عنه في هذا الموقف المؤلم المتخاذل، وخذلانه، وهو في أحرج مواقفه، وأشدِّ مِحنه.

يتساءل المرء قائلًا: «أين لورنس، الضابط البريطاني، الذي واكب رَكْبَ الثورة العربية وقدم لقوّادها الوعود والعهود؟»، ولمّا تبين للورنس تغيُّر موقف حكومته قدَّم استقالته ظنًّا منه أنه سيُرضي العرب بتصرُّفه هذا، ولكن ضميره لم يرْضَ بذلك، فأمسَكَ فمه عن الكلام، وأطلق قلمه بتأليف كتاب أسماه (أعمدة الحكمة السبعة) خصَّص قسمًا كبيرًا منه للحديث عن انتصاراته، ومغامراته وتنقُّله في الصحراء العربية، وذكر في بعض صفحات كتابه شيئًا عن خبرة ومرونة ولباقة الأمير فيصل بن الحسين، الذي واكبه في حروبه وغزواته، لقد كان هذا كلَّ ما تمكن لورنس من عمله، وفي زعمه أنَّ في تصرُّفه نصرة للعرب، ومساندة لهم في قضيتهم.

قد يكون لورنس محقًّا فيما ذهب إليه، عند تقديم استقالته لحكومته، واستيائه منها، لتنكُّرها للعرب، ولكن كان خيرًا له من هذا كله، لو كان صادقًا فيما ذهب

إليه تجاه نقض قومه عهودهم ومواثيقهم التي أبرموها مع العرب، استبدال الاستقالة، بشيء آخر، وهو إعلان التمرُّد على دولته واللجوء السياسي إلى دولة أخرى، كان هذا أجدى به وأبقى لسمعته إضافة إلى مؤلَّفه (أعمدة الحكمة السبعة) الذي ذكر فيه مغامراته وانتصاراته.

مات لورنس فيما بعد بحادث انقلاب دراجة كان راكبًا عليها، وكان حادثًا مدبَّرًا وفق بعض الأقاويل التي انتشرت في أعقاب الحادث.

عند دخول الفرنسيين دمشق فرّ فيصل منها إلى مدينة درعا من مقاطعة حوران، والتفَّ حوله مشايخ حوران فأرسل الفرنسيون إنذارًا إلى هؤلاء المشايخ، بقصف قراهم بالطائرات ما لم يغادر فيصل مدينة درعا، وحسمًا للنزاع، أو خوفًا من إلقاء القبض عليه، ترك مدينة درعا وألقى آخر نظرة على سورية، متوجهًا إلى إيطاليا، بطريق فلسطين، هو ومَن كان معه من العراقيين والسوريين، وكان موقفه هذا يشبه موقف هرقل ملك الروم الذي قال عند مغادرته سوريا هربًا من خالد بن الوليد: سلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده.

لقد أخبر جميل مردم بيك أحد الوطنيين السوريين شقيقيَّ محمد عيد وياسين أثناء إحدى زياراته للقنصلية السعودية بدمشق فيما بعد بأنه سأل الملك فيصل بعد خروجه من سوريا عمّا اعتزم عمله وأن الملك فيصل أجاب بأنه سيحاول التفاوض مع بريطانيا لاسترداد حقه، وإذا لم يوفَّق في ذلك فإنّه لن يعود إلى والده الشريف حسين الذي كان لم يزل موجودًا في ذلك الوقت في مكة، ولكن إلى سلطان نجد عبدالعزيز الذي رأى فيه فيصل في ذلك الوقت رمز القيادة القادرة على تحقيق آمال العرب. ولم يهدأ الحورانيون ولا مشايخهم، ولم يركنوا للسكينة، ورفضوا الانصياع إلى تهديد الفرنسيين، ولم يُخِفهم إنذارهم، بل استمرّوا في تمرُّدهم وعصيانهم، فأرسل الفرنسيون إليهم وفدًا من السوريين، للاجتماع بشيوخهم بمدينة درعا، والتفاوض معهم، وكان الوفد مؤلفًا من رئيس وزراء سورية السيد علاء الدين الدروبي، وعبدالرحمن باشا اليوسف رئيس مجلس الشورى وعطا بك الأيوبي وزير الداخلية، وقد نجا هذا الأخير من الموت بأعجوبة، وأمّا رفيقاه علاء الدين وعبدالرحمن فقد أنزلهما ثوار حوران من القطار في محطة خربة الغزالة،

وقضوا عليهما بالموت، قبل أن يصلا إلى مدينة درعا، وتابع الحورانيون ثورتهم حتى أرسل الفرنسيون قوة كبيرة أخمدتها.

أذكر أنني بعد عدّة شهور من انقضاء هذه الحادثة ذهبتُ إلى درعا لتحصيل بعض الديون المستحقَّة لنا لدى بعض أهالي حوران ثمنًا للجمال التي كانوا يشترونها من عائلتنا. وأثناء مروري بقرية خربة الغزالة عرَّفني بعض المعارف على أحد الأشخاص الذي فاتني ذكر اسمه، وقيل لي بأنه قاتل عبدالرحمن باشا اليوسف. وقد كان يلبس فوق ثوبه العربي - الأبيض متباهيًا - ربطة عنق حمراء يُقال إنها كانت تخصُّ القتيل عبدالرحمن اليوسف. وكانت بريطانيا تراقب حوادث سورية عن كثب، لا سيما بعدما تحقَّق من استتباب الأمر في حوران، البقعة العربية الملاصقة لحدود شرقي الأردن، الخاضعة للحكم البريطاني، وأخذ الفرنسيون يتقرَّبون من رئيس الجمهورية التركية مصطفى كمال، ويقفون منه موقف التساهل، فيما يختصُّ بلواء الإسكندرونة، وكان الرئيس التركي يطالب الإنجليز في الوقت نفسه بإرجاع مقاطعة الموصل إلى الجمهورية التركية.

وافقت حكومة الانتداب الفرنسي على ضمِّ لواء الإسكندرونة إلى الجمهورية التركية بسبب قيام الثورات الداخلية في ربوع سورية، وكان أهمّها ثورة الحورانيين وثورة جبل العلويين التي يرأسها الشيخ صالح العلي، وثورة الزعيم إبراهيم هنانو في شمال سورية، وقد أخمِدت هذه الثورات جميعها بعد مقاومة ضارية، دامت ما يقرب من عام واحد.

في هذه البرهة من الزمن استدعت الحكومة البريطانية الأمير عبدالله شقيق الملك فيصل بن الحسين من الحجاز، وقد أقام في مدينة عمان، وأعلن أنَّ سبب قدومه هو نصرة السوريين، واسترجاع سورية من الفرنسيين، ولم يلبث البريطانيون أن بادروا بإعلان إمارة شرقي الأردن، ونصَّبوا عليها الشريف عبدالله بن الحسين، ووعدوه بتتويجه ملكًا في المستقبل.

رضي الأمير عبدالله بهذه الوعود، وبهذه الإمارة، وخَصَّصت له الحكومة البريطانية راتبًا شهريًّا مقداره (ألفا جنيه) ذهبًا، لكن لم يكن هذا المبلغ كافيًا لتغطية نفقاته، فكان يستدين من تجّار عمان ومنهم العقباوي، وفَصَلت بريطانيا حدود

سورية عن حدود نجد، وأنشأت لهذه الإمارة جيشًا من أهل البادية، بقيادة الضابط البريطاني غلوب باشا الملقب (أبو حنيك - نظرًا إلى كسر في حنكه)، وتدرَّب هذا الجيش تدريبًا حسنًا، وزوِّد بمعدات قوية، ليتسنى له صدَّ أيّ هجمات على هذه الإمارة من داخل الجزيرة العربية، وفي الوقت نفسه، ليكون سيفًا مسلطًا في أيديهم، يشهرونه في وجه الفرنسيين، إذا اقتضى الأمر في المستقبل، ولنتذكَّر ما أعلنه الأمير عبدالله عند قدومه إلى عمان قبل أن تنادي به بريطانيا أميرًا على شرقي الأردن وهو ما ردَّده بعد ولايته، مِن أنَّ الدافع الذي حدا به ليتولى إمارة شرقي الأردن هو تخليص سورية من الحكم الفرنسي، لذا التفَّ حوله رجالات من العرب منهم المخلصون، ومنهم مَن كان غير ذلك.

لم يلبث الأمير عبدالله بعد ولايته طويلًا حتى قام باستقبال والده الملك الحسين بن علي في مدينة معان، واستقبلت الحسين أيضًا وفود عربية قَدِمَت من الحجاز وسورية ولبنان والعراق وفلسطين استقبالًا حافلًا واستأجر الشريف حسين بعض الصحف العربية لتنوِّه بجهاده وثورته.

لقد كان الملك حسين، أو المنقذ الأعظم - كما كانوا يلقِّبونه - أثناء زيارته لشرقي الأردن، مضطرب الأعصاب، يملأ الغيظ قلبه بسبب تنكُّر البريطانيين له ولمست الوفود التي قَدِمَت لمقابلته عدم مقدرته احتمال عبء هذا المُلك الثقيل، فتركوه عائدين من حيث أتوا، ورجع الحسين إلى الحجاز بنفس حاسرة، وقلب مملوء بالضغينة والحقد.

في غضون السنوات القليلة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، تطوَّرت الأمور في البلدان العربية، تطورًا غريبًا مفجعًا، وأخذت الحوادث تتتابع بشكل لم تعهده من قبل، فعصفت مطامع الاستعمار بما تبقّى لزعمائها وقادتها من الأماني التي كانت تداعب أحلامهم، وأخضع الفرنسيون السوريين لإراداتهم، وأجبروهم على الركون لسلطتهم، وقاموا بخنق حرياتهم، وطبَّقوا الأحكام العرفية في الأمصار السورية وأودعوا كثيرًا منهم في غياهب السجون وأبعدوا زعماءهم ونفوهم إلى جزيرة (أرواد) مع كلِّ مَن حدَّثته نفسه بالشغب والتمرد، وأخذوا يضغطون على الزعماء الدروز ومشايخهم لكسر شوكتهم والحطّ من كرامتهم، الأمر الذي نفروا منه، فقاموا

بثورتهم الكبرى، بزعامة سلطان باشا الأطرش، فشنَّ هجومه الأول على ضاحية قرية (الكفر) وحاصر رجاله قلعة السويداء، وقضوا على الحملة الفرنسية في معركة (المزرعة) التي قُتِل فيها عدد كبير من الجنود الفرنسيين واضطر قائد الجيش الفرنسي على إثرها إلى مغادرة سوريا بعد غضب حكومته عليه، وقد امتدّت الثورة إلى غوطة دمشق وغيرها من المناطق، حتى عمَّت الثورة أنحاء سورية جميعها مدنها وقراها، ولم يبْقَ بيد الفرنسيين، إلّا حيٌّ واحد من أحياء دمشق هو المعروف (بالمهاجرين) وقلاعها القائمة على جبل قاسيون المشرف على دمشق، فعصفت مدافع الفرنسيين بأحياء دمشق الثائرة، ونشبت فيها الحرائق واندلعت النيران، فدُمِّرت أحياء بأكملها، ودامت الثورة زهاء عامين، خَبَت بعدها نيرانها والتجأ سلطان الأطرش، ومَن معه من الثوار، إلى حدود المملكة العربية السعودية، وشرقي الأردن وأقاموا هناك، وبهذا توطَّد حكم الفرنسيين في سورية، ولكن إلى حين.

أمّا في العراق، فقد قام المعدان وهم عشائر العراق المقيمين على شاطىء الفرات بثورتهم الكبرى، الأمر الذي أجبر البريطانيين على الرضوخ لمطالبهم، فاستفتوا زعماء العراق وطلبوا منهم أن يختاروا بين عبدالله بن الحسين وأخيه فيصل، ملكًا عليهم، فاختار قسمٌ كبير من هؤلاء الزعماء عبدالله ليكون ملكًا على العراق، ولكن البريطانيين رفضوا ذلك وفضّلوا فيصلًا على أخيه عبدالله. ويُقال إن السيدة بيل قد لعبت دورًا بارزًا في مسألة اختيار فيصل، وهكذا تمَّ تتويج فيصل ملكًا على العراق. ويُنسَب للملك عبدالله بهذا الخصوص قوله: هذا الفيصل يقصد أخاه، ضيَّع عرشًا (يعني عرش سوريا) واغتصب عرشًا (يعني عرش العراق). بعد ذلك توحَّدت الأحزاب العراقية لا سيما الحزب الوطني، وحزب النهضة، واتَّفق زعماؤها على مطالبة صاحب العرش فيصل بن الحسين، بالقيام بمفاوضة البريطانيين حول الاستقلال، فلبّى الملك دعوتهم، ونزل عند رغبتهم، فحزم أمتعته، وتوجَّه إلى لندن التي كان عامّة أهل الشام يسمونها «لوندرة»، ثم عاد إلى العراق يحمل معه معاهدة، رفضها العراقيون إذْ لم تكُن كما كانوا يرجونه من استقلال كلّي، ولم يواكب التوفيق عبدالمحسن السعدون، رئيس الوزارة العراقي، في معالجة الحالة المتوترّة في البلاد، وكان موقفه حرجًا جدًّا، وأخذ يقرِّب بين

مطامع البريطانيين، ورغبة الملك في بقائه على عرش العراق من جهة وبين مصالح الأحزاب العراقية التي لم تَرْضَ عن الاستقلال بديلًا من جهة أخرى. ولم يحالفه التوفيق مرة ثانية، فقضى رئيس الوزارة نحبه، منتحرًا، وأمَرَ المندوب السامي البريطاني، بحلِّ الأحزاب العراقية، وأودع بعضًا من زعماء العراق وساستها في غياهب السجون، وسِيْقَ نفر منهم إلى الهند لقضوا فيه منفاهم.

في شرقي الأردن في الإمارة المستجدَّة بجنوب سورية، امتثل أميرها عبدالله لأوامر البريطانيين ورضخ لمطالبهم، وخَفَتَ صوته الذي نادى باستخلاص سورية من الحكم الفرنسي، وبدأ يتنافس مع أمين الحسيني، الزعيم الديني لفلسطين.

تمكّن ابن سعود من توحيد نجد والقضاء على آل عايض في عسير، وآل الرشيد في حائل، بعد حروب مريرة وحصار شديد للعاصمة الرشيدية دام بضعة شهور، وتوسّع نفوذ عبد العزيز واستاء لذلك الملك حسين في مكة ووجَّه حملة كبيرة تقدَّر بعشرة آلاف مقاتل لمقابلة ابن سعود في عقر داره، لكنّها أخفقت وعاد ما تبقّى من الجيش اللجب إلى مكة المكرمة موليًا الأدبار، مهزومًا يتعثّر بأذيال الخيبة والعار، ولم يكتَفِ ابن سعود بتوحيد نجد وملحقاتها، فقد كان يسعى إلى توحيد الجزيرة العربية بكاملها، فتوجّه نحو الحجاز ودخل مكة المكرمة من دون قتال وحاصر مدينة جدة، بعد تنازل الملك حسين عن الملك لنجله الأكبر علي بن الحسين. وغادر الحسين الحجاز إلى مدينة العقبة لعلّه يجد متّسعًا من الوقت يأخذ فيه راحته، ويسترجع جأشه من الصدمات القاسية والنكبات المتلاحقة، ليستعيد قوّته وليسترجع نفوذه، ولم يمكث الحسين في العقبة هادئًا ساكنًا، بل أخذ يتّصل مع بعض عربان الحجاز، ولكن عبد العزيز بن سعود أنذر بريطانيا بقوله: إذا مكث الحسين في العقبة فسأرسل جنودًا لاحتلال العقبة ومدينة معان التابعتين للحجاز في زمن الأتراك، فاضطرّ البريطانيون إلى الانحناء تحت إلحاح ابن سعود على مغادرة الحسين بن علي مدينة العقبة، فأمروا نجله حاكم شرقي الأردن الأمير عبدالله بتنفيذ ذلك وهدّدوه بزوال إمارته، إذا لم يغادر والده مدينة العقبة، فأذعن الأمير عبدالله لنصيحة البريطانيين، وذهب إلى أبيه قائلًا: يا أبتِ إن إمارتي مهدَّدة بالزوال إذا لم تغادر مدينة العقبة، فلم يَرَ الملك حسين زعيم الثورة العربية الكبرى، الذي كان

يرجو أن يكون ملك البلدان العربية جميعها بُدًّا من أن يمتثل لأوامر نجله عبدالله، فغادر مدينة العقبة ليساق منفيًّا إلى جزيرة قبرص، التي كانت تحت الحماية البريطانية.

لم يَبْقَ بعيدًا عن هذا الصراع العنيف بين ملوك العرب وحكّامها سوى ملك اليمن أحمد حميد الدين، الجالس في عاصمتها صنعاء، فاهتبلها فرصة له، ليستريح ويسترجع أثناءها قواه التي أنهكتها غزوات العثمانيين لبلاده، بمساعدة الأشراف في مكة المكرمة، وبقي الإمام أحمد حميد الدين قابعًا في عاصمة مُلكه، يرتقب عن بُعْد ما ستأتي به الأيام من الحوادث والمفاجآت، وخاصة ما كان يقوم به حكام عدن من البريطانيين، أمّا أمراء ومشايخ البلدان القائمة على شاطىء الخليج العربي فقد ظلّوا تحت حماية البريطانيين، وبعد مشاحنات وقتال دامَ بينهم وبين البريطانيين بضع سنين تسنّى لبريطانيا ربطهم بمعاهدات أخضعتهم بها للحماية المباشرة.

كنت في غضون هذه الأعوام أعمل بتجارة الخيل والجمال أتنقّل بين الأمصار العربية، وبينما كنت قادمًا في إحدى سفراتي من فلسطين وقد تبقّى معي عدد قليل من الجمال، لم أتمكن من بيعها هناك، حدثَ أن رأيتُ وأنا على طريق العودة إلى دمشق - قبل أن أصلها ببضع ساعات - سيارة تسيرُ بسرعة وراء غزال كان يقفز أمامها بصورة مدهشة إلى أن وصل إلى مأمنه في مكان وعر، صعب على السيارة المضي وراءه، فلم تتمكن من اللحاق به، لذا عدَّلت وجهة سيرها وتوجَّهت نحونا، وكانت تقل سعيد اليوسف نجل عبدالرحمن باشا اليوسف الذي قتل كما ذكرت وزميله رئيس وزراء سورية السيد علاء الدين الدروبي في حوران، وكنت على معرفة بالسيد اليوسف، وفهمت منه أنه كان في طريقه إلى قصر الأمير محمود الفاعور، زعيم قبيلة الفضل في مكان يسمّى واسطًا بالقرب من مدينة القنيطرة جنوب دمشق. لقد كان مدعوًّا عند الشيخ الفاعور إلى حفل غداء كبير، وكان من ضمن المدعوين الذين سيلتقي بهم هناك - كما أخبرني السيد اليوسف - الجنرال الفرنسي غورو قائد القوات الفرنسية في سوريا.

ثم واصلنا السير فاعترَضَنا ثلاثة فتية شاكي السلاح يمتطون ظهور جيادهم،

وكانوا ملثَّمين لم يتبيَّن لنا من وجوههم غير أعينهم، فبدأوا يمطروننا بأسئلتهم، ولمّا تحققوا من أمرنا انبرى أحدهم وسألنا: هل مرَّت بكم سيارات قادمة من دمشق؟ فأجبناه بالنفي، وتركناهم وتابعنا السير.

كان الأمير محمود الفاعور يقطن في أواسط الجولان وكان يتمتَّع بنفوذ قويٍّ واحترام زائد، ليس فقط لدى أفراد عشيرته، بل من جيرانه ومن العربان والدروز سكان جبل الشيخ، فقد كان شهمًا كريم النفس دمث الأخلاق، وقد سبق له أن ثار على الفرنسيين عند دخولهم إلى دمشق، فأرسلوا ضدّه كتيبة من جندهم تحرسها الطائرات وقصفوا قصره في «واسط»، ونظرًا إلى قُرب بلاده من الحدود الفلسطينية التي كانت ترزح تحت السيطرة البريطانية في ذلك الوقت، ولقربه أيضًا من الحدود الأردنية خشيت السلطات الفرنسية أن يلتجىء إلى الأردن ويقوم من هناك بمناوشة قواتها في سورية، ومهما يكن من أمره فلقد قضت فرنسا على ثورته، ثم أصلحت قصره الذي دمرته طائراتها.

بعد برهة من الزمن مرّت قريبًا منّا خمس سيارات، كانت الأولى منها تحمل الجنرال غورو، الحاكم العام الفرنسي لسورية ولبنان، قادمًا من دمشق ملبيًّا - كما قلت - دعوة الأمير محمود الفاعور شيخ قبيلة الفضل، لكن لم تَمْضِ فترة ربع الساعة إلّا وعادت هذه السيارات بسرعة مذهلة من حيث أتت ومرّت بنا في طريق عودتها لدمشق، وعلِمْنا فيما بعد أن رجالات تعرّضوا لها وأطلقوا عليها أعيرة نارية، وقد أصيب سائق سيارة الجنرال ومرافقه، وسَلِمَ الجنرال غورو، وتبيَّن لنا بعد هذا أن الخيّالة الثلاثة الملثَّمين الذين مرّوا بنا قبل ذلك بقليل هم الذين أطلقوا الرصاص على الجنرال غورو وكان كبيرهم محمد محمود البعلبكي، وقد قتل البعلبكي بعد شهرين من هذا الحادث بمكان يُعرف (بأم الشراريط) بالقرب من دمشق. وذهبت مرة ثانية مع العمّ محمد الأحمد الرواف للعراق وكان رئيسًا لقافلة العقيلات، وكنت برفقته هذه المرة كتاجر صغير ورأس مالي كان مائة وخمسين جنيهًا عثمانيًّا ذهبيًّا، ولم نمكث في البادية، بل أقمنا في مدينة بغداد نشتري الإبل من أسواقها، وننتظرُ من أرسلناهم من رُسُلنا لشراء الإبل والخيل من الجزيرة في شمال العراق، وكانت معاملة العمّ محمد الأحمد لي في هذه الفترة تختلف اختلافًا

كبيرًا عن معاملته في السفرة الأولى يوم كنت مرافقًا لا تاجرًا، فكنت أقوم ببعض الخدمات أثناء إقامتنا في بغداد وبعد مرض طبّاخنا، كنت أقوم بالطبخ وإعداد الطعام من الأرز واللحم والخضرة في كل يوم، وأرتِّب ما يحتويه المنزل من المفروشات، وأتعهَّد تنظيفها، وتجاه هذا العمل أعفيت من جميع المصاريف التي كان يتناولها الرعيان من العمّ محمد ومن تكاليف الخاوة التي كان يدفعها إلى شيوخ العربان، حتى ملابسي كان يدفع ثمنها، ولا أزال أذكر استياءه ونفوره، عندما طلبتُ منه شراء حذاء جديد، خلاف القديم الذي أستعمله فقال بصوت ملؤه الغضب: إن الأموال التي بين أيدينا هي أموال الناس، فالواجب علينا المحافظة عليها، ومنذ شهر واحد دفعت لك ثمن حذاء، وليس باستطاعتي أن أشتَري لك حذاءً غيره، إنني أدفع لك من مالي الخاص، خُذْ هذا الجنيه واشترِ ما تحتاجه. فأخذتُ الجنيه وألقيت عليه ابتسامة قابلني بمثلها، فقد كان رحمه الله شديدًا على مرافقيه وعلى الرعيان، حريصًا على أموال الناس، وعندما كان ينتهي من بيع مواشيه اعتاد أن يَنْقُدَ خدّامه ضعف أجورهم لهذا كانوا يحترمونه ويقدِّرونه.

كان حبل الأمن في البادية مضطربًا، وكانت الأعراب تعيث في صحرائها الواسعة فسادًا، فتتعرَّض للتجّار ولقوافل العقيلات، ولا تتردَّد في هدر الدماء في سبيل مطامع بعض من لا خلاق لهم، فكم من أرواح أزهِقَت، وكم من أموال سُلبَت، وقد كان هذا شأن العربان من آلاف السنين، وكانوا يعتبرون غزوهم والتعرُّض لغيرهم من الرياضة، ولم يتمكّن حكّام الجزيرة وأمراؤها في السابق من ردعهم عن هذه العادة السيئة، ولم يكن لهم وازع من أنفسهم يوقفهم عن المضي في هذا العمل المشين، وعندما منيت الأمة العربية بعد الحرب العالمية الأولى بالاستعمار البريطاني والفرنسي، لم تتمكن هاتان الحكومتان في بادىء الأمر من حمل هؤلاء الأعراب على الإقلاع عن هذه العادات السيئة، ومن أمثلتها الشهيرة اعتداء شيخ قبيلة الحويطات (عودة أبو تايه) بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بسنتين على خيلٍ وجمالٍ كانت مثقلة بالأحمال من السجّاد وخلافه، قادمة من العراق فاستولى عليها جميعها. وكانت تخصّ أحد العقيلات واسمه علي الكحيمي والد عبد العزيز الكحيمي السفير، السعودي السابق في لبنان والأردن

والعراق رحمه الله، وقدّرت أثمان المنهوبات بعشرة آلاف جنيه ذهب. وحاولت عبثًا حكومة الانتداب البريطاني في شرقي الأردن وفلسطين - إذ كان عودة أبو تايه يقطن في شرقي الأردن - استرجاع هذه الأموال.

حدث لنا في هذه السفرة، عند عودتنا من العراق إلى دمشق وكنّا على بعد مائتي كلم عنها بصحبة أموالنا من الخيل والإبل، وما تحمله من الأثقال، وكان عددنا أكثر من خمسين تاجرًا، حدث أن اعترض سبيلنا، ستة أنفار، وكان واحدهم مثخن الجراح وكانوا جميعًا ينتمون إلى قبيلة بني صخر، من عربان شرقي الأردن. لقد كانوا يتنقلون في البادية، لعلهم يجدون، إمّا جملًا ضائعًا، أو يسطون ليلًا على بيت منفرد في البادية، أو يسرقون ليلًا بعضًا من الجمال من أمام بيوت أصحابها، ومن سوء حظّهم أنهم التقوا بجماعة أكثر منهم عددًا فتقاتلوا معهم، ففرّوا من أمامهم وقُتِل واحد منهم، وجُرِح آخر، وفي عودتهم إلى قبيلتهم عثروا علينا، وأقاموا تلك الليلة ضيوفًا علينا، وفيها توفي جريحهم فقُمنا بالصلاة عليه ودفنه.

كان يرأسهم رجل اسمه مشمش، ولقد كان على ما يبدو من أشدّاء بني صخر، وقد يبدو اسم مشمش غريبًا بالنسبة إلى سكان الحضر، ولكن سكان البادية لهم شأن خاصّ في اختيار أسمائهم. فكثيرًا ما يربطونها بحادثة أو مشكلة أو مكان أو مشهد، وأحيانًا يتعمّدون اختيار أسماء قبيحة، لكي يبعدوا عنهم تأثير العين الحاسدة.

بخصوص أسماء أهل البادية الغريبة أذكر أن شقيقتي سلمى - رحمها الله - التي تصغرني بحوالي عقدين من الزمن، ولدت في فترة كان الجراد فيها منتشرًا في كل مكان وكنا أحيانًا لا نرى الشمس من كثرته. ولقد قدِمَت إلى دارنا عجوز من البادية تسكن أطراف دمشق، كانت تتردَّد علينا كثيرًا لتبيعنا حليب غنمها والاقط المجفف من الحليب. وقالت لنا عجوز البادية: يجب أن تغيِّروا اسم مولودتكم إلى جرادة، لأن الجراد يملأ الدنيا هذه الأيام. وأن اثنتين من الفتيات اللاتي ولدن في جماعتنا هذه الأيام سميناهما جرادة. قال الوالد يمازح والدتي - رحمهما الله - ما رأيك في الأخذ بنصيحة هذه البدوية وتغيير اسم سلمى إلى جرادة؟ فقالت الوالدة: إذا تزوّجت يا أبا محمد من امرأة بدوية في رحلاتك الكثيرة إلى الصحراء وأنجبت

منها فتاة فسمِّها جرادة أو حتى إن شاء الله سجادة أو أي شيء آخر، ولكن ابنتي تبقى سلمى. فضحك الوالد وقال: لقد كنت أمزح يا أم محمد.

لقد ساءنا في بادىء الأمر اجتماعنا بمشمش وأصدقائه وفي صبيحة اليوم التالي عثرنا على آثار غزاة كثيري العدد، عند ذلك قال العمّ محمد الأحمد لمشمش، كبير هؤلاء الخمسة: ترانا يا أخ مشمش في وجهك من بني صخر قبيلتك ولك خمسة وعشرون جنيهًا ذهبيًّا.

فأجابه مشمش بنبرة قوية، فيها كثير من الاعتزاز والنخوة: توكّلنا على الله يا محمد، أنتم في وجهي، ولن ينالك من قبيلتي ضرر إن شاء الله. فما لبثنا غير قليل حتى تراءت لنا عن بعد مجموعة من هؤلاء الغزاة، فجمعنا ماشيتنا في موضع منخفض من الأرض، وأنزلنا الأحمال عن ظهورها، وتهيَّأنا للقتال دفاعًا عن أنفسنا وأموالنا.

كان مجموعنا يقارب المائتي رجل، ولم يكن لدينا سوى عشرين بندقية، وكان هذا هو كل سلاحنا الذي بقي معنا بعد أن قام الكثير منّا ببيع سلاحه، حيث كانت البندقية تساوي (20) جنيهًا ذهبيًّا، ويقوم بشرائها المعدان من أهل العراق أثناء ثورتهم، ولكن الذي يرانا عن بُعْد، يظن أنّ لدى كلٍّ منّا بندقية، وأن عددنا كبير جدًّا فحذر الغزاة من الهجوم علينا، كما حذروا اقتحام موقعنا ليلًا، لقد اعتقدوا بالفعل أننا أكثر عددًا وعدّة منهم، لمّا رأوا من النيران الكثيرة التي أمر محمد الأحمد بإيقادها والإكثار منها حولنا، ولم نَذُقْ النوم في تلك الليلة، لقد كنّا ننشد ونحدو بأصوات عالية، ونطلق عيارات نارية في الفضاء.

عند انبلاج الفجر وبعد طلوع الشمس مشى إلينا هؤلاء الغزاة، وكان مجموعهم مائة وخمسين رجلًا، ولم نتمكّن من صدهم، وأما مشمش - الذي سوف يدفع له العمّ محمد خمسة وعشرين جنيهًا - فكان واقفًا خلفنا يصيح بأعلى صوته: (لا تلحموا) أي لا تطلقوا النار على أحد، إنهم من جماعتنا، إنهم من بني صخر، ولمّا دنوا منا ظهر عليهم مشمش، قائلًا: (ما هنا إلا مشمش وأخوياه، أعوذ بالله من شرِّكم، مَن أراد السلامة فليمكث في مكانه، لا يتعدّاه، وسنأتيكم بالماء والزاد)، وهكذا امتثل الغزاة لأمر مشمش ونزلوا عند رغبته، فأخذوا أماكنهم

بموضع قريب منا، وقدّمنا لهم ما كانوا يحتاجونه من ماء وزاد، وأمضوا ليلتهم بجوارنا ورحلوا في صباح اليوم التالي. وهذه عادة طيبة من عادات العرب، يتبعونها كابرًا عن كابر منذ آلاف السنين، فأيُّ رجل مهما كان مركزه كبيرًا أو ضعيفًا في قومه، وبين قبيلته، إذا أمَّن أحدًا على حياته، أو على ماله، «ووضعه في وجهه» يكون في مأمن من أفراد قبيلته، ولا يُمَسّ بسوء.

لقد كان وجه الشيخ مشمش طيلة ذلك اليوم، باشًا مشرقًا، لا تفارق الابتسامة شفتيه، وكان يحدو مرة، ويتحدث مع العمّ محمد مرة أخرى، يقصُّ عليه تفوُّقه في غزواته، وما لاقاه فيها من متعة، وخذلان، وسعادة وشقاء، وكان يردِّد بين الحين والآخر جملة يقولها بشدّة وبنبرة قوية: الحمد لله الذي أنجانا من هؤلاء الغزاة من بني صخر.

يقول ذلك مباهاة وفخرًا واعتزازًا، ولكن مرح مشمش وابتسامته، وبشاشة وجهه لم تَدُمْ طويلًا! فلمّا جنَّ الليل علينا وأخذ كل واحد من أفراد قافلتنا - العقيلات - يتهيّأ للراحة في فراشه، بعد الليلة الماضية التي لم يغمض لنا فيها جفن، ولم نَذُقْ طعمًا للراحة في سفرتنا، إذا بالأرض ترجف بنا، وسمعنا صياحًا يقترب منا، فاجتمعنا على صعيد واحد، وقال العمّ محمد الأحمد: هؤلاء من قبيلة عنزة، فإنهم وحدهم يغزون على ظهور خيولهم ومن سواهم من العربان يغزو على الجمال، ولا خوف علينا فبيننا وبينهم ميثاق أخوّة يشتمل على مال ندفعه لهم، فأوقدنا نيرانًا، واستقبلنا الغزاة، وكانوا بالفعل من عنزة عددهم ثلاثمائة خيال، ولم يكُن لدينا زاد ولا ماء يكفيهم، فمكَث عندنا عشرة أشخاص من شيوخهم، والبقية واصلوا سيرهم.

ضمّت قافلتنا رعيانًا من قبيلة عنزة، فأخبروا جماعتهم الغزاة، أن في القافلة خمسة أشخاص من قبيلة بني صخر عائدين من غزو لقبيلة عنزة، فطلب هؤلاء المشايخ العشرة من العمّ محمد تسليم هؤلاء الغزاة الخمسة هم وركائبهم، فأجابهم العمّ محمد الأحمد بقوله: هؤلاء ضيوفنا، وبيننا وبينكم ميثاق يجب عليكم مراعاته، وبالأمس أنقذونا وأموالنا من غزوٍ كادَ أن يذهب بأرواحنا وأموالنا، ومن الصعب أن نسمح لكم بهؤلاء الرجال. فقال أحد المشايخ: نحن لا نريد

الأشخاص، ولكن نريد ركائبهم، فأجابه العمّ محمد الأحمد: كلا لن نسلِّمكم ركائبهم، ولو استدعى الأمر إلى ما لا تُحمَد عقباه.

هكذا غادر هؤلاء المشايخ العشرة، ولم يتمكنوا من نيل غاياتهم، وفي الصباح سرنا على بركة الله وعندها قال مشمش للعم محمد: واحدة بواحدة يا شيخ محمد، منعنا عنكم غزو بني صخر ولم يمسسكم منهم سوء، وفي الليلة الماضية أنقذتمونا من قبيلة عنزة أعدائنا. وهكذا واصلنا السير إلى دمشق، وتمَّ بيع جميع جِمالنا وخيلنا في هذه المدينة الطيبة.

بعد إقامتنا في دمشق شهرًا واحدًا تقريبًا، عزم والدي على التوجه للقطر المصري للاجتماع بشركائه آل السمان المقيمين في الإسكندرية، ورغب أن أرافقه أنا وإخواني الاثنان محمد عيد وياسين، وكانت له بعض العلاقات التجارية مع عربان الجولان وفلسطين والعريش، وبعد ساعة من مغادرتنا دمشق تشاءم شقيقي الأكبر محمد عيد من هذه الرحلة، لوقوع أحد جِمالنا في نهر قريب من دمشق، وكان يحمل زادنا فاستأذن من الوالد بالعودة إلى دمشق فأذِنَ له وواصلنا السير.

كان الوقت ربيعًا، والأرض تزهو بفراش أخضر سندسيّ، وأقمنا في الجولان يومين اثنين، والجولان بلاد مشهورة بجوِّها الربيعي الممتاز، وواصلنا السير إلى أن وصلنا فلسطين فألفينا فيها حركة تجارية تبشِّر بمستقبل زاهر، فالحركة التجارية في مدينة حيفا كانت تفوق الوصف وكذلك الحال في القدس ويافا.

كان الصهاينة يقومون بتخطيط مدينة تل أبيب، يبنون منازلهم على الرمال الصفراء وينفقون الأموال بكثرة، الأمر الذي لم تعهده فلسطين من قبل، وكانوا يتودَّدون للعرب من سكان هذه الأراضي الطيبة، شأن كل غريب ينزل بأقوام مجهولين لديه، وقابلنا في هذه المدن تجارًا من دمشق قاموا بفتح فروع لتجارتهم في المدن الفلسطينية حيفا ويافا والقدس، ممّا جعل حركة التجارة تنشط في أسواقها.

تابعنا السير إلى العريش وأقمنا ثلاثة أيام فيها، وتوجهنا منها إلى القاهرة، ثم أخذنا القطار إلى الإسكندرية، واجتمع والدي مع شريكه رشدي السمان، وكانت بينهما علاقات تجارية قائمة، فاستلم منه الوالد مبلغًا محترمًا من المال، كان لي

نصيب منه، وكذلك شقيقي ياسين، وما لبث والدي غير وقت قصير حتى عاد أدراجه وشقيقي ياسين إلى دمشق وتخلَّفتُ عنهما في القاهرة، أتعاطى في أسواقها تجارة الإبل مع شريكي محمد الجلاجل الذي تربطه بعائلتنا صلة قربى، ومرض شريكي محمد جلاجل، وأقمت بجانبه أسبوعًا كاملًا فقد كان من خيرة الناس، قضيت معه وقتًا طويلًا نمارس تجارة الإبل والخيل في القطر المصري.

أمضيت مدَّة شهرين هناك، لم أوفَّق فيها بتجارتي، فعُدت إلى دمشق وسلَّمت الوالد ما تبقّى معي من الدراهم التي استلمتها منه فامتنع عن أخذها. وقال: هذا ما خصَّك من الأموال التي استلمتها من شريكي ابن السمان بالإسكندرية، وقد أعطيت أخويك محمد عيد وياسين مبلغًا أكبر ممّا أعطيتك، فأبْقِ هذه الدراهم لنفسك وزاول أعمال تجارتك مع جماعتك العقيلات، فإنك الآن رجل تعرف منفعتك وفقك الله في أمورك كلها.

نقف هنا قليلًا للحديث عن أوضاع القطر المصري ولنَصِف ما كان يعانيه من أزمات:

كان القطر المصري آنذاك في ثورته الوطنية عام 1377هـ (1919م)، بعدما نفى البريطانيون زعيم مصر سعد زغلول ورفاقه، إلى جزيرة مالطة، وكان يعجُّ بالفوضى والاضطرابات، وكانت آراء ساسته متضاربة بعضها مع بعض، وكانت جمعية اليد السوداء، تعمل في سبيل المصلحة المصرية بنشاط واسع، وكان من زعمائها، النقراشي وأحمد ماهر وذلك على الرغم من الاختلاف السياسي بين هذه الجمعية، وجماعة سعد زغلول.

كانت أغلب الأحزاب المصرية تطالب بالاستقلال التامّ، ولكنها كانت مختلفة فيما بينها، فكان منها المتطرف الذي لم ينفك يطالب بالاستقلال التام وإخراج المغتصب البريطاني من هذا القطر السعيد. ومنهم من كان يرى أنَّ من الأسلم لمصر والآمن لمستقبلها إذا بقي النفوذ البريطاني قائمًا مع تخفيف وطأة السلطة قليلًا.

منهم من اختلف رأيه مع الفريقين المتنافسين فكان يقول: (نعقد معاهدة مع البريطانيين تحفظ لنا حقوقنا وتطلق بها حريتنا في إدارة البلاد) وأيَّد أصحاب هذا

الرأي الملك فؤاد القابع في قصره، لم يفارقه إلّا في المناسبات الرسمية، فقد كان منزويًا يراقب الحوادث بكثير من القلق، وما برح الشعب المصري يجاهد ويجالد حتى تمَّ له الظفر فنال استقلاله الذاتي الداخلي، وسنَّ دستوره وأخذ يتمتع بالحياة البرلمانية كما نال شيئًا بسيطًا من استقلاله الخارجي.

على ذكر زعيم مصر، وقائد حركتها الوطنية سعد زغلول، أرغب قبل أن أنتهي من هذا الفصل، أن أدوِّن خطبته التي ألقاها عند عودته من منفاه في سيشل في إحدى الحفلات التي أقيمت لاستقباله والترحيب به، وذلك لِما حوَته من شدَّة التأثير وقوة الحجة وصلابة الرأي، وقد جاء فيها قوله:

«طلب مني بعض خطبائكم أن ألقي كلمة تكون بردًا وسلامًا على قلوبكم، والكلمة التي جاشت في صدري عقب هذه الدعوة هي: أن أرجوكم وأرجو كل مواطن أن يحافظ على أمر واحد هو فخر نهضتنا الحاضرة، وذلك الأمر، هو (الاتّحاد المقدّس) هذا الاتّحاد الذي أرجو مصر جميعها أن لا تتهاون فيه لأنه فخر هذه النهضة وعمادها هو الذي جعل خصومنا يضطربون إذا فلت من أيديهم، حجة كانوا يعتمدون عليها كلما أردنا تحرير رقابنا من القيد الذي وضعوه في أعناقنا.

يقول خصومنا، إننا جماعة أقلية فيكم، لأنكم قوم متعصبون، فلا بدّ أن نبقى بينكم لكي نحفظ العدل فيكم، هذه الجملة قد زالت باتِّحادكم، ولكنهم الآن ينتهزون فرصة الانتخابات، ليبذروا الانقسام فيكم، فاحذروا هذه الدسيسة، واعلموا أنه ليس هناك إلّا المصريين، والمصريين فقط، فاحثوا الرماد في وجوه أولئك الدسَّاسين بين أبناء الوطن الواحد، إنه لا امتياز لواحد على الآخر إلّا بالإخلاص والكفاءة.

إني أفخر أيضًا بالتفافكم حول شخصي الضعيف، لقد تعوّدتم طاعتي ولست أميرًا ولا قريبًا لبيت ملك تعوّدتم الخضوع له، ولست غنيًّا ليكون التفافكم حولي طمعًا، ولست ذا جاه أوزِّع الجاه على مَن يطمع فيه، ولكنكم التففتم حولي فدلَّلتم بذلك على أنكم لا تطلبون مالًا ولا جاهًا ولكنكم تلتفون حول من يتمسك بمبادىء الأمة.

نُفينا فماذا حصل، لقد حلَّ محلنا آخرون، فكان لهم من الأمة الاحترام نفسه

الذي كان لنا لأنهم حلّوا في المكان الذي عهدت فيه الأمة إخلاص الذين حلّوا فيه، ولم يكن أمامهم إلّا السجن والنفي، فدلَّ ذلك على أن الأمة جميعها مستعدّة إذا غاب منّا سيد قام سيد.

جاء هؤلاء ونابوا عنّا نيابة، وعُذِّبوا وأُهينوا ولكنهم صبروا، وعندما أخذوا قام مَنْ خلفهم وسار سيرهم، فكان لهم ما كان من احترام وسجن واعتقال، وهكذا توالى قيام الأبطال، ولكن السجن يفتح أبوابه لكلِّ حرٍّ، ولكل عاملٍ للحرية وهذا دليل على تأصُّل النهضة فيكم، ودليل على أنكم مستعدون حقًّا لأن تضحّوا بكل شيء من أجل استقلالكم».

عند عودتي من القاهرة إلى دمشق وجدت فيها العمّ محمد وبين يديه ثلاثمائة من الإبل تقريبًا، وكانت سوق الإبل في الأمصار العربية في كساد، وأثمان الإبل آخذة في الانخفاض، فعزم على بيعها لأجل مسمّى في قرى حوران وقرى سهل البقاع والنبطية في جنوب لبنان، فعهد إليَّ كما عهد لشقيقي ياسين بمساعدته في بيعها، فاختار شقيقي ياسين قرى حوران، جبل الشيخ، أما أنا، فتوجهت بخمسين جملًا إلى البقاع فمكثت فيه شهرًا واحدًا حتى تمَّ بيع ما كان بعهدتي من الإبل لأجلٍ مسمّى، وكان ذلك بكفالة الوجيه أبي عمر عراجة من قرية بر الياس، وكان شهمًا كريم الخلق له مميزات خاصة تحمل الناس على احترامه وتقديره، والبقاع هذا هو أحد الأقضية الأربعة التي فصلها الفرنسيون عن سورية وألحقوها بلبنان فسُمِّي على أثرها لبنان الكبير.

كنا نسهر ليلًا في ضيافة السيد أبي عمر عراجة، وقد تطرَّق بنا الحديث في إحدى سهراتنا إلى الوضع الذي كان سائدًا، فسألته: هل أنت راضٍ عن الوضع الراهن في لبنان؟ فقال: إن لبنان يختلف عن بقية البلدان العربية الخاضعة للانتداب الفرنسي والبريطاني معًا في معيشته وفي معاملاته مع البلدان الأوروبية، واتّصاله بها اتصالًا وثيقًا، جعل مركزه التجاري ينمو شيئًا فشيئًا، إن أبناءه المغتربين في كلٍّ من أميركا وأفريقيا، وبعثاته العلمية في الأمصار الأوروبية، اختلاف عقائده ومذاهبه السياسية، كل ذلك جعله يختلف عن سائر أمصارنا العربية في النمو والارتقاء.

فمن أبنائه مَن هو محبِّذ للحكم الحاضر ومنهم مَن هو ناقم، ولا أعتقد أن

كثيرًا من سكانه ناقمون، أمّا أنا شخصيًّا - وكثيرون مثلي - فغيرُ راضين عن الحكم الحاضر، وإنّا لمعذورون إذْ لم نجاهر بهذا الكره للفرنسيين، فليس لدينا قوة تخوِّلنا الوقوف أمامهم، وماذا سيكون مصيرنا لو أننا قمنا بثورة ضدّهم، أعتقد أننا لن نفلح، لقد قامت عدّة ثورات محلية في سورية لم يواكبها النجاح، ولنا أمل كبير في جارتنا سورية التي فُصِلنا عنها من دون إرادتنا، فإن ظروفها وطبيعة بلادها تساعدها على القيام بثورة تعمُّ أرجاءها، وفيها من الرجال الأكفاء ما يكفل لهم التنصُّل من الحكم الفرنسي، بشرط أن يتّحد أبناؤها، وهذا أمر من الصعب الحصول عليه.

أما طرق معيشة قرى حوران فهي متواضعة، وغير مرضية، لقد لمستُ ذلك أثناء زيارتي لها مع شقيقي ياسين الذي أخذ يجمع ثمن الجمال التي باعها دينًا في قرى حوران، ولكن الحوارنة صابرون على هذه الحياة وما يتخللها من بؤس وشقاء، أغلبهم ليس لديهم عمل غير حرث الأرض وزراعتها ثم حصاد غلّتها من الحبوب كالقمح والشعير والذرة، يقضون في عملهم هذا خمسة أشهر، منها شهران عمل من دون توقف، والثلاثة الأخرى كذلك يقضونها في العمل، والسبعة أشهر الباقية من السنة يبدِّدون أيامها ولياليها بهدوئهم المتواصل وسكونهم في مضافات شيوخهم المفتوحة أبوابها ليلًا ونهارًا، يسمرون فيها، اللهم إلا قليلًا منهم ذوي اليسار حيث كانوا يقومون بعمل بسيط: ينقلون على أنعامهم من الإبل والخيل والحمير بعض محصولاتهم الزراعية.

كانوا يستدينون من عملائهم تجار دمشق كسوتهم الشتوية، وما يحتاجون إليه طيلة عام من الحاجيات بأثمان مرتفعة، حتى إذا باعوا غلَّتهم بعد حصادها، قاموا بتسديد ما عليهم من الديون، فلا يبقى لكثير منهم شيء يذكر من ثمنها، حتى القمح الذي كانوا يشْقَوْن في زرعه وحصاده، لا يبقى لديهم منه إلّا الشيء القليل، فكانوا لهذا يفضِّلون خبز الذرة، على خبز القمح، لرخص ثمن الذرة.

لم يكن في بيوت الكثير منهم المتواضعة من حطام الدنيا وبهجتها شيء يذكر، اللهم إلّا القليل من الماشية، كبقرة حلوب أو بعض شويهات، أو بهيمة للركوب، وهكذا كانوا يقضون سنواتهم، وهم في هذه الحالة البائسة، والبعيدة كل البعد عن الرفاهية والسعادة.

من الغريب أن تجدهم على الرغم ممّا هم فيه من البؤس والتعاسة، محافظين على الأخلاق الكريمة من شرفٍ وكرم، وحسن ترحاب. فإذا نظرنا إليهم من هذه الوجهة التي هم عليها من السكون والهدوء، وعدم المبالاة بشؤون الحياة التي هم عليها يمكننا أن نصفهم بالكسل والخمول والتقاعس.

أما إذا أضفت إليهم، كرم أخلاقهم، والمحافظة على شرفهم، وحسن ترحابهم، فلا يسعُكَ إلّا أن تلقي عليهم صفة طيبة من الصفات الحميدة النبيلة. إذ كيف يتسنّى لهم، وهم بهذا الفقر المدقع، والحياة القاسية الشرسة، المحافظة على الرجولة وكرم الأخلاق؟

لقد ثبت لدى العديد من المفكّرين أن البطالة، وعدم السعي في الحصول على حياة أفضل ممّا يثبط أصحاب الفضائل والخصال الحميدة.

أما بالنسبة إلى ساكني قرى جبل الشيخ، وقرى البقاع، فالمعيشة فيهما تختلف عنها في قرى حوران، اختلافًا ملموسًا، معيشتهم بحالة مُرضِية، ومنازلهم محترمة، تحتوي على بعض من اللباقة والذوق. وإنهم يهتمون بالزرع والضرع، يزرعون الحبوب، والخضر من جميع الأصناف، ومزارعهم مملوءة بأشجار الفاكهة المختلفة، ويقومون بتربية الأنعام، وفي حظائر منازلهم عدد كبير منها، وهم كثيرو الحركة والتنقل من بلد لآخر يمارسون فيها تجارتهم، ويعرضون فيها ما تنتجه مزارعهم.

أقمت في بلدة بر الياس، من أعمال البقاع، عند الوجيه أبي عمر عراجة شهرًا كاملًا، - وكما قلت - كان شهمًا كريمًا، له مميزات خاصة مرضية، تحمل الناس على احترامه وتقديره.

بعد مدة من عودتي من البقاع إلى دمشق واستلامي أثمان الجمال التي كنت قد بعتها دَينًا، شعرت بضيق شديد لم أدرِ ما سببه، واعتراني فتور ثبّط مني العزم لم أعلم كنهه، ومللت البيع والشراء، وتعاطي التجارة في جميع أصنافها، وأصابني نفور من لقاء الناس، وتجنُّب التحدث إليهم، حتى من أفراد عائلتي، فأعرضتُ عنهم جميعًا، وكنت أغادر المنزل وأسير حتى أصل سفح جبل قاسيون المطلّ على مدينة دمشق، أتمتّع بمناظرها الجميلة، وغوطتها الخلابة، المكتظة بالأشجار

المبعثرة هنا وهناك، أحمل معي منظارًا أرى من خلال عدسته المكبرة كثيرًا من البشر، ينتقلون بين قرى غوطة دمشق، كلٌّ يسعى في طلب الرزق، محاولًا بعملي هذا إبعاد السأم والضجر الذي كان يخامرني، فما زادتني هذه المناظر، إلا بؤسًا ونفورًا من نفسي التي بين جنبي، وكنت أسألها لماذا تقاعست عن العمل في طلب الرزق، بينما هؤلاء الخلائق الذين أراهم بعدسة المنظار يضربون الأرض بأقدام ثابتة، سعيًا وراء الرزق، يغدون جيئة وذهابًا في سبيل الحصول عليه، أليس من العار أن أبقى على ما أنا فيه، من دون عمل، وبلا أمل؟.

أحيانًا كنت آخذ طريقي في وادي بردى، وأسير على ضفاف هذا النهر الخالد، مارًّا بالربوة، وأنهارها السبعة تجري بلا تعب لتسقي مزارع دمشق وحدائقها الغنّاء، وكان إذا قدِّر لي رؤية سيارة أجرة لا تحمل أحدًا أستوقفها، فتأخذني إلى متنزهات دمّر، مارًّا بأشجار الحور الباسقة المنتشرة حولها، تتراقص بأثوابها البهية الجميلة، ذات اللون الأخضر السندسي، والبياض الثلجي.

مللتُ من التنقل، ومن المناظر الخلابة وفتنتها، ووجدت ميلًا ظاهرًا للركون والانزواء فكنت أقضي أوقاتي في قراءة الكتب ليلًا ونهارًا، وتجمّع لدي عدد كبير من الكتب، وأعجبت بما كتبه المنفلوطي، وبأسلوبه السهل الممتع، وقرأت له كل ما دوّنه، وما خطّه قلمه وتعرَّفت ما بين سطوره عندئذٍ إلى أحوال المساكين، وبؤس المستضعفين، وشقاء المناضلين، وبلاء المجتهدين.

كنت حريصًا أيضًا على مطالعة المجلات العلمية والأدبية، وكنت مواظبًا على قراءة مجلة المنار التي كانت تصدر في القاهرة، لغزارة موضوعاتها العلمية، وما خطَّه بيراعه صاحبها فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ رشيد رضا، في تفسير القرآن الكريم المجيد، كما قرأت مجلة العرفان التي كانت تصدر في مدينة صيدا من جنوب لبنان لصاحبها الشيخ عارف الزين، وكثيرًا من المجلات العربية القاهرية واللبنانية وبعضًا من جرائدهما، وكنت أركن لمجلة الدبور ولهجتها اللبنانية وأتابع بشغف زائد ما تنشره مجلة العرفان من الشعر لرجالات العراق، أو شعراء جبل عامل خاصة الشعر الحماسي منه، للشاعر محمد سليمان الأحمد، المتكنّي باسم بدوي الجبل، ولا سيما قصيدته التي مطلعها:

تغني وما أجدى الحسام وما أفنى | قواف من الأشعار تبقى ولا تفنى
أدرت على الأسماع منها سلافة | فأرضيت فيها الله والعرب والفنا
يحذرني قرض القريض مهذبًا | عصابة شر لا تقيم له وزنا
وهددني بالسجن قوم جهالة | فتى العرب والأمجاد لا يرهب السجنا

وختمها بالأبيات الآتية:

إذا أطفأت يا مي نيران يعرب | هوانا فإنا سوف نوقدها إنا
ولا بد من يوم أغر محجل | تطير الجبال الراسيات به عنا
يصافح فيه قائم السيف خالد | فيضرب حتى يُكسر السيفُ أو يُحنى
وكم في بطون اليعربيات خالد | سيرجع ظهر الأرض من حنق بطنا

ومن قصيدته في أطلال الجزيرة:

ما للجزيرة لا تفيق من الكرى | طلع الصباح، تنبهت آسادها
كلَّ الشعوب من الرقاد وبكروا | للطيبات فهل تمل رقادها؟
هللت للنشء الجديد وقلت ذا | جند الشآم فمن يطيق جلادها
حييت فيه حماتها أبطالها | يوم النزال كماتها قوادها
أبناء جلق والفرات وربما | مشت البنون فأدركت أجدادها
تلك المهارة فلا أحس بلوعة | إن مُدّ في عمري شهدت طرادها

قال يخاطب الشاعر أحمد شوقي:

ملك البيان الحر سمعا إنه | قلب يذوب وهذه خفقاته
أشكو بني أمي إليك وربما | كانت عزاء للحزين شكاته
متباعدين على تقارب نجدهم | في كل قطر عرشه وولاته

جاء في إحدى قصائده عن الأقطار العربية:

لو جمعت لم تك أوطاننا | دويلة فكيف صارت دول

قال في رثائه فضيلة الشيخ الألوسي في بغداد، والزعيم المصري سعد زغلول:

ما للجزيرة أين نور نبوغها | الزيت جف وأحرق القنديل
بغداد شاكية ومصر مرنة | والشام حاسرة القناع ثكول
تلك الأقاليم الثلاثة واحد | بردى وشاطىء دجلة والنيل
في كل يوم للجزيرة كوكب | يهوي وسيف يعتريه فلول
قالوا السياسة قلت رغم دهائها | ظل العروبة في الربوع ظليل
نسب أغر وذروة مضرية | نبت الربيع بها قنا ونصول
وعقيدة وطنية عربية | فيها نصول على العدى ونطول
هذا هو الحق الصراح وإنما | قول السياسة كله تدجيل

كان الشاعر بدوي الجبل يتغنى بأمجاد العرب ومفاخرهم، ويدعو العرب إلى اليقظة والنهوض، ليرفعوا عن أوطانهم ذلَّ الاستعمار. وأقف هنا برهة وجيزة من الزمن لأذكر بعض ما عرفته عن هذا الشاعر اللبق.

نشأ هذا الشاعر، في مدينة اللاذقية وهي الميناء البحري الذي تبقَّى لسورية، بعد أن فصل عنها الفرنسيون، ميناء طرابلس الشام، وميناء بيروت، ومقاطعة البقاع، وغيرها من الأراضي السورية، وأنشأوا جمهورية جبل لبنان، وسمِّيت هذه الجمهورية لبنان الكبير، وبعدما قدَّم الفرنسيون ميناء الإسكندرونة لقمة سائغة لأفواه الأتراك. هكذا يتصرَّف رجال الاستعمار فيما لا حقَّ لهم به، فيهبونه لمن يريدون، ويرغبون.

ترعرع الشاعر بدوي الجبل في مدينة اللاذقية مسقط رأسه، وما أن بلغ الثانية عشرة من عمره حتى أخذ يقرض الشعر، وفي مطلع السادسة عشرة، بدأت الصحف السورية واللبنانية، تنشر ما تبديه قريحته، حتى إذا بلغ العشرين عامًا ألهب شعره الحماسي، قلوب السوريين واللبنانيين على الفرنسيين الدخلاء، فكان شعرًا مثيرًا لاذعًا، ومفعمًا بحوادث التاريخ العربي، يوحي بالعزَّة والمجد والكرامة، يذكر فيه العرب بسالف مجدهم التليد وأيامهم الغر الميامين، وما نالوه من مجد وسؤدد، ثم كان يتحسَّر على ما هُم فيه من الذلَّة والمسكنة والخنوع.

المتتبِّع لِما كان ينظمه هذا الشاعر، قلَّ أن يعثر على قصيدة من شعره، خالية من ذكر حادث تاريخي، أو موقعة حربية مشهورة، فاستمع لما يقول:

قف على اليرموك واخشع جاثيًا ... وتيمم من صعيد القادسيه
تربة طيبة طاهرة ... ودموع من حيا الدمع نديه
ها هنا مثوى الصناديد الألى ... دوخوا الأرض بيض المشرفيه
ها هنا مثوى الصناديد الألى ... قد لووا قصر عنان الجاهليه

الأمر الذي حدا بأحد الشعراء العرب واسمه إبراهيم المنذر أن يلقّبه بالنابغة، وكاد بدوي الجبل أن يتمتع بهذا اللقب ويحصل عليه من معاصريه الشعراء والكتّاب، لولا توقفه فجأة عن قرض الشعر. ولولا ذلك لكانت له المنزلة السامية والشأن الكبير المختار في عالم الأدب العربي، وينسب توقفه المفاجىء عن نظم الشعر لأسباب منها: عندما قام الفرنسيون بتقسيم سورية إلى أربع مناطق حتى يسهل عليهم حكمها استعماريًّا، ويستغلوا مرافق الحياة فيها، وكانت مدينة اللاذقية وما حولها من القرى إحدى هذه المناطق السورية، وتسلّم الشاعر بدوي الجبل أحد المناصب المهمة في هذه المنطقة، فتقرَّب من دار المندوب السامي الفرنسي في سورية، فتوقف عن قرض الشعر عدة سنوات لم ينظم أثناءها من الشعر إلّا قليلًا.

لقد زار بدوي الجبل الديار المقدَّسة وأدّى العمرة وألقى أمام الملك فيصل قصيدة مفعمة بالثناء على جلالته وجلالة والده الملك عبد العزيز رحمهما الله.

أعود مجددًا إلى ما كنتُ بصدده وهو الحديث عن نفسي وشرح أوضاعي وتبيَّن لي أنه نتيجة انكبابي على المطالعة، تعلَّقت بأذيال الكتاب، وبدأت أدوِّن بخطٍّ دقيق بعض آيات الذكر الحكيم وكل ما استحسنته من الشعر والنثر، واحتفظتُ بما كتبته حتى يومنا هذا وقد حملته معي في جميع رحلاتي، وأسفاري مع العقيلات وطافَ معي أثناء زيارتي لكل من أوروبا وبلدان آسيا والأميركيتين الشمالية منها والجنوبية، حتى أثناء خدمتي في الجيش الأميركي، في الحرب العالمية الثانية، كنت أتصفَّح ما دوَّنته بين فترة من الوقت وأخرى فتعيد إلى ذاكرتي أيامًا خلت وتقفني على ما مضى من عِبَرٍ وحِكَم.

لدى انفرادي بنفسي وابتعادي عن الناس، بدأت الأمور تنقلب معي وصرت أفكّر تفكيرًا جادًّا في الوضع الحاضر للبلدان العربية.

لقد وقَّع ابن سعود معاهدة مع بريطانيا عام 1334هـ (1915م) بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى ثم استطاع رحمه الله إلغاء هذه المعاهدة عام 1345هـ (1927م)، وأما فيصل بن الحسين ملك العراق فلقد بقِي خاضعًا لإرادة البريطانيين وتحت حمايتهم إلى ما بعد عام 1348هـ (1930م)، وكان وضع عبدالله أمير شرقي الأردن وشقيق الملك فيصل مشابهًا لخضوعه لبريطانيا، وكانت سورية ولبنان، تحت السيطرة الفرنسية، وكانت سلطات ومشيخات الخليج العربي، وما أكثر عددها مع الكويت، تحت الحماية البريطانية، وهكذا كان الوضع في القطر المصري والسودان على الرغم من ثوراتهما المتعدِّدة، لقد كان كلُّ شيء يخصّ مصر والمصريين تحت إمرة المندوب البريطاني. هذا ولنتذكَّر البلدان العربية في إفريقيا التي تدير شؤونها السياسية والاقتصادية والعلمية السلطة الفرنسية وهي: تونس والجزائر والمغرب، وذلك منذ عشرات السنين، أما ليبيا فكانت تحت الحماية الإيطالية، إنه لم يَبْقَ سالمًا من الحماية والانتداب من الوطن العربي جميعه غير البلاد العربية السعودية وبلاد اليمن، والبلدان الإسلامية غير العربية فلم يمارس الاستقلال في ربوعها غير أفغانستان وإيران، أما تركيا مركز الخلافة الإسلامية السابقة، فزعيمها مصطفى كمال قد سنَّ لها دستورًا بعيدًا كل البُعد عن التعاليم الإسلامية، وأخذت حكومتها تمارس نصوص هذا الدستور وتقوم بتطبيقه على الشعب التركي، واتَّجه به وجهة أوروبية غربية بكل ما في هذه الكلمة من معنى حتى إن بعض مساجدها الشهيرة حوَّله بإرادته إلى دار للآثار، ولم تكن الهند قد نالت استقلالها بعد وكانت لم تَزَلْ ترزح تحت الحكم البريطاني الغاشم.

إن الإنسان ليقف مذهولًا تجاه ما كان يراه من الاضمحلال والخذلان والخنوع الذي مُنِيَت به الأمة العربية والإسلامية البالغ عدد أفرادها مئات الملايين وهي ترزح تحت انتداب وحماية المستعمرين الأوروبيين.

تعتريني الدهشة، ويأخذ العجب مني كلَّ مأخذٍ فأسأل نفسي أين أولئك الأبطال؟ أبطال الإسلام الذين فتحوا نصف الكرة الأرضية في غضون أقل من مائة عام ونشروا راياتهم في مشارق الأرض ومغاربها تحمل معها العدالة الإنسانية والإصلاح؟

أين بنو أمية وأين فتوحاتهم، والعباسيون وما حفظوه ونشروه من العلوم والفنون التي طبقت سمعتها الخافقين؟ فيأتي الجواب من الشاعر الذي يرثي الأندلس فردوس العرب المفقود، إذ يقول:

أتى على الكل أمر لا مردَّ له — حتى قضوا وكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك — كما حكى عن خيال الطيف وسنان

فوقفت مفجوعًا مذهولًا والعَبرة تتردد بين جفني حائرة، (بين يأس يدفعها وأنفة وإباء يمنعها).

على ذكر الأندلس، فردوس العرب المفقود فلا مانع من أن أدوِّن حديث الأستاذ الكبير محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي في دمشق (مجمع اللغة العربية حاليًا)، قال فيه:

«اجتمعت في باريس بمستشرق فرنسي فتطرَّق بنا الحديث إلى ذكر فردوس العرب المفقود الأندلس؟ قائلًا له: وهل زرت الأندلس أيها الصديق؟

فأجابني نعم، لقد زرت الأندلس وأعجبت بها كل الإعجاب، ممّا لفت نظري تلك السدود القائمة حتى الآن في واديها الأخضر، ولولا إتقان مهندسي العرب لتلك السدود لمات أهل ذاك الوادي عطشًا، وأردف قائلًا: بلادٌ هذه بعض آثارها تذهب ولا مَن يبكيها فتبًّا لمن أهملوها وأودعوكم بما أنتم فيه من الذلِّ والهوان».

هذا المستشرق الفرنسي الذي لا يمتُّ بصلة للعرب ولا للإسلام ولا تربطه أيّ رابطة بهما، يُبدي أسفه ويلوم مَن أهمل شأن هذا الفردوس العربي المفقود.



إبراهيم الرواف (والد المؤلف) – 1925م



المؤلف – دمشق 1926م



محمد عيد الرواف 1928م



ياسين الرواف – دمشق 1952م



الملك عبد العزيز وقائد القوات البريطانية في البصرة 1916م



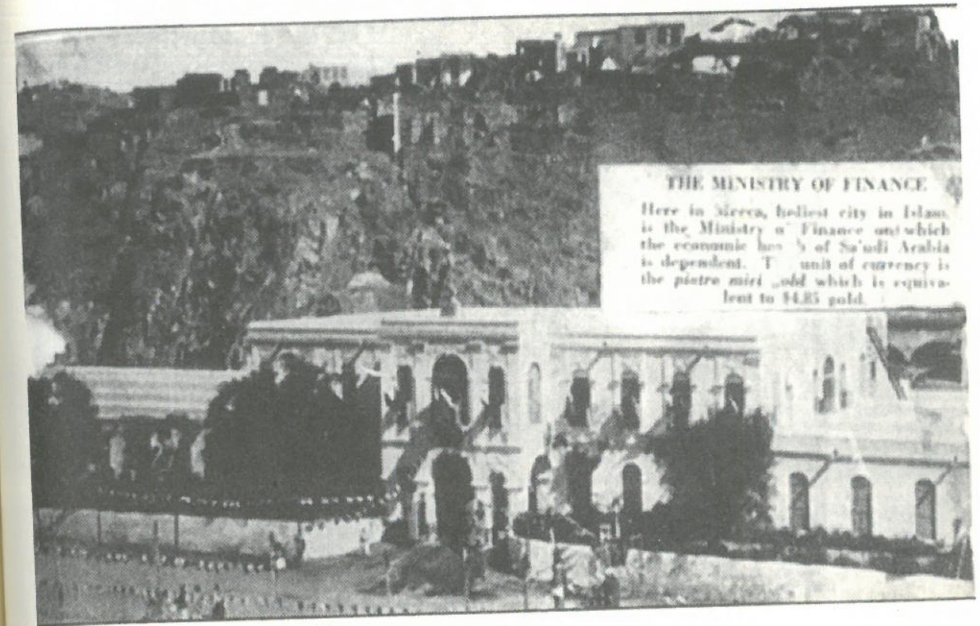
الملك عبد العزيز أمام الطائرة في جدة ويبدو حافظ وهبة



عبدالرحمن باشا اليوسف يتقدم الحجيج الشامي.
وكان والد المؤلف يمشي خلف الحجيج الشامي ومعه 150 من القصيم لحماية الحجيج



الملك عبد العزيز مع رئيس الديوان الإيراني والشيخ محمد نصيف
وعبدالله الفضل وإبراهيم بن معمر ويوسف ياسين عام 1928م



مبنى وزارة المالية في أجياد في مكة المكرمة عام 1928م



الملك عبد العزيز
وأخوه الأمير عبدالله في جدة 1929م



الملك سعود في القاهرة وفي الصورة الشيخ فوزان السابق
والشيخ حافظ وهبة - أواخر 1926م



الوفد المزمع إرساله إلى طهران برئاسة محمد عيد الرواف وعبد الله الفضل وسعيد رشاش،
سكرتير القنصلية السعودية في دمشق مع أعضاء البعثة التعليمية - القاهرة 1928م



الوفد المكون من محمد عيد الرواف وعبد الله الفضل وسعيد رشاش، المرسل من الملك عبدالعزيز إلى طهران لرد زيارة رئيس التشريفات الإيراني للمملكة عام 1927م



الزعيم سعد زغلول والسيد أحمد بك كرى والد زوجة المؤلف (المشار إليه)، وبعض زعماء مصر ورجالها - القاهرة 1919م



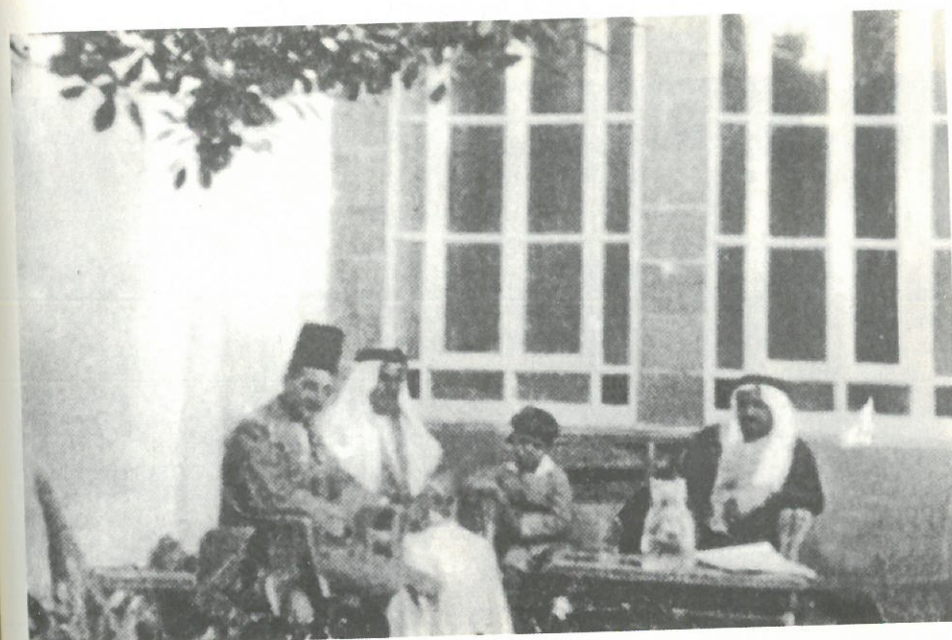
ياسين الرواف القنصل العام في دمشق (يسار الصورة) وعن يساره إحدى الشخصيات السياسية السورية وبعض قناصل الدول الأجنبية - دمشق 1927م



عبد الرحمن القصيبي يتوسط أعضاء البعثة التعليمية السعودية في القاهرة 1928م



محمد عبد الله البسام، يسار الصورة والشيخ محمد العصيمي
يمين الصورة وبينهما وكيل الأشراف في دمشق - 1927م



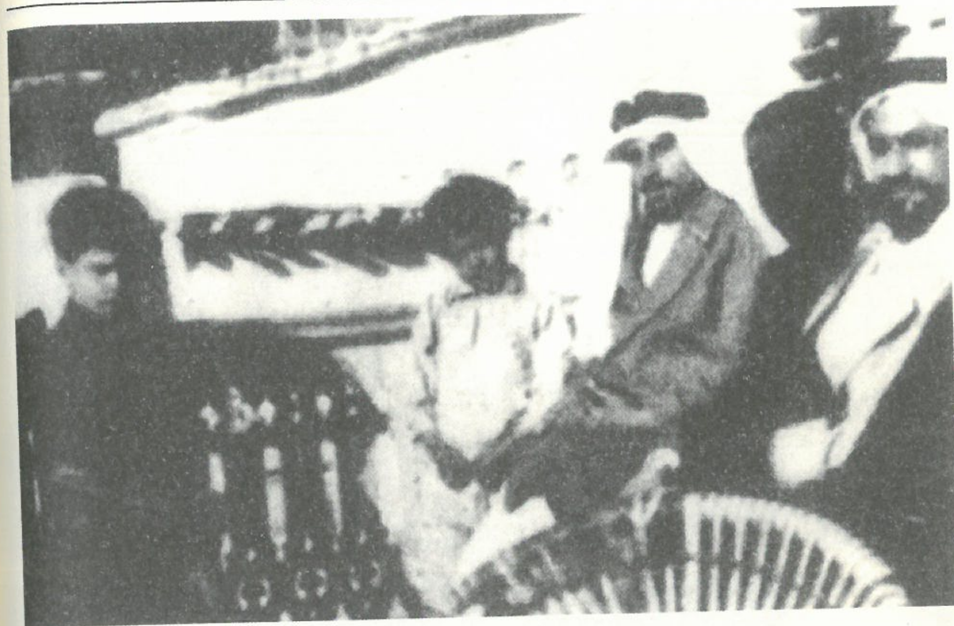
المؤلف مع شقيقه ياسين في القنصلية السعودية - دمشق 1927م



شقيق المؤلف ياسين الرواف مع اثنين من رجالات سوريا 1927م



اجتماع الوطنيين في سوريا في منزل هاني الجلاد،
وفي الاجتماع يبدو والد المؤلف إبراهيم الرواف - 1927م



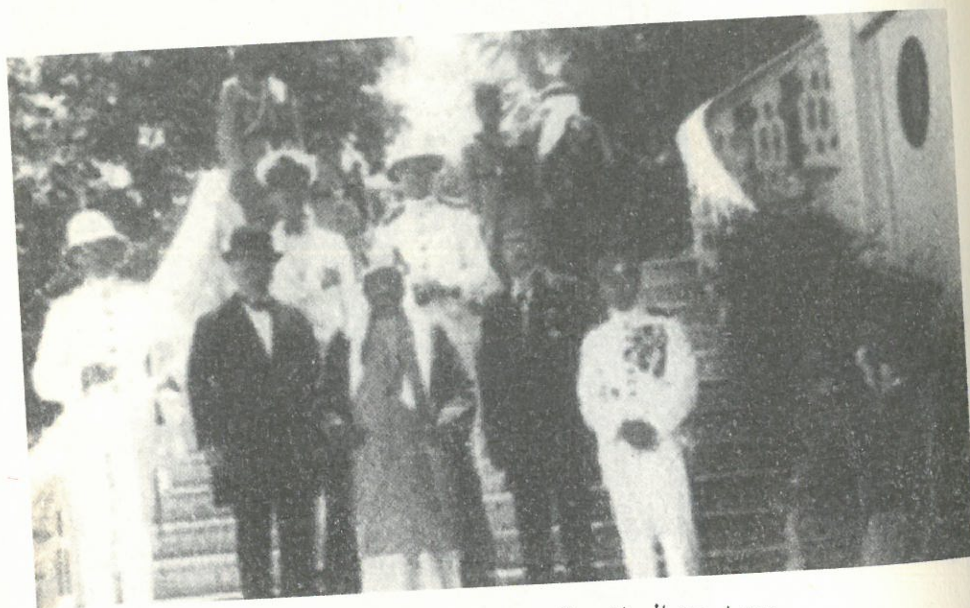
المؤلف وشقيقه ياسين الرواف في القنصلية بدمشق 1927م مع الطفلين أحمد الكحيمي، السفير في لبنان لاحقاً وروّاف محمد الرواف السفير في دمشق



ياسين الرواف مع رئيس بلدية دمشق زكي المهاني
وأحد أبناء السيد المهاني - 1928م



من اليسار: محمد عبد الله البسام وعبد الله الحليسي والشيخ محمد العصيمي، أيام عيد الفطر في القنصلية السعودية بدمشق عام 1928م ومعهم أحد العقيلات



محمد عيد الرواف والمستشار الفرنسي عند خروجهما
من دار الانتداب - دمشق 1928م



رئيس الجمهورية السورية محمد علي العابد ومحمد عيد الرواف وجميل مردم بك
وخالد العظم وبعض السفراء - دمشق 1929م



ياسين الرواف، قنصل عام السعودية في سوريا ولبنان مع ولديه المعتصم بالله
وولد شقيقه رياض الرواف في دمشق عام 1928م



عبدالرحمن باشا اليوسف



نوري بن شعلان



ناصر الرواف ابن عم المؤلف. من أوائل
موظفي المالية والداخلية في
عهد الملك عبد العزيز

الفصل الخامس

أيام مع الملك عبد العزيز في الحجاز

دخل جند آل سعود مكة المكرمة من دون قتال والتجأ الملك علي بن الحسين إلى مدينة جدة، ولاحقه الجند السعودي، وحاصروه في هذه المدينة التي لم يبْقَ بحوزة الهاشميين غيرها من المدن الحجازية، فكانت آخر معقل لهم.

كانت الألسن في الأقطار العربية، تتحدَّث عن هذا الحصار في أنديتها ومجتمعاتها، فمن محبِّذ له ومِن ناقم، وأخذت الجرائد المرتزقة في كلٍّ من العراق والأردن وسورية والقطر المصري، تنتقد عبد العزيز بن عبدالرحمن وجنده المجاهدين بجدة، ولم تجد غضاضة في نعته بالوهابي، لقد كانت كلمة الوهابي في ذلك الزمن لدى الجهال تعني المذهب الخامس، الخارج عن الإسلام ولكن الوهابية ليست مذهبًا خامسًا ولا خارجة عن الإسلام، وإنما هي التعاليم الإسلامية، التي أحياها المُصلح الأكبر الشيخ محمد بن عبدالوهاب الذي كان من رجالات مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولقد أراد أعداء الإسلام أن يصِمُوا السعوديين بهذا اللقب تمشيًا مع أفكارهم وآرائهم الخبيثة، وجاء - كما ذكرنا من قبل - في مقالٍ لعميد الأدب العربي طه حسين عنوانه (الحياة الأدبية في جزيرة العرب) ذكر الدعوة التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وفيه وصف الدكتور طه حسين هذه الدعوة بقوله:

«إنها الدعوة القوية إلى الدين الخالص النقي المطهَّر من كل شوائب الشرك والوثنية، هي الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالصًا لله وحده ملغيًا لكل واسطة بين الله وبين الناس، هي إحياء للإسلام العربي وتطهير له ممّا أصابه من نتائج الجهل، ومن نتائج الاختلاط بغير العرب.

من الغريب أن ظهور هذه الدعوة أحاطت بها ظروف تذكِّر بظهور الإسلام في الحجاز فقد دعا صاحبها إليه باللين أول الأمر فتبعه بعض الناس، ثم أظهر دعوته

فأصابه الإضرار وتعرَّض للخطر، ثم أخذ يعرض نفسه على الأمراء، ورؤساء العشائر كما كان النبي محمد ﷺ يعرض نفسه على القبائل، ثم هاجر إلى الدرعية وبايعه أهلها على النصر كما هاجر النبي إلى المدينة.

انقاد أهل نجد لهذه الدعوة وأخلصوا لها الطاعة وضحّوا بحياتهم في سبيلها على نحو ما انقاد العرب للنبي وهاجروا معه.

لولا أن التُّرك والمصريين اجتمعوا على حرب هذه الدعوة وحاربوها في دارها بقوة وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها، لكان من المرجو جدًّا أن توحِّد هذه الدعوة كلمة العرب في القرن الثاني والثالث عشر للهجرة كما وحَّد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول. ولكن الذي يعنينا من هذه الدعوة أثرها في الحياة العقلية والأدبية عند العرب، وقد كان هذا الأثر عظيمًا خطيرًا من نواحٍ مختلفة، فلقد أيقظ النفس العربية، ووضع أمامها مثلًا أعلى أحبَّته وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللسان».

لقد أحدث القذف الصادر عن الجهلة والمتاجرين بالعواطف الدينية، في نفسي نفورًا واشمئزازًا ليس لأنني نجدي أنتمي لبلادٍ يحكمها آل سعود وتجمعني بهم عقيدة واحدة ووطن واحد، بل لانتقاد هؤلاء الجهّال لآل سعود المحافظين على أوطانهم، والمستقلين فيها، بينما كان هؤلاء الجُهّال يرزحون تحت الحكم الأجنبي، وينتقدون ويا للخزي مَن قام بتوحيد كلمة أبناء الجزيرة العربية المتفرِّقة وصبَّها في بوتقة واحدة وجَعَلهم لا يعبدون إلا الله وحده، ولا يخافون لومة لائم.

كم من مرة قلت لنفسي: أمَا آنَ لهذه الألسن أن تكفّ أذاها، أمَا حانَ لهذه الصحف أن تحطِّم أقلام كتَّابها، وتخفض صوتها، وتوجِّه هذا اللوم والسباب للأجنبي الغاصب؟ ألا ترى ما حلَّ بها وبأوطانها من الخزي والذل والهوان؟ إنها النفوس الوضيعة، لا يهنأ لها عيش، ولا يقرَّ لها قرار، ما لم تَرَ أبناء الأمة الواحدة، ينشب فيما بينهم الخلاف ويتفاقم الشر.

كان شقيقي ياسين شديد الغيرة والتحمُّس للسلطان عبد العزيز وللنهضة النجدية التي أقامها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، يدافع عنها بكلِّ ما لديه من قوة ويدحض المفتريات ضدها، بحجج دامغة قوية، ويتجادل مع المتأثرين بالدعاية المغرضة،

التي كان يقوم بها المشايخ أثناء وعظهم وإرشادهم، فكنّا نشفق عليه لِمَا يناله من أذاهم وعنتهم وجبروتهم، وسألناه ليكف عن جدالهم ويتركهم وشأنهم فأبى وأصرَّ على موقفه الشجاع.

فما لبثنا غير وقت قصير حتى وافتنا الأخبار بنبأ سقوط جدة، بعد حصار طويل استمرّ طيلة أحد عشر شهرًا، فلقد آثر عبد العزيز - كما فعل في حصار حائل - الانتظار الطويل لكي يتجنَّب سفك الدماء. لقد كان بمقدوره اقتحام جدة بالقوة في أيِّ وقتٍ خلال مدّة الحصار، ولكن القائد السياسي البطل العسكري أدرك أن المدينة سوف تسقط سلمًا سواء عاجلًا أم آجلًا. فلماذا الاقتحام العسكري الذي سيؤدّي إلى قتل الكثيرين من الطرفين المتقاتلين وهو يعلم أن المحاصرين سوف ينهارون بعد مدّة من الزمن. لقد كان قرارًا سياسيًّا حكيمًا اتخذه ملك يسعى إلى توحيد الجزيرة وترسيخ الاستقرار فيها وحكمها بعد السيطرة عليها.

بعد فتح جدة جفَّت ألسنة المرجفين، وخفَّضت الجرائد من غلوائها، بعد أن امتنع عنها ما كانت تتناوله من مساعدات مالية من الأشراف.

استأذنت والدي بالسفر إلى القطر المصري ومنه للبلدان المقدَّسة لأداء فريضة الحج، وزيارة المسجد النبوي والسلام على رسول الله محمد ﷺ، وتقديم تقديري واحتراماتي للإمام عبد العزيز، فقال رحمه الله ولِمَ لا تفعل؟ مَن الذي يمنعك؟ عندها هيَّأت جواز السفر، وغادرت دمشق بالقطار إلى القاهرة، وأقمت فيها عشرة أيام ثم لحق بي شقيقي ياسين قادمًا من دمشق وأرسل برقية للإمام عبد العزيز يعلمه بقدومنا إلى الحجاز، وبعد ذلك بأيام معدودة أخذنا باخرة الشركة الخديوية إلى البلدان المقدسة، فنزلنا ضيوفًا على الحكومة فأكرمتنا غاية الإكرام. ولم يكن هناك في جدة فندق، فأنزلتنا الحكومة في دار أحد التجار النجديين من أهل عنيزة وهو الشيخ خالد الناصر.

لقد كانت حكومة ابن سعود تنفق الأموال، وتهِبُ ثمين العطايا لساكني الحرمين الشريفين - حتى أصبح كثيرٌ منهم في سعة من العيش - وكانت تستخدم عددًا كبيرًا منهم في الوظائف المستجدَّة، حيث لم تُنَحِّ أحدًا منهم عن العمل حتى المقربين للبيت الهاشمي، والموالين للحكومة الغابرة، ولهذا لم يَمْضِ وقت طويل

على خضوع مدن الحجاز للحكم السعودي إلّا وأصبح الناس مسروري الأنفس وراضي الخاطر. وكانت الوزارات لم تؤسَّس بعد، والنظام لم تعرفه بعد أمور الدولة الفتية المستحدثة فلا جيش منظم، ولا ميزانية مالية، وكانت هناك مدرسة واحدة يقوم بشؤونها نخبة صالحة من المواطنين.

كان عبدالله الدملوجي يقوم بالشؤون الخارجية، ويوسف ياسين يقوم بشؤون المكتب الخاص وبتحرير جريدة أم القرى، (وكانت تصدر باسم القبلة في زمن الهاشميين وكان أمير مكة الحسين يدبج فيها المقالات السياسية الطوال، ظنًّا منه أنها تترجَم إلى عدّة لغات، من لغات العالم، وتعرض على الزعماء والسياسيين منهم).

كان طيب بك الهزازي رئيسًا للديوان، والشيخ عبدالله السليمان الحمدان النجدي يقوم بإدارة المالية والشيخ حافظ وهبة، صاحب النفوذ القوي، والكلمة المسموعة لدى الملك عبد العزيز، كان ينتظر إنشاء وزارة المعارف ليقوم بإدارتها ولم يكن في البلدان المقدَّسة دائرة واحدة منظمة غير دائرة الصحة، ومديرها محمود حمودة، يعاونه بعض الأطباء السوريين. ومدير الأمن العام، الذي أطلق عليه الملك عبد العزيز لقب المصلح لِما كان يقوم به من الإصلاح في دائرة الشرطة، فأصبح يُعرف بهذا اللقب.

تشكَّل مجلس الشورى عند دخول النجديين للبلدان المقدسة من بعض أهالي البلاد، ومن غيرهم من البلدان العربية المجاورة، ورَأَسَه الأمير فيصل بن عبد العزيز نائب جلالة الملك عبد العزيز في البلدان المقدسة.

قدم الأستاذ ملحس وترأَّس المكتب الخاص، عوضًا عن الشيخ يوسف ياسين الذي عُيِّن مستشارًا خاصًا لجلالة الملك، وبعث السيد شكري بك القوتلي فؤاد حمزة، فصار له شأنٌ يذكر، واستدعى طبيب الملك عبد العزيز الخاص مدحت شيخ الأرض الطبيب رشاد فرعون وكان موظفًا في الجيش الفرنسي يمارس أعماله الطبيَّة فيه، وطلب منه القدوم للعمل في المملكة فلبى الدعوة. وأصبح فيما بعد من مستشاري الملك فيصل البارزين ودُعينا شقيقي وأنا من قبل مدير الصحة محمود حمودة لتناول طعام العشاء في المستشفى الحكومي، وكان من بين حضور هذا

الحفل خالد الحكيم وفؤاد حمزة ونبيه العظمة ومحمد النحاس وفوزي القاوقجي، والشيخ يوسف ياسين، وبعض الأطباء القائمين بشؤون المستشفى، وتحدَّث الجميع بالأقوال الجارحة، وأخذوا يتفكهون بنوادرهم الغابرة، قُدِّم الطعام وكان منسفًا من الأرز تعلوه ذبيحة وتهيَّأ أحدهم ليتناول لسان الخروف، ومدَّ يده لرأس الذبيحة وهم بفتحه، فما كان من محمود حمودة إلّا أن أمسك بيده قائلًا: والله لن أدعك تستولي على اللسان كلّه، لقد قضيت ساعة من الزمن تثرثر علينا، لم تَدَعْ لأحد منا فرصة ليبادلك الحديث، فإذا أكلت هذا اللسان، فسنبقى الليل كله ونحن نستمع لثرثرتك، ممّا أضحك القوم وقتًا طويلًا.

استتبَّ الأمر لابن سعود عبد العزيز في البلدان المقدَّسة، وتوطَّدت دعائم ملكه في ربوعها، وكان أول عمل خارجي قام به الدعوة التي وجَّهها إلى الحكومات الإسلامية يطلب منها أن ترسل وفودًا لتمثِّلها في المؤتمر الإسلامي المزمع انعقاده في مكة المكرمة، ليتداول وفود هذه الأقطار الإسلامية فيما بينهم حول شؤون البلدان المقدَّسة مهبط الوحي، ومصدر التشريع الإسلامي ومثلت الأقطار الإسلامية بمجموعها في هذا المؤتمر الإسلامي العالمي، وكنت وشقيقي من المواظبين على حضور جلسات هذا المؤتمر، نصغي لأقوال وفوده، وكان الوفد الهندي يرأسه محمد علي وشقيقه شوكت علي، وعن إيران القنصل العام لإيران، حبيب الله خان، في سورية ولبنان، وعن مصر الشيخ المراغي وصاحب مجلة المنار الشيخ رشيد رضا مع وفود كلٍّ من أفغانستان وسورية والعراق، والجزائر، والمغرب وتونس وليبيا، كما حضره من النجديين إبراهيم الرشودي والعم قاسم الرواف وغيرهم من أخيار القصيم من عنيزة وبريدة والرس.

مهما يكن من شأن هذا المؤتمر ووفوده العديدين، فقد عاد بفائدة معنوية كبيرة أدبية وسياسية، وأتيحت الفرصة لجلالة الملك عبد العزيز للتعرُّف على رجالات الأمة الإسلامية، واطِّلاعه على ما تكنُّه نفوسهم وضمائرهم نحو البلدان المقدَّسة من خير ومن شر، كما اكتسب صداقة قسم كبير من رجال هذه الوفود فناصروه وشدّوا أزره، بعدما تحقَّق لديهم معرفة آماله العظيمة ونواياه الطيبة.

قدِم في هذه الفترة من الزمن والدي من دمشق لأداء فريضة الحج وزيارة قبر

النبي محمد رسول الله ﷺ، ثم للتشرف بمقابلة جلالة الملك عبد العزيز، بصحبة مدير مدرستي الأستاذ عبدالحكيم الطرابلسي، واهتبلها الأستاذ الطرابلسي فرصة، وبدأ يلقي خطبه الدينية والوطنية في الحرم المكي كل يوم بعد صلاة المغرب، وقد تطرَّق في خطبته لذكر شقيقي الشيخ ياسين الرواف الذي تحاور في دمشق مع كثير من الناقمين على دعوة الشيخ محمد، وأوضح ما كان يلقاه منهم من عنت وغلظة أثناء حصار جدة.

أذن في هذا العام 1344هـ (1926م)، لرجال الحكومة المصرية بالقدوم إلى البلدان المقدَّسة، يحملون معهم ستائر الكعبة المشرفة، كما أذن للمحمل المصري بدخول المملكة والجنود الذي يتبعونه وبقي المحمل في جدة، وتوجّه الجنود المصريون إلى عرفات، وفي منى أخذ الجيش المصري يصدح بموسيقاه في هذا المكان المقدّس، فما كان من أحد الحجّاج إلّا أن طالبهم بوقف المزمار، وكان من الإخوان المحافظين على اتِّباع أوامر الله، قائلًا: إن هذه الأماكن للعبادة لا لتصدح فيها الموسيقى وزماميرها.

اشتكى قبل شهر واحد من الوقوف في عرفات عام 1344هـ (1926م)، صاحب السموّ الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز من ألم في عينيه، واستأذن والده الملك عبد العزيز بالتوجُّه للقطر المصري لعلاج بصره، فقال له إن شاء الله يكون هذا بَعد حج هذا العام. وعلم رجال التكية المصرية بمرض عيني صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز، واتصل القائم بشؤون التكية بالوزارة المصرية، وكانت برئاسة فقيد مصر الغالي سعد زغلول، الذي أمر القائم بشؤون التكية المصرية بتقديم دعوة لجلالة الملك عبد العزيز لإرسال نجله صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز للعلاج في القاهرة، وأشفعت وزارة الخارجية هذه الدعوة برسالة رسمية لوزارة الخارجية السعودية، وقَبِل الملك عبد العزيز الدعوة. كان زعيم مصر سعد زغلول يحاول بهذه الدعوة تخفيف حدَّة التوتر بين الملك عبد العزيز والملك فؤاد ملك مصر، وكانت الحكومة المصرية لم تعترف بالمملكة العربية السعودية آنئذٍ.

كان الملك فؤاد يسعى بكل إمكاناته ليتبوأ مركز الخلافة الإسلامية بعد أن تخلّت عنها الحكومة العثمانية، وعقد بالقاهرة مؤتمرًا إسلاميًّا تمهيدًا لذلك، دعت إليه الحكومة المصرية أقطاب العالم الإسلامي وزعماءه، وأرسلت للحكومة السعودية، لترسل وفدًا يمثلها في هذا المؤتمر، ولكن الملك عبد العزيز تجاهل هذه الدعوة ولم يرسل مندوبًا يمثِّل بلاده، إذ كان يعلم رغبة الملك فؤاد وحرصه وسعيه الحثيث للحصول على هذا المركز الإسلامي الممتاز الذي لا يستحقه، خاصة أنه كان خاضعًا لحكم الاستعمار البريطاني. فحذَّر الملك عبد العزيز من إرسال وفد ينوب عن المملكة، خوفًا من أن يقع وفده تحت الأمر الواقع، فيما إذا قرّر المؤتمرون المناداة بالملك فؤاد خليفة للمسلمين، فيكون الوفد بين أمرين إمّا الموافقة على قرار المؤتمر، أو الانسحاب من المؤتمر فكِلا الأمرين صعب فتحصل فجوة سحيقة بين الملكين.

كان الملك عبد العزيز رحمه الله لا يقر الملك فؤاد أن يكون خليفة للمسلمين، وبلاده خاضعة للنفوذ البريطاني.

وهكذا قضى الملك فؤاد نحبه، وغادر الحياة الدنيا، ولم تعترف حكومته رسميًّا بحكومة المملكة العربية السعودية فرحمه الله.

لم أكن من موظفي الحكومة العربية السعودية، ولكني من مؤيدي الملك عبد العزيز، ومن محبذي أعماله التي جمعت كلمة الأمة العربية في شبه الجزيرة، ووحَّدت بين أقطارها، فقد قضى على الخلافات والمنازعات بين أمرائها ومشايخها وساهم مساهمة فعّالة في إعلاء شأن العرب والمسلمين.

لقد كانت الأمة العربية في جزيرتها مفكَّكة الأوصال، مختلفة الكلمة، لا رابطة تربط بين أبنائها برباط متين لا تنفصم عراه فقَتْلٌ وقتال في كل ركن من أركانها، والقوي هو المتفوّق، فقام عبد العزيز فقضى على منازعاتهم وخصوماتهم وصهَرَهم في بوتقة واحدة، وتحت علم واحد، لذلك كنت من مؤيدي هذا الفارس البطل.

خلال عام 1344هـ (1926م)، كتبت كلمة بعنوان (تحية العلم) وبتوقيع (نجدي مخلص) نشرت في جريدة أم القرى وصادف بعد ذلك بشهر واحد أن

استدعى الإمام عبد العزيز بعض كبار النجديين فذهبت مع والدي وعمي قاسم وشقيقي ياسين وإبراهيم الرشودي من أعيان بريدة، كما لبّى الدعوة الشيخ ابن بليهد ورجال من أعيان عنيزة أيضًا. وبادر طويل العمر المجتمعين بقوله: ما جمعناكم إلّا لخير إن شاء الله، نحن في بلاد لا تخلو من أناس لا يريدون خيرًا لها، ولا لأنفسهم، ولا للأمة العربية، فدعوتكم لأخذ رأيكم في تنظيم جيش مؤلَّف من خمسمائة جندي، ونرغب في مساعدتكم على تهيئة هذه الجند، فماذا ترون، هل يمكن الحصول على هذا العدد؟

سكت الحاضرون جميعهم، عندها قلت: يا محفوظ، إنه عدد بسيط، فهل يمكن أن يكون مؤلَّفًا من أربعة آلاف رجل توزَّع في مدن المملكة، فأجاب طويل العمر: بارك الله فيك من أين نأتي بهؤلاء، ولم نحصل بعد على مائة منهم؟ ثم وجّه كلامه للحاضرين، قائلًا: انظروا في هذا الأمر، وسنجتمع بكم مرة ثانية؟

بعد ثلاثة أيام استدعى الملك عبد العزيز غفر الله له شقيقي ياسين، وأبلغه تعيينه قنصلًا عامًّا في سورية ولبنان، وأردَف جلالته قائلًا: أمّا أخوك خليل فنرغب في أن يكون قريبًا منا، ونكلِّفه ليكون كبيرًا على العسكر النظامي المزمع إنشاؤه، وأن يكون بمعيَّة ولدنا فيصل، إن والدكم سبق له القيام بخدمة الحكومة التركية، فكان يمشي هو وجنوده المائة والخمسين، وراء الحجّاج الأتراك والسوريين للمحافظة على مؤخرة الحجيج. أليس كذلك يا ياسين؟ فأجابه، نعم إن هذا صحيح طال عمرك.

لم أمكث في الحجاز لأستلم مهام ما أمَرَ به الملك لأكون كبيرًا للعسكر المزمع إنشاؤه، بل استأذنت الملك في الذهاب إلى دمشق، لأنهي أموري التجارية ثم أعود لأستلم مهام عملي، فأذن لي رحمه الله وتوجَّهت إلى دمشق، وقد عزمت على مغادرة المملكة بصحبة الوالد إبراهيم المحمد الرواف وشقيقي ياسين، ومدير مدرسة التوفيق في دمشق التي تلقيت بها تعليمي الابتدائي. في الحقيقة لم يكن لي بدمشق علاقات تجارية، بل كنتُ مترددًا في قبولي الوظيفة، ولم يكن لدي الجرأة الكافية لأطلب من الملك إعفائي من القيام بما أمرني به.

قبل أن نغادر الحجاز سبقتنا وفود بيت الله الحرام لمغادرته، بعد أدائها

الفريضة الدينية الخامسة من أركان الدين الإسلامي، وقامت الحكومة بإكرام الوفود خير قيام، وكان جلالة الملك متعبًا جدًّا من قيامة بأعباء الدولة وما كان يتطلّبه تأسيسها، وإني لا أزال أذكر ذلك اليوم الذي حظيت به مع شقيقي ياسين بالجلوس منفردين مع جلالته على مائدته الملكية المكونة من (منسف) أرز تعلوه ذبيحة وأخذ جلالته يوصي شقيقي ياسين أن يكون عند حسن ظنِّه به، وأن يكون لبقًا وحذرًا في سياسته مع رجال الانتداب الفرنسي، وأن يهتم بأمور الرعايا السعوديين ومشاكلهم وأن يرعى مصالحهم.

كان والدي من المعجبين بما يلاقيه الحجيج من اليسر والتيسير في ربوع هذه البلاد المطهَّرة باديتها وحاضرتها، ومأخوذ باستتباب الأمن في عهد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود الذي لم يعهده ولم يعرفه الحجاز من قبل، إذ لم تكن تلك الزيارة الأولى التي يقوم بها لهذه البلاد، فقد سبق أن زارها سبعًا وعشرين مرة، حيث كان كما أسلفت سابقًا هو وجنوده النجديون يمشون وراء الحجاج القادمين من سورية في العهد العثماني ليحافظوا عليهم من اللصوص وقطاع الطرق الأشرار من عرب البادية، فعلى الرغم ممّا كانت تنفقه عليهم الحكومة العثمانية في أيام الحجّ لم يَسُدِ الأمن، وقصَّ علينا الوالد في أحد مجالسه المملوءة بالحاضرين ما كان يلاقيه هو وجنوده أثناء مسيرهم من دمشق مارين بالأراضي الحجازية، من ذلك حادثتان وقعت إحداهما في البادية والثانية في مكة المكرمة.

قال رحمه الله: في إحدى السنين الغابرة أثناء سيرنا بالأراضي الحجازية بين مكة والمدينة نزلنا منزلًا محاطًا من جهاته الثلاث بالجبال، وأقام قسمٌ من الجنود خيمتهم بعيدًا عنا مقدار مائتي ذراع، وكنا قبلُ نبني خيامنا بجانب بعضها، وأخذ كلٌّ منهم يباشر العمل المنوط به، فتسلَّل أحد الأعراب وانحنى ليأخذ قدر طعامهم من على الموقد، فانتبه أحد الجنود فركض نحوه وأطبق يديه على خاصرة الأعرابي فما كان من الأعرابي إلّا أن أمسك بكِلتا يدي الجندي ووضعهما تحت إبطيه وحمله، وفر هاربًا والقدر بين يديه والجندي على ظهره، لكن ما أن لحق به الجنود حتى ترك الجندي وواصل فراره والقدر بين يديه ولم يتمكّن الجنود من اللحاق به، فوعورة الطريق حالت دون ذلك، واختفى الأعرابي بين الجبال، وكان الجنود

بإمكانهم إطلاق النار على الأعرابي ليردوه قتيلًا، لكنهم كانوا مأمورين ألّا يطلقوا النار إلّا على مَن يُشهر السلاح عليهم.

قال أيضًا: كنت راكبًا دابّة، وأحد الجنود المحافظين على مؤخرة الحجيج يمشي أمامي وكان من عائلة الطميغة من مواليد بلدة عنيزة، وكنا في رابعة النهار متوجهين إلى مكة المكرمة بطريق الحجون، فأطلق علينا أحد العربان بضع طلقات نارية، وأتت إحدى هذه الطلقات على صخرة فتناثر من هذه الصخرة بعض الحجارة الصغيرة، فأصابت إحداها الجندي في فخذه فصاح الجندي: صوبت يا عمّ إبراهيم، فقلت له لم يُصِبْك أذى والذي أصابك هو حجر صغير من إحدى الصخور.

كان على ظهر الباخرة التي أقلتنا من جدة إلى السويس بطريق عودتنا إلى دمشق أحد الإيرانيين واسمه حبيب الله خان وبعد السلام والمجاملة بالكلام عرفنا بشخصيته كوزير مفوَّض لإيران لدى حكومة الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان، وكان من الناقمين على حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأخذ في انتقادها.

كان المفوض الإيراني يتكلم بحماس وانفعال شديدين، فتصدّيت أنا وشقيقي ياسين له ودحضنا كل افتراءاته، وجاء في ردِّ شقيقي ياسين عليه، أن ابن سعود اليوم هو استمرار لسلفه من النجديين الأوائل الذين نشروا دعوة الشيخ محمد في القرن الثاني عشر من الهجرة. وأن عبد العزيز ليِّن العريكة، ماضي العزم، يتبع الحكمة في جميع أعماله الداخلية منها والخارجية، وهو يقدِّر الظروف التي أحاطت بجيرانه من البلدان العربية، التي يسيطر عليها النفوذ الأوروبي، ويتمتع بنفوذ قوي كبير، ليس فقط في البلدان العربية، بل في الأقطار الإسلامية جميعها، وله في نفوس ساكنيها، احترام وتقدير، وكما تعلَم سعادتكم، أن الوطن العربي اليوم تطور تطورًا ملحوظًا ونفض عنه غبار الذل والمسكنة، وأخذ يدرس أوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، درسًا دقيقًا وافيًا، وما أن وصل شقيقي بحديثه عند هذا الحدّ، حتى حضر خادم الوزير المفوّض يدعوه لأمر يتعلق بعائلته، فانصرف دون أن يتفوّه بكلمة واحدة.

في اليوم الثاني غيَّر رأيه، ففي غرفة الطعام، أثناء تناولنا الغداء كان يجلس

مع عائلته في أحد أركانها، فما أن رآنا جالسين مع والدنا، حتى نهض من مكانه تاركًا عائلته، وجلس إلى مائدتنا، وأخذ يعتذر، عمّا صدر منه بالأمس تجاه دعوة الشيخ محمد والرجال الذين حملوا لواء دعوته، وكان بطريقة اعتذاره مؤدبًا جدًّا فقال: إنني أثناء إقامتي في الحجاز لم أجتمع بأحد من الأفراد السعوديين، ولم أسمع من أحد عن حقيقة دعوة الشيخ محمد وعن حرص الملك عبد العزيز على توحيد شمل المسلمين، فإذا كنت قد تعدَّيت العُرف بالأمس وأثقلت بالكلام، كان ذلك من آثار ما علق بذاكرتي من الدعاية الأجنبية غير الصحيحة. وبعد هذا أخذ حبيب الله خان الوزير المفوض الإيراني يلازمنا طيلة الرحلة، حتى وصلنا السويس.

أقمنا في القطر المصري يومين اثنين، حضرنا خلالهما بعض الاحتفالات التي أقامتها الحكومة المصرية للأمير سعود بن عبد العزيز الذي دعته - كما أشرت من قبل - برئاسة الزعيم سعد زغلول، للكشف على عينيه من قِبَل الأطباء المصريين، ثم توجّهنا إلى دمشق، واستلم شقيقي ياسين عمله في قنصلية المملكة العربية السعودية فيها.

دمشق المدينة التجارية العظيمة، الحبيبة إليّ، والقريبة من قلبي، لقد دوّنت بمداد من الحب بين طياته، ونقشت على ضلوعه بأحرف من ودٍّ لا يمحوها اختلاف الدهر ولا تقلُّب الأيام، فهي ذكرى عهود الصبا والشباب.

إنه ليخيَّل إليّ حينما أذكرها، أنني لا أزال في عنفوان شبابي، أرتع في مروجها ورياضها ولقد ذكرتها وسأظلُّ أذكرها دومًا ما دمت حيًا.

إنها المدينة التي تذكِّرني بالعهود التي غمرتني بأريجها العطر، عهود الصبا والشباب كلما مرّ ذكراها بخاطري، أو طرَقَ مسمعي، أو تراءت أمامي بجبلها الأشم قاسيون، أو منظر غوطتها الفتان، وأشجارها الوارفة الظلال الدانية القطوف الكاسية الرأس، العارية الساق، والمبعثرة أنهارها في أطرافها هنا وهناك تنساب في مجراها على مهل، أنهار تسقي الأرض فينبت الزرع، وتكتسي الأرض سندسًا أخضر، وتبدو شامخة الأنف عالية الرأس.

حقًّا إنها جميلة كالجنة، كما سمّاها، الشاعر بدوي الجبل، يوم أن كان

الانتداب الفرنسي، جاثمًا في ربوعها، مهيمنًا على أرزاقها، رابضًا بكل ثقله على أنفاس ساكنيها لم يدَعْ لهم منفذًا واحدًا يستنشقون منه نسمة عطرة من نسمات الحرية، ولا يرون شعاعًا من أشعتها الذهبية.

دمشق المدينة التي يعاودني دومًا ذكرها، ولِمَ، لا؟ أليست هي المدينة الأولى التي أبصرت فيها النور؟ وانتظمت في هذا الوجود؟

أليست هي المدينة التي ظلّلتني سماؤها ورواني ماؤها؟ وغذّتني ترتبتها؟

إنه الحنين المتواصل، يلازمني أينما ذهبت، وحيثما أقمت، في المدن والقرى، في القصور الفخمة، أو في العشش المتواضعة، في الصحاري والقفار، في منابت الكلأ والأعشاب، أو في وسط الرمال الجرداء، إنه الحنين القوي المتين، الذي عناه الشاعر على لسان أحد الجنود الفرنسيين وهو في ساحة الحرب، مضرَّج بدمائه ينفث ببطء أنفاسه الأخيرة، والظمأ أخذ منه مأخذه، حيث قال:

يحن إليك يا وطني أواري ... فهل من نظرة تروي الأوارا
أرى الأيام قد عبست بوجهي ... فهَبْ لي من مباسمك افترارا
ترى عيني هنا يبسًا فهلّا ... تريها من سهولك اخضرارا؟
أحنُّ إلى الديار حنين طير ... نأى عن عشه الزاهي وطارا
ديار قد ربيت بها صغيرًا ... أأنظر بعد هاتيك الديارا
أموت وفي فؤادي نار شوق ... إلى الأوطان تستعر استعارا

أجل لقد حافظ هذا الجندي الشجاع، على العهد، حتى الموت، وظلّت نار الشوق للوطن مستعرة في فؤاده حتى لحظاته الأخيرة، لقد نسِي الأهل والولد، وآخر ما تذكّر هو الوطن، فالوطن عزيز، ولا شيء يفوق عزّته ومعزته.

مكثت في دمشق شهرين كاملين وكانت أيامها ولياليها متعة الفؤاد، ثم توجّهت إلى الحجاز فوجدت هناك السيد محمد النحاس الخبير المالي الذي عيّنه جلالة الملك عبد العزيز مساعدًا لوزير المالية الشيخ عبدالله السليمان قد ترك خدمة الملك.

ينتسب السيد النحاس إلى الكتلة الوطنية في دمشق، وكانت تضمّ خيرة

رجالات دمشق، وعندما يئس رجالها من تعيين السيد النحاس قنصلًا لدى الانتداب الفرنسي في دمشق، سعَت سعيًا حثيثًا ليكون قريبًا من الملك عبد العزيز من كثرة الأطباء الدمشقيين الموظفين في المملكة لتقوية صلة هذه الكتلة الوطنية بهذا البطل العظيم صاحب النفوذ القوي بالأوساط العربية والإسلامية والعالمية، وليكون لها النفوذ القوي لدى السوريين من جهة والاحترام من رجال الانتداب الفرنسي، ولكنها لم توفّق في مسعاها، فالسيد النحاس الذي كان ينتمي إلى أفرادها، لم يعيَّن قنصلًا في سورية، ولم يبْقَ وقتًا طويلًا في المالية كمساعد للوزير.

كان الملك عبد العزيز، غفر الله له وأسكنه فسيح جناته، يحترم الغرباء احترامًا زائدًا ويقدِّرهم، ويعاملهم معاملة طيبة فيها كل نُبْلٍ وشهامة، يصغي بكل انتباه لأحاديثهم إليه، ويُغدِق عليهم الهبات، فتلك كانت عادته. والذين كانوا يطلبون منه الاستعانة بخبراتهم بإدارة شؤون الدولة ولم يكُنْ بحاجة إليهم أو لم يرغب في تعيينهم فلقد كان رحمه الله يردُّهم بأدب ولطفٍ، ولم تكن خبرات الكثيرين من الأجانب تماثل مقدرة ابن سليمان فلقد كان الشيخ عبدالله بن سليمان وزير المالية، عند ابتداء الحكم السعودي في الحجاز، يشتري من التجار البضائع المتنوعة، لمدّة معينة، وبأثمان مرتفعة، فيحتفظ بما يحتاجه منها الملك، ثم يبيع الباقي إلى تجار آخرين، بثمنٍ منخفض عمّا اشتراه، ويستلم ثمنها نقدًا، ليقوم بتلبية ما كان يطلبه جلالة الملك من النقود، فقد كانت خزائن الدولة أفرغ من فؤاد أم موسى، وكان شأن الشيخ عبدالله السليمان من هؤلاء التجار الذين يشتري بضائعهم ثم يبيعها إلى آخرين غيرهم - كالذي يأخذ طاقية هذا من على رأسه ويضعها على رأس تاجر آخر - وكان هذا دأبه إلى أن صار للدولة وارد ثابت، وهكذا كان موقف عبدالله السليمان تجاه جلالة الملك عبد العزيز ممّا جعل عبد العزيز يثِقُ به وثوقًا كاملًا لا حدَّ له.

ممّا يُذكر عن الملك عبد العزيز أثناء وجود جلالته في بريدة هو وجنده أنه لم يكن لديه مال وفير لسداد ما يحتاج إليه من الطعام وما ينفقه من الهبات للقادمين إليه من وفود ومشايخ العربان للسلام على جلالته، وفي هذه الأثناء أتت إليه قافلة كبيرة تحمل معها الأموال الطائلة، والزاد الوفير، وكل ما كان يحتاجه طيب الله

ثراه. فقال: هذا هو عمل ابن سليمان، إنني أثق بمقدرته وحرصه على تحقيق كلِّ مطالبي.

إني سمعت من جلالته أثناء وجودي في مجلسه في صبيحة أحد الأيام قوله: عندما كنا في الرغامة محاصرين لمدينة جدة، لم يكن لدينا شيء من الطعام فأحضر عبدالله السليمان خبزًا يابسًا، فأخذنا نبُلُّه بالماء فنأكل منه أنا وهو، وكان طعامًا لذيذًا، لا زلنا نشعر بلذته.

ليس من أحد، يتجاهل ما لجلالة الملك عبد العزيز، من شخصية محترمة ممتازة تُعتبر من أعظم الشخصيات في زمنه، وما له من سمعة طيبة، ونفوذ واسع، ليس فقط في الجزيرة العربية فحسب، بل في العالم الإسلامي بأسره.

وتعدّاه حتى تغلغل في بعض أنحاء العالم العربي، إلى الأميركيتين، لقد عرفت عنه أنه كان جوادًا سخيًا، يبذل كل جهده لتوحيد كلمة العرب، وعزهم وسؤددهم، وأنه محافظ على عهوده ووعوده، إذا أخذها أو أعطاها، وأنه حليم رحيم لرعيته تفوق رحمته رحمة الوالدين، وأنه كان يعفو عن المسيء إليه، لقد تجلّت هذه الصفات الممتازة، في جلالته، وبجانب هذه الصفات الممتازة، فإنه كان يعتدُّ بنفسه وشخصيته، فإذا أحاط به أمر من الأمور الصعبة كان يعرضه على مستشاريه، وكثيرًا ما كان يأخذ برأيهم، إذا قرُب من رأيه، وإلّا رفضه، رفضًا باتًّا.

لقد كان في أشدِّ الحاجة، عندما وهب زكاة أهل الهفوف، عندما زاره أحد مشايخ عتيبة (ابن هندي) ذلك الرجل الشجاع، النافذ الكلمة لدى قومه، لقد جاء ابن هندي للسلام على جلالة الملك لينال من رفده وكرَمه، وعاد إلى قومه جذلان فرحًا، فأنبأهم بالهبة الملكية، التي تكرَّم بها جلالته، ومهما كانت هذه الهبة كثيرة أم قليلة، فإنها تنبىء عن معدن السخاء الذي في نفس جلالته، وعن طبائع بعض مشايخ العربان، إن لم نَقُل الكثير منهم، فهم يحترمون الحكام الذين يبذلون الأموال، ويقدِّرونهم حق قدرهم، كانت هذه الهبة من جلالته إلى ابن هندي، يوم كان الخلاف ناشبًا بين عبد العزيز بن سعود، وبين خصمه اللدود عبد العزيز بن رشيد أمير منطقة حائل، وكان النزاع بينهما شرسًا وعلى أشده، فبهذه الهبة، بقي ابن هندي وقومه إلى جانب عبد العزيز بن سعود، يقاتلون معه خصمه ابن رشيد.

بعد عودتنا من الحجاز إلى دمشق انتابني من جديد الضيق الشديد السابق وأصبحت دنيا الحياة الواسعة في نظري أضيق من سمّ الخياط. ولكن في هذه المرة أعتقد أنني أدركت سبب ضيقي وعرفت سرّ حسرتي وعزوفي عن الناس، فلقد كنت أبحث عن نفسي أريد أن أعرف مَن هو خليل الرواف، هل أنا تاجر من العقيلات؟ هل أريد فعلًا امتهان تجارة الإبل والمواشي كل حياتي؟ هل أتفرَّغ لهذا العمل؟ أم أريد وظيفة حكومية مثل شقيقي محمد عيد وياسين، وها هي وظيفة عسكرية كبيرة تنتظرني عند الملك عبد العزيز؟ أم أريد التفرغ لقراءة علوم الدين والأدب والثقافة وتدوين التاريخ؟ أم أريد أن أبقى متنقلًا من مكان لآخر هربًا من الاستقرار؟ أم ماذا أريد لمستقبلي الذي لم أعثر فيه على بارقة أمل تبدِّد هذا الغموض والالتباس؟ وذهَبَ بي التفكير شتى المذاهب واعترتني الظنون والأوهام من كل جانب فلم أعُدْ أدري معها ماذا أفعل. وكيف يمكن لرجل مثلي بعد أن طوى ربيعه الثلاثين أن يقف لكي يسأل نفسه ماذا يريد من هذه الدنيا؟ ألم يأتِ هذا السؤال متأخرًا بعض الشيء؟ ألم يفترض بي أن أعرف الإجابة عنه منذ مدة طويلة؟

من وسط هذا الظلام الدامس أطلّت في حياتي إشراقة أمل غريبة. فلقد أدركت أنني لست بالتاجر ولا بالموظف وقرَّرت أن أترك حياتي في طيات المغامرة. نعم هذا هو أنا إنني مغامر في هذه الحياة، أعيش حلوها ومرها. لقد كنت ولا أزال شابًّا، أتطلع نحو الحياة الحرّة الكريمة، فلن أنظر إلى المستقبل، نظر الضعيف ولكنني سأقف وقفة الرجل رافع الرأس قوي الإرادة، أستقبل كل مفاجآت الدهر وتقلباته، بجأش قوي وعزم ثابت، فأقتحم الحياة، وأواكب سيرها بخطى وئيدة.

لم تمْضِ فترة طويلة على مكوثي في دمشق حتى سافرت إلى مكة المكرمة، فلقد كنت حقًّا رجل سفر ومغامرات.

يحكى أن حاتمًا المشهور في كرمه، وحسن ضيافته، ضافه رجل فتعمَّد إهماله فلم ينتبه إليه، وقد مكث هذا الرجل في ضيافته يومًا واحدًا، وفي اليوم الثاني استأذن من حاتم وقبل أن يذهب، عرف حاتم، وجهة سفره، فذهب حاتم ووقف له في الطريق، وكان حاتم، ملثَّمًا لم يُبْدِ من وجهه غير عينيه، فسأله حاتم: من

أين أنت قادم يا أخا العرب؟ فأجابه الرجل بقوله: أتيت من عند الرجل الكريم حاتم الطائي، وقد مكثت لديه يومًا واحدًا، ووددتُ لو طالت إقامتي عدّة أيام، لِما لقيته من كرم، وحسن ضيافة، فقال له حاتم: ويلك يا هذا، إنني أنا حاتم، وأماط اللثام عن وجهه، فقال له الرجل: يا حاتم، لا يأخذك العجب، إذا قلت: إن حاتمًا لم يكرمني، لا يصدّقني أحد من الناس، لأن حاتمًا، أخذت شهرته في الكرم مأخذًا لم يسبقه إليه أحد من قبله، وأردف قائلًا ولكن بربك أخبرني، ما الذي حملك على القيام بهذا العمل؟ فقال حاتم: أحببتُ أن أعرف ماذا يقول الناس عني، فارجع معي، وستلقى إكرامك، وحسن وفادتك.

لقد كان هذا الرجل مرائيًا، وليس لديه الجرأة الكافية، ليقول الصدق، إنه كان يخشى الناس الذين يعلمون أن حاتمًا كريمًا، فإذا قال غير هذا لم يصدقوه. أمّا أنا فلست مرائيًا ولا كاذبًا، ولا أخاف إن صدّقني الناس أم لم يصدقوني، إذ إنني لست مبالغًا ولا مفتريًا، لأنني أكتب الحقيقة التي شهدتها ووقفت على ما بها من خير وشر، وقد عاهدت نفسي ألّا أدوّن في كتابي هذا إلّا الحقيقة الناصعة، ولا تطاوعني نفسي أن أكتب غير هذا، فأنا الآن قد وضعت قدمي على حافة القبر، ولا أدري هل أتمّم كتابة هذه الذكريات أم تزلُّ بي القدم، فيطويني تراب هذه الأرض التي نشأت على ظهرها وتجوّلت في ربوعها.

إنني أكنُّ احترامًا كبيرًا وتقديرًا عظيمًا لِما قام به الملك عبد العزيز من الأعمال الجسام في الجزيرة العربية حيث أمّن سبُلها، ووحّد أبناءها، وجمع كلمتهم، وقضى على المنازعات فيما بينهم، وحسم خصوماتهم، وأوقف كل امرىء منهم عند حدِّه، دون اعتداء أو قتال، وربط بينهم برباط محكَم متين من التوحيد. وإذا أمعنت النظر في سلوكياته وجدته الرجل الكريم والقائد الملهم العظيم، ولكم ودَدْت لو أن الله أبقاه وأطال عمره سنين عديدة، ليرى ما وصلت إليه مملكته الفتية التي أقام دعائم العدل في أنحائها، وليمتّع نظره الثاقب فيما هي عليه اليوم من التقدم والازدهار في كافة نواحي الحياة.

إن ما أكتبه على هذه الصفحات البيضاء عن هذا الرجل العبقري الممتاز ليست صادرة إلّا عن نفس مطمئنة. ولست مبالغًا فيما أقول، ولكنها الحقيقة الصادقة التي

أمْلَت عليَّ ما كتبته، وكنت بعيدًا كل البعد عن التفكير بالمادة التي ينظر إليها كلُّ مَن طرق هذا السبيل، لقد دونتها وكلّي فخر واعتزاز بما قام به من الأعمال الجسام في سبيل تقدُّم هذه البلاد وازدهارها ورفع مكانتها عالية في سماء هذا الكوكب الأرضي.

عزم الملك على زيارة المدينة المنورة، وكانت هذه أول زيارة يقوم بها لها بعد فتحها، ودُعيتُ لمرافقة جلالته، وكان ينقل الملك وحاشيته ثماني عشرة سيارة فقط، لم يكن غيرها في المملكة، وكان ذلك في أوائل سنة 1345هـ (1927م)، وكان سائق سيارة الملك هنديًا ميكانيكيًّا يدعى صديق، وهو الميكانيكي الوحيد، في هذه القافلة، وإذا تعطّلت إحدى السيارات وقفت سيارة الملك وأخذ سائقه الهندي ليقوم بإصلاح ما عطل وكان الطريق وعرًا غير معبّد، وكثيرًا ما كان جلالة الملك يضطر للسير خلف السيارات الثماني عشرة ولكن كان يومها متعبًا من غبار السيارات التي كانت تتركه وراءها، لقد كانت أشبه بزوابع رملية ثائرة، وكأنني أشاهده الآن وهو متلثّم لم يُرَ من وجهه غير مناظره التي تحفظ عينيه من وهج الشمس وزوابع الغبار، ووصلنا مدينة رسول الله ﷺ، بعد تعب السفر ومشقّته ولكنها كانت رحلة جميلة أتاحت لي فرصة الاطّلاع على اهتمام الملك عبد العزيز بمرافقيه وحرصه على راحتهم.

عندما استسلمت حامية المدينة نودِيَ بالأمير محمد بن عبد العزيز أميرًا عليها، وعيَّن مشاري بن جلوي نائبًا له، وممّا يُحكى عن مشاري، صرامته في الحكم وحزمه فيما عهد إليه، حيث لم يهمل أمرًا من أمور الحكم، وكان ينجز كل أمور إمارته بسرعة، وقد اشتهر بإقامة حدود الشريعة، فالقاتل كان يُقتل والسارق تُقطع يده، وشارب الخمر يُجلَد، والزاني يُقام عليه الحدّ.

هناك قصّة مشهورة أثناء إمارته في المدينة المنورة، حيث تعرَّض بعض الأعراب لسيارة قادمة من جدة، وكانت وجهتها المدينة المنورة فجرَّدوا الركّاب ممّا كان بحوزتهم من المتاع والمال، بعد أن وضعوا الأحجار أمامها فتوقّفت عن السير، فما كان من الأمير مشاري بن جلوي إلّا أن أرسل جنوده، فتتبّعوا آثارهم وأخبارهم، حتى عثروا عليهم، فساقوهم إلى المدينة المنورة، للحكم عليهم من قبل الشرع، فأمرَ بجَلدهم وحبسهم، وكتب لجلالة الملك بشأنهم، وبما فعلوه مع

الركّاب وبما حكم به الشرع عليهم، وكان فيما كتبه قوله: إننا في بلاد اعتاد أهلها على السلب والنهب، وإني أستسمح الإذن بالقضاء على حياتهم، ليكونوا عبرة لغيرهم، لنوقف السالبين والناهبين عند حدِّهم ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(1) فأجابه الملك إذا كنت تعتقد ذلك فافعل ما تشاء بهم حفظًا للأمن ولسلامة المسلمين.

فأمر مشاري بقتل ثلاثة منهم وتعليق جثثهم على أشجار السدر، المنتشرة على الطريق قريبًا من مكان الحادث الذي فعلوه، وتُركَت هذه الجثث خمسة أيام وهي معلّقة، الأمر الذي وجلت منه قلوب الأعراب المنتشرين بين المدينة المنورة، ومدينة جدة، وبعد هذا الحادث كان إذا رأى أهل البادية سيارة تسير في طريقها ذاهبة أو قادمة بين جدة والمدينة المنورة، فرّوا من أمامها، وولّوا الأدبار خوفًا من معاقبة أمير المدينة، لذلك حفظ الأمن بسرعة فائقة، واطمأن الناس على أموالهم وأرواحهم، بعد أن كانت تُسلَب منهم، وقَضى على الغزاة وعلى اللصوص.

كثُرَت الوفود القادمة إلى مدينة الرسول محمد ﷺ، من عربان بادية الحجاز وأطراف نجد للصلاة في المسجد النبوي والسلام على الرسول محمد ﷺ، وتقديم التحية والطاعة والسلام للملك عبد العزيز، وكان يستقبلهم بما عُهِد فيه من لطف، وعطف، ويمدّهم بالعطايا، ويُغدِق عليهم الهبات.

كنت ترى جماعات الإخوان بعمائمهم البيضاء، وملابسهم الفضفاضة، يسيرون زرافات زرافات وصفوفًا صفوفًا متلاصقة، ولقد ذهبت عصر يوم برفقة شكري القوتلي وصبري العسلي اللذين قَدِما من سوريا مرورًا بالقطر المصري، للسلام على إمام المسلمين الملك عبد العزيز والتحدُّث معه بشأن الثورة السورية، وكان بصحبتهم خالد الحكيم، الذي صار فيما بعد، من مستشاري الإمام عبد العزيز، والتقينا بجمعات من الإخوان وكانوا متوجِّهين للسلام على الملك.

ودَّع شكري القوتلي ورفيقه صبري العسلي جلالة الملك، وأخذا منه وعدًا، بمدِّ يدِ المعونة المادية والمعنوية.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 179.

وكان من الأسباب التي قَدِمَ شكري القوتلي من أجلها إلى الحجاز لمقابلة الملك عبد العزيز هي مدُّه بقوة سعودية لمحاربة الفرنسيين في سورية، ولكن الإمام عبد العزيز اعتذر عن مده بقوة سعودية، إنما أعطاه وعدًا بمدٍّ يدِ المعونة المادية والمعنوية، للثورة السورية، وقد جرى حديث مطوَّل بين الملك وشكري بشأن الثورة السورية، ودَّع شكري القوتلي كما ذكرت ورفيقاه، خالد الحكيم وصبري العسلي، جلالة الملك عبد العزيز وقدَّم الشيخ عبدالله بن سليمان وزير المالية خمسمائة جنيه استرليني ذهبًا إلى شكري القوتلي، فقال له شكري إذا كانت هذه الهبة خاصة لي فإني لستُ بحاجة إليها، وإذا كانت لمساعدة الثوار، فبإمكانكم تسليمها إلى الأخ صبري العسلي، وهكذا استلم العسلي هذا المبلغ وأنفقه على إخوانه المجاهدين اللاجئين بالقطر المصري.

أثناء إقامة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة، حضر المفوض البريطاني، المستر (جوردان) وأقام في وادي العقيق خارج المدينة، والمعروف عن (جوردان) هذا أنه كان عنيدًا عصبي المزاج، ويختلف عن جماعته البريطانيين المعروفين بهدوئهم ورزانتهم، ولست أدري كيف اعتمدت الخارجية البريطانية هذا العصبيّ العنيد، ليفاوض الإمام عبد العزيز، وهي تعلم عناده وعصبيته، خاصّة في مثل تلك المفاوضات التي كانت تتطلَّب من القائمين بها الهدوء والحكمة والرزانة وبُعد النظر.

لقد كان عبد العزيز بعيد النظر، واسع الأفق، مرن السياسة، كان أول نشأته لا يمتدُّ حكمه إلّا على الرياض فقط. فما انفكَّ يجاهد ويُجالد ويقضي على أعدائه الواحد تلو الآخر حتى امتدَّ حكمه وتوسَّع وعَمَّ نجدًا كلها والحجاز جميعه، وعسيرًا برمتها، وبعض مناطق الخليج، وقضى على منازعات القبائل، وعلى ما كان لها من القوة والسيطرة في أنحاء الجزيرة العربية، وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم وتربَّع على عرش الجزيرة. فوطّد الحُكم، وجمَع الشمل، ووحَّد الكلمة وِفق تعاليم الشريعة الإسلامية التي حكمت بين الناس بالعدل، فأنصفت المظلوم وردَّت إليه ظلامته وبذلك أراح الناس، واستراح.

ما أن استتبَّ له الحكم في داخل مُلكِه حتى تطلَّع إلى الخارج لتنعم البلاد وينشط الاقتصاد، ويعمَّ الرخاء في أنحاء المملكة، ففارق هذه الحياة ناعم البال مطمئن القلب، تاركًا هذا المُلك العظيم الذي اعتنى بتأسيسه اعتناء كاملًا، لذريته

الكريمة، وها هم سائرون به على منهج من أسسه، خطوة خطوة، لم يهملوا أيَّ خطّة من خططه، بل عمِلوا وزادوا وأنشأوا، وها هي البلاد يزداد دخلها، وتتوسَّع في بناء ما يتطلَّبه اقتصادها من توسيع الموانىء البحرية، وتأسيس المنشآت بها، وإنشاء المطارات وتمديد رقعتها، واهتمام أولي الأمر بالعلم والتعليم فأنشئت الجامعات والكليات في غرب البلاد وشرقها فانتظم فيها شباب البلاد وفتيانها وأرسلوا البعوث لتنهل من العلم على اختلاف فروعه، ومنشآته. إن عشرات الآلاف من الفتيان السعوديين طلبة العلم موزعون في أوروبا وأميركا، وأقيمت المدارس، وفتحت أبوابها، فولَج فيها النشء الجديد، يتلقّى فيها من العلم ما يفيده ليصبح رجلًا ينظر في مصلحته ومصلحة وطنه وبلاده، وأسست جيشًا قويًّا يحمي البلاد، يهابه الأعداء، وطرحت المشاريع لشقِّ طرق المواصلات بين المدن والقرى، وإنشاء العديد من المستشفيات، وإقامة السدود، وتنظيم البلاد، وبناء المصالح الحكومية، وما يتطلّبه مركزها القيادي في الصالح العام للعرب والإسلام.

يعمل حكّامها على توطيد أواصر الجوار والأخوة مع البلدان العربية والإسلامية، ومع الحكومات المتَّبعة للتعاليم السماوية في العالم أجمع، وكما كان يفعل والدهم منشىء هذا الوطن ومؤسِّسه، وهم صرحاء بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة من الصراحة، فلا غش، ولا خداع، ولا نفاق لديهم، يمشون بخطى وطيدة ثابتة وسط المجموعة البشرية، التي يحترمونها جميعًا وتبادلهم هذا الإجلال والاحترام.

أعود بعد هذا الاستطراد لأبيِّن أن المفاوض البريطاني المستر (جوردان) لم يوفق في مفاوضاته مع حكومة الملك عبد العزيز، فلقد كان في غاية الغباوة والجهل، لا سيما عندما تكلَّم بأمور خارجة عن صلاحيته، فرفضت الحكومة التفاوض معه، وعاد بخُفيّ حُنين.

كان يرافق المستر (جوردان) سكرتيره الهندي المسلم، وكان يخفض رأسه عند دخوله على الملك عبد العزيز وتكاد هامته أن تلمس الأرض، من شدّة انحنائه، فقال له الملك عبد العزيز رحمه الله إنّ التذلُّل والخشوع لله وحده، ارفع رأسك وعدِّل قامتك فأنا بشرٌ مثلك، فمن طبائع عبد العزيز رحمه الله كُرهه لمَن يتذلَّل لغير الله، سواء أكان من أعدائه أو من أصدقائه ومعارفه.

كان من عادة جلالته أن يقضي الفسحة اليومية بعد صلاة العصر، هو وحاشيته خارج البلدة المقيم فيها، وقد اتَّبع أكثر أنجاله الأمراء هذه العادة المحبَّبة لديهم، وفي المدينة المنورة كان في عصر كل يوم يمارس هذه العادة المحبَّبة إليه، ويجدُ في هذه الفسحة راحة له، فكان يصطحب مرافقيه وضيوفه ويتحدَّث إليهم ويداعبهم وكنت أحضر هذا المجلس كل يوم.

ذهب جلالته في عصر أحد الأيام إلى مكان قريب من قصر عمرو بن العاص القريب من المدينة، وأحبَّ أن يداعب أحد موظفيه وهو الشيخ يوسف ياسين، وكان الشيخ لا يرغب أن تؤخَذ له صورة فوتوغرافية، فأمَر الملك أحد الحضور ليأخذ له صورة فأبى يوسف ذلك، فألحَّ عليه الملك فلم يمتثل لأوامره. وقال: إن هذا منكر لا أحبُّ أن أقترب منه، وكان يوسف من المتشددين الذين يرون أن الصورة غير مستحبة دينيًّا، فقام الملك والابتسامة طافح بها وجهه. وأمسك يوسف بكِلتا يديه فبدا كعصفور بين يدي باشق وأخذت صورة ليوسف.

غادر الملك عبد العزيز المدينة المنورة، ضحى يوم الأربعاء، وعدتُ بعد أن ودّعته لمنزلي، ثم توجَّهت برفقة السيد شكري القوّتلي، ورفيقيه خالد الحكيم وصبري العسلي إلى المسجد النبوي للصلاة فيه، ثم لزيارة الحبيب العظيم رسول الله سيدنا محمد ﷺ، وصاحبيه أبي بكر وعمر بن الخطاب، ﵄، واستقبلنا القبلة، ومكثنا بضع دقائق، ندعو الله تعالى أن يعيد إلى الأمة العربية سالف مجدِها الغابر وعزَّها الداثر.

لم نمكث بعدها طويلًا في مدينة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ففي اليوم الثاني من مغادرة الملك للمدينة المنورة، دُعيت من قبل نائب أمير المدينة المنورة مشاري بن جلوي لأكون برفقة السيد شكري القوتلي، ورفيقيه للسفر إلى جدة حيث خصِّص للجميع سيارتان لتنقلانهم إلى جدة، وحاولت ألّا أزعج شكري ورفيقيه بالسيارة التي تقلّهم، ورغبت أن أكون في السيارة الثانية، فأبوا الإصغاء إلي، وهكذا أقلّتنا سيارة واحدة. وتركنا السيارة الثانية تحمل أمتعتنا.

غادرنا المدينة صباح يوم الخميس وكان الجو لطيفًا، وفصل الخريف لا يزال ينقل إلينا نسماته اللطيفة المنعشة.

وكان الطريق وعرًا لم يمهَّد بعد، وتوقفت إحدى السيارتين وغرزت دواليبها في الرمال، فلم نستطِعْ نشلها من الرمال الكثيفة، فانتظرنا برهة وجيزة لاستعادة قوانا، فتراءى لنا عن بُعد ثلاثة أشخاص، قادمين إلينا، فما أن قربوا منا وصاروا على بعد مائة متر حتى تجنَّبوا الطريق وابتعدوا عنا فناديناهم، فلم يلبوا نداءنا، فذهب سائق السيارة إليهم قائلًا لهم: نحن ضيوف جلالة الملك ونأمل مساعدتنا في إخراج السيارة، فأجاب أحدهم لسنا قليلي المروءة ولكنّا نخاف أن يعلم أمير المدينة ابن جلوي، أننا وقفنا عند سيارات الأجانب فيُعاقبنا.

هكذا مكثنا بضع ساعات نحاول إخراجها إلى أن أعاننا الله، فأخرجناها وواصلنا السير، وصبيحة اليوم الثاني وصلنا جدة وواصلنا السير إلى مكة المكرمة للسعي والطواف ولصلاة الجمعة في الحرم المكي.

وصلت مكة المكرمة وأنا خالي الوفاض إلّا من جنيهين اثنين كانا يتراقصان في جيبي ولم يكونا يكفيان لثمن تذكرة الباخرة حتى ولو في الدرجة الثالثة، حاولت سؤال بعض التجار من معارفي لمدِّي ببعض المال وأرسله إليهم بعد وصولي دمشق، ولكنني فضّلت سؤال عبدالله السليمان وزير المالية، لأسباب كثيرة لا محلّ لذكرها، ومن دون تردُّد حقّق الشيخ عبدالله السليمان مطلبي ولا أعلم حتى هذه الساعة هل تلقّى أوامر من جلالة الملك أن يدفع لي المبلغ الذي استلمته منه أو أنه قام بهذا من تلقاء نفسه، فقد دفع لي خمسين جنيهًا ذهبًا، وأمر لي بتذكرة ركوب في إحدى البواخر الخديوية وفي الدرجة الأولى، وودّعني قائلًا: سلِّم على إخوانك، ثم ذهبنا إلى جدة عروس البحر الأحمر.

جدة هي الباب الأول للدخول إلى مكة المكرمة من الجهة الغربية من الطريق البحري حيث البيت العتيق وكعبته المشرفة المطهَّرة، إنه أول بيت وضع للناس، شرّف الله به العرب، بجعله قبلة لكافة المسلمين يتوجهون إليه بقلوبهم النقية الطاهرة خمس مرات في اليوم والليلة، يقفون بين يدي الله خاشعين وضارعين يتلون آياته طالبين منه سبحانه وتعالى العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة.

كان ذلك في يوم جمعة والأعلام السعودية ترفرف فوق الأبنية والمصالح

الحكومية وعلى شرفات جدة، وفي أرجائها، وقد نقش على سطحها كلمة التوحيد، «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، تعلو السيف الذي يجمعها وتوحي للناظر إليها بالطمأنينة وقوة العقيدة، فهذه الجملة العظيمة هي التي وحّدت بين قلوب المؤمنين على اختلاف ألوانهم وألسنتهم، وصهرتهم في بوتقة واحدة لا يعبدون إلّا الله ولا يتَّخذون من دونه وليًّا ولا نصيرًا. إن عَلَم البلاد بلونيه الأخضر والأبيض يمثِّل العرب بكل شمائلهم: الشجاعة، والكرم والرجولة وحفظ العهد والوعد من عاداتهم وأخلاقهم والسماحة ولين العريكة، والإنسانية والرحمة، وكلها معانٍ تجري في عروقهم وتنساب في دمائهم سواء كان ذلك في سلمهم أم في حربهم ذلك أنه (ما عرف التاريخ فاتحًا أرحم من العرب) كما قال واعترف مَن لا ينتمي إليهم ومَن لا يعتقد معتقدهم، وأعني بذلك الكاتب الفرنسي غوستاف لوبون فكل هذه الصفات الطيبة، في صفائح العرب البيضاء النقية من كل شائبة.

كانت مدينة جدّة ببياض أبنيتها، والأعلام السعودية باخضرارها مع أديم السماء وصفاء زرقة الماء لوحة رائعة، وكان لهذه الألوان التي امتزجت وقعٌ حسن في نفوسنا إنه لمنظر باهر، رائع وجميل، ولا تزال ذكرى تلك الأيام ومناظر جدة الفاتنة عروس البحر الأحمر مدوّنة بالذاكرة لا يمحوها تعاقُب الأيام ولا كرّ العصور.

مرة ثانية اجتمعتُ بالسيد شكري القوتلي ورفيقه صبري العسلي، لقد كانت غرفتاهما بجانب غرفتي على الباخرة الخديوية (الطائف)، ولقد أنِسْت بصحبتهما، وكانا خير رفيق في سفرنا هذا نتداول أطراف الحديث في شتى المواضيع، وكان السيد القوتلي يحدِّثنا عن أيام صباه ودراسته ويقصّ علينا ما كان يلقاه هو ورفاقه من قساوة المعلمين الأتراك وسلوكهم في المدرسة وعدم إنصافهم لصغار الطلاب رفاقه من التلاميذ الذين كانوا ينظرون إليه باحترام زائد، ويقدرون آراءه وأفكاره، وكانوا يلقبونه بالزعيم بالرغم من وجود مَن هو أكبر منه سنًّا بينهم، وكان لا يفوته في بعض الأحيان الثَّناء على الملك عبد العزيز بن سعود ويرى فيه الزعامة الحقيقية التي تخوِّله أن يكون منقِذ العرب من سيطرة الأمم لِما اتَّصف به من اللباقة السياسية والحكمة والرأي الصائب وكان ممّا قاله: لقد وحَّد الجزيرة العربية وقضى على

الاضطرابات التي كانت تهزُّ مضاجع سكانها في مدنها وقراها، لقد كان حبل الأمن مضطربًا فالقوي يقضي على الضعيف، فإن لم يقْضِ عليه يستغلّه، ويوجِّهه حيث شاء، وها هو اليوم أمّن المملكة المترامية الأطراف من البحر الأحمر حتى الخليج العربي، ومن الخليج العربي حتى مشارف سورية والعراق والأردن والتي هي تحت السيطرة البريطانية، ولولا هذه القوة الأوروبية التي قهرت الجيوش الألمانية والتركية والطليانية في الحرب العالمية الأولى لكانت هذه البلاد اليوم تحت حكمه، ولا بد لهذه البلدان أن تنال استقلالها يومًا ما، قَرُبَ هذا اليوم أم بَعُد ولا بد لها تحت ظروفها الحاضرة أن تتَّحد وتتوحَّد، فعسى الأيام القادمة تحقق آمالنا.

قبل وصولنا إلى مدينة السويس بيوم وبعض يوم، هاج البحر، وعلَت أمواجه وطالت ثورته واشتدَّت، وكانت أمواجه الصاخبة المتلاطمة، تمثِّل معركة حربية حَمِي وطيسها واشتدّ لهيبها، وكانت الباخرة بين هذه الأمواج تميد بنا كالشارب الثمل، وتترنح يمينًا وشمالًا، ثم ترتفع حتى كدنا أن نطاول السماء، وتنخفض حتى نكاد أن نلمس قاع البحر، ونلتقط منه الأسماك.

إنَّ هياج البحر وتلاطم أمواجه وشدّة ثورته، قد هيَّج أعصاب السيد القوتلي، ولكنه لم يتأثَّر كبقية ركّاب الباخرة من تصادم الأمواج وزمجرة الرياح، فكنتُ أراه يتنقل في ممرّات السفينة وبين حجراتها يذرعها بخطاه الواسعة ذهابًا وإيابًا. وآخر مرة رأيته يصعد سلالم الطابق العلوي للسفينة، وبعدها لم أتحمّل اضطراب السفينة وأصابني كما أصاب العديد من الركّاب دوار شديد فلزمت غرفتي، إلى أن وصلنا مدينة السويس.

توجّه السيدان شكري القوتلي وصبري العسلي إلى القاهرة، أما أنا فلقد أقمت في السويس يومًا واحدًا، أسترجع قواي، ممّا أصابني أثناء هياج البحر وثورته، ثم واصلت السفر بالقطار من السويس إلى دمشق.

أقمت بدمشق شهرين من دون عمل إلى أن أقبل موسم الحج فاتَّخذَت القنصلية في دمشق مكتبًا لها في بيروت وكلفَّتني بالاهتمام بشؤون الحجّاج القادمين لأداء فريضة الحج من العراق ومن البلدان التركية.

الفصل السادس

تجارة في معان ورحلة إلى نجد

الحياة لذيذة ممتعة مملوءة بالمفاجآت الطيبة، كما أنها مزعجة ومحاطة بشوائب كثيرة تجري وراء أهداف وغايات مرسومة لها، تُخالف أهدافنا وغاياتنا. فهي وآمالنا وأحلامنا على طرفي نقيض، تقدر وتخلف الأقدار، فلا يمكن للمرء أن يجتاز مراحلها براحة وهدوء وأمن واطمئنان، ما لم يجاريها في ميولها وأهوائها ويواكبها في سيرها.

بعد انتهاء موسم الحج والعمل المؤقت الذي قمتُ به لحساب القنصلية في بيروت، سافرت إلى معان في الأردن ووجدت نفسي دون تفكير طويل أعود ثانية لممارسة التجارة. ووفِّقت في تجارتي حتى غدوت وكيلًا للتجار النجديين، أهتم بشؤونهم، وأقوم بدفع الرسوم عن مواشيهم من إبل وغنم، وكان من التجار من يُرسل إبله مع الرعيان ويكلِّفني ببيعها، وكنتُ أقوم بهذا العمل بكل إخلاص فأرسل لهم أثمانها، حسب طلبهم، بعض الأقمشة وما كانوا يحتاجونه من البضائع المتنوعة. وكان هناك محلٌّ تجاري آخر لأحد النجديين في معان في ذلك الوقت هو محل الشيخ ناصر الإبراهيم العساف وكان يعمل معه في هذا المحل الأستاذ محمد البساتنة من دمشق.

كان تعداد سكان مدينة معان لا يتجاوز الألفين من السكان، تمرُّ بها القبائل الأردنية أثناء تجوالها، أما الآن فقد تضاعف العدد حتى بلغ الخمسة آلاف نسمة، وذلك لأن الأخطار الناجمة عن ظروف الثورة السورية قد دفعت تجّار العقيلات الذين كانوا يتاجرون مع سوريا إلى تحويل تجارتهم إلى فلسطين ومصر مارين بمدينة معان. وكان خطّ الحجاز الحديد ينتهي في ذلك الوقت بمدينة معان بسبب الدمار الذي لحق به أثناء الحرب العالمية الأولى. وكان هناك قطار يأتي من دمشق

إلى عمان يوميًا، وكان هذا القطار يُكمِل رحلته إلى معان في أحد أيام الأسبوع فقط.

كان حاكم معان الإداري يكره النجديين ويتعمّد الإساءة بالرغم من حاجة بلده لتجارتهم، ولعله أراد بهذا إرضاء أمير الأردن عبدالله بن الحسين الذي كان في ذلك الوقت يناصب العداء للسعودية. ولقد حاول السيد التل مضايقتي في عدّة مناسبات، ثم عدَلَ عن موقفه هذا بعد أن تصدّيت له بقوة وحزم.

كان يُرابط في الجهة الجنوبية من مدينة معان معسكر بريطاني من مخلّفات الحرب العالمية الأولى أنيط به حفظ الأمن بالمنطقة كلها وكان يضمّ عددًا من أهالي معان منهم الملتزم بإعاشات الخيل ومنهم من ينقل إلى رؤسائه أخبار الحضر وأهل البادية لتنقل إلى مدير الاستخبارات البريطاني المستر (أسترنج) الذي كان أيضًا على اتّصال دائم بالمواطنين من سكان مدينة معان، ومن أهالي مدينة العقبة، كما ضمَّ هذا المعسكر بعض المرتزقة من الأوطان العربية الأخرى.

كان الشريف عبدالله بن الحسين بن علي أميرًا على شرقي الأردن لم يتوَّج بعد ملكًا عليها يعيش عيشة متواضعة بعيدة كل البعد عن أبّهة الإمارة وجلالها، ويتقاضى راتبًا زهيدًا من البريطانيين مقداره ألفا جنيه إسترليني كل شهر، إلى جانب ما تترك له ممّا تتقاضاه الحكومة الأردنية من الجمارك والضرائب، وكان هذا المبلغ البسيط لا يفي بمطالبه وحاجاته، لذا كان يضطرّ أحيانًا إلى اللجوء إلى التجّار فيستدين منهم. وأول مرة زرتُ فيها الأمير عبدالله كانت على إثر حادث الزلزال الذي عمَّ شرقي الأردن وفلسطين سنة 1346هـ (1927م)، وكان ضرره فادحًا في مدينة نابلس، حتى أن قصر رغدان مقر الأمير عبدالله لم يسلَم من هذا الزلزال، لقد تصدَّعت جدرانه، فنُصِبت لسموه خيام بجانب القصر يجلس فيها ويقابل زواره ويتناول الطعام مع حاشيته وضيوفه في بعض الأحيان ويتّخذ منها منامًا له.

أدخلني مدير التشريفات إلى إحدى هذه الخيام وكانت لاصقة بالخيمة التي يجلس فيها الأمير، وباستطاعة الجالس في خيمة الانتظار أن يسمع الأحاديث التي تدور في خيمة سموّه، وبعد ربع ساعة من انتظاري أذِنَ لي بالدخول على سموه، وكان يضم مجلسه كلًّا من الشريف شاكر بن زيد والشيخ فؤاد الخطيب شاعر الثورة

العربية الكبرى، والشيخ مثقال الفائز والشيخ الشنقيطي الذي أصبح فيما بعد سفيرًا للأردن بالسعودية والذي أقام في المدينة المنورة بعد تقاعده عن العمل.

بعد أن قمت بالتحية الإسلامية بادرت سموّه بقولي: لقد أتيت لبلاطكم وتشرّفت بمقابلتكم لأرفع لسموّكم تهانيَّ الحارة على سلامتكم من حادث الزلزال، ولأشكو لسموكم ظلامة التجار النجديين الذين يمرّون بشرقي الأردن في طريقهم إلى فلسطين والقطر المصري، من موظفي الرسوم الجمركية في مدينة معان، إنهم يتقاضون رسومًا باهظة على مواشيهم، الأمر الذي قد يحملهم على التوجّه إلى مناطق أخرى إذا لم تخفَّف الرسوم، فأتيت مسترحمًا سموّكم إنصافهم لتخفيف هذه الرسوم لئلّا يصيب تجار معان الضرر، وتشلّ حركة تجارتهم. فقال سموه: سننظر في الأمر إن شاء الله، ثم استأذنتُ بالانصراف، فقال: لك ذلك بعد أن تتناول طعام الغداء معنا.

أثناء تناولنا طعام الغداء أفاض سموه بحديث طويل عن البلدان العربية وحكامها، ولم يترك شاردة ولا واردة إلّا أتى على ذكرها، وتطرّق بحديثه إلى شتّى المواضيع، فذكَرَ جهاد أبيه الحسين بن علي في تعزيز كلمة العرب ونصرتهم، ورفع شأنهم وأنه قام بمفرده وأعلن الثورة على الأتراك الذين أخضعوا العرب لسيطرتهم ولم يقيموا لهم وزنًا، ثم ذكر الإمارات القائمة على الخليج العربي، ومنها الكويت، وأتى على ذكر زعماء سورية، ثم القطر المصري ومليكه فؤاد.

أما عن أخيه فيصل ملك العراق فقال عنه: إنه غدا بين أيدي البريطانيين كأحجار الشطرنج، ينقلونه من مكان لآخر، كان ملكًا على سورية فحاربه الفرنسيون وطردوه منها وذهب عنها خائفًا ترتعد فرائصه، وبعدها عينوه ملكًا على العراق فكان بعمله هذا أن ضيَّع عرشًا واغتصب عرشًا، ضيع عرش سورية واغتصب مني عرش العراق، لقد رُشّحت من قبل العراقيين على أن أكون ملكًا عليهم، وفيصل اليوم على طرفي نقيض في السياسة مع العراقيين، فهم يلحّون عليه بعقد معاهدة يذكر فيها كلمة الاستقلال، ليسترجعوا فيها بعض حريّاتهم المسلوبة وحقوقهم المهدورة، والبريطانيون يَعِدونه ثم يماطلونه، ولم يتمكن حتى الآن من

تحقيق مطالب العراقيين، وبقي متربعًا على عرش العراق محرومًا من التقدير والاحترام، فلا سلطة له، فهو والحالة هذه كما وصفه الشاعر العراقي معروف الرصافي حيث قال: يعدد أيامًا ويقبض راتبًا.

أما اليمن وإمارة الإمام يحيى حميد الدين فليس له من الأمر شيء، فهو منزوٍ في عقر داره، ولا يرى منه خير للعروبة والإسلام ومن المحتمل أن يغريه البريطانيون بالتعاون معهم، فيصبح من الضعف أقرب منه إلى القوة وسيكون بيد البريطانيين كسبحتي التي بيدي يلعبون به ويوجِّهونه كما يشاءون ويريدون.

إنّي لست من الشامتين بزعماء سورية المتذبذبين الجاهلين الذين وصفهم معاوية بن أبي سفيان إذ قال لخصمه وعدوه: والله لآتينك بسبعين ألف مقاتل، لا يفرقون بين الجمل والناقة، فهؤلاء الزعماء والساسة، بعد أن أخمدَ الفرنسيون ثورتهم وقضوا على القائمين بها، رجعوا يتزلّفون إلى الفرنسيين الواحد تلو الآخر، فلو لجأوا إليها لكان مركزهم السياسي، ووضعهم الاجتماعي خيرًا ممّا هو عليه الآن، ولبقيت سمعتهم مصونة وكرامتهم موفورة، ولكنهم فضَّلوا البقاء تحت سيطرة الغاصبين الفرنسيين يتقاضون منهم الرواتب ويعملون لصالحهم.

هذا الملك فؤاد ملك مصر حُكمه للقطر المصري أشبه بحكم فيصل في العراق، غير أن فيصلًا يظهر في المجتمعات العامة ويختلط مع الشعب، وله حرية تامة بالتنقل من مكان لآخر، أما الملك فؤاد فهو قابع في قصره، وبينه وبين شعبه هوّة سحيقة فلا يروا وجهه إلّا في الأعياد وفي المناسبات.

ما أن أتمَّ حديثه حتى نهض عن المائدة وجاريناه نهوضه عنها، أما أثناء سرده لحديثه فكنا صامتين مستمعين فقط، إذ إن طريق الكلام كان مشغولًا بشهي الطعام ونفيسه. وكانت رغبة الأمير عبدالله على ما تبيَّن لي أن أجاريه حديثه أو أن أوافقه قوله أو أن أعترض عليه، أو أن أبدي أي شيء حول ما يقوله، فقد كان جُلُّ حديثه موجهًا إليّ. ولقد كان يلقي أحاديثه بصورة تبدي غضبه وانزعاجه الكامن في طيّات قلبه والذي تشرَّبت به نفسه وأفصح عنه لسانه.

بعد أيام قلائل من مكوثي في مدينة معان، وبعد زيارتي للعاصمة الأردنية

عمان زارني شيخ قبائل الأردن مثقال الفائز، وفاتحني برغبته في الاتّصال بالملك عبد العزيز، فكتبتُ له رسالة بخطِّ يدي لعدم إلمامه بالكتابة وبعثتُها مع رجل استأجرته خصيصًا ليذهب إلى عبد العزيز بن مساعد، أمير منطقة حائل، وهو بدوره كان يرسلها إلى مقرِّ الملك عبد العزيز بالرياض، كما كانت عادتي عندما أبعث برسائلي إلى الملك عبد العزيز إذا كان في الرياض وجاء بهذه الرسالة قوله - أي مثقال الفائز:

ثِقْ أيها الملك المعظَّم أنني أنا وعشيرتي والقبائل التي تنتمي وتصغي لحديثي كلنا من المعجبين بقيادتكم الحكيمة ومن المخلصين لسدّتكم الملوكية. وإننا جميعًا تحت أمركم. ثم أخرج من جيبه خاتمًا منقوشًا عليه اسمه، وطلب مني أن أوقِّع رسالته بهذا الختم فقلت له: لا، ولم لا توقعها بالخاتم الذي تلبسه، ففعل ذلك ووقعها بالخاتم الذي كان في بنصره.

كان البريطانيون يسيطرون على شرقي الأردن باديتها وحاضرتها سيطرة تامة، وكان جواسيسهم ينقلون إليهم أخبار كل حركة في هذه المنطقة.

كانت المعلومات عن تنقلات المستر (أسترنج) واجتماعاته المتواصلة تنقل إليّ بواسطة سائقه العراقي المدعو حسن الموصلي.

كنت على اتِّصال دائم مع أمير حائل عبد العزيز بن مساعد، وأمير القريات عبد العزيز بن زيد، وفي أحد الأعياد أهداني عبد العزيز بن مساعد كسوة فاخرة.

كان مدير الاستخبارات كثير التردُّد إلى محل عملي وكان أحيانًا يزورني في منزلي، وفي بعض الأحيان كان يتطرق بالحديث عن السياسة ويسألني أسئلة كنت أجيب عنها بقولي: إني أقيم في معان كتاجر وليس لدي إلمام بالسياسة لأجيبك عن أسئلتك، ويمكنك أن تسألني عن تجارتي ومعاملاتي مع التجار فأجيبك، أما غير ذلك فأرجو عدم مفاتحتي به، وواصلت حديثي قائلًا:

لقد عُرِف عنّا نحن العقيلات التجار النجديين أننا لا نهتم بالسياسة مطلقًا، وجُلَّ اهتمامنا بما يعود علينا بالمصلحة والفائدة المادية في التجارة، فإذا كان لديك معرفة بها أو عنها فحدِّثني بها.

بلدة معان لطيفة هادئة معتدل جوّها، طيِّب مناخها تكثر بها الفاكهة اليانعة اللذيذة وقد حَبَّب إليَّ الإقامة فيها أهلها الذين يميلون بطبيعتهم للبداوة وذلك لكثرة تردُّد أهل البادية عليها ومسابلتهم لها، هكذا كان شأنها أثناء إقامتي فيها منذ ما يقارب الستين سنة ولا أدري، هل لا تزال كما وصفتها أم تغيَّرت؟

ازداد دخلها في العشرينيات من هذا القرن فقد غدَت محطة للقوافل النجدية تجلب إليها مواشيها من خيل وجمال وأغنام، ويأتي إليها تجار من فلسطين ومن القطر المصري يشترون هذه الأنعام من العقيلات تجار الجمال والخيل، وكان قسم من هؤلاء التجار يذهبون إلى فلسطين والقطر المصري يعرضون فيها إبلهم وخيلهم.

كان أرباب هذه القوافل النجدية يتّجهون بتجارتهم إلى سورية، ولكنهم امتنعوا عن مسابلتها أثناء الثورة السورية التي عمَّت أنحاء سورية، لقد قام السوريون بثورتهم ضدَّ الحكم الفرنسي وامتدت ثورتهم وطالت بضع سنين، أحرق الفرنسيون خلالها أحياء كثيرة في وسط مدينة دمشق وقد أصبحت الأماكن التي أحرقت تُعرف بـ: (الحريقة) تذكارًا لتلك الثورة، ودليلًا قاطعًا على فظاعة الغاصبين الفرنسيين، وقد رثاها الأمير الشاعر أحمد شوقي في قصيدته ورثى مجدها الضائع.

استجدت بشرقي الأردن المحلات التجارية يعمل بها نجديون وسوريون وفلسطينيون ذوو الخبرة التجارية الواسعة، في مدينة معان وفي كل مدينة من مدن شرقي الأردن، وكان يسكن في العاصمة الأردنية عمان في أواخر القرن الثامن عشر قليل من أبناء الشراكسة، أما اليوم فحدث عن المدينة الأردنية التجارية الكبرى ما شاء لك الهوى، لقد هاجر إليها خلق كثير من أبناء سورية وفلسطين ومن نجد واتّخذوها مقرًّا ومقامًا، فهي اليوم أوسع المدن الأردنية بسكّانها وبتجارتها، ومن ألطف المدن العربية وأنظمها. أما جبالها السبعة المكتظة بالسكان فهي من أروع الجبال في المناطق العربية جميعها، لوسع مساحتها وبناء منازلها، فجوّها لطيف، وهواؤها عليل شديد البرودة في فصل الشتاء وقليل الحرارة في صيفها، وربيعها في غاية الروعة والجمال. كانت مدينتا جرش وإربد مشهورتين بتجارتهما، قبل عمان العاصمة، تعجّان بالتجار السوريين، فمنهم من أخذ الجنسية الأردنية ومنهم من لا يزال محافظًا على جنسيته السورية.

لشرقي الأردن مكانة محترمة مرموقة منذ مئات السنين في زمن اليونان والرومان وفيها من الآثار البتراء وفي مدينة معان ملعب روماني وفي مدينة جرش آثار لهم تنبىء عن مكانتهم وتحدِّث عمّا كانوا يعملون، وكانت الأردن في أوج عظمتها محطّ رحال القوافل تؤمها من جهاتها الأربع إمّا طمعًا في مسابلتها أو لأنها واقعة في طريقهم يأخذون فيها راحتهم.

مدينة جرش كانت في غابر الأزمان تُعرَف بمدينة الملاهي والملذّات، والترف والرخاء، وشاهدت الحضارتين اليونانية والرومانية، لقد كانت يونانية تتمتّع بالحقوق والحريات التي كان يتمتع بها اليوناني في عاصمته أثينا، فهي يونانية في منشئها، رومانية في تشييد قصورها الفخمة ومسارحها الأنيقة.

يَذكر لنا التاريخ أن المسيحيين أحرقوا معبد (أرتميس) الذي كان يُعَدُّ أبدع وأمتع المعابد الرومانية وأروعها، فقد كان قائمًا على ربوة مرتفعة، تطل على مدينة جرش بأكملها، ولم يَبْقَ بعد حريق هذا المعبد إلّا شيء من أعمدته الأثرية القليلة. وقد تعاقبت على مدينة جرش هزّات أرضية عنيفة أطاحت بالكنائس الأنيقة الجميلة، التي بُنيت على أنقاض معبد (أرتميس) في القرن الخامس للميلاد، وقضَت هذه الهزّات على جميع التماثيل المصنوعة من البرونز الجميل، والخشب الجيد، والحجارة الملساء، وبقِيَ من آثارها قليل من الصور الأنيقة المصنوعة من الفسيفساء.

اكتُشِف مؤخَّرًا آثارٌ تعود إلى العصر الحجري، وخارج أسوارها آثار تعود إلى أكثر من 220 سنة ق.م. وكتَبَ العالم الجغرافي ياقوت الحموي، إنَّ حاكم دمشق أرسل أربعين رجلًا لحراسة الآثار في جرش، أقاموا في قلعتها وفي أوائل القرن الثاني عشر للميلاد هجم جنود بلدوين الثاني ملك القدس بقيادته على جرش وحَرَق قلعتها وقضى على الحرّاس الأربعين الذين أرسلهم حاكم دمشق، وأصبحت مدينة خاوية كما جاء عند ياقوت.

قبل غروب شمس أحد أيام شهر جمادى الثانية سنة 1346هـ (1927م)، دخل علي بمنزلي في معان رجل سَمِح الوجه مربوع القامة، لم أرَهُ من قبل، فرحَّبت به وعرَّفني على نفسه قائلًا: أنا خالد القرقني، وناولَني رسالة ممهورة بتوقيع محمد العصيمي، أحد النجديين المقيمين في دمشق، يوصيني فيها بهذا الزعيم الليبي

المحكوم عليه بالإعدام من قبل الإيطاليين، فقد سبق لهم أن استولوا على أمواله وممتلكاته في ليبيا لمحاولته الثورة ضدّهم، والتجأ إلى ألمانيا، ثم قَدِمَ خلسة إلى دمشق، حيث كان يقطن زميله ورفيقه بشير السعداوي، وطلب مني السيد محمد العصيمي أن أسهِّل لخالد طريقه لجلالة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية.

كان خالد القرقني خالي الوفاض لا يملك من المال إلّا الشيء الزهيد، لا يكفي لشراء ذلول، وحتى أجرة الدليل لم يتمكّن من دفعها، فقُمت بتأمين جميع حاجاته وبعد ساعات من قدومه إلى معان أخذ طريقه مع دليله إلى المملكة.

كتب رسالة شكر عند وصوله للحجاز وأوصاني أن أرسل له نرجيلة (أركيلة حسب ما هي معروفة بهذا الاسم في سورية، وبعض التبغ، وكان مغرمًا بشرب الشيشة على قول سكان المنطقة الغربية من المملكة، فلبَّيت طلبه.

بعد سنتين من توجُّه خالد إلى الحجاز، زرتُ الحجاز واجتمعتُ بخالد القرقني في مدينة الطائف، حيث كان يقيم الملك عبد العزيز، فأقلَّتني سيارة أنا وخالد من الطائف إلى مكة المكرمة.

في الطريق عرض عليّ رغبته في فتح محلٍّ تجاري في منطقة الهفوف بالأحساء، قائلًا: إن لديه توكيلًا للأتاريك من ألمانيا وبمقدورك أن تكون مديرًا لهذا المحل، والأتاريك هي فوانيس شديدة الضوء، فاعتذرتُ عن القيام بذلك.

توثَّقت العلاقة بين الملك عبد العزيز وخالد القرقني، فاتَّخذه جلالته مستشارًا خاصًا له، وبقي يُمارس هذا العمل حتى بعد وفاة الملك عبد العزيز، واحتضنه الملك سعود بضع سنين وعندما نالت ليبيا استقلالها عاد خالد إليها وأعيدت إليه أمواله وممتلكاته، وظلَّ بعد تركه المملكة يتناول راتب تقاعده من المملكة نظير عمله مستشارًا لجلالة الملك سعود إلى أن توفّاه الله.

تبدَّلت الأحوال التجارية في مدينة معان من رواجٍ إلى ركودٍ كان سببه هبوط نسبة الماشية في نجد هبوطًا مفاجئًا، لارتفاع أثمانها، ولم يترك ذلك للتجار من فائدة لتصديرها للخارج، وأخذت قوافل العقيلات بالاختفاء تدريجيًا من ارتياد الأقطار العربية التي كانت ترتادها.

استَبدلت تجارة المواشي بتجارات غيرها متنوعة ويَمَّمت نحو بلدان المملكة وطَرَقت أبوابها ووجد تجارها مجالًا لهم ولتجارتهم، فتواضع المركز التجاري لمدينة معان، الأمر الذي حمل التجار السوريين على إغلاق متاجرهم الواحد تلو الآخر، ولكن وجدت بعض العائلات التجارية التي استوطنت معان وجعلتها مقرها التجاري مثل عائلة الجمعان النجدية.

هذا من جهة التجار السوريين والنجديين، أما من جهتي فقد كانت علاقتي التجارية لا تزال قائمة في نجد، فقرَّرت السفر إليها وتصفية حساباتي فيها ولأحقق رغبتي الأكيدة، التي طالما كانت تراودني حينًا بعد حين، وهي السلام على جلالة الملك عبد العزيز ولأنقل له شفهيًّا أخبار ما يقوم به البريطانيون في شرقي الأردن خاصة بين القبائل العربية.

غادرت مدينة معان برفقة ابن عمي ناصر الرواف، وأحد التجار النجديين واسمه أحمد العبدالله الحميده، وكان دليلنا في سفرنا هذا محمد النجيدي الحويطي، متوجِّهين إلى الجوف فحائل فبريدة فالرياض حيث كان يقيم جلالة الملك عبد العزيز.

كنّا نواصل السير ليل نهار عشرين ساعة نقضيها في ظهور ركائبنا من ساعات الليل والنهار الأربع والعشرين.

في منتصف إحدى الليالي بينما كنّا على مقربة من الجوف اعترض سبيلنا سرية من سرايا أميرها عبدالرحمن بن سعيد في موضع بعيد عن الجوف أربعين كيلومترًا، وانتبه أحد رفاقنا فغامرَ بنفسه وتوجّه لهذه السرية، وأبلغ أهلها أننا تجار من نجد فتركونا وشأننا.

كان حبل الأمن مضطربًا اضطرابًا شديدًا، وكان أفراد من جماعة الإخوان منتشرين في البادية يريدون فرض سيطرتهم عليها.

كان زعماء الإخوان على وشك القيام بثورتهم على ابن سعود التي عُرفت فيما بعد بثورة الدويش وقضى عليها بموقعة (السبلة).

من الأسباب التي حَدَت بجماعة الإخوان - جند الملك عبد العزيز الأشدّاء

الأقوياء الذين أعانهم على تشييد القرى وسكانها ونقلهم من البداوة إلى الحضارة وأعطاهم النفوذ القوي - بثورتهم على الملك عبد العزيز احتكاكهم ببادية العراق وشرقي الأردن وكانتا تحت حماية البريطانيين، وكان بين الملك عبد العزيز وبريطانيا معاهدات مبرمة تنصُّ على حفظ الأمن، وعلى عدم قيام قبائل نجد وقبائل العراق بالاحتكاك ببعضها، وكان الإخوان جند الملك يقومون من وقت لآخر بشنِّ الغارات على حدود هذين البلدين وكانوا أحيانًا يتوغلون داخل أراضيها، يقتلون وينسحبون ويقلقون مضاجع الحكام فيها، متوخّين من وراء ذلك رضوخها لإراداتهم، بغية السيطرة عليها.

ما كان لابن سعود عبد العزيز، أن ينقض العهد الذي أبرمه مع البريطانيين وهو المحافظ على عهوده ومواثيقه، لقد سبق أن اعترف لهم، بالحالة الراهنة في البلدان المجاورة لمملكته، ومنها العراق وشرقي الأردن وفلسطين والمحميات التسع مع الحكومات القائمة على الخليج العربي، وحَرِصَ على عدم نقض هذه العهود والمواثيق لأسباب عديدة، منها:

أولًا: إحاطة البريطانيين ببلاده من جهاتها الأربع البحر الأحمر، وفيه تسبح سفنهم الحربية، وفي مدخل البحر الشمالي قناة السويس، ومن الجنوب رأس الرجاء الصالح، وفيها قواعد بريطانية.

ثانيًا: ومن الجهة الشمالية، والشمال الشرقي لمملكته تقع العراق، وشرقي الأردن، يحكمها باسم البريطانيين، ابنا الحسين بن علي: فيصل وعبدالله أعداء ابن سعود اللدودين، فقد سبق وانهزم الأمير عبدالله بن الحسين شرَّ هزيمة أمام القوات السعودية في ملحمة تربة، عندما كان متوجهًا هو وجنوده الثمانية آلاف (ألفان من الجند النظامي، وستة آلاف من القبائل العربية).

ثالثًا: ويحدُّ بلاده من الجنوب والجنوب الشرقي، المحميات البريطانية، القائمة على الخليج العربي، وجميعها تخضع للحماية البريطانية.

رابعًا: ويحدّها من الجنوب أيضًا، اليمن تحت حكم الإمام يحيى حميد الدين، وكان لا يستبعد أن تغريه الحكومة البريطانية بالاحتكاك بابن سعود فقد كان الخلاف قائمًا بين المملكتين على مناطق الحدود.

كان من الصعب على عبد العزيز، ووضع بلاده كما أسلفنا، إغضاب البريطانيين أو نقض عهوده معهم، ولم يكن من صالحه مخالفتهم برغم تمتّع عبد العزيز بسمعة طيبة ونفوذ قوي ليس فقط في البلدان العربية، بل في البلدان الإسلامية التي كانت تحت السيطرة البريطانية وخاصة في الأوساط الإسلامية في البلاد الهندية، المستعمرة البريطانية الكبرى.

كان لدى عبد العزيز قوة كبيرة قادرة، أقوى من أيِّ قوة عربية مهما عظُمَت وكانت بريطانيا تحسب لهذه القوة ألف حساب. وأخذت تسعى منذ بضع سنين إلى إضعافها ولقد حاولت استغلال ثورة الإخوان التي رأسها فيصل الدويش، لإضعاف عبد العزيز وتشتيت طاقاته ويهدينا إلى ذلك التجاء فيصل الدويش، كما سوف نرى، بعد إخفاق ثورته إلى البريطانيين في الكويت.

بالرغم من علاقات عبد العزيز ببريطانيا فلقد وجّه إنذارًا شديد اللهجة خاليًا من المجاملة يطلب فيه تسليم ابن دويش.

أرسل عبد العزيز هذا الإنذار للحكومة البريطانية وهو شديد التأثُّر منها ومن أعمالها، يوم كانت في أوجّ عظمتها وسؤددها يوم كان قرص الشمس لا يغيب عن مملكتها. وما كان لبريطانيا إلّا أن ترضخ لإنذار عبد العزيز الذي ضعضع كيانها، وأربك خارجيتها، وهي ترى العراق يتخبّط في أموره السياسية، والموقف القاسي للملك فيصل بن الحسين مع زعماء العراق ومُطالبتهم الملحَّة له ليقوم بالوفاء بما تعهَّد به عند توليه مقاليد الحكم في العراق، حول إبرام معاهدة مع البريطانيين يشير مضمونها إلى الاستقلال، ليمارسوا بموجبها حرياتهم وينهضوا ببلادهم.

كما كانت ترى نشاط الإسرائيليين في مستعمراتهم في فلسطين وذلك استعدادًا لتنفيذ ما وعدَهُم به وزيرها بلفور في إنشاء وطن إسرائيلي في فلسطين، وكان غاندي قد ظهر في مستعمرتها الكبرى الهند، التي تضمّ مئات من الملايين البشرية وطالب بالاستقلال التام عن التاج البريطاني، وكانت بريطانيا ترى غاندي يزداد نفوذه كل يوم وتتبعه الخلائق الهندية تشد أزره، كل هذا ممّا حمل البريطانيين على الرضوخ لإنذار الملك ابن سعود، فسلّموه فيصل الدويش بعدما التجأ إليهم.

كانت هناك مشكلات كثيرة بين الساسة البريطانيين، فقد اختلفوا حول

سياستهم في مستعمرتهم الهندية، وشبه مستعمرتهم المصرية، وكان الساسة البريطانيون في الهند يرون في ابن سعود عبد العزيز الزعيم العبقري، القوي الإرادة، الصلب العود، صاحب النفوذ القوي، في الأقطار العربية وفي البلدان الإسلامية، وأنَّ باستطاعته أن يؤثِّر في النفوذ البريطاني، لأن العرب والمسلمين يصغون إليه ويروا فيه الكفاءة، ليتبوأ عرش العراق مع عرش شرقي الأردن، وذلك بعد أن أقام البراهين على حُسن إدارة مملكته، ولم ينازعه في حكمها أحد.

أما البريطانيون المقيمون في القطر المصري، فيرون أنَّ نجلَي الملك حسين ابن علي، فيصل وأخيه عبدالله، حليفَي الأمس أحقّ من ابن سعود في حكمهم تحت إشرافهم في كِلا البلدين العراق وشرقي الأردن. وأنَّ ممّا يثبِّت هذا الإشراف، بل التحكُّم، هو ضعفهما، وكان في هذا الضعف أمان وضمان لاستمرار وجود العلم البريطاني يرفرف فوق أجزاء الجزيرة العربية.

بقي هؤلاء الساسة البريطانيون في الهند، وفي القطر المصري، يتأرجحون بين هاتين الفكرتين بضع سنوات، غاضين الطرف بعض الوقت، عن تثبيت عرش فيصل بالعراق وتثبيت إمارة أخيه في شرقي الأردن، حتى يتحقّقوا من نوايا عبد العزيز تجاه حكم فيصل في العراق، وحكم أخيه عبدالله في شرقي الأردن، وهل يرغب في احتكاكه بالعراق وشرقي الأردن أم لا؟ وأخيرًا أرادت أن تتبين موقفه بجلاء وتستطلع نواياه تجاه هذا كله فأرسلت في أوائل عام 1927م مندوبها المستر (جوردن) الذي أقام في وادي العقيق قريبًا من مدينة الرسول محمد ﷺ، حيث كان الملك عبد العزيز وكنتُ مع جلالته في زيارته الأولى للمدينة المنورة، وحمل جوردن تفويضًا من الخارجية البريطانية بشأن إبرام معاهدة مع الحكومة السعودية، وقد أعلنت بريطانيا عن ذلك، لكن الحقيقة كانت غير ذلك، لقد استهدفت من إرساله الوقوف على نوايا عبد العزيز بشأن العراق وإمارة شرقي الأردن، وعجز المستر جوردن فلم يتبيَّن شيئًا ممّا أوصته به حكومته، وعندما يئس، ألمح قائلًا: إن بريطانيا لم تعقد معاهدة حتى الآن مع هذين القطرين، لكن المفاوض السعودي لم يُعِرْه أي انتباه وتجاهَلَه. عندها أخذ المستر (جوردن) يعمل على تشويش المفاوضات وأبدى تشدُّده في أول بند من بنودها مخاطبًا مندوب جلالة الملك

بكلمات لا تصدُر عن دبلوماسي مثله، فتوقَّفت المفاوضات وانقطع حبل وصلها، وعاد جوردن إلى حكومته، ولم يحقِّق لها رغبتها، وكانت هذه هي الأسباب التي أوقفت سير المفاوضات.

حين يئست بريطانيا من الوقوف على نوايا ابن سعود حول العراق وشرقي الأردن أرسلت عند رجوع الملك إلى الحجاز مفاوضًا آخر قَدِمَ إلى جدة هو المستر (كلايتون) الذي أبرم المعاهدة التي عُرِفت بمعاهدة الندّ للندّ، وبها اعترفت بريطانيا باستقلال ابن سعود.

على إثر هذه المعاهدة التي نعتتها صحف العالم بمعاهدة الند للند، أخذت هذه الصحف تكيل لابن سعود المديح والثناء، الأمر الذي ازداد فيه نفوذه عمّا كان عليه من قبل ويمَّم زعماء البلدان العربية التي كانت تحت الحماية الفرنسية والبريطانية، وجوههم شطر مكة والرياض، يباركون هذه المعاهدة، ويبدون استعدادهم لخدمة حكومة الملك عبد العزيز فكان يستمع إليهم، ويغدِق عليهم هباته.

بعد توقيع معاهدتها مع عبد العزيز أبرمت بريطانيا مع العراق معاهدة سمحت بموجبها لزعمائه مباشرة حرياتهم وهكذا كان موقفها مع شرقي الأردن فعقدت معاهدة مع الشريف عبدالله، وضمّت إلى مُلكِه بعض الأراضي الفلسطينية بما فيها القدس الشريف ونادت به ملكًا على الأردن.

لم يَنَلِ العراقيون ولا الأردنيون حريتهم ولم يمارسوا استقلالهم إلّا بعد مجهود كبير بذلوه ومشقة قاسية مارسوها، دامت ما يزيد على اثني عشر عامًا.

لقد اعتادت بريطانيا أن لا يهدأ لها بال، ولا يركن لها حال ما لم تَقْضِ على كل قوة ضاربة تقوم في الجزيرة العربية ليأمنوا شرها، فإن هذه الجزيرة في نظرهم باب الهند الواسع، ومن صالح بريطانيا قفل هذا الباب.

هذه لمحة عابرة عن بعض أحداث الإخوان والمعاهدات، ولنا عودة إلى هذا الموضوع ولنَعُدِ الآن إلى موضوعنا لنتكلم قليلًا عن الجوف ودومة الجندل وليغفر لنا القارىء هذا الاستطراد.

لم نمكث في الجوف أثناء سفرنا من معان إلى الرياض إلّا يومًا واحدًا، وهو

بلد قائم في شمالي نجد، على منخفض من الأرض تؤمُّه في فصل الخريف كل من بادية العراق وسورية والأردن.

كان للجوف قبل الفتوحات الإسلامية مركز ممتاز، وكان من حكامه فيما مضى من الزمن رجل قوي الشكيمة صلب العود، فبنى قصرًا فخمًا فيه وسمّى هذا القصر بقصر «مارد»، وإذا ذكرت الجوف ذكرت معه الشجاعة والقوة، ثم أتى عليه زمن أهمِل فيه شأنه وانطفأت ذكراه كما انطفأ من قبله ذكر البتراء، وجرش وعمان العاصمة الأردنية، وفي القرنين الأخيرين أخذ يستعيد بين فترات الوقت ذكراه، وأقيمت فيه إمارات عربية، مختلفة الميول والعقائد والتطوّر، فكان الحكم فيه لآل سعود ثم تحوّل إلى آل الرشيد بعد اختلاف الأمراء السعوديين فيما بينهم، ثم تولى الحكم فيه النوري بن شعلان شيخ قبيلة الرولة، ثم أعيد فيه الحكم لآل الرشيد بعد معركة شرسة بين النوري بن شعلان وبمساعدة عودة أبو تايه شيخ قبيلة الحويطات، المشهور بفروسيته، وبين آل الرشيد وقبيلتهم شمر. والجوف الآن في حكم آل سعود، آخذ بالازدهار وأُسّست فيه المدارس والمستشفيات وأقيمت الأبنية الأنيقة الجميلة وكثُر سكّانه وأمَّه نزلاء من الخارج، ووسعت فيه التجارة والمسابلة ونمَت اقتصادياته، وأنشىء فيه مطار واسع، وهو قريب من وادي السرحان ذي المياه الكثيرة، وحقّقت يد العمران زراعته التي أخصبت إخصابًا عظيمًا.

جاء ذكر الجوف في التاريخ الإسلامي أثناء الفتوحات الكبرى، عندما مرَّ خالد بن الوليد بجيشه اللجب قادمًا من العراق ليساهم مع جيوش المسلمين في قتال الروم بفلسطين، وكانت مرحلته هذه من أخطر المراحل التي تمَّت في هذه الصحراء الواسعة، وكان الوقت عند اجتيازه الصحراء صيفًا، حرارة شمسه تفلح الوجوه ورمال زوابعه تعمي الأبصار، أضِفْ إلى ذلك شحّ المياه، فغامر بجيشه المغامرة التي لم يسبِقْ أن قام بها أحد من قبله، لقد اتَّخذ هذا الطريق لقصره، ولسرعة النجدة فحضَر الموقعة برفقة جيشه حتى تَمَّ للمسلمين النصر.

ممّا يُحكى أنَّ بناة قصر مارد المذكور قد تمرّدوا على الزباء ملكة تدمر، وهي في أوجّ سؤددها وعظمتها، فجهّزت حملة قوية توجّهت نحو الجوف لإخضاع بناته وحماته، ومكثت شهرًا كاملًا محاصِرَة القصر فقصّرت عن إدراك مطلبها، ولم

تُدرِك غايتها، فرجعت أدراجها إلى عاصمتها تَدمر خائبة حاسرة، وقد حاولت قبل هذا الاستيلاء على (الأبلق) مقرّ السموأل الدائم في مدينة تيماء شمال الحجاز (من أعمال المملكة العربية السعودية) فلم تفلح، وحفظ عنها قولها: (تمرّد مارد وعزّ الأبلق).

على ذكر السموأل، نقف قليلًا لنتحدث عن الوفاء الذي اتّصف به، خلق السموأل بن عادياء بالوفاء، ولا يزال يقال: أوفى من السموأل، ومن وفائه ما قيل أن امرأ القيس الشاعر الكندي لمّا عزم على اللجوء إلى جستنيان قيصر الروم، حمل رسالة من السموأل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني في الشام ليوصله إلى قيصر، وأبقى امرؤ القيس دروعه لدى السموأل قائلًا: إذا قدّر لي أن أراك ثانية سآخذها، وإلّا فلا تسلّمها إلّا للورثة.

بعد وفاة امرىء القيس في أنقره (العاصمة التركية) أتى رهط من قومه وطلبوا من السموأل تسليم الدروع فأبى السموأل قائلًا: إنكم لستم من الورثة، وكان ابن السموأل خارج القصر، مع نفرٍ من قومه يرتادون مواضع الصيد، فأسره هذا الرهط، وقالوا للسموأل إمّا أن تسلّمنا الدروع أو نقضي على حياة ولدك، فلم يمتثل السموأل لتهديدهم فقتلوا ولده، وهو ينظر إليهم من شرفات قصره الذي حوصر فيه، ورجعوا أدراجهم، وحُفِظ عن السموأل قوله:

وفيت بأدرع الجندي إني ... إذا ما خان أقوام وفيت
وقالوا إنه كنز ثمين ... أما والله أغدر ما مشيت
بنى لي عاديا حصنًا حصينًا ... وبئرًا كلما شئت استقيت

لا يزال هذا القصر بممرّاته الواسعة المتعرِّجة، وأبوابه المتعدِّدة وأسواره الشامخة قائمًا حتى يومنا هذا في مدينة تيماء، وهو من القصور الفخمة بهندسته المعمارية وشكله الداخلي، يقطنه ابن رمان أمير تيماء.

إن قاطني هذا القصر تختلف أجسامهم وألوانهم عن بقية أبناء الأمة العربية ووجوههم قريبة من الحُمرة، فهي نضرة ناصعة أجسامهم فارعة الطول، معتدلة، وأمام هذا القصر بئر يُعرف باسم هداج، واسع البناء غزير ماؤه، تَرِدُه القبائل.

وكان السموأل الشاعر اليهودي وأجداده من بني عادياء، إذا ما تعرّضوا لمهاجمة أهل البادية أغلقوا أبواب القصر واتّخذوا موقف الدفاع، بعد دفنهم لآبار الماء القريبة منه، فلا يتمكّن الغزاة من محاصرتهم طويلًا فيعودون خائبين خاسرين.

السموأل شاعر فحل فمن شعره بالفخر قصيدته المشهورة:

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه	فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها	فليس إلى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنّا قليل عديدنا	فقلت لها إن الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا	شبابًا تسامى للعلا وكهول
وما ضرنا أنّا قليل وجارنا	عزيز وجار الأكثرين ذليل
لنا جبل يحتله من يجيره	منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسماؤه	إلى النجم فرع لا يزال طويل
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره	يعز على من رامه ويطول
وإنّا لقوم لا نرى القتل سبة	إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا	وتكرهه آجالهم فتطول
تسيل على حد الظبات نفوسنا	وليست على غير الظبات تسيل
فنحن كماء المزن ما في نصابنا	كهام ولا فينا يعد بخيل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم	ولا ينكرون القول حين نقول
إذا سيد منا خلا قام سيد	قؤول كما قال الكرام فعول
وما خمدت نار لنا دون طارق	ولا ذمّنا في النازلين نزيل
وأسيافنا في كل شرق وغرب	لها من رؤوس الدارعين فلول
معودة أن لا تسل نصالها	فتغمد حتى يستباح قتيل
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم	فليس سواء عالم وجهول

أما امرؤ القيس كما يخبرنا التاريخ هو أبو الحارث حندح بن حجر الكندي، وامرؤ القيس، لقب له، وكان والده حجر سليل الملوك من كندة، بطن من بطون

كهلان، وآخر من ملك على بني أسد من المضرية، وأمه فاطمة بنت ربيعة، أخت كليب ومهلهل التغلبيين، فنشأ امرؤ القيس متقلبًا في أعطاف النعمة واليسار، وشبَّ يقول الشعر، وفي نفسه صبوة ولهو، فأراد أبوه أن يأخذ نفسه بما يأخذ به أبناء الملوك أنفسهم، من الاعتداد للملك، فلم يرعوِ من غوايته، فطرده، فخرج في أخلاط من شعراء القبائل، يرتاد الرياض ومواطن الصيد، حتى بلغه وهو في (دمون) من أرض اليمن مقتل أبيه، لاستبداده في قومه، فآلى على نفسه، أن يكفّ عن غوايته، ولا يأكل لحمًا، ولا يشرب خمرًا حتى يثأر لنفسه، وقال كلمته المشهورة: «اليوم خمرٌ وغدًا أمرٌ، لا صحو اليوم ولا سكر غدًا» وارتحل يثير القبائل ويستنجدها على بني أسد، فأعانته بكر وتغلب، فغُلب بنو أسد، وكثُر القتلى والجرحى فيهم وانهزموا، فلم يَشْفِ ذلك من غلته، وأراد اللحاق بهم، فأبى منجدوه، وقالوا لقد أصبت ثأرك وانصرفوا عنه، فلجأ إلى مرثد الخير من قبائل حمير، وكانت بينهما قرابة، فأمدّوه بجيش من القبائل فسار بهم إلى بني أسد، فظفر بهم، واهتبل المنذر بن ماء السماء هذه الفرصة، ووجّه جيشًا في طلبه.

كانت بنفسِ المنذر ضغينة على آل امرىء القيس وأمدَّ كسرى أنوشروان بن قباذ المنذر بجيش من عنده فظفر بهم، وتفرّقت جموع امرىء القيس، ونجا بنفسه، في عصبة من رهطه، يتنقل من قبيلة إلى قبيلة، يطلب النصر، حتى سُدَّت عليه الطرق، فاستجار بأحد بني فزارة فأجاره ثم دلّه على السموأل، وأصحبه رجلًا إليه، فأكرمه السموأل، وبدا لامرىء القيس أن يستنصر (بجستنيان) قيصر الروم، فكتب السموأل كتابًا إلى الحارث بن أبي شمر الغساني في الشام ليوصله لقيصر الروم، فوفِّق في وساطته، فبلغ بلاد جستنيان فأكرم وفادته وطمع أن يكون له قوة في بلاد العرب، تُضعِف قوة الأكاسرة فجهّزه بجيش كثيف، وفيه جماعة من أبناء الملوك، ولكنه لم يكد يفصل به عن بلاد الروم، حتى بدا لقيصر استرجاع هذا الجيش لأسباب لم يتبيَّنها المؤرخون على وجهها الصحيح، وعلى كل حال، فإنه قفل، ولم ينل مآربه، فنزلت به في طريق عودته، علّة جلدية تقرّح منها جسده، وتساقط لحمه، فمات منها، ودُفِن بأنقرة، وذكر بعض الأدباء الذين ألقت بهم عصا الترحال في أنقرة، أن على قمة جبل يعرف (بعسيب) على مقربة من أنقرة ضريح امرىء القيس، منقوش عليه الأبيات الآتية:

أجارتنا إن المزار بعيد   وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا   وكل غريب للغريب نسيب

الأتراك يسمون هذا الضريح بضريح ملك العرب وهذا قوله، بعد قتل أبيه وسعيه في إرجاع مجده:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة   كفاني ولم أطلب قليلًا من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

قال أيضًا: عندما توجه إلى بلاط جستنيان قيصر الروم هو ورفيقه:

ولما بدا حوران والآل دونه   نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطع أسباب اللبنات والهوى   عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه   وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عيناك إنما   نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا

لقد أسهبت فيما قصصته عن مدينة الجوف، وتاريخها المجيد، وقصرها الشامخ الذي بناه الأكيدر، وتعاقَب حكام العرب على إمارتها، وعن السموأل ووفائه، وفخره وانتسابه، وعن امرىء القيس ذاك الشاعر الطائش الذي فقَدَ ملكه، وهدر ماء وجهه لدى القبائل العربية، يؤلِّبها على بني أسد، ويستنجدها عليهم.

يذكِّرنا موقف امرىء القيس من قومه بموقف حكّام العرب في الأندلس، في أواخر أيامهم لقد كان موقفهم قريبًا جدًّا من امرىء القيس، فلقد اقتطع كلُّ حاكم منهم قطعة من هذه البلاد الجميلة، فردوس العرب المفقود، وأخذوا يستنجدون بأعدائهم بعضهم على بعض وآخر حكامهم استنجد بأعدائه فكان لقمة سائغة في فم العدو المنقذ.

بكى عبدالله آخر ملوك بني النصر في حكم الأندلس بكاءً مُرًّا على مُلكه المسلوب ومجده الضائع، ممّا حدا بأمه أن تقول له كلمات حفظها التاريخ:

(إبك مثل النساء ملكًا مضاعًا لم تحفظه حفظ الرجال).

بعد هذا الاستطراد، أعود إلى سياق الحديث: لم نُقِم في الجوف إلّا يومًا واحدًا كما ذكرت سالفًا، وكنّا نبحث فيه عن دليل يهدينا الطريق ويرينا سُبُله لنصل

إلى مدينة حائل، فلم نعثر على أحد، وقلت لابن العمّ ناصر: هل لك معرفة بالطريق؟ فأجاب: طرقته منذ سنتين وأعتقد أنني على علم به، وقال هذا وهو لا يعلم مقصدي من وراء سؤاله، فظنَّ بادىء الأمر أن سؤالي عابر، ولمّا تحقق من بُغيتي وما أعنيه من طرق هذا السبيل بمفردنا، أردف قائلًا: ولكنها مغامرة إذا ولجناه من دون دليل، إنه طريق لا معالم له، فيه نفود ورمال تذروها الرياح فلا تترك أثرًا يَستدلُّ به المسافر سوى رمز واحد هو جبل مرتفع يمسى (العُليم)، قائم في وسط هذه الرمال يُرى من مسافات بعيدة، يُخيَّل للناظر إليه كرأس حربة يشير إلى منتصف الطريق بين الجوف وحائل، فلم أدَعْه يواصل حديثه، فقلت له: لماذا لا نطرقه دون دليل ما دمت تصفه وصفًا دقيقًا، فلم يجبني عن سؤالي وواصل حديثه قائلًا: إذا اهتدينا لرؤية هذا الجبل سَهُلَ علينا معرفة الطريق بأكمله إذ سنواصل السير على حدود خلٍّ من النفود وهو سبيل مطروق، فقلت له: توكلنا على الله وسنغادر الجوف في الهزيع الأخير من الليل البهيم.

انطلقنا في تلك الليلة بمفردنا أنا وابن عمي ناصر الرواف لا ثالث لنا وواصلنا السير طيلة النهار، وقبل الغروب بقليل تراءى لنا رجلان يسيران خلفنا على مطيّة واحدة فلم نحبِّذ هذه الرؤيا، وعند اللقاء بهما، فهمنا أنهما ذاهبان إلى مدينة حائل، وهما من قبيلة الشرارات التي تقطن وادي السرحان بين الجوف والقريات، فأخذنا حذرنا منهما في تلك الليلة وفي الصباح أخبرناهما أن يسيرا أمامنا ليريانا الطريق، إذ إننا على غير معرفة تامة به، فامتثلا الأمر، وشَعَرا باحتياطاتنا منهما فأرادا تطميننا، وقال أحدهما لا حرج عليكما وعليكما الأمان منّا.

واصلنا السير ليلًا ونهارًا دون أن نستريح غير ساعات قليلة إلى أن وصلنا مدينة حائل في صباح اليوم الخامس من مغادرتنا الجوف.

تغيَّرت الوجوه وتبدلت قامات الرجال، وغادرها آل سبهان، ومن بقي من ذرية آل الرشيد إلى الرياض عاصمة آل سعود، وانتقلت الأبهة والعظمة إلى غربي حائل إلى قصر سماح، والذي أقامه أميرها عبد العزيز بن مساعد، وألقيت نظرة على مسكننا السابق أمام قصر برزان الذي ضمّني سابقًا مع والدي ما يقرب من سنة واحدة كنّا فيها ضيوفًا على آل الرشيد وآل سبهان.

أقمتُ في مدينة حائل بضيافة الأمير عبد العزيز بن مساعد يومين كنتُ أتنقّل في غضونها بين الأماكن التي كنت مع والدي نتردّد إليها وكان سمو الأمير عبد العزيز بن مساعد من خيرة الأمراء وكان محترمًا من الجميع، يَحذَر من بطشه الذين يسعون في الأرض فسادًا ويركن إليه الرجال الصالحون، لقد أكرمنا وأحسن وفادتنا، وأثناء انفرادي به قصصت عليه أخبار الأردن وفلسطين، وأهداني ذلوله العمانية التي يطلقون عليها اسم (المجينينة) لخفّتها ورشاقتها، إنها لم تعرف العصا، فقد حدث أن لمست عصاي قسمًا من جسدها فنفرت من هذه اللمسة، وكأنها قالت: «تجوّد على ظهري إن كنت ولدًا وقيًّا» وأخذت تنهب الأرض نهبًا كالسيارة، ولم تقِفْ عن جريها إلّا بعد ربع ساعة تقريبًا، فخفّفت السير حتى لحق بي رفاقي بعد ساعتين من الزمن، وكان طعامها التمر والبرسيم لا تأكل غيرهما، وكانت معودة على ألّا تقوم من الأرض حتى يعتلي راكبها على ظهرها.

بعد مسيرنا من حائل بثلاثة أيام وصلنا أنا وابن عمي ناصر مدينة بريدة من أعمال القصيم، مقرّ آبائي وأجدادي البلد الذي أحببته، وأنِسْتُ بلقاء أبناء عمومتي مرة ثانية، فألفيتها كما تركتها منذ عشرة أعوام، لم يتبدّل منها شيء: أسواقها، أبنيتها، أهلها إنها كبقية المدن النجدية، الطين المدسوس بالتبن هي مواد البناء والبيوت لا يزيد بناؤها عن طابقين، على الطراز النجدي القديم لم يعرف الإسمنت في ذلك الزمن، ولكلٍّ منزل منها مدخلان اثنان، أحدهما خاص بالرجال والمدخل الثاني للنساء، وكان يلي مدخل الرجال غرفة واسعة خصصت للضيوف، وبداخلها غرفة صغيرة يطلق عليها اسم المخزن، يخزن فيها القهوة والهيل والسكر والشاهي، وأدواتها، كما كان يوضع فيها الأشياء الثمينة الخاصة بصاحب المنزل، وكثير من هذه الغرف الصغيرة المسمّاة بالمخازن مظلمة لا نوافذ لها، إلّا بابها، كما أن كثيرًا من الغرف الخاصة بالضيوف تحتوي على درج يصعد بواسطته إلى مكان فسيح، يُتَّخذ كغرفة للطعام، خصص للضيوف، ويرتكز هذا المكان على قوائم من الطين مغطاة بنقوش من الجص، ويطلُّ هذا المكان الذي يطلق عليه اسم المصباح على غرفة الجلوس. أما باب النساء، فكان يليه حوش واسع، خصّص للماشية، إذ إن العديد من أصحاب المنازل، لهم بقر وغنم يستعملون سمنها وألبانها لأولادهم

ولضيوفهم، وفي أحد أركان هذا الحوش، بئر مالح أجاج، يُستخدم ماؤه للوضوء وللغسيل وليس للشرب، وبجانبه مصلّى تؤدي النساء فيه فروضهن الدينية. وفي أطراف هذا الحوش غرف للنوم والجلوس.

كثير من هذه المنازل لا يعتنون بفرشه، فكثير من غرفها خالية من المفروشات إلّا من حصير، أو سمط بساط، ووسائد للراحة، فهم يهتمّون كثيرًا بفرش غرف جلوس الرجال فالسجاد يكسو أرض هذه الغرف، والزرابي مبثوثة على جدرانها، ومراكن عديدة يستندون عليها لأخذ راحتهم.

كان طعامهم في ذلك الوقت يشتمل على الأرز واللحم، وبعض الخضر المسلوقة واللوبية والجريش والمرقوق، والطماطم التي يوجد لأكلها في بريدة قصة طريفة. فلقد أخبرني العم عبدالرحمن الرواف ﵀ وقد تجاوز المائة من السنين، أن الطماطم كانت تنمو في مزارعنا بكميات قليلة، ولا ندري ماذا نعمل بها، ولا نتجاسر على أكلها، فنترك معظمها على أعوادها في المزارع، وكنّا نحضِر بعضًا منها إلى منازلنا، ونضعه تحت قربة الماء، المعلقة على قوائم من الخشب فتتساقط نقط الماء على الطماطم، ويكون لمنظرها رونق وبهجة، وكنّا لا نعلم أنها تطبخ، وإذا كنّا نعلم فلا نعرف كيفية طبخها، أو استعمالها في الطبخ.

بعد مكوثنا في بريدة ثلاثة أيام وإنهاء حساباتنا مع عملائنا التجار أزمعنا السير إلى الرياض عاصمة المملكة للسلام على الملك عبد العزيز ولنتمتع بالجلوس في مجالسه العامة، ونستمع إلى أحاديثه الشيقة اللذيذة، ومررنا في طريقنا إلى بلدة العيينة التي كانت في ذلك الوقت شبه خاوية من سكانها، الحركة فيها مشلولة، وآثار الحياة التي تدل على قاطنيها شبه معدومة، ومعظم آبار مياهها جافة مطوية بأحجار مرصوفة بدقة على جوانبها. إن بلدة العيينة كانت منشأ أجدادي الأولين، يوم أن كان أميرها ابن معمر، أحد حكام نجد المتنفذين يعود نسبه إلى بني تميم.

لقد مُنِيَت هذه المدينة بوباء قضى على العديد من قاطنيها، فغارت مياه آبارها وتفرّق من بقي من أهلها، ونزحوا عنها إلى البلدان المجاورة، وتوزّع أجدادي من الرواف بين بريدة والرياض والدرعية وعرقة. وكانت لأجدادي صلة قوية بالبسام

الذين استقروا في مدينة عنيزة فكَثُر نسلهم وعلا ذكرهم، وانتشروا في مدن الجزيرة العربية، والأقطار المجاورة، ومنها البلاد الهندية، كما توسَّعت تجارتهم فيها، واحتفظت الرياض، وبريدة بالرواف وهاجر بعضهم إلى مدينتي بغداد والزبير من أعمال العراق ودمشق في سوريا، ففي الزبير مسجد كبير يحمل اسم أحد أجدادي عيسى بن رواف، وفي بغداد وقف كبير يعرف بوقف الرواف أوقفته زوجة عيسى بن رواف، وكان جدي محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الرواف يستغل خيراته ممّا تُنتِجه أشجار النخيل من التمور وما تُنبِته أرضه من البقول والخضر، وعندما توفي جدي محمد كان عمومتي صغار السن، فاستولت عليه الأوقات العراقية، كذلك كان لنا مُلك في مدينة حلب عبارة عن عدة مخازن، ودكاكين وبعض المنازل، وباع هذا المُلك والدي إبراهيم المحمد الرواف، أما وقف الرواف في بغداد، فبعد أن استولت عليه دائرة الأوقاف في بغداد، أخذت تبيع بعض قطعه، فأنشأت فيه عمارات ومنازل، فكان من أجمل أحياء بغداد، وفي هذا الوقف فُتِحَ شارع على شاطىء دجلة سمي شارع أبي نواس، وفي هذا الوقت كان مسكن عبدالمحسن السعدون، رئيس الوزراء العراقي، الذي انتحر فيه عندما كان رئيسًا للوزارة العراقية، وسأتحدث فيما بعد عن وقفنا الكبير في بغداد، وأوضِحُ ما آلَ إليه.

الفصل السابع

زيارة الرياض قبيل ثورة الإخوان

الرياض مدينة خالدة، ظلَّت طِوال تاريخها تنعم بالاستقلال، فعلى الرغم من وقوعها قبل الإسلام بين قوى عظمى، هي إمبراطورية الفرس الساسانيين، ودولة اليمن والأحباش لم تخضع لأيٍّ منها، وقد دانت للإسلام بعد مقاومة عنيفة، وبعدها تعاقب على حكمها أمراء كثر ومشايخ من أبناء الجزيرة.

لقد كانت هذه هي زيارتي الأولى للرياض ولقد وجدتها تعجُّ وتموج بجماعات الإخوان الوافدين إليها من كل فجّ، وكنت لا ترى غير جماعات وراء جماعات تسير في شوارعها وكانت أبواب قصر الملك مفتوحة طيلة النهار وزلفًا من الليل لهم وللناس جميعًا سواء منهم زوار الرياض أو القاطنون بها، وكان الإمام العادل عبد العزيز يستقبلهم برحابة صدر كما عُرِف عنه، ويغدق عليهم الهبات من الأموال والمتاع، ويقوم بتحقيق كل أمانيهم ويعطيهم ما يطلبون من خيل وإبل، وأسلحة ونقود، وكانوا يسألون عبد العزيز ويلحّون عليه بمطالبهم في إطلاق سراحهم ومنحهم الحرية ليواصلوا زحفهم على العراق وشرقي الأردن، وكانوا في ذلك الوقت في أوجّ عظمتهم وأشدِّ قوتهم. وكان قد مضى على جهادهم في فتح غربي المملكة والحجاز وقت طويل، ولم يمارسوا فيه نشاطهم ليحققوا أهدافهم في نصرة دين الله وإعلاء كلمة التوحيد، وكان الملك عبد العزيز يخفِّف من غلوائهم ويهدِّىء أعصابهم الثائرة بما عُرِف عنه من اللين والحكمة.

كان ينظر إلى جنده من الإخوان نظرة عطف وتقدير واحترام ولا يرى لأحد عليهم فضلًا ولا منَّة، وكان يحافظ عليهم محافظة الوالد على أولاده، ولا يجعل أنوفهم العالية ترضخ إلى الأرض بعد شموخها، ولا أن يخدش شرفهم وتهدر كرامتهم، وتُهان أنفسهم، ورغب أن يبقى جنده، عزيزي النفس شديدي البطش

أقوياء الجنان، وسعى غاية جهده، ليرى هذا الجند، وقد استكمل نشاطه وقدرته، وبأحسن ممّا هو عليه وقتئذٍ.

نعود إلى ذكر مدينة الرياض، إنها من العواصم العربية، التي يتردَّد إلى زيارتها عظماء العالم من ملوك ورؤساء الجمهوريات، لِما لها من المكانة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولقد اجتمع بطلها، وفارس نهضتها الملك عبد العزيز قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية، بوقت قصير برئيس الولايات المتحدة الأميركية الرئيس روزفلت، ورئيس وزراء بريطانيا المستر تشرشل وكانا يحكمان دولتين عظيمتين، قهرتا ألمانيا واستولتا على كل مقاطعاتها، وكان القصد من هذا الاجتماع، أن يعلن الملك عبد العزيز الحرب على ألمانيا، لأن سلوكه الحسن في إدارة مملكته الفتية ونفوذه عند العرب والمسلمين كان واسعًا على الرغم من أنه لم يملك من القوة إلّا الشيء الزهيد، فلا طائرات لديه لتحوم في الفضاء يسمع أزيزها، ولا أساطيل تمخر عباب البحار يسمع الناس صفاراتها، وحتى المال يكاد يكون مفقودًا لديه، ومع كل هذا فقد حذت الحكومات العربية حذو ما قرَّره الملك عبد العزيز من إعلان الحرب على ألمانيا. ولقد حاولت أميركا، وإنجلترا، وروسيا من قبل أن يجتمع روزفلت، وتشرشل بالملك عبد العزيز، أن تقوم مصر بإعلان الحرب على ألمانيا، ليتبعها ملوك ورؤساء الدول العربية، ولكن مصر في ذلك الوقت، كانت تفتقر إلى ما كان يملكه الملك عبد العزيز من المركز القيادي الممتاز، الأمر الذي ذهب ضحيته النقراشي رئيس الوزراء. فلقد حصل بين النقراشي رئيس الوزراء المصري وبعض من الزعماء المصريين مشادّة قوية ذهب ضحيتها.

كان الملك عبد العزيز في تلك الأيام التي قضيتها في الرياض مهتمًّا اهتمامًا بالغًا، بأمر الإخوان. فكأنني أراه الآن، وهو يتنقَّل بين غرف قصره بالدور الثاني من غرفة إلى غرفة غيرها، وبيده مسواك يستاك به، وكان في الطابق الأرضي من القصر، غرفة واسعة تقدَّر بعشرة أمتار طولًا وخمسة أمتار عرضًا، تضمُّ أربعة أشخاص من الكتّاب، أبقاهم الملك عبد العزيز، لتدوين مطالب الإخوان، لعرضها على جلالته ليُصادق عليها ويأمر حتى تُقدَّم لطلابها من الإخوان. وفي اليوم الثاني من قدومي للرياض مثَلتُ بين يدي الملك عبد العزيز على انفراد في الغرفة الصغيرة

الضيّقة في قصر الرياض التي اتّخذها مختصرًا له. وكانت الغرفة مفروشة بحصيرة عادية وكان فيها كرسي طويل من القش كثير الشبه بالكراسي التي كانت تُستعمل في قهاوي مكة والمدينة للجلوس عليها، وأعتقد أن الشيخ عبدالرحمن الطبيشي رحمه الله كان يعرف هذه الغرفة جيدًا.

أفرغت ما كان بجعبتي من الأخبار التي كنت أحملها وما يُختزن بذاكرتي من معلومات عن مدن شرقي الأردن وباديتها وما يقوم به البريطانيون وأتباعهم من أعمال، وأخبرتُ الملك عبد العزيز عن زيارة المستر أسترنج، مدير الاستخبارات البريطاني، لمحل عملي وعن المعلومات التي كانت تصلني من سائقه العراقي.

بعد عدة أيام طلبتُ من جلالة الملك عبد العزيز السماح لي بالعودة من حيث أتيت فأذِنَ لي ودعا لي بالتوفيق. وفي اليوم الثاني لمغادرتنا الرياض لحِقَ بنا أحد التجار النجديين وكان متوجهًا إلى مدينتَي مشهد والحسين من أعمال العراق وبصحبته ذلولان خاصّتان بنا، وأخبرنا أن شلهوب الخادم الخاص للملك قد أحضرهما، وطرق باب المنزل الذي كنت أقيم فيه ليقدِّمهما هدية من الملك عبد العزيز فلم يجد أحدًا. ولا يسعني الآن إلّا أن أشكر هذا الأريحي العظيم على هباته المتكرِّرة.

أثناء الأيام القلائل التي مكثتها في الرياض مع ابن عمي ناصر الرواف زارني أحد الإخوان وكان من قبيلة مطير، من أقوى القبائل النجدية ومن أكثرها عددًا وعدّة، ولها شهرتها الواسعة في الغزو والقتال، وزعيمها فيصل الدويش من شيوخ القبائل المقربين للملك عبد العزيز وصاحب الكلمة النافذة على قبيلته والذي تحترمه أكثر القبائل في الجزيرة العربية... طلب مني الرجل المطيري العربي أن يشتري ذلولي العمانية التي أهدانيها أمير حائل عبد العزيز بن مساعد قبل مدّة. لقد رأى هذا العربي ذلولي فأعجبته، فجاء يبحث عني يريد شراءها وأظهر من حصيبته الصغيرة التي كان يحملها خمسين جنيهًا ذهبًا لكي يدفعها ثمنًا للذلول العمانية فرفضتُ طلبته بصورة حسنة وأفهمته أنها هدية من أمير حائل ابن مساعد وأنها عزيزة عليَّ ولا أنوي بيعها، وبعد محاولات متكرِّرة وإلحاحٍ شديد غادر الأخ الأعرابي مستاء، فلقد أعجبته ذلولي وأراد الحصول عليها.

عدتُ إلى مدينة بريدة ولم أمكث فيها سوى ثلاثة أيام انتهت خلالها حساباتي التجارية مع عملائي، وتركت بها ابن عمي ناصر الرواف وتابعت سفري برفقة بعض السيارة، إلى مدينة حائل مقر الأمير عبد العزيز بن مساعد، أمير حائل.

ممّا اعتاده أهل حائل، وقبائل شمر، أن يقدِّموا لضيوفهم الطعام والماء، ثم يتركوهم ليأخذوا حريتهم في تناول طعامهم حسب ما يشاءون، وهذه العادة متَّبعة عندهم يمارسونها منذ عصور كابرًا عن كابر، وقد استرعى انتباهي بادىء الأمر هذه العادة، وقد استفسرت عن سبب ذلك، فأُجِبْت بالآتي: إنّ كثيرًا من الضيوف يأتون من البادية، ومن مسافات بعيدة فيكون طعام بعضهم قد نفد، ولم يذوقوا طعامًا منذ وقت طويل، فإذا جلس ربّ البيت مع ضيوفه، وشاركهم في تناول طعامهم، فلا يأخذ الضيوف حريتهم في الأكل، لذلك يتركون الضيف يتناول طعامه بمفرده كما يشاء، وممّا يُقال بهذا الشأن، إنه في العصور السالفة، استضاف رجل أحد مشايخ شمر، فقدّم له طعامًا، وجلس يأكل معه يؤانسه بالحديث أثناء الطعام، وكان الضيف يلتهم الطعام بصورة غير عادية، ممّا لفت نظر ربّ الدار، وبعد انتهاء الضيف من الطعام سأل المضيف ضيفه، من أين أتيت، وبأيِّ العربان مررت؟ فأجابه: تركت منازل أهلي لزيارة فريق من العربان القاطنين قريبًا منا، فوجدتهم راحلين، فاتَّبعت أثرهم حتى بانت لي مضاربكم، فقال له كم يومًا لك عن أهلك؟ فأجابه منذ يومين، وكنت لا أحمل زادًا، ولا ماء.

فمنذ ذلك الوقت، أخذ هذا الشيخ يترك لضيوفه الطعام، دون أن يشاركهم فيه، يتناولونه كما يريدون، وهكذا أخذ فريق الشيخ مأخذه في الضيافة، وانتشرت هذه العادة بين القبائل الشمرية، وأخذوا يعملون بها.

لم تَطُلْ إقامتي في حائل سوى بضعة أيام، وكنت عازمًا على الإقامة فيها أسبوعين أو أكثر، ولكن نغَّص علي هذه الإقامة الطيبة، موت معارفنا القدامى.

إن حائل بلدة محبَّبة إليّ كنت أتردّد فيها إلى الأماكن التي لي فيها ذكريات جميلة وكانت إقامتي فيها أربعة أيام فقط، كنت خلالها أبحث عن دليل يرافقني إلى الرطبة من أعمال العراق لأستقلّ منها سيارة إلى دمشق، وعثرت على دليل من قبيلة الرولة، وعند سلامنا على الأمير وودّاعنا لسموِّه، قال: عندنا رجل ليس منّا يحاول

الاطّلاع على أسرارنا، خذوه معكم إلى أن تصلوا حدود العراق، واتركوه عند العربان هناك، ولا تدعوه يفلت منكم حتى يتعدّى حدود المملكة.

تركنا حائل عند منتصف الليل، بعد أن أخذنا زادنا من الأسواق، وماءنا من بئر سماح، وكان ماؤها من أجود المياه وأكثرها عذوبة، واصطحبنا معنا الرجل العراقي الذي لم يكن يعلم أن أمره مكشوف للأمير وحرِصنا على ملازمته لنا حتى دخلنا الأراضي العراقية عملًا بتوصية أمير حائل.

كانت نجد في ذلك الوقت بأكملها واقفة على قدم وساق، كل ما فيها يشير إلى الفوضى والاضطرابات فالطرق غير مؤمنة، وأهلها لا يدرون ما سيحمله لهم الغد من مفاجآت، من الإخوان الثائرين على الملك عبد العزيز، وكنا نسير ليلًا ونقيم نهارًا، ولم نسلك سبيلًا مطروقًا، وكنا نجتاز الصحراء الواسعة، ورمالها الكثيفة، مارّين بطعوسها الرملية، نطرق جبالها الوعرة، أو نغذُّ السير في منخفضاتها، ولم نَرِدْ آبار المياه، لنتزوّد منها بالماء خوفًا من أن نجد عليها أحد الغزاة الثائرين، وقبل وصولنا الرطبة بيومين، انتهى ما كنّا نحمله من الماء، وكان ذلك في فصل الشتاء، فلم نشعر بمشقّة من قلة الماء.

انتظرت في الرطبة يومًا واحدًا، وقد حاول رجال الجمرك أخذ رسوم ما أنقله معي من المال، ولكنهم عدلوا عن ذلك فودَّعت رفيقي الدليل الدهمشي، وتوجّهت إلى دمشق على متن إحدى السيارات القادمة من العراق، بعد أن أعطيت ذلولي لعبد الرحمن أحد نسباتنا لكي يُحضِره مع ماشيته من الجمال إلى دمشق.

في مساء ذلك اليوم، هبطت مدينة دمشق، وفي صباح اليوم الثاني سلَّمت تجّار دمشق أموالها، ولازمتُ منزلي يومين كاملين، وعُدت إلى مدينة معان ومكثتُ فيها ثلاثة أشهر لقضاء بعض الأمور الخاصة بتجارتي السابقة.

كانت القضية الفلسطينية آخذة بالتطور تطورًا ملحوظًا، وكان الأمير عبدالله بن الحسين حاكم منطقة شرقي الأردن، والسيد أمين الحسيني الزعيم الفلسطيني يتنافسان على الزعامة لهذه القضية الفلسطينية قبل أن يظهر لها زعماء فلسطينيون آخرون، فلم يكن هناك حواتمة ولا حبش، ولا أبو عمار، وكان زعماء سورية ولبنان يشدّون أزر بعضهم بعضًا، واقفين بالمرصاد لحكومة الانتداب الفرنسي،

يؤلِّبون عليها الكثيرين من أبناء هذين القطرين. وكان الحكم الفرنسي في سورية ولبنان جاثمًا بكلِّ ثقله على أنفاس الزعماء السوريين واللبنانيين لم يَدَعْ لهم منفذًا واحدًا يستنشقون من فجواته نسمة من نسمات الحرية، ولكن لم تثبط عزائم هؤلاء الزعماء، فبقوا على اتفاق جيد فيما بينهم وبقي الزعيمان عبدالله، أمير شرقي الأردن، والسيد أمين الحسيني، الزعيم الديني في فلسطين، على اختلاف في تنافسهما على القضية الفلسطينية، واشتدَّ النزاع بينهما إلى أن استعرت الحرب العالمية الثانية وحاولت بريطانيا إلقاء القبض على أمين الحسيني ففرَّ هاربًا إلى ألمانيا ملتجئًا إلى عاصمتها برلين، وكانت ألمانيا في أوجّ عزها وسؤددها.

كان الانتداب الفرنسي جاثمًا بكل ثقله على صدور زعماء سورية ولبنان، كما أسلفنا سابقًا، بعد أن قضى على ثورات البلدين التي قامت ضدّه، وهي ثورة إبراهيم هنانو والأستاذ الجابري وثورة الحورانيين وثورة الزعيم صالح العلي، وثورة محمود الفاعور، وأخيرًا الثورة الدرزية الكبرى بزعامة سلطان باشا الأطرش، لقد أخمد الانتداب الفرنسي هذه الثورات جميعها، وأخذ يملي إرادته على رجال سورية ولبنان وأبعد كثيرًا من رجالات دمشق إلى جزيرة (أرواد) وحكم بالإعدام غيابيًّا على العديد منهم، وكان من بينهم الشيخ كامل القصاب صاحب النفوذ القوي والكلمة المسموعة بين زعماء العرب، والتجأ الشيخ كامل القصاب إلى فلسطين وكانت لا تزال تحت الحكم البريطاني، ولم يتوقَّف عن الاتصال بزعماء سورية ولبنان وإبداء رأيه في القضية العربية.

في هذه الفترة من الزمن زار القنصلية العربية السعودية في دمشق الزعيم المسلم اللبناني، رياض بك الصلح، صاحب النفوذ القوي والمواقف المشرِّفة في القضية العربية العامة، وكان شقيقي محمد عيد الرواف هو القائم بشؤون القنصلية، وطلب منه رياض بك أن يجد له شخصًا سعوديًّا موثوقًا لكي يذهب إلى القدس، ويتّصل بالشيخ كامل القصاب الموجود في فندق الملك داود ويخبره بأن رياض الصلح سوف ينتظره صباح يوم السبت القادم في قرية (المطلة) القريبة من مدينة درعا، فقال له شقيقي القنصل: هذا أخي خليل يقوم بهذه المهمة إذا وافقتم على انتدابه لهذا الأمر، فشكره الزعيم رياض بك الصلح، فذهبت للقدس واجتمعت

بالشيخ كامل القصاب وأخبرته بالذي أوصاني به الزعيم رياض بك وتمَّ اجتماعهم على الحدود الفلسطينية، ثم عاد رياض الصلح إلى دمشق.

لسابق معرفة والدي بالأستاذ رضا بن أحمد باشا الصلح، والد معالي المرحوم الأستاذ رياض بك رئيس أول وزارة شكِّلت للجمهورية اللبنانية في عهد استقلالها، بقي الأستاذ رياض بك محافظًا على صلة والدي إبراهيم المحمد الرواف إبقاءً لصلات والده رضا نجل أحمد باشا الصلح، الذي كان يجتمع بوالدي أثناء زيارته لدمشق. وإني لأذكر أنه عند وفاة والدي عام 1345هـ (1927م)، حضر الأستاذ رياض بك من بيروت وشيَّع جنازة والدي ومشى مع عدد من الدمشقيين والنجديين وراء نعشه رحمه الله. وبقي السيد رياض إلى أن توارى جسد والدي في لحده بين قبور أصدقائه وجيرانه، صبحي بك أجليقين وأشقائه الثلاثة طاهر وفوزي وممدوح رحمهم الله، لقد كان أفراد هذه العائلة العريقة جيرانًا لنا في مدينة دمشق، وقد أرضعت زوجاتهم عددًا من أشقائي وشقيقاتي.

لم يرزق رياض بك ولدًا ذكرًا، وكانت خلفته كلها من الفتيات، إحداهن تزوجت الأمير السعودي المرموق طلال بن عبد العزيز وخلَّف منها ولدين هما الوليد، وخالد والثانية اقترنت بالأمير عبدالله النجل الثاني لملك المغرب محمد الخامس. وعلى أثر اغتيال والدهم في العاصمة الأردنية عمان عام 1370هـ (1951م)، ألَّبت هؤلاء الفتيات رجال الوطنية في لبنان مسلميه ومسيحييه وألهبت حميَّتهم وبقي هذا الحادث المؤسف العظيم مدوَّنًا على صفحات تاريخ لبنان الحزين.

عند عودتي لدمشق ألقى الفرنسيون القبض عليَّ في مدينة درعا بتهمة اجتماعي بالشيخ القصاب المحكوم عليه بالإعدام من قبل حكومة الانتداب، وسُئلت من قبل رجال الأمن عن سبب اجتماعي بالشيخ القصاب، فأجبتهم إنَّ ذلك مجرد صدفة، وبقيت موقوفًا ست ساعات اتَّصلت خلالها بشقيقي محمد عيد الرواف تليفونيًّا فأطلق سراحي دون أن أسأل المزيد، فقد كانت الحكومة الفرنسية تعامل رعايا المملكة السعودية معاملة طيبة، لما تمتَّع به المرحوم جلالة الملك عبد العزيز من مكانة رفيعة ولحفاظه على العهود والمواثيق.

أثناء وجودي في القدس زرت الحاج أمين الحسيني في مكتبه بالمسجد

الأقصى فألفيته منهمكًا في قراءة تقرير سياسي ورد إليه من مدينة عمان عاصمة شرقي الأردن، وقد أطلعني الحاج أمين على بعض أوراق هذا التقرير، قائلًا: انظر ماذا يفعل عبدالله مع الصهاينة، لقد كان عبدالله على اتِّصال دائم مع زعماء الصهاينة (بالشونة) المكان الذي كان يقضي فيه أيام الشتاء الباردة، كما قابلت أحد رجال المستر (أسترنج) مدير الاستخبارات السابق في شرقي الأردن، فأخبرني أن المستر (أسترنج) نُقِل إلى مدينة حيفا.

أعود مرة أخرى للحديث عن ثورة الإخوان، فبالرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلها الملك عبد العزيز لاحتواء وإرضاء الإخوان وإنهاء ثورتهم بالسلم، إلّا أن خلافهم مع عبد العزيز اشتد، وازدادوا في غلوهم وعَظُمَ شأن ثورتهم ممّا دفع عبد العزيز إلى قتالهم والقضاء عليهم.

كان من زعماء هذه الثورة خمسة من أقوى قبائل الجزيرة وأكثرها عددًا وعدَّة وهم: فيصل الدويش زعيم قبيلة مطير، وسلطان بن بجاد زعيم قبيلة عتيبة، يشاركه في الزعامة مقعد الذهينة، وفرحان بن مشهور أحد مشيخ قبيلة الرولة، وضيدان بن حثلين زعيم قبيلة العجمان، وقد قتل في إحدى المعارك التي دارت بينه وبين عبدالله بن جلوي أمير مقاطعة الأحساء، كما قُتل في هذه المعركة فهد نجل الأمير عبدالله بن جلوي، وخلف ضيدان بن حثلين على زعامة قبيلة العجمان أحد شيوخ القبيلة المعروف بأبي الكلاب، وكانوا يرمون من وراء ثورتهم القضاء على ابن سعود الذي (كما يزعمون) صدَّهم عن الجهاد في سبيل الله وشلَّ حركتهم ووقف دون مبتغاهم وهو إعلاء كلمة الله وتحرير البلاد الإسلامية من الكفار، ورفع شأن المسلمين وتحسين مكانتهم. واتَّفق هؤلاء الزعماء ورؤساء مشايخ القبائل الخمس على أن يوزَّع مُلك ابن سعود فيما بينهم، هذا إذا نجحت ثورتهم.

فخصِّص لفيصل الدويش، زعيم قبيلة مطير، نجد بأكملها، بما فيها مقاطعة حائل وما حولها.

خصِّص لابن بجاد ورفيقه مقعد الدهينة، زعماء قبيلة عتيبة، الحجاز بحدوده الطبيعية.

كان نصيب ابن حثلين، زعيم قبيلة العجمان، مقاطعة الأحساء وما حولها.

ولابن مشهور أحد زعماء قبيلة الرولة بادية الجوف والقريات وشرقي الأردن إذا وفِّقوا في غزوها والاستيلاء عليها.

أثناء هذه الفترة من الزمن التي اشتدَّت فيها الخلافات في نجد، بين الملك عبد العزيز وجماعة الإخوان ومع ما كان يترامى إلينا من الأخبار المثيرة عن انتشار ثورة الدويش واستفحال أمرها، وقفت القنصلية في دمشق موقفًا حازمًا مشرفًا تجاه تلك الأحداث، فأقامت الحفلات، ودعت أرباب الصحف وحَمَلة الأقلام، واستدان القنصل شقيقي ياسين الرواف من أحد بنوك سورية مبلغًا وافرًا من المال، لكي تحافظ القنصلية على مظهرها الاعتيادي اللائق وهو الذي جعل كثيرًا من الناس يتساءلون بينهم عن أهمية ثورة الإخوان؟ خاصة أن شقيقي ياسين تزوج من إحدى كريمات رجال دمشق في ذلك الوقت.

فكتبت إحدى الصحف السورية تقول لو أن أمر الدويش مهم حقًّا وأنه سينجح فعلًا في ثورته ويقتسم هو ومَن معه من مشايخ القبائل النجدية مقاطعات المملكة، كما قرَّروا في اجتماعاتهم الأخيرة في مدينة الأرطاوية، لَما بقيت الأمور عادية طبيعية في القنصلية السعودية ولَما تزوَّج القنصل في هذه الأوقات الحرجة.

بعد أيام من زفاف القنصل وردت أخبار إلى القنصلية تقول: إن الملك عبد العزيز جمع قوة كبيرة من الحضر وسكان المدن والقرى، ومن الإخوان الموالين له وتوجَّه لمقاتلة الإخوان الثائرين.

كان فيصل الدويش يعتمد اعتمادًا قويًّا على ولده عبد العزيز الدويش، فاختاره ونصَّبه على رأس سبعمائة رجل من الإخوان الأشدّاء، وكانت هذه القوة التي تُعرف (بالمنقية) - أي القوة المختارة - تعيث في الأرض فسادًا، تسفك الدماء وتقتل الكثيرين وتنهب الأموال، وتعقَّب هذه القوة الأمير عبد العزيز بن مساعد أمير منطقة حائل، وأخبَر هذا الأمير أن عبد العزيز الدويش ومَن معه من قبيلة مطير والإخوان سيَرِدون على ماء يسمى (أرضمة)، فما كان من عبد العزيز بن مساعد إلّا أن اهتبلها فرصة، فسبقه إلى هذه المياه، وهكذا لم يتمكن عبد العزيز بن فيصل الدويش من الوصول إلى غايته وبقي ظمآن وفي أشدِّ الحاجة إلى الماء، واضطر أفراد قوَّته إلى التسلُّل تِباعًا لورود الماء، فكان جنود ابن مساعد لهم بالمرصاد حيث قتلوا كثيرًا

منهم، وسلَّم الباقون أنفسهم، وبذلك قضى ابن مساعد على هذه القوة الجبارة التي كان يعتمد عليها رئيس الثورة فيصل الدويش.

لقد كان القضاء على قوة (المنقية) هو بداية النصر النهائي لعبد العزيز على جماعة الإخوان في معركة السبلة، فتوفيق الله الذي واكب الملك عبد العزيز رحمه الله ثم حظّه الكبير وخبراته الحربية وحنكته فيها، والتفاف أهل الحضر حوله بعد معاناتهم من غلوّ الإخوان ومضايقاتهم واعتداءاتهم على القوافل التجارية، كل هذه الأسباب أعانت الملك عبد العزيز في القضاء على هؤلاء الزعماء الخمسة وإخماد ثورتهم، ووقعوا في الأسر جميعهم وسيقوا للمثول بين يدي الملك عبد العزيز، وأُودعوا السجن، والتجأ فيصل الدويش إلى الحكومة البريطانية في الكويت ونُقِل إلى إحدى البواخر البريطانية المرابطة في الخليج العربي، فهدَّد الملك عبد العزيز الحكومة البريطانية بقوله: إذا لم تأتوني بفيصل الدويش في مدة ثمانٍ وأربعين ساعة فجميع المعاهدات التي بيني وبين بريطانيا ملغاة، فامتثلوا أوامره وطلبوا من ابن سعود إرسال مَن يستلم فيصل الدويش فأرسل الشيخ إبراهيم بن معمر إلى الكويت ونقلت طائرة بريطانية خاصة فيصل الدويش إلى حيث كان يقيم الملك عبد العزيز قريبًا من مدينة الكويت، وأودع الدويش السجن مع رفاقه ابن بجاد وابن حثلين وأبي الكلاب وغيرهم من زعماء الثورة. وأعقب الحادثة رسالة من لندن تعتذر فيها بريطانيا على توجُّه فيصل الدويش إلى اللجوء إليها، وهي على غير علم بقدومه، فقَبِل الملك عبد العزيز عذر البريطانيين، وهناك من يرى من المؤرخين أن موقف بريطانيا من ثورة الإخوان كان غامضًا. وما لبثنا غير أيام قلائل حتى وافتنا بدمشق الأخبار، تحمل هزيمة فيصل الدويش وكسب ابن سعود المعركة بعون الله ثم بجنوده من أهل المدن وممَّن كانوا لا يزالون موالين له من القبائل، ارتاح ابن سعود من أذى الإخوان، وقد شقَّ عليه إذلالهم، نعم إنه انتصر عليهم ولكنه خسر أعظم قوة كانت تأتمر بأمره وتُلقي الرعب في قلوب أعدائه، ثم عاد إلى الحجاز للنظر في شؤون مملكته.

بعد القضاء على ثورة الدويش وزعمائها قضاء مبرمًا، وبعد أن أمَّن الناس على أرواحهم وأموالهم لم يعد ابن مساعد بقوته الكبيرة إلى مدينة حائل مركز

إمارته، بل أخذ يتنقل في البادية حتى وصل إلى الجوف، وطلب من القنصلية في دمشق بعض المؤن والأرزاق، وتوجَّهت مع قافلة السيارات التي تحمل المؤن والأرزاق للأمير عبد العزيز بن مساعد المقيم في بادية الجوف، وكان دليلنا قد مالَ إلى حدود العراق وقرَّبنا من مدينتي «مشهد والحسين» فأوقفتنا سيارات الحدود العراقية من رجال (الميجر كلوب) الضابط البريطاني وكان يُعرف بأبي حنيك إذ كان فكّه الأسفل ملتويًا، إثر رصاصة أصابته أثناء وجوده في الجيش البريطاني عند استيلائه على العراق، وكان كلوب يخدم في الجيش العراقي ولم ينقل مركزه بعد إلى شرقي الأردن، وبعد ساعات قليلة حضر الميجر كلوب، فوجَّه كلامه لي قائلًا بنبرة شديدة: ألم تعلم أنك دخلت حدود العراق دون إذن من حكومتها؟، فأجبته بنبرة أشد من نبرته: إن الذي أعرفه، أن البادية العربية جميعها هي من ممتلكات ابن سعود، وإنّ حدود العراق هما مدينتا المشهد والحسين، فأجابني بقوله: إنك مخطىء في تعريفك هذا، وبعد ساعة من المناقشة بيني وبينه أطلق سراحنا، وواصلنا السير حتى وصلنا مدينة الجوف.

لم أقابل الأمير عبد العزيز بن مساعد في الجوف، فلقد كان مقيمًا على بعد عشرين ميلًا من الجوف، فسلَّمت الأرزاق إلى مندوبه، ثم عدتُ إلى دمشق، وبعدها توجَّهت إلى معان أنتظر أوامر الملك عبد العزيز.

توجّه الملك عبد العزيز إلى الخليج العربي، واجتمع بالملك فيصل بن الحسين ملك العراق، وكان ذلك أول وآخر اجتماع بينهما على ظهر الطراد البريطاني، وكان بصحبة الملك فيصل بن الحسين، شيخ قبيلة عنزة (فهد بن هذال)، كما حضر هذا الاجتماع (الميجر كلوب) وأخبر الميجر كلوب الملك عبد العزيز عمّا دار بيني وبينه من الأقوال بمناسبة دخولي حدود العراق وما كان معي من الأرزاق، وعند عودة الملك عبد العزيز إلى المنطقة الغربية كان عمي قاسم الرواف مقيمًا في مكة المكرمة فأراد الملك عبد العزيز ملاطفة العمّ قاسم فقال له جلالته: تحسبون أنفسكم دللة يا آل الرواف، هذا ابن أخيك خليل ضاع في الصحراء ودخل حدود العراق بالسيارات التي نقلت المؤن لابن مساعد في الجوف وكاد خليل أن يتشاكل مع الإنجليز وأخبر (كلوب) أن البادية جميعها لابن سعود،

لهذا المغوار، ووضع جلالته يده على رأسه - يعني بذلك أن الحكم لهذا الرأس.

كتبتُ رسالة لجلالة الملك عبد العزيز، أخبره فيها أن بقائي في مدينة معان قد طال أمره ممّا أودع الريبة في نفوس أفراد الحكومة فيها، وإني لا أزال أرتقب أوامره وانتظرت من جلالته جوابًا، فلم يصلني منه شيء، وسافرت إلى دمشق، فالتقيت فيها بأحد كبار موظفي جلالته الذي كان يزور دمشق، وسألني ماذا أعمل الآن؟ قلت إنني منتظر جوابًا من جلالة الملك، فأبلغني هذا الموظف، أن جلالة الملك لم يعُدْ يُعِرْ أيّ انتباه لِما أوافيه به من الأخبار، وأوصاني أن أكُفّ عن الكتابة إليه، فاستغربت هذا الأمر، وأحببت أن أقف على صحة ما أخبرني به هذا الموظف، فكتبت لجلالة الملك كتابًا وأخبرته بالأمر، ولكنني لم أذكر اسم الموظف، وأنهيتُ رسالتي بالكلمات الآتية:

وإني كنت ولا أزال من المخلصين لجلالتكم.

بعد أسبوعين تسلمت من جلالة الملك عبد العزيز تغمده الله برحمته الكتاب الآتي:

الرياض في 28 جمادى الآخرة 1350هـ (9/ 11/ 1931م).

من عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل إلى جناب المكرّم خليل الرواف سلّمه الله تعالى، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فقد استلمت كتابيكم المؤرخين في 24/ 4/ 1350، 5/ 6/ 1350هـ. وأحطنا علمًا بما شرحتم بهما من الأخبار بارك الله فيكم، ولا بد إن شاء الله تواصلونا على الدوام بما يستجدُّ عندكم من الأخبار، أخبار طرفنا لله الحمد ساكنة ولم يحدث ما يوجب الذكر، إلّا دائم الخير نحمد الله على ذلك، هذا ما لزم بيانه والله يحفظكم والسلام.

الختم الرسمي

ومرفق بهذا الكتاب ملحق جاء فيه:

ملحق خير وسرور إن شاء الله لخليل الرواف

ما ذكرتم كان معلومًا وقد عجِبْنا من الخبر الذي ذكرتموه من أنَّ بعض كبار الموظفين أبلغكم أننا لا نحبُّ الاطّلاع على ما تكتبونه لنا، وأننا لا نثِقُ بأقوالكم،

وأن ذلك كان الداعي لتأخركم، إن هذا كله غير صحيح، وأنتم محسوبون علينا، وإن كان بإمكانكم أن تخبرونا عن اسم الشخص الذي ذَكَر لكم ذلك وما نظنُّه إلّا من الأشخاص الذين قد يكون ممَّن يكرهون قربكم منّا، فلا تكن لديك فكرة من هذا القبيل.

فكرت طويلًا عند استلامي جواب جلالة الملك، هل أنزل عند رغبته، وأخبره باسم هذا الموظف الكبير الذي افترى علي، وأبدى لي أمورًا لم تكن صحيحة، واستخرت الله وقررت أن أبقيه بيني وبين نفسي تجنبًا للفتنة، وبعد ذلك بعدة أسابيع سافرت إلى مكة المكرمة للسلام على الملك عبد العزيز، وخلال هذه الزيارة توطّدت عُرى الصداقة بيني وبين السيد عبدالله الدملوجي الذي كان في ذلك الوقت موظفًا كبيرًا في الخارجية السعودية.

في أحد الأيام أقلّتني سيارة والسيد الدملوجي من قصر السقاف الذي اتَّخذه جلالة الملك مقرًا له، إلى الحرم المكي الذي كنت أسكن قريبًا منه، وكانت السيارة خالية من «الزمور» أي المنبِّه وأثناء مسيرنا، لم ينتبه أحد المارة للسيارة التي تحملنا، فاضطر الدملوجي إلى إيقاف السيارة والترجل منها، للتكلم مع المواطن المكي لكي يفسح لنا الطريق. ولقد كان الرجل المكي عصبي المزاج وكذلك الدملوجي.

بعد أيام من هذا الحادث، رافق عبدالله الدملوجي صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز بزيارته التي قام بها إلى بريطانيا.

عند عودة سمو الأمير فيصل من لندن، طلب عبدالله الدملوجي الإذن من جلالة الملك لزيارة أهله في العراق، فأذن له، ومرَّ الدملوجي بدمشق في طريقه إلى العراق وزار القنصلية السعودية فيها وتمشّى مع القنصل في غرفها، فلفت نظره مفروشاتها القديمة فقال للقنصل: لِمَ لا تطلبون من الحكومة ثمنًا لمفروشات جديدة عوضًا عن هذه المفروشات البالية وسوف أوافق على طلبكم عند رجوعي إلى المملكة، فشكره القنصل ولكن غادر الدملوجي إلى العراق ولم يعد منه إلى عمله في الخارجية السعودية فلقد عهد إليه صديقه نوري السعيد الذي كان رئيسًا للوزارة في ذلك الوقت بوزارة الصحة في العراق.

الفصل الثامن

وقف للرواف في العراق

كنت أسمع من والدي وعمومتي أن للرواف وقفًا في بغداد، في حي الباب الشرقي من المدينة، ويمتد هذا الوقف على شاطىء دجلة، ويبتدىء من شارع أبي نواس، وكان فيه قصر عبدالمحسن السعدون، رئيس وزراء العراق وكان جدي محمد العبد الله الرواف، يقطن أثناء وجوده في بغداد، في هذا الوقف، ويستغل خيراته، ولمّا توفاه الله كان والدي وعمومتي صغارًا لم يتجاوزوا الثامنة من العمر، وقد مضى على مديرية الأوقاف أكثر من خمسين عامًا وهي تستغل هذا الوقف، ولها حق التصرف في بيعه، وكان هناك إعلان صادر عن مديرية الأوقاف في الجرائد العراقية، حول بيع قطع من هذا الوقف، وقد زرت هذا الوقف سنة 1339هـ (1921م)، أثناء سفرتي الثانية للعراق مع العمّ محمد الأحمد الرواف وتجولت فيه، وجلست بإحدى المقاهي القائمة على شاطىء دجلة، وكان هذا المقهى في وقف الرواف.

خلال عام 1349هـ (1930م)، توجهت للمملكة، وتشرفت بمقابلة المغفور له الملك عبد العزيز، وفاتحته برغبتي عمّا أريد أن أقوم به في بغداد من المطالبة بهذا الوقف، ورجوته أن أحمل رسالة من جلالته إلى الملك فيصل ملك العراق، يوصيه بمساعدتي في هذه القضية لتكون رسالته مستندًا يضاف إلى المستندات التي حصلت عليها، ولأستعين بها على تحقيق مطالبي، فتكرّم رحمه الله فحقّق رغبتي وكتب إلى الملك فيصل كتابًا لبقًا يلاحظ القارىء فيه صفاء النية ورغبة في تحقيق المطالب:

من عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل

إلى صاحب الجلالة الأخ فيصل ملك العراق المعظم حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله، أما بعد، فإني أسأل الله أن يكون جلالة الأخ متمتِّعًا بكل ما أتمناه من الصحة والعافية، وإن تفضل بالسؤال عن أخيه فإنني من فضل الله على أحسن حال ثم إنني أقدِّم لجلالته الأخ خادمه خليل الرواف حامل كتابي هذا، الذي أرجو أن ينال عطف جلالة الأخ ونظره الكريم، لمساعدته في ملاحقة قضية وقف تتعلّق بعائلة الرواف ببغداد.

التاريخ 4 ذي القعدة 1349هـ

التوقيع الملكي

الختم الرسمي

قد كتب فؤاد حمزة رسالة منه إلى كامل الكيلاني، وأوصاه فيها بتقديم المساعدة لي في موضوع الوقف، كما أخذت رسالة من عبدالله فيلبي إلى المستشار البريطاني بوزارة الأوقاف.

في هذه الفترة قَدِمَ من العراق إلى مكة وفد رسمي برئاسة نوري السعيد، وعضوية كلٍّ من طه الهاشمي، وتوفيق الألوسي، وأحمد المناصفي، وعبدالله بن مسفر، فعرَضتُ على الملك عبد العزيز مرافقة هذا الوفد، عند عودته إلى بغداد، واستأذنت منه، غفر الله له، السفر مع الوفد العراقي، فأجاب بالموافقة قائلًا: أتذهب قبل الحج؟ فقلت: إنني قمت بأداء الفريضة مرتين، وإني أعمل الآن في طلب الرزق لأجل أفراد أسرتي وسيكون قدومي للعراق مع هذا الوفد، ممّا يسهل مهمتي، فتكرَّم رحمه الله، وأذن لي بمرافقة هذا الوفد، وأخبرت رئيس الوفد نوري السعيد، وبقية أعضاء الوفد العراقي، أن جلالة الملك عبد العزيز أَذِنَ لي بمرافقتهم وسلَّمني رسلة إلى أخيه الملك فيصل، وهكذا غادرت مكة برفقة الوفد العراقي إلى مدينة بغداد، ونزلت في فندق تايكرس بالاس وبدأت حياتي في بغداد التي بقيت أتردد عليها طيلة ثلاث سنوات متتالية ألاحق قضية وقف الرواف فيها.

في اليوم الثاني من قدومي إلى بغداد، توجَّهت للسلام على الملك فيصل، وقابلت رئيس الديوان السيد رستم حيدر، وأخبرته بأني أحمل رسالة من الملك عبد العزيز إلى أخيه الملك فيصل بن الحسين ملك العراق، فاستضافني بقهوة

تركية، قائلًا: انتظر قليلًا، ثم عاد مسرعًا وقال: تفضل وأشار بيده، وهو لا يزال يرحِّب بي إلى أن أدخلني إلى مجلس واسع بين مكتب جلالة الملك، والجناح المُعَدّ لسكنى جلالته، وأجلسني على مقعد مريح، وكان يجلس في صدر هذا المجلس الأمير عبدالله شقيق الملك فيصل، وكان أميرًا على شرقي الأردن لم ينادى به ملكًا بعد، وكنت قد قابلته من قبل أثناء مكوثي في بلدة معان كوكيل للتجّار النجديين المعروفين بالعقيلات، قمتُ من مكاني وسلَّمت على سموِّه، وسألني عن سبب قدومي للعراق، فأخبرته أنني أحمل كتابًا من جلالة الملك عبد العزيز إلى أخيه الملك فيصل ملك العراق يوصيه فيه بمساعدتي في الحصول على وقف الرواف في بغداد، ولمّا سمع اسم عبد العزيز اعتدل في جلسته وتبدَّلت ملامح وجهه وبدا عليه الانفعال، وقال: هل عبد العزيز أرسل معك كتابًا لفيصل لمساعدتك: فأجبت نعم لقد أوصاه فيه بخليل الرواف، وأراد الأمير عبدالله مواصلة الحديث ولكن أحد الخدم حضر يخبرنا بقدوم الملك فيصل ودخل جلالته (الصالون) والابتسامة تشرق على وجهه النحيل، فبادرنا بالتحية وصافح شقيقه سمو الأمير عبدالله ثم تكرَّم وصافحني، وقدَّمت لجلالته الرسالة التي كنت أحملها من جلالة الملك عبد العزيز مع سلام رقيق أوصاني به الملك عبد العزيز لألقيه على مسامع أخيه الملك فيصل، وبعد تلاوته للرسالة، قال: حبَّذا يا خليل ولكنني لا أستطيع أن أعمل عملًا بمفردي تجاه وقفكم من دون عرض الأمر على البرلمان العراقي وعلى مديرية الأوقاف العراقية، فقدِّم دعواك إلى المحكمة، وإني أصدقك القول، ستجد مني كل مساعدة في قضية وقفكم.

لا أدري هل كان صادقًا بحديثه، أو كان ذلك إكرامًا للملك عبد العزيز بن سعود صاحب الرسالة. وكان الملك فيصل لطيفًا جدًا في حديثه إليّ، وقد عبَّر لي عن إعجابه بالملك عبد العزيز بن سعود، وكذلك أطراه كثيرًا وأثنى على جهوده وكان ممّا قاله: إنني أحمل له في نفسي كل تقدير واحترام، إنه مخلص في عمله ويتعجب جماعتي، كيف أني بسطت يدي للأخ عبد العزيز، مصافحًا ومتناسيًا كل ما جرى بين عائلتينا ولكنها المصلحة العربية العامة، والواجب الوطني المقدَّس هما أجبرا كلًّا منا على تناسي الماضي، وإني أرى بأخي جلالة الملك عبد العزيز

ما لا يراه الناقدون، فنحن العرب سنضطر تحت التأثيرات الدولية الحاضرة أن نلمَّ شملنا ونجمع صفوفنا، ونوحِّد كلمتنا، ونعمل في الحقل العربي لصالح الأمة العربية يدًا واحدة، رضي بذلك زعماء العرب المتنافسون الناقدون، أم لم يرضوا، وإن قوتنا باتِّحادنا، وسنحقِّق بهذا الاتحاد أماني العرب وآمالهم.

قبل استئذاني لمغادرة القصر، بيَّنت من طرفٍ خفِيّ أنِّي لا أطمع إلّا بمساعدة جلالته الأدبية والمعنوية وقلت مخاطبًا الملك فيصل: وقد وعدتموني جلالتكم بها، وإن شاء الله سأتبع إرشادات جلالتكم، وسأقدِّم لجلالتكم مجرى قضية وقفنا من حين لآخر. وأخذت أبحث عن المحامين لأعرض عليهم قضية وقفنا، وقف الرواف، وعرضتُ الأمر على ياسين باشا الخضيري أحد وجهاء بغداد وتجّارها المحترمين فاختار ثلاثة محامين منهم نقيب المحامين بهجت بن زينل والمحامي الأستاذ إبراهيم الراوي وأحد المحامين الذين يمارسون أعمالهم بالمحكمة الشرعية، وكان قريبًا إلى القاضي الشرعي في مدينة بغداد، وتمَّ الاتِّفاق بيني وبين هؤلاء السادة المحامين على أن يقوموا برفع القضية في المحكمة الشرعية لقاء مبلغ يتقاضونه عند نجاحها، وعرَضتُ عليهم أوراقنا الرسمية التي تُثبت حقوقنا في هذا الوقف.

بعد عقد جلستين في المحكمة الشرعية طلب القاضي إثبات النسب وأن عائلة الرواف التي تقطن في دمشق والعراق ونجد هي واحدة وأنه ليست هناك عائلة أخرى تحمل هذا اللقب.

في الجلسة الثالثة، قدَّمنا الشهود والإثباتات أن عائلة الرواف هي الوحيدة بالأقطار العربية وليست في هذه الأقطار عائلة أخرى تحمل هذا الاسم، وتأجَّلت الجلسة إلى الأسبوع القادم للبتِّ فيها.

استبشر المحامون خيرًا في نجاح القضية وقدَّموا تهنئتهم لي. وكان من السهل البرهنة على صحَّة النسب الذي يثبت حق عائلة الرواف الشرعي في هذا الوقف، فقد كان جدِّي محمد العبدالله الرواف يستغلُّ هذا الوقف عند وجوده في بغداد، وقد اقترن بإحدى العائلات العراقية التي يعود أصلها إلى نجد خلَّف منها العمّ قاسم الرواف، وكان يُرسل بعض الأموال إلى إمام جامع الرواف الواقع في

مدينة الزبير، وهو جامع كبير لا يزال قائمًا في هذه المدينة ويُعرف بمسجد الرواف.

قبل الجلسة بيومين اثنين عُزِل القاضي الشرعي وعيِّن قاضٍ غيره وحدث ضغط على القاضي الجديد من قبل مديرية الأوقاف، وأخذت المحكمة في التسويف والمماطلة ولكن القاضي كان إنسانًا، كالقاضي الأول، وبعد عدَّة جلسات استمعت المحكمة أثناءها إلى المحامين، أحيلت الجلسة إلى الأسبوع التالي للبتّ فيها، فهنأني المحامون مرة ثانية قائلين إن القضية ستنجح بالرغم من كل الضغوط، لكن حدث مجددًا أنه قبل انعقاد الجلسة بيومين اثنين نُحِّي القاضي عن منصبه وعُزِل واستُبدِل بقاضٍ غيره أعاد النظر في القضية مرة ثالثة من بدايتها.

في إحدى زياراتي لجلالة الملك فيصل بن الحسين ملك العراق كان في حضور مجلسه مدير أوقاف بغداد السيد رؤوف القبيسي، من أقرباء زوجة عمي قاسم الرواف فأمره جلالة الملك فيصل بإنهاء القضية سواء بالاتِّفاق على شيء معيَّن من المال والتساهل معه، وأكَّد عليه ضرورة إنهائها بأيِّ صورة، وهكذا أخذتُ وعدًا من مدير الأوقاف على أن أجتمع معه بدائرة الأوقاف لنتباحث معًا في موضوع الوقف، وكان هذا الوعد أمام الملك فيصل بن الحسين، لكن أثناء اجتماعي بمدير الأوقاف توجَّه نحوي قائلًا: إن قضية وقفكم معقَّدة فمن الصعب عليَّ أن أحُلَّ هذه العقدة لأسباب كثيرة منها أن معظم أوقاف العراق كثيرة الشَّبه بوقف الرواف وقد وضعت مديرية الأوقاف يديها عليها بحجَّة مرور الزمن، وإذا تساهلت مديرية الأوقاف وأنهت قضيتكم وأعادت إليكم الوقف فإن العراقيين من ورثة الأوقاف المحجوزة لدى مديرية الأوقاف ستطالب المديرية باسترجاعها إليهم، فالأمر يحتاج إلى الوقوف بقوة أمامكم، وأمام بقية الورثة للأوقاف العراقية، التي هي تحت تصرُّف المديرية، وإذا لم تقف هذه المديرية موقفًا صلبًا فستخسر المديرية كثيرًا من الممتلكات التي هي بحوزتها، وستصبح المديرية أفقر من فقير، وإني أقدِّر مسعاكم في استخلاص وقف الرواف، ونظرًا إلى القرابة التي تربطنا بعائلتكم فإني أتقدَّم إليكم بخالص النصح في أن تقلعوا عن المطالبة بهذا الوقف وتسحبوا القضية من المحكمة، خوفًا من أن يكون قضاء المحكمة لغير صالحكم

وعندها تطالبك الأوقاف بأتعاب المحامين، ثم نهض من مجلسه وقدَّم اعتذاره بصورة لبقة، فقلتُ له: لماذا لم تَقُلْ ذلك أمام جلالة الملك فيصل؟ فأجاب إني لا أرغب في أن أصدِّع جلالته، ثم استأذن، وغادر مكتبه لحضور اجتماع في إحدى صالات مديرية الأوقاف وتركني جالسًا في مكتبه، فغادرت المكتب بعد أن أدركت أن مديرية الأوقاف لن تسمح بالتنازل عن هذا الوقف وهي متشددة في الدفاع عنه ليبقى من ممتلكاتها، وأمر آخر كان له أثره البالغ في نفسي فقد أوحى إليَّ السادة المحامون بهجت زينل وإبراهيم الراوي أن يستقيلا من العمل في ملاحقة قضية وقف الرواف وتلقَّيا هذا الإنذار من المراجع الحكومية العليا، لكنهما لم يعيرا هذا الإنذار أيَّ انتباه، وكان من شهامتهما ونبلهما الإصرار على ملاحقة القضية بقوة وعزم وصبر، وهكذا قُرِّر لهذه القضية أن تدرسها المحكمة من جديد نظرًا إلى استقالة القاضي وتعيين قاضٍ آخر.

كان ممّا يخفِّف عليَّ وطأة الثلاث سنوات أثناء ترددي إلى مدينة بغداد لملاحقة قضية وقف الرواف واحتمالي المرير لشقائها، هو اتِّصالاتي واجتماعاتي بكثير من زعمائها والإصغاء لأحاديثهم المتنوعة في شتى المواضيع، وقد عرفت منهم الكثير عن العراق، غابره وحاضره، وكنت أشترك في أحاديثهم عن الثورة العربية وفيصل بن الحسين ولورنس البريطاني، ذاكرًا مساهمة أهل نجد البواسل وشجاعتهم وتضحياتهم ومواقفهم الحربية أثناء حكم فيصل لدمشق وأن عددًا كبيرًا منهم قضوا نحبهم عند دخول الفرنسيين إلى سورية، قد جاهدوا وجالدوا في سبيل العروبة ولكن الحظ خانهم، فقد كان لدى الفرنسيين أسلحة فتاكة لم يكن لدى الجيش العربي مثيل لها. ولمست من العراقيين تحمسًا وإخلاصًا لبلادهم لم يزعزع إيمانهم في جهادهم المبرور، ما كان يعترضهم من صلف البريطانيين وعنتهم.

عندما توِّج فيصل بن الحسين ملكًا على العراق، لم يكن له نفوذ، إلّا على خدم قصره المقيم فيه، أما الكثير من العراقيين فكانوا لا يقيمون له وزنًا.

كان أثناء تجواله بسيارته في شوارع بغداد، يسمع بكِلتي أذنيه، سبّه وشتمه، ولكنه تحمَّل ذلك بصبر وتجمُّل وجَلَد، وتحمَّل من العراقيين فوق ما يحتمله الإنسان، كان ذلك في سبيل العروبة، كما كان يقول جلالته، ولكن الحقيقة الأولى

هي حفظه وحرصه على التاج، التاج الذي وضعته بريطانيا على هامته، فما زال صابرًا مستكينًا، يجامل هذا، ويتقرَّب من ذاك، حتى التفَّ حوله بعض زعماء العراق، وفي مقدِّمتهم ياسين باشا الهاشمي صاحب النفوذ القوي في البلاد، فقد كانت له الكلمة المسموعة بين طبقات الشعب وعبدالمحسن السعدون، الذي انتحر أثناء توليه الوزارة العراقية، وكان من هؤلاء الزعماء جميل المدفعي، ونوري السعيد، وكان لنوري السعيد طموح ونشاط يفوق جميع الزعماء. وكان ذا تفكير واسع، وحركة دائبة، ينظر إلى البلدان العربية، نظرة مَن يريد ابتلاعها، وضمِّها إلى التاج العراقي، غير أنه كان كبقية العراقيين لا يقيم لزعماء البلدان العربية المجاورة وزنًا، ينظر إليهم نظرة القوي للضعيف، والذكي نحو البليد، فإذا ذُكِر أحد هؤلاء الزعماء في مجلسه أو في مجلسٍ آخر كان يقول مستهزئًا (شنو هذا) أي مَن يكون هذا الزعيم، ولكنهم أي العراقيين، كانوا جميعًا بمن فيهم الملك مهتمين بعقد معاهدة مع البريطانيين، واسترداد حريتهم والتمتع باستقلالهم، فلبثوا أحد عشر عامًا، وهم يعملون جادين في سبيل إبرامها، فتمَّ لهم ما أرادوا عام 1350هـ (1930م).

بعد إبرام المعاهدة العراقية البريطانية، عمَّ التنافس بين الأحزاب في بغداد، وانتشرت الخلافات فيما بينها، أكثر ممّا كان عليه الحال من قبل، ونشط الزعماء والمتنفذون في الحصول على أهدافها، وإدراك غاياتها، وأخذ كل حزب يختلف بمناهجه في إصلاح البلاد وتقدُّمها عن الأحزاب الأخرى، فلَمَع اسم نوري السعيد، والتفَّ الناس حوله، لميله الشديد نحو البلاط، والمشاركين في الحكم من البريطانيين، واستاء ياسين باشا الهاشمي من هذا الأمر، وكان الهاشمي من ألمع الزعماء في العراق وأقدرهم عملًا، فهو رئيس أكبر حزب، وله مكانته المرموقة، ومركزه السياسي والاجتماعي ولعائلته المكانة المحترمة في الأوساط العراقية، وله مواقف مشهورة في الحرب العالمية الأولى أثناء انضمامه لرجال الثورة العربية، ومرافقته للملك فيصل بن الحسين في سورية، وكان يعتزُّ بهذه المميزات على سائر الزعماء.

كان شديد الحرص على تمسُّكه بصداقة معارفه المخلصين من الرجال وفيًّا لهم، وكان موقفه مشرفًا تجاه صديقه القديم محمد العبد الله البسام التاجر النجدي

الواسع الثراء، فقد كانت تجارته منتشرة في الأقطار العربية وكان يتعاطى تجارة الأقمشة المتنوعة وتجارة الإبل والخيل، ويستورد كل عام من بادية نجد، وبادية العراق عددًا كبيرًا من هذه المواشي، كما اشتغل بتجارة (الصيرفة) بين دمشق وبغداد، فكان يرسل المبالغ الطائلة من الذهب إلى العراق، ويشقُّ طريقه بالسيارات بين سورية والعراق بصحرائها الواسعة، فصادرت له سلطة الانتداب الفرنسي في سورية مبلغًا كبيرًا من الذهب، أثناء نقله من سورية إلى العراق، فقد كان محظورًا إخراج الذهب من سورية، ويقدَّر ما صادرته السلطة الفرنسية بخمسة وعشرين ألف ليرة عثمانية ذهبًا، وكان هذا المبلغ يُعتبر ضخمًا في ذلك الزمن، فمُنِي بخسارة فادحة، وأخذت تجارته بالانهيار، حتى نَفَد ما بين يديه من الأموال.

استدعى ياسين الهاشمي السيد محمد البسام إلى بغداد، وسهَّل له أخذ الجنسية العراقية، وعيَّنه نائبًا في البرلمان العراقي، وأغدق عليه الخيرات، فحَفِظ مكانته، إلى أن وافته منيته في مستشفى الحكومة في بغداد وكنت ملازمًا له أثناء مرضه حتى فارق الحياة الدنيا، وحضرَت زوجته من دمشق بصحبة نجله الأكبر إبراهيم لحضور مراسم دفنه في بغداد.

كان ياسين الهاشمي يقوم بزيارة صديقه محمد العبدالله البسام كل يوم صباحًا ومساء مستصحبًا معه نفرًا من رجال البرلمان العراقي، ومن علِّية القوم في بغداد وتوطَّدت الصِّلات بيني وبين ياسين الهاشمي، وكان في ذلك الوقت خارج الحكم، ووعدني أن ينهي قضية وقف الرواف عند استلامه الحكم في العراق.

أثناء إقامتي في مدينة بغداد، قَدِم من القاهرة محمد علوبة باشا، وبصحبته مفتي القدس الحاج أمين الحسيني فاستُقبلا استقبالًا حارًا من العراقيين، وأقامت جمعية الشبان المسلمين لهما حفلًا حضره رجالات العراق الدينيين والسياسيين.

كنت من حضور هذا الحفل وكان الحسيني من المنافسين السياسيين لحاكم شرقي الأردن، الأمير عبدالله بن الحسين، وكان سبب قدومهما لجمع التبرعات للقضية الفلسطينية، وقد لقيا فيما قَدِما إليه بعض التوفيق، ولقد ضرب الحاج أمين الحسيني بحضوره لبغداد عصفورين بحجر واحد، كما يُقال: فقد أتى إلى بغداد لجمع التبرعات للقضية الفلسطينية التي كانت تشغل العرب أجمع، - ولا تزال -

ولسبب آخر أهم لديه من جمع التبرعات وهو التحدُّث مع العراقيين، عمّا كان يقوم به خصمه السياسي اللدود، الأمير عبدالله بن الحسين، من الأعمال التي كان يراها الحسيني، تخالف المبادىء العربية، ولا تواكب الأماني القومية، كاجتماعه برجال الصهاينة، في مكان يسمى (الشونة).

بعد عشرة أيام من مغادرة الحسيني للعراق، قَدِم إليها الأمير عبدالله بن الحسين، وفي ذلك الوقت، كان الخلاف ناشبًا بين ابن سعود وإمام اليمن يحيى حميد الدين، وكان من أسباب قدوم الأمير عبدالله للعراق للتحدث مع شقيقه الملك فيصل عمّا يمكن أن يفعلاه تجاه هذا الصراع لا سيما إذا نشبت الحرب بينهما.

لم يهتم الملك فيصل بن الحسين بما أبداه شقيقه عبدالله، إذ لم يكن الملك فيصل في مركز قوي يخوِّله القيام بأعمال ضدَّ الملك عبد العزيز، إذ إن أي عمل في هذا السبيل كان يتطلب جهدًا متواصلًا، ويحتاج إلى طاقات كبيرة ونفقات باهظة وقوة كبيرة ولقد كانت مشاكل العراق الداخلية آخذة جميع مجهودات الملك فيصل بن الحسين، فمشاكل الأكراد، ومشاكل الآشوريين لا تزال قائمة، كما أن صحته كانت لا تساعده على أن يجهد نفسه بمثل هذا العمل، أضف إلى ذلك معاهدته مع الملك عبد العزيز بن سعود وسعيه في التقرب إليه، وكان أحد بنود هذه المعاهدة ينصُّ على عدم تحكيم السيف بينهما، ووجوب حلِّ خلافاتهما سياسيًّا لا حربيًّا، وكذلك فلقد كان الملك فيصل، كما ذكرت، يكِنُّ تقديرًا واحترامًا خاصَّين للملك عبد العزيز، رحمهما الله.

قبل الحرب العالمية الثانية بسنوات قليلة، كان هتلر يؤلِّف حزبه ولم يستلم الحكم بعد، وكانت الدعاية الألمانية تتقبَّلها البلدان العربية التي كانت تحت الانتداب الفرنسي والحكم البريطاني لا حبًّا بألمانيا، بل كرهًا بهاتين الدولتين، وكانت مدينة بغداد مسرحًا لعملاء النازية ينفثون سمومهم بين العراقيين وزعمائهم، يحدِّثونهم عن هتلر وحزبه القوي النازي، وما يقوم به من الأعمال في تنظيم شؤون ألمانيا الإدارية والسياسية والعسكرية وعن مخترعات ألمانيا الحربية الجهنمية، وكان العراقيون يصغون إلى هذه الدعايات التي يديرها عملاء الألمان بكلِّ انتباه. وقد تعرَّفت بمهندس ألماني كان يقوم بإدارة قسم الكهرباء في مدينة بغداد، وطيار

ألماني كان يتردد على مدينة بغداد من حين لآخر ويقيم في فندق تايكرس بالاس وطبيبة للأسنان وتاجر شاب كان في الخامسة والعشرين من سني حياته.

كان اسم هتلر منتشرًا في الأوساط العراقية، وكان هذا التاجر الشاب عندما يُذكر اسم هتلر يشتعل الحماس بوجهه الأملس ويضرب بيده على الطاولة، قائلًا نريد هذا الرجل ليتبوّأ مقاليد الحكم في ألمانيا (هاي هتلر) وكان تحمُّسه لهتلر والنازية يفوق الوصف.

هكذا كانت الدعاية النازية بقوّتها منتشرة في الأوساط العراقية، حتى قبل أن يصل هتلر لحكم ألمانيا.

قد علمتُ فيما بعد، عندما تولى حكم العراق الملك غازي بعد وفاة والده الملك فيصل أن الملك غازي كان يستقبل في بلاطه كثيرًا من النازيين، وأنَّ ميوله أخذت تقترب من الألمان، الأمر الذي استاء منه البريطانيون فأوعزوا إلى الآشوريين أن يمتنعوا عن تلقي أوامر البلاط الهاشمي والمطالبة بالانفصال عن العراق، واستمرّ دعم البريطانيين لهم حتى قاموا بثورتهم وكان جلالة الملك غازي على علم بما يُضمِره البريطانيون نحوه، فجهَّز حملة حربية ترأسها، وقبل أن يغادر بغداد على رأس هذا الجيش الذي أعدَّه لقمع حركة الآشوريين، نصحه البريطانيون أن يأخذ الأمر بالروية والهدوء، وأن يفاوض الآشوريين ويتّفق معهم على أمور لا تضرُّ بمصالح حكمه في العراق، لكنّه لم يُعِرْ أيّ انتباه لنصائحهم، وضرب بها عرض الحائط، ومشى إلى الآشوريين وقضى على ثورتهم بالقوة، ودخل بغداد منتصرًا ولم يُبْقِ للآشوريين بعد ذلك اليوم مطلبًا.

قام نوري السعيد بمجهود كبير وسعي متواصل لصدّ الملك غازي عن الاهتمام بالنازية، ولكن جلالته لم يُصْغِ إلى نصائح السعيد، وأخذته صيحة النازية، وامتلأت أفكاره بمبادئها وقوّتها وتفوقها، ممّا اضطر البريطانيين - كما كان يعتقد معظم العراقيين - إلى القضاء عليه بواسطة نوري السعيد، فدبَّروا الأمر مع سائق سيارته فاصطدمت بعمود كهرباء وقضى جلالته نحبه، ولم يصدِّق الكثيرين ما قالته حكومة بغداد عن موت الملك بحادث السيارة وكانوا يعتقدون أنه توفي نتيجة ضربة قوية على رأس جلالته، ودليلهم على ذلك نجاة سائق السيارة الذي كان معرَّضًا للموت أكثر من تعرُّض الملك غازي.

كان يسكن في فندق تايكرس بالاس أثناء إقامتي في مدينة بغداد الأمير عادل أرسلان، وكنا نقضي بعضًا من ساعات الليل في بهو الفندق بعد تناولنا طعام العشاء وكذلك في فترات ما قبل الغداء، وكان حديثنا يدور حول الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان، وكان من المغضوب عليهم من قبل حكومة الانتداب الفرنسي، واستصحبني معه ذات يوم لزيارة الصديق فوزي بك القاوقجي، وكان يقطن في منزل كبير أعدَّته له الحكومة العراقية، يقع على شاطىء دجلة الغربي، فألفينا فوزي يبدي نفوره واشمئزازه من وجوده في بغداد دون عمل، وأول ما بادرنا به بعد السلام، قوله: ماذا تريد مني حكومة العراق يوم أن استدعتني؟ هل تريد أن تريني أو تُطلعني على آثار بغداد ومعالمها؟ أو لتحتفل بي وتكرمني، وتنزلني في هذا القصر الفخم وتقدِّم لي شهي الطعام ونفيسه؟ إني أريد عملًا، ولا أريد ضيافة، إني لا أزال شابًّا في مقتبل العمر وأمامي واجبات نحو قومي وبلادي وأرغب في تحقيق هذه الواجبات والمضي في سبيلها، وإنّ ما حملني على النفور والاشمئزاز هو هذا الحبس، حبس الإكراه. وتكلم كثيرًا ثم سكت وأخذ الأمير عادل يخفِّف من حدته، ويلطِّف من نرفزته، ويُثني على شجاعته وحبِّه لوطنه وقومه.

في أثناء زياراتي المتكررة لفوزي بك القاوقجي، كان مرة في زيارة الأمير زيد النجل الرابع للملك حسين بن علي، من والدته التركية، وكان زيد هادئًا متواضعًا ملمًّا بالقضايا العربية إلمامًا واسعًا عارفًا بما كان يُحاك من مَكرٍ وخبث وخديعة، هكذا بان لي شأنه من حديثه، وكان يُرجى منه خير للقضية العربية لو عُهِدَ إليه بعملٍ يُذكر، ولكن أُهمِل وعُيِّن سفيرًا للعراق لدى الحكومة التركية، فأهمَل العمل في الصالح العربي العام، وانزوى في بلاد أخواله الأتراك.

أثناء تردُّدي إلى البلاط الملكي في بغداد لمحتُ عن بُعد الملك علي بن الشريف حسين خارجًا من القصر الملكي، فقد مكث الملك علي في العراق بعد أن أبعد عن الحجاز حتى توفّاه الله، ولم نسمع له أثناء إقامته في العاصمة العراقية ذِكرًا إلا قليلًا، وبقي قابعًا في قصره يتردَّد أحيانًا على البلاط لزيارة شقيقه الملك فيصل وكأنّه أحد الزوار، يرتدي ملابسه الحجازية من جبة، وقفطان، وعمة، وكان أحيانًا يستبدل العمة بالكوفية والعقال المقصّب. والجدير بالذكر أن الشريف حسين كان قد

تنازل عن المُلك في أواخر أيام حكم الهاشميين في الحجاز إلى ولده الأكبر علي، ولقد قابلت الأمير عبدالإله نجل الملك علي على جسر (مود) [نسبة إلى الجنرال مود الذي استولى على العراق سنة 1335هـ (1917م) في الحرب العالمية الأولى]، وكان الأمير عبدالإله قد تخرَّج في كلية فكتوريا بالإسكندرية، وكان يمشي على مهل بمفرده فحيَّيته، فردَّ التحية، وعرَّفني بنفسه، فغيَّرت وجهة طريقي ومشيت بجانبه بعض الوقت، وأثناء الحديث معه ألقيتُ على مسامعه السؤال الآتي: هل قرَّرتم سموكم أيّ عمل ستقومون به في الحكومة العراقية بعد انتهاء دراستكم؟

فأجاب قائلاً: ذلك ممّا يعلمه الله، إنني لم أقرِّر حتى الآن أن أعمل في الحكومة العراقية، وإن كانت قد أبدت لي رغبتها في تعييني في وزارة الخارجية. لقد كان سموه في ذلك الوقت لم يفكِّر بعد أن يعمل في العراق، ولم يخطر بباله أنه سيكون وصيًّا على عرش العراق، بعد مقتل الملك غازي في انتظار بلوغ الملك فيصل الثاني سن الرشد وكانت بريطانيا قبل ذلك قد استخلصته لنفسها وتعهَّدته وأوحت إلى نوري السعيد أن يحتضنه، فعهد إليه نوري باشا السعيد بعمل في وزارة الخارجية يوم أن كان وزيرًا لها، فكان ذلك أول عمل له في العراق.

كنت أقوم بين فترة وأخرى بزيارة طه باشا الهاشمي في مكتبه بوزارة الدفاع وكان محبًّا للأحاديث العامة، ويتجنّب البحث في القضايا السياسية، وكنت إذا ما وجَّهت إليه سؤالًا فيه ذِكرٌ للسياسة يأتي جوابه مقتضبًا. فقد سألته ذات مرة: وإلى متى ستبقى الحالة كما هي الآن في البلدان العربية، فهل من أمل في فضِّ مشاكلها كلها، والاختلافات القائمة بين ملوكها وأمرائها؟ فأجاب: إن البلدان العربية ستبقى كما هي ما دام الأجنبي له نفوذ فيها، إلى أن يهيِّىء الله لها من أمرها مخرجًا، قال هذا دون أن يزيد كلمة واحدة، ثم غيَّر مجرى الحديث.

كان يجلس في غرفة بجانب الغرفة التي يجلس فيها طه الهاشمي، مستشار بريطاني له الصلاحية التامة في شؤون الجيش العراقي، ولا يمكن لوزير الدفاع أن يقوم بأيِّ عمل إلّا بعد استشارته، كما كان في كل وزارة مستشار بريطاني له الصلاحية التامة في إدارة شؤونها.

بدأت زياراتي للقصر يعتريها بعض الفتور، ولم أعُدْ أجد من رئيس ديوان

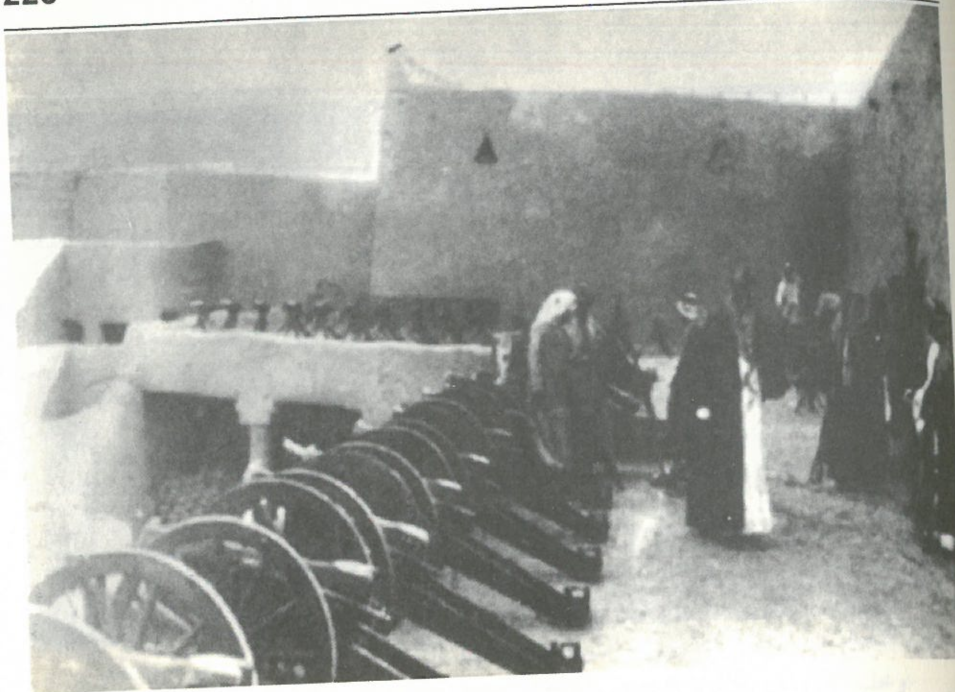
الملك رستم حيدر صدرًا رحبًا كما كان من قبل، وآخر جلسة حظيت بها لدى الملك فيصل بن الحسين كانت في أواخر عام 1351هـ (الشهر الأول من سنة 1933م)، وكان وقتئذٍ نوري السعيد ورستم حيدر يتحدثان في بهو البلاط مع القنصل الأميركي، الذي انتقلَت وظيفته إلى تركيا، وبعدها لم أرَ فيصل بن الحسين إذ توجَّه جلالته لأوروبا للعلاج وكان يشكو من وجعٍ في قلبه.

عيِّن إبراهيم بن معمر وزيرًا مفوضًا للحكومة السعودية في مدينة بغداد، فأكرمني غاية الإكرام، وقدَّم لي مساعدات كبيرة في قضية وقف الرواف، ولكن المحكمة الشرعية في بغداد أهملتها وحجزتها لديها، ولعبت فيها أيادي الأوقاف ففتَرت همَّتي بملاحقتها ويئِستُ من نجاحها، إذ لم أجد وميضًا من الأمل، ولا بارقًا من النجاح يُعيد إليَّ الثقة في المحكمة.

في عصر أحد الأيام حملت إلينا الأنباء خبرًا، اهتزَّ له كل محبٍّ لابن سعود، وهو خبر اعتداء أحد أبناء اليمن عليه رحمه الله أثناء طوافه ببيت الله الحرام، وكان لهذا الخبر وضعه السيىء في نفسي، فأبرقتُ لجلالته مهنِّئًا على سلامته من هذا الاعتداء الشنيع، وقد استلمتُ من جلالته برقيَّتَي شكرٍ، إحداهما وردت بخطأ مطبعي باسم خليف الرواف، والثانية باسمي الصحيح خليل الرواف، وغادرت بغداد إلى الحجاز لتهنئة جلالة الملك على سلامته، بعد أن أخبرت المحامي بهجت زينل بسفري هذا.

مكثت ثلاثة أيام في أم القرى، وأخذت برقية من بهجت زينل يدعوني فيها للحضور إلى بغداد، ورجعت إليها وأخبرني المحامي زينل أن المحكمة ستُدلي بحكمها ضدّنا والأحسن أن تؤجَّل الجلسة إلى ما بعد أشهر الصيف فعسى أن نجد في هذه الفرصة طريقًا ممهدًا نتبعه، وعسى أن يكون الملك فيصل تماثَل للشفاء وعادَ إلى العراق، فلتُعرض عليه مجريات القضية، وعساه أن يجد لنا مخرجًا في قضيتنا يكون لصالحنا، كان جلالة الملك فيصل آنذاك لم يزل في سويسرا يتلقى العلاج. وبعد أيام قلائل قضى نحبه هناك ونودي بولده غازي ملكًا على العراق فأصابني اليأس من نجاح مهّمتي، فالملك فيصل رحمه الله الذي كنت أجد منه كل مساعدة معنوية انتقل إلى رحمة الله.

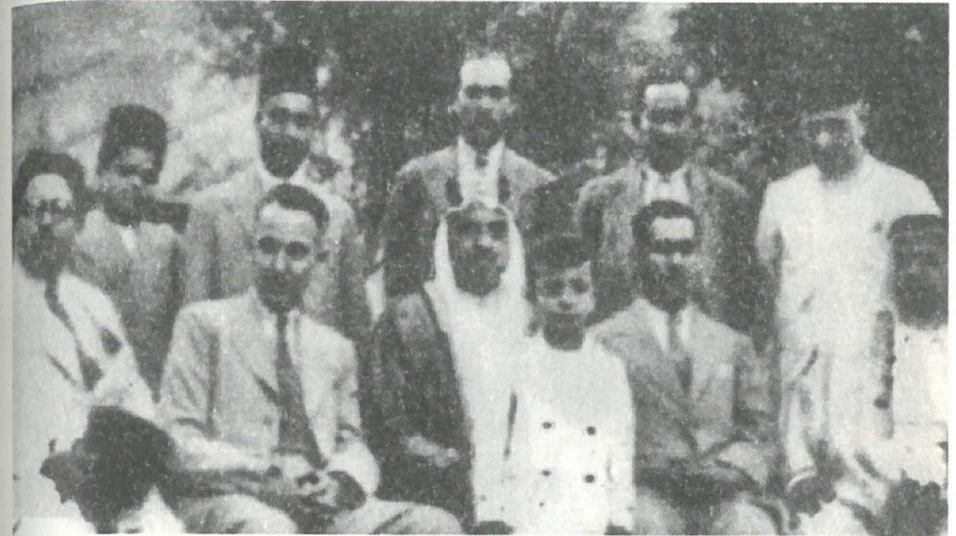
عندها تحقَّق لديَّ أنّ قضية الوقف لن تنتهي ذلك العام، ولن ننجح في تلك الظروف وهذا ما لمسته ممّن كانوا على صلة بمديرية الأوقاف، ومن رجال المحكمة الذين يفضلون إرجاع الحق إلى أهله وحتى من المحامين أنفسهم، فقد أبدوا لي نصحهم في أن أترك القضية، لوقت يكون أكثر مواءمة، ولكن لم يكن لنا حظٌّ في تحصيل هذا الوقف أبدًا، فلقد تابع شقيقي محمد عيد، الذي أصبح بعد ذلك وزيرًا مفوَّضًا للسعودية في العراق خلفًا للشيخ إبراهيم بن معمر، الذي عُيِّن في منصب قائم مقام جدة، تابع مسألة الوقف وخضعت المحكمة العراقية لنفوذ مديرية الأوقات العراقية ولم تحكم لصالحنا، وخسرنا القضية ولكن المحكمة أسقطت عنّا دفع تكاليف الدعوى.



الملك عبد العزيز أمام المدافع في قصر الحكم بالرياض



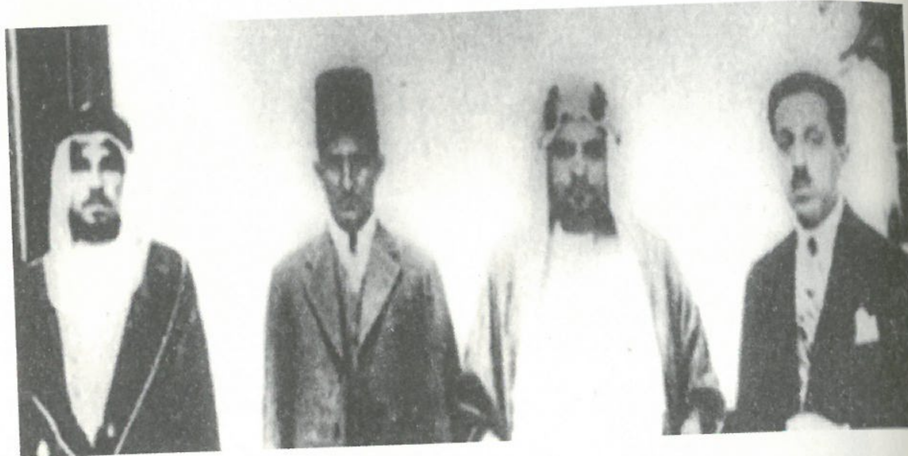
شقيق المؤلف محمد عيد الرواف مع أمين الريحاني في لبنان



محمد عيد الرواف القنصل العام في سوريا ولبنان
وولده رياض والأستاذ شاهر سمان - دمشق 1930م



ياسين الرواف مع الشيخ بهجت الأثري والشيخ علي الطنطاوي
والشيخ محمد بهجت البيطار والشاعر عز الدين التنوخي 1937م



الشيخ عبد العزيز القصيبي والشيخ محمد عيد الرواف، القنصل العام في سوريا،
وخليل الرواف وسعيد الرشاش، سكرتير القنصلية السعودية في دمشق عام 1932م



في بغداد بحضور عدد من رجالات العراق، ومن بين الضيوف الزعيم الفلسطيني أمين الحسيني
وعلوي باشا وخليل الرواف والواقف على يمين الصورة الشيخ محمد بهجت، عام 1932م



المؤلف أثناء تعطل الطائرة التي أقلته من بغداد إلى بيروت 1933م مع زوجته الأميركية الأولى



المؤلف أثناء اشتراكه في فيلم «آي كفرذا وور» 1937م



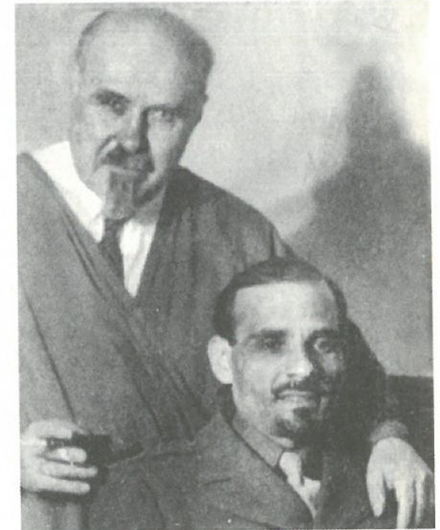
المؤلف عام 1941م



المؤلف في فلوريدا ممتطياً الفرس (راشو) في المعرض العام للخيول العربية الذي أقيم في نيويورك وقد شاركت الخيول البريطانية والفرنسية والمكسيكية



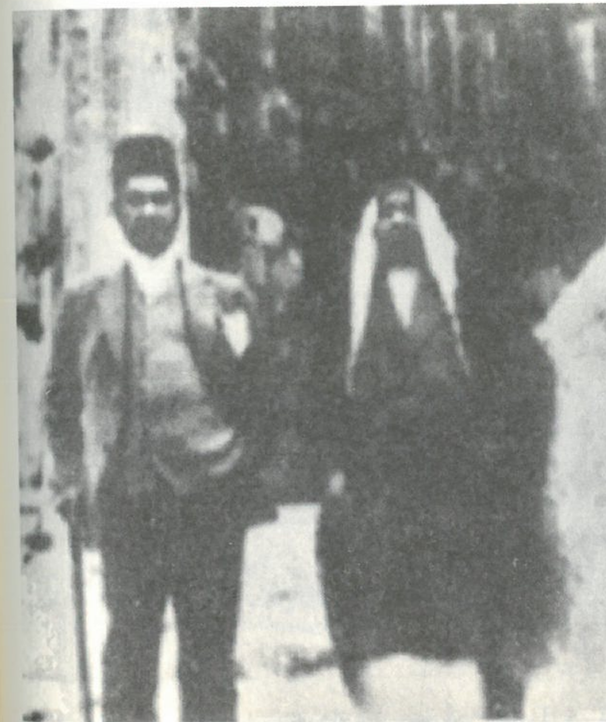
المؤلف في معرض للخيول في نيويورك



المؤلف، الجندي في الجيش الأميركي مع الدكتور أبي علي خير الله 1942م



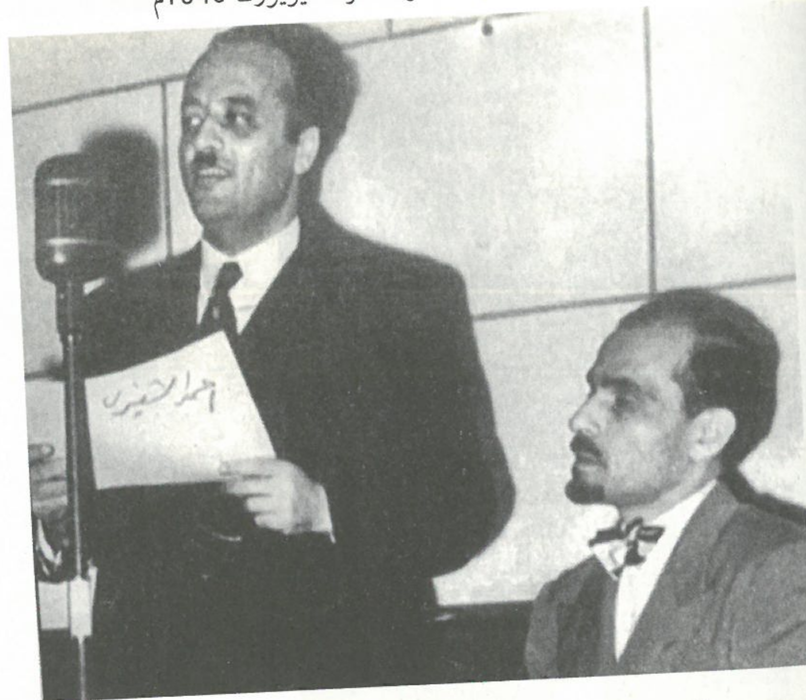
المؤلف في روما 1934م



محمد عيدالرواف القنصل العام في سوريا ولبنان مع الشيخ عبدالرحمن القصيبي



المؤلف وعلى يمينه أحد الفلسطينيين ثم إبراهيم السليمان ثم سكرتير جمعية الشبان المسلمين ضاهر شاهر - نيويورك 1943م



المؤلف مع أحمد الشقيري في إحدى الحفلات التي أقيمت في نيويورك 1946م



عبد الحي عامر وأمين أبو الذهب، اجتمع بهما المؤلف في سان فرانسيسكو عام 1946م وعند انتقال المؤلف إلى نيويورك أقام هو وعبد الحي عامر في ڤيلا في هليود.



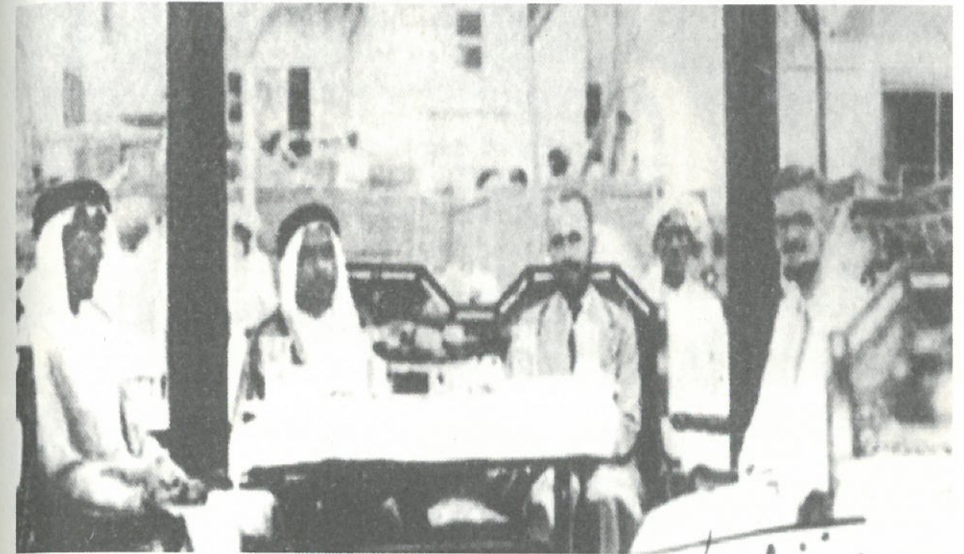
السفير المصري في واشنطن محمود حسن باشا مع قرينته 1940م. وكان من خيرة السفراء حيث كان يتنقل بين الولايات المتحدة يلقي خطباً يدافع فيها عن مصر وعن العرب والمسلمين.



شقيق المؤلف محمد عيد بن إبراهيم الرواف.



الملك فيصل أثناء زيارته لفرنسا



شقيق المؤلف محمد عيد الرواف، قائم مقام جدة مع مساعده - جدة 1935م



محمد عيد الرواف قائم مقام جدة - أواخر الثلاثينيات.



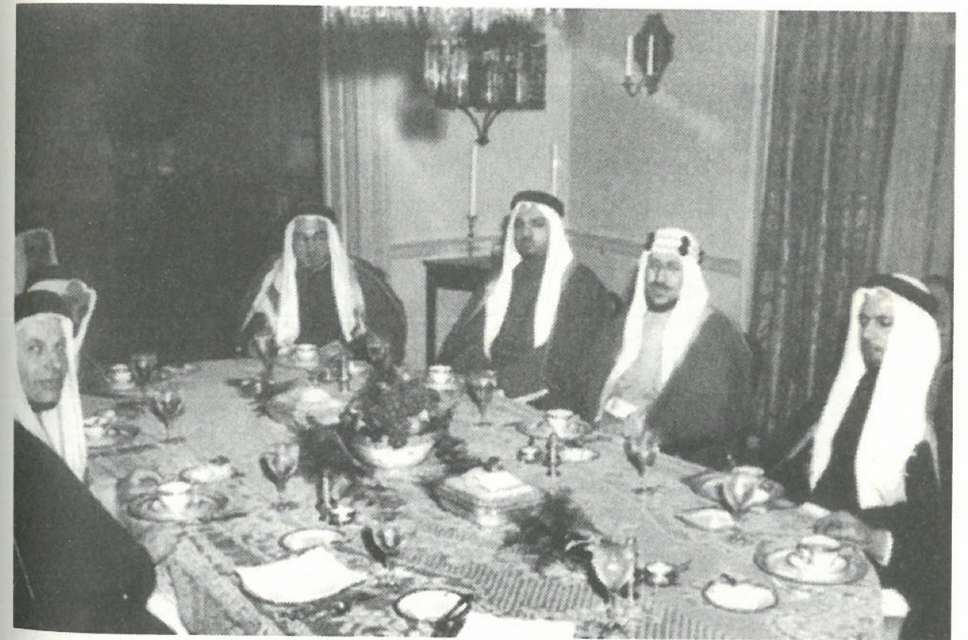
أمير البحرين مع خير الدين الزركلي في المفوضية السعودية بالقاهرة.



جلوساً من اليمين السليمان، وفي اليسار عبدالله الفضل
والوقوف الأول يمين مرزوق بن ريحان والرابع رشدي ملحس



الأمراء خالد وبدر بن عبدالعزيز وعبدالله بن محمد بن عبدالرحمن وطلال بن عبد العزيز



الأمير سعود بن عبدالعزيز وعلى يمينه الشيخ علي رضا زينل ورشاد فرعون والمؤلف
ويقابله فؤاد حمزة وسليمان الحمد السليمان - السفارة السعودية في واشنطن 1927م



الأمير سعود بن عبد العزيز وعن يساره اسعد الفقيه
ثم طبيبه الخاص ثم المؤلف. السفارة السعودية في واشنطن 1947م



الأمير سعود بن عبدالعزيز وعن يساره السفير السعودي أسعد الفقيه وطبيبه ثم المؤلف، وعن
يمينه فؤاد حمزة وفي الصف الثاني من الصورة يبدو سليمان الحمد
- واشنطن - مقر السفارة السعودية 1947م



المؤلف وعن يمينه السيد عظوم من مدينة كليفلاند أوهايو
وعن يساره محيي الدين من أبناء لبنان المهاجرين في أميركا 1947م



المؤلف مع الأمير نواف بن عبدالعزيز عندما كان قائداً للحرس الملكي - 1949م

الجزء الثاني

الهجرة إلى الولايات المتحدة الأميركية

الفصل التاسع

لقاء في بغداد وزواج في دمشق

لقد أمضيت من حياتي في بغداد ثلاث سنوات كاملة 1349 - 1352هـ (1930 - 1933م)، حاولت خلالها استرجاع وقف الرواف في مدينة الرشيد، وكنت أغادر العراق بين الحين والآخر في زيارات قصيرة لدمشق وعمان ومعان والقاهرة ومكة والمدينة.

لم يكن يخطر ببالي ولا حتى في الحلم وأنا مشغول بملاحقة الوقف أنَّ حياتي سوف تنتقل بعد بغداد إلى الولايات المتحدة الأميركية، ولكن هذا ما تمَّ فعلًا، فلقد التقيت بسيدة أميركية في بغداد وقدَّر لي الله سبحانه وتعالى الزواج منها ورافقتها إلى الولايات المتحدة كما سوف أحكي للقارىء الكريم.

لم أكن أعرف شيئًا عن أميركا إلّا من خلال بعض الروايات التي تتحدث عن عظمتها وثروتها الكبيرة. وخلال السنة الثانية لإقامتي في بغداد قابلت أحد اللبنانيين المهاجرين إلى أميركا. فلقد حلَّ في فندق تايكرس بالاس رجل جسيم البنية، فارع الطول، حسن المنظر وبعد أن قيَّد اسمه في سجل الزائرين توجه إلى صالة الاستقبال حيث كنت جالسًا فبادرني بالسلام والابتسامة تملأ فمه، وذكر اسمه أبو علي خير الله، وفهمت منه أنه قادم من أميركا وأنه من مواطنيها، وأخذ يخبرني عنها وعن أهلها وتجارتها الواسعة، واحترامها للغرباء، وعن عظمتها ومعيشتها وأعطاني عنوانه في مدينة نيويورك قائلًا: إذا قُدِّر لك زيارة أميركا فأرجو الاتِّصال بي، وأخذنا نتحدّث عن البلدان العربية، خاصة عن المملكة العربية السعودية فأنِسْتُ بصحبته طيلة إقامتنا في هذا الفندق حيث كان يسكن في الغرفة المجاورة لغرفتي.

لم أكن أعلم أنني سأقابل هذا الرجل ثانية في نيويورك بعد سنة ونصف فقط،

فلقد كانت البلدان الأميركية بعيدة كل البعد عن تفكيري وقتئذٍ، ولم يخطر ببالي أو يداعب خيالي في ذلك الوقت زيارة أميركا، وبعد أيام توجّهنا معًا إلى دمشق وواصل هو سفره إلى بيروت حيث كانت تقف إحدى البواخر في مينائها فتنقله إلى نيويورك. وفي أوائل فصل الشتاء كان يَفِدُ إلى الأمصار العربية جماعات من كافة أنحاء العالم يتمتعون بجودة طقسها ومناخها، وشمسها الدافئة، وهوائها المنعش اللطيف، يدرسون معالمها، ويشاهدون آثارها، ويقفون على عادات وطبائع أهلها وأخلاقهم، وكان منهم الكتبة ومراسلو الصحف وحملة الأقلام، يدوّنون ما يرونه في هذه الأقطار التي يمرّون بها، والقليل منهم يسجّل ملاحظاته دون تحريف أو تغيير أو تبديل، ومنهم ذوو الأغراض وأصحاب المصالح الشخصية، كانوا يمرّون بالبلاد مرور السحاب، فيكتبون ما شاءت لهم أهواؤهم وأَمْلَته عليهم ميولهم، فيتقوّلون الأقاويل الكاذبة وينشرونها في صحف بلادهم وغير بلادهم، ومنهم من كانت تستأجره دور النشر، وكانت هذه الدور تكتب المقالات عن البلدان العربية، وتعدُّها للنشر قبل أن ترسل عملاءها لهذه الأقطار، حتى إذا عادوا من طوافهم نشرت بتوقيعاتهم ما كانت دوَّنته من قبل، دون أن يضيفوا معلومات هؤلاء العملاء، وما رأوه في هذه الأقطار، كلّ ذلك لتشويه الحقائق، وتبلبل الأفكار عن البلاد الإسلامية والعربية.

أخبرني مدير فندق تياكرس بلاس وقد توطَّدت بيني وبينه صداقة متينة، طيلة إقامتي في مدينة بغداد، إنه رجل آشوري من آشوريي العراق طوى الواحدة والسبعين من سني حياته، وتغيَّرت نضارة وجهه، على جانبيه تجاعيد تشبه تجاعيد رمال صحرائنا العربية، ولكن ابتسامته التي ما زالت ملازمة له لم تتبدّل سواء في سروره أو في حزنه.

لقد أخبرني أحد موظفي الفندق أنه رجلٍ صادق الرجولة، وقد لمست منه أثناء وجودي في بغداد، ميلًا ظاهرًا، واحترامًا زائدًا للعرب، وكان له اطّلاع واسع على تاريخهم، وكان يسرد لي الوقائع الفاصلة بين العرب وبين الروم والفرس، حتى تمّ للعرب النصر عليهم. ويحدِّثني عن مشاهير قوّادهم ونبلهم ومروءتهم، وعن الصليبيين الذين طردهم صلاح الدين الكردي الأصل، والمسلم الحقيقي، من بيت المقدس.

عرَّفني مدير الفندق، بأناس من هؤلاء الصحفيين، وبيَّن لي أسباب قيامهم بهذه الرحلات وأسماء الجرائد والمجلات التي كانت تنتدبهم للقيام بمثل هذه الرحلات.

قدَّمني إلى رجل يدعى مستر بلاك، قال لي إنه صحفي له اتّصالات مع هيئات التنصير وهو يزور العراق والبلدان العربية مرة أو مرتين كل عام، وأردف قائلًا: أحببتُ إطلاعك على أعمال هؤلاء الأشرار الذين يضمرون الحقد والكراهية للعرب والمسلمين، وإنّك شاب في مقتبل العمر، وأمامك حياة حافلة بالخير والشر، وبلادك قادمة على عهد جديد بزعامة الملك البطل عبد العزيز، فلا تدَعوا مثل هؤلاء الأشرار تطأ أقدامهم بلادكم، فإنهم شرٌّ ووبال على البلدان التي يفدون إليها، فشكرته على نصائحه ومعلوماته.

بعد أسبوع مضى على حديثه معي طرق باب غرفتي ثانية، وأخبرني قائلًا: إن سيدة أميركية، رأتك الليلة الماضية في غرفة الطعام، واستفسرت مني عن شخصيتك ومن تكون وهي ترغب في التعرُّف إليك، وهي الآن في بهو الفندق تنتظرك، فهل تحبّ التعرف إليها؟ قلت: مَن تكون هي؟ هل هي صحفية كمستر بلاك، الذي عرَّفتني به منذ أيام؟ فأجاب بنعم وبِلا، إنها كاتبة كمستر بلاك ولكنها تختلف عنه بكتابتها وأخبارها اختلافًا كبيرًا، إنها تنشر ما تكتبه عن رحلاتها وما تشاهده أثناء هذه الرحلات بتوقيع مستعار، وتقوم بهذا العمل لتشبع رغبتها، ولتقضي وقت زيارتها في بلدان العالم دون ملل، وزيادة في معلوماتك، زارتنا هذه السيدة في العام الماضي ومكثت في هذا الفندق ثلاثة أيام، وهي الآن قادمة من الهند في طريقها إلى القاهرة، ثم إلى ألمانيا، لتأخذ المنطاد (زبلن) إلى الولايات المتحدة الأميركية، فقلت: لا مانع عندي، ورجوته أن يقدِّم لها شكري، وإذا لم يكن لديها مانع، فسأدعوها غدًا لتناول طعام الغداء، وطلبتُ منه أن يكون ثالثنا ليقوم بالترجمة، وقلتُ له: احرص على أن تكون مائدة الطعام بمكان منزوٍ عن الأنظار، فقال: لا يكون لك فكر من هذا القبيل، وسيكون غداؤكما على نفقة الفندق، هذا إذا كان ذلك لا يسوءك، فقلت أرجو أن تقدِّم لها عذري عن عدم تمكُّني من الاجتماع بها هذا اليوم، إذ إنني مشغول بالكتابة إلى رجل أقدِّره حق قدره.

أثناء الغداء، فهمت من السيدة أنها ستغادر بغداد في اليوم التالي إلى القاهرة، ووجّهت لي بعض أسئلة تتعلق بالمملكة العربية السعودية، عن مُنشئها الملك عبد العزيز الذي قرأت عنه كثيرًا، وتحدّثنا قليلًا عن الولايات المتحدة خاصة عن مدينة نيويورك ثم استأذنت، وانصرفت، بعد أن ناولتني بطاقة تحمل اسمها وعنوانها في أميركا. كانت سيدة محترمة، متواضعة، بسيطة الملبس، في أوائل العقد الرابع، ما تزال تحتفظ بجمالها الطبيعي الهادىء ولقد تعرّفت على هذه السيدة في السنة الثالثة من إقامتي في بغداد، ولقد كان أملي في تحصيل وقف الرواف يتضاءل في ذلك الوقت بعد أن أدركت المصاعب التي كانت تعترضني بسبب موقف مديرية الأوقاف العراقية.

في اليوم الرابع من مغادرتها بغداد، وصلتني رسالة منها تذكُر فيها بعض ميل نحوي وتتمنى أن تكون بجانبي طيلة حياتها - لقد كانت الرسالة مكتوبة باللغة الإنجليزية وطلبتُ من مدير الفندق أن يقوم بترجمتها - ولم أرَ بُدًّا من إجابتها، فشكرتُ لها حُسن ظنِّها، ورجوتُ لها رحلة سعيدة، وسفرًا ميمونًا ممتعًا، وكنت أرغب أن أقف عند هذا، ولكنني جاريتها أمانيها وميولها، وشطَّ بي القلم فذهبتُ أكثر من هذا، وأوضحتُ لها شيئًا عن تآلف القلوب، وتقارب الأفكار، لقد كتبت لها بالعربية وكنت متيقنًا بأنها ستجد من يُترجم رسالتي لها، وتسلّمت إثر هذا برقية منها تقول فيها: بعد خمسة وأربعين يومًا أكون في بغداد فانتظرني، وجاء رفقتها حوالة مالية.

بعدها أخذت ترِدُني رسائلها تِباعًا، وفي كل منها حوالة مالية.

ومكثتُ عشرين يومًا وكأنني في دوامة من الأفكار المتضاربة لا أدري ماذا أفعل معها، ففي الأيام العشرين التي خلت إثر مغادرتها إلى القاهرة وردني منها خمس رسائل عبّرت فيها عن تلهُّفها للعودة إلى بغداد ومع انعدام خبرتي في هذه المسائل فلقد ازدادت حيرتي وأخذَت الهواجس والأفكار المشوشة تنتابني مع كثير من القلق وكنت أخاطب نفسي قائلًا: هل أكتب لها أبين أن ظروفًا قاهرة اضطرّتني للسفر وأرجوها التوقُّف عن الكتابة إليّ؟ وأخبرها أن حكومتي عهدت إليّ بعمل في مكة البلد المحظور دخوله على الأوروبيين والأميركيين، من غير المسلمين، أو

أغادر بغداد دون أن أترك عنواني في الفندق، حتى إذا قدِمَت إلى بغداد لن تدري أين أنا؟ كل هذا، لا، بل أكثر منه كان يتردّد في خاطري ويشغل أفكاري.

عزمت على مغادرة العراق إلى غير رجعة، لكن القدر عزم على غير ذلك، وقدر لي اللقاء بها ثانية، فقد عادت إلى بغداد وأنا على نيّة مغادرتها ولقيتها دون موعد محدد. وكانت تجيد اللغة الفرنسية، التي كان لي بعض الإلمام بمفرداتها مع بعض الجمل والكلمات العربية التي كانت تلم إلمامًا ضئيلًا بها، ولم أجد صعوبة تُذكر في التفاهم معها، وكانت عند وعدها وحضرت إلى بغداد كما ذكرت في برقيتها.

في الأيام القليلة السابقة التي قضيناها معًا في بغداد، لمست هذه السيدة اضطرابي وتبرمي وتشاؤمي من الحياة التي كنتُ أعيش في غمراتها، من تأجيل قضية الوقف، لوقت يكون أفضل من الزمن الذي نحن فيه، فأخذَت تخفِّف عني هموم الحياة، وتبيِّن لي من طرفٍ خفيّ، أن لديها من الأموال ما يحملني على عدم التفكير بالمستقبل، وقالت: سأكون عند حسن ظنك، وسأحقق جميع مطالبك، ممّا يجعلك تعيش عيشة مُرضية، فشكَرْتها، وذهب كلٌ منا لغرفته.

في اليوم الثاني، فاتحني مدير الفندق، بما كانت تُضمره نحوي من الإخلاص والمحبة وأنها ترغب في أن أرافقها في السفر إلى الولايات المتحدة الأميركية، وقال لأجل تسهيل سفرك، ودخولك إلى أميركا دون مشقّة أو معارضة من الحكومة الأميركية، لا بدّ لك أن تعقد قرانك على هذه السيدة، وبإمكانك إذا رغبت أن تنفصل عنها عند بلوغك أول مدينة من المدن الأميركية، إني أنقل لك هذا عن لسانها، وأردَف قائلًا: إنك تعلم مقدار نصحي واحترامي لشخصك، والذي أراه لك، أن تنزل عند رغبتها، إنها سيدة محترمة، تعلّقت بك، إنك تعلم مقدار معزّتك عندي، فخُذْ نصيحتي كأبٍ يريد لك الخير، وفكِّر بالأمر مليًّا، ثم تركني وانصرف.

عدتُ إلى نفسي أسائلها: هل ينتهي بي المطاف بالهجرة إلى أميركا؟ وكيف سأتزوج امرأة أجنبية؟ وهل أستطيع أن أترك حياتي في الدول العربية وما وقفت عليها من خير وصلاح؟ حياتي التي عشتها في طيات الأحداث والمغامرات والتجارة والجهد والجهاد؟

إذ ليس من السهل على المرء أن يغيِّر مجرى حياته وعاداته بين يوم وآخر، خاصة مَن بلغ من السنين مقدار ما بلغت، فقد كنتُ قد طويت الخامسة والثلاثين من العمر ومع هذا فقد اتَّبعت إرشادات المدير وأخذتُ أفكِّر في الأمر، وأقلِّبه على كافة أوجهه لعلَّني أجد مخرجًا، أو بارقة أمل تنقذني ممّا أنا فيه، سواء في تردُّدي بالاقتران بها، أو عزيمتي على الاقتران بها، وأخذت أعدِّد الفوارق بيننا عساها تقف حجر عثرة بيننا فتنقذني ممّا أنا فيه. فمن جهة تفاوت العمر، فهي كانت تكبرني بحوالي سبعة أعوام، أما العادات والطبائع فهي غربية وأنا شرقي، فالغرب غرب والشرق شرق، ولن يجتمعا، إنني لم أدرس حقيقتها درسًا وافيًا، ولم أتمكن من تبادل الودِّ الحقيقي بيننا.

أمّا من جهتي الخاصة، فإن مركزي واختلاطي مع كثير من الخلق، يخوِّلاني أن أعيش عيشة مُرضية، إنني لا أزال في مقتبل العمر، وأمامي مستقبل زاخر في بلادي، ولكني لا أعلم ما يفاجئني به الدهر من الخير أو الشر في البلدان الأجنبية، وينقصني فهم اللغة التي يتخاطبون بها، ولا أعلم شيئًا عن ميول أهلها وعاداتهم وطبائعهم وأخلاقهم، وكلّ ما أعلمه عنهم أنهم يعيشون عيشة يسر ورخاء، وأن بلادهم عظيمة، وتربتها غنية، وأن كثيرًا من أبناء العرب هاجروا إليها، واتَّخذوها مقرًّا لهم ومقامًا، ومن جهة أخرى كنت أتخيل نفسي ونحن نسير في قارعة الطريق، ترمقنا الأنظار وتتخطفنا الأبصار وتلوك حديثنا الألسن، فمن ناقد، ومن مستهزئ، وأهم من هذا كله ما كان يتردَّد بخاطري، وما يخامرني من شعور فيّاض، نحو مَن كنت أؤمهم في المساجد، وأتحدّث إليهم عن المواضيع الدينية وأحدِّثهم على التمسُّك بعقائدهم وبأخلاق مَن درجوا من آبائهم وأجدادهم.

بهذا كله، بل بأكثر منه كنت مكبًّا على نفسي أناجيها طيلة يومين اثنين، فحينًا أجد ميلًا ظاهرًا إلى الرضوخ لمطالب السيدة في الاقتران بها، وتحقيق رغبتها، وأحيانًا كانت تحول بيني وبينها شيمتي وكرامتي وإبائي.

عزمت على أن لا أحقِّق طلبها، وكان وقت الظهيرة قد حان فوجَّهت وجهي لله عزَّ وجلّ أستنجده في أمري ليجعل لي منه خيرًا ويسرًا، وذهبت لمدير الفندق،

وأخبرته أن يقدِّم للسيدة فرانسيس جزيل شكري وامتناني على ما لمسته منها في المدَّة التي تعرَّفت بها من المودة والظرف واللطف والإنسانية، وإنني أقدِّر عاطفتها نحوي، وبيَّنت له الأسباب التي تقف في طريقي وتحول دون تحقيق رغبتها في الاقتران بها. وكنت أرتقب منها بعد هذا الذي قلته أن تبدي اشمئزازها، وتُظهِر لي استياءها لرفضي الاقتران بها، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، لقد كانت أنبل وأشرف من ذلك، لقد أظهرت لي بعد ذلك مودّتها، وباحت لي بحبها، وبما يكنّه ضميرها من الودّ والإخلاص.

ثم غادرت بغداد إلى أوروبا، وتركت لي رسالة جاء فيها: إنني لم أيأس بعد من قُربِك، برغم ما أبديته نحوي، وأبعدت روحك عني، فعسى الأيام المقبلة تعرف فيها مقدار حبي ومودتي لك وإخلاصي، وكتبت عنوانها في روما ورجتني أن أواصلها.

إنني وإن كنت قد أصابني بعض الحزن عند مغادرتها وشعرت بفراغ في نفسي، لفراقها فقد تنشقت نسمات الحرية، وعزمت على السفر إلى دمشق، ولكن الوزير المفوض السعودي إبراهيم بن معمر، أشار عليَّ أن أبقى في بغداد بعض الوقت، وأنه سيكتب لجلالة الملك ويطلب منه أن يعهد إلي بعمل في المفوضية السعودية وأنه بحاجة إلى رجل مثلي يساعده فيما كان مهتمًّا به، وقال: أعتقد أنك ستقوم بهذا العمل خير قيام لِما لمسته منكم من همّة ونشاط، فقلت له: وما هذا العمل؟ فقال: ستعرفه فيما بعد، فامتثلتُ لقوله، وانتظرت في بغداد، وعلمت فيما بعد من شقيقي محمد عيد بأنني كنت أحد المرشحين لمنصب الوزير المفوّض في السفارة السعودية في العراق، وأخذَت تَرِدني رسائلها تباعًا، وأزعجني أمرها، ومكثت عشرين يومًا، وكأنني في دوامة من الأفكار المتضاربة. وفي صباح أحد الأيام أعطاني مدير الفندق رسالة قائلًا: إنها من فرانسيس، تقول فيها إنها ستصل بعد عشرة أيام من تاريخ هذا الكتاب.

سرعان ما انطوت الأيام، وإن كنت أعتبرها طويلة ومرهقة بالنسبة إليّ، وجلستُ صبيحة أحد الأيام، في بهو الفندق، أرتقب زيارة صديقي الشيخ إبراهيم ابن معمر، وتحدثنا بعض الوقت ثم أنهى الزيارة، فودّعته حتى بلغتُ معه باب الفندق الخارجي، وإذا بي وجهًا لوجه أمام فرانسيس وبصحبتها شابة أجنبية أدركتُ

أنها ابنتها كارولين التي حدَّثتني عنها في السابق كثيرًا، وبادرتني بقولها: كيف حالك، هل نجحت قضية وقفكم؟ قالت ذلك بلغة عربية ركيكة، فقدَّمتها للشيخ إبراهيم الذي تجاذَب معها أطراف الحديث لبضع دقائق ثم ودَّعنا وانصرف وتوجَّهنا نحن إلى مكتب الاستعلامات، وقيَّدت اسمها.

في عصر ذلك اليوم، دخل مدير الفندق إلى غرفتي والابتسامة تملأ فمه، وأخذ يتلو عليَّ بعض النصائح فتقبَّلتها منه، ولمّا انتهى من إبداء نصائحه قال: إن السيدة لها رغبة أكيدة في التقرُّب منك، ولاحظتُ أنّك تصدّها، فإذا كنت تريد المال فإنها على أتمِّ استعداد للتنازل لك عن قسم من ثروتها، وكانت طيلة هذه المدّة مضطربة الأعصاب، فأمَل موافقتك على عقد قرانكما، فأجبته بقولي: إني أشكرك على نصائحك، وأرجو تقديم شكري للسيدة على نبل عواطفها، ولم يمنعني من الاقتران بها غير ما أخبرتك به سابقًا، وأما المال، فأرجو ألّا يُقحَم في هذه المسألة غير السهلة، فلتحافظ على أموالها، فإني لست بحاجة إليها، ولكنني سوف أفكِّر جديًّا بموضوع الزواج منها وسوف أعلمك عن موقفي النهائي في الغد إن شاء الله.

لم تغمض لي عين طيلة تلك الليلة، أفكر في الأمر ثم أفكر، وفي صباح اليوم التالي وكَّلت أمري لله وقرَّرت الاقتران بها. ولم أكن أدري سبب هذا القرار، هل لأنني سئمت حياة العزوبية؟ أم لأنني مغامر أحببت المغامرة والأسفار ومعرفة المجهول أكثر من أي شيء آخر؟ لقد قرَّرت أن ألِجَ سُبل هذه التجربة القاسية، كما كان ظنّي بها، والتي لم أجد عنها مناصًا أو تحويلًا.

في ذلك الصباح نفسه، غادرتُ غرفتي وجلستُ في بهو الفندق أنتظر قدوم فرانسيس، فما أن استقر بي الجلوس حتى قَدِمت وتوجَّهت نحوي وجلست بجانبي قائلة بعد أن بادرتني بالتحية: بماذا كنت تفكر قبل قدومي إليك؟ فأجبتها: يسعدني تحقيق رغبتك فلقد قررت الاقتران بك.

شعرت بالسعادة تغمر عينيها، وجلسنا سويًّا على مقعدين كانا في بهو الفندق، وأظهرت دفتر الشيكات من حقيبتها، ودوَّنت به ما دوّنت وقدَّمته إليَّ قائلة: هذه هدية مني إليك، فامتنعت عن أخذه، قائلًا: لا رغبة لي في المال، وكان سبب

اقتراني بك لا لأجل المادة، بل هو لتقارب ميولنا، واتّحاد أفكارنا، وتعارف قلوبنا، فأجابتني بقولها: إني متحيرة في أمرك بالأمس استغنيت عن قسم من ثروتي، وها أنت ذا، لا تقبل شيئًا أقدِّمه لك كهدية، احترامًا لك وتقديرًا مني، وأرجو ألّا يكون لديك مانع إذا قمت بمصروف الطريق حتى نصل إلى نيويورك، فابتسمتُ وشكرتها، وكانت ابتسامتي لِما كنت أعلمه وتعلمه هي أيضًا، على أن ليس باستطاعتي أن أقوم بنفقات السفر كله بمفردي.

في الصباح الباكر من اليوم الثاني غادرنا بغداد نريد دمشق لنتوجّه منها إلى بيروت وذلك بعدما ودَّعت أصدقائي ومعارفي في بغداد وكان أولهم الشيخ إبراهيم ابن معمر ومنهم محمد بهجت الأثري وآل الراوي والمحامي بهجت زينل وعمي قاسم الرواف وعلي الكحيمي والد السفير عبد العزيز الكحيمي، ونوري فتاح، وفوزي القاوقجي والأمير عادل أرسلان وكنا أنا وفرانسيس قد ودَّعنا قبل أربعة أيام ابنتها كارولين التي سافرت بالطائرة إلى روما.

غادرت بغداد بصحبة فرانسيس بالطائرة إلى بيروت وكانت هذه أول مرة أركب فيها الطائرة ولا أخفي على القارىء أنني شعرت ببعض الخوف ينتاب قلبي، فركوب الطائرة لم يكن مثل ركوب الجمال والسيارات التي اعتدت عليها، وأثناء رحلتنا تعطَّلت الطائرة واضطرّ قائدها للهبوط بمطار الرطبة على الحدود العراقية السورية، وانتظرنا بالمطار نحن وبقية ركاب الطائرة الخمسة عشر، وبعد بضع ساعات قَدِمَ في طائرة خاصة عدد من المهندسين والفنيين وأصلحوا طائرتنا، ثم تابعنا رحلتنا الجوية إلى بيروت وبعد وصولنا إليها استأجرنا سيارة لنقلنا إلى دمشق. وبعد عدة أيام عدنا إلى بيروت ورافقنا السيد سعيد الرشاش سكرتير القنصلية السعودية في دمشق، وتوجَّهنا إلى السفارة الأميركية فاستقبلنا السفير الأميركي استقبالًا طيبًا، وبارك لنا فيما عزمنا عليه من عقد القران، وقد فاتحت فرانسيس السفير أننا سنغادر الشرق إلى الولايات المتحدة عما قريب فتمنى لنا السلامة في الحِلِّ والترحال، ثم عدنا إلى دمشق وفيها تمّ عقد قراننا في دار شقيقي ياسين، وبحضور شقيقي الأكبر محمد عيد مع عدد من الأقارب والأصدقاء.

أقمنا في دمشق بضعة أشهر في منزلٍ استأجرته في الصالحية خلف المستشفى

الإيطالي قبل أن نغادرها إلى أوروبا لقضاء شهر واحد، ثم نعود إلى دمشق ونتهيأ لمغادرتها إلى الولايات المتحدة الأميركية، كنا نقضي أيام هذه الأشهر متنقلين في متنزهات دمشق ودور آثارها، ومعالمها، وكنا مرارًا نقضي بعض الوقت في مرتفعات جبل قاسيون، نمتع أنظارنا بمناظر الغوطة الخلّابة، فنرى تلك الخضرة الداكنة التي هي ذوائب لأشجارها، ومنارات جوامع دمشق الشاهقة ومساكنها الهادئة، والآخذة في الصعود على سفح قاسيون واحتلال روابيه، ونقلتنا خطانا إلى ما حول دمشق من القرى ومواقع المتنزهات فوقفنا في الربوة، وعين الخضراء، وعين الفيجة، وبلودان، وفي متنزهات دُمّر والهامة، أشجار الحور والصفصاف المنتشرة في أرجائها، في ذلك الوقت الجميل البديع، ووادي بردى ومنظر أشجاره الصغيرة الدائرة حولها، إن منظرها يوحي إليّ بأنها كعائلة مجتمعة تمثّل الأمهات والأحفاد والأولاد، إن أوراقها المختلفة الألوان هذا أخضر والآخر أبيض إنها تهتز طربًا عندما يداعبها النسيم فيماثل اهتزازها قلوب العاشقين، إن الأصوات التي يبعثها حفيف أوراقها لَكثيرُ الشَّبه بالأنين الذي يصدره من تخلى عنه حبيبه وهجره بلا ذنب اقترفه، إن الكثير من الأشجار والكثير من المخلوقات تحاكي في وجودها وطبيعتها وجود الإنسان، تحاكيه في نموها، وزهوها وكبريائها، حتى إذا جاء الخريف برياحه، وزوابعه، وأخذ يعبث في أغصان الأشجار ويهزها هزًّا عنيفًا، فيجرِّد غصونها من الأوراق، فتتساقط الواحدة تلو الأخرى، عندها تنكمش على نفسها ويتبدل رونقها ونضارتها، فيخال الناظر إليها، أنها مشرفة على الفناء لا محالة، حتى تدبّ فيها الحياة وتعود أدراجها فتلبس ثوب نضارتها وزينتها وبهجتها مرة أخرى، ثم تعطي ثمارها اليانعة لمن يريدها، هذا إذا كانت من الأشجار ذات الأثمار.

بَهَرَ قرينتي منظر ربوة الوادي وأنهارها الجارية، وجبالها الشامخات العاريات من النباتات والأشجار، التي اتَّخذت من مجاري الأنهار مكانًا لها، خوفًا من سموم الصيف وزمهرير الشتاء واستفسرت عن أسماء هذه الأشجار؟ فقلت إنها أشجار الحور، وإن هذه المناظر الخلابة التي بهرك منظرها البديع قد هزَّت من قبل مشاعر أمير الشعراء أحمد شوقي عند زيارته لدمشق قادمًا من لبنان، وقد فُتِنَ وقتها بمنظر هذا الوادي الزاهر الجميل فنَظَم فيه قصيدة جميلة يقول فيها:

والحور في دُمَّر أو حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الوادي في جلباب راقصة الساق كاسية والنحر عريان

بعد أن أشبعنا رغبتنا من معالم دمشق وآثارها ومتنزهاتها، توجّهنا إلى مدينة بيروت، تلك المدينة الفوضوية الصاخبة، تؤمّها الخلائق من كافة الجهات، يتمتعون بمناظر جبالها الخضراء الشاهقة، ويقضون ساعات نهارهم يتردَّدون في متنزهاتها الطبيعية الممتعة، أو يصعدون إلى مرتفعات جبالها، لينعموا باستنشاق النسيم العليل، والهواء المنعش اللطيف، والجو الصافي البديع أو يتجولون في أسواقها المكتظة بالمشاة، من كل الطبقات، من سادة وسيدات، وفتيان وفتيات يبيعون أو يشترون أو في أمرهم يسعون.

ثم ركبنا في إحدى السيارات وحطَّ بنا المزار في وادي زحلة عروس لبنان، زحلة المدينة التي ملأ ذكرها آفاق البلدان العربية حتى ملأ أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم، ونقل ذكرها مهاجرو لبنان إلى الأقطار التي حلُّوا بها حتى أميركا، ذاكرين جوّها اللطيف ووديها البديع، ونهرها المنساب في هذا الوادي الجميل، ووادي زحلة القائم على ضفتيه كثيرٌ من المطاعم، التي أحاطت به كما أحاط بالعروس أهلها يوم زفافها، تلك المطاعم الأنيقة التي تقدم لضيوفها وهُم جالسون تحت أشجارها الوارفة ألذّ وأطيب الطعام وشهيّه ونفيس الشراب، وخاصة ذاك الطعام الشهي اللذيذ الذي يعرف بـ(الكبة) المصنوع من لحم مهروس، وقمح مسلوق مدقوق، وبصل مفروم، يقدِّمونه مطبوخًا باللبن. وهكذا ودّعنا زحلة ومطاعمها ونهرها المنساب على مهل متوجِّهين إلى القاهرة، ولم تكن أول زيارة لي للقاهرة فقد زرتها مرارًا، وأول زيارة لي كانت سنة 1919م أيام سعد زغلول، وقد لفت نظر قرينتي عند زيارتنا لدار الآثار في القاهرة، تماثيل المرأة، ووقوفها بجانب الرجل احترامًا لها وتقديرًا، فأدنَت قرينتي فمها نحو أذني، قائلة بصوت خافت: إن الفراعنة كانوا مخلصين لنسائهم، انظر إلى هذه التماثيل إنها تمثِّل العظمة، حيث لا يقع نظرك إلّا على رجل بجانب سيدة، لقد كانوا شرفاء في معاملتهم لنسائهم، لقد كانوا يحترمونهن احترامًا زائدًا يفوق الوصف، كما أظهرت تعجُّبها من الأجساد

المحنَّطة لملوكهم وأمرائهم وكهنتهم، فقد كان لا ينقص هذه الأجساد إلّا الروح والحركة والنطق لتعود الحياة لها مرة ثانية.

تعاقبت على هذه الأجساد المحنَّطة حوادث وتقلبات مختلفة فبقيت كما هي محافظة على أشكالها وهيئتها منذ آلاف السنين، إن شعورها وأطرافها حتى أعينها، وكل جزء منها لم يحدث فيها تبديل، برغم مرور الأزمان وتداول السنين، لقد كانوا أهل خبرة ومعرفة يتقنون أعمالهم ويحافظون على تراثهم.

عجز الطبُّ حتى في زمننا هذا زمن النور، وحتى يومنا هذا، عن معرفة المادة التي توصَّل إليها المصريون في تحنيط موتاهم. إنها معجزة العلم والمعرفة وحضارة ذاك الزمن الزاهر، إنه الفكر والوفاء والمجهود العظيم، الذي توصّل إليه أطباء الفراعنة، فخلَّدوا ذكراهم وذكرى ملوكهم وأمرائهم، وحاكمهم فشيَّدوا صروح الأهرامات ووضعوا في جوفها نفائس التحف، وآثارهم الخالدة الدقيقة، الدالّة على عظمتهم وما كانوا يعملون.

كانت إقامتنا في القاهرة في فندق مينا هاوس بجانب الهرم. تركت وقرينتي الفندق في الصباح الباكر وتوجّهنا نحو الهرم الأكبر، وألفينا جماعة من المرشدين قال أحدهم: إني لقادر على أن أصعد هذا الهرم، في دقائق معدودة، وبسرعة فائقة، فقلت سأصعد معك قال: سيُتعبك هذا الصعود، قلت سأجرِّب، فتسلق الهرم، وقبل أن يقول شد حيلك واتّبع أثري، كنت أقفز فوق إحدى الحجارة الكبيرة، فبلغنا قمة الهرم، وكنت وإياه في هذا الصعود كفَرَسي رهان، انتظرنا قليلًا على قمته ثم عدنا أدراجنا منحدرين، فوطئت قدماي الأرض قبل أن تمسّها قدماه.

لكن هذا العمل ألزمني التردُّد بكثرة إلى غرفة الحمام يومين كاملين، والمكوث في الماء الحار بضع ساعات حتى لانت أعصاب رجلي.

كم من مرّة كنا نتجوّل على سطح مياه النيل يغدو بنا ويجيء أحد المراكب الصغيرة فيخيل للناظر إلينا ونحن سائران على ماء هذا النهر الخالد أننا مكلَّفان بذرع هذا النيل، ومعرفة طوله وعرضه.

أما ضفّتاه، والأشجار الباسقة، والزهور والورود المنتشرة في أرجائهما

فكانت موضع راحتنا وتسليتنا، نرتع الطرف في خمائلها، ونقضي بعض ساعات من ليالي القاهرة نتمتع بهدوء النيل، وانسياب مياهه الصامتة الساكنة، التي لا تسمع لها صوتًا، بل ركونًا وهمسًا واهيًا.

قضينا وقتًا ممتعًا بنادي الفروسية، وسباق الخيل، كما شاهدنا عرض الفيلم الكبير (الأرض الطيبة) في سينما (مترو) ومرة واحدة فقط دخلنا أحد المسارح الكبيرة، وطربنا بالغناء العربي القديم.

كم كان سرور قرينتي عظيمًا عند زيارتنا (للمطرية) فقد شاهدنا الخيول العربية الأصيلة وهي تتناول طعامها من الشعير والبرسيم، وخاصة الإسطبل الكبير لسعادة الشيخ فوزان السابق، ولبَّينا دعوته، وتناولنا الغداء في منزله.

قضينا في ربوع القاهرة عشرين يومًا، نتمتّع بجوها اللطيف، ومناخها المعتدل، ومناظر الطبيعة الخلابة، إن نبل أهلها وحفاوتهم بالضيف، وحُسن استقبالهم للغريب وطيبة قلوبهم، ومرحهم الذي لا يفارقهم، كل هذا كان له الوقع الجميل في نفوسنا، وبقي عالقًا بذاكرتنا، إن المرء ليشعر في أول يوم يحلُّ فيه بأرض الكنانة المضيافة، أنه في بلده وبين أهله، إن ماءها لذيذ، وكل من رشف منه لا بدّ أن يعود إلى هذا الوطن الكبير، الذي غدا ملجأ وملاذًا لكل مَن أصابه ما يكره في وطنه من رجال السياسة، ولكل من ينشد الحياة الأفضل، واستمع معي إلى أم كلثوم، وهي تنشد:

لا تبخلوا بمائها على ظمي وأطعموا من خيرها كل فم

غادرنا القاهرة نحمل في نفوسنا الذكريات الطيبة، وفي قلوبنا المحبة الدائمة. وحملتنا طائرة إيطالية والتقينا في مدينة أثينا، ذات الآثار الإغريقية، البلدة الأوروبية التي تحمل بعض عادات أهل الشرق وطبائعهم، فيَخال المرء حينما يتجوّل في شوارعها ومتنزهاتها وعلى شواطئها أنه يسير في شوارع الإسكندرية، فالمقاهي قائمة في كثير من أركان شوارعها، تقدَّم فيها للزائرين أدوات اللهو التي تقدمها مقاهي الإسكندرية للزبائن، فالشيشة والطاولة والدومنة والقهوة التركية تقدم للزبائن. أما متنزهاتها وشواطئها فكثيرة الشبه بالمطاعم المُقامة على شاطىء الإسكندرية أو على ضفاف الترعة وفي مدنها كالسويس والإسماعيلية وبور سعيد،

وجدوا في هذا القطر المصري، حياة حلوة سهلة ميسرة، وعوملوا من قبل هذا الشعب المضياف معاملة حسنة، فاستقروا بين أهله، فطابت لهم الحياة في ربوعه، فاتّخذوا هذه البلاد مستقرًّا ومقامًا.

طاب لنا المقام في أثينا، ومكثنا فيها خمسة عشر يومًا، كان الجو يميل إلى الحرارة أثناء النهار، فلم نغادر الفندق إلّا لمامًا، وقبل غياب الشمس كنّا نذهب كل يوم إلى أحد المطاعم اليونانية المُقامة على شواطىء جزر هذه البلاد، وكان في أحدها كلبٌ أنيسٌ جميلٌ من الكلاب الألمانية المعروفة باسم (شبرد) كان يمر بين طاولات الضيوف فيلقون إليه بعض اللحم، أو بقطعة عظم يلهو بها، وراقَ له المكوث بجانب طاولتنا.

زرنا هذا المطعم ثانية، وكنت أرتدي ملابسي العربية، وعند دخولنا هذا المطعم إذ بهذا الكلب يستنكر هذه الملابس، فما أن رآنا إلّا أن أسرع يجري نحونا، مكشّرًا عن أنيابه، وكان جريه سريعًا جدًّا، فما كان من ضيوف هذا المطعم إلّا أن اشرأبّوا واقفين، يتبعون الكلب بنظراتهم، أما أنا فقد تسمّرت في مكاني، صابرًا على مفاجأة الكلب، ولمّا دنا مني ما يقرب من مترين اثنين وقف وأرخى رأسه للأرض، وعاد ببطء من حيث أتى، فما كان من الضيوف والخدم وصاحب المطعم إلّا أن قدّموا لي التهنئة على السلامة، أمّا أنا فقد حمدت الله على أنّ حاسة الشم في الكلاب قوية. وزرنا هذا المطعم للمرة الثالثة وكنت مرتديًا الملابس العربية، وما رآنا هذا الكلب حتى قَدِمَ نحونا، يهزُّ ذيله، ورافقنا إلى أن جلسنا إلى طاولة الطعام، فمكث بجانبنا إلى أن غادرنا هذا المطعم الجميل.

غادرنا أثينا، ولم نُشبع نَهمنا من مناظر شواطىء جزرها الجميلة، وامتطينا متن الجو، حتى مدينة جنيف، ولم نُقِمْ في جنيف المدينة الهادئة لنتمتّع طويلًا في جوها اللطيف، ومناخها المعتدل، ورقّة أهلها وأدبهم، ومناظر ورودها الزاهية، وعبق أزهارها المنتشرة في شوارعها اللطيفة، النظيفة، غير ليلة واحدة قضينا بعض ساعاتها في أحد الفنادق المطلّة على بحيرتها، على أن نعود إليها بعد أيام قلائل، إذ إنّ قرينتي كانت على موعد مع إحدى زميلاتها أثناء دراستها في ألمانيا، وقد تواعدتا الاجتماع في مقاطعة مونتانا من أعمال سويسرا.

هكذا أقلّنا قطار من جنيف إلى مقاطعة مونتانا، وأقمنا في إحدى قراها وفي أحد فنادقها التقينا بزميلة زوجتي (جي ليه) وكانت سيدة ألمانيا في العقد الخامس لا تزال تتمتع بمسحة من الجمال، متأدّبة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، في أحاديثها وحركاتها في إصغائها لمن يحادثها وفي مرحها وأنسها، لم تستعمل النطق بالألمانية التي هي لغتها الأصلية طيلة إقامتها بصحبتها، برغم مكالمة زوجتي لها باللغة الألمانية، في بعض الأحيان، فقد كانت تجيبها باللغة الإنجليزية التي أخذتُ أفهمها وذلك لئلّا تجرح شعوري، وتدعني سادرًا في تخيُّلاتي حول ما كانتا تتحدثان به، وكانت زوجتي تسألها عن زوجها ووالديها.

كانت هذه السيدة تمشي بجانب زوجتي، وتقدِّمها في دخولنا للفندق أو خروجنا منه، وأثناء زياراتنا المتكررة للمطاعم والمحلات التجارية، مع أنها تكبر زوجتي ببضع سنين، وتبدأ حديثها معها بكلمة أيتها الحبيبة، إن خفّة روحها، وابتساماتها الحلوة التي لم تفارق ثغرها، وكذلك رشاقتها الزائدة حتى ليخيل للمستمع إليها وهي تتحدّث أنه يستمع لفتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، وفي الوقت نفسه كانت خجولة جدًّا.

أنِسْنا بصحبتها طيلة خمسة أيام، لم نفترق إلّا في ساعات النوم، وفي صبيحة اليوم السادس تلقّت قرينتي برقية من محاميها في نيويورك، يطلب منها العودة إلى أميركا بأسرع وقت ممكن لأمر مهم له علاقة بمصالحها مع أحد البنوك، وفي اليوم نفسه استلمت برقية من شقيقي الشيخ ياسين يقول فيها إن الوالدة طريحة الفراش وترغب في أن تراك فعُد إلينا بسرعة.

توجّهنا جميعًا إلى نابولي من أعمال إيطاليا، واستقلّت زوجتي إحدى البواخر الإيطالية متوجّهة إلى نيويورك وعادت زميلتها إلى برلين، وتوجّهت أنا إلى روما، ونقلتني باخرة إيطالية أيضًا إلى القطر المصري، ومنه اتّخذت القطار إلى دمشق فسارت زوجتي مغرِّبة وسرت مشرِّقًا. وكنت قد تواعدت وقرينتي على أن نجتمع في روما عند وحيدتها (كارولين فاصولو) التي كانت تسكن مع زوجها الإيطالي.

أثناء تجوالنا في هذه الممالك، كانت فرانسيس تتعهّدني بكثير من العطف والمودة، وتحرص كل الحرص على راحتي وأنسي، وكانت تعاملني كطفل بين

يدي والدته، ووضعت كل ما في إمكاناتها تحت تصرفي، كانت تستأذنني في كل عمل تريد القيام به، حتى الماء إذا رغبَت أن تأخذ كأسًا منه، أو تنتقل من غرفة إلى أخرى طلبت مني الإذن، وكان عملها هذا يضايقني بادىء الأمر، ولكن سرعان ما تعوَّدت عليه وغدا أمرًا طبيعيًّا عندي.

كانت مغرمة بارتياد الآثار، والوقوف على الأطلال، فلم نترك مكانًا للآثار في هذه البلدان التي زرناها إلا وولجناه، ولا متنزهًا فيها إلا وزرناه، ولم تُدْنِ كأس الخمر من فمها، ولم تعرف لها طعمًا، ولم تتعاطَ اللعب بالميسر، وكانت تبتعد عن تناول اللحوم النيئة والمشوية وكان طعامها قوامه الخضرة الطازجة والجبن واللبن والفاكهة.

كانت تقوم في كل صباح ومساء، بتمرينات بدنية، فتستلقي على ظهرها، وتسبِّل يديها بجانبها، ثم تستنشق الهواء من أنفها وتُخرجه من فمها ببطء وتقول عنها إنها رياضة بدنية يابانية.

كانت لا تميل إلى اللهو وتكره ارتياد الاجتماعات، ومن هواياتها القراءة والكتابة، فهي سهلة التعبير، ودقيقة الوصف، تحب الوحدة، وتخلو بنفسها الساعات الطوال، وتميل إلى النظر إلى السماء، فتمكث تراقب النجوم حتى يخال للناظر إليها أنها أحصتها عددًا، وتراقب القمر، وهو في علوه وبهائه ينتقل بين كواكب السماء ونجومها، يقبِّل تلك ويلاطف الأخرى، وكانت لا تملُّ الجلوس الطويل في المتنزهات العامة والحدائق، تعدِّل أغصانها المائلة وتقطف أوراقها الصفراء، وتصلح أزهارها الملتوية فيخيل للناظر إليها أنها الموكَلة بهذه الزهور والأغصان.

في أيام الآحاد كانت لا تغادر غرفتها، وأحيانًا فراشها، واعتادت أن تتعهّد بهذه الأيام ملابسها وحاجاتها، فتثبت فيها أزرارها المتدلية أو تصلح خياطة ثيابها، أو تُرقع فتقًا فيها، فإذا ما انتهت من ذلك كان الكتاب أنيسها تقلب صفحاته وبيدها القلم تدوِّن فيه ملاحظاتها.

كانت حياتها هادئة غير مضطربة إلّا أثناء نوبات مَرَضية غريبة كانت تعتريها في أوقات متباعدة، وأثناء هذه النوبات المفاجئة تجد وجهها قد تبدّلت بشاشته،

وتغيّرت فيه أمارات السرور التي نَمَت فيه وأخذت تغشاه صفرة لا تلبث أن تشتدّ وتقوى، أمّا ناظراها فيبدوان في هدوء وذبول، ويخيَّل إليك أنها فارقت الحياة فتمكث في غيبوبتها بضع دقائق، وأحيانًا أكثر، ثم تنتفض كالعصفور بلّله القطر، فتصحو وكأن شيئًا لم يحدُث لها ثم تترك فراشها، وعلى ثغرها ابتسامة وديعة لم تَرَ عيناي شبيهًا لها، ولا تلبث حتى يعود إلى وجهها رونقه ونضارته. ولقد حدث لها هذا الأمر ثماني مرات طيلة السنتين اللتين مكثتهما معها.

أثناء زيارتي لإيطاليا، كان الخلاف ناشبًا بين جلالة الملك عبد العزيز وبين صاحب اليمن الإمام يحيى حميد الدين، واشتدّ هذا الخلاف بينهما، ودارت رحى الحرب فيما بينهما واستولت الجيوش السعودية على قسم كبير من شمال اليمن، ولكن الملك عبد العزيز أعاد إلى اليمن ممتلكاتها وتمَّ الصلح بينهما.

علَّقت بعض الصحف السورية المغرِضة على وجودي في إيطاليا وقالت إن رسول ابن سعود خليل الرواف يتفاوض مع موسوليني لأخذ صفقة من الأسلحة، وقد قدَّم موسوليني ما طلبه منه خليل من الأسلحة دون مقابل. فما كان من قنصل المملكة العربية السعودية في دمشق رشيد الناصر إلّا أنْ كذَّب الخبر بشدّة وأصدر بيانًا جاء فيه: لا صحّة لِما نشرته بعض الصحف من أنَّ الشيخ خليل الرواف قام بمهمة رسمية من قبل حكومة المملكة العربية السعودية في إيطاليا، إذ إن الشيخ خليل الرواف يقضي بعض أوقات فراغه في أوروبا، فلا هو موظف حكومي، ولا علاقة سياسية له بشؤون المملكة.

عُدت إلى دمشق وكانت والدتي ولله الحمد قد تماثلت للشفاء وفي إحدى زياراتي لشقيقي الشيخ محمد عيد الرواف في القنصلية العربية السعودية، وكان القائم بشؤونها يومئذٍ قبل أن يُنقَل إلى بغداد، وقع نظري على كتاب مُلقى على طاولته فاستأذنته وتناولته فإذا هو مجلة الأهرام القاهرية، وسرعان ما طار بي الخيال إلى الربوع القاهرية الجميلة، والمتنزّهات البديعة الأخّاذة، وأمسيات نهر النيل الخالد، وفروعه المنسابة في ذاك الوادي الأخضر الفسيح، وليالي القاهرة على ضفاف نيلها الخالد، ومنفسحات أهراماتها، وذاك الأثر البليغ أبو الهول، والأزهر الشريف وجماعته، وجهاد رجالها الأبرار، أمثال الشيخ محمد عبده،

والشيخ مصطفى المراغي، والشيخ رشيد رضا ومصطفى كامل ورفاقه الأبرار، وبطلها المجاهد أحمد عرابي، وسعد زغلول وغيرهم، من أفذاذ الرجال ومَن جاهدوا في الله حق جهاده.

سرعان ما عادت بي الذكرى عند ذكر زعيمها الخالد سعد زغلول، إلى قول الشاعر سليمان الأحمد، المتكلِّم باسم بدوي الجبل إذ جاء في مرثيته لسعد زغلول، وفضيلة الشيخ الراوي العالم العراقي الكبير، حيث قال:

في كل يوم للجزيرة كوكب ... يهوي وسيف يعتريه فلول
قبر بعاصمة الرشيد وآخر ... في مصر حق ستوره التقبيل
بدران قد بكَّر الأفول عليهما ... ولكل بدر طلعة وأفول
ومشيعان إلى القبور بموكب ... يرتد عنه الطرف وهو كليل
في رعيل من ملائكة العلى ... ومن الجدود الأكرمين رعيل
عيسى وأحمد والكليم وعصبة ... فيها الأمين المنتقى جبريل
ما للجزيرة أين نور نبوغها ... الزيت جف وأحرق القنديل
بغداد شاكية ومصر مرنة ... والشام حاسرة القناع ثكول
تلك الأقاليم الثلاثة واحد ... بردى وشاطىء دجلة والنيل

نعم أيها الشاعر الراثي لقد كانت هذه الأقاليم الثلاثة واحدة كما سمَّيتها أنت يوم أن كانت تظلِّلها الراية العربية الأموية التي خفقت طويلًا على كثير من ممالك الشرق والغرب فرحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي، لقد جاء في مرثيته لدمشق قوله:

بنو أمية للأنباء ما خلفوا ... وللأحاديث ما شادوا وما دانوا
كانوا ملوكًا سرير الشرق تحتهمُ ... فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتها ... في كل ناحية ملك وسلطان
يا ويح قلبي مهما انتاب أرسمهم ... سرى به الهم أو عادته أشجانُ
بالأمس قمتُ على الزهراء أندبهمْ ... واليوم دمعي على الفيحاء هتانُ
مررت بالمسجد المحزون أنشده ... هل في المصلى أو المحراب مروان

تنفس المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته ... إذا تعالى ولا الآذان آذان

خلَفَ العباسيون الأسرة الأموية على حكم الأمة العربية والإسلامية، وبقيت هذه الأقاليم الثلاثة واحدة، مع غيرها من العواصم والبلدان موحَّدة الكلمة، متراصَّة الأطراف، منيعة الحمى، يُرجى خيرها ويُخشى بأسها، ذات عقيدة دينية تكاد تكون واحدة، وعقيدة سياسية واحدة، ترفل بأثواب المجد والسؤدد لا فرق بين دمشقها، وبغدادها، وقاهرتها. وقد تعرَّضت هذه البلدان العربية والإسلامية إلى هزّات عنيفة مريعة، ومُنِيَت بحوادث مفجعة أقلقت مضاجعها، فمن حروب صليبية شرسة أسعرت نيرانها الأمم الأوروبية، وانقضت عليها بجيوشها الجرارة تحمل النار والدمار، واستولت على بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى وثالث حرميها، ومسرى نبيها الرسول محمد ﷺ، فقد بقيت هذه الجيوش مسيطرة على القدس قرابة القرن، ثم هُزِمت شرّ هزيمة وعادت أدراجها من حيث أتت، بعد أن لقَّنتها الجيوش الإسلامية بقيادة صلاح الدين الأيوبي درسًا بليغًا بالأخلاق لن تنساه أبدًا، وبقيت هذه الهزيمة المنكرة عالقة في نفوس الأمم الأوروبية سنين عديدة تناقلتها الأجيال جيلًا بعد جيل. ثم تبدلت أحوال الأمة العربية، وانفرط عقد وحدتها، وتقطَّعت فيما بينها الأسباب، فانقسمت على نفسها، وتسلَّط عليها الأعداء، ومزَّقتها كل ممزّق وفرَّقتها إلى دويلات عديدة بلغت أكثر من عشرين دويلة، وبقيت هذه الدول سنين عديدة من دون سلاح لتُقاتل به أعداءها لتسترجع حريتها، وغدا لكلِّ دويلة زعماء متنافسون، وحكّام متخاذلون، مختلفو الأنظمة والعقائد وأخذ كل منهم يرشق الآخر بحجارة تكاد تكون أبلغ وقعًا، وأشدَّ فتكًا على أنفسهم من حجارة سجيل، وبدأ بعضهم يصف بعضهم الآخر بالجبن والخيانة، ويتقوَّل رجال كلُّ قطر على الآخرين بأكثر ممّا قاله مالك في الخمر، الأمر الذي جعلهم طعمة الألسنة، فتطاولت عليهم الأيادي، وأذلَّهم أعداؤهم وامتهنوهم، وغدوا بعد تفرُّقهم في نظر أعدائهم أحقر من الكلاب على موائد اللئام، وأنا أعجب، فعجبي من هؤلاء الزعماء المتنافسين المتلاصقة أوطانهم، لا يفصل بينها حاجز، يتفاهمون بلغة واحدة، ويرتبطون بأواصر من القربى ويعتقدون معتقدًا دينيًا واحدًا، ينزلون

بكبريائهم العربي وشرفهم المصون إلى هذا المستوى الخلقي من الانحطاط والتقهقر والخذلان.

فعلامَ هذا الانقسام أيّها العرب؟ وإلى متى هذا التراشق بالخبيث من الأقوال؟ وماذا تتوخون من وراء هذا العمل المشين؟ إني لا أرى فيه إلّا الضياع والخذلان لكم جميعًا وضياع أوطانكم، أين وحدتكم القوية؟، أعيدوها فيما بينكم، ولتكن الوحيدة في تفاهمكم، أين حكمة مروان ولباقتها؟ أين الحلم العبّاسي ونبله؟ أين الشهامة وبطولة وإباء العرب الأقدمين؟ ألم تكونوا من ذريتهم؟ فلماذا هذا الصدود؟

الفصل العاشر

إلى نيويورك

بعد الجولة الممتعة التي قمنا بها في جبال سويسرا لمدة سبعة عشر يومًا، ومن ثم عودتنا إلى نابولي في إيطاليا حيث توجّهت زوجتي إلى الولايات المتحدة لشغلٍ طارىء وتوجَّهتُ أنا إلى دمشق، ولم يكد يمضي على وجودي في دمشق الأسبوع الثالث حتى غادرتها إلى روما حيث التقيتُ بزوجتي حسب موعدنا المسبق، ومن هناك عدنا إلى دمشق وفاتني أن أذكر أن عقد قراني على زوجتي كان قد كتبه الشيخ مصطفى الزبداني، وكان من أساتذتي، وأذكر أيضًا حين علم أن زوجتي مسيحية قرَّب فمه من أذني وهمس قائلًا: أَمَة مسلمة خير من مشركة، فأجبته سبق السيف العذل، لكن كلامه أثَّر فيَّ تأثيرًا عميقًا وظهر مفعوله فيما بعد، وقد حضر عقد القران أخواي الشيخ ياسين ومحمد عيد وعدد من أفراد الأسرة.

مهما يكن من أمر فلقد أقمت مع زوجتي في دمشق لمدة ستة أشهر واستأجرت بيتًا خلف المستشفى الإيطالي، كنا خلال ذلك الوقت نتردد إلى متنزهات المدينة وإلى المناطق المحيطة بها وإلى مدن البقاع اللبناني، ثم عقدنا العزم على مغادرة المشرق نحو الولايات المتحدة الأميركية.

لم نخبر أحدًا في بداية الأمر بما عزمنا عليه من التوجّه إلى الولايات المتحدة الأميركية ومغادرة هذه المدينة الخالدة عاصمة الأمويين الذين دام حكمهم فيها مائة عام حطّموا خلالها الأغلال عن قسم كبير من بلدان العالم، التي رزَح أفرادها تحت عبء حكامها الثقيل الغاشم من الظلم والاستبداد، وأطلق الأمويون لسكّانها الحرية الفردية التي لا تضرُّ بالصالح العام، وانصهرت هذه الشعوب في بوتقة الأمة العربية، واعتنقت الديانة الإسلامية، فملأت قلوبهم إيمانًا وحبًّا لها، لقد وجدوا في تعاليمها ومرونة أحكامها ضالتهم المنشودة.

لقد خلَّد الأمويون الاسم العربي على مرِّ السنين، وكان لهم الفضل الأكبر في جمع الشمل وتوحيد الكلمة وخلف من بعدهم العباسيون، وجعلوا عاصمة مُلكهم مدينة بغداد فازدهرت بهم، وما كان لي أن أتطرّق إلى ذكر الأمويين والعباسيين في هذه الصفحات ولكن أتت عفوًا في سياق الحديث، فأحببت تدوينها.

بعد أن ودَّعنا الأهل والأحباء والأصدقاء بدأنا سفرنا إلى أميركا برحلة صغيرة إلى ربوع لبنان وأوروبا، فلقد كنت شديد الولع بالأسفار وتزوجت من امرأة تفوقني في حبها للرحلات.

غادرنا مدينة دمشق متوجهين نحو بيروت ثغر لبنان السياحي الجميل بشوارعه المنسقة النظيفة، وفنادقه الأنيقة وبجبله الأشمّ المطل عليها من علوٍّ شاهق وتلاله وهضابه الخضراء ومنعطفاته العديدة مبعثرة هنا وهناك على مرتفعاته ومنخفضاته ووديانه وسهوله، منها ما يتَّخذه قاطنو مدينة بيروت مصيفًا لهم يشاطرهم في هذه الأماكن الخلابة أبناء الأمة العربية لقضاء فصل الصيف يتمتعون بمناظرها الخلابة وسحرها الفتان ممّا تهواه القلوب. أقمنا في هذه المدينة الجميلة بضعة أيام نتمتع مع روادها من العرب ومن السياح الأجانب بجمالها الصارخ ونسيمها البديع الدائم.

زرنا أثناء تجوالنا في ربوع لبنان مدينة زحلة عروس لبنان - كما يسمونها - التي زرناها معًا قبل ذلك وشدَّنا جمالها إلى العودة إليها وتناولنا غداءنا في أحد المطاعم المنتشرة على ضفتي نهر البردوني الخالد.

في ذلك الوادي الأنيس أشجار مختلفة القياسات من حور وصفصاف، ممّا تعاقَب عليه مرور السنين، إنه لم يتغير ولا يزال هو الوادي الذي يؤمه يوميًّا مئات البشر من السيّاح ومن سكان ربوع لبنان. وكم من حفل أقامه على ضفّتيه الأدباء والشعراء.

أخذنا بروعة وجمال هذا الوادي ومناظره الساحرة ونهره الخالد ومياهه المنسابة الجارية بين الصخور، كما دبج الأدباء والكتاب المقالات الطوال في وصف هذا الوادي البديع، وأسمعنا الشعراء شعرًا نفيسًا رقيقًا، وكان لقصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي صداها البعيد، ومفعولها القويّ في نفوس أبناء الأقطار

العربية على اختلاف ميولهم وأهوائهم وقد خلَّد هذا الشعر وقائله ومُنشده هذا الوادي وأبقى من الذكريات في نفوس المتردِّدين إليه بصوته وبلحنه البديع الشجيّ المطرب الأستاذ محمد عبدالوهاب، فاستمع معي إلى أمير الشعراء وهو يخاطب جارة الوادي مدينة زحلة، قائلًا:

يا جارة الوادي طربت وعادني	**ما يشبه الأحلام في ذكراك**
مثلت بالذكرى هواك وفي الكرى	**والذكريات صدى السنين الحاكي**
وتعطَّلت لغة الكلام وخاطبت	**عيناي في لغة الهوى عيناك**
ولقد مررتُ على الرياض بربوة	**غنَّاء كنت حيالها ألقاك**
لم أدرِ ما طيب العناق مع الهوى	**حتى ترفَّق ساعدي فطواك**
ودخلت في ليلين فرعك والدجى	**ولثمتُ كالصبح المنوّر فاك**
لا أنت من عمر الزمان ولا غد	**جمع الزمان فكان يوم لقاك**

منذ تاريخ هذه القصيدة وتلحينها والغناء بها، وحتى يومنا الحاضر وإلى المستقبل القريب والبعيد تردِّد أفواه الأمة العربية أبيات هذه القصيدة العصماء، وقد أكرم أبناء زحلة أمير الشعراء أحمد شوقي، فأقاموا له تمثالًا نصفيًّا في مكان بارز في مدينتهم عروس لبنان تخليدًا لذكراه، ويُحكى أنَّ حوارًا دارَ في القاهرة بين الزعيم سعد زغلول والشاعر أحمد شوقي، وقال أمير الشعراء مخاطبًا سعد زغلول: إن التاريخ سيسجِّل نضالكم وحياتكم بأحرف من نور. فردَّ الزعيم سعد زغلول على أحمد شوقي قائلًا: سوف يذكرني التاريخ في سجلّاته ولكن سوف ينساني الجميع إلّا القلة المهتمون بالسياسة المصرية، وأما أشعاركم الرائعة فسوف تخلِّد ذكراكم في جميع الدول العربية التي سوف تحفظها في ملفات الأدب والسياسة والتاريخ والحرب والطبيعة وسوف يتناقلها الأدباء والأبناء من جيل إلى جيل ما دام الليل والنهار وتعاقُب مرور الأيام. وغادرنا مدينة زحلة ووجهتنا مدينة بعلبك، ذات التاريخ المجيد وآثارها الرومانية الخالدة متعجِّبين من هذه الأعمدة الفارعة الطول وألوانها الداكنة السمراء المنسَّقة البناء الدقيقة الصنع.

وأشبعنا نهمنا من مناظر مدينة بعلبك وآثارها ثم غادرناها صاعدين نحو الجبل

الأشم وأشجاره القديمة العهد التي تعاقبت عليها السنون، وهي لا تزال أشجار شامخة الأنف بعنفوان وكبرياء بتنسيقها وامتداد أغصانها الوارفة الظلال، ذات الطبقات المتباينة المتراصة طبقة فوق أخرى، والتي اتَّخذتها الجمهورية اللبنانية شعارًا لها فرسمتها على علمها الخفّاق، إنها شجرة الأرز. ونظرًا إلى وعورة الطريق فقد نقلتنا الحمير مقدار ساعة على ظهورها حتى وصلنا هذا المكان الأثري التاريخي الذي يمكن الوصول إليه من بيروت بطريق السيارات ولكننا آثرنا الصعود إليه بالطريق الجبلي الجميل من بعلبك على ظهور الحمير وأقمنا بضعة أيام بفندقٍ منزوٍ تحت أغصان هذه الأشجار، وكان مديره لطيفًا يقصُّ علينا أخبار مَن ضمه فندقه من الأمراء والنبلاء وقادة الجيوش وعظماء الرجال من مختلف الطبقات، منهم من قضى نحبه ومنهم من كان لا يزال حيًّا ينتظر يومه ليلحق بمَن سبقه من الخلائق. وكان صاحب الفندق يوافينا بغدائنا ونحن جلوس نتمتع بمناظر شجرات الأرز التي كستها الثلوج حلة بيضاء ناصعة. ومن هذا الارتفاع الشاهق لجبل الأرز، وبعد قيامنا بهذه الرحلة الشيّقة بين مدنها وقراها، عدنا إلى مدينة بيروت القائمة على شاطىء البحر الأبيض تحت أقدام الجبل الأشم الخالد، جبل لبنان.

من بيروت أقلتنا طائرة إيطالية إلى ربوع مدينة أثينا العاصمة اليونانية التي تحمل بين ضلوعها وحناياها مسحة من الشرق، فالسمت الشرقي والكرم العربي والمرح المصري يظلِّل سماءها ويتمشّى في ربوعها، فالمقاهي منتشرة في بعض شوارعها تقدِّم لزبائنها الزوار من شرقيين وغيرهم الشيشة المصرية (والكوتشينة والطاولة والدومنة) وتسمع الكلمات العربية تنطلق كالسهام من أفواه اليونانيين، ممّن أقام منهم بالقطر المصري، إذًا فهي شبيهة من هذه الناحية، ببلدان الشرق العربي، ولا تزال تحتفظ بهذه المسحة الشرقية أمام منفسحها الواسع أمام فنادقها الفخمة الأنيقة، أما شواطئها العديدة وجزرها الكثيرة ومتنزهاتها التي تتحلى بها هذه الشواطىء فحدِّث عن جمالها وروعتها ما شاء لك أن تتحدث، فلا حرج عليك، إنها لحقيقة فتنة للناظرين.

ومن الطرائف التي حدثت أثناء وجودنا في أثينا أنَّ زوجتي طلبت مني أن أشتري لها صحيفة بالإنجليزية، وكانت صحف ذلك اليوم الأجنبية قد نفدت من

مكان بيعها في بهو الفندق، ولهذا ذهبت أتجوّل في شوارع أثينا القريبة من الفندق أبحث عن محلٍّ يبيع الصحف الأجنبية، وبعد حوالي ساعة من السير والبحث المضني عثرت على ما أريد وتناولت إحدى الصحف من مكانها ودفعت ثمنها وعدتُ أدراجي إلى الفندق، ولقد ضحكنا كثيرًا أنا وزوجتي عندما أخبرتني أن الصحيفة التي جئت بها هي صحيفة فرنسية وليست إنجليزية. إن ثقافة زوجتي الواسعة وإلمامها الجيد بالفرنسية قد جنَّبني في ذلك اليوم ولله الحمد العودة إلى مكان بائع الصحف. ولكن زوجتي قالت بلغة المداعبة: عليك أن تبذل جهدًا أكبر في تعلم الإنجليزية يا خليل فأنت الآن في طريقك إلى أميركا.

من هذه المدينة التي يخيَّل لبعض الزائرين أنها تحمل مسحة الحزن على من أسَّس معالمها وترك وراءه آثارها القيمة. حملتنا طائرة إيطالية وطوَّحت بنا في مدينة روما العاصمة المزدوجة الإيطالية والفاتيكانية، والمقر الرئيس للطائفة المسيحية من الكاثوليك.

لم تَطُلْ إقامتنا في هذه المدينة الساحرة سوى عشرة أيام زرنا بعض متاحفها وآثارها والفاتيكان وكنيستها الكبرى واطَّلعنا على ما نُقِش على جدرانها وسقوفها من الرسوم القيمة ذات المغزى الديني والتاريخي، وانطلقنا نتنقل في شوارعها، ونقف على ما فيها من متاع الحياة من أبنية جميلة وقصور فخمة، وكنا نستمع أثناء مسيرنا في هذه الشوارع إلى الراديوهات التي تعلو أصواتها على غوغاء المدينة وضجيجها يزمجر خلالها بصوته الجهوري الرئيس موسوليني، يَصِمُ البريطانيين بالجبن والاستكانة ويحثّ الشبيبة الإيطالية على الانخراط في الجندية للذود عن حياضهم وليحموا ديارهم قائلًا: إن الجندية من علامات التقدُّم والازدهار للشعوب، وإنها لَمَفخرة تتباهى بها الأمم وترتفع عالية عن سواها، ورياضة تمارسها الشعوب، وتجوّلنا في المنشآت الرياضية العديدة التي أقام بناءها (موسوليني) وأوجد فيها المتنزهات الجميلة، والحدائق الغنّاء البديعة المنسّقة، ذات الزهور المختلفة الألوان والأشكال.

كانت تقطن في هذه المدينة العالمية، كريمة زوجتي كارولين مع زوجها الإيطالي وكان من العائلات الكبرى في روما عائلة (فاصولو) المنتشرة في هذه

المدينة، وكان محترفًا لتعليم الرياضة البدنية، وفي منزله صالة واسعة يدرِّب فيها الشبيبة الإيطالية، وتوجّهنا بالقطار إلى مدينة نابولي، ترافقنا السيدة (كارولين)، واتّصلنا بالقنصل الأميركي واستحصلنا منه على بطاقة الهجرة إلى أميركا، بعد أن حقَّقنا مطالبه، من إحضار ورقة بحسن السلوك، فقد كتبت إلى شقيقي محمد عيد الرواف المقيم بمدينة جدة وكان قائمقام جدة في ذلك الوقت وأرسل لي الشهادة المطلوبة.

كما راجع القنصل دائرة الهجرة إلى أميركا للسماح لي بالهجرة، وبعد أيام جاء الإذن وسلَّمني بطاقة تحمل رقم (1) للهجرة إلى أميركا، حسب المعاهدة المبرمة بين حكومة العربية السعودية والولايات المتحدة الأميركية في ذلك الوقت، والتي تنصُّ بعض بنودها على السماح في كل عام إلى مائة نفر من الراغبين بالهجرة إلى الولايات المتحدة الأميركية، فكنت ولا أزال حتى الآن أول مهاجر سعودي إلى أميركا.

خلال هذه المدّة التي انتظرنا فيها السماح لنا بالهجرة إلى أميركا، وقبل ركوبنا البحر إليها، على الباخرة الإيطالية المسمّاة (كونت دي سافواي)، أحببنا أن نختبر البحر، لئلّا نؤخَذ على حين غرّة من أمرنا فلا نشعر إلّا بالراحة والهناء، فأخذنا باخرة ركّاب صغيرة إلى جزيرة كابري التي تبعد بحرًا بضع ساعات عن مدينة نابولي. ومَن منّا لا يعلم شيئًا عن جزيرة كابري أو لم يقرأ عنها أو لم يَسمع بها، إنها الجزيرة الفتّانة المشهورة بسكونها، وهدوئها الطبيعي، ذات الشوارع الضيِّقة، الصاعدة الهابطة، فتصعد معها حينًا وتُجاريها في هبوطها حينًا آخر، ثم يأخذك السير مارًّا في فسحاتها ومنعطفاتها، فتخال أنّ الطريق مسدود لا منفذ له فلا تلبث غير لحظة أو رمشة عين، فينكشف لك الطريق، فتسير به آمنًا مطمئنًّا، وفي كلٍّ من الهبوط والصعود، والمرور بالمنعطفات يجد المرء لذة ونشوة.

كابري الجزيرة الرائعة الفاتنة، ذات المناظر الطبيعية الخلّابة والجبال الشامخة المتنوِّعة أشكالها وألوانها، ذات الصخور البيضاء المكسيَّة بالأشجار الباسقة وولدانها المنتشرة القائمة على مرتفعاتها، هي غاية في الروعة والجمال، وأمثالها من الجبال رمادية اللون عارية الصدر كاسية الساق هي فتنة للناظرين.

يَفِدُ إلى هذه الجزيرة الكثير من السيّاح القادمين من كافة أنحاء العالم يجذبهم إليها جمالها الصارخ، ويستقدمهم إليها هدوؤها الرائع، فهي محطّ رحالهم، وآخر آمالهم في أسفارهم.

وممّا يلفت النظر في هذه الجزيرة البناء القائم بأحد أركانها، وعلى مرتفع إحدى هضابها، مبنى على الطراز العربي، هو بناء لمسجد قديم، حُوِّل إلى كنيسة، وهذا كل ما أبقى الدهر لهذه الجزيرة من الآثار الإسلامية، لقد بقيت محتفظة بهذا الأثر الخالد ما يقرب من سبعة قرون.

فتح العرب هذه الجزيرة في القرن الثالث من الهجرة، وكانت الجزر الإيطالية كجزيرة صقلية وجزيرة كابري وغيرهما قائم فيها الحكم الإسلامي، بذلك يحدثنا التاريخ عن جزيرة صقلية عندما حلَّ بها المسلمون، وأقاموا فيها إلى أن فتحها النورمان سنة 1091، فيقول: كان ملكهم روجر الثاني وولده غليون، كانا كثيري الثقة بالمسلمين، فأفسحا للعرب في هذه الجزيرة، ثقة منهما بمقدرتهم على إدارة الأعمال الزراعية، كما استعملوا الملاحة، وتعاطوا التجارة، وكان هذان الملكان يحترمان العرب، ويعطفان عليهم ويُشركانهم بالحكم وبالوظائف العالية، والمهن المختلفة، تركا لهم حريتهم الدينية، وكان غليون يكتب العربية ويقرؤها، وكانت علامته (الحمد لله حق حمده) ومن قبله كانت علامة والده روجر (الحمد لله وشكرًا لأنعمه) وكان إذا جلس تجد حوله رجاله من المسلمين، ويأتي وقت الصلاة، فيخرجون من مجلسه، ويقضون صلاتهم، وهو لا ينكر عليهم عملهم وأداء فريضتهم الدينية. وكانت مدينة روما ومدينة الفاتيكان وأدباؤها تحتُ (روجر) حاكم الجزيرة على الامتناع عن احترامه للعرب.

غادرنا جزيرة كابري وقاطنيها وجبالها البيضاء الناصعة وغيومها الرمادية، وشوارعها الهابطة الصاعدة، ومتنزَّهاتها الرائعة وزوار ملاهيها وما يتَّصفون به من رقّة وأناقة وأدب، عائدين إلى مدينة نابولي.

في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة لعام 1354هـ الموافق السادس والعشرين من شهر أيلول/سبتمبر 1935م امتطينا ظهر الباخرة كونت دي سافواي وألقينا آخر نظرة على مدينة نابولي وجبالها الدائرة حولها، وآخر ما سمعناه في

القارة الأوروبية، صوت هتلر الجهوري، يتفجَّر، ويزمجر، من خلال الراديو كهدير البحر أو كالرعد القاصف، كان آنذاك في إبان مجده وعزه، ومن ورائه الشبيبة الألمانية تشدّ أزره، وتقوّي عضده، وتأتمر بأمره، كان يصبُّ جامّ غضبه على البريطانيين والفرنسيين، الأمر الذي أوجف القلوب خوفًا في القارة الأوروبية بأجمعها، حيث كانت لا تعلم ما يُضمره من الشرّ، من وراء استفزازاته، ومن تجمُّع كافة الشعب الألماني حوله، كانت تنظر إلى استعداداته الحربية، وهي واجمة، ولا تبدي حراكًا.

كان يجاريه في هذا صوت موسوليني، يزأر في خطابه زئير الأسود في أجماتها، ولا يتحاشى أن يقذف البريطانيين بشرر، وينعت رجالها بالجبن والاستكانة، وكانت بريطانيا تسمع كل هذا وهي صابرة مرغمة.

كانت الباخرة كونت دي سافواي تمخر عباب البحر بين أميركا وأوروبا وكانت هذه آخر رحلة لها على هذا الخط بعد عملٍ دام أربعين عامًا وكانت أكبر باخرة عالمية تمخر عباب البحر، وحملت هذه الباخرة في درجاتها الأربع خلقًا كثيرًا من مختلف أقطار العالم، وكانت تتهادى في سيرها ومجراها كعروس في يوم زفافها.

وفيها الكثير من أدوات الترفيه وملحقاته، فإذا ملَّ المسافر من طول السفر والمسافة التي سيقضيها على ظهرها التجأ إلى مكان الترفيه للعب الطاولة والسلّة وموضع الرماية، وإذا شعر بالحرارة فما عليه إلّا أن يلقي بنفسه في بركتها المائية، فيشعر بعدها بالراحة الجسدية والنفسية.

قضينا على ظهر الباخرة وقتًا ممتعًا وجميلًا، وكنّا نتمتع بمنظر السماء الصافية ومياه البحر الداكنة والطيور التي تتبعها وتواكبها، لم تقع أنظارنا على غيرها من الشواهد، وكان الجو رائعًا ومريحًا، والأنواء البحرية ساكنة هادئة، والأمواج غارقة في اليمّ لا تكاد تبين، نروح ونغدو على سطح الباخرة آمنين مطمئنين طيلة ثلاثة أيام.

وفي اليوم الرابع من سيرنا وكان الوقت صباحًا باكرًا، وقبل أن ترسل الشمس خيوطها الذهبية، وتنشر أشعتها العسجدية على هذا الكون المائي، لم نشعر إلّا

والأمواج تطل بذوائبها، وتتصافق فيما بينها، وإذا بالبحر في بادىء الأمر يزهو بها، وتبتسم الأمواج فتلفظ بياضًا ناصعًا من أفواهها، كاللؤلؤ المكنون، ويميد البحر وتتمايل الباخرة وقتًا غير يسير، ثم لا تلبث الأمواج أن تعود أدراجها، ويرجع البحر إلى هدوئه وسكونه فلا تسمع بعدها إلّا ما يُحدِثه جريان الباخرة في اليمّ من الأصوات الرتيبة الخافتة. وكان من الملاهي العديدة التي حوَتْها هذه الباخرة، موضع للرماية، وقد جرَّبت حظّي، فكنت موفقًا، فقد أصبت في القذيفة الأولى المرمى. وكنا نقضي أوقات النهار، ونبدِّد ساعاته الطوال، بالتنقُّل في أدوار السفينة فنصعد حتى نصل إلى قمَّتها حيث غرفة الربان فنتحدث معه قليلًا، ثم نستعمل سلالمها حتى نصل إلى أسفلها، ونجلس أحيانًا على الكراسي المنتشرة في ممراتها، وعلى سطحها، وحول بركتها المائية، ولكننا لم نمارس السباحة، وكنا نراقب مَن اتَّخذوا مقاعدهم على موائد خضراء كانت ممتدة في إحدى صالاتها، وكان اللعب بريئًا لم يكن للمقامرة فيه نصيب، حتى إذا أقبل الليل، وأضاءت نجومه، وزينت بها القبة الزرقاء، وأطلَّ البدر وبدَّد بنوره الساطع - الذي زوّدته به الشمس بنورها القوي، وضيائها اللامع - الظلمة، تسابَقنا ونزلاء السفينة إلى غرفنا، لنأخذ حماماتنا، وكان منّا من يغسل أطرافه، ويرتدي أفخر الثياب ويسير الهوينا، نحو غرفة الطعام، فنجدها قد سبقنا إليها بعض الشيوخ والسيدات، والفتيان والفتيات، وبعد أن نتناول أفخر الطعام وشهيه ولذيذه، وبعد أن نرتشف بعضًا من القهوة أو الشاهي، نغادر غرفة الطعام، ونتمشى قليلًا على سطح الباخرة، ثم نعود إلى غرفتنا للنوم.

فيما كنّا جلوس في أحد ممرات الباخرة، مرّت بنا سيدتان، وفتاتان تتبعانهما، ولم أدرِ هل كُنَّ من أقارب قرينتي أو من معارفها، واقتربت منّا إحداهن وردَّدت وهي على بعد ياردتين، بصوت منخفض (هلو مس اليسون) ولم تسمعها قرينتي، أو هي تغافلت عنها فقد كانت تتجنّب الاختلاط بالناس، ما دُمت بجانبها، إنها لم تعرِّفني على أحد من النسوة قريباتها طيلة حياتي معها، إلّا على كريمتها كارولين وزوجها الإيطالي وعلى أخيها وعائلته القاطنين في ولاية نيوجرسي التي في بعض متنزهاتها - كما أسلفت القول - صورة منحوتة لوالدها على نصب

تذكاري، إذ تبرَّع بقطعة أرض كبيرة على شاطىء نهر هدسن أقامته بلدية نيوجرسي إكرامًا له وتخليدًا لذكراه.

عند اقترابنا من مدينة نيويورك، كانت الباخرة تسير بنا الهوينا، كأنها عروس زُفَّت في ليلة زفافها، وبعض مضي ستة أيام قضيناها على ظهرها، وفي صباح اليوم السادس لشهر رجب 1354هـ الموافق الثالث من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1935م تراءت لنا المرتفعات الشامخة لمدينة نيويورك، ومررنا بتمثال الحرية الضخم، الذي أهداه الفرنسيون للأميركان إثر انتصاراتهم العظيمة على البريطانيين، في المعارك التي استعر لهيبها ودارت رحاها فيما بينهم، ودامت عدة سنوات، وقضى نحبه فيها نخبة من طيبة رجالها وأبلى الأميركان فيها بلاء مرًّا وذاقوا أثناءها طعم الذلّ، وأصناف القهر والتشرُّد. ويحمل هذا التمثال الضخم مشعلًا بيده الممدودة، ويمكن للمرء أن يرقى في داخله درجات إلى أن يصل إلى الأنامل التي تحمل المشعل، الذي أنار ظلمات هذه القارة فجعل منها نبراسًا منيرًا، ومصباحًا يُستضاء بنوره في ظلمات الحياة، ولهذه الأنامل فجوات يطل منها الناس فيشاهدون شاطىء مدينة نيويورك وغيرها.

وما أن تبيَّن لنا مرفأ نيويورك حتى ظهرت لنا هذه المدينة العظيمة، كالزهرة المتفتحة الأكمام، وكان نهر هدسن العظيم الهادىء في جريه، يتلاقى ومياه البحر فيقوم مع البحر بحراسة هذه المدينة الجبارة.

لم نمكث في دائرة الجمرك الواسعة، سوى بضع دقائق وكانت أحرف الهجاء الكبيرة الحجم، تشير إلى أسماء الراكبين فيتوجّه المسافر إلى أول حرف من اسم عائلته، فيجد حقائبه بانتظاره، فتفتَّش الحقائب تفتيشًا بسيطًا، ثم يتناولها الشيّالون إلى السيارات المنتظرة خارج الجمرك.

أربعة عشر يومًا قضيناها في هذه المدينة العامرة الخالدة، التي يحوطها الماء من جهاتها الأربع لذا عُرفت بجزيرة منهاتن، ومنهاتن اسم من الأسماء الهندية المستوطنة منذ القدم في الولايات المتحدة الأميركية، قبل اكتشافها من قبل الأوروبيين، ويُقال: إن الدخلاء المستكشفين أو الدخلاء المهاجرين إليها من الأوروبيين والآسيويين اشتروها من أصحابها الهنود، بثمن بخس دراهم معدودات، ومن قائل إن ثمنها دفع بكمية - من التبغ، أو بعض من الأدوات البسيطة.

نيويورك المدينة الحيّة الجبارة، التي كان يبلغ تعداد نفوسها في عام 1935م ثمانية ملايين من البشر أو يزيدون، إن مليونين من الملايين الثمانية هم من الصهاينة واليهود، أصحاب الملايين العديدة، والنفوذ القويّ الخفيّ، المتسلطين بدعاياتهم الخبيثة عن العرب والتي تُنشَر في الصحف والمجلات، وتُعرَض في دور السينما والتلفزيون على الملايين من مختلف الأجناس والعقائد معتمدة مناهجها المتنوعة، فأنت لا تجد ثلاثة من النزلاء إلّا ورابعهم صهيوني أو يهودي وهم يحتالون على ضعفاء النفوس من ذوي الضمائر الضعيفة من حملة الأقلام، فيقدِّمون لهم شيئًا من حطام الدنيا - إلا من رحم ربك - ويهدِّدون أرباب الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية بمنع المتاجر الصهيونية من وضع الإعلانات في صحفهم إذا تعرَّضوا لذكر الصهاينة بسوء، فيمنعون عنهم مردودًا عظيمًا يستفيدون منه، فالأموال هي التي تجعل صُحفهم تصدر يوميًا ومن دون تأخُر، سواء كانت هذه الإعلانات من تجارتهم في مدينة نيويورك، أو من خارجها من تجّار وأرباب المصانع من الصهاينة المنتشرين في الولايات المتحدة الأميركية.

إن المرء ليأخذه العجب عندما يرى 85 % من تجّار مدينة نيويورك، ومن أرباب مصانعها هم من الصهاينة، وأما مصانع النسيج التي تنتج القطن والحرير، فهي جميعها يمتلكها هؤلاء القوم من الصهاينة.

منذ الأربعينيات من هذا القرن - القرن العشرين - بدأوا يتقرّبون من الشركات العالمية، والبنوك، ولم تمْضِ غير سنين قليلة، حتى أخذوا يديرون بأيديهم ونفوذهم المادي هذه الشركات، والمصارف، والبنوك.

ويستعملون الآن في مصانعهم آلاف العمال ويخصمون من راتب كلٍّ منهم قسمًا من راتبه الأسبوعي يُضاف إلى صندوق الإعانات لإسرائيل، وإنْ لم يفعل العامل ذلك فما أمامه إلّا الطرد والفصل من عمله ولا تُعطى له شهادة حسن السلوك التي يحتاجها للعمل في المحلات الأخرى. وهذا بخلاف الشركات الكبرى إذ يسمح لها بإرسال التبرُّعات لليهود الذين هاجروا إلى فلسطين. وتخصم هذه التبرعات من الضرائب التي تتقاضاها الحكومة الأميركية من هؤلاء التجار.

هذا النفوذ القوي المتحكّم في أوساط الشعب الأميركي، والمتسلِّط تسلطًا تامًّا على مرافق الحياة في هذه البقعة من الأرض، هو بثقله جاثم على الأمة

الأميركية في جميع مرافقها، ومتسلِّط على الغالبية من زعمائها، يصرفهم حسبما يراه وكيفما يشاء، حتى أعضاء الكونغرس «البرلمان» الأميركي، نفوذهم قويّ بين أفراده، فتجدهم أوّل ما يُعرَض في البرلمان، أمر يعود نفعه على الصهاينة، فإنهم بلا تردُّد يوافقون عليه، ومن دون دراسة، ولم يُستثْنَ منهم إلّا بعض ممّن رحم ربك، من أصحاب الضمائر الحية، والمبادىء السامية، الذين ينظرون إلى مصالح الأمة الأميركية نظرة محكمة عادلة محافظة قبل كل شيء.

أثناء تقليبي لبعض أوراقي، لفت انتباهي ورقة كنت دوَّنت فيها بعض فقرات من خطاب ألقاه رئيس الولايات المتحدة الأميركية بنيامين فرنكلين على أعضاء الكونجرس الأميركي، حذَّرهم فيه من تكاثر اليهود في الولايات المتحدة الأميركية، وكان ممّا قاله: «إن أميركا لا تزال مهدَّدة بخطر جسيم لا تقلُّ خطورته عن الاستعمار الذي تخلَّصنا منه بعد تضحيات كبيرة، وهذا الخطر هو الذي ينجم عن تكاثر عدد اليهود في بلادنا، إنهم يدخلون البلاد مساكين، ثم لا يلبثون حتى يقبضوا على زمام مقدَّرات البلاد، ثم يتعالوا على أهلها، ويحرموهم خيرات بلادهم، إنهم أبالسة الجحيم، وخفافيش الليل، ومصّاصون لدماء الشعوب».

وبعد أن حرَّض أعضاء الكونغرس على طرد هذه الطغمة الفاجرة من البلاد تابع حديثه قائلًا:

«والآن فإنكم سترون بعد قرن واحد، أنهم أخطر ممّا تفكرون فيه، وستجدون أنهم قد سيطروا على الدولة والأمة ودمَّروا ما بنيناه بدمائنا.

إنهم لن يرحموا أحفادنا، بل سيجعلونهم عبيدًا في خدمتهم بينما هم يقبعون خلف مكاتبهم يتندَّرون لغبائنا وجهلنا وغرورنا. وإياكم أن تظنوا أن اليهود سيقبلون الانصهار في بوتقتنا أو الاندماج في مجتمعنا.

إنكم إن لم تتَّخذوا هذا القرار فورًا فستلعنكم الأجيال الأميركية القادمة، كما أنها ستلعن هذه الأجيال المستسلمين لليهود والمتنافسين في خدمتهم». بهذا الإنذار حذَّر بنيامين فرنكلين الرئيس الأميركي أعضاء الكونغرس. وقد حقَّق الصهاينة الكثير ممّا حذَّرهم منه فرنكلين، بل وأخطر ممّا فكَّر به أو تصوَّره أعضاء الكونغرس.

ها هو اللوبي الصهيوني وقد أحكَمَ قبضته القوية على ضعفاء النفوس من الساسة الأميركيين، حتى بلغ فيه الأمر أن يتدخّل في شؤون البلاد خارجيًّا، ثقافيًّا، اقتصاديًّا، وداخليًّا، الأمر الذي ورَّط الحكومة الأميركية بأكثر من فضيحة وأفقدها الكثير من هيبتها والكثير من نفوذها.

وها هي الولايات المتحدة الأميركية تقدِّم بلايين الدولارات إلى هؤلاء الصهاينة. أيظن هؤلاء القوم أن الصهاينة سيمتثلون لأوامرهم ويحقِّقون رغباتهم؟ ولفتة غيرها إلى تدخل الصهاينة في الإعلام، فالإذاعة ودور السينما والصحف المحلية وامتلاك العمارات الضخمة، والفنادق الفخمة، والبورصة ومشتقاتها كل هذا، بل وأكثر منه يديره الصهاينة كما يحقُّ لأي صهيوني يحمل الجنسية الأميركية، أن يحمل الجنسية الإسرائيلية. من هذا حذَّر الرئيس فرنكلين، صحيح أنني لمست أثناء تجوالي في ربوع أميركا بعض الاستنكار من أبنائها لهذا الوضع الشنيع، وغضب شديد على هؤلاء الذين فتحوا لهم أبواب بلادهم فعاثوا بها فسادًا وقاموا بأخسِّ الأعمال ضدَّ الشعب الأميركي، وأثناء عملي بالتجارة في نيويورك في أوائل الأربعينيات لم أستطِع التعرُّف على تاجرٍ مسيحي واحد، بل وجدت الصهاينة يمتلكون كل شيء في مدينة نيويورك.

بالإضافة إلى ما سبق وأوردته عن الرئيس فرنكلين عرفت أيضًا أنه أثناء اجتماع الرئيس روزفلت مع المغفور له الملك عبد العزيز في القاهرة وكانت الحرب العالمية الثانية لا تزال مستعرة الأوار، تحدَّث الرئيس روزفلت مع الملك عبد العزيز رحمة الله عليه، وقد عرض الملك على الرئيس تفاصيل القضية الفلسطينية، وأشفع ذلك بمذكرة واضحة تمام الوضوح يمكن الاطِّلاع على نصِّها في ملاحق الكتاب.

وكان لحديث الملك مع الرئيس ولهذه المذكَّرة أوسع الآثار، وكان فيه برهان على أن ساسة الولايات المتحدة كانوا غير متفهِّمين حق الفهم لأحوال الشعوب، وأن الإدارة الأميركية في الداخل والخارج كانت تحت سيطرة الصهيونية، فقد صرَّح الرئيس روزفلت قائلًا: إن مكوثي مع الملك عبد العزيز وقتًا قليلًا فهمت منه

في مدّة خمس دقائق عن القضية الفلسطينية أكثر ممّا فهمته من التقارير الواردة من سفرائنا الموجودين في الخارج.

وعد الرئيس روزفلت الملك عبد العزيز رحمه الله أنه سيوقِف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وسيُعلن ذلك في اجتماع مزمع عقده في سان فرانسيسكو في ولاية كاليفورنيا.

حضر وفد من المملكة العربية السعودية يرأسه الأمير فيصل مصحوبًا بإخوانه الأمراء: محمد وفهد ونواف أبناء عبد العزيز وعبدالله الفيصل، والشيخ حافظ وهبة، وسليمان بن عقيل رئيس مكتب الأمير فيصل بن عبد العزيز والشيخ علي رضا، مفوّض المملكة العربية السعودية في واشنطن - الأمر الذي سأتحدّث عنه فيما بعد -.

علم الصهاينة في نيويورك وفي واشنطن بما سيقوم به الرئيس روزفلت من توقيف الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، فقرّروا التخلُّص منه وانتشرت بعض الأقاويل التي مَفادها أن الصهاينة قد أعطوا الرئيس روزفلت بطريقتهم الخاصة إبرة قضَت على حياته، واستلم الحكم بعده نائبه ترومن، فأصابه رذاذ من الفائدة التي قدّمها الصهاينة لضِعاف النفوس من رجال السياسة.

لقد كنت وقتها مرافقًا للوفد السعودي الذي حضر برئاسة الأمير فيصل لتوقيع ميثاق الأمم المتّحدة في سان فرانسيسكو ولقد أرسلت إليَّ برقية تحمل خبر وفاة روزفلت وذهبت وقتها إلى المرحوم الأمير (الملك) فيصل وأطلعته على البرقية وقلت له إنَّ موت روزفلت هو خسارة كبيرة للشعب الأميركي. فقال وقد بدا عليه التأثُّر: هذا صحيح هذا صحيح.

أعود الآن لمتابعة الحديث عن وصولنا إلى نيويورك. إن هذه المدينة الجبّارة التي يؤمّها يوميًّا، مليون من الزوار يفدون إليها على مراكب للبحر تمخر عبابه، وطائرات تشقُّ أصوات مكائنها أجواء الفضاء وسيارات تنهب الأرض بجريانها، وعلى قطارات حديدية تتلوى في منعطفات جبالها وتجري مسرعة في سهولها ووهادها، حتى إذا ما اقتربت هذه القطارات من المدينة، وتراءت لها عظمتها

وقوتها خفَّفت من سيرها، واختفى ظلّها من على وجه الأرض وانسابت بباطنها وسارت على مهل وفي تواضع إلى أن تستقرّ في محطة جراند سنترال، أو محطة بنسلفانيا وهما محطّتا القطارات الحديدية لا ثالثة لهما، كما يُغادر هذه المدينة العجيبة مقدار هذا العدد في كل يوم.

نيويورك، المدينة العظيمة في كل شيء من أمور حياتها وفي كلِّ مرفق من مرافقها، في ضخامة أبنيتها، وتنسيق شوارعها، وترتيبها وأناقة متنزهاتها، وضواحيها، وفي مكتباتها، وما تضمّه من الكتب القيِّمة وفي كلياتها وجامعاتها، وفي مستشفياتها، ودور صحفها ومجلّاتها، وفي تجارتها ومعاملاتها، في بنوكها ومصارفها، في فنادقها الجميلة الأنيقة، في مطاعمها المتنوعة، وفي حركتها الدائمة التي لا تهدأ لحظة واحدة، في ليلها ونهارها، نهارها سعي دائم، وعمل متواصل، وجهد لا يعتريه ضعف ولا وهن ولا يجاريه تعب ولا نصب، ولياليها وما أدراك ما لياليها، حركة منتظرة في جميع أطرافها، خاصة في شارعها الكبير (برودويه) تجد الناس فيه ليلًا كخليّة النحل، يصطدم فيه الغادي بالصادي، كتف بجانب كتف وردف يلتطم بردف، وأقدام تتزاحم على أرضية الشارع، وأنوار يسطع منها نورها، هنا وهناك، تمثِّل نور الشمس بضيائها. وإذا اطّلعت على الوجوه وأمعنت فيها النظر، تراها مشرقة ضاحكة، ومستبشرة مرحة، متفائلة، لا يفكر المرء منهم إلّا بحاضره الذي هو فيه، فهو يتمتّع بالحياة كما يشاء، وبقدر المستطاع، ولا يقع نظرك في هذا الشارع الطويل الفسيح على رجل يمشي بمفرده إلّا نادرًا فكلهم زوجين اثنين يصحب الرجل قرينه، أو أحد أفراد أسرته، أو خطيبته، أو صديقته، يؤمون الملاهي المتواصل عملها، خمس عشرة ساعة، من ساعات الليل والنهار، ومنها ما هو ذو طابع خاص يقوم أفراده بالتمثيل والغناء، ومنه ما يتَّخذه أصحاب الشركات وأرباب المصانع كدعاية لمنتوجاتهم، وما يتعاطونه من أصناف التجارة المتنوعة، يستأجرون أحد الممثلين السينمائيين المرحين، فيضفي على الحضور أصناف المرح يؤنسهم بظرفه، ويطربهم بنكاته، يتخلَّل ذلك، مشاهد يقوم بعرضها فتيات وفتيان يشدّون انتباه الناس بخفّتهم وفيما

يمارسونه من ضروب العرض، وأفانين الرقص ثم تمشي قليلًا نحو الشارع الغربي، فتجد أمامك دار الأوبرا، قائمة على إحدى زوايا الشارع الذي يليه، فإذا قُدِّر لك أن تكون في نيويورك يوم افتتاحها فسيُذهلك ما تراه من الأبّهة والعظمة، وترى علية القوم من أرباب الملايين ومديري البنوك وأصحاب المصانع ورؤساء الشركات، ومختلف طبقات الشعب، كلٌّ قد عرف مكانه ومقامه، يأتون خصّيصًا لهذا الافتتاح العظيم، من مدينة نيويورك ومن حولها من القرى تنقلهم سياراتهم الفخمة، لمشاهدة ما يُعرض في هذه الدار من فنون التمثيل والغناء.

أما نساء هذه الطبقات من الناس فحدِّث عنهن ولا حرج، كل حسناء منهن، تُبدي ما خفي من زينتها، ولا يقع نظرك إلّا على عقود من الألماس، تتلألأ على صدورهن وأقراط تتدلى من آذانهن، ولا يَجِدن من حرجٍ إذا لم يخفين معاصمهن، المرصّعة بالجواهر الثمينة، وإن البصر ليزيغ بين أصناف الفراء المختلفة القياسات والألوان، وبين تلك الجواهر المتلألئة على صدور الحسان كتلألأ نجوم السماء.

لم يكتَفِ سكان هذه المدينة الجبّارة بتسخير سطح الأرض في غدوِّهم ورواحهم، وفي أعمالهم وتجارتهم، فقد ضاقت بهم الأرض ذرعًا بما رحبت، فاتّخذوا لهم سلالم من الحديد قائمة في شوارعها يصعدون عليها، فتُدنيهم خطاهم إلى قاطرات تسير على جسور ممتدّة في بعض شوارعها، يُزعج سيرها وصفيرها ساكني الطبقات العليا من الأبنية الفخمة، لذا أزيلت هذه الجسور الحديدية الممتدة في أعالي الشوارع، واتّخذ القوم أنفاقًا في باطن الأرض، أقاموا فيها قاطرات تسير تحت الأرض ليلًا ونهارًا، دون انقطاع، تُعرف باسم (الصابوي) تنقلهم من مساكنهم إلى أية جهة يريدون الوصول إليها من مدينتهم العظيمة بأجر بخس، لا يتجاوز العشر سنتات، يستعمل هذا الصابوي للأغنياء منهم والفقراء، فلا تفاوت في درجاته. يركب البيض والزنوج معًا فلم تكن نيويورك في ذلك تفصل قطاراتها بين السود والبيض كما كانت تفعل غالبية الولايات الأخرى، وقد طوّروا استخدام هذه الأنفاق إلى حدِّ أنهم سيَّروا قاطرات الحديد تحت نهر مدينتهم الخالد هدسن حيث تسير القطارات إلى ولاية نيوجرسي.

لا يمكن للإنسان إلّا أن ينعتهم بالجبابرة لأنهم سخَّروا لراحتهم وأنسهم، ولهوهم، ومرحهم الهواء والماء والحديد والنار. وعلى الرغم من هذا التقدُّم والرقي في هذه المدينة العظيمة الجبارة مدينة نيويورك الزاهية الزاهرة إذا حملتك خطاك من شارعها الخامس الذي يفصل المدينة إلى قسمين شرقي وغربي، وقطعت عرضًا شارعين أو ثلاثة متوجهًا غرب المدينة، يذهلك أن ترى الأبنية الوضيعة، وحبال الغسيل المعلَّقة في شرفاتها تحمل الثياب، من سراويل مقطّعة، وأثواب متهلهلة من متاع الفقراء والعمال، ولا تلبث أن تقول أين هذه الأبنية الوضيعة، وما حولها من الأوساخ من جاراتها ناطحات السحاب التي لا تبعد عنها، إلّا العشرات من الأمتار؟ وإنه ليأخذك العجب كل مأخذ عندما يقع نظرك على أماكن منزوية بين هذه الأبنية الوضيعة، تقدم لزائريها من العاطلين رديء الطعام ورخيص الشراب.

إذا قارنّا بين هذه الأماكن الوضيعة وبين تلك الصالونات الفخمة القائمة في منفسحات الفنادق الضخمة التي يؤمها علية القوم وتتزاحم فيها المناكب، يتبيَّن لنا جليًّا واضحًا مقدار الفارق العظيم في تفاوت الطبقات في تلك المدينة العظيمة الجبارة.

إنك لتعجب إذا قُدِّر لك أن تتجول في أنحاء بقية نيويورك، (بروكلن، وهارلم) موضع الملونين، أن تجد في بعض هذه الأماكن أبنية وضيعة، وأوساخها متراكمة، يشمئز منها الإنسان.

لم يتح لنا الوقت القصير الذي قضيناه في مدينة نيويورك بزيارة معاهدها العلمية إلّا مرتين، إحداهما كانت زيارة خاطفة لجامعة كولومبيا، لم يواكبنا الحظ فيها، وكان ذلك يوم الأحد، يوم العطلة الأسبوعية ظنًّا منّا أننا سنجد بعض أقسامها مفتوحة أبوابها لاستقبال الزائرين، أو أننا سنعثر على بعض الأساتذة أو الطلاب، ليحققوا رغبتنا فيما قدِمْنا إليه من الاطّلاع على مناهج التدريس في هذه الجامعة، ولنقف على عدد ما تستوعبه هذه الجامعة من الطلاب سواء منهم الأجانب أو الوطنيون، ولكن ظنَّنا قد خاب، فلم نجد أحدًا يستقبلنا، وعدنا أدراجنا محرومين من تحقيق ما تمنَّيناه.

المرة الثانية التي زرنا فيها جامعة نيويورك، لم يكن حظّنا أحسن من حظنا فيما سبق في زيارة شقيقتها جامعة كولومبيا، فبينما كنّا نتجوَّل بين أبنيتها الفخمة، مأخوذين بمناظرها الجميلة، وعندما همَمْنا بالدخول إلى أقسامها، إذا بقرينتي ينتابها مغصٌ شديد، فعُدنا أدراجنا إلى الفندق.

في اليوم الثاني، حظينا بمن وافانا بمعلومات عن المعاهد العلمية في هذه المدينة، فقال: يوجد في مدينة نيويورك عشر جامعات وكليات كبيرة، مع عدد آخر من الكليات الصغيرة، ذات الأقسام القليلة، تضم هذه المعاهد في أبنيتها 180000 طالب وطالبة، وفي مدارسها الابتدائية والثانوية ما يقرب من مليون طالب، ذكورًا وإناثًا، كما أخبرنا أن في هذه المدينة مدارس كاثوليكية خاصة، يقدَّر عدد طلّابها بتسعين ألف طالب وطالبة، والاختلاط ممنوع بينهم، الفتيات لهن غرف خاصة للتدريس وكذلك الطلاب ولهم في هذه المدينة كنيسة عظيمة، في الشارع الخامس، ويحتفلون في كل عام بيوم شمِّ النسيم في هذه الكنيسة.

كان لدور صحفها، ومجلّاتها، نصيب من زيارتنا، فألفيناها قائمة على نظام محكم، وعمل متقن يسترعي الانتباه، ففي هذه المدينة خمس عشرة صحيفة تصدر يوميًا، أمّا مجلاتها الشهرية والأسبوعية فهي كثيرة العدد، وإن الزائر ليقف مبهوتًا أمام كثرة عدد صحفها التي تصدر يوم الأحد، حيث تبلغ مائة صحيفة أو تزيد، مقسَّمة إلى عدة أقسام، منها السياسية، والاقتصادية، والرياضية وقسم الإعلانات ومجلة الأولاد، . . . إلخ.

مجموع ما تصدره هذه الصحف الخمس عشرة يوميًا يبلغ ثمانية ملايين نسخة، منها ما يوزَّع في نيويورك، ومنها ما يُرسَل إلى بقية الولايات.

وإليكم بيان بأسماء هذه الصحف وما تُصدره يوميًا:

اسم الصحيفة	العدد اليوم
نيوز	5,000,000
جنرال أميركا	564,000
وول ستريت	537,000
نيويورك تايم	471,000
ورد تلجرام	355,000
بوست	265,000
هرلدتربيون	243,000
ناشيونال ايكويرر	231,000
تلغراف	058,000
جورنال كورشل	34,000
لونك أيلاند	276,000
ستار جورنال	93,000
لونغ أيلاند اوفوكيت	17,000
ريثمن نيويورك	47,000

مجموع الأعداد التي تصدرها هذه الصحف يوميًا (8,291,097) نسخة حسب إحصاء عام 1935، وفي الشارع الخامس الذي يفصل مدينة نيويورك إلى قسمين شرقي وغربي، تقع المكتبة العامة في القسم الغربي منه تحتل بنايتها الضخمة شارعين من شوارع المدينة وتحتوي هذه المكتبة على عدد ضخم من الكتب القيمة من جميع اللغات يقدَّر عددها بخمسة ملايين كتاب، مختلفة المواضيع، ومنها الكتب النفيسة الفاخرة، وتُعَدُّ هذه المكتبة الثانية في الولايات المتحدة بعد مكتبة

الكونغرس التي تحتوي على اثني عشر مليونًا من الكتب في واشنطن العاصمة، من كل كتاب يُطبع في الولايات المتحدة الأميركية بصرف النظر عمّا تحتويه هذه الكتب من البحوث والمعلومات.

بينما كنّا نواصل تجوالنا في هذه المكتبة القيّمة، ونراقب حركة الكثير من الزوار ونقلِّب الطرف فيما تحتويه من الكتب، توقّفنا أمام يافطة كُتِب عليها، القسم العربي فنقلتنا خطانا نحو هذا القسم فألفيناه يحتوي على كتب عربية عديدة المخطوطات منها والمطبوعات، تحتل هذه الكتب رفوفًا عديدة في هذا القسم، مرتَّبة ترتيبًا أنيقًا ومنسقة تنسيقًا بديعًا، مبوبة تبويبًا متقنًا، فهذا القسم الأدبي على اختلاف أنواعه، ويليه القسم العسكري، ويليه القسم الديني وفي القسم الأخير منه، وفي موضع ظاهر على هذه الرفوف كتب التفاسير القرآنية، والأحاديث النبوية، البخاري وابن ماجه، الطبراني، الترمذي، مسند الإمام أحمد، وغيرها من الكتب الدينية، والعلمية والاجتماعية والأدبية يجد المرء فيها ما يسدُّ نهمه العلمي، ويروي ظمأه الأدبي، في أيِّ موضع طرقه، اجتماعيًّا كان أم علميًّا، مدنيًّا كان أم دينيًّا.

أما مستشفياتها العديدة المستجدَّة منها، وغير المستجدة، فحدِّث عنها ولا حَرَج، ويروق للمرء أن يتبسط بأحاديثه عنها، عن أنظمتها، نظافتها، عدد أطبائها الاختصاصيين منهم، وغير الاختصاصيين، عن هدوئها، أوقات دوامها المنتظم، غرف عملياتها، موظفيها الذين لا تفارق الابتسامة شفاههم، حيث تجد كُلًّا منهم يعمل بسكوت ومن دون ضجة، حتى ليخيَّل إليك أن المستشفى خالٍ من الناس، ومن السكان، والمرضى، ومن المراجعين، تجد هذه المستشفيات منتشرة في هذه المدينة هنا وهناك، وفي كل ركن من أركانها وأكبرها وليس بأفخمها، مستشفى نيويورك فهو ضخم المبنى، متعدِّد الأقسام كثير الاختصاصيين من الأطباء، يَفِد إليه الكثير من أصحاب العاهات والأمراض المزمنة المستعصية، وكثير منهم يغادرون المستشفى، وهم أكثر ما يكونون صحة وعافية، إنه مستشفى عالمي له شهرته ومكانته في أوساط الدنيا. وممّا يلفت النظر، ويسترعي الانتباه، في هذه المدينة الصاخبة، حركتها الدائمة وخاصة في منتصف النهار، عندما يغادر العمال

مصانعهم، وأرباب المصالح التجارية مكاتبهم، لتناول الغداء في المطاعم القريبة من المحلات التي يمارسون فيها أعمالهم.

في اليوم الأول من قدومنا نيويورك، كتبتُ رسالة لشقيقي محمد عيد، أخبره فيها عن وصولنا إليها، متمنيًا له طول العمر والصحة والسرور، وأحببتُ أن أضعها بنفسي في صندوق البريد، ولأتمتع بمناظر المدينة، فاغتنمت فرصة استراحة قرينتي فتركت الغرفة إلى مكتب الاستعلامات في الفندق وأخذت منه طوابع بريد وتركت فندق بلازا الضخم الذي كنّا نسكن فيه والواقع على ملتقى الشارع الخاص والشارع الخمسين والمطلّ على حديقة نيويورك الشهيرة المعروفة بسنترال بارك، وخرجت أبحث عن صندوق البريد.

كنت أسير على أرصفة الشارع بخطى وئيدة مأخوذًا بما أشاهده معروضًا في المحلات التجارية من أصناف المجوهرات الفاخرة والملابس الأنيقة الزاهية وغيرها من المعروضات النفيسة، ومن ازدحام السيارات في هذا الشارع الطويل العريض، فبرغم كثرة هذه السيارات وازدحام الشارع بها، لم تسمع صوتًا لمنبهاتها، ازدحام بهدوء تسير فيه السيارات ببطء، فواصلت السير حتى بلغت الشارع الثاني والأربعين، وهو أكثر شوارع نيويورك ازدحامًا، وكانت الساعة الثانية عشرة من النهار، ففوجئت بجماعات من الكتل البشرية، تاركة محلاتها التجارية، تسير بسرعة فائقة، فهذا يصطدم بي وآخر يدفعني وثانٍ ينحّيني عن الطريق بلطف وآخر بشدّة وعنف، وثالث يلمسني بمنكبه، ورابع يتكلَّم بكلمات لا أفهمها، ربما يشتمني، فغدوت كالكرة بين اللاعبين، قلت في نفسي ما لهذه الجماعات الهائجة المائجة كأنها قسورة نافرة، إنهم بعيدون عن اللياقة والكياسة التي نراها في أوطاننا على شاشة السينما أو نسمع عنها من أفواه الناس، أو نقرأ عنها في الكتب والمجلات، ولكني عندما علمت أن هؤلاء القوم لديهم ساعة واحدة يتناولون خلالها غداءهم ويأخذون بها راحتهم من ميثاق أعمالهم ثم يعودون لأعمالهم، حينها عذرتهم ولُمت نفسي قائلًا: لقد أخطأت يا خليل في فهم هؤلاء القوم الساعين في طلب الرزق.

كانت الرسالة لا تزال بيدي، فوجدت صندوقًا على حافة الرصيف متوسط

الحجم مطليًّا بطلاء أخضر، وكأن الدهّان قد تركه منذ ساعة، وظننته صندوقًا للبريد، وحاولت أن أضع رسالتي فيه فإذا برجلٍ يمسك يدي، ويشير إلى صندوق البريد المعلّق على الجدار قائلًا: إن هذا الصندوق للقُمامة فانكسفت منه وشكرته، وأبقيت هذا الحادث سرًّا مكتومًا بيني وبين نفسي إلى أن علمت بالقصة التي حدثت مع السيد فارس البحنسي، اللبناني المولد، والمقيم في لوس أنجلوس كاليفورنيا، فبعد سنة من وصولي لأميركا، كنت مع بعض اللبنانيين أجلس في متجره الكبير الذي هو عبارة عن صالة عرض مفروشات فاخرة عندما دخل علينا السيد البحنسي وعلى ثغره ابتسامة عريضة وبادرنا قائلًا: لي الآن في الولايات المتحدة الأميركية ما يَقرُب من خمسين عامًا، وقد حدث لي حادث، منذ دقائق، لا أظنّكم إلّا قائلين، إذا قصَصْته عليكم إنني لا أزال مغفَّلًا، فقد ذهبت لأضع رسائلي في صندوق البريد، فألقيتها في صندوق المهملات، ظنًّا مني أنه صندوق للبريد، ولولا وجود ولد لم يجاوز الثانية عشرة من العمر، قال لي هذا الصندوق للمهملات فضع رسائلك في صندوق البريد، لولاه لكانت هذه الرسائل ذهبت لا لأربابها، بل لتُرمى مع المهملات.

كنت أكتم ما حدث في مدينة نيويورك، عندما هممت بوضع رسالتي في صندوق المهملات، وأبقيت ذلك سرًّا بيني وبين نفسي ولكن عندما سمعت السيد البحنسي يقصُّ ما حدث لرسائله، وهو الذي قضى في الولايات المتحدة خمسين عامًا، هنا تجاسرت وأخبرت الجماعة الجالسين في محل البحنسي بما حدث لي في مدينة نيويورك، بمحاولتي وضع رسائلي في صندوق المهملات. وأمرٌ آخر حدث لي في هذا اليوم وبهذه الجولة اليسيرة لا يقلُّ غرابة عمّا سبقه من حادث صندوق البريد ومشاهدتي ترك الناس محلّاتهم التجارية مسرعين لتناول غدائهم، وإليك هو:

عدتُ أدراجي إلى الفندق لا مشيًا على الأقدام، كما سبق لي، بل ركبت (الباص) وكان ذا طابقين علوي وسفلي والعلوي منه مكشوف. فأخذت سلّمه إلى أن أوصلني للطابق الأعلى، ونظرًا إلى برودة الطقس لم يكن في الطابق العلوي أحد من الركاب، فأخذت موقعي فيه، أتمتع بما أشاهده من ازدحام كثرة الخلائق

والسيارات السائرة في هذا الشارع الخامس، وبينما كنت مأخوذًا بهذه المناظر، التي لم أرَ مثلها في أي بلد زرته، إذ بي أفاجَأ برجل يمدُّ يده نحوي وبها شيء لم أنتبه له بادئ الأمر، وأول ما تَبادر لذهني أنه من المغامرين الذين يسلبون الناس في قارعة الطريق كما كنّا نشاهد على الشاشة البيضاء، في دور الصور المتحركة (السينما) فأمسكت يده وأنحيتها جانبًا، فارتبك الرجل، وهزّ رأسه وقال: الأجرة من فضلك، ثم وجّه يده نحوي يحمل بها حاجة تشبه المسدس وبها ثقب، فناولته دولارًا وأعطاني الفكة قائلًا: ضع في هذا الثقب عشر سنتات ففعلت فأحدثت هذه السنتات حركة تشبه دقّة الجرس، لقد كانت الآلة التي تسجل عدد الركاب ويستعملها «كمسارية» الباصات.

دخلت الفندق فوجدت قرينتي تحتسي فنجانًا من القهوة، ولم أقصُص عليها ما شاهدته وما حدث لي في هذه المدينة العامرة الصاخبة، وطبعًا كتمتُ عنها حادث الرسالة، وذهبَت من هذه الحياة ولم تعلم عنها شيئًا.

من الصعوبة بمكان على الزائر أن يقف على ما تحتويه هذه المدينة من المعالم العديدة في بضعة أيام ليشبع نهمه الاستطلاعي من معالمها فإن ذلك يستوعب وقتًا طويلًا ليتمكن من ارتيادها، فإذا أراد الإنسان أن يقوم بجولة في شارع (وولستريت) المشهور بمصارفه العديدة وضخامة أعماله التجارية، فلا بد له أن يقف ولو ساعة من الزمن، في بورصة نيويورك العالمية، ليطّلع على ما فيها من مضاربات مالية، ويرى الكتل البشرية تتزاحم في مناكبها، وأمام أبنيتها، فتراهم وقد زاغت أبصارهم ذات اليمين وذات الشمال، ولا تلبث هذه النظرات الشاردة أن تستقرّ على أحد جدران البورصة القائم عليها أسعار الأسهم المعروضة، ولا بد للزائر أن يشعر ولو بقليل من التعب، والملل، وأن يفقد أحيانًا أعصابه، عندما يرى مَن لم يتمالك أعصابه من المضاربين بهذه الأسعار، أو ينتظر أسعار أسهمه، كما يجد الزائر بعض الراحة في بعض الأحيان عندما يتابع سماسرة البورصة ويصغي لنداءاتهم عن الأسعار الهابطة الصاعدة.

وقد أخبِرْت أن البورصة يؤمها طلاب الجامعات، والمعاهد العلمية من كافة أنحاء الولايات المتحدة الذين يقومون بدراسة الأعمال الإدارية في الجامعات

والمعاهد العلمية ليقفوا على ما يحدث فيها من المضاربات المالية ويطّلعوا على كيفية التعامل مع الأسهم والسندات، وفي هذا الشارع وعلى مقربة من البورصة يقع البنك العالمي الشهير (تشير ناشيونال بنك)، ولا بد لهؤلاء الجامعيين من زيارة خاطفة أو غير خاطفة لهذا المصرف العالمي ليشاهدوا معروضاته من العملات التي هي عبارة عن جلود النمور والأصداف الهندية التي كان الهنود يستعملونها كعملة يتداولونها فيما بينهم منذ عهد بعيد، وفي غابر الأزمان والعصور، وقبل أن تعرف نيويورك (نيو أمستردام) وقبل أن يحتلّها البريطانيون سنة 1664م. وإنَّ مَن يأخذ طريقه في هذه المنطقة القديمة المستحدَثة يشعُر أنّه ينتقل بين قرون ثلاثة من تاريخ هذه المدينة فيرى أشهر حاكم هولندي (بيتر استوفينت) وقد أقام جدارًا على الحدود الشمالية للمدينة لحماية جماعة المستعمرين من أهالي البلاد القدامى من الهنود. وقد تداعت أركان هذا الجدار وأُزيل فيما بعد، لكن اسم هذا الشارع بقي كما هو، لم يتغير، (وول ستريت) أي شارع الحائط ويرى الزائر المكان الذي أدلى فيه جورج واشنطن بقَسَمه كرئيس للولايات المتحدة الأميركية سنة 1789م، عندما كانت مدينة نيويورك، العاصمة الأولى للأمة الأميركية، وفي هذا القصر كان يعقِد مجلسها الوطني.

لا بد للزائر لمدينة نيويورك من زيارة البناية الفخمة المؤلَّفة من (102) طابق وهي (امبايرستيت) القائمة على الشارع الخامس، بين شارعي 33 - 34 وكانت أعلى بناية في العالم في ذلك الزمن، فإذا أراد الزائر أن يصعد إلى قمتها، ليشاهد مدينة نيويورك من هذا الارتفاع الشاهق، ليرى شوارعها المنسَّقة المستقيمة، ويطلّ على متنزّه المدينة الكبير (سنترال بارك) الممتد لمسافة ميلين في وسط نيويورك ويصل إليه ستون شارعًا من شوارعها، ويرى الزائر البحيرة الواسعة فيه، تستعمل في فصل الشتاء للتزلج على جليدها، الذي يحدثه شدّة البرد القارس وحديقة الحيوانات، وملاعب الخيل، والمطعم الفاخر، من مطاعم نيويورك الأنيقة يفتح أبوابه صيفًا وشتاء، وبعض دور الآثار القائمة بأطراف هذا المتنزه البديع، ولا بد له من الوقوف في الصف الطويل ليأخذ مصعد هذه البناية بغية الوصول إلى قمتها، ولهذه البناية ثلاثة وثلاثون مصعدًا للإنسان، وخمسة وعشرون مصعدًا للأثاث.

يشاهد الزائر هذا المرتفع الكبير وبقية الأبنية الشاهقة القائمة هنا وهناك، ويرى أبنية مدينة الراديوستي، التي هي عبارة عن أبنية عديدة بجانب بعضها، ويطلق على هذه البناية مدينة داخل مدينة لما تحتويه من دائرة للبريد، ومحلات تجارية ومطعم فخم، وملاءٍ والمئات من المكاتب التجارية ومحطّات الإذاعات الأميركية العديدة، ومن هذه الأبنية بناية (راديو ستي ميوزيك هول) ففي هذه البناية مسرح فسيح وسيع تُعرَض فيه أعظم الأفلام الشهيرة لأكبر الممثلين، ويمكث عرض الفيلم أشهرًا عديدة أو سنة كاملة في بعض الأحيان مع استعراض كبير تقوم به إحدى الفرق، المكوَّنة من ثمانين لاعبًا أو أكثر من الذكور والإناث كان يسبق في العادة بداية عرض (الفيلم). ومن هذه الأبنية العظيمة الشامخة بناية روكفلر بلازا، المكوَّنة من ثمانين طابقًا وأمامها منفسح يحوَّل في فصل الشتاء إلى ملعب للتزحلق، وفي فصل الصيف إلى مطعم أنيق توزَّع بمنفسحه المظلات الصيفية الملونة وأعلام أمم كثيرة، ترفرف، وتخفق على جنبات هذا الملعب الجميل والمنفسح الأنيق، فإذا أراد الزائر أن يُشبع رغبته، بزيارة الأماكن التجارية الكبيرة، فلا بد له من زيارة محلات، (ميز) القائم (على الشارع 34، وشارع برودويه)، الذي إذا ما دخله الزائر، ومشى في الدور الأول منه يرى مئات من الناس منهم المشتري، ومنهم الغريب المتفرِّج، وإذا أخذ السلم الكهربائي الذي ينقله على طوابقه الثمانية، وشاهد ما تحتويه هذه الطوابق من البضائع المختلفة والأشكال والأجناس والألوان، فلا بد للزائر أن يندهش من محتويات هذا المخزن العظيم، إذ يجد كل شيء من الإبرة حتى السيارة.

إذا أراد الزائر أن يزور تمثال الحرية القائم بمدخل نيويورك محاطًا بالماء من جهاته الأربع، فلا بد له من ركوب البحر ليصل إلى هذا التمثال الضخم العظيم، فيجده قائمًا على قاعدة واسعة من البناء، فإذا صعد على درجاته العديدة، القائمة بداخل ساعد هذا التمثال، الذي يحمل الشُّعلة لتُنير أرجاء هذه القارة الأميركية، عندها يخامره شعور غريب، يُنسيه أنه في مدينة نيويورك المأهولة بعشرة ملايين من البشر أو يزيدون وأنه يدخلها كل يوم مليون من البشر، كما يخرج منها مثل هذا العدد.

يفصل مدينة نيويورك عن ولاية نيوجرسي، نهر هدسن الجميل، فبإمكان الزائر إذا أراد زيارة نيوجرسي أن يستعمل المعديات البحرية الكبيرة، التي تنقل الزوار وسياراتهم. أو يسلك طريق النفق الذي يشقُّ عباب هذا الطريق تحت النهر العظيم هدسن أو بواسطة السكة الحديدية التي تتسلَّل من تحت ماء هذا النهر، أو يَعبُر على جسر جورج واشنطن المعلَّق على الأسلاك الفولاذية القوية، والذي تمنعه من الاهتزاز، والسقوط، وطول هذا الجسر لا يقل عن كيلومتر واحد، وكان حتى عام 1935م أعظم جسور العالم، وأحسنها عمارة، تمرُّ من تحته البواخر، مهما عظمت، وطالت مداخنها، وإنك لترى هذه البواخر تجري من تحته، وكأنها سيارة تَمُرُّ بك وأنت في الطابق العلوي، لبناية مؤلّفة من اثني عشر طابقًا.

في أحد الأيام زرنا ولاية نيوجرسي، وأخذنا الطريق الأسهل، وركبنا سيارتنا وعبرنا جسر واشنطن، وعرَّجنا بطريقنا على متنزه أليسون، القائم على مساحة واسعة على ضفة نهر هدسن، وقد أهداه والد زوجتي لولاية نيوجرسي، متنزَّهًا لها، وفيه كما ذكرت آنفًا صورة والد قرينتي فرانسيس أليسون منحوتة على الصخر.

كانت الحالة الاقتصادية وقتئذٍ في الولايات المتحدة آخذة بالنمو التدريجي لتحسين اقتصاديات البلاد، وبدأت الأيام تبتسم لساكنيها بعد أن قطَّبت وجوههم طيلة سنوات، يمكنك أن تسميها بسنوات عجاف، بانَ لهم من خلالها البؤس بأبشع صوره، وحلَّ بكثيرٍ منهم داء الفقر، الأمر الذي أوقف دولاب العمل في كثير من مصانعها، وأوصدت بعض المصارف أبوابها، وتضرَّر خلقٌ كثير من جرّاء الحالة التي مرَّت بهم، وكان من بعض أسبابها، انزواء الولايات المتحدة الأميركية، على نفسها بعد الحرب العالمية الأولى، إذ لم يَرَ رئيسها ولسن بعد انتهاء الحرب، التدخُّل في شؤون القارات الثلاث: أوروبا، آسيا، أفريقيا، ولم يفتح لمنتوجات الولايات المتحدة أسواقًا خارجية، كما أوجَدَ لها الآن ساستها أسواقًا في هذه القارات، لقد ترك الرئيس ولسن أمور هذه القارات لحكوماتها، القويّ يتغلّب على الضعيف، فينجم عن هذه الحالة، زيادة الإنتاج الاستهلاكي، من دون أسواق له، وأخذت الأسعار بالهبوط، وحلَّ الكساد، وتلاشى ما كان يعتمد عليه المستثمرون من أصحاب المصانع من الادِّخار، وانخفض محصول الضرائب التي تأخذها الحكومة

من أرباب هذه المصانع، ومن غيرها من الأعمال فأوصدت في وجوه العمال، أبواب الرزق وبلغ مجموع العاطلين من مستوطني الولايات المتحدة الأميركية تسعة ملايين عاطل من مجموع سكّانها البالغ عددهم وقتئذٍ مائة وخمسة وثلاثين مليونًا من البشر، وهذا العدد من العاطلين له تأثيره وفداحته، وخاصة في بلادٍ مثل بلاد العم سام، إذ تعوَّد الإنسان فيها على المعيشة الحسنة.

بلغ مجموع العاطلين تسعة ملايين عامل، وذلك أثناء حكم الحزب الجمهوري، وقد استغلَّ بعض القائمين على شؤون البلاد من هذا الحزب مراكزهم الخطيرة في الحكومة لصالح أنفسهم، ولم ينتبهوا لِما كان يجري في البلاد من شحٍّ مادي، وركود الحالة التجارية فيها، فنشأ عن هذا أن أشرفت البلاد الأميركية على حافة الهاوية وكادت أن تَحدُث الكارثة لو لم يستلم الحكم رجال الحزب الديمقراطي.

عند استلام الحزب الديمقراطي ناصية الحكم، أُلقِيت مقاليد الأمور للرئيس روزفلت، فأخذ يمارس صلاحيته، وأول عمل قامت به حكومته كان إيجاد عمل لهؤلاء العاطلين، فاستخدمهم في فتح شوارع جديدة خارج المدن، وأوجدت لهم أعمالًا عديدة مختلفة يقومون بممارستها، وأخذت تدفع لهم الرواتب الشهرية، وكنت ترى أينما ذهبت خارج المدن وفي ضواحيها، آلاف العمال يشقّون الأرض، ويمدّونها، وكانوا يقومون بهذا العمل ببؤس وفتور، فلا يقع نظرك إلّا على جماعات من العمال جالسين يحتسون القهوة، ويأخذون راحتهم، على حافة الطرقات، وعلى مرأى من رجال الحكومة، ولا يجد هؤلاء العمال من يحثّهم على العمل، بل تركتهم الحكومة وشأنهم يعملون حينما يطيب لهم العمل وبقيت الحكومة، تستخدم العديد منهم، إلى أن استَعَرت الحرب العالمية الثانية ودخلت الأمة الأميركية في أتون معمعتها.

برغم النجاح الذي واكب الرئيس روزفلت، في إدارة الحكم، وصعود أسهمه بين قومه، من اليوم الأول الذي اعتلى فيه منصَّة الحكم، حتى إن خصومه السياسيين من الحزب الجمهوري في ابتداء حكمه، تركوا له المجال، وأخلوا له السبيل لينهض بالبلاد من كبوتها، ويتصرَّف في حُكمِها كما يشاء، وبرغم مؤازرة

عدد غير قليل من رجال الحزب الجمهوري المخلصين، ممّن كانت لهم الكلمة النافذة، في الأوساط السياسية والخبرة الواسعة في إدارة دفّة الحكم، برغم كل هذا، لم ينجح الرئيس روزفلت النجاح اللازم في تخفيف عدد العمال العاطلين، فقد بلغ عددهم حتى ابتداء الحرب العالمية الثانية، أحد عشر مليونًا من العمال العاطلين، غير أنه قام بأعباء الحكم المتداعي خير قيام، إلى أن دبت الحياة نوعًا ما في أرجاء البلاد ونشطت التجارة في أمورها، وبدأت بعض المصارف وأمهات الشركات، بفتح أبواب متاجرها، وسارت نحو النمو، وبخطى وئيدة ولكنها ثابتة.

لم يكن للولايات المتحدة الأميركية سياسة خارجية مرسومة الأهداف، ظاهرة الشكل بالمعنى الصحيح، كما نراها اليوم، اللهم إلّا في أستراليا وجاراتها من الحكومات اللاتينية الأميركية، أمّا في بقية القارات الثلاث، فكانت سطحية وبسيطة، وبرغم وجود سفراء لهم في عواصم حكوماتها، لكنهم لم يتدخّلوا في أمور الحكم، كما يفعل سفراؤها في الوقت الحاضر، في القارات الستّ من هذا العالم الكبير، حتى خاضت معارك الحرب العالمية الثانية، وظهرت منتصرة ظافرة كما ظهرت في الحرب العالمية الأولى.

ممّا يسترعي الانتباه، في هذا الشعب النشيط، المكوّن من كافة شعوب العالم هو سعي أفراده الحثيث، إلى تكوين شخصيتهم، وسعيهم لإيجاد تاريخ لهم يلقنونه أبناءهم، والوقوف صفًّا واحدًا متراصًا، مُحكَم الحلقات، في وجه التيارات الخارجية، بغض النظر عن أيِّ جهة تأتيه من الشرق أو من الغرب، أو من أي شعب من شعوب العالم، فكلّهم يقفون متراصّين دفعة واحدة في وجه هذه التيارات أمام الجاليات الأوروبية، وغيرها من جاليات القارات الأربع، التي اتخذت الولايات المتحدة، مستقرًّا لها ومقامًا، لا تنظر إلى وطنها الأول، إلّا أنه، وطن يستحق أن يذكر، وأن يعطفوا على ساكنيه، أما هم فأميركيون فقط.

لقد تخلّوا عن كلِّ أمرٍ يربطهم بأوطانهم الأولى، وقطعوا كل صلة بينهم وبينها، ولم يبْقَ لديهم غير التغنّي بأمجادها ومفاخر أبطالها وزعمائها، يتناقله الابن عن الأب، وبقيّة من الذكريات تداعب أفكارهم، لا تلبث أن تضمحلّ مع مرور الأيام، وتعاقب السنين، فانصهرت هذه الجالية الآتية من مختلف أقطار العالم،

المتباينة في العادات والأخلاق والطبائع، المختلفة في العقائد، في بوتقة واحدة، فكوَّنت شعبًا واحدًا، يتكلم ويتفاهم بلغة واحدة، طبائعها واحدة، وهدفها واحد، هو تعزيز هذا الوطن، ورفع مستواه العلمي، والاقتصادي، والسياسي، ليكون في طليعة الشعوب، قوة ومهابة وعزًّا.

كان للجاليات العربية، حظُّ المساهمة، فقد بدأت هجرة العرب إلى الولايات المتّحدة الأميركية منذ مائة عام أو يزيد، ولكنها ساهمت بحظ، وإن لم يكن وافرًا، في إعلاء شأنه ورفع مستواه.

إنَّ الجاليات العربية في رأيي من خيرة الجاليات المهاجرة لهذا الوطن، فلم يُسمع عنها منذ مبدأ هجرتها إلى هذا التاريخ أنَّ فردًا من أفرادها قام بعمل من شأنه أن يخلَّ بشرفه ومروءته وسِمَته العربية كما تفعل بقية الجاليات من تكوين العصابات، والسطو على المصارف، وخطف البنين والبنات، واستعمالهم للقتل والسلب، ولم يحدث مثل هذا لدى مهاجري العرب فقد كانت الجاليات العربية، مهتمّة بتكوين نفسها ومشاطرة الشعب الأميركي للنهوض بالبلاد، ففي مدينة نيويورك نخبة طيبة من أبناء العروبة، منهم الأطباء والمحامون والسياسيون والأدباء والتجار والعمال، يقطن الكثير منهم في حي بروكلن، ولهم نواديهم الخاصة وجمعياتهم ومعابدهم.

قمتُ بزيارة مكتب القائم بشؤون الجامعة العربية في نيويورك وكان يدير أموره الدكتور فؤاد شطارة فلقيت فيه جماعة من مهاجري العرب، واستقبلني حبيب كاتبه بعد أن عرَّفته بنفسي، وقدَّمني إلى الشاعر إيليا أبو ماضي والشاعر ندرة حداد، وأخيه عبدالمسيح صاحب جريدة السائح والشاعر رشيد أيوب، والدكتور فيليب حته، والدكتور فؤاد شطارة والشاعر نسيب عريضة وفوزي البريدي صاحب جريدة الإصلاح، والأديب بطرس شحادة.

بعد دقائق من جلوسي معهم دخل علينا السيد أبو علي خير الله الرجل اللبناني الذي سبق أن قابلته في بغداد قبل ثلاث سنوات. لقد كانت مفاجأة سارّة لكلينا ورحّب بي السيد أبو علي ترحيبًا حارًّا وسألني عمّا أتى بي إلى أميركا. فقصصتُ عليه وعلى الحاضرين قصّة زواجي من الأميركية وقدومي معها. وانتقل بنا الحديث

بعد ذلك إلى أخبار الوطن العربي وأمطرني الحضور بأسئلتهم عن الوضعية العربية الراهنة في البلاد وعن ملوكها وزعمائها وأفرادها.

كانت سورية ولبنان وقتئذٍ تحت الانتداب الفرنسي والعراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني، وكانت الهجرة الصهيونية تزداد يومًا بعد يوم إلى فلسطين وبطرق شرعية وغير شرعية، وابتدأت المشاكل بين سكّانها العرب من جهة والصهاينة، والمحتل البريطاني من جهة ثانية.

أمّا الإمام عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية فقد قضى على الإمارات المحلية ودويلات ومشايخ القبائل، ووحّد الجزيرة العربية، بعدما كانت مسرحًا للغزوات والحروب، وهكذا أقام دولة وجمع شعبًا موحّدًا بدلًا من الأمراء والمشايخ المتنافسين فيما بينهم.

كان العراق يتخبّط زعماؤه فيما بينهم، لكلٍّ منهم خطة ومنهاج، والوصيّ على العرش عبدالإله نجل الملك علي بن الحسين، يوغر صدور هؤلاء الزعماء، ويبثّ السموم ويحفر هوّة سحيقة فيما بينهم، يشاطره ويؤازره في عمله هذا نوري السعيد، وكل هؤلاء يرزحون تحت الحكم البريطاني بلا قوة لديهم لتقوم بطرد هؤلاء المستعمرين وكان الخليج وجنوب الجزيرة لا يزالان يرزحان تحت الحماية البريطانية التي تستعملهم لمآربها وغاياتها بلا حول لهم ولا قوة.

أمّا القطر العربي المصري فكان الحكم البريطاني يتدخل في جميع شؤونه وحياته الداخلية عسكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، وزعماؤه وأحزابهم المنتمون إليهم، مرّة يتفقون على مقاومة الحكم البريطاني الرابض فوق هاماتهم ومرارًا يتنافسون على الحكم فيما بينهم، والامتيازات الأجنبية آخذة بخناق الشعب المصري الذي بات ليس له من الأمر شيء، والسودان العربي وما أدراك ما السودان؟ لقد فصلته الحكومة البريطانية عن الإدارة المصرية وأخذ بعض زعمائه بتشجيعٍ من البريطانيين على تقوية الانفصال والركون لإدارة شؤون حياته من قبل البريطانيين.

هكذا دار الحديث بيني وبين هؤلاء السادة العرب، وهذا ما أخبرتهم به، وقبل أن أغادر جمعهم، قدّم لي الشاعر ندرة حداد نسخة من ديوانه الشعري، وهكذا فعل كل من الشاعرين رشيد أيوب وإيليا أبو ماضي وقد زيّنوها بتوقيعاتهم.

الفصل الحادي عشر

الرحلات الأولى بين الولايات

بعد حوالي أسبوعين من وصولنا نيويورك سألتني زوجتي قائلة: هل لك أن ترى الولايات المتحدة الأميركية كما هي على حقيقتها وطبيعتها؟ وهل لك رغبة لتقف على معالمها وعادات أهلها عن كثب؟ وأن تلمَّ بعض الإلمام بأخلاق أهلها وطرق معيشتهم؟ فتُشاهد عن كثب حالة الفلاح، وهو يحرث الأرض ويلقي البذور ويسقي الزرع ويتعهّد ماشيته، وإلى العامل داخل مصنعه وهو مشمِّر عن ساعده يصهر الحديد والعرق يتصبَّب منه، والتاجر وهو يعرض بضاعته في متجره، فتعلَم منه مقدار ربحه وكسبه، وكيفية معاملته، وتعامله مع الناس؟ فأجبتها: ذلك ما كنت أبغي، قالت: ذلك شيء يتطلّب منا أن نمارس في تنقُّلنا حياة أهل البادية عندكم في الصحراء، التي حدّثتني عنها طويلًا، وعن مشاق طرقها، ووعورة مسالكها، وشقاء مستوطنيها في بعض الأحيان.

قلت: كيف يتسنّى لنا مجاراة حياة أهل البادية في هذه البلاد الآهلة بالسكان وبين قراها العديدة ومدنها العظيمة؟ ومن أين لنا الخيل والأنعام، التي تنقلنا من مكان لآخر؟ إني أرى البون الشاسع بين صحرائنا العربية وبين هذه الأراضي المكسية باللون الأخضر الزاهي من نبات الأرض. قالت: سوف لا نواجه مشقّات ولا صعوبات، وسنتبع الطريق الأسهل في تنقلنا فنستعيض عن الجِمال بالسيارات، وجُلّ ما في الأمر أن نشتري خيمة صغيرة تقينا الحرّ والبرد وسريرين من الأسرة التي يسهل طيها ونشرها، كل ذلك يسهل وضعه في صندوق السيارة الخلفي، أما طعامنا وما نحتاج إليه من الزاد فسهل تناوله، فإن محلات البقالة منتشرة على جانبَي الطريق، كذلك وقود سيارتنا فإن محطات الوقود قائمة في كل مكان. وسنسير مقدار مائة ميل يوميًّا ثم ننحرف قليلًا عن الطريق، فندخل في الأحراش

ونقوم ببناء خيمتنا وطهي طعامنا، وفي الصباح نترك هذا الحرش ثم نواصل السير. ولا بد لنا أن نعثُر على مزارع نتحدّث معه عن غيطه وأرضه وماشيته وثم مصانع عديدة نزور بعضها، ونتحدّث إلى المهتم بشؤونها ونختلط بالعمال نسألهم عن أحوالهم وأجورهم وطرق معيشتهم وهكذا حتى إذا مللنا حياة البادية ووحدتها وشعرنا بحاجة إلى الراحة من عناء السفر، ندخل إحدى المدن ونقيم بأحد فنادقها ما طابت لنا الإقامة، وواصلت حديثها قائلة: أم أنَّك تفضِّل أن تأخذ القطار، فينقلنا من مدينة إلى ثانية، فنتمتع بالراحة في فنادقها، لك الخيار، لنتبع أحد هذين الأمرين، وهكذا وقع اختيارنا على التنقل في السيارات وبدأنا السير من مدينة نيويورك متَّجهين جنوبًا على الطريق الرئيس الذي يصل ولايات الساحل الشرقي ببعضها، وكانت وجهتنا الأولى مدينة ميامي بيتش في ولاية فلوريدا.

قضينا في تجوالنا تسعين يومًا، ومرَرنا خلالها على تسع ولايات من الولايات الأميركية الثماني والأربعين وعلى عاصمة الولايات المتحدة الأميركية واشنطن، وكان ذلك قبل أن تنضمّ هاواي وألاسكا إلى الفدرالية الأميركية. وكانت رحلتنا جميلة ومفيدة، زادتني خبرة ومعرفة وأوقفتني على كثير من معالم هذه البلاد وطبائع أهلها وعاداتهم وأخلاقهم.

في مستهل اليوم العاشر من شهر رجب 1354هـ الموافق السابع عشر من شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة 1935م، خلفنا نيويورك وراء ظهورنا وكان الطقس يميل إلى البرودة واخترقنا الولايات الشمالية الشرقية، ولاية نيوجرسي، بنسلفانيا، ديلوير، وحطَّ بنا المزار في عاصمة الولايات المتحدة الأميركية واشنطن.

في مساء أحد الأيام وقبل أن تغيب شمسه، وفي ولاية بنسلفانيا، كانت قرينتي تقوم بتهيئة الطعام وأنا أحاول بناء الخيمة، وبينما كان كلٌّ منّا مشغولًا بما تعهَّد به، إذا بعربة حنطور يجرها جوادان، يحتل مقاعدها الثلاثة آنسة في السادسة عشرة من عمرها وسيدة في السابعة والأربعين ورجل في العقد الخامس يقود هذه العربة فوقفوا بنا وبعد التحية وتناول القهوة وبعض الفاكهة دعَوْنا لزيارتهم في منزلهم الذي يبعد عنّا بضعة أميال، وأردف الرجل قائلًا: دعوا أمتعتكم في مكانها فإن البلاد أمان، ولا أحد يجرؤ على أن يمسّها إنها من أملاكي.

بعد أن تناولنا عشاءنا وأخذنا راحتنا توجَّهنا لتلبية دعوتهم وقضينا ساعتين من الزمن في منزلهم الذي يشبه القصر، لضخامة بنائه ولكثرة غرفه وعدد ممرّاته، وتحدّثنا عن الجو والرطوبة والأمطار ومشاقّ السفر في هذه الأيام من فصل الشتاء، تطرّق بنا الحديث عن الأنعام والمزارع، وابتدأ حديثه، وأخذ يسرد علينا قصة حياته قائلًا: زوجتي إيطالية من مواليد هذه البلاد تعرَّفت عليها أيام الدراسة، ومنذ خمسة وعشرين عامًا عقد قراننا فأنجبنا كريمتين وثلاثة فتية، أما إحدى كريماتنا فقد تزوجت ونزحت عنا إلى ولاية فلوريدا، واثنان من فتياني تزوّجا أيضًا، ونزح كلٌّ منهما إلى إحدى الولايات، فالكبير منهما رحل إلى مدينة نيويورك وهو يتعاطى التجارة، والفتى الثاني لا يزال يتنقّل وقرينته في الولايات يقضون شهر العسل، الثالث يدرس في العاصمة واشنطن، وليس لدينا غير هذه الفتاة التي تشاهدونها وإنها مغرمة بتاريخ الأمم.

أما أنا فإنجليزي الأصل، وأميركي المولد، وهكذا والدي وجدّي من قبلي، هما من مواليد هذه البلاد، وقد حلَّ جدي في ولاية بنسلفانيا وتعاطى الزراعة وتعهَّد هذه الأرض، وتوسَّعت حتى غدت ثمانية أميال طولًا، واثنين عرضًا وقد بنى والدي هذا المنزل، واعتنى بتربية الماشية، ولدينا الآن سبعون بقرة حلوبًا، نستعمل ألبانها، وعدد كبير من مختلف الماشية، ومزرعة كبيرة من الدواجن، هذا خلاف محصولاتنا من المزروعات، وثمار الأشجار. إن الشعب الأميركي يعيش عيشة هناء ورخاء، وبالرغم من أن مسكننا هذا بعيد عن المدن والأمصار فإننا لا نشعر بهذا البُعد، ففي صباح كل يوم، تأتي سيارة كبيرة تنقل منتوجاتنا من الألبان، والبيض، والحمام، والدجاج، وغيرها من الدواجن، كالبط، والإوز، والأرانب، وبعضًا من منتوجاتنا الزراعية. تبعد المدينة عنّا خمسة عشر ميلًا. إن العديد من المزارعين لهم وكلاء في المدن، يتعهَّدون بيعَ محصولاتهم من الزرع ومن الضرع، فلا يتكلفون مشاقّ في نقلها وفي بيعها، إن أبناءنا يذهبون للمدرسة في كل يوم تنقلهم سيارات المدرسة في الصباح، وتعود بهم في المساء، يتناولون غداءهم في المدرسة. إن حياة المزارع في هذه البلاد حياة هنيئة محترمة، ويقابَل أينما حلّ بالتقدير والاحترام، وتقع على عاتقه أغلب المسؤوليات في هذا الوطن، وعليه المعوّل في الانتخابات الحكومية الخاصة والعامة.

واستطرد قائلًا: إن ظروفي الحاضرة لا تسمح لي بمغادرة البلاد لزيارة أوروبا وغيرها من القارات، مع أنني كنت أعزم عامًا بعد عام، على القيام بزيارة طويلة خارج هذه الجمهورية، لذا لا أعلم عن العالم الخارجي شيئًا أقصّه عليكم، غير ما قرأته أثناء دراستي وما سمعته من الناس الذين ساعدتهم ظروفهم على التنقّل خارج البلاد، والذي بانَ لي من دراستي، واجتماعي بالناس، أنَّ الحياة هنا في هذه القارة، وأعني الولايات المتحدة الأميركية، تختلف اختلافًا كبيرًا ظاهرًا في جميع مرافق الحياة. معظم أبناء الشعب الأميركي يشتركون في أربعة أشياء تجدها في بيوتهم، الثلّاجة والراديو، والمطبخ الكهربائي، والمطبخ البوتاغاز، أو مطبخ الوقود من الخشب، وحمّام يحتوي على الماء الساخن والماء البارد، وتتطلّب الحياة هنا من الإنسان، أن يذهب في الأسبوع ولو مرّة واحدة ليشاهد أفلام السينما، وفي يوم العطلة الأسبوعية لا بد له أن يتناول وجبة من الطعام خارج بيته، سواء أكان بمفرده أو مع عائلته، وسواء أكانت هذه الوجبة الفطور أو الغداء، أو العشاء.

توجد مساعدات للعلاج والتعليم الابتدائي مجّانًا، ومباحًا لأي شخص أن يمارس معتقده، مهما كانت صفته، وأن يعيش في حرية تامة في أعماله، فلا تجد من يسلبه حرية العمل، أو يحرمه من حرية القول، ومباح لأي إنسان، أن ينشر معتقده، ويبشِّر به بالطرق التي يراها، وأن يبدي ملاحظاته على حكّامه أو ينتقد بعض أعمالهم، فثلاثة أشياء يتمتع بها المواطن في هذه البلاد هي: حرية القول، حرية العمل، حرية المعتقد، وهذا شيء لن تجده لدى كثير من الأمم والشعوب.

إنني مزارع، لا أهتم إلّا بمزرعتي، ولكن لا يفوتني ما يجري في هذه البلاد من الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فلدي الراديو ينقل إليَّ كل حركة تحدث في هذه البلاد أو في غيرها من الأماكن الأخرى وأستنير بما تكتبه صحفنا اليومية ومجلاتنا الأسبوعية والشهرية، فهي تزوّدنا دومًا بالأخبار الداخلية والخارجية، ومن عادات ساستنا وحكامنا إذا أرادوا أمرًا سياسيًّا كان أم اقتصاديًّا أم اجتماعيًّا، أن يوعزوا للصحف لتنشره، حتى إذا تشرَّبت النفوس به، ظهر للوجود، وعمل بموجبه، أو إذا لم يَلْقَ لدى الناس فكرة طيبة يُستغنى عنه.

إني أطالع كثيرًا من الصحف اليومية، وإن جريدة نيويورك تايمز، تُعَدّ الجريدة

اليومية الرسمية، وإن لم تصدر كثيرًا من الأعداد كغيرها من الصحف كجريدة نيوز، التي تُصدِر يوميًّا ما يقرب من خمسة ملايين نسخة، توزَّع على كافة الولايات، إذ إن لهذه الجريدة اتجاهًا خاصًا، فهي تتعرض للشؤون العامة، ومشاكل الناس كالاختلافات الزوجية، والانفصال، أو الطلاق.

إن الشعب الأميركي شعب مرح، متفائل، مُكِدّ في عمله، وإن مجتمعنا يسوده التكاتف والتعاضد، في كثير من مرافق الحياة، وإذا أراد المرء القيام بعمل ما، وليس باستطاعته المُضي به، من الوجهة المادية، أو من الوجهة المعنوية، يسهل على المرء أن ينال ما يريد من الأموال ومن غيرها من الإسعافات كالقروض الطويلة الأجل القليلة الكلفة، هذا إذا كانت أخلاقه متينة.

كان يَسترسل بحديثه، بحيث لم يَدَع لنا مجالًا، لإبداء رأينا فيما يقول، أو نسأله عن بعض ما عرض علينا من أحاديثه، أو لنشاطره رأيه فيه، إن المرء عادة ما يشعر بالملل عندما يصغي إلى محدِّث لا يترك له مجالًا لمجاراته، ولكن هذا الرجل كان لبقًا في حديثه، في طلاوته، في تعبيراته البدوية، لا يمل المستمع إليه، مهما طال حديثه ومع أن من المشهور عن البريطانيين أخذهم على الفرنسيين والإيطاليين تحريكهم أيديهم ورؤوسهم عند قيامهم بالتحدُّث فلقد كان هذا البريطاني يختلف عن بقية أفراد شعبه لقيامه بحركات كثيرة أثناء حديثه، ولعله تأثَّر بزوجته الإيطالية.

بعد الانتهاء من حديثه، أخذ يسألنا في أدب، عن البلدان التي زرناها وخاصة عن البلاد العربية السعودية التي أتينا منها، وكانت أسئلة ممتعة طريفة.

ممّا قاله عن البلدان العربية الآتي: إن بلادكم العربية، حسبما ظهر لي من دراستي بلاد واسعة جرداء يابسة، ماؤها قليل، فلا أنهار تجري فيها، وزراعتها متواضعة جدًّا، لا تكفي ساكنيها، القليل عددهم، وأن منتوجاتها قائمة على النخيل، الذي ثمره هو أحلى ثمر ذقته، وقال: لا أدري هل لا تزال لديكم الخيول العربية الأصيلة التي نسمع عنها، وإذا وجدت هل تتعهدونها خوفًا من اضمحلالها؟ فإن لدينا خيولًا عربية أصيلة، والإحصاء الأخير للخيول العربية في هذه البلاد كان ثلاثة عشر ألف رأس عربي أصيل.

إن الذي يعجبني في الشعب العربي هو: سماحته وكرمه وجهاده، وصبره وشجاعته ورجولته، فلا تهملوا هذه الخصال، بل حافظوا عليها محافظة الشحيح على الدرهم، فإنها ثروة عظيمة لا يُستهان بها، فإذا فقدتموها أصبحتم أفقر من فقير، وأردف قائلًا: قرأتُ منذ يومين مقالًا نشرته صحيفة نيويورك تايمز، يقول: إن البلاد العربية السعودية قد عُثِر في جوفها على آثار للبترول في الجهة الشرقية منها، وعلى الخليج العربي، ولكن الجيولوجيين لم يتبيَّن لهم بعد، وجود كميات كبيرة تجارية، وتقول الجريدة: هناك أمل كبير في العثور على كميات ضخمة من هذا الذهب الأسود، إذا قُدِّر لهذه البلاد ظهور البترول في جوفها، بصورة تجارية، فستصبح في بضع سنوات أغنى البلدان العربية، وما يدريكم ربما ستكون أغنى بلدان العالم، وستوفِّر لساكنيها حياة هنيئة، خيرًا من حياتهم التي يتقلبون فيها على مضضٍ وفي صراع شديد معها، وعسى الله أن يحقق لبلادكم العربية هذا الأمل الكبير.

كانت الولايات التي اجتزناها من ولاية نيويورك حتى ولاية فلوريدا عشر ولايات، وهي: نيويورك، ونيوجرسي، وبنسلفانيا، وديلاوير، وميرلاند، وفيرجينيا، وفرجينيا الغربية، وكارولينا الشمالية، وكارولينا الجنوبية، وجورجيا، وفلوريدا، إضافة إلى العاصمة الفدرالية واشنطن وكانت المدَّة التي قضيناها في هذه الولايات إلى أن وصلنا فلوريدا شهرًا واحدًا، كان يبلغ تعداد نفوس هذه الولايات العشر وواشنطن 46 مليونًا من البشر حسب إحصاء عام 1354هـ (1935م)، بمساحة قدرها 4210727 ميلًا مربعًا، فإذا وزِّعت هذه المساحة على المواطنين في هذه الولايات يكون نصيب كل (111) شخصًا ميلًا واحدًا تقريبًا بينما تقدّر مساحة الـ 38 ولاية الباقية من الاتّحاد 4,141,462 ميلًا مربعًا، مجموع سكانها 84 مليونًا تقريبًا، فإذا وزعت هذه المساحة على المواطنين في هذه الولايات الـ 38 يكون نصيب كل شخص عشرين ميلًا مربعًا.

دوّنت هذا في سنة 1370هـ (1951م)، أما في عام 1386هـ (1967م)، فقد بلغ نفوس الولايات المتحدة الأميركية ما يقرب من المائتي مليون من البشر، بعد أن انضمّت ولايتا هاواي وآلاسكا إلى الثماني والأربعين ولاية، حيث أصبح مجموع الولايات خمسين. وتُعَدّ الولايات العشر السالف ذكرها، من أكثر

الولايات عددًا في الأنفس، ومن أكثرها إنتاجًا في المحصولات الزراعية وفي الصناعات، وأضخمها في الاقتصاد، ولقد فتحت أبوابها للمهاجرين الأوروبيين الأوائل وكان معظمهم من الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين، الذين لم يجدوا متسعًا من الرزق في أوطانهم، لقد كانوا من عامة الناس إلّا قليلًا منهم كان لهم مراكزهم السياسية في أوطانهم وشأنهم الكبير فيها.

كانت هجرتهم إلى هذه البلاد سعيًا وراء الحياة الأفضل، وكانت أحوالهم المادية ليست متيسِّرة، فأقاموا في هذه الأرض ذات التربة الخصبة، الغنية في مواردها الطبيعية من غابات كثيفة، ومعادن عديدة واتّخذوها مستقرًّا لهم ومقامًا وأخذوا يمارسون ما كانوا يعملون في وطنهم الأول في مختلف الصناعات والحرف مع ما تطلَّبته منهم الحياة في دار هجرتهم.

أكثر العائلات الغنية المترفة في الولايات المتحدة الأميركية تحمل الأسماء الآتية: النجار، الحداد، الخباز، لأنهم كانوا ينتسبون إلى أعمالهم التي يتعاطونها في دار هجرتهم، تاركين وراءهم أسماء عائلاتهم الأولى التي كانوا يُعرفون بها من قبل.

أكثر العائلات شيوعًا في المحيط الأميركي، عائلة الحداد، (ايران سمث) وأصبحت تُعرف بسمث فقط وذلك نظرًا إلى حاجتهم الماسة إلى عدد كثير من الرجال يمارسون مهنة الحدادة، إذ كانت مواصلاتهم في ابتداء هجرتهم على عربات تجرّها الخيول والبغال، وتحتاج هذه العربات إلى خبرة في الحدادة والبيطرة والنجارة، وقد تخصّصت كل ولاية من هذه الولايات الثماني والأربعين بمواد طبيعية من عمل وإنتاج وصناعة تختلف قليلًا عن سواها في الولايات. وسأعرض نبذة مختصرة عن بعض الولايات التي مررنا بها في رحلتنا على الساحل الشرقي.

لنبدأ بولاية نيويورك البالغ تعداد نفوسها 13 مليونًا حسب إحصاء عام 1935م، ومساحتها 47,939 ميلًا مربعًا وعاصمتها أولباني وأكبر مدنها نيويورك. وقد عُرفت مدينة نيويورك بإنشاء المصارف الكبيرة والمضاربات المالية الفاحشة والأبنية الضخمة الشامخة نظرًا إلى صغر مساحتها، فجزيرة منهاتن حجم مساحتها

قليل لذا نجد فيها الأبنية الشامخة لتستوعب ساكنيها الذين يبلغ عددهم ملايين من البشر، ومن أكبر مصارفها العالمية تشيز ناشونال بنك وقد أنشىء فيها أكبر مصرف في العالم وهو تشيز منهاتن بنك، وأقيم في بناية ضخمة مكوّنة من ستين طابقًا ومن موجودات هذا المصرف في طابقه الأرضي، ما قيمته خمسة وعشرون مليارًا ذهبًا من الدولارات، وهو رقم يُعتبر أضخم من احتياطي الذهب لدى حكومة الولايات المتحدة الأميركية إذ كان الذهب الاحتياطي لدى الحكومة في الوقت نفسه يَقرُب من اثني عشر مليارًا.

كما تضمّ مكاتب نيويورك التجارية، وكلاء وممثلين لكافة المصانع والشركات في كافة أنحاء الولايات، ويُعتبر ميناؤها أكبر الموانئ، وأكثرها ازدحامًا وتصديرًا لكثرة ما يردها من البضائع وما يُصدَّر منها، وبورصة نيويورك العالمية تحدث فيها المضاربات المالية ما لا تجد له مثيلًا في أيّ بورصة في العالم.

ولاية نيويورك متقدِّمة على بعض الولايات بإنتاج المعادن، كالإسمنت والحديد الخام ولا يزال نصف مساحتها مكوّنًا من الغابات التي يتوفّر منها الخشب الذي يضع نيويورك في المرتبة الأولى بين الولايات بالنسبة إلى صناعة الأثاث، كما تُعتبر الولاية الثانية بالنسبة إلى كمية اللبن، الذي يُنقل بسيارات كبيرة إلى مصانع اللبن، ليُستخرج منه الزبدة والجبن والكريما، والحليب. وهذه الولاية كانت الولاية الحادية عشرة التي دخلت في الاتِّحاد الفدرالي في تموز/يوليو 1788م، وفيها 167 مدينة يزيد عدد سكانها عن الخمسة آلاف نسمة.

كانت الولاية الثانية التي اجتزناها بعد ولاية نيويورك هي ولاية نيوجرسي، يفصلها عن ولاية نيويورك نهر هدسن العظيم القائم على ضفتيه جسر جورج واشنطن. وكان من أعظم الجسور في العالم حتى سنة 1356هـ (1927م).

اشتهرت نيوجرسي بجامعاتها الخمس، وبكلياتها الست والعشرين، وبمعاهدها السبعة التدريبية، وممّا يلفت النظر في نيوجرسي كثرة عمّالها البالغ عددهم مليونين ونصف المليون عامل، ويتجاوز هذا العدد من العمال ثلث سكان الولاية، إذ كان يبلغ عدد سكانها 666,782 نسمة كما اشتهرت معامل البحوث الطبيعية الكيميائية وكان أهم الصناعات فيها الأدوات الكهربائية.

كانت ذات حركة كبيرة ونشاط قوي ملموس أيام الثورة الأميركية التي تَطاير شررها، واستعَرَ لهيبها على البريطانيين بقيادة جورج واشنطن.

كانت مدينة (مورستون) المركز الرئيس لجورج واشنطن، في هذه الولاية كما في غيرها من الولايات الأميركية المتحدة منتوجات صناعية وزراعية ومتنزّهات حكومية عمومية تقدر بـ 270 ألف فدان، أما مساحة غاباتها العشر فيبلغ 162 ألف فدان، من مساحة الولاية التي تبلغ 7836 ميلًا مربعًا.

أجمل مدنها أتلانتيك ستي القائمة على ساحل المحيط الأطلسي، وعاصمتها ترنتون لا تبعد كثيرًا عن جامعة بنرنستون. وكانت الولاية الثالثة التي دخلت في الاتحاد بتاريخ 18 كانون الأول/ديسمبر 1787م. وعدد مدنها (167) مدينة يتراوح عدد سكانها من خمسة آلاف فما فوق. وأكبر هذه المدن: مدينة نيويورك ويبلغ عدد سكانها 40,220 نسمة. وعدد سكان أصغر مدنها 5006 وذلك حسب تعداد عام 1962م.

بنسلفانيا هي من أكبر الولايات في الصناعة والتنقيب وفي طليعة الولايات في المنسوجات الصوفية، وصناعة الأقمشة، وهي الأولى من بين الولايات، وفي إنتاج ورق السجائر الخارجي، إذ يزرع هذا الصنف بعناية فائقة ويُراعى أثناء نموّه، كما يُراعى الوليد وهو في المهد لشدّة حساسيته.

للولاية مدينتان عظيمتان هما: بتسبورج، وفلادلفيا، وقد ازدهرت فلادلفيا برغم حداثتها وكان لإعادة الحي الأوسط في المدينة أثر كبير في ازدهارها، فقامت فيه أبنية ضخمة واسعة منسقة، تحتوي على مكاتب تجارية عديدة، وأقيم فيها فندق يحتوي على ألفي غرفة بمنافعها.

من معالمها مبنى ستي هول البالغ ارتفاعه 548 قدمًا ويمكن للمرء رؤية جميع معالم المدينة من شرفاته العالية. وتُعَدّ مدينة بتسبورج مدينة صناعية لكثرة ما تحتويه من المصانع البالغ عددها 7252 مصنعًا يعمل فيها 700 ألف عامل وأهم إنتاجها الصلب والفحم، الأمر الذي يجعل أبنية المدينة كأنها في حدادٍ يُلبسها دخان المصانع رداء من أردية الحزن والكآبة.

إذا قُدِّر لك أن تفتح نوافذ بعض الغرف فلا تلبث غير بضع دقائق حتى يتغيّر لون مفروشاتها من كثرة الدخان وغبار المصانع.

وكانت الولاية تُعرف باسم سلفانيا، وهي كلمة هندية وعندما وقَّع (ويليام بن) معاهدة مع الهنود الحمر القاطنين بهذه الولاية، أضيف إليها اسم بن، فأصبحت تعرف باسم بنسلفانيا، تخليدًا لاسم الأدمرال بن.

عاصمتها مدينة هايسبورج، ومساحة الولاية 45333 ميلًا مربعًا وكان عدد سكانها 11,219,366 نسمة، حسب تعداد سنة 1962م، وكانت الولاية الثانية التي دخلت في الاتّحاد الفدرالي بتاريخ 12 كانون الأول/ ديسمبر 1787م. وفيها 240 مدينة أكبرها مدينة فلادلفيا كان عدد سكانها 2,050,0000 نسمة وأصغر مدنها، سكانها 5,017 نسمة.

أما ولاية ديلاوير فلقد كانت أصغر ولاية في الاتّحاد بمساحتها بعد ولاية رودايلاند، وتبلغ مساحتها 2057 ميلًا مربعًا، وعدد سكانها ينخفض قليلًا عن نصف مليون. فهو لا يتجاوز 446,262 حسب إحصاء سنة 1935م، وهي أول ولاية أسرعت في التوقيع على دستور البلاد، وقد وقَّع هذا الدستور حينئذٍ ثلاث عشرة ولاية. وكانت الأولى بين مجموع الثلاث عشرة ولاية التي كوَّنت الاتّحاد.

إن الأمور التي حملتها على أن تكون أول الموقعين هي: اضطراب الأمن الداخلي في ربوعها، وما كانت تتعرض له في أوقات مختلفة من شنِّ الغارات ممّن حولها من البلدان المجاورة، ومن تقلّب الحاكمين من الأمم الأخرى.

كان أول من استوطنها المهاجرون الهولنديون ثم جاء السويديون تحت قيادة (مينسوي) وأقام حصنين عظيمين، هما نيوسويدان، وحصن كريستانيا، ثم استرجعها الهولنديون ومن بعدهم حكمها البريطانيون، ثم استرجعها الهولنديون مرة ثانية.

أكبر مدنها مدينة ويلمنتون، وعدد سكّانها يفوق نصف سكان الولاية بأسرها. وتشتهر هذه المدينة بمراكزها العالمية للكيميائيات، ومعامل للتجارة تابعة لشركة (دويون) وتعتبر هذه الشركة إحدى الشركات التعاونية الأميركية الكبرى. ولهذه المؤسسة تاريخ مجيد، يرجع إلى سنة 1802م وكان رأس مالها ستة عشر ألف دولار، وأول عمل باشرته هو قيامها بصناعة البارود.

ثم تطورت في مختلف الصناعات، وأصبحت 1200 نوع من السلع المختلفة

وتطوّرت تطورًا بالغًا في صناعتها، ووصل استثمارها في شركات عديدة إلى مليار وتسعمائة مليون دولار، وكان الحدّ الأقصى لمبيعاتها مليار ومائة وثلاثة وأربعين مليونًا من الدولارات، في أواخر سنة 1380هـ (1960م)، وبلغ مكسبها السنوي مائتين وخمسين مليون دولار، وعاصمة الولاية هي مدينة (دوفر)، وأكبر مدنها وليمتون، وعدد سكانها 95,827 نسمة. وأصغرها مدينة مليفورد وعدد سكانها 5,795 نسمة.

إذا انتقلنا إلى ولاية ميرلاند نجد أن عاصمتها (أنابوليس) تُعتبر من أقدم العواصم في الولايات المتحدة الأميركية، وقد أنشئت عام 1772م، وفي هذا العام انتهت الثورة الأهلية الأميركية، واستقال جورج واشنطن من منصبه كرئيسٍ أعلى للقوات الأميركية.

في غرب الولاية، وفي سهول (بيد موند) صخور يرجع تاريخها إلى زمن بعيد، حتى الآن لم يحدَّد زمنها، وهي من الصخور القليلة النادرة، التي رآها الإنسان، ومن آثارها التاريخية، حصن (ماك هنري) ومنزل (أوجار آلن يو) وهما في إحدى مدنها واسمها بلتمور، حيث رفع العلم الأميركي ذو الألوان الثلاثة، ونجومه الثلاث عشرة التي تشير إلى عدد ولاياتها التي كوَّنت الاتّحاد، فأوحى رفعه إلى الشاعر الفرنسي (فرانسيس كوت لي) كتابة مقطوعته الشهيرة ساري النجوم.

اشتهرت هذه الولاية بإنتاجها العالمي من الصلب، والنحاس، والألمنيوم، والكيميائيات، والأدوات الإلكترونية، والسفن والأدوات الزجاجية، والصناعات المعدنية وإنتاجها الزراعي من الدخان، والبطاطا، والقمح، والذرة، والدواجن، والماشية، وصناعة الألبان، والطماطم، ويمثِّل ما تعلِّبه وتشحنه من الصنف الأخير ربع محصول الطماطم في الولايات جميعها.

كانت ميرلاند هي الولاية السابعة التي دخلت الاتّحاد الفدرالي بتاريخ 28 نيسان/ أبريل 1788م فيها 65 مدينة، أكبرها عدد سكانها 627,525 نسمة وأصغرها عدد سكانها 5088.

كانت ولايتا فرجينيا، وفرجينيا الغربية ولاية واحدة ثم انفصلتا عن بعضهما عند الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب عام 1861م، وكوِّنت لكل منهما حكومة

مركزية في 20 حزيران/يونيو عام 1863م، وأصبحت عاصمة فرجينيا رتشموند وعاصمة فرجينيا الغربية تشارلستون.

كانت ولاية فرجينيا مركزًا للقتال، وقاسى أهلها كثيرًا من ويلات الحروب وفواجعها وبعد تسعة أعوام من انسحابها من الاتحاد عادت، والتحقت به مرة ثانية، أما ولاية فرجينيا الغربية فلم تلتحق بالاتِّحاد إلّا بعد عشرة أعوام من انضمام شقيقتها فرجينيا، وفرجينيا يطلَق عليها اسم منبع الرئاسة، فقد أنجبت ثمانية رجال تسلّموا رئاسة الولايات المتحدة الأميركية وهم: ماديسون، تايلر، واشنطن، جفرسون، مونرو، ويليام، تبيلور، ولوسون، هايسون. وقد انتُخب الثلاثة الأواخر عن ولاية أخرى، لاستيطانهم فيها قبل انتخابهم كرؤساء للولايات المتحدة الأميركية وقد كتب الدستور الأميركي في هذه الولاية (فرجينيا).

فرجينيا لها مجال واسع في الصناعة، والزراعة والمعادن ومنطقة (يبدفون) مشهورة بخيولها الأصيلة، كما أنها مشهورة بمعاهدها العلمية الواحد والخمسين، فيها تسع وعشرون كلية وجامعة، ولديها من المكانات ما يجعل قاطنيها الأربعة ملايين نسمة يعيشون في بحبوحة من العيش، ومساحتها 40,815 ميلًا مربعًا.

اشتهرت فرجينيا الغربية بمناجم الفحم التي في جبالها الشامخة، ويأتي ترتيبها الأول من بين الولايات من هذا الإنتاج. كما أنها اشتهرت بمراكز للصلب في مدينتيها (ويلبخ، ويرتون) وتقوم بتكرير البترول وصناعة الألمنيوم، والخشب، والأقمشة، والفخار.

إنتاجها الزراعي كإنتاج كثير من الولايات، فيها القمح والشعير والذرة والبطاطس والعنب، والتين، والخوخ، والتفاح، التي تنتجها أرضها الخصبة، بكميات كبيرة، وكان للسدّ الجديد الذي تمَّ بناؤه سنة 1960م، على نهر (إيلك) عند سد (سوتن) مفعوله الكبير في نمو الزراعة الأمر الذي جعلها تبتدىء بإنشاء سدٍّ آخر على نهر (جولي) عند (سمرسفل) سيكلفها 50 مليون دولارًا وقامت البحرية الأميركية ببناء أكبر تلكسون في العالم بقرب (شوكجر جروف).

اشتهرت هاتان الولايتان بمناجمها العديدة وخاصة مناجم الفحم، إذ يُستخرج منهما كميات هائلة، فولاية فرجينيا يقدَّر ما تنتجه كل عام من الفحم بمائة وعشرين

مليونًا من الأطنان، ويقوم باستخراج هذه الكمية الضخمة خلق كثير من العمال الملونين لحساب البيض، في هذه الولاية، هؤلاء العمال الملونون، يعيشون عيشة بؤس، ونكد، وشقاء، وذلّ، واستعباد، يقطنون بحُجَر خشبية متواضعة، تعصف في أرجائها الرياح، ويقيم كل أربعة أو خمسة أشخاص منهم في حجرة واحدة فيها ينامون، وفيها يطبخون، وفيها يجلسون.

هذه الحجرة خالية من أدوات الراحة فأرضها مفروشة بالتراب، لا قطعة من حصير أو سمط بساط يكسو أرضها، حتى الإسمنت الذي تنتجه هاتان الولايتان بكميات هائلة لم يكن له من أثر في هذه الحجرة التي تأنف أن تسكنها البهائم والحيوانات. بينما ينعم مواطنوها البيض بمرافق الحياة ومتعها وزينتها ويتنافسون فيما بينهم على جودة البناء، وضخامته وزخرفته وإتقانه، وأثاثه، ذلك أنهم يتمتَّعون بثراء فاحش.

إن المرء يستغرب هذا التفاوت المشين بين الطبقات في هاتين الولايتين وفي غيرهما من الولايات المتحدة الأميركية، ويقف مستفسرًا، إذا علم أن إحدى هاتين الولايتين أنجبت ثمانية رجال تسلَّموا منصّة رئاسة الأمة الأميركية، ألم يكن لهؤلاء الرؤساء ضمير حي يؤنِّبهم على إهمال هؤلاء العمال فيرفعوا من مستواهم؟!.

يتساءل المرء إذا عَلِم أنّ فيها واحدًا وخمسين معهدًا علميًّا بجامعاته وكلياته، أليس بين خرّيجيها مَن لديه الجرأة الكافية، والإنسانية والضمير الحي، ليقف بجانب هؤلاء البؤساء ويذود عن كيانهم المنهار؟.

جعلت المناجم والمعادن العديدة والمصانع العظيمة هاتين الولايتين في طليعة الولايات ثراء وغناء وهؤلاء العمال محرومون من هذه الخيرات، محرومون من كل شيء من متع الحياة، حتى إنّهم محرومون من احترام أنفسهم فمعنوياتهم منهارة، وإنسانيتهم ممتهنة وكرامتهم مهدورة. وقُدِّر لي زيارة هؤلاء العمال في مساكنهم وكان الوقت شتاء ببرده القارس وثلوجه المتراكمة فألفيتهم والبؤس يخيِّم عليهم، تكتنفهم الفاقة، أطفالًا ونساء وشيوخًا لا يستُر أجسادهم غير أسمال بالية تكاد تمزِّقها الرياح، فالذلّ جاثم فوق رؤوسهم والبؤس رابض فيما بينهم، إن قلب الإنسان يتفطَّر عليهم حسرة وأسى فالمرض قد أضناهم، والفقر المدقع أقعدهم

وحالتهم التي هُم فيها لا تشرِّفهم، ولا ترفع مستواهم، إن أخلاق بعض الرجال البيض لا تمنعهم إذا رأوا فتاة سوداء معتدلة الجسم مستقيمة القوام أن يفترسوها، ويقضوا على أنوثتها، ويتركوها تندب شقاءها وتعاستها، وكم منهن قدِّر لهنّ أن يكنّ فريسة الرجل الأبيض.

وأجاد الشاعر العربي إيليا أبو ماضي في وصفهم إذ يقول على لسان أحدهم:

فوق الجميزة سنجاب / والأرنب تمرح في الحقل
وأنا صياد وثاب / لكن الصيد على مثلي
محظور إذ إني عبد

والديك الأبيض في القن / يختال كيوسف في الحسن
وأنا أتمنى لو أني / أصيد الديك ولكني
لا إقدر إذ إني عبد

وفتاتي في تلك الدار / سوداء الطلعة كالقار
سيجيء ويأخذها جاري / يا ويحي من هذا العار
أفلا يكفي أني عبد

إني لست من المتحاملين على الرجل الأبيض الأميركي، ولا من المحبّين لمجادلته ومناقشته الحساب فيما فعل في الملونين من بني جنسه، وبني وطنه من البشر من قهر وتعذيب وتشريد، وقتل واستعباد. كما أني لم أتطرّق في بحث هذا الموضوع لأشوِّه سمعة الرجل الأبيض الأميركي، ولم أحاول أن أمس شرفه، وإنّما أدوِّن ما سأقوله للتاريخ الذي لا يرحم، أدوِّنه للأجيال القادمة وللحقيقة كما هي وكما عرفتها ولمستها، وكما قال عنها الكتّاب الأميركيون أنفسهم، الذين ناقشوا هذا الموضوع على صفحات جرائدهم.

لقد جاء في تقرير الأستاذ (براون) عند دراسته للأحوال المعيشية في الأحياء التي يقطنها الملونون، في كثير من أنحاء أميركا، والذي قدّمه إلى مكتب التربية الأميركي، قوله: «إن تعبيد الطرق، وإنارة الشوارع، ومدّ أنابيب الأقذار، وحماية البوليس كثيرًا ما تنتهي حيث يبدأ القسم الزنجي من المدينة، وليس يوجد في كثير

من المناطق أي مستشفى يستطيع الزنجي أن يطرق بابه، أمّا الخدمات الطبية والتمريضية فهي في الأغلب غير وافية، أو مفقودة بالكلية».

هذا ما جاء في تقرير هذا الأستاذ الكبير، وفيه من اللمز والغمز والتأنيب ما يَمَسّ سمعة الرجل الأبيض الأميركي.

وكذلك فلقد نشرت صحيفة (واشنطن بوست) وصف السيد (اجنس ماير) عن حيِّ الملونين في عاصمة الولايات المتحدة الأميركية واشنطن، كما يسمّونها أم العواصم، قال المستر (اجنس ماير):

«لقد طُفتُ أثناء الحرب العالمية الثانية مناطق تُعتبر مثلًا في سوء الأحوال المعيشية العامة، ولكني لم أشاهد لا في الحي الزنجي القذر في ديترويت ولا في الأحياء الزنجية النتنة في المدن الجنوبية مخلوقات بشرية تعيش في مثل البؤس الذي يتردّى في حمأته زنوج العاصمة واشنطن، لقد جُزِّئت البيوت ليسكنها عدة أسر، بل لقد جُزئت الغرف الصغيرة وهي أقذر من أن توضع فيها الحيوانات لتكون في الوسع أن تضم أكبر عدد من البشر».

في ساحة روك في واشنطن العاصمة غرفة تغصّ بأربعة عشر زنجيًّا وزنجية، وفي الشارع التاسع من شوارع العاصمة هذه منزل صيفي يضم تسعة عشر ساكنًا، وليس من النادر، أن تجد في ذلك الحي ستة أشخاص يقطنون غرفة واحدة، وينامون في فراش واحد في بعض الأحيان.

في ولايات أركنساس، وأوكلاهوما، وماريلاند، وميسوري، وتكساس قام بعض البيض بأعمال بحق الزنوج فيها من الإجرام، والسفالة، والفظاعة، والبشاعة، ما لا يتصوّره عقل بشري.

جاء في جريدة الأخبار القاهرية بتاريخ 1/ 2/ 1385هـ (31/ 5/ 1965م)، تحت عنوان العالم الخارجي، وبتوقيع نبيل زكي قوله: أذاع مكتب السجون الفدرالي الأميركي خلال 35 سنة مضت، وهذا التقرير يكشف النقاب عن الحقيقة التالية: إن أكثر من نصف الأشخاص الذين تمَّ تنفيذ حكم الإعدام فيهم هم من الزنوج، هذا في الوقت الذي لا تتجاوز فيه نسبة الزنوج بالنسبة إلى مجموع سكان الولايات المتحدة 12%.

إذًا لماذا قفزت نسبة الزنوج الذين تمَّ بحقهم تنفيذ الحكم الصادر بالإعدام بحيث يتجاوز نسبة البيض على هذا الحدّ؟.

يقول التقرير: إن الغالبية الكبيرة من أحكام الإعدام التي صدرت ضدَّ الزنوج كانت بتهمة الاغتصاب، ففي مقابل إعدام 48 شخصًا من البيض بتهمة الاغتصاب تمّ إعدام 407 من الزنوج.

غنيٌّ عن البيان أن تهمة الاغتصاب في عُرف بعض الأميركيين من المتعصِّبين، تسري على كل زنجي نظر إلى امرأة على نحو (وقح) على حدِّ تعبيرهم. وذلك وفقًا للقاعدة التي يطبّقها العنصريون في الولايات المتحدة، وممّا يفضح حقيقة هذه التهمة، ما جاء في تقرير أن اثنين أو أكثر من كل خمسة مساجين أُعدِموا في الولايات الأميركية الجنوبية كانوا من الزنوج، والمعروف أنّ حمّى التعصُّب العنصري تبلغ ذروتها في الولايات الجنوبية، إنّ الزنوج الذين لقوا مصرعهم على الكرسي الكهربائي بسبب تهمة باطلة، يضافون إلى آخرين منهم سقطوا في الشوارع أو بِهَراوات عصابة كولكس كلان المعروفة بـ«ك.ك.ك» في مجتمع يخيِّم عليه جوٌّ خانق للأذهان والضمائر، وينضمون إلى آخرين من الرجال والنساء البيض والسمر والصفر، قدَّموا أرواحهم في النضال ضدّ التفرقة العنصرية. ولعلّ هذا الاستطراد يكفي وأعود إلى صلب الموضوع.

كانت كارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية ولاية واحدة ثم انفصلتا كما انفصلت ولاية فرجينيا عن شقيقتها فرجينيا الغربية، وكان موقفهما من الاتِّحاد كموقف شقيقتيهما فرجينيا الشرقية وفرجينيا الغربية وأصبح لكلٍّ ولاية حكومة منفصلة عن الأخرى. وقاستا من سيطرة الجنرال (شرمان) وكانت كارولينا الشمالية ساحة قتال للمعارك الأهلية التي دارت رحاها في (جولفورد كورت هاوس).

اشتهرت ولاية كارولينا الشمالية بإنتاجها للتبغ وفيها أكبر مصنع للسجائر، وإن منتجها من هذا الصنف يعادل 52% من إنتاج الولايات جميعها، كما اشتهرت بمعاهدها العلمية، وفي عاصمتها (رالي) أكبر جامعة تُسمّى جامعة كارولينا الشمالية. وفي مدينة درهم توجد جامعة ديوك وهي من أفضل الجامعات الخاصة بالولايات المتحدة الأميركية.

وهبت الطبيعة لهذه الولايات أرضًا خصبة غنية بالمعادن البالغة، كما اشتهرت بأنهارها العديدة، وبحيراتها الأربع على ساحل الأطلسي، ومن آثارها المشهورة حصن رالي، ومتنزَّه كريك واشتهرت بأنواع الطيور والحيوانات وخصِّص للصيد والقنص مساحة قدرها 600 ألف فدّان من مجموعة مساحة الولايات البالغة 52,715 ميلًا مربعًا. وكانت الولاية الثانية عشرة التي دخلت في الاتّحاد بتاريخ 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1789م وعدد مدنها 66 مدينة، أكبر مدنها مدينة (شارلوت) وكان عدد سكانها 201564 نسمة وأصغر مدنها (شانتون) وكان عدد سكانها 5064 نسمة حسب الإحصاء لسنة 1960م.

ولاية كارولينا الجنوبية وعاصمتها كولومبيا هي كغيرها من الولايات تتخصَّص في الإنتاج الزراعي والصناعي وفيها مصنع الهيدروجين، وللولاية غابتان عظيمتان الأولى ماريوت بمساحة قدرها 243,383 فدان، والثانية سومتر ومساحتها 296,74 فدان، ومساحة الولاية جميعها 31,055 ميلًا مربعًا وفيها كنائس تاريخية، ومنازل زاهية بأعمدتها البيضاء، ولحدائق مدينتها شارلستون شهرة عالمية.

إلى الجنوب من ولاية كارولينا الجنوبية تقع ولاية جورجيا التي اشتهرت بالمنتجات الخشبية، ويقدَّر إنتاجها من الخشب سنويًّا بـ(750) مليون دولار وتعتبر الولاية الأولى من بين الولايات الجنوبية في هذا المضمار، وتأتي الثانية في الاتحاد بعد كاليفورنيا في إنتاج الخشب.

أكبر مدينة فيها هي عاصمتها أتلانتا وهي ذات حركة دائبة ونشاط ملموس وعدد سكانها نصف مليون نسمة، منهم 432 ألف نسمة يمارسون مهنة الصناعة، ومجموع سكان الولاية أربعة ملايين نسمة، ومساحتها 58,876 ميلًا مربعًا، حسب تقدير عام 1960م. وقد أنشىء مطار عالمي في هذه الولاية يستقبل 520 طائرة يوميًا، وقد كلَّف بناؤه عشرين مليون دولار، وكانت الولاية الثامنة التي دخلت الاتّحاد في عام 1788م، وعدد مدنها 42 مدينة.

في نهاية مطاف الساحل الشرقي تأتي ولاية فلوريدا التي تشتمل على ثلاثين ألف بحيرة صغيرة وكبيرة منتشرة في أرجائها، وأكبرها بحيرة (أوكي شوبي)

ومساحتها 730 ميلًا مربعًا، وتعتبر البحيرة الرابعة من بحيرات الولايات المتحدة الأميركية.

الصيف في هذه الولاية موسم المطر ويهطل المطر بغزارة، وتشتهر بشواطئها التي تعتبر أوسع شواطىء الولايات المتحدة الأميركية. العواصف فيها شديدة والزوابع مريعة، فتبلغ بعض الأحيان سرعة الرياح فيها مائة ميل في الساعة، لذلك تجد الأشجار القائمة على هذه الشواطئ، منحنية راكعة، تشبه المتعبِّد في صلاته، أما فصل شتائها، فشمس مشرقة، وسماء صافية، ومياه دافئة، فلا يستغرب الزائر إذا وقع نظره على المستحمين ليلًا في شواطئها، لذلك يؤمها السياح من كافة الولايات المتحدة، وأكبر الفنادق وأضخمها في العالم بأبنيتها الجميلة في تنسيقها وترتيبها وخدمتها، وتضم هذه الولاية أقدم مدينة في الولايات الأميركية المتحدة وأعني بها سانت أوكوستين التي أسِّست عام 1565م، وللولاية 13 ميناء بحريًّا في مياهها العميقة، وستة موانىء في مياهها الضحلة ومن فلوريدا، أطلق من كيب كانافرال أول قمر صناعي في 27/ 11/ 1380هـ (1961م)، - وأنشىء في هذه الولاية مركز للبحوث الفضائية في (اكلن ففيل) ومراكز مراقبة على الخليج يقوم العلماء بالبحوث الفضائية في 34 مركزًا.

عند اجتيازنا ولاية جورجيا ودخولنا في ولاية فلوريدا شعرنا حالًا بدفء وحرارة، فخلعنا ثياب الشتاء واستبدلناها بثياب خفيفة تُناسب جو هذه الولاية، وأخذت أشعة الشمس العسجدية، ترسم على وجهينا لونًا أسمر برونزيًّا، وأول مدينة حلَلْنا بها كانت مدينة جاكسنفيل المشهورة بتماسيحها، وبعدما أخذنا ننتقل من مكان لآخر ونتوغل في ربوع هذه الولاية الجميلة بشوارعها الواسعة، ونراقب الخلائق من السياح يمشون في هذه الشوارع لا يستر أجسامهم إلّا (المايوهات) ونستمتع بدفء الشمس المشرقة، ونتردَّد على متنزّهاتها وعلى شواطئها وغاباتها وأحراشها، حطَّ بنا المزار في مدينة ساراسوتا. وكانت فلوريدا هي الولاية الرابعة والعشرين التي دخلت في الاتّحاد في 3 أيار/مايو 1845م، وعدد مدنها 110 مدن، أكبر مدنها ميامي وكان عدد سكانها 291,688 نسمة، وأصغر مدنها سانتون وعدد سكانها 5021 نسمة ومساحة الولاية 58,560 ميلًا مربعًا. كان وصولنا

لولاية فلوريدا عام 1354هـ (1935م)، في الحادي والعشرين من آخر أشهره، ولم يكن قد بقي سوى يومين على عيد الميلاد المجيد لنبي الله عيسى عليه السلام، وكنّا آنذاك في مدينة سراسوتا.

قالت قرينتي: لقد مللت من ضوضاء المدينة، وغوغائها وصخب الناس وضجيجهم فيها، وإني لمشتاقة لقضاء أيام عيد الميلاد المجيد، ورأس السنة، خارج المدينة، بعيدًا عن ازدحام الناس وغوغائهم، فهل لك أن تحقِّق رغبتي لنقضي هذه الأيام السعيدة في الغابات والأحراش هنا وهناك فنبني خيمتنا على تلك الرمال البيضاء، وبين الأشجار الوارفة الظلال، نستظل بظلِّها، ونمتِّع أنفسنا بالهدوء الشامل، نصغي لتغريد الطيور وحفيف أوراق الشجر، ونستنشق في الصباح الباكر، النسيم العذب العليل.

هكذا أخذنا مؤونتنا وما نحتاجه من زاد، ومتاع، وهرعنا معتصمين بالأحراش والغابات المكتظّة بالأشجار الباسقة، كاسية الصدر وعارية الساق، وقضينا بكنفها أيامًا مرحة حلوة، ووقتًا ممتعًا وجميلًا، وكنّا قد توزعنا المهام والأعمال بيني وبين زوجتي، كانت هي تتولى رتي الجرابات وخياطة فتوق الثياب وأقوم أنا بمسح الأحذية وغسل السيارة وتتولى هي تنشيفها وتنظيفها من الداخل.

فإذا أقبل الليل بسواده الحالك، كنت وقرينتي نجلس حول موقد النار، نتلهى بعمل القهوة حينًا أو الشاي أحيانًا، نتجاذب أطراف الحديث، فأصغي لها وهي تحدِّثني عن كل ولاية مرَرنا بها من الولايات العشر المتحدة الأميركية، عن ثرواتها الطبيعية، وما تحتويه في باطن الأرض من المعادن المتنوعة، وعن منتوجاتها الصناعية، والزراعية والحيوانية، عن تاريخها، ومواقعها الحربية، عن آثارها ومعالمها، مساحة أرضها ومتنزهاتها، معاهدها العلمية، اختصاصاتها بالمواد الأولية، ممّا أوجد لديّ ثروة علمية كبيرة عن هذه البلاد الشاسعة الغنية بمواردها الطبيعية، المتمتع أهلها بالثراء الفاحش والنعيم الدائم.

كانت خيمتنا قريبة جدًّا من شاطىء البحر، فتوقظنا من رقادنا وشوشة مياهه، وهمسات موجاته المتتابعة فتوحي لنا بأنغام عذبة شجيّة نشعر معها بالغبطة والسرور، ونقضي وقتًا يسيرًا في شكر الله وعبادته. لم نغادر ولاية فلوريدا قبل أن

نزور أغلب مدنها الرئيسة، زرنا مزارع البقول في سانت بيتر سبورج، وجاكسن فيل، ومدينتَي ميامي وبالم بيتش، وكُلًّا من مدينتَي تمبا، وسان أوكستين، وأقمنا في عاصمة الولاية تلهاسي يومين.

أثناء تجوالنا في ولاية فلوريدا مررنا بفريق من الهنود الحمر، يقطنون قريبًا من مدينة ميامي، ولنقف هنا برهة وجيزة، لنتحدث قليلًا عن هؤلاء الهنود، سكان أميركا الحقيقيين، الذين غلبوا على أمرهم، واغتُصبت حقوقهم وامتُهنت كرامتهم، وفُتِك بهم جماعات وأفرادًا، وهامَ على وجوههم مَن تبقَّى منهم، فرارًا بأرواحهم وأعراضهم من الوافدين الجدد القادمين من مختلف بلدان القارة الأوروبية، الذين أتوا لاهثين إلى أميركا الشمالية جريًا وراء الحياة الأفضل. هؤلاء القوم القادمون من مختلف البلدان الأوروبية لقد غادروا أوطانهم، وكلهم أمل في أن يجدوا في دار هجرتهم ما كانوا يمنّون أنفسهم به من حياة أفضل، فوجدوا أرضًا خصبة غنية، وأنهارًا يتدفق ماؤها وأحراشًا مكتظة بالأشجار، ومعادن عديدة لا حصر لها، وذهبًا أصفر وهّاجًا يكاد سَنا برقه يذهب بالأبصار، وهو الذي ذكره في إحدى قصائده الشاعر العراقي محمد حسن مظفر حيث قال:

أيا أصفر الخدين تسود أوجهًا ... لديك وتبدي ما جنته النواظر

أدائرة الدينار لولاك لم تقم ... حروب ولا دارت علينا الدوائر

وذا فلك الدنيا بشمسك دائر ... وما هو لولا نور جرمك زاهر

لقد أغراهم وأغواهم وأنساهم جمع الذهب، وكان بعضهم لا يُبالون في سبيل الحصول عليه بسفك الدماء، وتشريد الناس ولم يقيموا للقيم الإنسانية وزنًا ولا احترامًا، فجُرِّدوا من إنسانيتهم حتى أصبحوا كالحيوانات المفترسة فأقول: الهنود الحمر هم سكان أميركا الحقيقيون، قطنوا في هذه القارة منذ آلاف السنين، يكاد يكون مجهولًا عددها، ويُقال إنهم من القارة الآسيوية، قبل أن تفصل القارتين عن بعضهما الزلازل القوية المتتالية والأنواء الجوية العاتية، والبعض يربطهم بالفراعنة وسواء أكانوا آسيويين أم فراعنة فالاسم الحقيقي الذي عُرفوا به هو: هنود أميركا الحمر.

تاريخهم يكاد يكون غامضًا، أو بالأحرى مجهولًا، وقد اطّلعت على بعض

الكتب التي أتت على ذكرهم، لعلّي أجد نورًا أستضيء به، أو على بارقة من أمل، أتمكن بواسطة ضيائها الخافت أن أقف على حقيقة تاريخهم ومنشئهم فلَم أفلح في مطالعاتي الفَلاح كله، اللهم إلّا يسيرًا من أخبارهم ولا يكاد الكاتب يركن إليه.

لم يُعطنا الكتّاب الذين تطرّقوا بالحديث عنهم معلومات حقيقية وافية عن تاريخهم، وكانوا يمرّون على ذكرهم مرَّ السحاب، وإنك لتَجِد أنه إذا أراد الكاتب أو المؤرخ من هؤلاء التعمق في دراستهم، يراوغ مراوغة الثعلب فيما يكتبه عنهم، فيتخبَّط في تاريخهم، كما يتخبّط المرء في مجاهل أفريقيا، فجبل يعلو به، ومنخفض من الأرض يهوي به، فمرّة ينعتهم بأن لهم قسطًا وافرًا من الحضارة، وتارة يصفهم بالجهل والغباوة، والقتل والسلب، ولا أعلم هل حقًّا يجهل هؤلاء المؤرخون والكتّاب المتحدرون من أصل أوروبي تاريخهم جهالة تامّة، أم إنهم كانوا يتعمَّدون تجاهلهم وإهمالهم إيثارًا لحُسن صلتهم بالشعب الأميركي. وأنَّ لغتهم التي يتفاهمون بها، تختلف اختلافًا ظاهرًا عن بقية لغات العالم، وهكذا يختلفون في طرق معيشتهم، وسلوكهم، وأسلوب حياتهم.

إذا تحدَّثتَ إلى أحدهم، لا يفهمك، وإنْ حدَّثك أحدهم لا تفهم ما يقول، وإذا فهمت بعض ما يقوله بواسطة حركات إشارات يديه، لا تستطيع أن تعبِّر عنه، وتبيِّنه للناس بصورة واضحة، ذلك أنهم لم يختلطوا اختلاطًا كافيًا مع بقية الشعوب، وهكذا ظلّوا يتقلَّبون على ما كانت عليه حالتهم الأولى منذ آلاف السنين.

أكسبهم سكن سهول أميركا الواسعة، وغاباتها وأحراشها المكتظّة، ونقاوة هوائها وتنقلهم في وهادها وجبالها بسطة في أجسامهم، وضخامة في عضلاتهم، ومنحتهم طبيعة هذه السهول والصحراء القوة والنشاط، والصبر على تقلُّب الأيام، وما يحيط بها من المكاره.

ينظرون إلى الرجل الأبيض نظرة فيها كل معاني الحقد والضغينة والبغضاء ويعتبرونه عدوهم الأول، ويقولون: إنه أصل بلائهم وشقائهم إذ استباح حِماهم وأهان كرامتهم، وشردهم من ديارهم، واستولى على ممتلكاتهم، وفتك بهم جماعات وأفرادًا وكاد أن يقضي عليهم ويجتثَّهم من على وجه الأرض.

وإن حياتهم التي يحيونها، تُنبِىء عن بؤس شديد وتنمُّ عن حزن عميق، - ولم تقع عيني على واحد منهم تضيء على ثغره ابتسامة ما، لتبدِّد الكآبة المنتشرة على وجهه، فكأنه لم تمرَّ به بارقة من بوارق الأمل والسعادة، حتى صغارهم ينظرون إليك بوجوم لا تعلم سببه ولا تفهم من أمره شيئًا، وإذا ابتسمت إلى أحد منهم، لا يُبادلك بابتسامة مثلها، وحياتهم الخاصة والعامة غامضة غموض تاريخهم.

عند مرورنا بهذا الفريق من الهنود الحمر، الذي كان يقطن في أعشاشٍ متواضعة من صنع أيديهم، استوقفنا صبية كانوا جالسين أمام هذه الأعشاش صامتين بوجوم، ينظر بعضهم إلى بعض كأنهم دمى، فحييناهم فلم يردّوا التحية ولم يسمحوا لأعينهم بالنظر إلينا وكان لدينا بعض الحلوى فقدَّمناها لهم فأبوا أخذها.

وخرج علينا من هذه الأعشاش المتواضعة شابٌّ في الثالثة والعشرين من عمره، معتدل القامة، عريض المنكبين، فرحَّب بنا بلغة إنجليزية ممتازة، وفي أدب وتواضع، سائلًا مَن أكون؟ فعرَّفته بنفسي قائلًا: إنني غريب عن هذه الديار، أتيت إليها زائرًا لاستطلاع معالمها، ومحدثات مدنيتها، إنني من بلاد صحراوية يقطن الكثير من ساكنيها الخيام المنسوجة من أصواف الماعز ووبر الجمال، يتنقلون بواسطة إبلهم في سهول صحرائهم الواسعة، طلبًا للكلأ والمراعي لماشيتهم، لدينا الأغنام الوفيرة، والخيول العربية الأصيلة، وعرَّفته بقرينتي فرمقها بنظرة خاطفة، فيها كثير من معاني الاستفسار فحيَّته فرد تحيَّتها بفتور، طلبَت منه أخْذَ صورة له فأعرض عنها، ونأى بجانبه.

ركن هذا الشاب لحديثي، وأطربته نغمة بيوت الشعر، والإبل، والخيل، والصحراء، وسهولها الواسعة والكلأ والمرعى، ودعانا لزيارته، فاستجبنا له قائلين سنزوركم في المساء إن شاء الله. ولم نغادر أعشاشهم في ذلك اليوم، وابتعدنا عنهم مائة متر تقريبًا، حيث بنينا خيمتنا وفي المساء زُرنا مضاربهم.

سألتُ الشاب الذي فهمت منه أنه تخرَّج هذا العام في إحدى جامعات فلوريدا، كم عدد الهنود في هذه البلاد؟ وانتفض كعصفور بلَّله المطر، واعتدل في جلسته قائلًا في صوت متهدِّج، يفصل بين كلماته تنهدات وزفرات لم يطرق آذاننا من قبل سماع مثلها: كانوا خلقًا كثيرًا، منتشرين في طول البلاد وعرضها، لا أقول

إنهم كانوا يعدّون بمئات الملايين، ولكنهم كانوا لا يقلون عن خمسة عشر مليونًا، بهذا أخبرنا آباؤنا وأجدادنا، وذلك قبل أن يحلَّ بنا الرجل الأبيض، أمّا الآن فلمْ يَبْقَ منا سوى خمسين ألفًا أو يزيدون قليلًا، مشرّدين في أرجاء هذه القارة الفسيحة، أمّا البقية فقد انقرضوا، وذهبوا مع الأمس الغابر، وواصل حديثه قائلًا: كان ولا يزال حبّنا الشديد لهذا الوطن العزيز يملأ أفئدتنا، نحبُّه حب الحياة للإنسان. الوطن الذي نشأ فيه أسلافنا وترعرعوا في ربوعه ووديانه وسهوله.. الوطن الذي أظلّتنا سماؤه، وارونا ماؤه، وغذَّتنا تربته، وجمعتنا أرضه.. الوطن الذي قضينا فيه عهد طفولتنا، وزهرة شبابنا وذكريات شيخوختنا... نزرع ونرتع في غاباته وروابيه، نرعى ماشيتنا في أوديته، وتلاله، ومرتفعات هضابه. كل هذا جعلنا نقدِّر الخالق عز وجلّ حق قدره، ونحمده على هذه المنحة التي وهبنا إياها فلبثنا نحافظ عليها محافظة الشحيح على الدرهم... إلى أن وطئته أقدام الوافدين الجدد، القادمين من كل فجٍّ من فجاج الأرض، وأخذوا يشاركوننا في هذا الملك الواسع.. وطننا... بلادنا.. أرضنا.. ممتلكاتنا.. إنهم أقوام نبذَتْهُم أوطانهم أتوا من العالم الأوروبي، لا يقيمون للأخلاق والقيم الإنسانية قائمة ولا وزنًا وإنهم كالوحوش الكاسرة، لا يعرفون معنى من معاني الرحمة والإنسانية، وجُلَّ مبتغاهم وما يركضون بلهف وراءه هو: الدولار، وانتظرَ قليلًا ليردّ أنفاسه ثم أردف قائلًا:

لم يكتفوا بمشاركتنا في هذه الربوع الجميلة والبلاد العظيمة، وأن ينعموا بهذه النعم، التي لم يحلموا بها من قبل، بل أخذوا يستفزوننا، تارة بقتل ماشيتنا وتارة بإتلاف حاصلاتنا الزراعية، أو إهانة كبير منّا وهدر كرامته، كنّا مطمئنين في ربوع هذه البلاد فداهَمَنا الرجل الأبيض، فاستنكرناه بادىء الأمر، فما لبث أن تحبَّب إلينا، فركنَّا إليه، ولكن أنّى للنفوس الشرهة الشريرة أن يهدأ روعها، وتطمئن قلوبها ما لم تسىء إلى مَن أحسن إليها؟

لمّا كَثُرَ عددهم، واشتدّ ساعدهم، ولمسوا في أنفسهم القوة الكافية بدأوا يستنكرون وجودنا، فعملوا على إبادتنا بحروب شرسة لا أخلاق فيها وبأسلحة فتّاكة لم نعهدها من قبل، فانهارت قوانا أمام جموعهم، وكان ممّا ساعدهم على التغلب

علينا، بُعْدُ المسافات بين قومنا، فتمَّ لهم ما أرادوه من تفريق جمعنا، وتشتيت صفوفنا، وإجلائنا عن وطننا فغدونا من دون أرض نملكها، أو ماشية نتغذّى من ألبانها، وأخذَت الأمراض تنتاب مجتمعنا، وتفترسنا الواحد تلو الآخر.

كان الرجل الأبيض يصوِّرنا للناس وللعالم أنّنا قوم جاهلون لا نعرف معنى للحياة، نأخذ الأمور كما هي، من دون تخطيط أو تفكير، لا نهتم بزرع الأرض، ولا بتربية المواشي، وكل اهتمامنا موجه لوجبة طعام تملأ بطوننا وقطعة من جلود الأنعام تستر أجسامنا، هذا بعض ممّا كانوا يتقوَّلونه علينا ليسوغوا أعمالهم الوحشية وفظاعتهم اللاأخلاقية، إنهم رجال أنانيون فيهم الشح والجشع كله.

كان أسلافنا ينعمون بيُسر كبير، وكانوا أصلب عودًا وأقوى شكيمة وأعزّ نفرًا، وكانت لهم مدنية زاهرة، ونُظُمٌ اجتماعية راقية وحكومة قوية منظّمة يفصل بين مدنها وقراها أرض عسجدية خضراء، وتلول وجبال مكسوة بالأشجار والأحراش ومن هذه المدن ما هو قائم حتى الآن. من ذلك متنزه (ميسافرو) في ولاية أريزونا، وفيه قائم مدينة هندية متداعية الأركان، تُركت خاوية على عروشها، تنبىء عن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، يؤمها الآلاف من الزوار ليشاهدوا هذا المتنزه البديع الصامت، والمدينة الهندية القائمة على مرتفع من الأرض تحت أقدام الجبل، ولو عَلِم هؤلاء الزوار المتردِّدون إلى آثار هذه المدينة أن أهلها عُذِّبوا وقُتلوا، وشُرِّدوا، وفرَّ مَن تبقّى منهم هاربًا بنفسه وما علق بذاكرتهم من أكاذيب وافتراءات، وأضاليل مفتعلة يُبديها لهم المرشدون، لو علموا هذه لاشمأزّت نفوسهم من الأعمال البربرية التي استعملها المهاجمون الأوائل من أسلافنا، ومن سوء الحظ لم يجرؤ بعد كاتب أو مؤرِّخ لديه الجرأة الأدبية، والشجاعة الكافية، أن يذكر ولو شيئًا قليلًا عن حضارتنا السالفة، ومدنيَّتنا الغابرة، وإذا تجرأ وذكر شيئًا تجدُه يراوغ بأقواله وما لبثَ أن يصِمَنا بما ليس فينا. والله وحده يعلم، ثمّ هذا المتنزّه الجميل الصامت، الذي لا فمَ له ليخبر من يؤمه من الزوار المتنزهين في أرجائه، ما لقيه سكان هذه المدينة من الذل، والقهر، والإبادة على يد الرجل الأبيض.

أقامت حكومة الولايات المتحدة المرشدين، ليلفّقوا لزائري هذا المتنزّه ما

كان يقوم به الهنود الحمر، من أعمال الشقاوة، من سرقة المواشي والوقوف بالطرقات العامة يسلبون الناس أموالهم وأمتعتهم، وحتى أرواحهم؛ يزاملهم في هذا المخرجون للأفلام في مدينة هوليود وما ينتجونه من الأفلام السينمائية، التي تُعرَض على العالم في أمهات المدن، على مرأى ومسمع من الحكومة، وتعمل هوليود أحيانًا هذا العمل بمساعدة حكام هذه البلاد.

بهذا يتحدّث المرشد مع الزوار، يقصّون عليهم أمثال هذه القصص المثيرة تسويغًا لما فعلوه مع الهنود من وحشية وبربرية، وظلم. لقد شوهوا سمعتنا وحطّموا كرامتنا، والله وحده يعلم مقدار تأثيره في نفوسنا.

كان هذا الشاب الهندي يكلِّمنا ورأسه منخفض في الأرض، ثم سكت برهة وجيزة، ورفع رأسه بعدها فإذا بدمعة حائرة في مقلتيه، يدفعها الذل، وتمنعها الأنفة والإباء وسألته: وماذا سيكون عملك بعد أن أتمَمتَ تحصيلك الجامعي؟

أجاب: إن والدي رحمه الله، قد قصَّ عليَّ من أخبار المتقدِّمين من جماعتنا الهنود الشيء الكثير، ولدي معلومات وافية عنهم، وإني عازم على أن أجوب البلاد وأجتمع بالمعمِّرين من قومنا، لاستكمال معلوماتي ليتسنّى لي تأليف كتابٍ وافٍ عن هنود أميركا، عن مدنيتهم وحضارتهم، وما قاموا به على هذه الأرض الطيبة من جليل الأعمال، لأدحض به أقوال المرجفين وأبيِّن للناس شراسة الناس.

وقضينا بضع ساعات من الليل، نصغي إلى أقوال هذا الهندي متألمين ومستغربين، متألمين بما لحق الهندي الأميركي من الشقاء والتعاسة وهضم الحقوق، ومستغربين أن يظهر بين الهنود الحمر أصحاب أميركا الحقيقيين بعد ما أصابهم من البؤس واليأس، مثل هذا الشاب الذي يسعى بكل حيوية لرفع الضَّيم عن قومه الغابرين، فودّعناه وعُدنا أدراجنا لخيمتنا، ولم تنقطع المراسلات بيننا طيلة سنة كاملة وأشدّ ما كانت دهشتي، يوم أن تلقّيت رسالة من شقيقته (موتي) تنعي فيها أخاها (جو) فجزعت وحزنت على هذا الفتى الذي مات وفي قلبه حسرة الألم على ضياع هويته وإنسانيته.

لا أذهب بعيدًا عن هذا الموضوع، فلا أرى مانعًا من التعليق، وشرح بعض الفقرات التي أتت في كتاب (الولايات المتحدة جغرافيتها ونموها) الذي أصدرته

الدوائر الحكومية الرسمية في الولايات المتحدة الأميركية، ليزداد القارىء معرفة بهذه الملايين البشرية من الهنود الحمر سكان أميركا الأصليين، وليتبيَّنَ له مقدار ما أصابهم من الأذى والإجحاف وما حلَّ بهم من التعاسة والشقاء على يد الرجل الأبيض، لقد جاء في هذا الكتاب: «إنهم قدموا - ويعني الهنود الحمر - من السهول الوسطى على ظهور جيادهم، التي فرّ إليها أجدادهم من وجه المكتشفين منذ ثلاثة قرون» أي إنهم غادروا ديارهم، وقراهم التي نشأوا فيها وترعرعوا في ربوعها، غادروها وهاموا على وجوههم هم وأولادهم وشيوخهم ونساؤهم وذراريهم فرارًا من المكتشفين الأوروبيين المستعمرين أو سمِّهم ما شئت أن تسميهم، تاركين وراءهم ذكريات حياتهم الغالية وأمانيهم الحلوة العطرة، وكبار آمالهم الحميدة. لقد فرّوا من وطنهم الذي آواهم، والوطن مهما كانت صفته ووضعيته على رؤوس الجبال أو في المدن أو الوديان هو غالٍ عزيز، لقد حاولوا محاولة يائسة المحافظة عليه، ولكنهم لم يتمكنوا.

تأمّل معي الجملة الآتية التي أنقلها من المصدر نفسه:

«ولمّا امتلأ هذا المكان بجموع المهاجرين طَرَدوا الهنود الحمر نحو الداخل عبر جبال أبلاشي ليفسحوا المجال للمهاجرين الجدد».

ومن الأمور التي يصعب على الإنسان هضمها وأخذها مأخذ القبول، قول الكاتب: «واضطرّ الهنود إلى الجلاء عن السهول والصحاري بسبب الظروف المعيشية القاسية فيها، وحلَّ محلهم رعاة البقر البيض».

فهل يُعقل أن رعاة البقر البيض أقوى على احتمال الحياة القاسية في هذه السهول والصحاري من الهنود الذين ركنوا إلى الإقامة في ربوعها منذ نشأتهم ومارسوا شقاءها ومضض العيش فيها، إنّ هذا الأمر لا يستوعبه العقل ويشمئزُّ من سماعه الإنسان.

وأردف قائلًا:

«ويحتقرها رعاة البقر باعتبارها قفارًا صعبة موحشة وخطيرة، ولم يكن سوى الهنود الحمر الذين عرفوا كيف يعيشون فيها، بغير شجر أو أرض مزروعة».

الكاتب يراوغ هنا في أقواله مراوغة الثعلب الشرود ويكشف نفسه عاريًا أمام قرّائه. ثم يزيد الطين بلّة حينما يقول في صفحة «86» من الكتاب المذكور:

«وقد كانت هذه السهول والصحاري خالية من السكان إلّا النفر القليل من الهنود الحمر الذين كانوا منتشرين في ربوعها الفسيحة».

وجاء في الصفحة «82» قول الكاتب:

«ولمّا كانت الغابات تغطّي السفوح، وكان يعيش في هذه الغابات الهنود المتخلّفون» والكاتب الذي يصف الهنود الحمر بالتخلُّف، هو الكاتب نفسه الذي يقول عنهم «لهم قسط من الحضارة».

كما جاء في وصفه الولايات المتحدة الأميركية:

«إنما هي قارة جديدة كان يسكنها قوم من الهنود قليلو العدد يعيشون على الفطرة غير أنَّ لهم قسطًا من الحضارة، إذ حاولوا شيئًا من الزراعة وكان من أهم مزروعاتهم الذرة البيضاء التي انتشرت زراعتها في أنحاء العالم، حتى أصبحت في كثير من البلاد تمثِّل الغذاء الأساسي».

جاء في الكتاب المذكور أيضًا ما يلي:

«وكان لدى القبائل الأيروكي، أفضل حكومة منظمة تنظيمًا دقيقًا في شمال المكسيك، وقبل خمسمائة عام نظَّمت خمس قبائل حلفًا فيما بينها دعته حلف الشعوب الخمسة، وكان يتألف من قبائل جابوكا، وموهوك، وأويندا، وأونونيفا وسينيكا، وكانت قبائل الأيروكي، التي كانت تسيطر على المنطقة التي هي اليوم بنسلفانيا وأوهايو الشمالية، وولاية نيويورك، كانت تحرث وتزرع على نطاق واسع وكانت الحبوب التي يزرعونها تشكِّل ستين نوعًا من اللوبيا وخمسة عشر نوعًا من الذرة والقرع.

أقول ثانية إنّ عدد الهنود الحمر لم يكن ضئيلًا، بل كانوا يُعدُّون بالملايين، إن أصناف اللوبيا، التي يزرعونها تقارب الستين نوعًا وإنّ الذرة خمسة عشر نوعًا. ألم تكن هي زراعة الملايين من البشر المنتشرة بين الأميركيتين الشمالية والجنوبية؟

مع العلم أنه لم يكن للمواصلات الخارجية أثر بعد، حتى يصدِّروا هذه الحاصلات العظيمة إلى الخارج. وإذا كانت خمس قبائل تقطُن في ثلاث ولايات من الولايات الأميركية المتّحدة فكم هو عدد القبائل التي كانت منتشرة في السهول والصحاري وكم كان عدد السكان من كلِّ قبيلة؟ أولم تكن كل قبيلة تُعَدُّ بالآلاف، فما أفظع قول الإنسان الذي لا أخلاق له ولا ضمير يؤنِّبه.

جاء في الصفحة «84» الآتي:

«في سنة 1820م، أي قبل ما يقرب من المائة وستين عامًا عندما لم تكن شيكاغو مدينة بعد. ويوم أن كانت السهول الكبرى من ممتلكات الهنود الحمر، استقرّ الهنود الحمر على مياه خليج المكسيك باعتباره موردًا للحياة وانتفعوا بها في ريِّ حقولهم، ولا تزال قنواتهم ممتدة أميالًا في الصحراء حتى الآن، وعندما لاحظ المستوطنون الأوائل تلك القنوات فطنوا إلى أنّ ريَّ هذه الأرض ليس متعذِّرًا».

إن هذه الأقوال تغاير وتنقض ما كتبه الأميركان وما افتراه المؤرخون عن الهنود الحمر من أنهم قتلة سفّاكو دماء، وإن الرجل الهندي في يده الفأس الهندي المشهور، كان يطارد الثيران وينقَضُّ على الشاحنات الجديدة ويقف في الطرقات لسلب المارة أموالهم وأرواحهم.

جاء في الصفحة «65» ما نصه:

«فهناك في برانزفيل من ولاية المكسيك، مزارعٌ يدعى جون تاري، رأى الهنود يحفرون الأخاديد لريِّ مزارعهم، وفي السنوات العشرينية وما بعدها صمَّم هذا المزارع على أن يروي أرضه بطريقة علمية وقد أحرز نمو أشجار الحمضيات في فدادينه الثلاثمائة نجاحًا كان بداية ازدهارها. وأصبحت المنطقة التي هي حوض برانزفيل من أغنى الأقاليم الزراعية في البلاد علاوة على كونها منطقة صناعية غنية بالنفط، والغاز الطبيعي، ومتنزهًا يؤمه جميع السكان»، وإنَّ ما قام به المزارع جون تاري وعادَ عليه بالفوائد الجمّة قد تعلّمه من الهنود الحمر، ومع ذلك قيل عن الهنود الحمر إنهم كانوا بلا معرفة أو حضارة.

من سوء حظ الهنود الحمر وسوء طالعهم لم يذكُر مؤلِّف هذا الكتاب الذي ذَكر فيه هذه القصة أن نجاح المزارع جون تاري يعود بفضله إلى الهنود الحمر الذين رآهم يحفرون الأخاديد لريّ مزارعهم، فقد كانت الأرض في برانزفيل من ممتلكات الهنود. والشيء بالشيء يُذكر وهل هم الآن يزاولون زرعهم وري مزارعهم؟ وهل لهم آبار نفط أو غاز طبيعي كما للسكان البيض في هذه المنطقة؟ كلا لا وجود للهنود الحمر في هذه المنطقة التي كانوا يملكونها، ويزرعون أرضها ويحفرون الأخاديد فيها. إن الرجل الأبيض المتأمرك، أو النزلاء الجدد قد استباحوا لأنفسهم أن يستأصلوا شأفة الهنود من على وجه الأرض، وبغوا، وعتوا، واستباحوا حُرمة سكان أميركا الأصليين، وشوَّهوا سمعتهم، لذا لا غرابة إذا اعتبر الهنود الحمر الرجل الأبيض عدوّهم رقم واحد، وأي عدو هو؟ إنه عدو لدود ذو بأس شديد.

إن الولايات المتحدة الأميركية التي أصبحت أعظم دولة في العالم كلّه والتي أحرزت انتصارات عظيمة في زمن الحروب، وفي زمن السلم وأبدعت في الاختراعات والاكتشافات العلمية الجبارة التي جعلتها في طليعة شعوب العالم، ومكّنتها من اختراق الفضاء، وصعودها القمر.

إن أميركا هذه تحتاج إلى مزيد من الاهتمام بسمعتها الإنسانية التي يشوبها ضمن ما يشوبها بؤس الهنود الحمر الذي ما زال قائمًا حتى يومنا هذا ورحِم الله شوقي إذ قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

هناك ثلاثة أمور في التاريخ الأميركي سوف تعمل دائمًا على إثارة التساؤل عن أخلاقية السياسة الأميركية وهي:

أولًا: القضاء على الهنود الحمر سكان أميركا الحقيقيين، أصحاب البلاد، قتلًا وتشريدًا، وتجريد مَن تبقّى منهم من ممتلكاتهم.

ثانيًا: التفرقة العنصرية، واضطهاد الرجل الأسود، الذي عانى من جرّاء هذا

الاضطهاد معاناة جمّة. وألحقَت التفرقة العنصرية بأميركا سمعة سيئة في الأوساط العالمية.

ثالثًا: إلقاء القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما الآهلة بالسكّان أثناء الحرب العالمية الثانية، التي قضت على مئات الآلاف من البشر في ثوانٍ معدودات وكانت إبادتهم جماعية.

أتيح لي الاطّلاع على ما كتبه (ألبرت رولند) في مجلة «الحياة في أميركا» التي كانت تُصدِرها وزارة الخارجية الأميركية باللغة العربية وتوزعها على سفاراتها في الدول العربية، وذلك في عددها الصادر في الأشهر الأولى من عام 1962م (1381هـ)، بعنوان: «الهنود الحمر بين الأمس واليوم».

برغم ما في هذا المقال من تقصير في بعض فقراته وعدم الوفاء من الوجهة العامة بتوضيح نار الظلم التي كان الهنود يتقلبون على سعيرها، تحت سيطرة المستعمرين الأوائل، وبرغم ما فيه من تقارب في الأقوال، وتباين النزعات، وبرغم تشبُّعه بالعنصرية، وعدم الاكتراث بما أصاب الهنود الحمر من سلب أموالهم، وإتلاف مزارعهم، والاستيلاء على ممتلكاتهم وإبادتهم أفرادًا وجماعات، برغم هذا كله، فإن المقال يُعتبر مقبولًا في بعض نواحيه، إذ تطرّق إلى ذِكْر القليل من حضارتهم فقال: «إنهم شيّدوا أركانها بقوة وثبات، وبأس وشجاعة، وإنّ القبائل التي وجدها الروّاد الأوروبيون الأوائل على خليج المكسيك كانت تنعم بنظام اجتماعي راقٍ، وأوجد هؤلاء القرويون حكومات قوية منظّمة كانت تجمع بين السلطتين الروحية والمدنية، وتربطها برباط قوي، وإن القوة الرئيسة كانت تكمن في الرأي العام».

إن الحكومات التي ذكرَها الكاتب، والتي كانت تجمع بين السلطتين الروحية والمدنية برباط قوي، لم يكن قوامها قرويين، فلو بَدَّل قرويين بكلمة مدنيين لكان مقاله أحكم وأقوى، ولكن الكتّاب جميعهم ومنهم المؤرِّخون عندما يأتون على ذكر الهنود الحمر وما قاموا به من أعمال مجيدة، ونُظُم قوية مرنة، لا بد أن يذكروهم بما يخفِّض من شأنهم فكأنهم أخذوا على أنفسهم أنْ يكونوا كذلك.

إني لأتساءل مستفسرًا، أين هي هذه الحكومات القوية المنظمة، التي كانت تنعم بنظام اجتماعي راقٍ؟ وكم كان عدد أفرادها المنتسبين إليها؟ وأين هم الآن؟ هل أبادتهم إعصارات جوية قوية؟ أم جرفتهم مياه الطوفان فلم يَبْقَ منهم أحد؟ إن الجواب صعب ولكن لا بد من قول الحقيقة إنهم كانوا ملايين من البشر لم تُبِدْهم الأعاصير الجوية ولم يجرفهم الطوفان ولم يداهمهم وباء أهلكهم، ولكن لقوا مصرعهم على يد الوافدين والمستعمرين الأوائل، وتحدَّث الكاتب عن أحلافهم وقراراتهم فقال: «إنهم كانوا يتّخذونها باتّفاق تامّ لتصبح نافذة المفعول وكان قد بدأ مقاله مراوغًا في إقدام وإحجام، تارة أخرى يتأرجح يمينًا وشمالًا يقدّم رِجلًا إلى الأمام ويؤخر أخرى إلى الخلف فيصعد ثم يهبط».

عند انتهائي من قراءة مقاله وجدتُ نفسي مضطرًا لأن أفنِّد أقواله وافتراءاته إنصافًا للهندي الأحمر الأميركي المهدور الكرامة المغلوب على أمره، كما أني لا أحاول بعملي هذا أن أتلقّى من الهندي الصاحب الحقيقي للبلاد الأميركية حتى الثّناء ولكنني أُقْدِم على هذا العمل حبًّا للحقيقة المُرَّة التي لا يعترف بها المستعمرون الأوروبيون الذين هاجروا من أوطانهم، أو هي لَفَظَتهم كالنواة، واتَّخذوا أميركا مسكنًا لهم فأقول: توَّج كاتب مقالة مجلة الحياة في أميركا مقاله بجملة جذّابة نقلها من كتاب «الأميركي المتلاشي» للكاتب «زين غرين» وحاول بما أوتيه من لباقة كتابية أن يقول: «عن القصة التي كتبها مستر (غرين) هي عن قبيلة (نافاهو) التي واجهت قبل أربعين أو خمسين سنة محنة مريرة قاصمة، وقاسَت العذاب الأليم، وقد صوَّر كتاب غرين للأميركيين عامة نكبة هنود كثيرين، كلّها مستوحاة من الحقائق المفجعة. واستطرد رولند في حديثه، ردًّا على ما جاء في كتاب غرين فقال: «لم يكن لهؤلاء الهنود، أمل بالحياة، وهذا ما ظنّه زين غرين وإنه كُتِب لهم أن يتواروا عن مسرح الحياة، ولكن الهنود الأميركيين لم يتواروا، وها هي قبيلة نافاهو وهي أكبر القبائل الهندية في الوقت الحاضر، التي ألهبت حالتها غضب زين غرين وأثارت شفقته. لقد خطت منذ ذلك الوقت أشواطًا جبّارة نحو التطوّر الاقتصادي والحياة الأفضل، مع العلم أن هذه القبيلة ليست وحدها في هذا المضمار».

واستطرد قائلًا: «لقد ازداد عدد الهنود الأميركيين في الولايات المتحدة في الثلاثين سنة الأخيرة ستين % بحيث يتجاوز اليوم عددهم نصف مليون نسمة، ومنهم الكثيرون قد انتخبهم الشعب لِيَشغَلوا مناصب الولاية، والاتّحادية الكبيرة. من هؤلاء نائبان لرئاسة الولايات المتحدة الأميركية هما: «شارلس لوك» من أحفاد شيوخ قبائل «اوساج كر» و«جون تانس جارفر» الذي يَمُتُّ بصلة القربى إلى قبيلة الشيروكي، وقد اختير مرّتين لخوض الانتخابات مع الرئيس روزفلت. ومن بين الخمسة والعشرين ألف هندي الذين خدموا باختيارهم في القوات المسلحة أثناء الحرب العالمية الثانية كان اللواء كارتس تينكر من قبيلة أوساج الذي أعاد تنظيم القوات الجوية بعد الهجوم على بيرل هاربر».

إن المستر رولند مُبالِغٌ في تقديره عن زيادة الهنود التي قال: بَلَغت 60 % في السنوات الثلاثين الأخيرة، إنَّ هذا لا يتَّفق والمنطق السليم، ولا يستوعبه العقل البشري، فهل من المعقول أن يزداد هذا العدد الضخم في هذه المدّة من الزمن الذي أشار إليه؟ وإذا فرضنا جدلًا، وجاريناه فيما كتبه عن الهنود الحمر، وما يقوله عنهم، ووافقناه على أن الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأميركية (230) ألف هندي، يخصم من هذا العدد الشيوخ والأولاد والنساء، والباقي منهم المشوّه والمعتوه وصاحب العائلة وأصحاب العاهة... إلخ، فهل يُعقل أن يكون خمسة وعشرون ألف جندي يخدمون باختيارهم وطوع إراداتهم في الجيش الأميركي، من باقي العدد الذي ضخّمه المستر (رولند)، مع أنّ نظام الجيوش المتَّبع في بلدان العالم أجمع، لا يسمح أن ينتسب إلى الجيش إلّا بعد فحص طبِّي دقيق.

خدمت بالجيش الأميركي خمسة أشهر أثناء الحرب العالمية الثانية، لم تَرَ عيني في غضونها جنديًا هنديًّا واحدًا.

أعود فأقول عمّن يُدافع هؤلاء الهنود المتطوّعون باختيارهم في الجيش الأميركي؟ عن وطنهم المسلوب؟ عن الرجل الأبيض عدوهم رقم واحد؟ وهو أصل بلواهم ونكبتهم، فقد امتهَن كرامتهم، واستولى على ممتلكاتهم وشرّدهم، فهاموا على وجوههم وهم يعانون من سوء العذاب.

ويستطرد المستر (رولند) في حديثه المُبالغ فيه والذي يحتاج إلى إثبات فيما

يقوّله فيقول: «وهناك حوالي (300) مدرسة يديرها المكتب الأميركي للشؤون الهندية، تضمّ 72 ألف طالب، وهناك أيضًا 85 ألف هندي آخر في المدارس الحكومية، وبالإضافة إلى هذا، فإن لدى جماعات كثيرة نامية، برامج خاصة لتعليم البالغين، والعناية بشؤون الصحة العامة».

إن قول هذا الكاتب مردود عليه جملة وتفصيلًا للأسباب الكثيرة الآتية:

أولًا: إنه لم يَثِقْ فيما يقوله، فكلمة حوالي التي أتى على ذكرها مرّتين، وحشرها بين خمس كلمات لدليل ظاهر على عدم ثقته فيما يقول، إنه يتكلّم رسميًّا في مجلة رسمية صادرة عن وزارة الخارجية الأميركية فلو كان واثقًا ولديه اطّلاع على هذه المدارس وعدد طلابها لَما أتى على ذكر كلمة (حوالي) عدّة مرات.

فكلمة حوالي تُكتب إذا لم يَثِقْ صاحبها فيما يقول: فيضع الكلمة كعذرٍ له.

ثانيًا: ومع هذا نمشي مع المستر (رولند) حتى النهاية ونوافق معه أن نصف مليون هندي موجودون في كندا والولايات المتحدة الأميركية، وأن نصفهم حسب الإحصاء الرسمي الموجود في الولايات المتحدة. فهل يُعقل أن يكون من مجموع مائتين وخمسين ألف هندي (122) ألف طالب يدرسون في المعاهد العلمية؟ هذا غير الذين لهم برامج خاصة لتعليم البالغين، فكَم يا تُرى يَبلغ عدد هذه الجماعات التي لديها برامج خاصة لتعليم البالغين؟ وكم هو عدد البالغين من الهنود المنتسبين إليها؟ إن نسبة الطلاب الذين يدرسون في المعاهد العلمية بمدينة نيويورك وفي مدارسها الخاصة ثمانية % من مجموع سكانها البالغ 8 ملايين نسمة بما فيهم الطلاب الغرباء، إذًا فالمستر (رولند) مبالغ جدًّا فيما يقوله عن عدد الطلاب الهنود.

هذا وإن اللواء (كلارنس تنكر) الذي قيل إنه كان من الخمسة والعشرين ألف هندي الذين خدموا باختيارهم في القوات المسلحة الأميركية أثناء الحرب العالمية الثانية والذي أعاد تنظيم القوات الجوية، بعد الهجوم على (بيرل هاربر) وكذلك (جون تانس جارفر) الذي جعله يَمُتُّ بصلة إلى قبيلة (الشيروكي) وشارلي لوك من قبائل (أوساج كر) هؤلاء الثلاثة الذين مارسوا أعمالًا إدارية وعسكرية ليسوا هنودًا بالمعنى الحقيقي الكامل، فهم منحدرون من دماء مختلطة يغلب عليها العنصر

الأبيض بشكل كبير. وتجد أحد أجدادهم البعيدين فقط ينتمي إلى الهنود الحمر وفيما عدا ذلك من دماء وثقافة وحياة فكلها تابعة للإنسان الأبيض.

فلا نستطيع أن نصدِّق بسهولة أنه كان بمقدور الإنسان الهندي الذي كان يواجه في ذلك الوقت مشكلة التمييز العنصري الرسمي في بعض الولايات أن يتقلَّد مناصب حكومية كبيرة.

إن الحقيقة المُرَّة التي وقفتُ عليها أثناء زيارتي الثانية للولايات المتحدة الأميركية عام 1376هـ (1957م)، أي بعد تسعة أعوام من مغادرتي لها أنني لم ألمس شيئًا مستحدثًا طرأ على تقدم الهنود الحمر وإصلاح أحوالهم الاجتماعية في تلك الأصقاع.

وقفت على مكان للهنود الحمر كانوا يقطنون فيه سنة 1355هـ (1936م)، قريبًا من ناطحات السحاب التي قامت على أنقاض أعشاشهم، وصدفة قابلت أحد الهنود في مدينة (تامبا) من ولاية فلوريدا فتحدّثت معه ففهمت أنّ أحوال الهنود تتأخر يومًا بعد يوم، ولن يمضي إلّا سنوات حتى تزول كافة آثارهم وممّا قاله: «لا يزال نساؤنا وأولادنا يتأخرون إلى الوراء. واستعاد معي تاريخ معاناة الهنود الحمر ومأساتهم، وكان مثله في ذلك مثل أي هندي آخر تحدَّثت معه، ولمّا شعر الهندي الأميركي في تامبا باهتمامي حدَّثني عن امتداد رقعة الولايات المتحدة في القرن الماضي والذي أرغم قبائل كثيرة على النزوح إلى جزء آخر من البلاد وذلك تحت ضغط المستوطنين في اندفاعهم الزاحف نحو الغرب، وبحثهم الجاد عن أرض جديدة، الذي انتهى بالاستيلاء عليها. واختفت معالم بعض هذه القبائل التي كانت تستوطن الولايات الشرقية. وبدأت بعض القبائل تتحرك من نفسها غربي نهر المسيسبي وكأنها عالمة بما سيأتي. وحتى عام 1830م صدر قانون يخوّل شراء أرض الهنود وترحيل أصحابها على نفقة الحكومة وقد تمَّ فعلًا خلال العقد الثاني ترحيل بعض القبائل إلّا ولاية (أوكلاهوما) حيث بدأوا ثانية في بناء مجتمع جديد. وإني إذ أرحم هؤلاء الهنود الحمر، لِما لحقهم من الضرر في هذا التحويل المضني المميت.

كم من السنين قضوا في بناء مجتمعهم مرة ثانية الذي أفسده عليهم النزلاء

الجدد وكم استمروا في تطويرهم البطيء المتقطّع؟ وكم قاسوا من الضغوط المتواصلة، عند اندفاع النزلاء الجُدد وبحثهم عن أرض جديدة والذي انتهى باستيلائهم على أراضي الهنود؟ وكم هو مقدار الفظاعة في نفوسهم، التي أوجدها نزوحهم من مكان لآخر؟ وكم هو عدد القبائل التي زالت معالمها واضمحلت، ولم يَبْقَ لها أثر؟ وكم كان استياؤهم شديدًا عندما أصدر هؤلاء النزلاء قانونًا يخوِّل شراء الأراضي من الهنود وترحيل أصحابها عنها؟ وكم منهم مَن ألحق اللعنة بهؤلاء النزلاء الجدد؟ وكم وكم وكم؟ إن سُنَّة الغالب أن ينقص من شأن المغلوب. وأنقل كلمة جاءت في جريدة (الكوتيدين) الباريزية بعنوان «تاريخ الأمم المغلوبة على أمرها لم يُكتب» وذلك على أثر إرسال المجلس الأعلى لبقايا هنود أميركا، في الولايات المتحدة الأميركية - إلى مدينة شيكاغو في الكنغرس الأميركي - احتجاجًا صارخًا، جاء فيه:

«إن الكتب المدرسية المستعملة الآن في الولايات المتحدة الأميركية، صوَّرت تاريخ الهنود في صورة مخالفة للحقيقة التاريخية».

لقد جاء في هذه الكلمة: «ليتنا نفكِّر قليلًا فيما كانت عليه أميركا قبل أن يكتشفها (كولمبس) ونقرأ قصة الفاتحين الأولين وأرباب الرحلات الأقدمين، من الأقاصيص الغريبة ونلقي رائد الطرف على المدن القديمة في العالم الجديد، وما بلغته من الازدهار والتقدُّم، وما غصَّت به المعابد العظيمة التي تضاهي بعظمتها معابد مصر، وتماثيلها العظيمة موشَّحة بالذهب وما كان هناك من متاحف وخزائن، وكتب، ومراصد فلكية، وإذا كُتِب لك أن تتوغّل في مدينة المكسيك ومدينة (الماباس) في برتيكا، والانكاس، لاستنتجت والدهشة آخذة منك مأخذها أنَّ اكتشاف أميركا كان من أعظم جنايات أوروبا. ولا أعتقد أن نعيم الحياة ومسرّاتها، لو قدِّمت جميعها إلى البقية الباقية من هنود أميركا سكان البلاد الأصليين ستخفِّف عنهم شيئًا من وقع نكبتهم، لقد قيل الكثير عن الهنود الحمر في أميركا وتناولتهم العديد من القصص والروايات وأفلام السينما، وسوف يُقال الكثير عنهم في المستقبل، ولكنهم بالرغم من ذلك سوف يبقون تلك الفئة من الناس التي فقدت هويتها والتي سوف يُساء فهمها كثيرًا ولن تُعرف حقيقتها.

إني أعتبر نكبة الفلسطينيين في أرضهم كنكبة الهنود الحمر في وطنهم أميركا، فكُلٌّ من الفلسطينيين والهنود شُرِّدوا عن أوطانهم واستُبيح حماهم، وتجاه هذا العمل المشين يحتِّم الواجب ويفرض إرادته على الأمة العربية ويوجِّهها لتستعمل كل ما تقدر عليه من قوة للتأثير في السياسة الأميركية التي ناصرت أعداء الأمة. وإنّي على يقين أنه سيتبدَّل موقف الساسة الأميركيين والأوروبيين الذين يمدّون إسرائيل بالتبرعات النقدية، وبتقديم المعدات الحربية الفتاكة المهلكة بكافة أصنافها، تحت تأثير أفرادها الذين سيلاحظون ارتباط مصالحهم بالدول العربية والإسلامية.

لقد اجتاح الصهاينة حمى الغرب، وبدأوا يسومون أهل فلسطين سوء العذاب، فشرّدوهم عن أوطانهم، واستولوا على ممتلكاتهم، واستعملوا معهم أصناف الإبادة من تعذيب وقتل وتشرد، وبعد أن تمَّ استيلاء الصهاينة على فلسطين كلها وعلى قسم من أراضي جيرانها من مصريين وسوريين وأردنيين لم يكتفوا بهذا المقدار من الإهانة للعرب، بل تعدّوه حتى شملت الإهانة، وعدم الاكتراث بالأمم الإسلامية قاطبة، أعجميّها وعربيّها، فمدّوا أيديهم الأثيمة إلى بيت المقدس ثالث حرميها، ومسرى نبيها محمد ﷺ فأتوا عليه وأحرقوه وها هم اليوم يقومون بحفريّات قريبة جدًّا من أساسات هذا الأثر الإسلامي الخالد، ليجتثّوه من فوق الأرض.

بعد هذا الاستطراد عن الهنود الحمر الذي أنهيته بتشبيه مأساة أبناء فلسطين بما حلَّ بهم، وأرجو الله ألّا ينتهي الفلسطينيون إلى المصير نفسه الذي انتهى إليه هنود أميركا، بعد هذا الاستطراد أعود لمتابعة وصف الولايات التي سافرنا أنا وزوجتي في ربوعها، فبعد أن أمضينا في فلوريدا مدّة شهرين كاملين متنقلين في أرجائها المختلفة اتّجهنا غربًا مبتعدين عن ولاية الساحل الشرقي نحو ولاية ألاباما. إنّ أول مَن اكتشف ولاية ألاباما هو الإسباني دي نار فابر سنة 1528م وتعاقب على مُلكها الإسبان والفرنسيون والإنكليز. ثم تكوّنت كمقاطعة في 13 آذار/مارس سنة 1817م، وأصبحت ولاية سنة 1819م، وتغلَّب القائد أندرو جاكسون على الهنود الكريك المقيمين في هذه الولاية في ملحمة هورس شوبيند. وتكوَّنت في عاصمتها مونتجمري، أول حكومة كونفدرالية أثناء الحرب الأهلية،

في 14 شباط/فبراير سنة 1816م، وفيها أقسم جيفرسون دافيدز قَسَمَ الرئاسة، وأقام أول بيت للرئاسة وسمّاه البيت الأبيض، وهو من المباني التذكارية للولاية، ومن معالمها متحف كارفر، وبها كارينفال تاريخي يعود إلى سنة 1704م، وآثار تذكارية، وهي مشهورة بمعادن الفولاذ، والحديد، والفحم، وموبيل يُعتبر أكبر موانئها. وللولاية 17 متنزهًا حكوميًّا و8 غابات حكومية. ويقطن في مساحتها البالغة (51,609) ميلًا مربعًا (3,266,740) نسمة.

لم تَطُلْ إقامتنا في ألاباما ومنها توجّهنا إلى ولاية مسيسبي، كانت تجارة الخمور في الستينيات لم تزل محرّمة في هذه الولايات وقد ألغت ولاية أوكلاهوما هذا التحريم في 10/ 11/ 1378هـ الموافق 17 نيسان/أبريل 1959م. ولقد اشتهرت ولاية المسيسبي بالاحتفالات السنوية بسباق اليخوت. ويوجد فيها آثار تجذب السياح، كمساكن الزراع القديمة. وتعاقب على حكمها الفرنسيون ثم البريطانيون، ثم الإسبان، واستولت عليها الولايات المتحدة سنة 1798م، وبدأت تدريجيًّا في نقل مستوطنيها من الهنود الحمر عبر نهر المسيسبي، وكانت الولاية العشرين التي دخلت الاتّحاد في 10 كانون الثاني/يناير 1817م، وانفصلت عن الاتحاد سنة 1861م، في أعقاب بَدْء الحرب الأهلية ثم التحقت به في سنة 1870م.

بعد ذلك قَدِمنا إلى ولاية لويزيانا التي تأتي في المرتبة الثانية من بين الولايات في إنتاج الزيت والغاز الطبيعي الاحتياطي بعد ولاية تكساس، ويُستخرج من (2150) بئرًا، والغاز الطبيعي فيها يُستخرج من (710) آبار، وللولاية صناعات واسعة في تكرير البترول ومشتقاته، واستثمرت من البترول منذ سنة 1946 حتى الآن بليون دولار.

الولاية غنية بالثروة الطبيعية من الطيور، والحيوانات والأسماك، ولقاطنيها البالغ عددهم (3,325,125) نسمة طبائع وعوائد تاريخية متميزة، فهم خليط من الإسبان والفرنسيين، وطبائع الذوق السليم الفرنسي كان غلَبَ على سكانها في القرن الثامن عشر، كما يقولون. وأكبر مدنها الساحلية مدينة نيو أورليونز وتُعتبر ميناءها الأساسي والميناء الثاني هو في مدينة باتون روج التي هي عاصمتها، والثالث ليك تشارلز. أسِّست مدينة نيو أورليونز سنة 1718 وأصبحت لويزيانا مستعمرة تخضع

للتاج الفرنسي، ثم تنازلت فرنسا عنها لإسبانيا، ثم أعديت لفرنسا، ثم باعها نابليون إلى الولايات المتحدة في 20 كانون أول/ ديسمبر سنة 1803م.

في هذه الولاية ثالث بحيرة في أميركا بالنسبة إلى مساحتها البالغة (635) ميلًا مربعًا من مساحة الولاية البالغة (7482533) ميلًا مربعًا. وهذه الولاية هي من ضمن الولايات الخمس: فلوريدا، ألاباما، مسيسبي، لويزيانا، تكساس، التي تقع على خليج المكسيك، ونظرًا إلى تقلُّب الحكّام عليها من الإسبان والفرنسيين في أوقات مختلفة، فإن ساكني هذه الولايات ما عدا ولاية تكساس يغلب عليهم حتى الآن الطابع الإسباني والفرنسي، وفيها من الآثار الإسبانية والفرنسية الشيء الكثير كالإرساليات الإسبانية والمستعمرات الفرنسية.

بعد لويزيانا قَدِمنا لولاية تكساس وهي أكبر الولايات مساحة إذ تبلغ مساحتها 267,339 ميلًا مربعًا، بما في ذلك 4,499 ميلًا مربعًا من المياه، كان يقطن في هذه المساحة 9,600,200 نسمة، بُنِيت عاصمتها أوستن من حجر الجرانيت الأحمر سنة 1685م.

اشتهرت هذه الولاية بالسدود على أنهارها الستة: (بيكوت - وبرزوس - وترينيتي - وكنديون - وكولورادو - وسان جاكينتو)، كما اشتهرت بمنتجاتها البترولية، ويقدَّر ما تُنتجه بـ 25% من الإنتاج الإجمالي للولايات جميعها، ويبلغ دخلها السنوي من هذه المادة أربعة بلايين ونصف بليون دولار.

تعتبر ولاية تكساس الأولى من بين الولايات في عدد المواشي، وهي الأولى في تربية الأغنام وإنتاج الصوف، وهي الولاية الوحيدة التي تمّ عتق جميع عبيدها، عندما أعلن العتق في الولايات في 19 تموز/ يوليو سنة 1856م.

كانت ولاية تكساس، الولاية الوحيدة المستقلة، وقد اعترفت الولايات المتحدة الأميركية باستقلالها، قبل انضمامها للاتحاد، ورفرفت على سواريها أعلام حكومات ثلاث: الإسبان، الفرنسيين، المكسيك. ومن موانئها الرئيسة مدينة هيوستن، وهو الميناء الرئيس لشحن القطن والبترول. ويُقام في مدينة دالاس أكبر مدينة مؤقتة للملاهي كل عام في شهر تشرين الأول/ أكتوبر.

قد اشتهرت هذه المدينة في المدة الأخيرة، بحادث عظيم، يُعتبر من أسوأ

المصائب بالنسبة إلى رؤساء الولايات المتحدة، فقد انتهت حياة الرئيس جون كنيدي بعيار ناريّ أطلق عليه أثناء مروره في أحد شوارعها، وكان في طريقه لإلقاء خطاب تاريخيّ وذلك على يد رجل يُدعى (أوزولد) وكان بصحبة كندي، زوجته جاكلين، وحاكم ولاية تكساس. وكان لهذا الحادث الجسيم، أسوأ الأثر في العالم أجمع، لِما اتّصف به الرئيس الراحل من حنكة سياسية، ومقدرة فائقة في قيادة دقّة السياسة الأميركية الداخلية والخارجية، وقد شيَّع جثمانه إلى مقرِّه الأخير، الملوك ورؤساء الحكومات، والوزراء من ستٍّ وستين حكومة في العالم، كما أقيم الحِداد السياسي في كثير من دول العالم.

أثناء نقل القاتل إلى السجن تصدى له رجل يهودي يُدعى (جاك روبنشتاين) وأطلق عليه رصاصة واحدة، اخترقت أمعاءه فخَرَّ صريعًا. وبما أن (أوزولد) قد فارق الحياة دون أن يعترف بأنه القاتل لم يستطِع المحقّق أن ينال هذا الاعتراف. وأما روبنشتاين فقد أقدم على قتل (أوزولد) انتقامًا لجاكلين زوجة كنيدي، كما قال للمحقِّق وبقي ثابتًا على قوله هذا.

لا تزال التكهنات عن هذا الحادث تُثار حتى الوقت الحاضر، وهناك مَن يقول إن جناحًا يمينيًّا في الولايات المتحدة، يضم جماعة من الصهاينة، له يدٌ في مصرع الرئيس الراحل، ولم ينجلِ الموقف حتى كتابة هذه السطور.

وكانت تكساس الولاية الثامنة والعشرين التي دخلت في الاتحاد بتاريخ 29 كانون الثاني/ يناير عام 1845م، وعدد مدنها 91 مدينة أكبرها هيوستن ودالاس وأصغرها أدنو.

بعد أن أمضينا حوالي أسبوع في تكساس قدِمنا إلى ولاية نيومكسيكو، ولقد اشتهرت بآثارها العجيبة، منها الكهوف الطبيعية (كارلابأ) التي اكتُشفت سنة 1011، وهذه الكهوف تُعتبر الآن متنزّهًا عامًّا. ويرجع تاريخ آثارها في شاكو كانيون إلى 1000 سنة قبل الميلاد.

يقطن في مساحتها البالغة 121,666 ميلًا مربعًا، مستوطنون من عدّة أجناس من المكسيك والإسبان، والهنود الآباش، والتافجو، وأوتا، وهنود اليوبيلو الذين يقطنون في 18 قرية يوبيلوية أصلية، ويبلغ عدد سكانها 1,0540,032 أمّا عاصمتها

فهي: مدينة سانتا، ويوجد في لوس ألامونس، وايت ساندز، هولومان، مراكز للبحوث الكونية، والولاية مزدهرة بالبحوث الإلكترونية، ومن المدن التي تجذب السياح مدينة سانتافي، والباكويرك، التي أقيمت فيها مبانٍ عديدة على الطريقة الهندية لقبائل اليوبيلو.

كانت الولاية السابعة والأربعين التي دخلت في الاتّحاد بتاريخ 6 يونيو/حزيران سنة 1912م وعدد مدنها 23 مدينة وأكبرها مدينة آلن غوغو.

محطتنا الأخيرة في هذه الرحلة، بل المحطة الأخيرة في رحلة زواجنا كلّها هي ولاية أريزونا التي قَدِمنا إليها بعد مغادرتنا لنيومكسيكو. والولاية غنية جدًّا بمعادنها الثمينة، وهي في هذا المجال كجارتها نيومكسيكو التي انفصلت عنها، فقد كانتا ولاية واحدة فانفصلتا عن بعضهما سنة 1863م، وكوّن كلٌّ منهما ولايته.

هذه الولاية هي الولاية الثامنة والأربعين التي دخلت في الاتّحاد بتاريخ 12 شباط/فبراير سنة 1912م، وتستقبل هذه الولاية كل عام آلاف الزوار لمشاهدة آثارها الطبيعية ولزيارة عاصمتها فينكس ومدينتا توكي، وبوما.

في ليلة مقمرة أثناء وجودنا في فينكس كنت أتجاذب أطراف الحديث مع قرينتي فتطرَّق بنا الحديث إلى اليوم الأول الذي تمَّ فيه تعارفنا، فذكرنا العراق وفندق تايكرس في بغداد والرسائل التي كنّا نتبادلها فيما بيننا، وذكرنا دمشق ومتنزّهاتها وعقد قراننا بها، وذكرنا وادي بردى وتردُّدنا إليه كل يوم طيلة إقامتنا في دمشق، ومنظر غوطتها البديع الذي يأخذ بمجامع القلوب إذا نظرتَ إليها من أعالي ذاك الجبل الأشمّ، وتذكرنا أيضًا جبال سويما حيث أقمنا ثلاثة أيام نراقب الفتيات والسيدات وهنّ يقمن بألعاب التزلج بكلِّ خفة ورشاقة.

بينما نحن في غمرة هذه الذكريات إذا بقرينتي تغيِّر فجأة مجرى الحديث، ولا أدري الدافع الذي دفعها إلى ذلك حتى نغّصت علينا ذكرياتنا الجميلة وأحلامنا اللذيذة؟ لا أدري هل كان ذلك دلالًا وغنجًا منها، أم كانت هنالك أسباب أخرى خفيَت عليّ ولم أعرفها؟ وإلّا ما هي الصلة بين استعراض أوقاتنا الجميلة التي قضيناها معًا وقولها: هل أنت تاركي بعد هذه العِشْرة الطويلة؟ هل في نيتك الفراق؟ فدهشت للسؤال وأجبتها على الفور: إنني أحبك حبًّا مَلَك عليَّ السمع

والبصر والفؤاد، فكيف أفكّر بذلك!؟. فقالت: إياك أن تفعل ذلك أو تفكّر فيه، إنك في بلاد تختلف اختلافًا كبيرًا عن البلاد العربية، ومع الأسف الشديد إنّ سكان هذه البلاد لا يُقدّرون إلّا الدولار، فقدر ما يكون منه في يدك تُجلُّ وتُحترم، وهناك بعيدًا الشرق وروحانيته اللّيِّنة وهنا الغرب وماديته القاسية التي أوشكت أن تفصله عن إنسانيته، إنك في بلادي والواجب يدعوني أن أنفق عليك بعد أن أنفقتَ ما تملكه من الأموال، إنك إن تركتني فستتركني وليس معك دولار واحد.

لم أستسِغ الجملة الأخيرة من حديثها، فقد وقَعَت على نفسي وقعًا سيئًا كان أشد من وقوع الصاعقة، فضاقت بي الدنيا على وسعها، وبقيتُ لا أرى إلّا نفسي ولا أفكِّر إلّا بها، نفسي التي ضحَّيتُ بها في سبيل هناء قرينتي وسعادتها، ولقد نفرتُ من عشرتها نفور الغنيِّ من المعسر، فقلت لها: هل نسيت رفضي للعشرة آلاف دولار التي قدَّمتها إليّ عند موافقتي على الاقتران بك في مدينة بغداد؟ عودي إلى الأيام الأولى وتذكّري قولك لي: إنّني على استعداد لأقاسمكَ ثروتي، ألَمْ يكن جوابي لكِ ولا زلتُ أذكره: إنها قلوب تعارفت، وأفكار اتّحدت، فلا تدعي المال يُفسد هذه الصلة الروحية. ثم تركتها جالسة أمام موقد النار، وذهبتُ إلى سريري وألقيتُ نفسي عليه.

إنه الحب، الحقيقة التي أجد من الصعوبة إخفائها، أو التغافل عنها، أو كبتها في قرارة نفسي، ولا مندوحة أمامي من تبيانها، إذ سبق مني الوعد أن لا أكتب إلّا الحقيقة مهما أنكره الإنسان أو تباعد عنه لا مناص له من الوقوع في حبائله، سواء أكانت هذه الحبائل شيطانية أو رحمانية، فقد نصبت له الفخ ووقع في شِراكه، ومهما كان من أمر هذه الحبائل، أو من أي صنف صُنِعَت لم ينْجُ إنسان من التعثُّر فيها. ألم يمُرّ بك أو عليكم هذا الشعاع القويّ الأخّاذ، فأزاغ سنا نوره بصرك، أو استحوذ على لبِّك فغدوت طوْع إرادته تأتمر بأمره، وتنزل عند رغبته؟ ألم تناجيه ليلًا حتى تولّى سرقة النوم من عينيك، ووَتر أعصابك وشوّش أفكارك؟ ألم تشعر بصوته وقُدرته، حتى تخال نفسك كأنك طفل صغير بين يدي قوة لا حدود لنفوذها؟.

ارتبطتُ بها بعدما دفعني قلبي إليها، قلبي الذي تعلّق بها كأول امرأة في

حياتي، تعلّق بلطفها ودماثتها وليس بمالها، حيث إن المال لم يكن له نفوذه قطّ عليّ، لقد أحببتها هي ولم أحب مالها، إن شفافية الحب ونقاءه عُرضة للدمار والدنس إذا زالت من بين الحبيبين الثقة القائمة على ارتباط الأرواح، فالمادة الخسيسة تُزيل نقاء الروحانيات وتدمِّرها، وإنني كنت أسير حبّها ولكن لن أكون قطّ عبدًا لأموالها، لذلك شعرتُ وكأنّ غشاوة زالت عن عيني، لقد شعرتُ وكأنني خُدِعت، وكان الحب الحقيقي قائمًا من جانب واحد، لذلك قرَّرت الانفصال إلى غير عودة، وكان قراري حاسمًا ونهائيًّا. لقد كانت ليلة قاسية نكدة تلك التي بدأت رائعة كما وصفت، أويت إلى فراشي وبدأتُ أفكِّر كيف يمكن أن أتركها، هل سأتركها في فينكس، لا بد من تركها، ولن تعود المياه إلى مجاريها، ولن أدَعَ السبيل أمامها للعودة، لكن كيف يمكنني أن أتركها وحدها، أوليست قرينتي، أوليس الواجب يدعوني أن أكون بجانبها؟ أوليس هناك أمل بعودتنا، لا، لا ليس هناك أمل أبدًا، لن أعير أفكار المصالحة والعودة أيّ إصغاء، لقد اتَّخذتُ قرار الفراق ولا بد من تنفيذه ولا بدّ من أن يذهب كلٌّ منّا في طريقه، والله هو المُغني والمُعين.

وأخذتُ أجمع أمتعتي، وكانت حتى تلك الساعة تظنُّ أنني سوف لن أغادرها وأنفصل عنها، لقد خُيِّل إليها أن الأمر كان حادثًا عرضيًّا ودرسًا لا بد من أن أتلقَّنه منها لتُحكِم سيطرتها عليّ، فقد كنت أصارحها دومًا بحبّي وأبيِّن لها تعلُّقي بها، وكانت متحقِّقة من ذلك، فأرادت أن تستعبدني بأموالها، لقد خُيِّل إليها أنني من أبناء جنسها، ولم تعرف أنني عربي مسلم، كلّي ألفة وصدق وعزة، أتوكل على الله الرزّاق ولا أعتمد على غيره جَلَّ وعَلا.

ولقصور فهمها وإدراكها لهذا كله، قالت عندما تحقَّقت من عزيمتي على مغادرتها: لا بأس إنني أعطيك فرصة تقضيها وحدك لتعلَم أنَّ ما قُلته هو الحق، اذهب إلى لوس أنجلوس وحدك وسألحق بك بعد حين.

قلت: لا، إنك لم تفهميني ولن تفهميني أبدًا، وصَدَق مَن قال: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا، لعلّك ستُدركين معنى ما أقوله وكلّي أمل أن لا يأتي ذلك متأخرًا جدًّا.

كان المتبقي معي من المصروف اليومي مقدار مائتي دولار، أخذت منها مبلغ أربعين دولارًا، وردَدتُ إليها الباقي، ودفعتُ من الأربعين مبلغ ثلاثين دولارًا ثمن تذكرة القطار إلى لوس أنجلوس، وفي الصباح حملني القطار إلى لوس أنجلوس كاليفورنيا مدينة الزهور والفاكهة والشمس الدافئة، وذلك بعد أن خلَّفت ورائي أوّل من أحبَبتُ صادق الحب ونقيَّه وضحَّيتُ في سبيل راحته وهنائه بكل غالٍ وعزيز، لقد غادرت أيضًا القفص الذهبي بعدما بقيت حبيسه ما يزيد قليلًا على ثلاث سنوات، كنت خلالها أتنقّل بين قضبانه الذهبية من دون وعي ومن دون تفكير، انطلقتُ منه لأسرع في روابي لوس أنجلوس وبين مروجها الخضراء، وأغرِّد على أغصان أشجارها الوارفة الظلال.

الفصل الثاني عشر

لوس أنجلوس ولقاء مع هوليود

كنت متفائلًا جدًّا لدى قدومي إلى لوس أنجلوس، البلدة الجميلة، الهادئة، ذات الشمس الدافئة، والمناخ المعتدل، ولا أعلم حتى الآن سببًا لهذا التفاؤل، ولم أدرِ بعد كُنْه هذا السرور الذي خامرني، وملأ نفسي غبطة وحبورًا، منذ أن وطئت قدماي أرض هذه المدينة الكبيرة.

أسائل نفسي: هل كان سببه هو انطلاقي من القفص الذهبي الذي حُجزت وراء قضبانه أكثر من ثلاثة أعوام، أم إنها نزوات شاب مغامر يريد اقتحام هذا المجتمع الهائج المائج، وأيديهم مقفرة من المادة وأسبابها، والتي من دونها لا يتسنّى للمرء أن يأتي بحركة، أو أن يعمل عملًا إيجابيًّا يسمح بالمُضي في هذا المعترك من الحياة؟ وهل للجندي أن يخوض المعركة وهو أعزل من السلاح؟

بهذا كنت أسائل نفسي، فلم أجد جوابًا، ولكن شيئًا واحدًا كان يخامر قلبي ويغمره همّة ونشاطًا، هو إيماني القوي بأني سأوافق في هذه المدينة المكتظة بالغرباء الوافدين إليها من كافة الأقطار والممالك وراء اكتساب الرزق.

كنت أعلم حقَّ العلم أنني سأقتحم أمرًا صعبًا، وأسلك طريقًا وعرًا، فلا يمكنني اجتيازه إلّا بعزيمة صادقة قوية ثابتة، كما كنت متحقّقًا من أن هذا المجتمع الذي سأرتمي في أحضانه تسود فيه المادة، وتعلو على كافة القيم الروحية والأخلاقية وهما اللتان تسودان شرقنا العربي واللتان نشأتُ في ظلّهما وترعرعت في أكنافهما يوم أن كانت المادة في نظري لا تساوي شيئًا يُذكر تجاهها.

لقد اختبرت الحياة واجتزت مراحلها وعرفتها كما هي، بخيرها وشرها، بنعيمها وشقائها. بأفراحها وأحزانها، فكنت واثقًا من النجاح في هذا المعترك.

نهضت مسرعًا بخفّة الطير ونشاط الظبي وبهمّةٍ لا يخامرها ملل ولا فتور، وغادرت غرفتي إلى الاستعلامات في الفندق سائلًا: هل هناك محل عربي قريب؟ فأجاب: إن مطعمًا سوريًّا يبعد ثلاثة شوارع من شرقي هذا الفندق، فتوجّهت إليه فألفيته مطعمًا متواضعًا في الطابق الثاني من بناية قديمة، وكنت لا أزال في مقتبل العمر، صحيح البنية، حسن المنظر، فدخلت المطعم وسلّمت على مَن فيه، وبعد التعارف دعاني أحد زوّاره لتناول الطعام، فلبّيت الدعوة بكل احترام، وأخذ يمطرني بأسئلة عن الوطن وأهله، ويُدعى هذا الرجل الخواجه نيقولا الحاج، من مدينة زحلة من لبنان وكان يتعاطى تجارة السجّاد العجمي والإفرنجي، وله متجر كبير في المدينة، وفهمت منه أنه هاجر إلى هذه البلاد مع شقيقته وقرينها منذ ثلاثين عامًا، وتوفّي زوج شقيقته بعد أن أنجب غلامًا يدرس في إحدى جامعات كاليفورنيا، وقال: إن شقيقته بعد وفاة زوجها اقترنت ثانية برجل أميركي، وأنهما يعيشان عيشة نكدة، فهُما دومًا في نزاع مستمر، فلقد طمع في غيطها الذي تملكه، ومن المحتمل أن تتنازل له عن نصف هذا الغيط، هبة منها إليه. أمّا هو - أي الخواجه نيقولا - فقد تجاوز العقد الرابع ولا يزال أعزب يقطن بغرفة في أحد الفنادق المجاورة لمتجره منذ عشرين عامًا لم يستبدلها بغرفة غيرها طيلة هذه المدّة الطويلة، وأخبرني أنه عزم على الزواج منذ عشرة أعوام، ولكنه فوجىء بمصرع والدته في مدينة زحلة، فلقد اغتيلت ليلًا طمعًا في حليها التي تملكها، فكان لهذا الحادث أثره البالغ في نفسه فعَدَل عن الزواج.

سألني عن سبب قدومي إلى لوس أنجلوس، فأفهمته أن سببه الدراسة وخاصة هندسة الطيران، وأنّ بلادي بحاجة قصوى إلى رجال لديهم خبرة في هذه الصناعة، وواصلت حديثي قائلًا: إني منتظر ورود بعض المال من عائلتي، وتبادلنا الأحاديث في شتّى المواضيع فقال: لدي اقتراح، لا أدري هل توافق عليه أم لا؟ فأجبته: تفضل، عسى أن يكون فيه خير، قال: هل لك أن تشتغل في محلي التجاري ثلاث ساعات بعد ظهر كل يوم، براتب قدره عشرة دولارات في الأسبوع ريثما يأتيك التحويل من عائلتك؟ فوافقت على اقتراحه فورًا، ولا أدري هل تبيّن له أثناء حديثنا

أني لا أملك من الأموال شيئًا، أم إنه أراد مساعدتي في تحصيل العلم؟ وكان للعشرة دولارات في ذلك الوقت قيمتها، يمكن للإنسان تأمين حياته ومسكنه.

كان صاحب المطعم، سليم كرم، يصغي إلى حديثنا. فقال أين تسكن الآن؟ فأجبته: في الفندق، قال: أتيت لهذه البلاد لطلب العلم، لا لتأخذ راحتك ومتعتك في فنادقها، تعال واسكن معي في المنزل الذي أسكنه. غرفة واسعة نظيفة خاصة لك بحمام واسع نظيف، لا تكلفك أكثر من خمسة دولارات في الأسبوع، وهكذا ذهبنا جميعًا في سيّارته للفندق، وأخذت أمتعتي، بعد أن قضينا في المطعم حتى الساعة الحادية عشرة مساء.

في اليوم التالي استيقظت على طرق باب غرفتي، فوجدت بالباب سليم كرم، فقال: صحّتي لا تخولني العمل في هذا اليوم، فهل لك أن تساعدني؟ وواصل حديثه قائلًا: أرجوك أن تأخذ الخبز من الفرن الذي بجانب منزلنا إلى المطعم، وتعود إليه في المساء، وتأخذ من القائم على الصندوق ما لديه من الدراهم، بعد أن تستبقي لديه ما يحتاج إليه لليوم الثاني، وأدعوكَ أن تكون ضيف المطعم هذا اليوم، وأكرّر رجائي على أن تتناول وجبتَي الغداء والعشاء وسأتّصل بالمطعم هاتفيًا وأخبرهم عنك. وطالَ مرض سليم كرم ومكث عشرة أيام طريح الفراش، وكنت أقوم كل يوم بما كلّفني به، إلى أن شفاه الله وعافاه.

منذ أو وطِئت قدماي أرض لوس أنجلوس، وبانَت لي المدينة ومعالمها، وجبالها الشامخة وتلولها المنتشرة في سهولها، ومروجها الخضراء وأشجارها الباسقة، شعرت بشعور غريب لم يعترني من قبل، شعرت أنني حرٌّ طليق، وقد طرحت جانبًا كلّ ما كنت أتمتّع به من طيّبات في هذه الحياة، أو بعبارة أصح، إن هذه الطيبات تخلّت عني، وفقدتها، فقرّرت منذ اللحظة الأولى أن أكيّف حياتي من جديد حسب طاقتي، متغافلًا عن كماليات الحياة التي كنت أتفيأ ظلالها، وأرتع في بحبوحتها، كان لديّ بقية من السيكار الذي كنت أدخنه، فوزّعته على من أعرفه، وتجنّبت التدخين، لقد بدأت تدخين السجائر منذ الخامسة عشرة من عمري وكان تدخيني في بداية حياتي متقطعًا بسبب صعوبة التدخين أمام الناس خاصة من أفراد عائلتي، وأثناء رحلاتي مع العقيلات كنت أمتنع عن التدخين. كما توقفت عنه طيلة

إقامتي في حائل بجانب الوالد عندما كنا ضيوفًا على السبهان. لقد أصبحت مدمنًا على التدخين أثناء إقامتي في العراق عندما كنت ألاحق مسألة وقف الرواف. واليوم أقلع عن التدخين في لوس أنجلوس وأتخلى عنه بسبب ضيق العيش ونقص المال.

ودخلت بادىء الأمر مدرسة ليلية، ثم التحقت بقسمها النهاري من الصباح حتى الظهيرة، وأثناء طوافي في المدينة نقلتني خطاي إلى مبنى جريدة اللوس أنجلوس تايمز فدخلت هذا المبنى الضخم، وكانت هناك كرة أرضية كبيرة قائمة على قاعدة من البناء يرتفع مترًا عن أرض المبنى وتحتل جزءًا من بهو المبنى فوقفت أمامها، أتطلّع نحو موضع بلادي السعودية.

إن المرء يشعر وهو بدار غريبة، بعيدًا عن وطنه وأهله، بشعور غريب مصدره الحنان، فمهما كانت صفة الإنسان أو وضعيته، سواء أكان أميرًا أو صعلوكًا، وسواء أكان في بحبوحة من العيش، يتقلّب في أحضان النعيم، أو في فقر مدقع يتضوّر جوعًا، يظلُّ يذوب لوعة وأسى للوطن.

الوطن كلمة قريبة من النفوس، وسماعها محبَّب للقلوب، إذا ذُكرت هزَّت أنغامها أوتار القلوب، فالآباء دبجوا المقالات الطوال عن الوطن، وأسمعنا الشعراء شعرًا رقيقًا عذبًا، حفظته الذاكرة، قبل أن تحفظه الكتب، وغنَّته النفوس قبل أن يلحِّنه الملحنون، وكان لصدى نغماته طلاوة وحلاوة، تفوق ما تعبِّر عنه الأنغام الموسيقية جميعها، ويوضح لنا الشاعر العريق ابن الرومي أسباب الحنين إلى الوطن والشوق لرؤياه إذ يقول:

وحبب أوطان الرجال إليهم — مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم — عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فالشاعر ابن الرومي له أفضلية على غيره من الشعراء، يوم أن أرجَع سبب الحنين للوطن، إلى عهود الصبا في ربوعه.

فالوطن مهما كانت صفته ووضعيته، هو غالٍ وعزيز، وفراقه صعب، والبُعد عنه لا يُحتمل ولا يُطاق، وبهذا الخصوص أذكر أنه بعد عودتي من الولايات

المتحدة الأميركية وتوطُّد صداقتي بسمو الأمير طلال بن عبد العزيز كنت أتردَّد بصحبة سموه على زيارة عواصم العالم.

فزرنا البلدان الأوروبية مرارًا، وأميركا شمالها وجنوبها، ولكن هذا الأمير الموسر، لم يكن يمضي عليه ثلاثة أسابيع أو أربعة بعيدًا عن وطنه، إلَّا ويُبدي شوقه وحنينه والرغبة في العودة إليه، الوطن الذي نشأ فيه، ونما في صحرائه ووديانه ومدنه وقصوره، وكان ذِكر مدينة الرياض لا يُفارق ثغره.

كان هذا حالي وما جالَ في خاطري وأنا أقف أمام خارطة العالم للكرة الأرضية القائمة في مبنى جريدة لوس أنجلوس تستقبل الزائرين والمغتربين فتؤجِّج نار شوقهم ولواعج حنينهم إلى أوطانهم الغائبة. وهنا وجدت أنامل يدي تمسح قطرات تساقطت على وجنتي ثم انهمرت، وفيما أنا كذلك شعرتُ بيد تلمس كتفي، ومَن يُخاطبني بقوله: هل رأيت موقع بلادك في هذه الكرة؟ فأجَبته من دون وعي: ها هي وأشرتُ إلى الوطن العربي وعملت دائرة حول الديار العربية من الأندلس ومن جنوب فرنسا وحتى الحدود التركية، ومن البحر الأبيض المتوسط حتى ما وراء العراق، فرمقني بطرف عينه مستغربًا هذا التحديد ولم أبالِ لاستنكاره، وهو بدوره لم يفاتحني به، ثم عرَّفني بنفسه قائلًا: المحرِّر المحلي لجريدة اللوس أنجلوس تايمز: هل تسمح لي أن أتحدّث معك عن بلادك؟ وبدأ يُمطِرني بأسئلة عديدة عن بلادي ومليكي وعن البترول وعن سبب قدومي إلى الولايات المتحدة، وكيف رأيت الشعب الأميركي وهل كان قدومي للزيارة أم لأسباب أخرى؟ ثم طلب مني بطاقة الهجرة وقد كنت أخذتها من القنصل الأميركي في مدينة نابولي الإيطالية، وكانت تحمل هذه البطاقة رقم (واحد)، للكوتا الخاصة بالهجرة من السعودية إلى الولايات المتحدة. وصدر بعد هذه المقابلة مقال جيّد كان له أثر طيب عن مليكي وبلادي. ولقد كان المقال موضع اهتمام صحف أميركا.

الصحف الأميركية اعتادت أن تكتب ما تريد، وتنشر ما تشاء، بلا محاسب أو رقيب على أقوالها، فهي مطلَقَة الحرية بكلِّ ما في هذه الكلمة من معنى. وقد بالغت إحدى الصحف في حديثها عنّي فبدأت الدعوات تنهمر عليَّ كالمطر، فلم

ألبِّ أيّ واحدة منها، ولكنني حضرت الحفل الذي أقامه السيد عبد الحي باشا تكريمًا لقنصل الحكومة المصرية في سان فرانسيسكو، طلبة بيك، حفيد الزعيم أحمد عرابي، وإن اعتذاري عن بقية الدعوات، كان سببه اهتمامي بدراستي، حيث إنني كنت قد التحقت بإحدى المدارس الثانوية وتُدعى (متروبولتن هاي سكول).

كانت قرينتي عند وعدها، فلقد قدِمَت إلى لوس أنجلوس وتوقَّعت أن تجد خبرًا عني عند بعض سكان المدينة من العرب، وبعد أن وجدت عنواني كتبت لي وأبدت رغبتها بمقابلتي ولكنني أهملت رسالتها. ثم كتبت ثانية وأبدت استعدادها لدفع نفقات سفري للمملكة العربية السعودية، ولم أوافِق على رغبتها. فنشرت حديثًا لها في الصحف قالت فيه: إنني أحضرت خليل الرواف من البلاد العربية السعودية وإنني أشعر بمسؤولية إعادته إلى بلاده.

اتَّصلت عدّة مرات بمكان عملي ولكنني لم أهتم بلقائها. ولقد نُصِحتُ من قبل أحد اللبنانيين بإقامة دعوى قضائية ضدّها، فلربما تتنازل لي عن جزءٍ من أملاكها فرفضت الفكرة. وأقامت زوجتي في هوليود عشرين يومًا وفي إحدى محاولات اتّصالها بالهاتف تكلّمت معها وسألتها ماذا تريدين؟ فقالت لي: إذا لم تَعُد ترغب في الزواج مني فيجب أن تطلقني. فقلت لها: لقد تزوّجتك في دمشق وسوف أطلِّقك في دمشق بعد أن أعود إليها. فاقترحَت عليَّ أن نسافر معًا إلى سوريا على نفقتها الخاصة وقد تتيح لنا الرحلة فرصة إعادة المودة بيننا من جديد. وإذا لم يتِم ذلك فيُمكن عندها إتمام الطلاق في دمشق. ولكنني رفضتُ مصاحبتها بالعودة وقلت لها إنني سوف أعود إلى دمشق عندما أتمكَّن من تأمين تكاليف العودة بنفسي. وبعد أن يئِست زوجتي من إقناعي بمقابلتها سافرت بنفسها إلى دمشق ووكَّلت السيد فارس بك الخوري الذي كان في ذلك الوقت محاميًا مشهورًا، برفع قضية تطلب فيها الطلاق.

في هذه الفترة وصلتني رسالة من شركة داكلاس لبناء الطائرات، تقول فيها: إن الشركة ترغب مخلصة أن تضمَّني إلى مهندسيها، وأن تعلمني ما أريد أن أتعلّمه، وبراتب أسبوعي، فأجبتها شاكرًا دون إبداء رغبتي في العمل، وبعد أيام حضر سكرتير هذه الشركة المدعو: ت. س. مكماهان من مركز الشركة من مدينة

سانتا مونيكا خصيصًا لمقابلتي، وعرض عليَّ العمل في شركة داكلاس، فوعدته أن أكتب له في المستقبل، وتلقَّيت كتبًا من الشركات المهتمة بالشؤون الكهربائية، وكان ما قالته شبيهًا بما جاء في كتاب شركة (داكلاس اير كرافت).

كانت فرصة طيِّبة لو اغتنمتها، ولكن في ذلك الوقت لم يخطر ببالي أن أدرس في الولايات المتحدة، ولم أكن صادقًا حينما قلت لمحرري الصحف إن السبب في حضوري لولاية كاليفورنيا هو طلب العلم، وكان جُلَّ مرادي هو العودة إلى الوطن العزيز، في أقرب وقت ممكن، مع أن هذه الفرصة سُنِحت لي ولكنّي رفضتها، إذ أنت من قرينتي التي كنت أتوهّم في ذلك الوقت بأنها تريد إخضاعي لها بأموالها.

لم أمكث طويلًا في محل الخواجه نقولا، وكان سبب مغادرتي لمحله، رغبته في تسخيري خارج المحل، وكان اتّفاقنا أن أشتغل داخل المحل لا في خارجه، وقد قال لي مرة: خُذْ هذه السجاجيد وأوصلها إلى أحد المحلات التجارية، وذلك بواسطة دراجة أدفعها أمامي، ولم تطاوعني نفسي على تلبية طلبه، فشكرته واعتذرتُ له عن خدمتي في محلّه التجاري، فعرف ما كنت أضمره، فأذن لي، وبقي صديقًا طيلة إقامتي في مدينة لوس أنجلوس.

إنَّ من يواكبهم النجاح في الولايات المتحدة هم الذين يهاجرون إليها، وأعمارهم لا تتجاوز عدد أصابع اليدين فهؤلاء نجاحهم محقَّق وثابت، إذ إنهم يندمجون مع الشعب الأميركي، فيأخذون عنه طرق معيشته، ويشاطرونه سعادته وأتراحه، ويكتسبون من خبراته وتجاربه، وإن لم يتثقَّفوا ثقافة عالية.

هناك جماعة من الشباب المثقفين جاءوا من البلدان العربية وغيرها واجهوا متاعب جمّة في سنوات هجرتهم الأولى، وأخذوا وقتًا طويلًا ليحقّقوا نجاحهم، إذ لم يكن لديهم مرونة للعمل المتواصل كمرونة الرجل الأميركي. كما أن ثقافتهم وقفت حاجزًا أمام نجاحهم، وأخذهم الغرور، فاعتبروا أنفسهم أصحاب ثقافة أعلى وأعظم من ثقافة الرجل الأميركي، فكانت هذه هي الصدمة الأولى التي اعترضت طريق نجاحهم، حتى إذا اختلطوا مع الشعب وعاشروه طويلًا، بانَ لهم وهمهم فاندمجوا به وبدأوا يتسلَّقون سُلَّم النجاح رويدًا رويدًا، مع أن بعضهم بقي على تصلُّبه وغروره، ففاته الرَّكب فالتزم مكانه.

لو علم هذا الشاب العربي المهاجر المثقَّف أنّ الشعب الأميركي محبٌّ للمرح وشغوف به، ووقف على عاداته التي جُبِل عليها ومارسها من عمل متواصل وطموحٍ لا حدَّ له، ومن حرية يتمتّع بها، لكان اندمج معه وهضم حركاته التي تصدُر عن بعض أفراده، ولم يستنكرها ولَهانَ عليه الأمر وجاراه في مرحه وشغفه، وشاطره المُضي في طريقه حتى يظفر بالنجاح فالرجل الأميركي ينظر إلى من لم يُجارِه في حياته نظره للغبيّ الجاهل.

مَن يهاجر إلى الولايات المتحدة وقد تجاوز العقد الثالث يجد صعوبة تامّة في التفوّق والنجاح. فأنا مثلًا: هاجرت إلى الولايات المتحدة وقد جاوزت السابعة والثلاثين من عمري وكانت طبيعتي، وعادتي، وأخلاقي، وتفكيري قد نضجت واكتملت وكان من الصعوبة بمكان تبديل هذه الصفات التي مارستها ونشأت عليها، لذلك اعتبرت كلمات الخواجه نيقولا قاسية فلم أستسِغْها، وإلّا، فما كان يُضيرني لو امتثلت لأوامره، وأوصلت السجاد إلى المحل الذي أراده؟ سيّما أنه لم يكن هناك من يعرفني.

مدينة لوس أنجلوس، مدينة جميلة ساحرة، ذات حركة دائمة ونشاط تجاري كبير، يعود سببه إلى المهاجرين إليها من مختلف جنسيات العالم، ولقربها من مدينة السينما هوليود، ولإنشاء عدّة مصانع فيها، ولخصوبة أرضها وطيب ترتبها وقد أتيح لسكانها جلب المياه الغزيرة إليها من مسافات بعيدة تبلغ مئات الأميال، فنَمَت زراعتها وتوسَّعت.

كان عدد سكانها سنة 1936م، ثمانمائة ألف نسمة، وفي ضواحي هذه المدينة أبدع ما خلق الله على الأرض من تلال وهضاب وجبال وسهول فسيحة، ومتنزهات عديدة تجدها أينما ذهبت وكيفما توجّهت، وهي تحتل بقعة واسعة من الأرض، وهي ذات جوّ معتدل، وتحتفظ مروجها ومتنزّهاتها بنضارتها واخضرارها طيلة فصول السنة. ويُلعب في مروجها اللعبة المفضلة والمحبوبة لدى الكثير من المواطنين الأميركيين (الغولف) وكثير من عشاق هذه الرياضة يأتون في فصل الشتاء من مختلف الولايات ليمارسوا في مروجها ومتنزهاتها لعبتهم المفضَّلة يوم تكون مروج ولايتهم مكسوّة بالثلوج، ويكون أكثر هؤلاء غالبًا قد تجاوز العقد الخامس من عمره.

برزت ضواحي مدينة لوس أنجلوس عن ضواحي الولايات المتحدة جميعها، بتلولها الملونة، ومنعطفاتها الجميلة، ومساحتها الواسعة، وحدائقها الغنّاء، وطرُقها العديدة الواسعة، ففيها عدّة طرق عمومية تستوعب ثماني سيارات، كلُّ أربعٍ منها تسير باتّجاه واحد، فتتلوى في منعطفاتها بسهولة تامة، ودقّة ونظام مُحكَم.

أثناء مكوثي في هذه المدينة، أتيحت لي الفرصة للتعرُّف إلى كثيرٍ من قاطنيها، فالشعب الأميركي شعب مضياف يحبُّ الغريب ويقدِّره، خاصة في هذه الولاية، التي يتزايد عدد ساكنيها بسرعة فائقة، وقد لا يخلو شعب من شعوب العالم إلّا وله جماعة تقطن في هذه الولاية، أقول هذا لِما لمسته في مجتمعهم من ألفة شديدة وتعارفٍ قويٍّ فيما بينهم، وكانت لي صلة قوية مع شاب من مدينة كليفلاند أوهايو، وكان محبًّا للرياضة وشغوفًا بركوب الخيل، ولا يملُّ من التحدّث عنها، وكنّا نذهب في أواخر كل أسبوع إلى إصطبل (بل يو - كانج) ملك الخبز الرقيق (كورن فليكس) لنمتطي ظهور الجياد، وكان لديه أربعون رأسًا كلها خيول عربية أصيلة.

غادر هذا الشاب مدينة لوس أنجلوس لزيارة أهله في مدينة كليفلاند، وأرسل لي رسالة طويلة مؤلفة من ثماني صفحات يقول: إن عائلته قد زاد عدد أفرادها ثلاثة وإن العائلة جميعها فرحة مستبشرة بهذا الحدث العظيم وأخذ يصِفُ لي مدى سعادته والساعات الطوال التي يقضيها معهم، فاعتقدتُ وأنا أتلو هذه الرسالة المطوَّلة أن إخوانه الثلاثة قد تزوّجوا، ولكني فهمت أثناء قراءتي للأسطر الأخيرة من الرسالة أن كلبتهم قد أنجبت ثلاثة جراء، وهو يدعوني لزيارة كليفلاند للتعرُّف عليهم، وقال: ستُسرّ كثيرًا وسيخامرك فرح شديد لا يقل فرحًا عن بقية أفراد العائلة، إنهم مِن أبدع ما خلق الله من هذا الصنف، ولم أُحرَم من التعرُّف إلى هؤلاء الجراء الثلاثة، فقد قدِّر لي بعد ثلاث سنوات من هذا الحادث زيارة كليفلاند، وكان الحظّ بجانبي. إذ تعرَّفت على الجراء أثناء مكوثي في زيارة هذه العائلة لمدة خمسة أيام. ونلاحظ ممّا تقدَّم حُبّ الأميركيين للمرح وللحيوانات، وكان هذا قبل إعلان الحرب العالمية الثانية بسنة واحدة، وقبل أن تخوض الولايات المتحدة معمعتها بثلاث سنوات، يوم كانت الكثرة الغالبة في الولايات

تحترم الغرباء القادمين إليها من كافة أقطار العالم، ويقدِّمون إليهم كلّ ما يستطيعون من المساعدات المادية والمعنوية، يوم كان الغريب يجدُ نفسه بين أهله وقومه فلا يشعر بغربته في دار هجرته، يُقاسِم أهل البلاد خيراتها، فلا يضنون عليه بأيّ نصيحة إذا ما أظهر اللباقة والقدرة على العمل، ويشجّعونه على تحقيق رغباته، فإذا أظهر ميلًا للتجارة أشاروا عليه بالتنقّل في ضواحي المدن والقرى، يحمل إلى قاطنيها الملبوسات والأقمشة، حتى إذا صار لديه بعض المال فتح محلًّا متواضعًا، فلا يلبث حتى يجد عمله قد توسّع وازدهر خلال سنوات قلائل.

كان هذا شأن الكثير ممّن هاجر من البلاد العربية كسورية ولبنان وفلسطين، وقد وفِّقت الجالية اللبنانية توفيقًا ملحوظًا، فسبقت بلباقتها وحسن سيرتها ومثابرتها على العمل كافة الجاليات العربية، فانصهرت في بوتقة الشعب الأميركي، وشاطرته حياته في جميع مرافقها العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

لا أنكر أن المهاجرين الأوائل من اللبنانيين وجدوا صدرًا رحبًا من نزلاء الولايات المتحدة، فقد هاجروا هم وعائلاتهم يحملون في قلوبهم الحقد والضغينة على العثمانيين حكّام البلاد العربية في ذلك الوقت، فكانوا يقولون للأميركيين، فَرَرنا بحريتنا، وفي معتقداتنا، وديانتنا من العثمانيين الذين سامونا الخسف، وعملوا فينا القتل والكبت، أخذوا يحولون بيننا وبين إقامة شعائر ديننا. ولمّا كان الشعب الأميركي محبًّا للحرية، محافظًا على المعتقدات، ناصرًا للمضطهدين، فقد أفسح لهؤلاء المهاجرين اللبنانيين مكانًا متّسعًا في معترك حياته، فاستقامت أمورهم وتحسّنت أحوالهم. كان هذا قبل الحرب العالمية الثانية، أما بعد هذه الحرب الضروس، وخروج الأمة الأميركية منها منتصرة، فقد تبدّلت منها الطبائع، وتغيّرت فيها الأحوال، وأخذت تنظر إلى غيرها من شعوب العالم نظرة دونية.

أضِفْ إلى هذا ما قام به الصهاينة من دعايات بطّالة ضدّ البلدان العربية وشعوبها، مسخّرين لهذا الغرض الصحف السيارة، ومحطات الأثير، والأفلام السينمائية، وكان الشعب الأميركي لا يعلم عن العرب وأوطانهم شيئًا، سوى أنهم قَتَلة وبلادهم صحراء قاحلة تسير الجمال في واحاتها، واستغلّ الصهاينة هذا

الجهل للعرب عند الشعب الأميركي، ونجحوا في بثّ سمومهم بين الأميركيين مستخدمين كلّ ما لديهم من نفوذ مادّي ومعنوي في الوسط الأميركي.

أمضيتُ في مدينة لوس أنجلوس سنتين من عمري، ورغم ما صادفني أثناء إقامتي في ربوعها من النجاح في بعض نواحي الحياة، وما مُنيت به من البؤس في كثير من الأوقات، فقد أحببتها حبًّا جمًّا، لصفاء أديمها، وجودة هوائها، وطيب تُربتها، ونُبل أهلها، وحُسن معاملتهم للغريب طبعًا قبل الحرب العالمية الثانية. وخلال هاتين السنتين ذهبتُ في رحلات عديدة لزيارة معالم ولاية كاليفورنيا المختلفة. ولقد كنت أشعر بالشوق إلى لوس أنجلوس أثناء غيابي عنها.

تعرّفت إلى شابّين تونسيين كانا يتعاطيان تجارة الروائح العطرية، فيتنقلان بين معارض الولايات المتحدة، ويصطحبان معهما قرينتيهما الأميركيتين، فتوثّقت الصداقة بيننا، وقد فاتحاني بذهابهما إلى معرض سان فرانسيسكو، وطلبا مني أن أهتم بزوجتيهما أثناء غيابهما، فلقد كانت إحداهما تشكو من مرضٍ أقعدها عن مرافقة زوجها فاضطرت الثانية أن تمكُث معها، وكانا يظنّان أنني في بحبوحة من العيش - ولم أخيِّب ظنّهما - كان لديّ بعض الملابس العربية عرضتها للبيع، فبيعت بمائة وخمسين دولارًا، واضطررت أن أعمل في أحد المطاعم في ضواحي لوس أنجلوس براتب قدره ثمانية عشر دولارًا في الأسبوع، وبقيت أمارس عملي في المطعم طوال شهر كامل، دون أن أخبر أحدًا بذلك، وبقي سرًّا مكتومًا بيني وبين نفسي إلى هذا التاريخ، حتى الزوجتان لم أدعهما تشعران بعملي كخادم في أحد المطاعم للإنفاق عليهما، ولأول مرّة في حياتي أجريتُ الموسى على وجهي فأزلتُ منه اللحية والشارب معًا، ثم عُدت وأطلقتهما ثانية بعد أن استغنيت عن الخدمة في المطعم وذلك بعد عودة الصديقين التونسيين من سان فرانسيسكو التي مكثا بها قرابة الشهر ونصف الشهر.

شعرت بسعادة تامّة يوم قابلتُ أحد الشبان المصريين ويُدعى السيد عبد الحي عامر، نجل المرحوم إبراهيم عامر باشا، ودعاني لتناول العشاء معه في فيلته في هوليود، وأظهر رغبته في أن أشاطره السكن، وهكذا قضيت في صحبته اثني عشر شهرًا إلى أن غادرنا سويّة لوس أنجلوس إلى مدينة نيويورك، منها خمسة أشهر

قضاها بمفرده في سان فرانسيسكو، والأشهر السبعة الباقية بدّدنا أيامها ولياليها في هوليود، كنا نقضي أوقات فراغنا في متنزهات المدينة وعلى قمم جبالها وتلالها، ونشاهد بعض الأحيان فيلمًا سينمائيًا، ونتناول وجبات الطعام في أحد المطاعم القريبة من منزلنا.

في أحد الأيام وفي صباحه الباكر، عندما كنت مهتمًّا بتهيئة الإفطار، إذ بالباب يُقرع قرعًا خفيفًا، ولمّا فتحته، وجدت أمامي رجلًا من الملونين في ملابسه البيضاء الناصعة، فاعتقدت بادىء الأمر أنه طبيب فدعوته للدخول، فشكرني، وأردف قائلًا: هل لديك أحذية ترغبون في تصليحها أو مسحها؟ ومن دون شعور مني إذ كنت مأخوذًا بأناقته وحسن منظره، قلت له: أين هي عدة التصليح؟ فأجاب والابتسامة تملأ فاه، هي في السيارة التي تراها أمام منزلك وأشار إليها بيده، وكان لبقًا فواصل حديثه قائلًا: إني أمارس هذا العمل كمسّاح للأحذية، وتصليح ما فسد منها، منذ سبعة أعوام، ولديّ عائلة مؤلّفة من أربعة أشخاص، كريمتي وولدي وزوجتي وأنا، ففي كل يوم أتنقّل من بيت لآخر أسأل ساكنيه كما سألتك، وكثير منهم يدفعون لي الأجر مضاعفًا، لا أدري هل هو لإتقان عملي، أم كان ذلك شفقة وإحسانًا، ولديَّ الآن مجموعة من أرباب البيوت هم زبائني وأتيت إليكم لأستخلصكم لنفسي.

فقلت: انتظر قليلًا، وهرعت إلى غرفة صديقي عبد الحي وكان مضطجعًا في فراشه فأخبرته بما رأيت وبما سمعت، هبَّ مُسرعًا ليتحقّق من الخبر، وجمع أحذيته وأخذها بيده، وأحضرتُ ما عندي ولحقتُ به، فلمّا تبيّنه رأى شابًا في مقتبل العمر، وسيمًا، فارع الطول، بملابسه البيضاء ولونه الأسود الداكن، فناوله الأحذية، وجاريته فيما فعل، ثم التفتَ عبد الحي نحوي متعجبًا مستغربًا، وقال: إن هذا لشيء عجاب، ما رأيت مثل هذا في البلدان التي زرتها من قبل، مسّاح للأحذية يطرق بابك بكل جرأة، ويمسح أحذيتك في سيارته التي يملكها، صَدَقَ مَن قال أميركا أم العجائب.

وحلَّ رمضان شهر الصوم، فواظَبنا على صيامه، وقرَّرنا أن يكون إفطارنا في اليوم الأول منه الفول المدمّس والكشك المطبوخ، حسب العوائد المصرية،

وصحونا من النوم باكرًا وذهبنا لتسوُّق حاجات الطعام، وبعد تفتيش دقيق في محلات البقالة دام عدة ساعات، عثرنا على الفول اليابس والكشك، والغريب في الأمر لم نكن نعلم اسم الفول باللغة الإنجليزية غير كلمة Pean وهي تعني اللوبيا أو الفاصوليا، إلى أن وفّقنا إلى محل للسمانة يشغله رومي كان يقطن القطر المصري، ويتكلم العربية بطلاقة، فأخبرنا أن الفول يعرف باسم (هورس بين) أي لوبية الخيل، قلنا ما لنا والأسماء، الفول وقد حصلنا عليه، ولكن كيف يكون الطبخ؟

صديقي وأنا لا نجيد طبخ الفول، فتفتقت لنا الحيلة أن نضع الفول في علبة تنك من علب بودرة الحليب، ثم نضعها بالفرن، وهكذا كان بعد أن أحكمنا الغطاء عليها، وبعد برهة وجيزة لم تَدُمْ أكثر من عشر دقائق إذا بالفرن يصدر دويًّا كبيرًا لا يقل عن صوت القنبلة، ولمّا فتحنا باب الفرن، وجدناه منتشرًا في جنباته، فقلنا حصل خيرًا، نستغني عن أكل الفول هذا اليوم، وموعدنا معه غدًا إن شاء الله، ورفعنا حلّة شوربة العدس على النار، وكان للملح نصيب محترم فيها، ورغم ذلك فقد نجحنا في طبخ الشوربة، وأمّا الكشك وما أدراك ما الكشك؟ وكيف طبخناه؟ وضعنا كمية كبيرة منه في إحدى الحلل بعد أن قلينا اللحمة وقليلًا من البصل المفروم، وبعد مضي ساعة من الزمن، وإذا بحلّة الكشك قد امتلأت، فأخذنا قسمًا منه ووضعناه في ماعون آخر، وأضفنا إليه شيئًا من الماء، ثم رفعناه على النار، وبعد انتهائنا من صلاة العصر، توجّهنا إلى المطبخ للاطمئنان على الكشك وإذ بالحلة قد امتلأت مرة ثانية، وهكذا كان شأننا مع هذه الطبخة، فكلما امتلأت الحلة وفاضَ ما بها من كشك كنّا نفرّغ منها في ماعون آخر، فمارسنا هذا العمل ثلاث أو أربع مرات بلا مبالغة.

حان موعد الإفطار والكشك لم ينضج بعد، فاحتسينا شوربة العدس وأكلنا بعدها من الكشك ما فيه الكفاية، وبعد مرور ساعة على الإفطار الضخم شعرنا بالعطش، فلا أدري كم كأسًا من الماء البارد شربنا واستلقينا على مقاعدنا المريحة، وإذا بالكشك يُطبخ ثانية في جوفنا، وكدنا ننفجر تخمة فكانت ليلة ليلاء، ولم نشعر بالراحة فيها حتى مطلع الفجر، ولكننا أتممنا صيام شهر رمضان براحة وهناء، وذلك بعد أن استأجرنا من يهتمّ بالمطبخ والطبيخ، وحقيقة كانت أيام شهر رمضان التي مرَّت بنا من خيرة الأشهر وأمتعها.

حادث آخر حصل لي وأنا برفقة عبد الحي عامر، كان يكلِّفني أحيانًا بقيادة سيارته أثناء نزهاتنا، ولم يكن لديّ رخصة للسياقة، ذهبت إلى قسم الشرطة أسألهم شهادة قيادة السيارات، وكنت قد استخلصت شهادة من قبل في مدينة نيويورك ولكنّي فقدتها، وقد امتُحِنت في نيويورك بسيارة تابعة للشرطة، أما في لوس أنجلوس، فإليك ما حدث: هممت بالخروج مع الشرطي لأداء الامتحان، بعد أن أجبتُ عن عدّة أسئلة، وكان بجانب الرصيف سيارة فورد واقفة، ظنَّ الشرطي أنها سيارتي، وظننتُ أنا أنّها سيارة تابعة للشرطة، ومن غريب الصدف كان مفتاحها في موضعه، فركبنا بها، وبينما كنّا متوجهين إلى مكان الاختبار الذي يبعُد عن المدينة مقدار عشرة أميال، قال الشرطي: إن سيارتك تسير سيرًا حسنًا، فأجبته إنها ليست سيارتي، فصاحَ الشرطي مستغربًا أليست سيارتك، إن القسم ليس لديه سيارة للاختبار، وأردَف قائلًا بعصبية زائدة: أسرع وعُد إلى القسم، وهنا أصابني ارتباك شديد ووجل، وأخذتُ أسير على غير هدى دون أن أنتبه إلى الأنوار الحمراء لأقف عندها، بل كنت أواصل السير.

أما صاحب السيارة عندما عادَ ولم يجِدْ سيارته، أخذ - كما أُخبِرت فيما بعد - يصرخ سيارتي سُرقت من أمام القسم وعلى مرأى من الشرطة، فامتَطَت الشرطة دراجاتها النارية، كما اتَّصلت بالأقسام الأخرى المنتشرة في أرجاء المدينة، وطفقت تجوب الشوارع، وتطلق صافراتها، وبعد عشر دقائق وصلنا القسم، فألفينا الشرطة فيه مرتبكة، وتليفوناتها تَدقُّ أجراسها، والقائمون عليها ترتعد فرائصهم، وقال صاحب السيارة: كيف أن السارق لم يحترم القسم؟ وكيف تجرَّأ وسرق السيارة من أمام أعين الشرطة؟ إنها لجُرأة كبيرة جزاء فاعلها الحبس، فقال الشرطي الذي كان برفقتي: إن السيارة استُعمِلت بالغلط، فلقد ظنَّ هذا السيد أنّها سيارة تابعة للقسم، وظننتُ أنا أنّها سيارته، وأمرته أن يقودها، وأخذ مدير القسم يمطرني بأسئلة عديدة دامت مدّة عشر دقائق، بعدها أطلق سراحي، وغادرتُ القسم صفر اليدين فلَم يسمح لي القائمون عليه برخصة تخوِّلني قيادة السيارات بسبب ارتباكي في القيادة أثناء العودة للقسم.

كنّا مرة جلوسًا في محل السيد فارس البحنسي، الذي هو عبارة عن محل لبيع

المفروشات الفاخرة، والسيد البحنسي لبناني من مواليد مدينة زحلة هاجر إلى الولايات المتحدة وهو لم يتجاوز الثانية عشرة، وتزوّج من قريبة له وأنجبا ابنتين، وكلتاهما تزوّجتا من أقربائهما، وكان السيد البحنسي يتمتع بمكانة رفيعة بين معارفه، وعلى صلة قوية مع أصحاب الاستديوهات، وإذا برجلٍ يدخل علينا ويحيينا بتحية طيبة، وعلى ثغره ابتسامة حلوة محبَّبة، فاستقبله السيد البحنسي استقبالًا حارًا، وأجلسه في مكانه الذي يجلس فيه، ولم يَكَد يستقر في مجلسه حتى خاطب السيد البحنسي قائلًا: هل تعرف أحدًا لديه خبرة أو إلمام بالملابس العربية وكيفية لبسها لنستعين بخبرته في فيلمنا الجديد؟

فأجابه: أعرف رجلًا، وأيّ رجل، أتى من وقت قريب، وقريب جدًّا من الصحراء العربية وستجد منه كل مساعدة تريدها لفيلمك عن العرب وعن عاداتهم وأخلاقهم وما يلبسون، وهذا الرجل يحمل لقب شيخ، ولقب شيخ يطلق في البلدان العربية على أربعة أصناف من الناس، يحمله شيخ القبيلة، ورجل الدين، وشيخ البلد، ويُطلَق على الرجل المسن، ويُستعمل هذا اللقب أيضًا للاحترام، وهذا شيخ قبيلة من صميم الصحراء، تلك الصحراء التي أسْدَت إلى الإنسانية الخير الكثير، فأنجبَت الرُّسل منذ زمن بعيد، قبل أن تكتشف أميركا، وقبل أن تعرف أوروبا الحياة الديمقراطية الحقيقية، فاستوقفه هذا الزائر قائلًا بالابتسامة تعلو ثغره، هوِّن عليك يا رجل، إنّي لم أسألك أن تعطيني درسًا في التاريخ، ولكنّي جئتك مستفسرًا فيما إذا كنت تَعرف أحدًا لديه خبرة في الملابس العربية، فأجابه السيد البحنسي إذا كان هذا قصدك، فإني أقدِّم لك الشيخ خليل الرواف شيخ من قبيلة تميم، وأشار بيده نحوي.

واتّفقنا مع هذا المخرج السينمائي ونحن في مجلسنا، على أن يكون عملي في الفيلم خبيرًا فنيًّا للملابس العربية براتبٍ قدره خمسمائة دولار في الأسبوع، إنها لصدفة غريبة سنحت لم تخطر ببالي، ولكن الإنسان لا يدري ماذا يواجه في هذه الحياة المثيرة.

كان الفيلم يسمى (آي كفر ذا وور) - أنا أغطي الحرب - وبطله (جون وين)، الممثل المشهور، وكان الموضوع يدور حول قبائل عراقية عربية ثائرة على الحاكم

البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى. قضينا في صحراء ولاية نيفادا ثلاثة أسابيع، ثم عدنا إلى استديو ينيفرسال في هوليود لإتمام ما تبقّى من مناظر الفيلم، استغرق عملنا في الاستديو ثلاثة أسابيع أخرى وقد عهد إليَّ بتمثيل دور أحد مشايخ القبائل الثائرة على البريطانيين، وقد تمَّ للبريطانيين الظفر بها والتغلُّب عليها حسب العادات التي يستعملها أرباب السينما.

انتهى الفيلم، وعرض أولًا على الممثلين القائمين بشؤونه حسب الأصول، وظهر اسمي في مؤخرة قائمة الممثلين، فأبيتُ ذلك، وبعد أخذٍ وردّ، تمّ الاتفاق على أن يظهر اسمي وحده، وعملي في الفيلم كخبير فني للملابس، فظهر اسمي بمفرده كالآتي: الشيخ خليل الرواف من المملكة العربية السعودية، خبير فنّي للملابس العربية.

استلمت من ينيفرسال استديو ألفًا وستّمائة دولار مقابل تمثيلي في الفيلم كشيخ قبيلة عراقية مع رسالة شكر من الاستديو تقديرًا لما قمتُ به من الأعمال في هذا الفيلم. ولقد كان هذا المبلغ ينقص كثيرًا عن مبلغ 500 دولار الأسبوعي الذي اتّفقنا عليه في البداية. ولقد قال لي مخرج الفيلم يوم أعطاني شيكًا إن هذا المبلغ هو مقابل عملي في التمثيل في الفيلم. وإن أجرة التمثيل تغطّي عادة أجرة أيّ إشراف فني خاص لمظاهر الفيلم. ولهذا فلم يكن بإمكانه أن يدفع لي أيّ أجرة إضافية مقابل إشرافي الفني على الملابس العربية. ولكن بالرغم من نقص المبلغ عن المقدار المتّفق عليه فلقد فرحت به فرحًا شديدًا. بسبب حاجتي الماسة للنقود في ذلك الوقت، فلو أنهم دفعوا لي مائة دولار فقط لكنت قد قبلت بها.

الأسابيع الستة التي قضيتها في صحراء نيفادا، وفي نيوفرسال استديو، كانت فرصة طيبة بالنسبة إليّ، فقد تعرّفت خلالها على أصحاب هذه الصنعة من أرباب فن السينما، وعايشتُ عن كثب هؤلاء الممثلين الذين نراهم على الشاشة البيضاء، ونتخيّلهم سعداء في حياتهم الخاصة والعامة، وكم منّا يودّ لو تسمح له الظروف ليكون واحدًا من هؤلاء ولكني - والحق يقال - وجدتهم أتعس مخلوقات هذه الأرض في كلٍّ من حياتهم الخاصة والعامة، اللهم إلّا نفر قليل، وقليل جدًّا لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. ودرستُ أحوالهم عن كثب، وطرق معيشتهم التي

يحيونها، فلمست البؤس الكامن في نفوسهم، وبانَ لي الشقاء الذي يتقلّبون في جحيمه، وما كنتُ أعتقد أن حياتهم التي يمارسونها محاطة بهذه الشوائب الجمّة، من عدم استقرار، وفقدان للشخصية، وضياع للأمل الذي كان يملأ قلوبهم ببهجة عندما دخلوا هذا المعترك من الحياة.

إنَّ لكلِّ ممثّل من الممثلين المشهورين وكيل ينوب عنه فيما يتعلق بأمور السينما، من مقابلة المخرجين، والاتّفاق معهم على العمل، وعلى أجر الممثل وعلى الدعاية التي ستظهر له في الصحف والمجلات وعلى ثمن الملابس التي سيكتريها وعلى الدولارات التي سينفقها على ضيوف فن أمثاله.

يمكثُ التمثيل في بعض الأفلام من ثلاثة إلى ستة أشهر، ويشترط مخرج الفيلم على الممثِّل أن يُصاحب إحدى الممثلات التي يختارها له ليذهب معها للنزهات ولحضور الاحتفالات، وأن يُقيم عدّة حفلات أثناء التمثيل في منزله إذا كان منزله محترمًا ولائقًا، أو يُقيم هذه الحفلات في أحد الفنادق المشهورة ويشترط على الممثِّل أن يلبس ما يراه المخرج مناسبًا، وأن يظهر بالزيّ الذي يختاره له، وأن يكون تحت إمرته وتصرُّفه طيلة عمله في الفيلم، وأن يصحو من النوم باكرًا، وأن يبقى في العمل حتى ساعة متأخرة من الليل إذا احتاج الأمر لذلك. وكثير من المخرجين يكونون عصبيي المزاج أثناء العمل، فيقذفون الممثل بكلمات لا يمكن لأي إنسان أن يستسيغها، إلّا هؤلاء الممثلون التعساء.

هذه هي بعض الشروط التي يجب على الممثل أن يتقيَّد بها، وتجاه هذه الشروط يتقاضى الممثل مبلغًا محترمًا من الدولارات ولكن الكثير من الممثلين لا يتمكّنون من الادِّخار وينفقون جزءًا كبيرًا من دخلهم على الملابس والحفلات ودفع نفقات الوكيل والدعاية.

بالنسبة إلى الممثلين غير المشهورين فإنهم يدفعون الباقي للدائنين، إذ من المستحيل أن يكون أحدهم خاليًا من الديون. هذا بخلاف الأمور الثانوية التي يتطلبها الممثل، وما أكثرها، ولربما يقضي الممثل بضعة أشهر أو سنة حتى يستطيع الحصول على عمل آخر.

كما يلقى الممثل أثناء عمله مصاعب جمّة، فيتحمَّل بصبر مُضْنٍ عصبية

المخرج وسبّه، والأنوار الساطعة المسلَّطة عليه طيلة ساعات عديدة، والتي تذكّر حرارتها بحرارة نهار قائظ في صحرائنا العربية، هذا خلاف انتظاره الطويل بينما يتغير المنظر أو إعادته مرة ثانية، فينشأ عنده من هذا العمل عدم الاستقرار والملل والنفور الملازم له.

إن الممثل يرهِق نفسه من الأعمال التي يرى أنه مجبر أن ينهيها كما يريد المخرج. وكمّ من الممثلين وَدَّ لو يحصل على عمل بسيط، يكفل له عيشة متواضعة ليحيا حياة سعيدة آمنة مطمئنة، ليبتعد عن هذا الفراغ السينمائي العظيم، وقد فاتحني كثير منهم وبيَّنوا سخطهم على وضعيتهم الراهنة التي يخوضون في أوحالها.

أما الممثلات فحياتهن ووضعيتهن فلا تختلف في شيء عن حياة ووضعية الممثلين، فتُجبر الممثلة في بعض الأفلام على إجراء عملية جراحية في وجهها، أو في عينيها، إذا كان الفيلم يابانيًّا أو صينيًّا، والشروط التي تُملى على زملائهن الممثلين، تُملى عليهن، وقد يكون إنفاقهن على ملابسهن وزينتهن يفوق كثيرًا ما ينفقه أمثالهن من الممثلين الرجال.

مارلين مونرو، أعظم ممثلات هوليود، وجدوا لديها لدى موتها بعضًا من الحلي البسيطة ورصيدًا في البنك لا يتجاوز المائة ألف دولار فقط، هذه أعظم ممثلات هوليود التي كانت تعمل في بعض الأحيان في فيلمين أو ثلاثة في وقت واحد، فما بالك ببقية الممثلين؟ لقد ملَّت مارلين مونرو هذه الحياة التعسة التي كانت تحياها، والشقاء والعذاب الذي كانت تتعرَّض له، فانهارت أعصابها لِما أصابها من فتور وملل، فأنهت حياتها بالصورة البشعة الجنونية التي رَوَتها لنا صحف العالم.

هذا شأن الممثلين والممثلات الناجحين الذين نسميهم نجومًا ونحسبهم سعداء في حياتهم، كما هم في أعمالهم، والحقيقة أنه بينهم وبين السعادة مثل ما بين السماء والأرض، أما الممثلون الصغار والمبتدئون، فإن حياتهم يشوبها أيضًا البؤس ويتنازعها الشقاء، ويواكبها الذل وعدم الاستقرار، لا يفارقون منزلهم طيلة الأربع والعشرين ساعة، يجلسون بجانب الهاتف لا يفارقونه، ينقلونه معهم داخل غرفهم، أو إلى أيِّ مكان في بيوتهم، كل ذلك خوفًا من أن يطلبهم أحد المخرجين

فلا يجدهم، فيطلب غيرهم، في هذا الجو الغامض المزعج المظلم يعيش هؤلاء الممثلون. أقول هذا عن خبرة ومعرفة وتجربة مرَرْت بها أثناء عملي في هذا الفيلم أثناء تردُّدي على استديو (آر - ك - أو).

دعاني أحد الأصدقاء السيد عبدالله عباس الذي كان يقوم بمساعدة الممثلين في هذا الاستديو ليريني بعض ما يقوم به للممثلين، وكان عنده أحد الممثلين ويُدعى إدوارد ستيفنس يشكو من حكَّة في الرأس كنت قد أُصِبت بها فاستعملت لها صابونًا مخلوطًا بقليل من القطران فقلت له: عندي دواء لهذا الداء، فرجاني أن أصفه له ليستعمله، وفي اليوم الثاني أحضرت قارورة شامبو، ووضعت فيها قليلًا من القطران، فَراقَ له هذا الدواء وشفاه، وهكذا وجدت فرصة للتعرُّف إلى الممثلين، وقد أعطاني منهم شهادات بجودة علاجي وشفائهم من القشرة التي أصابت شعورهم.

حتى إن مدير أحد المحلات الكبيرة التي تعتني بجمال شعر السيدات (كوافير) وجّه لي خطابًا يقول فيه: إنه يرغب في أن يتعاون معي لنقوم ببيع العلاج في كافة الولايات المتحدة. الأمر الذي أودع في نفسي الثقة بنجاح هذا العلاج، وحسن مفعوله، وعزمت على وضعه في قوارير، لأوزّعه في كافة أنحاء الولايات المتحدة، فاتَّصلت بمعملٍ لصنع الشامبو واتَّفقت معه على القيام بهذا العمل، ولكنني عدلت عن ذلك إذ يحتاج الأمر إلى شهادات طبية من الصعب الحصول عليها.

لا يفوتني أن أذكر حادثًا حصل لي أثناء تردُّدي على استديو (آر - ك - أو)، ففي أحد الأيام لم أكد أخرج من بابه وأمشي بضع خطوات حتى وقع نظري على كيس أسود صغير من الجلد، يشبه كيس دخان الغليون، فدفعته بقدمي، وتناولته بيدي، وعند فتحي له وجدت بداخله خواتم الماس، وكمية من الدولارات لا أعلم حتى الآن مقدارها، فذهبت مباشرة لإحدى الجرائد المحلية، ووضعت مع رقم هاتفي إعلانًا عن لقطتي، وفي اليوم الثاني رنَّ جرس الهاتف، وإذ بصوت سيدة تقول: إنها صاحبة الخواتم الثلاثة التي وجدتها، ووصفتهما لي وصفًا دقيقًا، ورجتني أن أعطيها عنواني لتأتي وتستلمها فأجبتها بقولي: سأسلِّمك إياها في دائرة الشرطة بعد عصر هذا اليوم، وهكذا تسلمت السيدة (ميتي بانوف) بإشراف دائرة

الشرطة الخواتم الثلاثة مع الدولارات والدموع تنهمر من مآقيها، وقدَّمت إليَّ الدولارات قائلة: أرجوك أن تقبلها، ممّن لن ينسى معروفك، وأمانتك ما حييت، فشكرتها وأبيتُ أن أستلم الدولارات، ولكنني استلمت من دائرة الشرطة ورقة رسمية تثبت تسليمي لهذه الخواتم الثلاثة للسيدة (ميتي بانوف، 770 جنوب شارع أرلو، لوس أنجلوس - كاليفورنيا).

كانت دائرة الشرطة تعجُّ بكثيرٍ من الناس، وبمحرِّري صحف المدينة، فكتبت صحيفة الشعب اللوس أنجلوسية، تقول: ما دامت هذه هي أمانة وعزّة نفس أبناء البلاد العربية السعودية كما رأينا من خليل الرواف، فإنه أحرى بالحكومة الأميركية أن ترفع الحواجز في إدارة المهاجرين عن سائر الراغبين في القدوم إلى هذه البلاد من تلك المملكة. ولقد قامت صحافتنا العربية في نيويورك كجريدتَي البيان والسائح بنقل هذا الخبر عن صحيفة الشعب الأميركية، فاكتفيت بهذه الدعاية الطيبة لي ولشعبي ولبلادي.

مررتُ في هذه المدينة الجميلة لوس أنجلوس وجارتها الساحرة هوليود، بتجارب عديدة، واجتزت اختبارات شتى، منها ما هو طريف مستحسن، ومنها ما هو فظيع مستهجن، فكنت أتأرجح بين هذين الأمرين، طريف وفظيع، وحسن ومستهجن، يُسرٌ مقنع، وعُسر مدقع، سرور مطلق، بؤس لا حدَّ له، وقد عصرتني الأيام، وحوادثها المفجعة مرّة باليُسر، ومرّة بالعسر، فقبلت منها ذلك بغير ما تردُّد أو تبرُّم.

حاول القائمون على شؤون ينيفرسال استديو إغرائي بالمال لأعمل معهم، وأمارس هذه الصنعة، ولكني لم أجد في نفسي ميلًا ولا رغبة لمواصلة العمل في أي استديو، كنت أعتقد بأنني لم أخلَق لمثل هذا العمل، بل هناك وطن ينتظرني لأواصل فيه عملي من تعزيز كلمته، ورفع شأنه وبناء مجده.

تلقيت عدّة دعوات من أصدقائي ومعارفي لأشاطرهم الاحتفال بعيد الميلاد لسنة 1936م، فاعتذرت إليهم جميعًا، إلّا صديقًا واحدًا كان يسكن في إحدى الضواحي التي تبعدُ حوالي أربعين ميلًا عن مدينة هوليود، إذ أتتني دعوة متأخرة قبل عيد الميلاد بيوم واحد، وكان سبب اعتذاري عن تلبية هذه الدعوات الفاقة

التي كنت فيها، فحسب العادة المتَّبعة لدى الشعب الأميركي في مثل هذه المناسبات، أنّ المدعوين يقدِّمون بعض الهدايا للداعين، فقد كنت خالي الوفاض لا أمتلك من المال شيئًا، حتى أنني لم أتناول طعامًا طيلة اليوم والليلة الماضيين.

غادرتُ المنزل في الساعة العاشرة من مساء ليلة عيد الميلاد، تلك الليلة الباردة، فأخذت أجوب الشوارع، وأتنقل من محل لآخر، فقادتني خطاي إلى خارج المدينة، فوقفت بمكانٍ لبيع أشجار عيد الميلاد، في ذاك الحرش الواسع على الطريق العام. فسلَّمت على أهله، وتدفأت بالنار التي كانوا يوقدونها، فاستغربوا وجودي في مثل هذه الساعة من الليل وكانت ملابسي حسنة حسب العادة، ومنظري لا بأس به، وإن كان وقوفي وهيئتي يلفتان النظر، ولمّا بانَ لي استغرابهم، أخبرتهم أنني على موعد مع أحد الأصدقاء وسيأتي بعد قليل.

حانَ منتصف الليل، فجمعوا أمتعتهم تاركين أشجارهم القليلة الباقية التي لا قيمة لها بعد عيد الميلاد، وغادروا إلى منازلهم بعد أن حيّوني تحية عيد الميلاد (مري كريسمس) وبقيت وحدي منكبًّا على النار المتأجِّجة، محاطًا بلهيبها المستعر، منقبض النفس شارد اللبّ، تنتابني الأفكار، فلا أدري ما أفعل، هل أعود إلى البيت، وأركن في سريري، أم أبقى متدفئًا بالنار حتى مطلع الفجر؟

لا أعلم كم لبثت وأنا في هذه الحالة البائسة المحزنة، وإذا برجل وقرينته يحيياني فأجبت تحيتهما، واختارا شجرة من الأشجار الباقية، فسألني الرجل، كم ثمن هذه الشجرة، فأجبته ادفع ما تشاء، وكان شهمًا كريمًا، فنقدني خمسة وعشرين دولارًا، وبعد دقائق قليلة حضر رجل آخر، واختار شجرة ودفع ثمنها عشرة دولارات، وهكذا لم يبزغ الفجر إلّا ومعي مائة وثلاثة وعشرون دولارًا.

عدتُ إلى منزلي عند طلوع الفجر، وأول ما تبادر لذهني، تلبية دعوة صديقي ولكن من أين لي الهدايا في مثل هذا اليوم؟ فالمحلات التجارية مغلقة، كان لدي قميص جديد وربطة عنق جديدة، هما هدية لرجلنا، أما زوجته وولدها، فمن أين أجد لهما هديتهما؟

انتظرت حتى استيقظت صاحبة الدار التي أسكنها فلقد كنت في ذلك الوقت لم أزل أسكن في منزلي الأول قبل انتقالي للسكن مع عبد الحي عامر، ففاتحتها

بالأمر، قالت: إن الأمر سهل، لدي لحشة كتف من الصوف الجيّد، وقارورة عطر فاخر يمكنك شراؤهما وتقديمهما إلى صديقتك، أمّا الولد، فجارتنا من الأثرياء، ولديها عدّة بنين، سأذهب إليها بعد قليل، وأقصّ عليها قصّتك عسى أن يعطف قلبها، فتسمح لنا ببعض اللعب وما أكثرها لديها. وبعد خمس عشرة دقيقة دخلت غرفتي وبيدها لعبة جميلة، وعلى ثغرها ابتسامة حلوة لطيفة، وقالت: لقد نجحت محاولتي.

بقيت ملازمًا غرفتي حتى قبل حلول وقت الظهيرة بساعة من الزمن، فغادرت المنزل إلى بيت صديقي السيد كلارك، وقضيت معه وأفراد عائلته وقتًا جميلًا، وعيدًا سعيدًا.

كانت صاحبة المنزل الذي أسكنه في العقد الخامس أو في أوائل العقد السادس من العمر، لم أستفسر منها عن سنّها، فهي دومًا مرحة متفائلة، الابتسامة لا تفارق ثغرها، وهي نشيطة جدًّا، نشاط الظبي في الليلة المقمرة، لديها خمسة نزلاء، أنا واحد منهم وكذلك سليم كرم صاحب المطعم الذي قابلته فور وصولي إلى لوس أنجلوس، وهي وحدها تهتم بتنظيف غرفنا، وتهيئة إفطارنا كل صباح، لا خادمة لديها تعينها على أمور منزلها، حدّثتني مرة، فقصّت عليَّ حكايتها كالآتي:

هاجرت مع والدَيّ من سويسرا، وأنا لم أتجاوز الثالثة من حياتي، توفيت والدتي وأنا في السادسة عشرة من عمري، وبعد سنة لحق بها والدي، وخلّفا لي هذا البيت الذي أسكنه، وألف دولار في أحد البنوك، ولي خالة تصغرني سنًّا موجودة في سويسرا أنفق عليها، وقالت إنها سعيدة في حياتها لم تفكّر بالرجال أبدًا، ثم ابتسمت وتابَعت حديثها قائلة: ربما كان هذا من أسباب سعادتي إذ إنني لم أفكّر بهم، فلا أهتم الآن إلا بنُزلائي، وأهيّيء لهم أسباب الراحة في منزلي، إنني امرأة أخاف الله وأرتجيه، وإني أهِبُ ما يتبقّى معي من الدراهم إلى الكنيسة كل شهر، بعد أن أرسل إلى خالتي ما تحتاج إليه من مسكن ومطعم وملبس.

واصلت حديثها قائلة: أجد في بعض الأحيان في نفسي ميلًا ظاهرًا، ورغبة أكيدة صادقة للاقتران بالرجل، ومسايرته فيما يريد، ولكن سرعان ما أغيِّر رأيي، واسمَح لي أن أقول: إني أنظر إلى الرجل كأنه لا يستحق منّا نحن النساء أيّ عطف

ومودة، أو أن نبادله حبًّا بحب، فهذا هو رأيي الذي أختلف به مع بقية أبناء جنسي من النساء، أتدري لماذا؟ لأنني شاهدت ابنة جيراننا الصغيرة تموت بعد أن اغتُصِبت وطُعِنت بالسكين من قبل أحد المجرمين.

قَدِمَ من فرنسا إلى الولايات المتحدة عمدة باريس المستر (روماند لورينت) لدعوة رؤساء بلدياتها لزيارة معرض باريس الدولي، الذي سيقام سنة 1356هـ (1937م)، وقد زار هذا العمدة مدينة لوس أنجلوس، وأقام له أحد نوادي المدينة حفل غداء في فندق أمبسادور.

كان المدعوون يمثّلون أرباب المصانع والشركات الكبيرة، وأصحاب المصارف ورؤساء الجمعيات، وكبار رجال الحكومة، وفيهم بعض الممثلين، وكنت واقفًا أنتظر الأتوبيس لينقلني إلى مكان الحفل، إذ لم يكن لديّ سوى عشر سنتات كانت كافية لأجرة الحافلة ذهابًا، أما العودة فكنت مقدّرًا توفُّر من يُعيدني إلى المنزل، وفيما أنا كذلك، إذا بسيارة تتوقف ويدعوني سائقها للركوب معه، فسألني: إلى أين أنت ذاهب؟ قلت: إنني مدعو في فندق أمبسادور. فقال: وأنا أيضًا مدعو هناك. وعند بلوغنا الفندق كان شخصان من أعضاء النادي ينتظرانني، فمشيت معهما إلى أن وضعاني على الطاولة الأولى بجانب قنصلَي بريطانيا وفرنسا ولم يكن بيني وبين عمدة باريس سوى السفير المصري أمين يوسف، وأمّا السيد البحنسي أحد أعضاء النادي الذي بواسطته تلقّيت الدعوة لحضور هذا الحفل، فقد كان ترتيبه الخامس من بعدي، وكان من بين حضور هذا الحفل السيد عبد الحي عامر الذي سكنت معه سنة في هوليود وكان ترتيبه العاشر من بعدي.

وبعد تناولنا الغداء، وسماعنا لخطب الخطباء، التي كان جلّها ترحيبًا بعمدة باريس، تطرّق أحد الخطباء إلى مساعدة فرنسا للحكومة الأميركية في حروبها مع البريطانيين، وإهداء فرنسا لأميركا تمثال الحرية المقام حاليًّا على قاعدة تُطِلُّ على نهر هدسن في نيويورك.

وكان الرجل الذي أقلّني معه في سيارته يهوديًّا أميركيًّا، ودار الحديث بيننا أثناء مسيرنا عن فلسطين والمشكلات العربية اليهودية التي كانت تتمخّض فيها. ولم تكن مسألة فلسطين في ذاك الوقت قد دخلت طورها العملي الجدّي، وكانت

الحكومة البريطانية منتدبة على فلسطين، وكانت هناك مناوشات بين العرب والانتداب البريطاني من جهة وبين الصهاينة والبريطانيين من جهة ثانية.

فقال اليهودي: إن العرب واليهود ينتميان إلى الشعب السامي، وإني أكثر ما أخاف على فلسطين من جماعة الصهاينة، النازحين من أوروبا، فإنّ لهم مآرب سياسية إذا تحققت سوف تقضي على عرب ويهود المنطقة وسوف يقيم هؤلاء الصهيونيون وطنًا خاصًّا بهم في فلسطين. وأصارحك القول بأنّي أكره ما أكرهه في هذه الحياة الجماعات الصهيونية، الذين استنزفوا منّا الأموال لغاياتهم ومآربهم السياسية.

ما يلفت النظر في لوس أنجلوس البيوت الخشبية المكوّنة من طابق واحد، والتي هي عبارة عن عدّة غرف بمنافعها، وتنقل هذه البيوت من مكان إلى آخر، كما هي من دون فصلها عن بعضها، ودون أن يمسّوا شيئًا منها، وتُبنى هذه البيوت من الخشب، وترتفع عن الأرض ما يقرب من نصف متر، وهي تقوم على أعمدة خشبية غليظة، فإذا احتاج أهلها لنقلها من مكان إلى آخر، وضعوا تحتها أعمدة طويلة من الخشب الصلب القوي ويصلون هذه الأعمدة بعجلات من الكاوتشوك، ويستعملون الجياد في نقلها، ولا يجدون صعوبة في عملهم، بل تُنقل بسهولة تامة، ويساعد على نقلها شوارع المدينة الواسعة، فتمرُّ هذه البيوت في وسط الشارع دون كلفة أو إزعاج للمارة. والذي لفت نظري واسترعى انتباهي أكثر ممّا تقدّم، إحدى البنايات المكوّنة من خمسة طوابق، مبنيّة من الحجر والإسمنت، وكانت هذه البناية متقدّمة على مثيلاتها مقدار ثلاثة أرباع المتر، ممّا يشوّه الشارع، فأصدرت البلدية أمرًا بتعديل البناية، وهدم واجهتها لتتساوى مع بقية البنايات، وكانت واجهة البناية جميلة جدًّا استُعمل في بنائها حجر المرمر، فكان منظر البناية رائعًا، فاستُشير المهندس الذي بناها، فأجاب: من الممكن إرجاع الواجهة دون إتلافها.

لقد هدم المهندس اللبق من البناية مقدار متر تقريبًا، وذلك من البناء الذي يلي الواجهة ففصل الواجهة عن بقية البناء، ثم حفر أساسًا جديدًا مكان ما أزاله من البناء، وأحكم شدَّ الواجهة من أركانها شدًّا محكمًا، واستغل أسلاك الفولاذ في شدّها خوفًا من التصدُّع ثم فصل الواجهة من أسفلها عن الأرض، وجعل لها ثلاث ركائز كقوائم لها، من الوسط ركيزة واحدة، ومن كِلا الطرفين ركيزة، ثم قام

بتأخير الواجهة إلى الوراء بواسطة الآلات الميكانيكية الضخمة، حتى ثبّتها على الأسس التي أقامها خلف الواجهة.

بهذا أخبِرْت عندما استفسرت عن كيفية إرجاعها وتثبيتها، وإلصاقها ببعضها، فإذا مررتَ بهذه البناية، ونظرت إلى جانبها تجد آثارًا لهذه الهندسة المعمارية الفذَّة، وتجد النوافذ الجانبية الواقعة في المكان الذي اضطر المهندس إلى هدمه لإرجاع الواجهة، تجدُها أضيق من بقية نوافذ البناية.

أثناء إقامتي في لوس أنجلوس أتيحت لي فرص كثيرة - دون أن أجري وراءها أو ألاحقها - لو استغللت واحدة منها لأغنتني عمّا وجدته من متاعب في هذه الحياة، فالشركات التي اتّصلت بي لأكون من موظفيها مع تعليمي هندسة الطائرات كثيرة كشركة (داكلاس أير كرافت) وكذلك شركة بورش الهندسية للسيارات والكهرباء التي عرَضت عليَّ التعليم مع راتب أسبوعي، وبعض الشركات السينمائية التي أخذت تُغريني بما تعرضه عليَّ من الأموال، والتي أخذ وكلاؤها في ملاحقتي لأنضمَّ إلى جمهرة الممثلين، والسيد نيقولا التاجر الذي عرض عليّ دون أن أطلبه ولكني أعرضت عنه وتقاعست عن اغتنام هذه الفرص، ولم أكن أعلم الدافع الذي منعني من استغلال أيٍّ من هذه الفرص، ربما كان السبب تفكيري بالعودة إلى الوطن وربما كان أسبابًا أخرى.

لمّا أسقط في يدي، وأيقنت بأنني لن أتمكن من العودة للوطن في الوقت الحاضر هنا بدأت أسأل نفسي عمّا أستطيع أن أفعل بعد أن ضيَّعت هذه الفرص التي سُنِحت لي.

في ذلك الوقت كان صديقي عبد الحي عامر الذي انتقلت للعيش في مسكنه في هوليود قد سافر إلى سان فرانسيسكو وبقي فيها خمسة شهور وبقيت أنا وحيدًا في منزله طيلة هذه المدَّة التي لم تَخْلُ من لقاءات ونشاطات تجارية وغير تجارية.

تلقّيت دعوة من السيد سليمان كرم نزيل هوليود وشقيقه سليم كرم صاحب المطعم السوري في لوس أنجلوس، وسليمان كرم أديب بليغ من الرعيل الأول الذين تركوا أوطانهم وهاجروا من لبنان إلى أميركا، وكان ذا شخصية قوية ومحترمة، ووجدته منكبًّا على بعض الجرائد السورية يطالع فيها، ولقد أخبرني أن

أمطارًا غزيرة هطلت في بادية دمشق الأمر الذي أنبت الكَمأ في صحرائها، وأن شركة الكونسروة السورية التي يرأسها السيد شكري القوتلي ابتاعت كمية وافرة منها وهيّأتها للتصدير. وأردف قائلًا: هل تعرف أحدًا في دمشق ليُرسل لنا كمية تجارية منها. إن ثمنها مرتفع جدًا في هذه البلاد.

أرسلت تلك الليلة برقية إلى شقيقي ياسين في دمشق بهذا الخصوص طلبت فيها كمية من الكمأ (الفقع) بمبلغ ألف دولار، وبعد شهر ونصف وصلتنا الكمية، فبلغ ما جمعناه من ثمنها خمسة آلاف دولار، فأبرقنا ثانية نطلب المزيد من الكمأ، فجاء الردّ أن الكمأ قد نفد ولم يَبْقَ شيء منه في الشركة.

في أيِّ بلدة أقمت، أو في أيّ مدينة مكثت من مدن الولايات المتحدة، كان لا بد أن تجد بين ساكنيها عربيًّا تهمه شؤون قومه وتعزيز مكانتهم، فتلك غريزة في الغرباء النازحين عن أوطانهم العربية، ممّن أجبرتهم ظروفهم الغامضة، أو أحوالهم الشخصية على النزوح عن الوطن، كنت تراهم لا يزالون يذكرون ديارهم في غدوِّهم ورواحهم، وفي عملهم ووقت فراغهم، فمهما طوَّحت بهم الأقدار، أو شطَّ بهم المزار، ونَأَتْ عنهم الدار، لا يزالون يحنّون إلى ربوع الوطن، وترجع بهم الذكرى إلى عهود الصِّبا ومراتع الشباب، ولم يكن هذا متوقِّفًا على المهاجرين فقط، بل تعدّاه إلى أجيالهم الذين ولدوا في ديار الغربة.

تعرّفت في إحدى الحفلات العربية المُقامة بهذه المدينة على شاب عربي من أصل لبناني، من مواليد لوس أنجلوس وقد طوى الثامنة عشرة من عمره مسيحي العقيدة، عربي النزعة، دعاني إلى منزله وعرَّفني بوالده حنّا الدبس وبوالدته مريم الحكيم. وبشقيقته وأخيه، وأبدى استعداده للقيام بأيّ عمل يعود نفعه لأمته العربية، فأكبرت له غيرته، ووطنيته وحميته العربية، ووعدته بأن نقوم بعمل في المستقبل القريب يحقّق فيه ما تصبو إليه نفسه، ويرتاح له ضميره.

كنت عند وعدي له، فلم تَمْضِ إلّا أيام قلائل حتى استأجرت محلًّا مكونًا من غرفتين في بناية جديدة في الطابق الثالث من طوابقها الثمانية، كتبت على أحد أبوابه الكبيرة (مكتب الاستعلامات العربية) وأصدرنا أول منشور جغرافي عن البلدان العربية، وعن جاراتها من الحكومات، ووُزِّع هذا المنشور بواسطة الشاب

جورج الدبس على بعض المدارس الثانوية، وجامعة كاليفورنيا، فتقبّلوه قبولًا حسنًا، وتوَّجناه بالعبارة التالية: المنشور الأول من المنشورات المتسلسلة عن البلدان العربية.

أرسلت رسائل إلى كلٍّ من جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، وفخامة ياسين باشا الهاشمي في بغداد، وفخامة شكري بك القوتلي في دمشق، وبيَّنت لهم الغاية من فتح هذا المكتب وهو بثُّ الدعاية للبلدان العربية في الولايات المتحدة الأميركية، ورجوتهم أن يوافوني بمعلومات لتكون لي عونًا فيما أنا قائم به، كما أخبرتهم أنني لست بحاجة إلى مساعدتهم المالية، ولكني بحاجة قصوى إلى توجيهاتهم ومساعدتهم المعنوية، وأرسلت لكلٍّ منهم بعض قصاصات من الجرائد التي تحدَّثت مع محرريها عن البلدان العربية، وخاصة عن المملكة العربية السعودية، فأجابني ياسين الهاشمي، شاكرًا جهودي، كما أرسل الملك عبد العزيز كتاب شكر، أما شكري القوتلي فلم يُجِبْ على رسالتي.

إن الذي حدا بي لأقوم بمثل هذا العمل هو ما وجدته ولمسته من التقدير والاحترام من قبل من اجتمعت معهم من رجال الأعمال، وعلية القوم ومحرِّري الصحف، وحيث إنني أول مهاجر إلى الولايات المتحدة من المملكة العربية السعودية، فلقد شعرت بأن فتح مكتب للمعلومات عن السعودية وبقية الدول العربية سيعود بالفائدة عليَّ وعلى جميع المهتمين بالدول العربية وسيعود بالنفع على الوطن، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. فلقد حضر لمقابلتي ذات يوم اثنان من رجال بوليس المدينة وسألاني عن طريقة العمل في المكتب وأخبراني بأنني لا أستطيع الاستمرار في نشاطاتي الإعلامية إلّا بعد الحصول على تصريح خاص للقيام بذلك. ونظرًا إلى أنني لم أستلم أيّ معلومات من الدول العربية حتى ذلك الوقت، ولأن إجراءات الحصول على تصريح فتح المكتب كانت مُكْلِفة وطويلة، فلقد قرَّرت إقفاله بعد أن مَنَّيت نفسي بالعودة لفتحه في المستقبل بعد حصولي على المعلومات التي كنت أنتظر وصولها من الدول العربية. وقَدِمَ إلى لوس أنجلوس الشيخ حافظ وهبة سفير مملكتنا في لندن، في طريقه إلى طوكيو عاصمة اليابان لحضور الحفل الذي أقيم بمناسبة بناء أول مسجد فيها، فمثَّل في

هذا الحفل حكومة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز. وسعدت برؤية الشيخ حافظ وأمضينا معًا عدة ساعات نتحدث عن أخبار الوطن ونتذكر الأوقات التي أمضيناها معًا في مكة عام 1344هـ (1926م).

تعرفت على رئيس بلدية لوس أنجلوس في إحدى الحفلات، وكنت أرتدي ملابسي العربية فراقت له عباءتي، وطلب مني واحدة مثلها، وكان سمو ولي العهد الأمير سعود قد أرسل لي عباءتين بناء على طلبي من سموه، فقدَّمت إحداهن إلى رئيس البلدية، والثانية أهديتها إلى إحدى دور الآثار، تحقيقًا لاقتراح رئيسها الذي فاتحني بذلك عند اجتماعي معه في هذا الحفل.

في هذه الفترة كان صديقي عبد الحي قد حضر من مدينة سان فرانسيسكو، وفاتحني برغبته بمغادرة لوس أنجلوس إلى مدينة نيويورك ثم إلى وطنه مصر واستطرد قائلًا: هل لك أن ترافقني في هذه الرحلة إلى نيويورك، وركبنا سيارته بعد أن ودَّعت أصدقائي في لوس أنجلوس، وبعد ثمانية وأربعين يومًا من مغادرتنا لوس أنجلوس وصلنا مدينة نيويورك، مارين بإحدى عشرة ولاية من الولايات المتحدة، لقد كانت رحلة جميلة طيبة، اجتزنا خلالها آلاف الأميال، ومئات المدن، ووقفنا على معالم الولايات المتحدة التي مررنا بها، وأضفنا إلى معلوماتنا معلومات جديدة عن هذه البلاد العظيمة.

إنه لمن الصعوبة بمكان أن يغادر المرء مكانًا ما، أو جماعة مكثَ فيما بينهم سنة أو سنتين، أو أكثر من هذا أو أقل، فألِفَهم وركَنَ إلى عشرتهم وصحبتهم، دون أن يمازج شعوره شيئًا ولو قليلًا من الحزن عندما يفارقهم، أو أن تكلِّل وجهه سحابة من سحب الكآبة، خاصة إذا قوبل بالبشاشة والترحيب، وعاملوه معاملة الأخ لأخيه، وفتحوا له قلوبهم فولج إليها، وبانَ له ما تكنّه من الخير والمحبة.

تركت هذه الولاية التي أحببتها، وركنت لصحبة أهلها ومعاشرتهم، ونفسي مملوءة حزنًا على مغادرتها، إنها الولاية المحبَّبة لدي على سائر الولايات المتحدة التي سبق أن زرتها، والتي أوحت إليّ جبالها الشاهقة وأشجارها الباسقة وسهولها الواسعة ومروجها الخضراء النضرة، بالعزّة والكرامة اللتين كنت على قاب قوسين أو أدنى من فقدانهما، وأقمتُ في هذه الولاية سنتين كاملتين، فوجدتُ من نُبل

قاطنيها، وحُسن معاملتهم، ما حملني على أن أذْكرهم في كل مناسبة أمُرُّ بها، وأحمل لهم في قلبي جميل الذكرى، وعظيم الاحترام، فقد ألِفْتهم وركَنت إلى عشرتهم، ولقد كانت طبيعتي متوالفة مع ما قال الشاعر:

خلقت أَلوفًا لو رجعت إلى الصبا   لفارقتُ شيبي موجع القلب باكيا

ترجِع أسباب حسن معاملتهم للغرباء القادمين إليهم، والنازلين بساحتهم، لكونهم هم أنفسهم كانوا غرباء مثلهم، قدموا إلى هذه الولاية من كلِّ فجٍّ من بقاع الأرض، واستوطنوا في ربوعها، فإذا ما تقصّى المرء أمر هذه المجموعة القاطنة في هذه الولاية، وسبَر غورهم، ووقف على أحوالهم والمكان الذي قدموا منه، لبان أن هذه المجموعة تمثل كافة شعوب الأرض، فما من شعب من القارات الأربع إلّا وله أفراد فيها. والإنسان ميّال بطبيعته لمن يجد لديه صدرًا رحبًا يستقبله به، كما أنه ميّال لسكنى الأرض الخصبة، ليبني مستقبله ومستقبل أفراد عائلته، فلا غرابة إذا رأينا المهاجرين القادمين إلى هذه الأرض يزداد عددهم يومًا بعد يوم.

كان عدد سكان ولاية كاليفورنيا في ذلك الوقت، ستة ملايين نفس فقط، ولقد ازداد عددهم بعد ذلك بشكل كبير، وأسباب هذا التزايد في عدد سكانها، هو ما جادَت به الطبيعة عليها من خيراتها، معادن عديدة، وأرض بكر جيدة، وتربة خصبة صالحة وطقس معتدل في فصوله الأربعة، فازدهر اقتصادها، ونَمَت مزروعاتها، يُضاف إلى هذا وجود مدينة السينما هوليود في ضواحيها، لذا قَدِمَت إليها الخلائق البشرية من كافة الولايات، ومن أطراف الأرض. وأذكر أنني قرأت في إحدى الصحف العربية في السبعينيات بأنَّ قوة اقتصاد ولاية كاليفورنيا وحدها تأتي في الترتيب السادس في اقتصاديات دول العالم.

هذه الولاية من أكثر الولايات إنتاجًا لأصناف الخضر والفواكه، وتنتج من النبيذ الخالص خمسة وثمانين في المائة من مجموع النبيذ الذي تُنتجه الولايات المتحدة، والنبيذ كما هو معلوم يُستخرج من عصير العنب، وتحتل كروم العنب المختلفة الأشكال والألوان، قسمًا متَّسعًا من السهول الفسيحة في هذه الولاية، يسقي هذه الأرض الواسعة نهر (سكريمانتو) وغيره من الأنهار والقنوات، وعلى هذا النهر سدّ (أورفيل) الذي يُعتبر أعلى سدّ في العالم حتى الآن وسدّ (فريانت).

يعتني سكان هذه الولاية بتربية المواشي، فقد بلغ تعداد البقر الذي يملكه قاطنو هذه الولاية أكثر من خمسة ملايين بقرة، منها مليونان ونصف المليون من البقر الحلوب، وثلاثة ملايين رأسًا من الغنم، كان هذا في سنة 1382هـ (1962م).

لقد وهبها الله من المعادن، البترول، الذهب، النحاس، الفولاذ، الزئبق، المغناطيس وغيرها من المعادن الثمينة. كما حَوَت مناطقها ثمانية عشر حرشًا، مكتظة بالأشجار، طويلة الساق، منها الحرش العظيم القائم في وادي (يوسيمث) بين مدينتي سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس وفيه الشجرة التاريخية الشاهقة بجانب الطريق العام، والتي تمر السيارات في وسطها، ولا زالت تحتفظ بعلوها ونموها.

في السنوات الأخيرة اعتنى المزارعون في ضواحي لوس أنجلوس، عناية تامّة بزرع النخيل، كما اعتنوا بتعبئة التمور، ووضعها في كرتونات تسع عشر حبات من التمر، وتُباع بدولار واحد، والتمور في أميركا من الثمار الطيبة المستحسنة، وفي وادي أمبريال مقاطعة واسعة غرست في أرضها أشجار النخيل، وتُسمّى هذه المقاطعة (مكة)، ويتراوح مدار حجم النخلة فيها من ثلاثة أمتار إلى أربعة أمتار. ويسقي أرض لوس أنجلوس نهر (أدسن)، ونهر (كولورادو)، اللذان يبعدان مئات الأميال عن المدينة، وقد كلف جلب هذه المياه، عشرات الملايين من الدولارات.

من المدن الكبيرة في هذه الولاية بعد لوس أنجلوس، مدينة سان فرانسيسكو، وسيندياغو، ومدينة لونج بيتش. ويقدَّر سكان سان فرانسيسكو بسبعمائة وخمسين ألف، وقد اشتهرت هذه المدينة بأكبر وأطول الجسور في الولايات المتحدة، وهو الجسر الذهبي، إذ يُعتبر من أروع الأعمال الهندسية وهو من أجمل المنشآت من نوعه في العالم، وجسر (خليج أوكلاند) وجسر (ريتشماند).

لقد أقيمت معظم أبنية هذه المدينة على مرتفعات من التلال يرفعك أحدها سبعين مترًا، وآخر يهبط بك مثلها، والترامواي يَستعمل بعض هذه الشوارع الصاعدة الهابطة، وميناء سان فرانسيسكو من أوسع الموانىء في الولايات المتحدة الأميركية.

للمدينة مطاران من أكبر المطارات في العالم، وأكثرها حركة، وقد بلغ عدد

المسافرين الذين حلّوا بهذين المطارين خمسة ملايين نسمة من البشر خلال سنة واحدة وهبط بها مائة وستة وأربعون ألف طائرة، حملت من البضائع ما وزنه بالأرطال مائة وخمسة ملايين، ونقلت من الرسائل ما وزنه بالأرطال ثلاثة وخمسون مليونًا، وذلك حسبما ذكرته إحدى النشرات التي تُصدِرها مدينة سان فرانسيسكو.

مدينة (سيندياغو)، تحتوي على أكبر قاعدة بحرية حربية على شاطىء المحيط الهادئ، أما مدينة (لونج بيتش) فيها مصنع كبير للطائرات، وهي مدينة هادئة. ولاية كاليفورنيا هي الولاية الحادية والثلاثون التي دخلت في الاتّحاد بتاريخ 9 أيلول/سبتمبر 1836م، وفيها 369 مدينة أكبرها لوس أنجلوس ويبلغ عدد سكانها 2,479,019 نسمة وأصغرها مدينة جنكتاون وسكانها 5,017 نسمة.

تبلغ المسافة بين ولايتي كاليفورنيا ونيويورك، ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل، هذا إذا اتَّبع المسافر الطريق الأقوم، ولم يراوغ عنه شمالًا أو يمينًا، ولكنّي وصديقي عبد الحي عامر، عرَّجنا في طريقنا على بعض الأماكن الأثرية الشهيرة فبلغ مقدار ما قطعناه حتى وصلنا مدينة نيويورك خمسة آلاف وتسعمائة ميل. ومررنا بطريقنا على اثنتي عشرة ولاية: ولاية نيفادا، أريزونا، يوتا، كولورادو، نبراسكا، أيوا، إلينوي، أنديانا، أوهايو، بنسلفانيا، نيوجرسي، ثم ولاية نيويورك واستغرق سفرنا من شاطىء المحيط الهادئ، حتى الشاطىء الأطلنطي حوالي الثمانية والأربعين يومًا، لم نمر خلالها على أرض جرداء إلّا في ولايتَي أريزونا، ونيفادا وقليل جدًّا في بعض الولايات الأخرى، فالأراضي التي لم تُزرع، وهي غابات وأحراش، وواحات خصِّصت لرعاية المواشي، أو جبال مكسوة بالأعشاب والأشجار، فلم يقع نظرنا إلّا على أرض خضراء منتشرة في جميع أنحاء هذه الولايات، فالطبيعة أضفت عليها ثوبًا سندسيًّا زاهيًا، ووهَبَتها من جلالها وبهائها ما لم تَهَبْه لغيرها من بقاع الأرض، وكستها رداء أنيقًا لم تكْسِهِ لغيرها، ولم يخامرنا شيء من الاستغراب، بعد أن رأينا كثرة هذه الأحراش الواسعة، إذا علم أن ثلث مساحة الولايات المتحدة الأميركية هي من الغابات والأحراش، وهي من أملاك الشعب، ليس للحكومة فيها نصيب، فالشعب يستغلّ خيراتها لصالحه، ومع هذا

تجد سلطات الولايات مع أصحاب الأراضي يبذلون مجهودًا جبارًا لحفظ هذه الأحراش وصيانتها من الآفات، ويعوِّلون عليها كثيرًا في صناعة الورق، وصناعة الأثاث وغيرها من الصناعات والحاجات الخشبية، وقد تعاونت وزارتا الزراعة والداخلية مع الشعب لحفظها من الحرائق التي تسبِّبها الصواعق الكونية، أو إهمال الزائرين لها، وإذا احتاج صاحب الأرض لقطع عدد من الأشجار، توجَّب عليه زرع عدد مثله أو أكثر من الأشجار الصغيرة بدلًا من الكبيرة التي سيتم قطعها، وفي إحصاء سنة 1380 - 1960 تمَّ زرع ألفي مليون شجرة أي بمعدّل إحدى عشرة شجرة لكل رجل وامرأة وطفل في البلاد جميعها.

تمَّ سنة 1941م، تأسيس جمعية سميت [رابطة زراعة الأشجار الأميركية] وبلغ عدد أعضائها تسعين ألفًا جميعهم من أصحاب الأراضي، يقومون بواجب الحفاظ على الثروة الخشبية، إذ تشكِّل ثروة ضخمة من منتوجات البلاد، ويضمنون لأنفسهم أرباحًا طائلة من ورائها ومن الأماكن المشهورة التي أتيح لنا فرصة زيارتها: جراند كينين ومساكن هنود نافامو في ولاية أريزونا والجسر الصخري الطبيعي، وحديقة برنس كانيون، وروكي موفي بولاية يوتا، وسدود الكهرباء العظيمة في كلٍّ من ولايَتَي نبراسكا، وأيوا، وترسانة مولين، وضريح لنكولن في ولاية إلينوي، ومعامل الفولاذ في ولاية أوهايو، ومنزل بنيامين فرانكلين في ولاية بنسلفانيا، وجامعة برنستون في ولاية نيوجرسي، وغيرها من الأماكن المشهورة.

توجّهنا من لوس أنجلوس، وصعدنا جبال سيرانيفادا، ثم هبطنا هضبة كولورادو إلى أن وصلنا جبال روكي الشاهقة التي تشبه جبال الألب في سويسرا، والمناخ بين هذين الجبلين حار وجاف، وتقدَّر المسافة بينهما بألف وسبعمائة ميل تقريبًا، وتمتد جبال روكي من شمال الولايات إلى جنوبها، أي من حدود كندا حتى حدود المكسيك، وتُعتبر العمود الفقري للولايات المتحدة الأميركية. ثم انحدرنا إلى السهول الكبرى، متوجِّهين إلى الأراضي الوسطى المنخفضة، ثم قطعنا جبال أبلاشي الزاخرة بمعادن الفحم، إلى أن هبطنا مدينة نيويورك.

لقد قسَّم الجغرافيون الولايات المتحدة الأميركية إلى خمس جهات:

1 - الجهة الشمالية، وتضم ست عشر ولاية:

ولاية مين، نيوهمشر، فرمونت، ماساشوست، رود أيلند، كونتيكت، نيويورك، بنسلفانيا، نيوجرسي، ديلوير، ماريلاند، أوهايو، مشيغن، إنديانا، وسكنسن، إلينوي. ومساحتها: 421270 ميلًا مربعًا.

2 - الجهة الجنوبية الشرقية، تحتوي على عشر ولايات:

ولاية فرجينيا، وست فرجينيا، نورث كارولينا، ساوثت كارولينا، كنتاكي تينيسي، جورجيا، الباما، ميسيسبي، فلوريدا، وتبلغ مساحة هذه الولايات 448163 ميلًا مربعًا.

3 - الجهة الشمالية المتوسطة، تضم سبع ولايات هي التالية:

ولاية مينسوتا، نورث داكوتا، ساوث داكوتا، مونتانا، أيوا، نبراسكا، ولاية وايومنغ. وتبلغ مساحتها: 640349 ميلًا مربعًا.

4 - الجهة الجنوبية الوسطى، تضم الولايات الآتية:

ميزوري، كانسانس، كولورادو، اركنسانس، لويزيانا، تكساس، نيومكسيكو، وتبلغ مساحتها: 862808 ميل مربع.

5 - الجهة الغربية، وتتكون من سبع ولايات هي الآتية:

ولاية أيداهو، واشنطن، أوريجون، يوتا، نيفادا، كاليفورنيا، أريزونا، ومساحتها: 716788 ميلًا مربعًا، ويضاف لهذه الولايات ولايتا ألاسكا وهاواي. وهما آخر ولايتين انضمتا للولايات المتحدة الأميركية.

كما قسِّمت الولايات المتحدة الأميركية إلى ستة أقاليم هي: إقليم الشمال الشرقي، إقليم الحوض المتوسط، إقليم الجنوب الشرقي، إقليم السهول الكبرى، إقليم الجبال والصحاري، إقليم الأودية الساحلية، ولا تفصل هذه الأقاليم عن بعضها أي حدود من صنع الإنسان ولكن يميِّزها عن بعضها طبيعة المناخ والتربة وطرق النقل الطبيعية وغيرها. كما عُرِف كل إقليم منها بما فيه من المعادن المختلفة، وما ينتجه من الصناعات الخفيفة والثقيلة، وما تدرُّه الأرض من الحاصلات، وأراضي الكلأ والمرعى، ومن الغابات والأحراش، وبما به من أرض صحراوية ومواشي.

1 - يتكون الإقليم الشمالي الشرقي من إحدى عشرة ولاية وقد عَرَف هذا الإقليم الصناعات العديدة: كمصاهر الصلب، والصناعات الثقيلة، كالزجاج، والألمنيوم، والكيميائيات، وصناعة السيارات، وصناعة الآلات على اختلافها، كما عرف أيضًا معادن فحم الكوك ومعادن الحديد الخام. ويوجد في هذا الإقليم أكبر عدد من المدن الصناعية التجارية كمدينة نيويورك وأبنيتها الضخمة، وشيكاغو ومسلخها العظيم، وبطرسبورج ومصانعها الحديدية، وقد لا يصدِّق المرء، أنَّ هذا الإقليم، بإنتاجاته الكبرى المزدهرة، كان قبل خمسمائة عام مجرّد مكان مقفر موحش، إلّا من سكانه الهنود الحمر، وما ينتجونه من المزروعات، ويُعتبر هذا الإقليم من أكثر الأقاليم الآن ازدحامًا ومن أشدِّها حركة ونشاطًا.

2 - إقليم الحوض المتوسط الذي عُرف بمروجه الشاسعة، وبتفوُّق خصوبة أراضيه كما عُرف بحزام الحنطة لكثرة ما يُزرع في ربوعه من الحنطة والذرة التي تُعدّ من أهم الموارد الزراعية في الولايات المتحدة الأميركية، ويُباع ثلاثة أرباع محصول الذرة لأصحاب المواشي والدواجن كعلف لها، ويُستخرج من عيدانها، وقوالحها، وأوراقها: الزيت، الشراب، النشاء.

وتقدَّر مساحة الأرض التي تُزرع فيها الذرة بربع مساحة الولايات المتحدة الصالحة للزراعة، وكان أول من زرع الذرة الهنود الحمر وعنهم أخذ الأميركيون المهاجرون زراعتها.

3 - الإقليم الجنوبي الشرقي الذي عُرف بإنتاجه للقطن، وصناعة التبغ، - والبترول والحمضيات.

ويقع نهر تنسي وروافده من الأنهار الخمسة في هذا الإقليم، وقد روِّض هذا النهر بإقامة 33 سدًّا عليه، وهناك مشاريع أخرى لإقامة عدد آخر من السدود.

4 - إقليم السهول الكبرى، الذي يُعرَف، بحياته القاسية، وبسهوله الواسعة الشاسعة، ويصِفه سكانه بأنه مكان ترى القادم إليه عند شروق الشمس وتظلّ تراقبه طوال النهار، فلا يصل إليك، إلّا بعد العشاء بنصف ساعة. وهذا الإقليم شديد الحرارة في فصل الصيف، وكثير البرودة في الشتاء. (إذ تكثر فيه العواصف الثلجية، فتكسو الثلوج البيوت، ومخازن الغلال، وغالبًا ما يتبدَّد مجهود سنة بأكملها في يوم واحد بفعل المناخ).

قسم كبير من أرض هذا الإقليم خالٍ من الشجر ومن الأراضي الزراعية، والهنود وحدهم هم الذين عرفوا كيف يعيشون في هذا الإقليم، إذ إنهم قَدِموا إلى هذه السهول على ظهور الخيل فرارًا من وجه المستكشف الأول منذ ثلاثة قرون، ثم زاحم رعاة البقر من المهاجرين بماشيتهم، وبعد قتال عنيف دار بينهما اضطرّ إثر ذلك ما تبقى من الجماعات الهندية إلى الرحيل عن هذه المروج التي استوطنوها، وأقاموا سبل معيشتهم في ربوعها، وفقد الهنود مئات الآلاف من رجالهم في هذه الحرب الضروس، وعُرف هذا الإقليم بتربية البقر والغنم.

يحتوي هذا الإقليم على موارد غنية من الأرض تملأ النفوس بالأمل في المستقبل، ولم تُستغَلّ بعد، مثل الفحم والفوسفور والفوسفات، كما يوجد النفط في بعض أرجاء هذه السهول، وبدأ الناس يفهمون كُنْه السهول الكبرى، وأخذت الأرض تحقِّق أمانيهم، فلا غرابة إذا أُطلق على هذا الإقليم وأخذ يعرف باسم إقليم المآسي والأماني، وفي هذا الإقليم 149 غابة مساحتها 128,000 فدان.

5 - إقليم الجبال والصحاري الذي يقع بين جبال روكي من الجهة الشرقية وجبال صحراء نيفادا، وجبال الأكسيكد غربًا، وكان هذا الإقليم من مساكن الهنود الحمر، الذين كانوا قبل قدوم المهاجرين الأُوَل منتشرين في ربوعه.

عُرف هذا الإقليم بإقليم الذهب، فقد اكتشف في ربوعه مناجم عديدة للذهب، ممّا دفع المستكشفين الأُول من الإسبان أن يغامروا بأنفسهم ويقتحموا الطريق ويقاتلوا قاطني هذا الإقليم من الهنود الحمر، ويشرِّدوهم عن أوطانهم كي يصلوا إلى هذا الكنز الثمين.

من القصص التي رجع بها المستكشفون الأول إلى ديارهم، وبلَّغوها لمواطنيهم حكايات ممتعة للغاية عن الطبيعة، ولكن مواطنيهم شكّوا في أقوالهم، الأمر الذي اضطرهم إلى إرسال بعثة علمية في عام 1870 للتأكُّد من حقيقة تلك الحكايات، فوجد هؤلاء العلماء المتشككون أثناء زياراتهم لجبال روكي (أن تقريرهم الدقيق يبدو في عين القارئ أكثر شبهًا بالقصص والخيال منه بالعلم الواقع، إذ شاهدوا جبلًا كله من البلور الأسود، هضاب بركانية ذات ينابيع فوارة ساخنة، وأنهار جليدية بيضاء مفعمة بالزرقة، وبحيرات جبلية بلورية، وأودية عميقة خلابة، وشلالات دافقة بمياه بيضاء).

أمّا الأرض الصحراوية في هذا الإقليم فقد انحسرت وتقلّصت، ولم يَبْقَ منها سوى 70 ألف ميل مربع، وستمائة ميل في ولاية نيفادا، بين مدينتي صولت ليك ورينو فلا يوجد فيها سوى سباخ ملحية، وحفر قلوية، وجبال صخرية عارية، وأطلال بلدان هندية بائدة، وثروات معدنية هائلة.

كان لسد هوفر الذي تمَّ بناؤه سنة 1936م، اليد البيضاء على هذه السهول الواسعة الجرداء (فأحيا تلك الصحاري المقفرة، وأصبحت الصحاري الحارة في وادي أمبريال تنبت أنواعًا شتّى من فاكهة المناطق الاستوائية، مثل التين، التمر، الكريفون، البرتقال، والليمون، التي تُشحَن إلى جميع أنحاء العالم).

اشتهرت بعض المتنزهات في هذا الإقليم بمناظر خلابة فاتنة (فمتنزه ميسافرو - تبدو أرضه للناظر إليه كمائدة خضراء طولها 15 ميلًا بعرض 8 أميال وترتفع عن الوادي من تحتها ارتفاعًا حادًّا يبلغ حوالي ألفَي قدم، ويحتوي هذا المتنزه على أطلال المساكن والقرى الهندية الجبلية) ويشتهر متنزّه (يوزمايت) بمساقط مياهه من علو 2400 قدم، وأوديته الجليدية ذات الجدران الغرانيتية، تعلو إلى ارتفاع ثلاثة آلاف قدم، ويعتبرها الكثير من أجمل وأروع المناظر الطبيعية في العالم قاطبة).

ولا يزال حتى الآن (بلوستون) أحبُّ متنزّه للسياح، وقد شُقَّت الطرق الكبرى المؤدّية إليه ممّا جعل الوصول إليه أيسر من ذي قبل، وفيه مرشدون من ذوي الخبرة يتولّون إرشاد الزوار، إلى الينابيع الفوارة ذات المياه الساخنة، وإلى براكين الطين الجامدة، وضواحي الوادي، والغابات والأحراش، وإلى المراعي التي تَهيمُ فيها حيوانات أليفة آمنة لا يصطادها أحد، ولا هي تخاف من أحد.

6 - إقليم الأودية الساحلية الذي يُعرف بكثرة غاباته، وأحراشه التي تمتد على المنحدرات الغربية لجبال كسكيد، وأما أشجار البلوط الضخمة في جنوب كاليفورنيا فتُعَدّ من أكبر وأقدم الكائنات الحية وقد مضى على نموها ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة. فقد جادت الطبيعة على هذا الإقليم بتربة خصبة ومناخ معتدل، فجعلت واديه العظيم من أخصب المناطق الزراعية، فيزرع فيه أصناف الفاكهة العديدة، والخضروات المختلفة، وفي وادي الذهب الأخضر يزرع القمح والقطن

طوال السنة في مزارعه البالغة ثمانية وخمسين ألف مزرعة، وفي مراعيه الخصبة الطيبة ترعى الماشية الكثيرة العدد.

اجتزنا في طريقنا من لوس أنجلوس حتى نيويورك، نهر كولورادو الذي يصبُّ في المحيط الهادئ، النهر الذي رُوِّض بإقامة عدد من السدود عليه، في مواضِع مختلفة منه، ورغم هذا فهو لا يزال يُبدي عجرفته، ويُظهر تمرُّده وغضبه، شأنه في ذلك شأن نهر المسيسبي، الذي يعتبر أول نهر في العالم، تجري مياهه إلى مسافة أربعة آلاف من الأميال، من منابعه الشمالية في سلسلة جبال روكي حتى مصبه في خليج المكسيك، والذي تتجمّع مياهه في ثلثي أراضي الولايات المتحدة الأميركية، ويعتبر نهر ميزوري وأوهايو من أهم روافده، وقد روِّضت هذه الأنهر الثلاثة: مسيسبي، أوهايو، ميزوري بإقامة عدد من السدود عليها وبالرغم من ذلك لا يزال الغضب يعاودها من حين إلى آخر فيغمر فيضانها السهول الواسعة التي تمرُّ بها، ويتسبَّب جرّاءها في خسائر مادية فادحة للمزارعين من مستوطني تلك الديار، فتذهب بماشيتهم وتقسو على مزارعهم، وقد تقضي على بعض منهم.

يبلغ عدد الأنهر في الولايات المتحدة مائة وخمسة وثلاثين نهرًا منها اثنا عشر نهرًا يمتدُّ كلٌّ منهما أكثر من ألف ميل ويتراوح امتداد باقي الأنهر من 101 إلى 981 ميلًا.

أقيم على هذه الأنهر أكثر من مائة سدٍّ لترويضها، وفي سنة 1963م ظهر مشروع لإقامة عشرة سدود أخرى. وأول سدٍّ بُني في الولايات المتحدة هو سدّ بونثوك الذي تمَّ بناؤه سنة 1887م، في ولاية نيوهمشر، وأمّا أضخم السدود الأميركية وأكبرها فهو سدّ غران كولي المُقام على نهر كولومبيا.

بجانب هذه الأنهار العظيمة، ومياهها العذبة التي ترتوي منها مزارع الولايات المتحدة توجد البحيرات الخمس الكبرى، أو البحار الداخلية كما يسمونها، وهي موجودة في شمال الولايات المتحدة، ويُقدَّر ما تحتويه من المياه العذبة، بنصف كمية المياه العذبة في العالم، وتتجمّد مياهها طوال أربعة أشهر.

كانت رحلتنا من لوس أنجلوس إلى نيويورك هي رحلة المغادرة بالنسبة إلى صديقي عبد الحي عامر الذي كنتُ أشعر أنني سوف أفتقده كثيرًا. فمن نيويورك

كان مقرّرًا ركوبه الباخرة إلى مصر، ولم يَخْلُ مسيرنا من مدينة لوس أنجلوس حتى مدينة نيويورك من حوادث ومفاجآت حدثت لنا واعترضت سبيلنا أثناء متابعة سفرنا، وكانت مفاجآت الثمانية والأربعين يومًا التي أمضيناها خلال سفرنا هذا مفيدة ومثيرة.

كان من فوائدها أننا قطعنا المسافة التي تزيد على ثلاثة آلاف ميل دون أن يعترينا ملل أو يصيبنا تعب، وشاهدنا معالم البلاد وآثارها التي مررنا بها، وهذه في حدّ ذاتها كانت فرصة طيبة بالنسبة إلينا، فلقد زادت معلوماتنا عن البلاد ووقفنا على ما خَفِيَ من عظمتها وتقدُّمها، وازدهارها، ولمسنا ما هو أعظم من كل هذا ألا وهو اتّحاد قاطنيها ووحدة كلمتهم، وهكذا تراءت لنا الولايات المتحدة كالمارد الجبّار يدير بيديه القويتين دفّة الكون، أو كالنسر المحلّق في أجواء الفضاء باسطًا جناحيه على القارات الخمس، ورأينا بأم أعيننا سهولها الواسعة الخضراء، وجبالها الشامخة الكاسية العارية وأنهارها وجَريها المضطّرد وانسيابها بين الحقول والمَزارع تسقي أرضها الطيبة وتربتها الغنية، فتزيدها رونقًا وبهجة فتُنبت الزرع من مختلف الأنواع من بقول وثمار، وتُطعم من الضرع ما لا يحصى عددًا.

استوقفنا صاحب سيارة ضخمة كانت تجرُّ وراءها عربة كبيرة كالتي تنقل البترول إلى محطات الوقود، كان طولها أكثر من ستة أمتار، وسألنا سائقها إن كان لدينا مفكًا يستعيره لدقيقة واحدة ثم يعيده، فلبّينا طلبه، وأجابنا في تلك الأثناء عن عدّة أسئلة ألقيناها عليه، من ذلك قوله:

أنقل كل يوم صباح ومساء على متن هذه السيارة الحليب من المزرعة إلى المصنع، وتضمّ المزرعة بين جدران أبنيتها ثلاثمائة بقرة حلوب وبضع مئات من الغنم والماعز، وهناك عدة مزارع يتراوح عدد أبقارها ما بين خمسين إلى مائة حلوب. ويصنع من هذا الحليب أصناف عديدة من مواعين كبيرة من الجبن ويُستخرج منه الزبد ويوزَّع على المستهلكين بعد وضعه في قوارير وإرساله إلى محلات البقالة، ثم ناولنا المفك وانصرف شاكرًا.

أما المعامل التي وقفنا عليها في سفرنا هذا فكانت لا تُحصى عددًا، ولا تقف عجلات بعضها ليلًا ونهارًا، والدخان المتصاعد من مداخنها لا يتوقف ومسلخ

شيكاغو في ولاية ألينوي يعجز القلم عن وصفه، يُذبح فيه يوميًا ما يَقرب من عشرة آلاف رأس من البقر، وعشرات الآلاف من بقية أنواع الأغنام، وتستوعب الثلاجات العملاقة الواسعة الموجودة فيه لحوم هذه الحيوانات وقد تبقى فيها ما بين ثلاثة أشهر إلى سنة، ويؤخَذ كلّ يوم منها كميات هائلة من اللحوم لتوزَّع في طول البلاد وعرضها.

في كل ولاية جمعيات تعاونية، وإنّ المرء لتعتريه الدهشة، إذا علم أنَّ كثيرًا من هذه الجمعيات أُسِّس برأسمال زهيد، عشرين ألف دولار أو أقل، ثم تضاعف رأس المال هذا حتى تجاوز البليون دولار، وإن بعضه يدرّ من الأرباح على المساهمين مبالغ طائلة، خمسة ملايين دولار وأكثر، وهؤلاء المساهمون يبلغون عشرات الآلاف من البشر.

تتوقف عظمة هذه البلاد - وفي الحقيقة جميع بلدان العالم - على العمل والإنتاج، وبقدر ما يضخم الإنتاج ويكثر العمل تتقدَّم البلاد، إن معظم أبناء هذه البلاد من الذكور والإناث منكبّون على العمل، وإنَّ ساعات العمل محتَرَمة لدى الجميع، فالتاجر والصانع والمزارع والموظف وأصحاب المهن الأخرى كل واحد يعمل ثماني ساعات من ساعات الليل والنهار، حتى إذا انتهى من عمله أخذ نصيبه من الراحة والمرح والتسلية.

لا يَسَع الغريب المتجوّل في البلدان الأميركية، الواقف على بعض أحوالها، والمتتبِّع لأخبارها والمندمج مع شعبها، لا يسعه إلّا أن يعطيها حقّها من العظمة ويقدِّرها حقّ قدرها.

عندما كنت برفقة عبد الحي عامر كنّا معًا في مقتبل الشباب، والشباب يميل عادة إلى اللهو والمرح ويتحيَّن الفرص ليجد له لذة يلهو بها ويتمتّع، مع أننا كنا من المحافظين وشديدي التمسُّك بالفضائل الخلقية الحسنة، إنما من العبث كبتُ الشباب والحيلولة دون نزوات هذه السن وميوله أو صدِّه عن طريق أنسه ومرحه، خاصة في بلاد كالولايات المتحدة الأميركية، فيها من الحرية ما يحمل المرء على أن ينسى أو يتناسى شيئًا ولو كان بسيطًا من سلوكه الحسن واستقامته.

لم نكن وصديقي في سفرنا مثل اللذين كانا يسيران في الصحراء على

مطاياهما فقعدا يومين دون كلام، وحتى إذا مرّا بوادٍ قال أحدهما للآخر: هل هذا هو الوادي الفلاني؟ فأجابه صاحبه: اسكت لقد صدّعتنا بكثرة كلامك، بل كنا كعجائز، لم نُعْطِ ألسنتنا الراحة. كنا نخوض في شتى المواضيع منها ما كان طريفًا مستحدثًا، ومنه ما كان دون ذلك، ومرارًا قاطع أحدنا الآخر وغيّر مجرى كلامه، ولو كان لدينا مسجّل نقل حديثنا ثم أصغينا إليه بعد ذلك لضحكنا كثيرًا.

كان أغلب حديثنا يتناول الوقت الذي أتيح لنا قضاؤه في ربوع كاليفورنيا، نستعرض ما لقيناه في ربوعها من أوقات جميلة، وذكريات طيبة حافلة بالمسرّات، تذكّرنا أنديتها ومجتمعاتها وما واكبنا من أنس ومسرّة، مع تردُّدنا على متنزهاتها الفسيحة العطرة ومروجها الخضراء النضرة، وأشجارها الباسقة الوارفة، وتلولها المنتشرة هنا وهناك.

لم نَدَعْ حادثًا من الحوادث إلّا وأتينا على ذكراه حتى ماسح الأحذية ذاك الشاب المؤدَّب الممشوق القامة صاحب السحنة الداكنة، المرتدي للثياب البيضاء الناصعة، وسيارته التي كان يستخدم داخلها لمسح الأحذية، كما كان يستعملها للتنزُّه هو وأسرته في أيام العطل الأسبوعية.

وذاك الفتى اليافع بائع الجرائد، الذي كان واقفًا على مفترق الطرق محملًا بالجرائد اليومية، وذلك عندما أوقفنا سيارتنا عند إشارة الضوء وأخذنا نردِّد أغنية جديدة لأم كلثوم فلم يعجبه نغمها أو لنقل لم يفهمه، فالتفت إلينا مازحًا والابتسامة مشرق بها وجهه وقال ما معناه: أرجوكما تغيير الراديو.

لم نَبِتْ طيلة سفرنا في أيِّ مدينة أو قرية، فقد كنّا نأخذ راحتنا ليلًا في فنادق صغيرة قائمة خارج المدن على الطريق العام، معدَّة للسكن فيها، وتحتوي على أسباب الراحة ما يحمل المرء على تفضيلها على فنادق المدينة، فالماء الحار والراحة التامة والهدوء والخدمة الممتازة، كلّ ذلك كان متوفِّرًا في تلك الأماكن وكان أكثرها محطات بحدائق ذات بهجة فيها لذّة للناظرين، وأزهارها الملوَّنة منتشرة في كل ركن من أركانها، كما أنّ قسمًا من هذه المساكن أقيم في وسط الغابات حيث ظلَّلته أغصان الأشجار، ممّا جعل جوّها منعشًا فيه من المتعة نصيب كبير.

ألقينا ورفيقي عبد الحي عصا الترحال في مدينة نيويورك، وكانت زيارة كلٍّ منا الثانية لها، وحللنا في أحد فنادقها المتواضعة، ولم نغادره في اليوم الأول لوصولنا حيث ذهبنا في الصباح التالي لزيارة القنصلية المصرية بغية السلام على سعادة القنصل شوقي بك، فرحَّب بنا وأكرم مثوانا، ولم يَبْقَ لصديقي عبد الحي عامر غير ثلاثة أيام يقضيها في نيويورك ومن ثم يغادر الولايات المتحدة الأميركية، توجهًا إلى الوطن العزيز، بعد أن مكث في ربوعها سنتين كاملتين، كان خلالهما يغرف من مناهل العلم حتى نالَ مبتغاه من العلوم، واستغللنا فرصة الأيام المتبقية لنمتِّع النفس ونُشبع الطَّرف بمشاهدة معالم نيويورك. ذهبنا في اليوم الأول لمشاهدة بناء أمباير ستيت الشاهق، ووقفنا على سطح الطابق الثمانين من طوابقها الاثنين والمائة، فبانَت لنا معالم المدينة من أبنية شاهقة وشوارع عديدة واسعة مع متنزهها البديع - سنترال بارك - القائم في وسط المدينة في أحسن بقعة منها، وعندما أطللنا على شوارعها من هذا الارتفاع الشاهق بانَ لنا المارة وكأنهم أقزام يَحبون على الأرض، نظرنا من خلال المنظار المكبر الموضوع على سطح البناء فرأينا ميناء المدينة الكبير والبواخر العديدة القادمة إليه والمغادرة له وغيرها من السفن الراسية فيه، لقد كانت مناظر يصعب أن تمحوها من المخيلة الأيام، فقد تمتَّع البصر فيها كثيرًا.

بعدها دخلنا إحدى الصيدليات التي تبيع الطعام لنستريح قليلًا، وطلب كلٌّ منّا فنجانًا من القهوة، وشرعنا نروِّح عن أنفسنا بارتشاف القهوة، ولا يَستغرب المرء إذا عَرِف أنّ في أغلب الصيدليات الموجودة في الولايات المتحدة مكانًا مخصَّصًا في أحد أركانها يقدِّم فيه للزائرين السندويش من بيض وجبن ولحم والمشروبات الخفيفة من مرطبات وقهوة، وقد يتساءل الإنسان عن صلة بيع الأدوية ببيع الطعام في مكان واحد، ولعلَّ مردّ ذلك الصلة بين الطعام والدواء، فالطعام هو الأساس في معالجة كل داء، وعلَّق صديقي عبد الحي على ذلك مازحًا بقوله: ربما سبب هذا الإجراء أنه إذا اشتكى إنسان من ألم ناجم عن كثرة تناول الأطعمة، لا يحتاج للذهاب بعيدًا لإحضار العلاج، بل سيجده في متناول يديه، وبصرف النظر عن هذا المزاح هناك أمر اقتصادي حَبَّب إلى أصحاب الصيدليات ممارسة هذا العمل هو أنّ

جميع الأدوية تُصنع في المعامل ولا يحتاج الصيدلي أن يقوم بتركيب أي دواء في صيدليته لذا يجد الصيدلي متَّسعًا من الوقت يخصِّصه للاستفادة منه ماديًّا والحصول على مزيد من الأرباح، والشعب الأميركي يسعى دومًا لإيجاد السُّبل التي تدِرُّ عليه الأرباح، وغادرنا الصيدلية وأخذنا طريقنا في الأفينيو الخامس مارّين بالمحلات التجارية، نتلهّى بالنظر إلى المعروضات التجارية في واجهاتها ومداخلها وفي جنباتها حتى وصلنا المبنى الفخم الذي تشغله المكتبة العامة وهي مُقامَة على شارعين في الجانب الشرقي من نيويورك ومررنا بشوارعها الجميلة المنسَّقة الواسعة حتى وصلنا إلى جسر جورج واشنطن، وهو جسر فريد من نوعه كبير يختلف في تركيبه وهندسته عن غيره من جسور العالم، وهو قائم على ركنين متينين ويصل نيويورك بولاية نيوجرسي، ووسط هذا الجسر مشدود بأسلاك فولاذية متينة تمنعه من السقوط، إنها والحق يُقال قوة هندسية جبارة. وشاهدنا في المساء فيلمًا سينمائيًّا في راديو ستي وشاهدنا فرقة العرض المقامة في مسرحه الواسع، وكان في العادة يعرض في راديو ستي الأفلام المتميزة بجودة الإخراج وكبار الممثلين وجودة الأداء وأفضل المناظر وأروعها مع نفاسة الموضوع وقوة التعبير ويستمر عرض بعض الأفلام في هذه الدار سنة أو دون ذلك بقليل ولشدَّة الزحام يجد المرء أنَّ عليه الحجز قبل يومين أو ثلاثة، وكان العرض يستغرق أربع ساعات يليه عرض آخر قوامه خمسون فتاة كنَّ يقمن بألعاب جميلة وبرقصات شيِّقة تأخذ بالألباب.

استيقظنا في اليوم التالي باكرًا، أثناء تناولنا لطعام الإفطار قال رفيقي عبد الحي بصوت خافت والعَبْرة تترقرق في محاجره: تعلم أيها الصديق، لقد مضى على مكوثي في ربوع هذه البلاد عامان فقط، اكتسبت خلالهما علمًا وفيرًا، وازددت خبرة ومعرفة عن هذه البلاد وعن شعبها، وإنني سأغادرها وقلبي مفعم بالحزن على فراقها، إنها بلاد عظيمة في جميع مرافق الحياة الاقتصادية والعلمية والاجتماعية والثقافية ممّا لا تجده في غيرها من بلدان العالم، إن الغريب إذا طالَت مدّة إقامته في بلد من البلدان يشعر بملل وفتور ويترقَّب بفارغ الصبر اليوم الذي يتسنّى له فيه مغادرتها، ولكن هذه البلاد تختلف عن غيرها في نظر الغريب اختلافًا كبيرًا، فكلَّما

أطال إقامته في ربوعها ووقف على ما بها من مُتَع الحياة ومن أمن ورخاء وحرية في المعتقد والقول والعمل ازداد حبًّا لها وشغفًا بها، وقدَّرها حق قدرها أليس كذلك يا خليل؟ إن هذا هو شعوري نحوها، وهو يلازمني ما دمتُ حيًّا، ثم أردف قائلًا: هل سنرى أوطاننا وهي سائرة رافعة الرأس نحو هذا المستوى الذي تسير عليه هذه البلاد، هل سنراها صاعدة إلى أعلى بخطوات ثابتة قوية، هل سيتسنّى لها يومًا أن تساير ركب الحضارة، وتسير فيه بخطوات ثابتة وقوية، وتقطع الطريق المرسوم وتبلغ منتهاه، هل سيتسامح زعماء بلادنا ويطرحون عنها جانبًا حب الظهور والسيطرة على الحكم، الأمر الذي يؤدي إلى خراب البلاد ويوقِفُ عجلة العمل اقتصاديًّا وعلميًّا وخلقيًّا، هل ستستعيد بلادنا ما أهملته من العلوم والفنون، وتستردُّ حريتها المغتصبة وتستثمر خيراتها؟، ثم رفع رأسه نحو السماء يستمد منها القوة وقال: اللهم حقِّق لأوطاننا ما تصبو إليه من العزّة والرِّفعة والمجد، وهيِّىء لقاطنيها أسباب القوة والسعادة وألِّف بين قلوبهم واجعَلْهم يعرفونك حقَّ معرفتك، ويقدِّسونك أكثر ممّا يفعلون إنك سميع مجيب الدعوات.

هنا ترقرقت من عينيه دمعة غمرت مقلتيه بعض الوقت، لم أعلم سببها هل كان حزنه على مغادرة هذه البلاد أم حزنًا على وطننا العربي وما حلَّ به من بؤس وتعاسة وشقاء، وما مُنِيَ به من تفرقة وخذلان.

كان هذا اليوم موعدنا لزيارة البلدة الصينية المُقامة في داخل مدينة نيويورك، فكلّ ما فيها صيني، هندسة بنائها، بضائعها ذات الألوان الزاهية، حتى سكّانها تختلف ملامحهم ووجوههم وعيونهم، وهذه البلدة أصغر حجمًا من البلدة الصينية في سان فرانسيسكو، ولكنها لا تقلُّ شأنًا عنها، وكان يقطنها خمسمائة نسمة كلهم صينيون، ولهذه البلدة طابعها الخاص، والهدوء الشرقي يتجلّى في كل مظهر من مظاهرها في البيع والشراء، والمشي والكلام، ولم تقع عيني على أحد يسير مسرِعًا، فلا ضجيج ولا غوغاء، بل سمت شرقي ورزانة وهدوء، ويفضِّل العديد من زوار هذه البلاد تناول وجبة من وجبات الطعام في أحد مطاعمها، وأقدمت على ذلك وكانت المرة الأولى التي تذوّقت فيها الطعام الصيني، وكان طعامًا خفيفًا وشهيًّا.

وقال صديقي عبد الحي: هل سبَقَ لك زيارة كوني أيلاند؟ فأجبته بالنفي، فقال: إنها تبعد أربعين ميلًا عن نيويورك فهيّا بنا إليها.

كان الطقس يميل إلى البرودة، فشعرنا عند وصولنا إليها برطوبة الجو، ولم نجد كثيرًا من الناس هنالك، فعُدنا أدراجنا إلى الفندق، ولم نغادره في تلك الليلة، حيث أخذ صديقي يهتم بجمع أوراقه وملابسه، ووضعها في حقائبه، والاستعداد لمغادرة الولايات المتحدة عصر اليوم التالي:

كان هنالك مطعم قريب من الفندق الذي حللنا به في الأفينيو الثالث والشارع الأربعين، تختلف معاملته لزبائنه عن بقية المطاعم الموجودة في العالم، يدخل الزبون إلى المطعم، ويتناول صينية مع أدوات الطعام كالملعقة والشوكة والسكين وكأسًا من الماء، ثم يتوجّه نحو قدور الطعام المُقامة قرب المدخل، فيجد وراء كل حلّة من حِلَلِه الكبيرة رجلًا يقوم بغرف الطعام، وبجانب قدور الطعام طاولة كبيرة تحتوي أنواعًا مختلفة من التوابل والفاكهة، فيختار ما يعجبه ثم يجلس ويتناول طعامه ولا يجد من يخدمه، بل يقوم هو بخدمة نفسه، وإذا كان لا يزال لديه شهية يذهب ويُحضر ما يشتهيه من الطعام، ويجد الزائر أسعار كل صنف من الأطعمة مدوّنًا إلى جانبه، إلى هذا الحدّ لا شيء مستغرب، ذلك أن مطاعم الخدمة الذاتية منتشرة في نيويورك ولا تختلف عمّا أوضحناه إلّا بدفع الثمن مقدَّمًا، أما في المطعم فوجه الغرابة فيه أنَّ صاحبه يثق بعملائه، فالزائر يعلم مقدار ما أكله وثمنه، بعد انتهائه من الطعام يتوجَّه إلى الصندوق فيدفع ثمن ما أكله من دون أن يسأل عن مقداره، ويترك له صاحب المحل الحرية التامة ليدفع ما يريد دون تدقيق.

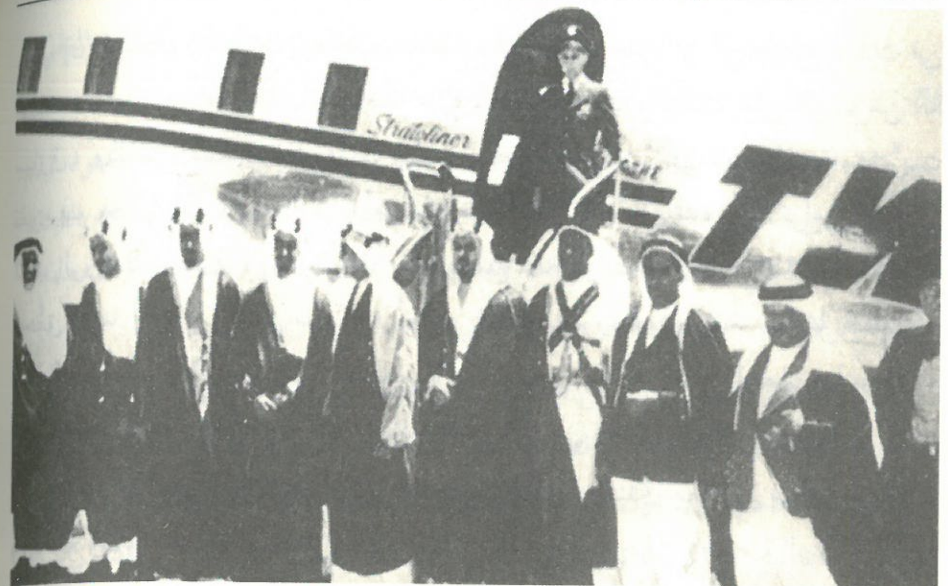
ولمّا كان من سنَّة الغريب ومن عاداته شغفه بحبِّ الاستطلاع والوقوف على كُنْه ما يراه غريبًا في بعض الأحيان، ألقينا على القائم بشؤون ذلك المطعم عدّة أسئلة استفسرنا بها عمّا شاهدناه، فأجابنا بقوله:

إنَّ من عادة المطعم التي سنَّها مؤسسه الثقة بالرواد، ولذلك ترك لهم الحرية التامة بدفع ثمن ما يتناولونه من الأطعمة، هو حدَّد سعر كلّ صنف ومَنَحَ الزائر الثقة، ويستغرب الزوار الأجانب أمر هذا المطعم ومعاملته لروّاده، ولهم الحق بالتعجُّب، ثم أردف قائلًا:

إن السارق إذا عهد إليه بالمحافظة على أموال غيره أو أي حاجة تُركَت في عُهْدته، تجده حريصًا عليها محافظًا على ما ائتُمِن عليه، وذلك على الرغم من أنّه سارق، وذلك باستثناء نفر قليل ممّن جُبِلوا على الشرّ في التصرُّف، وتشرَّبت نفوسهم بحبِّ السرقات، وهذا أمر نادر، والنادر لا حُكم له، وإذا ترامى إلينا أنَّ أحد الرواد لم يصدق القول تركناه يقوم بعمله عدة مرات، وأخضعناه للمراقبة، فإذا تحقّق لدينا أنه مُصِرٌّ على سلوكه، نُعلمه عندئذٍ بصورة مهذّبة إنما حازمة حاسمة، وآنذاك يخجل ولا يعود إلى المطعم ثانية، ونحن نمارس هذا العمل منذ سنين، وقد نجحنا بعملنا هذا، ولذلك فتحنا مطعمًا آخر في إحدى جهات نيويورك.

جمع صديقي عبد الحي عامر أمتعته، وغادرنا الفندق معًا إلى ميناء نيويورك، وودَّعته وداعًا حارًّا، وامتطى ظهر الباخرة، ووقفتُ على رصيف الميناء أرقُب الباخرة حتى غابت عن الأنظار.

وبقيت وحدي في هذه المدينة العظيمة الصاخبة ذات الحركة الدائبة الدائمة، حيث لا يتسنّى للمرء الراحة فيها لا سيما وهو يرى سكّانها يغدون ويروحون كخليّة من النحل كل واحد منهم يسعى في سبيل رزقه، فلا مجال للهدوء في هذا المعترك والخضمّ العظيم من الحياة، ولا بد من إيجاد عمل حتى يمكن للمرء المضي في معترك الحياة في هذه المدينة العملاقة.



الوفد السعودي برئاسة الأمير فيصل لحضور مؤتمر سان فرانسيسكو - 1945م



الوفد السعودي لدى وصوله إلى سان فرانسيسكو عام 1945م. ويضم الوفد الأمراء فيصل ومحمد وفهد وعبد الله الفيصل ونواف بن عبد العزيز وكان عمره 13 عاماً، وحافظ وهبة. وفي الصورة المؤلف بين الأمير محمد وحافظ وهبه.



الأمير فيصل بن عبد العزيز يوقّع على وثائق الأمم المتحدة بحضور الأمير فهد بن عبد العزيز وعبد الله الفيصل ونواف بن عبد العزيز وعلي زينل.



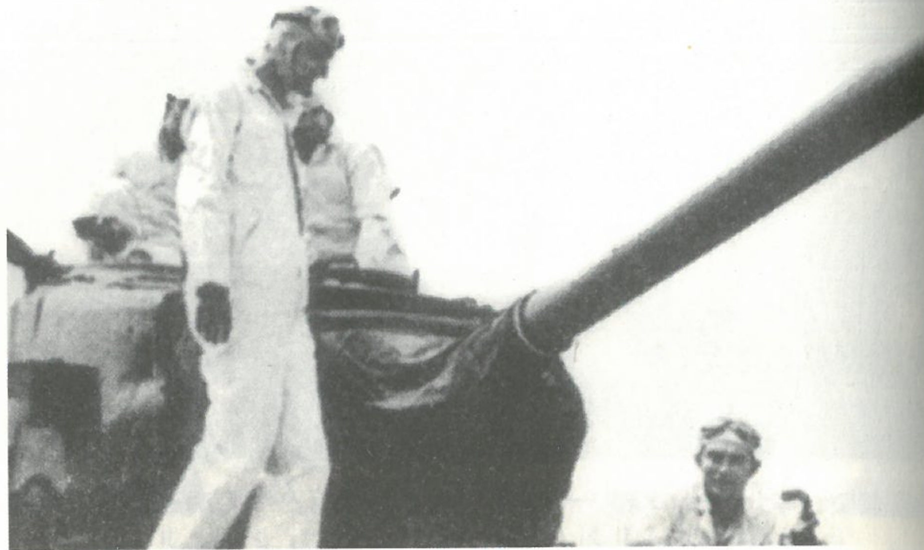
حافظ وهبة يتوسط الأميرين فيصل بن عبد العزيز وفهد بن عبد العزيز - سان فرانسيسكو.



الأمراء فيصل ومحمد وفهد مع بعض مدراء شركة أرامكو في سان فرانسيسكو عام 1945م



الأمير فيصل بن عبد العزيز والأمير فهد بن عبد العزيز والأمير نواف إلى مائدة شركة البترول.



الأمير فيصل بن عبد العزيز بالزيّ العسكري - 1945م



قائد فرقة الدبابات الأميركية يرحّب بالأمير فيصل بن عبد العزيز - 1945م



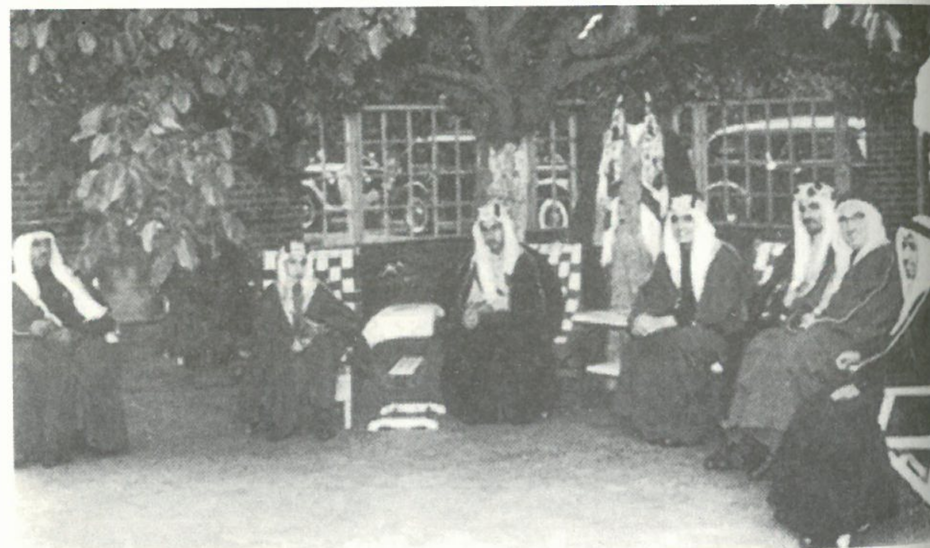
الأمراء فيصل ومحمد وفهد ونواف أبناء الملك عبد العزيز والشيخ علي رضا، سفير السعودية في واشنطن، وحافظ وهبة وعبد الله السليمان ورشاد فرعون وخليل الرواف - سان فرانسيسكو - 1945م



الأميران فيصل بن عبد العزيز وفهد بن عبد العزيز وعلي رضا مع بعض الأميركيين. سان فرانسيسكو - 1945م



الأمير فهد بن عبد العزيز وعن يمينه الأمير نواف بن عبد العزيز، وعن يساره خليل الرواف. ويظهر بعض مرافقي الأمير فهد - سان فرانسيسكو - 1945م



الأمير نواف بن عبد العزيز والأمير عبد الله الفيصل والأمير فهد بن عبد العزيز ورشاد فرعون، ومرزوق الريحان واقفًا. سان فرانسيسكو - 1945م.



الأمير فهد بن عبد العزيز ومعه فواز الشعلان وفاعور الفاعور وحسن الأطرش،
وهم أعضاء في البرلمان السوري - سان فرانسيسكو 1945م



الأميران فهد بن عبد العزيز وعبد الله الفيصل وفواز الشعلان،
ويقف خلفهما المؤلف - سان فرانسيسكو 1945م



الأمير فهد بن عبد العزيز وعن يساره الأمير عبد الله الفيصل وخليل الرواف
وعن يمينه رشاد فرعون. فندق كليبر - سان فرانسيسكو 1945م



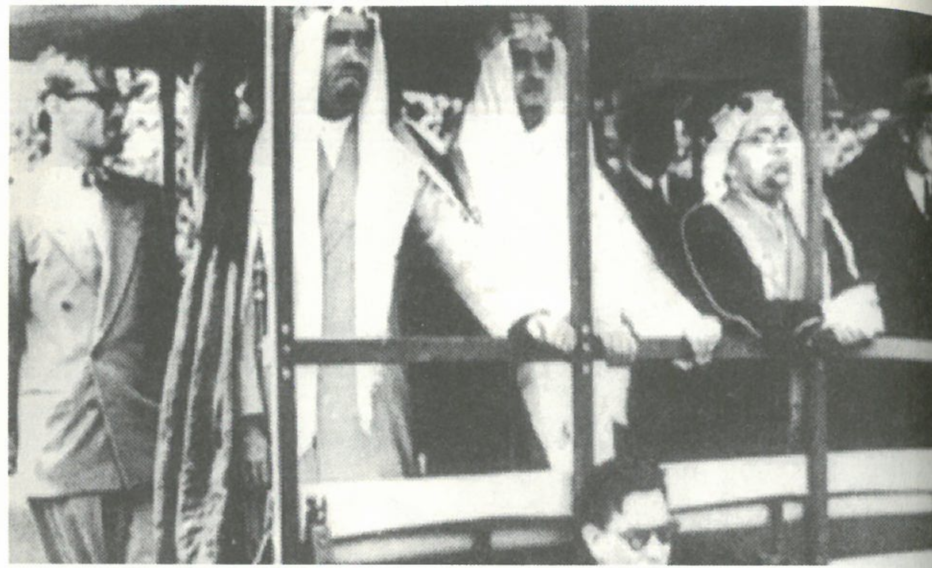
الأمير فهد بن عبد العزيز وخليل الرواف مع أحد الأميركيين عام 1945م



الأمير فهد والأمير عبد الله الفيصل والأمير نواف بن عبد العزيز
وخليل الرواف ورشاد فرعون كليفورنيا 1945م



الأمير فهد على ظهر إحدى الدبابات في سان فرانسيسكو 1945م



الأمير محمد بن عبد العزيز والأمير فهد بن عبد العزيز
وحافظ وهبة وخليل الرواف (يسار الصورة)



الأمير نواف بن عبد العزيز والشيخ ابن شعلان والمؤلف
وعلي حسن الأطرش - سان فرانسيسكو 1945م



الأمير فهد والمؤلف في شوارع سان فرانسيسكو 1945م



الأمير نواف في زيارة لمدرسة أطفال أميركية - 1945م



الأمير نواف مع أحد موظفي شركة آرامكو 1945م



الأمير نواف بن عبد العزيز مع ذياب الجوهر ومرزوق الريحان - 1945م



المؤلف والأمير نواف بن عبد العزيز - 1945م - سان فرانسيسكو



الأمير فهد بن عبد العزيز والأمير نواف بن عبد العزيز والمؤلف وصالح العباد



المؤلف مع الأمير عبد الرحمن بن عبد العزيز في نيويورك
وفي الصورة مرزوق الريحان واثنان من مرافقي الأمير



الأمير عبد الله الفيصل وبجانبه ذياب الجوهر ويقف المؤلف خلفهما
سان فرانسيسكو 1945م



الأمير نواف بن عبد العزيز في منزل المؤلف في نيويورك عام 1945م
وبيده مجلة لايف التي ظهر على غلافها الملك عبد العزيز



الأمير عبد الله الفيصل ونواف بن عبد العزيز
وسليمان عقيل، ويبدو المؤلف واقفاً - 1945م



الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز
في منزل المؤلف في نيويورك 1946م



المؤلف يقف بين الأميرين فيصل بن عبد العزيز
وخالد بن عبد العزيز - نيويورك 1945م

الفصل الثالث عشر

مشروع بناء مدينة للمسلمين في فلوريدا

مضت ثلاثة أيام على مغادرة صديقي عبد الحي عامر للولايات المتحدة، كنتُ خلالها أشعر بالراحة، وماذا عساي أن أعمل في هذه المدينة التي لا مجال لغير المُجِدّ الكادح للإقامة بها؟ وكانت نفقات الفندق باهظة، ولم يكن لديَّ من المال سوى النزر القليل، ولم يكن بإمكاني حتى فتح محل صغير يعود عليَّ بفائدة قليلة تحول بيني وبين سؤال الناس العون وهدر ماء الوجه، ولقد كنت آنذاك في مقتبل الأربعينيات من العمر محتفظًا بحيويتي ونشاطي، ورأيت أنه ليس أمامي إلّا أن أعمل مستخدمًا لدى واحد من التجار العرب، حتى يهيّىء الله من أمري مخرجًا.

غادرت الفندق متوجهًا إلى إحدى ضواحي نيويورك، وقصدت حي بروكلن أفتش عن غرفة أسكنها بدلًا من الفندق الذي تطلّب السكن فيه كمية من المال لم يكن بمقدوري تحملها، وكان كلُّ ما تبقّى معي بضعة دولارات فقط، وكانت المعيشة في هذا الحي لا تتطلّب نفقات كثيرة، ووجدت السكن وعُدت إلى الفندق وأخذت أجمع أمتعتي وفي تلك الأثناء رنّ جرس الهاتف، وكان المتحدِّث شوقي بك، قنصل مصر، حيث خاطبني قائلًا: إذا لم تكن مشغولًا أرغب في حضورك إلى القنصلية، وتوجَّهت إلى هناك فوجدت لدى القنصل أحد الأميركيين الذي قدّم نفسه بالسيد أفنس، وأخبرني القنصل أن المستر أفنس لديه خيول عربية سيعرضها في مدسن سكوير غاردن، حيث إن المعرض العالمي للخيول سيفتح أبوابه بعد أيام قليلة، فهل لك أن تمتطي أحد الخيول في هذا المعرض؟ وهناك جائزة مالية ستُعطى للمتفوقين، فإذا كنت أحدهم فإن المستر أفنس سيتنازل لك عنها.

لم أقبل العرض لعدم معرفتي بهذا المعرض، وظنًّا مني أنه مثل بقية معارض البلاد، وهنا غادَرَنا السيد أفنس قائلًا: هاك العنوان إذا غيَّرت رأيك بإمكانك

الاتّصال بي. وبعد مغادرته شرع القنصل يحدِّثني عن المعرض ويبيِّن لي أهميته وقال: إنني لا أرى مانعًا يحول دون إجابتك لهذا المطلب، إن أصحاب الخيول هم من عليَة القوم ولهم مكانتهم الرفيعة في هذا المجتمع وسيمتطون خيولهم بأنفسهم، إنهم سيجلبون خيولهم من جميع الولايات المتحدة الأميركية، ومن المكسيك، وكندا، وحتى من لندن للمشاركة خصيصًا في هذا العرض الدولي، وسيقام احتفال فخم في اليوم الأول من افتتاحه، وسيحضره خلق كثير من مختلف الطبقات والجنسيات، وهذه فرصة أمامك لا تَدَعها تفلت من يديك، لو لم يكن لك فيها فائدة إلّا التعرُّف على بعض الرجالات كنتَ من الرابحين، هذا عدا نفقاتك اليومية وما تتطلّبه من مسكن ومطعم الذي سيتكفَّل به السيد أفنس، ولو لم تكن عزيزًا على الصديق عبد الحي عامر، الذي أوصاني بك، لَما وقع اختياري عليك دون سواك، فوافقتُ على الفكرة واتَّصلت بالسيد أفنس وأخذني في صبيحة اليوم التالي إلى حيث كان يسكن في فندق برنسس جورج في الشارع الثامن والعشرين بين الأفنيو الخامس ومدسن أفنيوان، مدسن سكوير غاردن من الملاعب الواسعة في مدينة نيويورك، تمارس فيه الألعاب الرياضية كافَّة، كمباريات التنس والملاكمة والمصارعة والقفز والتزلُّج على الجليد، وتُعرَض فيه الألعاب البهلوانية والحركات الرياضية، كما يستأجر كمعرض للسيارات والآلات الزراعية القليلة وغير ذلك من أنواع المعارض التجارية والاقتصادية، وكان لدى السيد أفنس حصان عربي أصيل وفَرَسان عربيتان، فروَّضت إحداهما حتى لانَ قِيادها، وظهرت من أرباب الخيول في المعرض مرتديًا ملابسي العربية، لكنني لم أوفَّق بنيل الجائزة المالية، فقد كانت من نصيب السيدة وليم بين ماكول، فقد فازت على عشرين فارسًا كنتُ من جملتهم ولكنني كما يُقال: «لم أخرج من المولد بلا حمص»، فقد نُشِرت صورتي في اليوم الثاني في أول صفحات ثماني صحف تصدر في نيويورك، وجاء في جريدة ورلد تلغراف بقلم المحررة بتريكا كوفن وصفٌ لي بشكل دقيق، وكان ممّا قالته: «إنه لجذاب يلفت الانتباه إليه، كما تلفت السيدات المتحليات بالجواهر والفراء الانتباه، لقد استولى على لُبهن وهنَّ يشاهدن العرض ليلًا».

بعد عشرين يومًا انقضت على هذا العرض تلقَّيت رسالة من صديقي عبد الحي عامر يقول فيها: كنت لا أصدِّق عيني ولا أذني عندما بانت صورتك وظهر اسمك الكامل في جريدة الأخبار السينمائية لدى دخولكم معرض نيويورك العالمي في مدسن سكوير غاردن، عساك قضيت وقتًا جميلًا في أروقته وتحت سقفه الشامخ؟

دام عرض الخيول المختلفة في مدسن سكوير غاردن مدَّة أسبوعين، وقد أحرزت خيول المكسيك قصب السبق في قفز الحواجز، وجاءت خيولها في الترتيب الأول في هذا السباق، وكانت الخيول الكندية هي الأولى بين خيول الجرّ الفردية للعربات، وكان منظرها جميلًا رائعًا، وكانت لبقة في جريانها وحركات أيديها واستقامة رؤوسها.

نالت الجياد الإنجليزية والأميركية جوائز عديدة في الفروسية وكانت الشرائط الزرقاء التي أشارت إلى أوائل الجياد الفائزة ترفرف بزهو على نواصيها.

خامرني بعض السرور عندما علمت أن جورج واشنطن الرئيس الأميركي الأول وأبا الشعب الأميركي كان يفضِّل امتطاء صهوة حصانه الأبيض العربي الأصيل ولا سيما في الاحتفالات الرسمية، وقد تملَّكتني الدهشة عندما عرفت أن ثلاثة عشر ألف رأس من الخيول العربية الأصيلة منتشرة في أنحاء الولايات المتحدة الأميركية، وذلك حسب إحصاء عام 1357هـ (1938م).

اجتمعت في بعض الأحيان مع أرباب الخيول وكان يذهب بنا الحديث نحو البلاد العربية، وكنت اتَّخذها فرصة لأتحدَّث عن العادات والأخلاق العربية وإلى تبيان ما وصلت إليه بلادنا من تقدُّم اجتماعي وأدبي ووعي سياسي، ولم يَخْلُ الأمر من ذكرٍ للتاريخ العربي وماضي مجد الأبطال وسؤددهم يوم دان للعرب نصف الكرة الأرضية، وذلك خلال أقل من مائة سنة، ففي تلك الأثناء تشرَّبت نفوس الملايين من البشر مبادىء الإسلام، واعتنقت شعوب كثيرة ما جاء به الإسلام من عقيدة للتوحيد خالصة رغبة منها لا قهرًا ولا إجبارًا، فقد آمن العرب بمبدأ «لا إكراه في الدين» وطبّقوا مبادىء الشورى والديمقراطية ممّا كان له أبعد الآثار.

كنت خلال ذلك كله أستشهد بأقوال بعض كتَّاب الغرب من أمثال هنري دي كسترا، وغوستاف لوبون وودسن، وقال آخرون: إن فتوحات العرب في دولة

الإسلام من القرن السابع حتى القرن الخامس عشر تُعَدُّ إحدى عجائب التاريخ، ومن المدهش أن يصبح العرب عنصرًا فاتحًا وأن يصيروا سادة نصف العالم في مائة سنة، بينما قضى الجرمانيون ألف سنة لمّا فتحوا الإمبراطورية الرومانية حتى قضوا على التوحُّش ونهضوا لإحياء العلوم.

كان من بين هؤلاء القوم الذين تبادلتُ الأحاديث معهم رجلٌ في الأربعين من عمره، فنهض قائمًا، وقاطعني بقوله وهو رافع صوته: إن المسلمين استعملوا العنف والقوة وسلطوا سيوفهم على رقاب الشعوب أثناء حروبهم، وأجبروا الشعوب على اعتناق الإسلام.

فقلت له: هوِّن عليك أيها الرجل إن مجلسنا هذا ليس بمجلس مناظرة وجدال، وعلى كل حال أترُك الكاتب الفرنسي هنري دي كسترا يردُّ عليك إذ يقول: إن أتباع محمد هم وحدهم الذين استطاعوا الجمع بين الرفق في معاملة مغلوبيهم والرغبة في انتشار دينهم. وجاراه بذلك الكاتب الفرنسي الشهير غوستاف لوبون إذ يقول: ما عرف التاريخ فاتحًا أرحم من العرب.

إنهم هُم الذين أتوا أوروبا بما أتوها به من مدنيّة أنعشتها الماديات والعقليات والأخلاق.. وهم وحدهم الذين فازوا بنشر المواد الجوهرية عن المدنية، وأعني بها الدين والأوضاع والصنائع بين عناصر جديدة من غير عناصرهم، وإذا نظر المرء في صنائعهم وفنونهم لا يسعه إلّا الاعتراف بأنه كانت لهم ميزة خاصة لم تبلغها أمة.. وقد اضمحلّت دول العرب، ولكن أعظم عناصر مدنيتهم وهي: الدين واللسان والصنائع لا يزال حيًّا قائمًا.. وإذا قِسْتَ العرب بالشعوب الأوروبية الحديثة أمكنك أن تقول: إنهم من حيث العقل والأخلاق أسمى مكانة من كل الأمم التي عاشت قبل النهضة، وقد فاقوا بأخلاقهم أجدادنا بكثير. تلك شهادة لوبون الفرنسي غير المسلم.

كان الرجل الذي يناقشني مغاليًا في أقواله غلوًّا كبيرًا، فحاولت أن أستَلَّ منه هذه الضغينة، أو أخفِّف حدَّة غضبه، فلم أوفَّق، وأصرَّ على ما كان يعتقده عن العرب والإسلام إذ تلقّى معلوماته من أحد أساتذته عندما كان تلميذًا في جامعة كاليفورنيا، فبهذا أجابني، وأردف قائلًا، كلٌّ له رأيه ومعتقده، فأجبته إن كنت

تعتقد ذلك فلك حرية الاعتقاد، ولكلٍّ منا شرعته ومنهاجه وله أن يعتقد ما يريد فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1].

السيد أفنس، صاحب الخيول العربية، إنجليزيّ في الأصل جاء من البلاد الكندية، وكان يَمُتُّ بصلة من القربى بعيدة للأسرة المالكة في بريطانيا وكان لديه قطعة أرض فسيحة في ولاية فلوريدا تبعُد ميلين عن بلده دونيدن، وقد فاتحني بعزمه على إقامة مدينة على أرضه تأخذ الطابع العربي وأنه سيقوم ببناء مصانع خفيفة فيها، ويرغب في أن يسكنها مَن أراد من أبناء العروبة المقيمين في الولايات المتحدة، وستكون هندسة بناء هذه المدينة حسب الطراز الشرقي العربي، وقد دعاني لقضاء فصل الشتاء في فلوريدا ضيفًا عليه وأردف قائلًا: إن فصل الشتاء من أجود فصول السنة في فلوريدا، فهل لك أن تقضيه في ربوعها الجميلة؟. وكنت ما أزال مغرمًا بحب الأسفار فقبِلت دعوته، وقبل أن نغادر نيويورك إلى فلوريدا تلقّيت دعوة من مذيع الراديو المشهور لولا تامس، لتناول الغداء في نادي الأخبار الإعلانية الذي كان يرأسه، وكانت مهمّة هذا النادي القيام بالإعلانات والدعايات لكثير من أصحاب المصانع والشركات التجارية. وكان من عادات هذا النادي قيامه في مطلع كل أسبوع بتوجيه الدعوة إلى رؤساء الجامعات والكليات والأطباء، وبعض محرري الصحف والأدباء والفنانين مع بعض رؤساء البنوك، ولقد كانت هذه الدعوة خليطًا جمع مختلف الطبقات. وكان لولا تامس من مواليد مدينة بيروت عاصمة لبنان، ولد هناك يوم كان والده موظَّفًا في السفارة الأميركية في لبنان، وكان من سنن هذا النادي أن يختار رئيسه واحدًا أو اثنين من ضيوفه يُلقي عليهم بعض الأسئلة المتعلِّقة فيما يمارسونه من أعمال، وذلك بعد تقديم إعلان ما عن أحد المصانع أو الشركات التجارية، وكان ذلك كله يحدُث على موجات الأثير وقد دُعيتُ إلى منصة الإذاعة ووجِّه إلي أسئلة كثيرة تعلَّقت بالمملكة العربية السعودية ومليكها المغفور له عبد العزيز، فأجبت قائلًا:

كانت بلادي التي تُعرف اليوم بالمملكة العربية السعودية تَدين بالحُكم لعددٍ

(1) سورة الكافرون، الآية: 6.

كبير من الأمراء ومشايخ القبائل، وكان أهلها متفرّقي الكلمة مختلفي الآراء، لكلِّ مقاطعة فيها أمير يحكم بأمره لا مُنازع له في سلطته، وكان الخصام بين أمرائها لا يوقفه إلّا امتشاق الحسام فدومًا تنشب بينهم حروب لا يفتُر أوارها، ولا يخبو سعيرها، لقد كان الدم يُسفك يوميًّا في جزيرة العرب بسبب الاشتباكات بين سكانها فيما بينهم في حروبهم الأهلية وغزواتهم وغاراتهم على مواشيهم وأمتعتهم.

بقيت هذه الأحوال سائدة في بلادي إلى أن قيّض الله لها رجلًا منها عُرف بصلابة العقيدة وقوة الإيمان، أخذ يستخدم ما أوتيه من حنكة سياسية ودراية إدارية، فلَمَّ شملها المبعثر وجمع كلمتها المتفرقة، وما لبث أن دانت له بالطاعة، فأحلَّ الإخاء محلّ الحروب والوحدة محلّ التمزُّق، وباتت وحدتها متينة محكمة، واستتبّ له الأمر في ربوع جزيرة العرب، فعزَّز دور العلم، وأرسل البعثات العلمية إلى الأقطار العربية والبلدان الغربية، وأحكم ربط أطرافها بشبكة من المحطات اللاسلكية جميع العاملين فيها عربًا وسعوديين، كما عبَّد الطُّرق وسهَّل شؤون المواصلات واعتنى عناية خاصة بالصحة العامة.

تُشرِف حكومته على أعمال البعثات الفنية لاستخراج كنوز البلاد. وأمّا ما حقّقه من العدل والأمن في ربوع المملكة فقد صار مضرب الأمثال، وبات معلومًا لدى الخاص والعام والقاصي والداني.

صلاته مع الممالك ومع دول العالم أجمع، فهي كما هو معروف ومتداول بين الجميع صلات صداقة متينة قائمة على الاحترام المتبادل وحفظ الحقوق.

عَرَف القرن العشرون زعماء كثيرين قاموا في مختلف بلدان القارات الخمس وإذا قارنّا بين أعمالهم وبين ما قام به هذا الملك العظيم نجده رجل القرن بلا منازع، أوجد دولة فتيّة جديدة، أوجدها من العدم، فالزعماء الآخرون ملكوا عند نهوضهم ببلادهم حكومات وإدارات وجيوشًا مدرّبة وأسلحة وأموالًا وموظفين وإداريين وشعوبًا مستقرة وضرائب تجبى، أما عبد العزيز فقد قام بمفرده، جاء من المنفى وليس معه جيش ولا لديه حكومة ولا مال ولا ضرائب، فأسَّس دولة مترامية الأطراف، ووطَّن شعبًا موحدًا، وأقام حكومة، وبنى حتى باتت تحتل المقام الأعلى بين الدول، هذه هي الزعامة الحقيقية، وعبد العزيز يستحق أن يُقال عنه رجل دولة بكلِّ ما تعنيه هذه العبارة.

صفَّق المستمعون بعد انتهائي من كلمتي ولم يكن تصفيقهم مجاملة لي ولكنه كان استحسانًا لِما سمعوه عن الملك عبد العزيز، وكان الشيخ سليمان بدور، صاحب جريدة البيان النيويوركية، يستمع على الراديو لكلمتي وقد سجَّلها وتولّى في اليوم التالي نشرها في جريدته العربية.

غادرنا بعد أيام قلائل مدينة نيويورك إلى فلوريدا - بلاد التماسيح والمياه الدافئة - وذلك بصحبة السيد أفنس وخيوله الثلاثة، وقد نقلتنا السيارات إليها، وكانت الرحلة قصيرة الوقت وممتعة معًا، وتوقّفنا في طريقنا بولاية جورجيا عند منزل السيد كراين، للقيام بزيارته فلم نجده، فواصلنا سيرنا، والسيد كراين، هو الذي أرسل على نفقته الخاصة المنقِّبين عن البترول في المملكة العربية السعودية، وبعد سفر استمر عشرة أيام وصلنا بلدة دونيدن من ولاية فلوريدا، وحلَلْت في نزل (باط كلب أن)، وكانت تديره سيدة طوت العقد الخامس من عمرها وكان مملوءًا بالنُّزلاء الذين قَدِموا مع أسرهم من مختلف الولايات الأميركية لقضاء فصل الشتاء.

لم تكن هذه زيارتي الأولى لولاية فلوريدا، فقد سبق أن زرتها منذ ثلاثة أعوام بصحبة قرينتي، وأقَمنا في ربوعها مقدار شهر واحد نتنقل بين بلدانها وقراها، ونتردَّد إلى معاملها وآثارها ونقف على شواطئها الواسعة ومتنزهاتها المنتشرة هنا وهناك وإلى حدائقها الوارفة الظلال، ولكني وقتها لم أندمج ولم أتحدَّث معهم طويلًا كما فعلت في زيارتي الأخيرة هذه، فآنذاك كنّا نتحاشى التقرُّب من الناس السكان ونلجأ إلى الغابات والأحراش والشواطىء نقضي فيها الأيام والليالي آمنين، أمّا في هذه الزيارة فقد اندمجتُ مع المواطنين وأتيح لي التعرُّف على العديد من سكان الولاية ومن زوّارها من الولايات الأخرى، وهكذا أضفتُ إلى معلوماتي السابقة الشيء الكثير عنها، وعرفت الآن السبب الذي يجعل الناس يتوافدون إلى ربوعها، فقد تحدَّثت مع بعض الزوار مطوَّلًا وكان لديّ متّسع من الوقت للاختلاط بالناس وزيارة المعاهد والنوادي ودور الصحافة والملاهي وبيوت السمر والمرح.

نزلت في صبيحة أحد الأيام إلى حديقة الفندق، أتمشى في دروبها الضيقة المزدانة بالزهور الجميلة وأستنشق نسيم الصباح وأمتّع الطرف بالأزهار والورود

القائمة في كل ركن من أركان الحديقة الواسعة، ولفَتَ انتباهي شجرة توت مثمرة من النوع الملوّن، فتوجّهت نحوها وأخذت أقطف ثمارها إلى أن أشبعت رغبتي منها، وعُدتُ أدراجي نحو الفندق وكانت أرضه وسلّمه مكسوة بالسجّاد الأوروبي، وصعدت درجات السلّم حتى وصلت غرفتي في الطابق الثاني، وحانت مني التفاتة إلى الوراء، فكدت أصعَقُ لِما رأيته من آثار تركَها حذائي على السجاد ممّا علق بنعلي من التوت الذي كان متساقطًا على الأرض، فخلعت حذائي وحملته بيدي، ودخلت غرفتي واستبدلته بحذاء آخر، وعدت أدراجي لأتبيَّن موضع أقدامي وما رسمه حذائي على السلم وفي بهو الفندق، وقد خفَّف ارتباكي رؤيتي خادمتين تحمل كل منهما بيدها قارورة بنزين وقطعة قماش وقد شَرَعتا بتنظيف الآثار، وعندما اقتربت منهما ابتسمتا وقالت إحداهن: لا بأس عليك، وقالت الثانية لا تهتم سنتولى التنظيف حالًا، فنقدتهما ما كان في جيب سترتي من دولارات فشكرتاني.

بعد هذا الحادث كان يقدَّم لي مع الفطور كل يوم صحن من ثمار التوت وذلك لمدة عشرة أيام لكي لا أذهب للحديقة مرة ثانية حتى لم يَبْقَ على الشجرة من ثمر، وكنت أتناول بعض ذلك ولا أكثر منه شعورًا مني بالارتباك والحياء، ولقد بقيت مدة طويلة بعد ذلك أشعر بالخجل كلّما تذكرت ذلك الحادث.

كانت الأرض المقرَّر بناء المدينة العربية عليها تَبعُد مقدار كيلومترات عن الفندق وفي الأربعة أشهر التي أمضيتها في الفندق كنت أمتطي صهوة الفرس راش أمام جماهير من المتفرجين، ذلك أن الناس قرأوا في صحف الولاية عن مشروع إقامة مدينة عربية، وتخلَّل العرض خمس دقائق تُدار أثناءها القهوة العربية مع التمر والحليب على المتفرجين، وهم يصغون إلى شروحي حول المشروع المزمع إقامته وأحاديثي عن الخيول العربية وأصولها وطباعها وعن عادات العرب وحضارتهم وتقديرهم للحرية وعن تاريخهم وفتوحاتهم وما أشادوه في الأندلس وغيرها، وكان بعض الجمهور يصغي بكلٍّ انتباه لما أقوله وبعضهم الآخر يكتفي بتناول القهوة والحليب والتمر. وكنت أتولى هذا العمل أربعة أيام من كل أسبوع قرب زوال الشمس وخَصَّصت الأيام المتبقِّية وهي الخميس والجمعة والسبت لزيارة المدن والقرى المجاورة وتلبية دعوات النوادي والجمعيات.

كان من بين الدعوات التي تلقّيتها دعوة من المدرسة الثانوية في سان بترسبورغ، فقد أقامت هذه المدرسة حفلًا ليليًّا في ملعبها الرياضي الواسع وقد طلب مني التحدُّث عن البلدان العربية وأن أمتطي أحد الجياد في ملعبها المذكور، فلبَّيت الدعوة والطلب أيضًا.

بعد أن قام التلاميذ بتمريناتهم وألعابهم الرياضية وما تخلَّلها من قفزٍ وجري امتطيت أحد الجياد، وبينما كنت أقوم ببعض الألعاب والتدريبات الفروسية والفرس تعدو بي عدوًا سريعًا. وجدت نفسي مطروحًا على الأرض والفرس إلى جانبي دون حراك، فضجَّ المشاهدون ولم يُصِبْني أدنى أذى، ونهضت مسرعًا واعتليت ظهرها ثانية، وقلتُ للمشاهدين إن الجياد الأصيلة إذا وقع فارسها أرضًا، لا تتركه، بل تقف إلى جانبه، فظنَّ الجمهور أنني وقعت عمدًا وبسابق إصرار، وفي اليوم التالي ذكرَت صحف المدينة ما حدث في أول صفحاتها ووصفت الحادث وقالت إنني وقعت عمدًا لكي أدَعَ المشاهدين يرون أصالة الخيول العربية. ولكن الله وحده يعلم أنني لم أُلْقِ بنفسي عمدًا عن ظهرها، بل الفرس طرحتني دون أن أدري كيف كان ذلك. ودخلنا صالة السينما وعُرِض فيها فيلم عربيّ اسمه وداد وقبل العرض تولَّيت إلقاء كلمة عن البلدان العربية فعرَّفت بجغرافيتها وبعادات أهلها، وكان للمملكة العربية السعودية القسط الأوفر من هذه الكلمة.

في الختام طلبتُ من التلاميذ الحاضرين وكان عددهم لا يقلُّ عن أربعمائة طالب وطالبة أن يكتب كلٌ منهم خلاصة لا تتجاوز عشرة أسطر لِما سمعوه مني ووعدتُ أن أقدِّم جائزة مقدارها عشرة دولارات للفائز الأول، أي لأحسن كاتب، وفهَّمتُهم أنّ القصد من ذلك هو اختبار مقدِرتهم على الاستيعاب، وكانت أحسن رسالة تلقَّيتها من الآنسة بيجي لميورث وقد تسلَّمت جائزتها في الشهر التالي، إذ اعتادت المدرسة على إقامة حفل كل شهر.

يقطن فلوريدا أوقراها جماعة من عرب لبنان وسورية وفلسطين، وهم منتشرون في كلٍّ من المدن التالية: كليرووتر، سانبتر، سبورغ، ميامي بيتش، تامبا، سراسوتا وجاكسن فيل. وكنت أحظى برؤية بعضهم بين الحين والآخر، وركنتُ لصحبة واحد منهم، كان عربيًّا صرفًا شهمًا كريم الخلق، سخي الكفّ، معتدًّا بنفسه من

الطراز الأول، لبناني المولد، متزوجًا وله ولدان وكريمة كانت في الرابعة من عمرها، وكان من المولعين بتاريخ العرب يحفظ كثيرًا من قصصهم وأخبارهم، مغرمًا بالعزف على الناي الذي ينقله معه، كأنه ظلّه لا يفارقه أبدًا أينما ذهب وحينما توجّه، إنه الصديق جورج عيد الذي ربطتني به أواصر متينة من الصداقة ظلّت قائمة حتى يومنا هذا، وقد زار لبنان وذهب إلى دمشق فسأل عنّي وتعرّف على أفراد أسرتي، ولم أكن يومئذٍ في دمشق، بل كنت في المملكة العربية السعودية.

أعدَّ السيد أفنس خارطة للمدينة العربية، وحدّد لها أحد عشر شارعًا وهي شوارع: مصر، لبنان، سورية، فلسطين، العراق، اليمن، الأردن، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، وقسّمها إلى أربعة أحياء رئيسة وهي أحياء: مصر، ولبنان، وسورية، والسعودية. وبعد أن عقد عدّة اجتماعات مع أبناء العروبة في فلوريدا، وانضمّ إلى هذه الاجتماعات نفرٌ من الأميركيين وذلك للبحث في شؤون المدينة المزمع إقامتها، وأرسل السيد أفنس الخارطة إلى المشروع وأُعطي الترخيص.

كان في مدينة بامبيتش نادٍ للقمار اجتمعتُ برئيسه في حفلٍ أقيم في تلك المدينة، فوجّه الدعوة لي وللسيد أفنس لزيارة النادي، فلبّينا دعوته وتوجّهنا في أحد أيام الأحد لزيارة النادي وبعد دقائق قليلة من وصولنا حضر رئيس النادي وأمر لنا ببطاقة تخوّلنا الدخول إليه وطاف بنا في أرجاء النادي وضيّفنا عصير الليمون. كانت هذه أول زيارة لي لمثل هذا النوع من النوادي فقد كان مكتظًّا بالزوار من المقامرين، كلهم التفّ حول الموائد الخضراء، وخيّم عليهم سكون رهيب، فكنت لا تسمع لهم حسًّا ولا همسًا إلّا كلمة (بانكو) التي كانوا يطلقونها بين حين وآخر. والذي رجوته في ذلك الوقت لكلِّ مقامر محترف هو أن يعينه الله ليكُفَّ عن هذه العادة الخبيثة، فإنها الداء الدفين، يتلف الأعصاب ويبدِّد قوى النفس، ويزري بالمرء حتى يفقد السمعة الحسنة التي هي أثمن شيء لدى الإنسان.

أينما ذهبت في الولايات المتحدة، وفي أي مدينة أقمت أو بلدة تجولت فيها تجد أمامك جماعات من اليهود منهم التاجر، ومنهم الطبيب، ومنهم الصحفي، ومنهم المحامي، وقليل منهم العمال، وقد أحدث ما كتبَتْه الصحف عن المدينة العربية وما كنت ألقيه من الكلمات في الأندية والمجتمعات عن البلدان العربية،

وعن تقدُّمها الاقتصادي والسياسي والأدبي ضجّة في الأوساط اليهودية خاصة في ولاية فلوريدا. وبينما كنت جالسًا في بهو الفندق في أحد الأيام، إذ برجلين بملابس مدنية يدخلان الفندق ويتوجّهان إلى مكتب الاستعلامات، ثم تقدّما مني فسلّما علي وجلسا إلى جانبي وأظهرا هويتهما فإذا بهما من رجال شرطة التحرّي، وأخذا يستفسران عن سبب قدومي إلى الولايات المتحدة، ومن أي البلاد من الوطن العربي أتيت، وطلبا مني إبراز الأوراق التي خوّلتني دخول الولايات المتحدة فأحضرت أوراقي من الغرفة وعرضتها عليهما، فتفحّصاها ثم ناولاني إياها وقدّما اعتذارهما قائلين: إن الأخبار التي قُدِّمت إلينا غير صحيحة، وشكراني وغادرا الفندق.

لم أعلم وقتها كُنْهَ الأخبار التي تلقَّياها عني، المهم أنهما وجدا أوراق هجرتي صحيحة وشرعية وأنني أول رجل من المملكة العربية السعودية دخل إلى الولايات المتحدة وفق نظام الهجرة الأميركي الرسمي وقام السيد أفنس ببعض التحريات فتبيَّن له أن جماعة من اليهود الصهاينة أوعزت إلى حكومة فلوريدا أنني جاسوس، وأنني دخلت البلاد دون إذن شرعي، وقد قام الصهاينة بهذا العمل بُغية إيقاف نشاطي العربي وليَحولوا دون إقامة المدينة العربية في فلوريدا، وإثر هذا الحادث قامت معارك صحفية بيني وبين الصهاينة واستخدَم اليهود كل وسيلة ممكنة لتعطيل مشاريعي وقد مَلَكوا الإرادة والقدرة الأمر الذي افتقده العرب.

أضرب هنا مثلًا عن نشاطات اليهود في فلوريدا بالقصة التالية: كان في ميامي بيتش في فلوريدا فندق عُلِّقَ على بابه يافطة كُتبت عليها الجملة الآتية: ممنوع دخول الكلاب واليهود. ولقد رأيت هذه اليافطة بعيني أثناء وجودي في فلوريدا في تلك السنة. وحاول اليهود إزالة هذه اليافطة، وعرضوا على صاحب الفندق مبلغًا محترمًا من المال، غير أنَّه رفض عرضهم، وبقيت اليافطة كما هي تحمل العبارة نفسها، وبعد ثلاثة أشهر أوعز أحد الأثرياء الصهاينة إلى أحد رجال بيع العقارات القيام بشراء الفندق من صاحبه مهما بلغ الثمن، وسلّمه اعتمادًا خطّيًّا بذلك، فوافق هذا الرجل، واشترى الفندق ودفع مبلغًا كبيرًا من المال وبعد شهر هَدَم الفندق وبنى مكانه فندقًا آخر أضخم منه ولم تُعلَّق عليه طبعًا اليافطة القديمة.

ليت العرب تعلّموا الدرس من ممارسات اليهود. ولم تَطُلْ إقامتي بعد هذا في فلوريدا واتَّخذت قرارًا بالذهاب إلى نيويورك، وقبل أن أفعل ذلك أرسلتُ إلى الصحف العربية نداء ضمَّنته فكرة مشروع المدينة العربية، وأوضحت فيه ما هو معتزم القيام به من مشاريع داخل المدينة المزمع إقامتها.

عندما أستعيد صور ذكريات الماضي بغثّه وسمينه، وعندما تداعب أفكاري ذكرى الأيام الخوالي، بخيرها وشرها، لا أذكر أني أسِفتُ على عمل كنت قد قمت به ولم يواكبني التوفيق في تنفيذه، كما أنني لا أذكر أن راودني الحزن منذ مستهلّ شبابي إلى عهد شيخوختي على ما فاتني من طيِّبات هذه الحياة الدنيا وزينتها، ولم أتأسَّف قط على فرصة مرَّت بي وكانت ثمارها دانية دون أن أغتنم قطفها، ولهذا لم أقُلْ ليتني عملت هذا أو فعلت ذاك. نعم لم يراود مخيلتي شيء من هذا القبيل.

من حسن الحظ أو لسوئه أنني سريع النسيان لكلِّ إساءة صدرت بحقّي من قِبَل أي إنسان، كبيرًا أم وضيعًا، ومهما بلغت هذه الإساءة وعظم وقوعها في نفسي حينها لا ألبث أن أنساها، وتتلاشى جسامتها من ذاكرتي، وكثيرًا ما وقع أناس ممّن أساءوا لي تحت تصرفي، غير أن هناك شيئًا قويًّا في نفسي يحملني على الابتعاد عن الانتقام أو القصاص، وأكثر من هذا فربما تجدُني أقف إلى جانب من أساء إليّ إذا وقع في مشكلة ما، فأدافع عنه بكل ما أوتيت من قوة، لا أدري ما يمكن أن أصف به هذا وبعضهم قد يراه مجرَّد غباء صدر عني، أو أنه نتيجة ضعف وجبن في طبعي، والناس أحرار فيما يذهبون إليه من تحليلات، لكن جمهورهم يحبّ مكارم الأخلاق ويقدِّر العفو عند المقدرة وكثيرًا ما كنت أتألّم إذا ألمَّ بمَن أساء إليَّ حادث مزعج، أثَّرَ في صحته أو أفقده بعض ماله أو ولده. ولذلك يخامرني فرح عميق، وسرور عظيم، يوم أعود إلى أحداث الماضي، فأجد نفسي بمعزل عن اعتراض سبيل أي إنسان، أو الوقوف في وجهه، ومن حسن الطالع أنني لا أذكر قطّ خلال حياتي الطويلة أني دنَّست شرف أحد، ولم يبدر مني أيّ اعتداء على أحد سواء في ماله أو شرفه أو عرضه أو كرامته. ولم يداعب مخيلتي محاولة نقل ما سمعته من أفواه بعض الناس من سوء القول وبذيئه إلى من قيلت في حقهم،

مع أن بعض مَن عرفته كان يتلفظ بأقوال يشمئز السامع لها، لتُنقل عنهم، وتبلغ لمن قيلت بحقهم، ومن كرم الله سبحانه وتعالى وإحسانه إليّ أنه لم يجعلني نمّامًا ولمازًا ولا أمارس الوشاية.

الإنسان يسير وفق ما قُدِّر له، وهكذا قدِّر لي أن لا أنال التوفيق لدى مغادرتي فلوريدا إلى نيويورك بمهمّة الاتصال بأبناء العروبة في نيويورك للمساهمة في إقامة المدينة العربية، بعدما رسمت معالمها، ومهَّدت شوارعها، وقام نفر من الأميركيين بشراء بعض قطع من أرضها، لقد كنت آمل أن أجد من العرب مَن يساهم في إقامة هذه المدينة، لكن لم أعثر على واحد أبدى رغبته بالإسهام، ولقد سلَّمت للأمر الواقع ولم أُبدِ الأسف، وهكذا قُدِّرَ أن أسدل الستار على هذا المشروع وأتركه لوقت آخر ربما أكثر مواءمة وأفضل توقيتًا.

في عام 1358هـ (1939م)، أقيم معرض نيويورك العالمي، وفتح أبوابه للزائرين وقد اشتركت فيه حكومة العراق، كان المشرف على الجناح العراقي قنصل العراق الفخري الشيخ مصطفى من عائلة الإبراهيم، وهو تاجر تمور كبير من مواليد البصرة ومن أصل نجدي من مقاطعة القصيم، وقد اتَّصل بي لأعمل مرشدًا في هذا الجناح أتحدَّث للزوار باختصار عمّا يحتويه الجناح من معروضات مع تقديم صورة عن القطر العراقي وعن الجهود المبذولة للقيام به ولرفع شأنه ومستواه، وعمَّا تحتويه بوادي العراق من المواشي والخيول العربية الأصيلة والإبل، وعن التمور وما تصدِّره العراق من هذه الثمرة اللذيذة إلى أنحاء المعمورة، وعن البترول في آبار كركوك والموصل وأنابيبه الممتدّة إلى شواطىء البحر المتوسط. وكان ممّا لفت أنظار روّاد هذا الجناح ما ارتديته من ملابس عربية: عقال مرعز أسود صنع دمشق، وغترة بيضاء صنع حلب، وزبون ملون خياطة دمشق، مفتوح من الأمام يرتدُّ طرفه الأيمن على الأيسر ويُعقد بشريط أبيض تحت الخاصرة وعباءة سوداء مقصَّبة.

حلّيت واجهة المعرض بلوحة كبيرة كُتبت بخط عربي عريض، كما كان من بين المعروضات التي لفتت أنظار الزوار، ولاقت رواجًا كبيرًا أدوات الزينة النسائية المصنَّعة من الفضة، وقد أحسنت حكومة العراق صنعًا بإرسالها عاملَين من مَهَرة الصاغة من طائفة الصابئة، فقد أعجب الزوار برشاقة أيديهما وخفّتهما وبراعتهما

بالصنعة فراقبوهما باهتمام أوقات طويلة، ثم بادروا إلى شراء ما أنجزاه من مصنوعات أو ما جلباه معهما من أعمال فضية صُنعت من قبل في العراق.

راقَ للعديد من الروّاد لهجتي بالإنجليزية في قش عربية، وفي تلك الأثناء تعرَّفت إلى فتاة تدعى (جيني ليه) في أواخر العقد الثاني من عمرها وكانت أثناء زياراتها المتكرِّرة للمعرض تصطحب معها أختًا لها تصغرها سنًّا.

دعتني ذات يوم لتناول وجبة العشاء في منزلها قائلة: والدي وخالتي التي هي في زيارتنا بغاية اللطف والظرف، لقد حدثتهم عن المعرض وعنك، فأبدوا رغبتهم في التعرُّف إليك والاجتماع بك والتحدُّث معك فهل لك أن تلبّي دعوتنا، وقبل أن أعبِّر عن موافقتي واصلت حديثها قائلة: لا أكتمك أن خالتي في العقد السادس، وتعتزُّ بثقافتها العالية، فهي تحمل شهادات رفيعة، وتنتمي إلى عدد كبير من الجمعيات الخيرية والنسائية، فلقد مات زوجها قبل عامين، وترك لها عقارات وأموالًا، ولم يكتب لها ولزوجها الإنجاب، ولذلك تبنَّتني، وأنا الآن بمثابة ابنة لها، لي الحق في أن أرثها بعد وفاتها، وأنا أحترمها كوالدة، ولا أقْدِم على أيّ عمل إلّا بعد استشارتها، وما تراه آخذه بالقبول.

كنت موضع الترحيب أثناء تلبيتي الدعوة، ليس فقط من قبل والديها وشقيقتها، بل من خالتها أيضًا، ولم يفاتحني والداها بأي شيء حول معرفتي بابنتهما وصداقتي لها، ولم يعكِّرا صفو أمسيتنا ولا بسؤال واحد، بل أداما الترحيب والتكريم، وذلك بخلاف خالة الفتاة التي كانت تسكن في مدينة أشلاند من ولاية كنتاكي، فقد وجَّهت إليَّ أكثر من ثلاثين سؤالًا كان بعضها محرجًا، وكان لبعضها مغزاه، وقليل منها كان تافهًا ومن ضمن الأسئلة التي سألَتْها، مَن أنت؟ إلى أيِّ الأسر تنتمي؟ كم عدد أفراد أسرتك؟ في أي مدينة من مدن الوطن العربي المشهورة تسكنون، في بغداد أم دمشق، أم القاهرة؟ ما نوعية الأعمال التي تمارسها أسرتكم، هل هم عمال، أم تجّار، أم مزارعون، أم سياسيون، أم أدباء؟ وما هو نوع ثقافتهم ومستواه؟ كم هي المدة التي قضيتموها في ربوع هذه البلاد؟ هل أتيت مهاجرًا أم زائرًا، وإذا كنت مهاجرًا هل فكرت في نيل الجنسية الأميركية؟ هل سبق لك أن تزوّجت وهل لك أولاد، وكم عددهم وما هي أسماؤهم؟ ما هي

الأسباب التي دَعَتْك إلى ترك وطنك والقدوم إلى هذه البلاد؟ هل لك إخوة وأخوات؟ هل هم متزوجون أم لا؟ هل عملت عند أحدٍ كمُستخدم أم لك أشغالك الخصوصية التي تقوم بها؟ هل أنت موظَّف حكومي، وما نوع ثقافتك ومن أين تخرّجت؟ هل قابلت أحدًا من زعماء العالم أو اجتمعت به، ومن تفضِّل منهم؟ ما هو ميولك السياسي، وهل مارسته، من أين لك المال الذي تنفقه؟ ما هي هوايتك؟ وكم هو عمرك الحقيقي؟

لقد طرحَت هذه الأسئلة جميعًا أثناء تناولنا طعام العشاء الذي دام ساعتين ونصف الساعة، والحق أقول إنها كانت برغم كل شيء لبقة في أسئلتها، فقد مهَّدت لأسئلتها بقولها: يبدو حسبما رأيتك، ومن خلال الأحاديث التي تبادلناها قبل الطعام أنك شاب مهذب، رقيق المعشر، فهل لك أن تزيدنا معرفة بشخصِك للاطمئنان عنك والركون إليك والوقوف على أحوالك وميولك ومعتقداتك، فهات حدِّثنا عن نفسك. وشكرتها على حسن انطباعها حولي وقلت إنني مثل بقية الناس أعامل الناس جميعًا معاملة طيبة، أحافظ على صداقتهم وأصون كرامتهم وسمعتهم، وإنني الآن في مقتبل العمر وأرى الدنيا أمامي مفتّحة الأبواب، لذا يخيَّل لي أنَّ بإمكاني الولوج إلى كلِّ فجّ، وأن أطرق كل سبيل مستعينًا بالله الذي أعبده وأدين له بالوحدانية والطاعة، وأرجو منه سداد الخطا والتوفيق، فقاطعتني سائلة: وهل تعتقد أن هناك إله؟ فقلت: نعم، إله واحد لا شريك له، هو خالق كل شيء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وما لبثَت أن مهَّدت لسؤالها الثاني بقولها: كثير من الأسر تحتفظ بأوراق تثبيت انتسابها إلى فحول الرجال كالأمراء والحكّام والزعماء، فهل لأسرتك أوراق محتفظ بها كهذه؟ وقبل أن أجيب عن سؤالها استطردت تقول: لا أكتمك أنَّ أسرتنا تحتفظ بأوراق رسمية، تثبت انتماءنا إلى أسرة محترمة في إنجلترا كما تبيِّن عدد أفراد من تتحدر منهم ونوع العمل الذي يمارسه كل واحد منهم، إن من بينهم العلماء والأدباء والتجار والمزارعين وأصحاب المهن، فهل لك أن تحدِّثنا عن أفراد أسرتك وعن مهنهم التي يمارسونها، وهل هم لا يزالون عربًا رحلًا أم يقطنون في الأمصار؟ فأجبتها قائلًا: كان الإنسان العربي الأول لا يعرف الاستقرار في مكان واحد، وكان كثير الترحال

يجوب الفيافي والقفار إمّا لطلب الرزق أو لحياة أفضل، ولقد قضى الإنسان وقتًا طويلًا وهو يتنقل من مكان إلى آخر إلى أن استقرّ وأخذ يعمل في سبيل حياة مستقرة وفي سبيل ما تطلَّبته هذه الحياة حتى وصل إلى ما هو عليه الآن. إن العرب ينتمون إلى قبيلتين عظيمتين هما عدنان وقحطان، ومع مرور الأيام نبعت من هاتين القبيلتين قبائل انتشرت في شبه جزيرة العرب، وكان من بين مشاهير هذه القبائل قبيلة تميم وإلى تميم تنتمي أسرتي، ولا فخر إذا قلتُ إن تميمًا تتمتّع بتاريخ مجيد ولها شهرة كبيرة وسمعة رائعة طيبة، فتميم - كما يُقال - كانت من أوائل القبائل العربية التي عَرَفت حضارة الاستقرار.

يعرف العرب أنسابهم، وفي كل قبيلة أكثر من رجل متخصّص بأنساب القبيلة ومعرفة أفرادها، ويحفظ ذلك عن ظهر قلب، بالنسبة إلى أسرتي فإنها هجرت حياة البادية والتنقُّل منذ مئات السنين، وأخذت بأسباب حياة الاستقرار واتَّخذت مدينة عيينة موطنًا لها، ويُروى أنّ ثلث سكان هذه المدينة كانوا من أفراد أسرتنا، وكان منهم الوزراء وأصحاب الرُّتب السامية، كما أن بعضهم هاجر من العيينة إلى مدن أخرى داخل جزيرة العرب وخارجها.

يعيش أفراد أسرتنا الآن في بلاد نجد في مدن القصيم وفي مدينة الرياض وقراها وفي اليمن وبغداد ودمشق والزبير والعراق، ففي هذه البلاد الأخيرة جامع كبير يحمل اسم الأسرة، وتضمُّ أسرتنا الآن من يعمل بالزراعة أو التجارة أو العلم، ومن هذه الأسرة ملاك الأراضي والساسة، ولم يكن بينهم وليس بينهم صاحب حرفة، فالعرب يحبّون أن يكونوا حماة للديار يهتمون بالخيل لأنهم أهل سنان وعنان.

ثم سألت أسئلة قصيرة عابرة إلى أن قالت: بلادنا هذه ترحّب بالغرباء القادمين إليها من مختلف أنحاء الأرض، كلٌّ يجدُ فيها ما يجعله يستقرّ فيها، إنها بلاد جميلة جدًّا، فيها من الآثار والمعالم الجميلة الشيء الكثير، ولها متنزهات رائعة منتشرة في كل ركن من أركانها وفي مدنها وقراها، وهي كثيرة الملاهي، وطرق العيش فيها سهلة هيِّنة، وهذا ما جعلها تتربّع على كرسي الصدارة لكثير من بلدان العالم، أوَليس كذلك يا عزيزي خليل؟

لا شكَّ أنَّ المدّة التي قضيتها في هذه الربوع الجميلة تدعُك تشعر معي الشعور نفسه وتؤيِّدني بكلٍّ راحة في أن الأوصاف التي أطلقتها على هذه البلادِ صحيحة وهي أهلٌ لها، فهل لك أن تخبرنا عن المدّة التي قضيتها في هذه الربوع، ومتى وطِئت قدماك تربتها؟

رددت عليها قائلًا: لا شك أن هذه البلاد عظيمة ورائعة الجمال، وهي كما قلت من أجمل بلاد العالم، قد كستها الطبيعية التي وهبها الله إياها بالجمال والكمال بكل ما فيه كفاية، وألبستها حلة زاهية فاخرة رائعة، جبالها مكسوّة بالأشجار ورياضها نضرة ومنتشرة هنا وهناك في كل مكان، مروج خضراء وأنهار كثيرة تنساب في أراضيها الشاسعة تروي مزارعها وحقولها، وفوق هذا كله في هذه البلاد كلّ ما يصبو إليه الإنسان من حرية، يتمتع بها في القول والعمل والعبادة، عدا عن النظام الرائع والإنتاج الضخم والترتيب وغير ذلك ممّا جعلها تتزعَّم بلدان العالم أجمع عن جدارة. والزائر لهذه البلاد، كلّما طالت إقامته في ربوعها ازداد حبًّا لها، وشغفًا بها، وهو يكتشف كل يوم جانبًا رائعًا، وعملًا متقنًا، ممّا يزيده ارتباطًا بها وتعلُّقًا. والوقت الذي قضيته حتى الآن فيها ليس طويلًا، إنه شمل أربع سنوات فقط، تمكَّنت خلالها من الوقوف على معظم معالم البلاد وجوانب نموها وازدهارها ورقيِّها، فقد زرت اثنتين وأربعين ولاية من ولاياتها وتجوّلت في ربوعها.

بعد فراغي من هذه الإجابة قالت ممهِّدة لسؤال جديد: كثير من الناس يُطربهم الحديث عن أميركا وعمّا بها من مُتَع الحياة وبهجتها، ويشوِّقهم إلى الرغبة في زيارتها ما يسمعونه عنها، ومن الناس مَن تَرَك وطنه وقَدِم مهاجرًا إليها سعيًا وراء حياة أفضل، أو هروبًا من اضطهاد ديني أو سياسي، ورغبة بالتمتع بالحرية، فمن أي الفريقين أنت، هل كان قدومك لاكتساب الرزق وتأمين الحياة الأفضل أم كنت مضطهدًا في بلدك؟

أجبتها قائلًا: لقد قَدِمتُ إلى هذه البلاد كمهاجر، ولكنني لست مهاجرًا في حدود معنى هذه الكلمة فأنا حتى الآن لم أقرِّر الاستقرار والإقامة الدائمة في هذه البلاد، علمًا بأنني أول مَن جاء من المملكة العربية السعودية إلى الولايات

المتحدة، وأحمل تأشيرة الهجرة رقم واحد، وقد نِلتُها من القنصلية الأميركية في نابولي، وهناك اتّفاقية معقودة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية تنصُّ بالسماح في كل سنة إلى مائة مهاجر سعودي بالقدوم إلى أميركا.

ليس في بلادي اضطهاد ديني أو سياسي سبَّب هجرتي، وكلُّ فرد من سكان المملكة يعيش في ظلِّ الشريعة الإسلامية، والشريعة تحكم الجميع من أمراء وزعماء ورعية، وكان القصد من قدومي إلى هذه البلاد الوقوف عن كثب على منجزاتها المدنية، مع التعرُّف إلى معالمها والتمتُّع برؤية مناظرها الخلابة وطبيعتها الرائعة ومن ثم العودة إلى الوطن العزيز.

بودِّي أن أخبرك أنني زرت فيما زرته شلالات نياغرا في شمال ولاية نيويورك على الحدود الأميركية الكندية، التي تستهوي النفوس وتأخذ بمجامع القلوب، والمرء يقف أمام منظرها المائي الخلّاب مندهشًا، إذ إنه يرى المياه المتدفِّقة من علوٍّ شاهق، وهي تنصبُّ تحت أقدام هذا المرتفع الباسق، ثم تجري مسرعة إلى ما لا نهاية، إن خرير الماء، لا بل ضجيجه المتواصل ليل نهار يوحي إلى الناظر إليه بالقدرة والعظمة اللامتناهية للخالق عزَّ وجَلّ، وإن رذاذه المنتشر في هذا الجو المطبق وعلى جنبات الوادي الجميل الصاخب يجعل المرء يشعر بالهدوء والسكينة.

من حسن الحظ أيضًا أن مكَّنتني الظروف من الوقوف مذهولًا على حافة الوادي السحيق الرهيب المدعو «غراند كينيان» ونظرتُ في كلِّ طرف من أطرافه وجوانبه وتلاله المنتشرة ومرتفعاته المبعثرة هنا وهناك، فلم يقع بصري على أيِّ حيوان هائل الحجم يتنقل هناك ولا حتى على طير يحوم في تلك الأرجاء، حتى الشجر لم يكن لهذا الوادي فيه من نصيب، وقد شعرت باختلال بالتوازن، فرجعت إلى الوراء وأنا أشعر بشيء من التعب والفتور.

تمتَّعت بولاية أريزونا التي تُثْبِت قِدَمها الأشجار المتحجرة المتكسرة الممتدّة على أرض حمراء منبسطة، ولكم هو رائع ذاك الجسر الحجري الطبيعي فيها، إن ولاية أريزونا - والحق يقال - فيها من المعالم والآثار الهندية الشيء الكثير، وإن متنزه «سافرو» الذي يؤمّه آلاف الزوار ليشاهدوا جماله وروعته مع المدينة القائمة

على مرتفع من الأرض تحت أقدام الجبل حيث أقامت الحكومة الأميركية مركزًا للمرشدين الذين يتحدّثون للزوار عن الهنود الحمر سكان هذه المدينة الهندية الخاوية على عروشها، وعمّا كانوا يقترفونه من أعمال شريرة مثل قَطع الطرقات وسرقة المواشي وسلب الناس أموالهم وأرواحهم. هكذا يزعم هؤلاء المرشدون الحكوميون تسويغًا للموقف الأميركي اللاإنساني من الهنود، وسعيًا وراء تشويه سمعتهم والحطّ من كرامتهم.

رأيت أيضًا في ولاية كاليفورنيا، من المعالم الشيء الكثير وكان من بين ما لفت نظري متنزه «يوسامت» القومي، بمناظره الطبيعية الخلابة وأشجاره الضخمة الباسقة القائمة منذ ملايين السنين، والمنتشرة في واحات وجنبات هذا المتنزه الرائع الجمال، وكلُّ هذا يوحي للإنسان بقدرة الخالق وهو يلمسها بكِلتا يديه ويراها بناظريه، ولقد رأيت الأشجار العملاقة ولقد شُقَّ في وسط إحداها فتحة كبيرة تمرُّ فيها السيارات وهي آمنة مطمئنة، والشجرة هذه لا تزال حيّة باقية شاهقة الطول كما كانت على مرِّ الدهور.

لم أتطرَّق لذِكر المعاهد العلمية لهذه البلاد على اختلاف أنواعها ومسمياتها، وهي المعاهد التي ينهل المعارف منها الطلاب رجال المستقبل ولم أتعرَّض إلى ذِكر الاقتصاد الأميركي وطرق العيش في هذه البلاد والحاصلات الزراعية المتنوعة، والمنتوجات الصناعية والزراعية وما تحويه الأرض من كنوز هائلة. وقصدي من هذا كله التأكيد على روعة هذه البلاد وأنها أفضل البلدان للسكنى والعيش فيها، ومع ذلك فأنا أحبّ وطني أكثر وأمنيتي أن أعود إليه عندما تتهيأ لي الفرصة.

من جديد أخذت زمام الكلام وبادرَت تقول: إنّ دستور بلادنا يخوِّل أي رجل أميركي أن يكون رئيسًا لجمهورية الولايات المتحدة، لا فرق في ذلك بين غني أو فقير في هذا المضمار، ومهما كانت الميول، وتباينت الأهواء، لكلِّ إنسان مهما كان فلَهُ الحق في أن يرشِّح نفسه لرئاسة الجمهورية أو لأيِّ منصب يريد، ونجاحه في ذلك يعود إلى مقدرته ولياقته وكياسته وحنكته ومعرفته، وبلادنا - والحمد لله - غنيّة بالرجال ذوي الخبرة الواسعة والاطّلاع التام على شؤون الحياة. ويتمتَّع

الأميركي بحقوقٍ قَلَّ أن يتمتَّع بها سواه في أيِّ أمة أخرى، ويمكنه القيام بمختلف الأدوار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فهل فكرت يومًا في أن تنال الجنسية الأميركية لتتمتع بهذه الحريات والمزايا؟

جاء جوابي عن سؤالها هذا مسهبًا بمقدِّمات واستطرادات فقلت:

نعم إنني فكرت في ذلك ولا أزال أفكر، ولكنني لم أحاول حتى الآن، والمميزات التي أتمتع بها في الوقت الحاضر لا بأس بها وأنا قانع بها، وبما أنني أوّل قادم إلى هذه البلاد من المملكة العربية السعودية كمهاجر، فإن حملي لتأشيرة الهجرة رقم واحد مهَّد لي السبيل لأطرق كل باب موصد في وجه غيري، فألِجُ فيه، وأسلك سبله، فالشركات الكبيرة ورجال الأعمال والجماعات السياسية ومراسلو الصحف وغيرها من أفراد هذا الشعب العظيم أراهم يرحِّبون بالتعرُّف إليّ والتحدُّث معي، ولا سيما في هذه الأيام بعدما عثر على الذهب الأسود في صحرائنا العربية، وتقدَّمت شركات البترول بعروضها السخية إلى المملكة، وقد حازت الشركات الأميركية على امتياز استخراج البترول وبدأت بالإنتاج. ولقد حاولت كل من اليابان وألمانيا نيل هذا الامتياز، ولكن مليكي عبد العزيز رفض عروضها، واختار الشركات الأميركية لعلمه أنها السباقة في هذا المجال، وهذا كان جواب مليكي لكلِّ مَن فاتحه بهذا الموضوع، ذلك أن العرض الألماني والياباني كان مغريًا جدًّا وأفضل بكثير من عرض الشركات الأميركية.

من هذا يتبيَّن لك الامتيازات التي أتمتّع بها في بلادك وهي عندي في غاية الأهمية، ويصعب عليَّ في الوقت الحاضر التخلي عنها، وإذا حصلت على الجنسية الأميركية، واندمجت بهذا الشعب الذي يقدَّر بمائة وأربعين مليونًا من البشر الذين قَدِموا من مختلف بقاع العالم، فسأذوب بينهم، ولن يُسمَع لي بعدها بحسٍّ أو ذِكر. والإنسان يسعى في هذه الحياة للحصول على أمرين اثنين هما المال والجاه، وإذا قُدِّر له التوفيق في الحصول على المال تراه ينشد الوجاهة، وعددهم كبير هم الذين تعثَّرت بهم أقدامهم فلا ينالون من المال غير الكفاف اليومي، ويحُول الحظ بينهم وبين الوجاهة.

أمّا أنا فلم أحاول بعد جمع المال لأكون ثريًّا وذلك كطريق نحو الوجاهة لقد

استغنيت عن المرحلة الأولى، وأتمتَّع الآن بالوجاهة الكاملة، حيث لم تبرح الصحف اليومية عن ذكر اسمي، ويلتقط مراسلوها أخباري وتنقلاتي، وما انفكَّت الدعوات تتساقط عليّ من الشركات والجمعيات والنوادي.

هنا قاطعتني قائلة: إنني لا أوافقك الرأي حول عدد من الأفكار التي طرحتها، فالوجاهة لا يُكتَرَث بها في هذه الديار، ووجاهة الإنسان مرتبطة بأمواله التي بين يديه، فبقدر كثرتها وحجمها الضخم يُجلُّ ويُحترم.

ربما فكرة الوجاهة كما عرضتها هي مقبولة لديكم معشر الشرقيين، أمّا عندنا فلا، هذا وقد قرأت في أحد كتب الاستشراق قول المؤلف: إن الوجاهة عند الشرقيين أثمن من الغنى ومن وفرة المال، ولكن كما يُقال: لكلٍّ رأيه، ولكل شعب ميوله ومفاهيمه وعاداته وطبائعه وأخلاقه وتقاليده.

هنا تسلمت مجددًا الحديث واستأنفته قائلًا: لا بد أن تعرفي أن كثيرًا من المستشرقين الذين أتيحت لهم زيارة الشرق وكذلك الكتّاب ومراسلي الصحف الذين تسنّى لهم التجوُّل في البلدان الشرقية، هؤلاء جميعًا لم يقيموا وقتًا كافيًا في الشرق، حتى يتمكَّنوا من دراسة طبائع أهله وأخلاقهم، إنهم يمرّون بالشرق على عجلٍ مثلما يمرُّ السحاب، دون أن يكون لديهم الوقت الكافي للوقوف على حقيقة أهل الشرق، لذلك تجدُهم يتناولون في كتاباتهم الصور السطحية دون تعمق أو تحقيق أو تمييز، وهذا الخطأ من قبلهم يَنقل إلى القرّاء صورًا مرفوضة قائمة على أحكام خاطئة.

واسمحي لي أن أوضِحَ هذا بسردِ القصة التالية لحادثٍ وقع لي أول ما قَدِمت إلى نيويورك: نزلت في فندق بلازا، وفي الصباح التالي خرجت من الفندق لأتجوّل في الشارع الخامس والطريق الخمسين، فقد كانت غرفتي تطل على المتنزه العظيم لمدينة نيويورك، ولدى سيري في هذا الشارع أخذت أمتِّع ناظري بالأبنية الضخمة وأعجب من طولها وأنظر على مهل إلى الواجهات التجارية وعروضها حتى قربت من الطريق الثاني والأربعين الذي يتقاطع مع الشارع الخمسين، وهنا فجأة اشتدَّ الازدحام ورأيت الناس يهرعون بسرعة، ووجدت نفسي بين الخلائق المنطلقة دون ضوابط كالكرة بين أرجل اللاعبين، فرجلٌ يدفعني، وآخر يضربني على كتفي

بشدَّة، وثالث يبعدني عن طريقه ورابع يوجِّه إلي السباب والشتائم، وأنا لا أعرف لكل هذا سببًا معقولًا، وهنا قلت لنفسي: ما هذا الشعب، إنه كتلة من الوحوش، شعب ليس لديه أدب أو كياسة او احترام، وإنَّ ما نراه على الشاشة البيضاء التي تصوِّر لنا الأخلاق الفاضلة والعادات النبيلة للأمة الأميركية يختلف كثيرًا عمّا رأيته اليوم في ذلك الشارع العظيم.

لو أنّي رجعت إلى وطني إثر ذلك وقَصصتُ ما حدث لي، أو كتبت ذلك في الصحف والمجلات لكان قولي حقيقة لا ريب فيها، ولكوَّنت في الوقت نفسه صورة سطحية فقد علمت فيما بعد، بعدما توطّدت إقامتي في هذه البلاد، أنني أخطأت بوجودي في ذلك الشارع في تلك الساعة، فقد كان الناس قد تركوا محلاتهم التجارية ومكاتبهم وأشغالهم، ولم يكن أمامهم سوى ساعة واحدة لتناول طعام الغداء ومن ثم العودة إلى العمل.

فإذا أراد أيُّ إنسان أن يكتب عن جماعة من الناس، أو أمة من الأمم، عليه أن يدرس أولًا - بعمق وصبر - عاداتها وأخلاقها ويتعرَّف إلى ميولها وأهوائها، ومن ثم يسجِّل ما يراه وينشره على الناس.

هذه هي مشكلتنا يا سيدتي مع كتابات المستشرقين وأمثالهم، وإذا ما أتيح لك يا سيدتي زيارة الشرق، والإقامة فيه وقتًا كافيًا، ووقفتِ من ثم على عادات أهله وأخلاقهم لغيَّرت رأيك عن الشرق وأهله، ولتخلَّيت عن كتابات مرتزقة الغرب التي هي محشوّة بالكذب والغش والخداع.

هنا تغيَّر لونها، وبدأت علامات عدم الرضا والاستنكار تظهر على وجهها، لكن لم أعبأ بذلك وأتممتُ حديثي بعد أن خفَّفتُ من حدّة لهجتي فقلت: من البديهي أنَّ هذا ليس خطأهم وحدهم، بل هو خطأ الشرقيين أيضًا، لأنهم لم يكتبوا عن أخلاقهم وعاداتهم وعن بلادهم وما تحتويه من خامات طبيعية ومعادن كثيرة لا تحصى، لم يكتبوا في لغة غير لغتهم، فلربّما نجد كاتبًا شرقيًّا أو مؤرخًا عربيًّا كَتَبَ عن الشرق وبيَّن مزاياه في لغة غير لغته، لكن هذا أيضًا لا يكفي، يجب أن يتناول هذا الموضوع عدد كبير من الشرقيين.

عسى أن يتمَّ تدارك هذا الأمر في المستقبل، ومهما يكن من أمر أرجو المعذرة إن كنتُ قد خرجت عن الموضوع.

لم تتنازل عن رأيها وتمسَّكت به بكل إصرار رغم إدراكها أنه مبنيّ على خطأ، وكان شأنها شأن مثيلاتها - لا، بل أمثالها أيضًا - من الغربيين، ولذلك قالت: أما قلتُ لك لكلٍّ رأيه، ثم تابعت تقول متفلسفة: تتطلب الحياة من الإنسان أن يكون قويًّا لبقًا يجاريها ميولها وأهواءها ومن يعترض سبيلها نبذته دون اكتراث ولا اهتمام، أمّا مَن جاراها وماشى ميولها وسار في ركابها نال من امتيازاتها، وحقَّق مطامحه، ثم سكتت قليلًا لتقول: ما لنا ولهذا، لقد أخذنا كثيرًا من الوقت، وأحبُّ فقط أن أسألك سؤالًا واحدًا أرغب أن تصدقني القول فيه، فقلت: هاتِ ما عندك، فقالت: لم يخلق الإنسان ليعيش وحيدًا، بل خلق الله تعالى شخصًا آخر يؤانسه ويواسيه ويشاركه أفراح هذه الحياة وهمومها، فقوام الحياة الزوجان الذكر والأنثى، فهل سبق لك الاقتران بأحد من قبل، وهل لك ذرية؟

في الحقيقة إنها لم تُوفَّق في طرح هذا السؤال، فقد ألقته جافًّا بلا مقدِّمات وبلا وسائل تلطيف، لقد صبَّته عليَّ صبًّا ورمته بوجهي رميًا، ومع ذلك أخذت الأمر بصدر رحب وأجبتها قائلًا: من عادات العرب الزواج المبكر، وهذا ما لم أمارسه على الرغم ممّا له من فوائد وفضائل، فهو يرعى الشاب ويحفظه من التسكُّع في الطرقات ويصون الأخلاق، ولهذا عُدَّ الزواج من العادات الحسنة لما فيه من اكتفاء شخصي.

بيدَ أن تنقلاتي بين البلدان العربية لم يترك لي الوقت الكافي لذلك لم أتزوج مبكِّرًا فأنا منذ أن بلغت الثالثة عشرة من عمري لا أذكر أنني أقمت في مكان واحد أكثر من ثلاثة أشهر، لقد كنت أتنقل بين بلد وآخر، فقد مضى على وجودي في الولايات المتحدة أربع سنوات، زرت خلالها اثنتين وأربعين ولاية، فقالت: إنّك رحالة؟ قلت: نعم، وخلال رحلاتي وقفت على أخلاق هذا الشعب العظيم وعلى عاداته، والآن قد يتسنّى لي أن أكتب عنه، ولن أكون كالكتّاب الغربيين الذين كتبوا عن الشرق وأهله، فأنا شرقي ألتزم بالصدق وقول الحق، ويحقُّ لي الآن بعد خبرة أربع سنوات لا أربعة أيام أن أكتب مشاهداتي، وأعود الآن إلى لبِّ السؤال، نعم

قُدِّر لي الاقتران بسيدة أميركية كنت قابلتها على شاطىء دجلة في مدينة بغداد، وتمَّ الاتفاق بيننا على أن نسافر معًا إلى أميركا، وأن نفترق عن بعضنا في حالة عدم نشوء المودَّة بيننا وفشل زواجنا. وبالرغم من أنني تعلَّقت بها، فقد افترقنا بعد أربعة أشهر من قدومنا إلى هذه البلاد، لقد كانت زوجة مخلصة وطيبة، مكثتُ وإيّاها في البلدان العربية تسعة أشهر قبل أن نسافر إلى أميركا، وكانت أول امرأة ضمّني وإياها فراش واحد، ولم تنجب لي والحمد لله، فقالت: أتحمَدُ الله على حرمانك من البنين؟ قلت: نعم إنني أحمد الله على ذلك، لو رزقنا الله بمولود، ما الذي سيكون عليه مصيره بعد أن نفترق؟ أما كان سيُحرم من حنان أمه، أو من رعاية والده، لذلك حمدت الله، أولستِ ترين ما أراه؟

فأجابتني: إنك تتكلم بلغة لا أفهمها، ولا أرغب مجاراتك في هذا الموضوع.

وما لبثت أن انتقلت إلى طرح سؤال جديد قائلة: يضطرّ المرء في بعض الأحيان إلى ترك وطنه الذي ولد فيه ونشأ، والالتجاء إلى وطن آخر لا يعلم عنه شيئًا، إمّا لزيارة قصيرة أو لهجرة طويلة أو لاقتباس علم، أو جري وراء مغنم، أو لتحقيق فكرة من الأفكار، فما هي الأسباب التي حملتك على ترك وطنك، وهل قَدِمتَ للزيارة وللوقوف على معالم البلاد وآثارها، أم للهجرة والإقامة فيها، وهل والداك ما زالا على قيد الحياة، وهل استشرتهما عندما عزمت على التوجّه إلى هذه البلاد؟

لقد باتَ عليَّ مجددًا أن أسرد لها بعضًا من تاريخ حياتي على الأقل بصورة مقتضبة، وقلت أولًا: لقد أجبتك يا عزيزتي عن بعض هذا السؤال الطويل، وسأعيد بعض ما قلته مع شيء من التوضيحات: إن الإنسان في هذه الحياة مسيَّر غير مخيَّر، تقوده ظروف الحياة إلى ما لا يرغب فيه، فإذا لاحَت له ألقى عليها شباكه، فإذا قدِّر له اقتناصها فذاك، وإلّا عليه أن يصبر حتى تلوح له فرصة ثانية، وكان طموحي وما زال قويًّا منذ نشأتي، ولقد تلقَّيت من العلم ما خوَّلني طرق بعض أبوابه كالتاريخ والجغرافية والحساب، والمحفوظات، وكنت شغوفًا بالمطالعة، وقد سافرت مرارًا إلى البادية لشراء الخيول العربية والإبل، وأنا لم

أتجاوز وقتها الثالثة عشرة من العمر، ولقد جُبْتُ ديار البادية والصحراء الواسعة على ظهور الإبل من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، واكتسبت من سكّان الصحراء قوة البأس، واحتمال المشقّات، والصبر على المكاره، كما تردَّدت إلى الأمصار العربية: نجد والحجاز، وعسير واليمن، والكويت، والمحميّات التسع والعراق وسوريا ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين ومصر، واجتمعت بالعديد من زعمائها.

وفي إحدى زياراتي للحجاز كنت بصحبة أخي الشيخ ياسين الذي عُيِّن قنصلًا للحكومة السعودية في سوريا ولبنان، ثم تحوَّل ليكون معاونًا لسمو الأمير فيصل نجل الملك عبد العزيز، وحينها حلَّ محله في منصبه في سوريا ولبنان شقيقي الأكبر محمد عيد، وقد فاتحني جلالة الملك عبد العزيز بأمر الجيش النظامي الذي ينوي إقامته، وطلب مني أن ألازم سمو الأمير فيصل، فاستأذنت يومها جلالته بالذهاب إلى دمشق لقطع علاقاتي التجارية فيها، فأذِنَ لي، وعدت إلى دمشق، ومنها انتقلت إلى مدينة معان في شرقي الأردن، حيث أوكل إليَّ بعض أقرباء والدتي فتح محل تجاري عملت فيه وكيلًا للتجّار الذين كانوا يقدِمون بمواشيهم وخيولهم إلى شرق الأردن، وكانوا من أهل نجد، لقد جرت عادة هؤلاء التجار النجديين على التوجّه إلى دمشق، لكن اضطراب حبل الأمن في سورية والثورة على الاستعمار الفرنسي ألزمهم التوجُّه إلى معان، وفي أثناء إقامتي في شرق الأردن اجتمعت بأميرها عبدالله بن الحسين.

بقيت في معان عامين فقط وأغلقت محلي التجاري هناك وتوجهت إلى العراق لمطالبة حكومتها بوقف الرواف الكبير في بغداد، وذلك بعدما حصلت على رسالة توصية من الملك عبد العزيز آل سعود إلى الملك فيصل بن الحسين ملك العراق، وأثناء إقامتي في بغداد تعرفت على زوجتي الأميركية في الفندق الذي كنت أنزل به، واتّفقنا على الزواج والذهاب معًا إلى أميركا.

لقد قضى والدي نحبه قبل أن أتوجّه إلى هذه البلاد بخمسة أعوام، ولا تزال والدتي على قيد الحياة، وهي مقيمة الآن في دمشق، وقد عقدت قراني في منزلنا بحضور إخواني محمد عيد وياسين، وصادَقَ على عقد القران السفير الأميركي في بيروت عاصمة الجمهورية اللبنانية.

إنَّ من عادات العرب أن يترك الوالد ولده بعد أن يتجاوز العشرين من عمره، أو قبيل ذلك، ليكوِّن نفسه، ولقد اعتدت أنا على السفر والتنقّل بين الأمصار منذ السنوات الأولى لحياة شبابي، لذلك لم أستشر أحدًا من أهلي عندما عزمت على السفر، مع تقديري أن غيابي لن يطول أكثر من خمسة أشهر.

إنني على اتصال دائم بأفراد أسرتي، بأخويي الاثنين وأخواتي الخمس وبالمناسبة ثلاث من أخواتي متزوجات ولهن أولاد، كما أنني لم أُستَخدم عند أحد، وكنت دومًا أدير أشغالي بنفسي، ومن سوء حظي أنني لم أتخرّج في جامعة، بل اقتصر تخرجي في مدرسة كان فيها خمسة فصول، وكان يهتم بهذه المدرسة عشرة من كبار المعلمين والأساتذة.

ولعلَّ في هذا الإيضاح ما يكفي فهل لديك أسئلة غيرها، إذا كان لديك فأنا على أتمّ الاستعداد للإجابة؟

فقالت: يخيل إليّ بعدما سمعت هذا العرض منك أنّك رحّالة كبير فيك اللباقة والحسّ المرهف، جبت البلاد شرقًا وغربًا وتجولت في كثير من الأماكن التي لم يسبق لكثير من الناس الوقوف عليها أو زيارتها، وأصدقك أنني بعد استماعي لحديثك استصغرت شأن نفسي، فمع أنني أملك عقارات كثيرة وأموالًا ضخمة لم يُتَحْ لي الخروج من الولايات المتحدة، لا بل أكثر من هذا لم أحْظَ بزيارة الكثير من ولاياتها، ولعل السبب هو شعورنا بأنّ كل شيء موجود لدينا، ففي بلادنا المعالم الجميلة والآثار والشلالات والأنهار والجبال المتنوعة، وكل ما يتمنى الإنسان رؤيته، ففي بلادنا ولايات صالحة لقضاء فصل الصيف وأخرى صالحة للشتاء، لذلك ليس هناك ما يدفعنا لزيارة بلاد أخرى، وقد عرفت الآن أنّنا غيرُ محقّين وأن على الإنسان محاولة رؤية العالم والاقتباس ممّا فيه من معارف ورؤية ما يحتويه من آثار ومعالم، ولذلك بِنيَّتي زيارة أوروبا واليابان والهند والصين هذا العام.

يخيَّل لي بعد تجوالك في بلدان كثيرة من القارات الخمس أنك قد اجتمعت بزعمائها وقادتها، فهل حدث ذلك ومَن تفضِّل منهم؟

أجبتها قائلًا: في الحقيقة لم تتح لي الفرصة بالاجتماع بزعماء البلدان

الأوروبية التي زرتها، على عكس البلدان العربية التي تعرفت على زعماء كل بلد زرته، وإنني أفضل من بين هؤلاء الملك عبد العزيز آل سعود، فقد قام هذا الرجل وحده بتأسيس مُلكٍ راسخ الأركان وبتوحيد شبه جزيرة العرب وقضى على التمزُّق والاضطراب، وأحَلَّ الوحدة والأمن والاستقرار والرخاء في بلادٍ لم تعرف ذلك منذ قرون طويلة. لقد رأى هذا العصر وعَرَف عددًا كبيرًا من قادة الشعوب والزعماء ومن هؤلاء: هتلر وموسوليني، وستالين، وروزفلت وتشرشل وغيرهم كثير.

كان الوقت قد تأخّر في تلك الأمسية التي أمضيت معظمها أحاور تلك السيدة الفضولية وأجيب عن تساؤلاتها وأثناء عودتي إلى المنزل كنت أفكر في أمر تلك العجوز التي أكبرتُ ثقافتها الواسعة بالرغم من غرورها وعجرفتها.

الفصل الرابع عشر

نشاطات دعوية ومدرسة للمسلمين في أيوا

مرة ثانية اتَّصل بي قنصل مصر في نيويورك الأستاذ شوقي بك، وطلب مني مقابلته، وعندما فعلت ذلك كان أمامه برقية تناولها بيده قائلًا: هذه البرقية من مدينة كليفلاند بولاية أوهايو، ومن أسرة مذر، أصحاب معادن الذهب، وتطلُب مرسلتها السيدة مذر إخبارها فيما إذا كنت أعرف أحدًا لديه إلمام بأحوال البلاد العربية مع إمبراطورية إيران ليُلقي في منزلها محاضرة عنهما، وترجوني إذا وجدته أن يتَّصل بها هاتفيًّا إذا أمكن ذلك، وواصل حديثه قائلًا: أعرف أن لديك الكثير من المعلومات عن البلاد العربية، فهل تعرف شيئًا عن إيران؟ فأجبته قائلًا: لدي معلومات مفيدة عن إيران بإمكاني أن أجعل المستمعين يصغون لِما أقوله بانتباه، فقال: سأتَّصل بها الآن، وبعد خمس عشرة دقيقة كانت السيدة مذر تتكلم مع القنصل الذي أخبرها عني، فقالت: بعد ثلاثة أيام سأكون في فندق بلازا في الشارع الخامس من مدينة نيويورك.

دخلت الفندق في الموعد المحدد فوجدت السيدة مذر تنتظرني في بهوه، وألفيتها سيدة طوت العقد الرابع من عمرها، تختلف عن غيرها من النساء في الملابس والزينة على الرغم من ثروتها الضخمة، ولم تتحلَّ وقتئذٍ بأيّ مجوهرات لا في يديها ولا في أذنيها ولا على جيدها، ترتدي ملابس بسيطة، ثوب من القطن ملون وطويل يحجب ركبتيها، وبعد التعارف بادرتني بقولها: إنني عضو في نادي السيدات في مدينتنا كليڤلاند، ومن عادة هذا النادي أن يجتمع أعضاؤه في أول كل شهر في أحد المنازل، وسيُعقد الاجتماع المقبل في الشهر القادم في منزلي، وكان ما طلبه مني الأعضاء إحضار من يحدِّثهم عن البلدان العربية، وعن إمبراطورية إيران، وستكون ضيفنا ومحدثنا في هذا الاجتماع، وستصلك تذكرة ركوبك إلى

عنوانك في نيويورك مع بعض التعليمات، وسنكون سعداء بلقائك، فودَّعتها وانصرفت.

توجَّهت في الموعد المحدَّد إلى كليفلاند، فوجدت السيدة مذر قد رتَّبت كل شيء وأعدَّت له عدته، فما أن نزلت من القطار حتى قابلني مدير المحطة وأخذ بيدي وأوصلني إلى سيارة كانت واقفة قرب مكتبه قائلًا: هذه السيارة خاصة بالسيدة مذر، وكان السائق مؤدبًا وأنيسًا، وقد مرَّ بي بأمهات شوارع المدينة، وأوقفني على بعض متنزهاتها، وأراني قسمًا من معالمها، حتى وصلنا إلى قصر السيدة مذر فدخلناه، وكانت له حديقة واسعة جدًّا كثيرة الورود، منسَّقة الأزهار مغروسة ببساط أخضر سندسي، ودخلت القصر فوجدته كتحفة جميلة منسقًا تنسيقًا رائعًا في غاية البساطة بممراته الواسعة حتى دخلنا قاعة الانتظار، وكانت السيدة مذر جالسة هناك مع زوجها، وبعد السلام اللائق والترحيب قدَّمت لنا القهوة التركية بأوان زاهية، وبعد استراحة قصيرة تقدم أحد الخدم إليَّ قائلًا: تفضل لأُريك غرفتك لتأخذ راحتك فيها بعد عناء السفر.

تملّكتني الدهشة لدى دخولي إلى غرفة استراحتي، وكانت صالة كبيرة طولها اثنا عشر مترًا، في عشرة أمتار تقريبًا قائم في منتصفها سرير ضخم يشبه الأسِرَّة التي كان يستعملها نبلاء فرنسا في القرن الثامن عشر، وكان من الجهة الجنوبية للصالة باب مغلق قال إنه باب الحمام، وعندما دخلت إلى هذا الحمام لم تَرَ عيني شبيهًا له أو مثله في أمهات فنادق الولايات المتحدة لا في سعته ولا في أناقته، كانت أرض وجدران وسقف الحمام من الرخام الأسود الذي تزينه الحنفيات ومفاتيح الأبواب والأدوات الصحية الذهبية.

انتظم في اليوم الثاني عقد أعضاء الجمعية، وكان عددهنَّ إحدى وأربعين سيدة، تجاوزت أصغرهن العقد الرابع من عمرها، وكنت الرجل الوحيد بينهن، حتى السيد مذر زوج صاحبة الدعوة لم يضمَّه مجلسنا، وانتقلنا من غرفة الاستقبال إلى غرفة أوسع منها مفروشة حسب الطريقة العربية التي أُعِدَّت خصيصًا لكي تتمشى مع موضوع المحاضرة، مزدانة بمختلف التحف والأشياء الجميلة وورود زاهية في أركان الصالة ويتوسَّط أحد جدرانها صورة كبيرة متخيَّلة لأبي العلاء

المعري، وإلى جانبها صورتان حملت إحداهما اسم عمر الخيام والثانية الدكتور طه حسين.

رحَّبت بنا رئيسة النادي وشكرت السيدة مذر على ما بذلته من جهود كبيرة حتى تمكَّنت من إعداد هذه الأجواء العربية الرائعة الأنيقة، ثم واصلت حديثها قائلة: بما أن ضيفنا الشيخ خليل الرواف أول مهاجر من المملكة العربية السعودية إلى الولايات المتحدة، فسيحدِّثنا أولًا عن بلاده في هذا الجو العربي اللطيف، في هذه الصالة المفروشة وفقًا لطريقة بلاده، وسنتناول جميعًا غداءنا على سماط عربي يحوي أصنافًا عربية، إنَّ ضيفنا مسلم من أتباع النبي محمد الذي حذَّر المسلمين من شرب الخمر ومنعهم من تعاطيها، ولهذا لم أقدِّم إلى ضيفنا الخمر، ثم وجَّهت كلماتها إلى الأعضاء قائلة: أرجو أن تمتنعن عن التدخين إكرامًا لضيفنا العزيز، والآن تفضَّل أيها الشيخ الوقور فحدِّثنا عن البلاد العربية وعمّا عرفته عن تاريخها وعن آثارها وحكوماتها، وعدد نفوس كل منها وعن أمهات مدنها ومنتوجاتها وما تصدره منها، وما تستورده من حاجيات، وعن جغرافيتها وبواديها وطبائع أهلها وعاداتهم وطرق معيشتهم، وإذا ما تفضَّلت وذكرت لنا شيئًا يسيرًا عن سياستها وعلاقاتها مع الأمم الأخرى نكون لك من الشاكرين.

قمت بتلبية طلبها، وألقيت محاضرتي، فسُرِرْن بما سمعنه، وبعد المحاضرة انتقلنا إلى غرفة الطعام، وكان السماط سماطًا عربيًّا شهيًّا احتوى على الكثير من الطعام العربي وحتى التبولة اللبنانية والفتوش السوري.

قضيت بضيافة هذه الأسرة الكريمة خمسة أيام تمتَّعت خلالها بلطف وكرم السيد والسيدة مذر. وتحدثنا كثيرًا خلال المدّة التي أقمتها هناك وعرضَت عليَّ خلال ذلك العمل مع ولدها في منجمهم للفحم فشكرتها معتذرًا، لقد كانت هذه الزيارة أطول زيارة من نوعها قضيتها في ضيافة أسرة أميركية أصيلة، هاجر أجدادها منذ زمن بعيد إلى هذه البلاد سعيًا وراء الثروة ووراء مناجم الفحم، العمل الذي لا تزال أسرتهم من بعدهم تمارسه وتقطف ثماره اليانعة وفهمت أثناء حديثي معها أنَّ أسرتهم ممتنعة عن شرب الخمر منذ أن أصدرت الحكومة الأميركية قانونًا حظَّرت فيه تجارة الخمر وشربه من قبل الشعب، لذلك لم تقدِّم الخمر لضيوفها، وقالت:

عندما ذكرت رئيسة النادي أنني لن أقدِّم الخمر للضيوف إكرامًا لك لكم كان يسعدني لو أنها أضافت: إن أسرتي لم تشرب الخمرة منذ أن حرَّمت حكومتنا على الشعب شربه، وتابعت حديثها قائلة: إن العديد من الأسر الأميركية لا تزال ممتنعة عن شربه، ثم أوضحت تقول: إن في هذه المدينة عددًا كبيرًا من السوريين، وقد أخبرتهم بقدومك ورجوتهم إعداد الطعام العربي الذي يروق لك فلبّوا مطلبي، وإنني أشكرهم على ذلك. كانت أيام الصيف على وشك الرحيل وكنّا نتناول الفطور في الثامنة صباحًا في إحدى شرفات القصر الواسعة المطلّة على الحديقة، وكانت تقوم بقطف الزهور تملأ بها المزهريات في غرف القصر الأنيقة وذلك بعدما تزيِّن المائدة بقسم منها، ثم كانت تختار ما كان يتناسب وملابس زوجها من الزهور وتشبُكه وتزيِّن به صدره.

لم يكن لها من الذكور غير ولد واحد غير متزوج، كان مهتمًّا بشؤون معدنهم الفحمي ولا يزور والديه غير مرة واحدة كل شهر حيث يمكث معهما ثلاثة أيام. وتجوّلت برفقة السيدة والسيد مذر في حديقة القصر في عصر أحد الأيام، توقَّفا بي أمام إسطبل كان يحتوي على ثلاثة جياد أحدها عربي. قالت: إنه خاص بولدنا أمّا الاثنان فواحد لها والآخر للسيد مذر حيث يمتطيانهما في بعض الأوقات في هذه الحديقة الواسعة. وكان في القصر مكتبة قيِّمة، قالت السيدة مذر إنها كانت تقضي أوقات فراغها تقلِّب صفحات كتبها، وتقرأ ما تيسَّر لها، وليس في المكتبة غير ثلاثة كتب عربية قالت: إنها هدية من أحد معارفها السوريين قدَّمها لها قبل خمسة أيام وأحدها الجزء الثالث من تفسير القرآن للزمخشري والثاني من الشوقيات لأمير الشعراء شوقي، والثالث كتاب ألف ليلة وليلة من المطبوعات المصرية. وطرحت أثناء إقامتي عدّة أسئلة على رئيس الخدم وكان ممّا أجابني به: خدمت في قصور عديدة منذ خمسة وعشرين عامًا، قبل أن أتشرّف بخدمة أرباب هذا القصر، بيد أنني لم أرَ في حياتي سيدة كسيدتي السيدة مذر في أناقتها وفي ملابسها البسيطة وفي ظُرفها وفي متانة أخلاقها، لم أسمع مرة قطّ صوتها يعلو على صوت زوجها، وأحاديثهما قيّمة، حيث أصغي ليلًا في بعض الأوقات لسمرهما المهذّب الممتع، فيروق لي كثيرًا، تراها تصحو من النوم باكرًا في الساعة السابعة، ثم تلمس الجرس

فإذا بي ماثلًا بين يديها، فتُخبرني بأصناف الطعام الذي ترغب في تناوله في ذلك اليوم، ثم أغادرها، فتأخذ حمّامها وزينتها المتواضعة، ولا ألبث أن أراها تتجوّل في طرق الحديقة، وأراها أحيانًا تقوم بتعديل أغصان الأشجار المائلة، وقطف بعض الزهور، ولم أرَها طيلة إقامتي في خدمتها في هذا القصر البالغة أربعة عشر عامًا دخلت المطبخ، للتحدث مع العاملين به، ولمَّا فاتحتها بذلك مستفسرًا قالت: إنها عادة قديمة اتبعها أفراد أسرتي وإني على نهجهم أسير. هذا ما أخبرني به رئيس خدمها، لا يكدِّر صفوها مكدِّر، فعلى الرغم من الثروة الفاحشة التي يملكانها وبرغم ما يجنيانه من الفحم، لم يتعاطيا شرب الخمر ولم يتنازعا فيما بينهما، وقد سقت قبل قليل شهادة رئيس خدمها. وبعد انتهاء زيارتي غادرت مدينة كليفلاند بعد أن وعدتُ السيدة مذر وزوجها بالعودة لزيارتهما ولدى عودتي إلى نيويورك تعرَّفت في إحدى الحفلات على كلارا آدمز الرحالة المشهورة التي طافت حول العالم مع خطوط الطيران الدولية في مدة 17 يومًا، ولقد لفت انتباهها ملابسي العربية التي كنت أرتديها في ذلك الحفل فعرَّفتني بنفسها وطرحت عليَّ العديد من الأسئلة عن البلاد العربية.

قَدِمَ في تلك الآونة أحد حكام البحرين سمو الشيخ حمد آل خليفة، وحلَّ في نزل ولدوف أوستوريا في نيويورك، فذهبتُ بصحبة الشيخ سليمان بدور صاحب جريدة البيان النيويوركية للسلام على سموّه، وكان الشيخ حمد أديبًا لديه إلمام بالغ بالأدب العربي، دومًا يستشهد في حديثه بآية قرآنية أو حديث نبوي أو قول مأثور أو بيت من الشعر، وكنّا مأخذوين ببلاغة حديثه، وسِعَة علمه، وقد استمعنا إليه مقدار ساعة من الزمن، ثم أخذ الشيخ بدور حديثًا صحفيًّا من سموّه وبعد ذلك أعطاني سموه مبلغًا من الدولارات، قائلًا: إنه مساعدة لفقراء العرب في مدينة نيويورك، وفاته رحمه الله أن مدينة نيويورك لم يكن فيها عربي محتاج، ولم أرَ من اللباقة في شيء ردَّ هذه الهبة إليه، فقبلتها شاكرًا، وكانت من نصيب أحد أبناء العروبة، وكان مقيمًا منذ مدة طويلة في إحدى مستشفيات الحكومة.

بلغ مجموع العمال العاطلين من الشعب الأميركي عشرة ملايين نفس، وذلك قبل دخول الولايات المتحدة الأميركية الحرب العالمية الثانية، وكانت البلاد تقوم

بإعاشة قسم كبير من هؤلاء العمّال العاطلين وتنفق عليهم المبالغ الطائلة من الأموال، لقاء أعمال بسيطة كانوا يقومون بها، فأصيب دولاب العمل بالشلل، وتعطّلت حركة التجارة، وكاد شبح الأزمة الاقتصادية – التي عمّت البلاد من أولها إلى آخرها – يتراءى في الأفق مرّة أخرى، كما كان الوضع في سنة 1930م، وقبل أن يعهد بإدارة البلاد إلى فرانكلين روزفلت، وكان التجّار لا يرون بارقة أمل تجعل تجارتهم تأخذ طريق النمو والرواج والازدهار، ولكن عندما انتشر دخان الحروب الأوروبية، وتنشّق الشعب الأميركي رائحة البارود الكريهة، بدأ أصحاب المصانع الحربية ينفضون الغبار المتراكم عن أدوات مصانعهم التي مضى على بعضها عشرون عامًا دون أن تُمَسّ، وأخذت الحكومة الأميركية تستعد للطوارئ، فاستخدمت في مكاتب وزرائها ودواوينها الشباب المثقف ممّن كانت ترى فيهم الكفاءة والمقدرة، ودرّبتهم على المهام المقرّر عهدتها إليهم، وأوجد عمل الحكومة هذا حركة في المجتمع الأميركي، ولم يمْضِ غير أشهر قلائل على نشوب الحرب في أوروبا حتى انخفض عدد العاطلين من عشرة ملايين إلى سبعة ملايين حسب بيانات الحكومة وقتذاك، واستغّل تجّار الحرب والسماسرة فرصهم فانتشروا بين صفوف الشعب الأميركي يُوحُون لرجاله وزعمائه وقادته بخوض الحرب دفاعًا عن أنفسهم وقيم بلادهم، موضحين لهذا الشعب ولهؤلاء الزعماء الخسائر الكبيرة التي ستلحق بهم اجتماعيًّا واقتصاديًّا في حال انتصار الألمان قائلين ستُحاصرون في قارّتكم وسيُهدَم كيانكم كأمة حرّة مستقلة وسيغدو مستقبلكم في ظلام داكن لا ترون فيه وميضًا من ضوء الحرية، وكان الشعب الأميركي منقسمًا على نفسه حيال الحرب والمشاركة فيها، فمنهم من رأى فيها وسيلة دمار للبلاد وقتل لأعداد هائلة من المواطنين، ومَن رأى غير ذلك وقال إن مجالات العمل فتحت أمام العاطلين، ولقد انخفض فعلًا عدد العاطلين من عشرة ملايين إلى سبعة ملايين في وقت قصير حسب بيانات الحكومة وقتئذٍ.

وفيما أنا في أحد الأيام أتناول طعام الغداء في أحد مطاعم نيويورك العربية برفقة الشيخ سليمان بدور فاتحني بقوله: هل لك بتغيير جو نيويورك الصاخب والابتعاد عن غوغاء هذه المدينة وضجيجها إلى بلدة هادئة في إحدى الولايات،

فقلت: ماذا تقصد بذلك، أسئمت عشرتي وبقائي على مقربة منك؟ قال: لا، هذا ما لم أفكر فيه مطلقًا، ولم يخطر لي على بال، إن سكان مدينة نيويورك ثمانية ملايين، وأنت واحد منهم لا يزيدهم مكوثك بينهم ولا ينقصهم ولن يشعروا بشيء إذا ما ابتعدت عنهم، وكل ما في الأمر أنني تلقيت البارحة رسالة من جالية سيدر رابدس في ولاية أيوا، يُبْدون فيها رغبتهم في فتح مدرسة عربية دينية لتعليم أبنائهم لغة آبائهم وليستنيروا بتعاليم دينهم، إنها جالية محترمة تضمّ ثلاث عشرة أسرة، ولدى ناشئتها الجديدة رغبة أكيدة في تحصيل العلوم الدينية والعربية، وفكّرت طويلًا أبحث عن رجل يتولى القيام بهذه المهمة فلم أرَ لها غيرك، إنها فرصة طيبة يحسن بك أن تغتنمها ولا أخالك ستنزل عند رغبتي وتحقّق مطلبي إنك لن تخسر شيئًا، ستقف بنفسك على ما هُم عازمون عليه وعلى خططهم بتشييد المدرسة، فإذا راقَ لك الأمر وأعجبتك طرق عيشهم وأحببت المكوث فيما بينهم فبها ونِعمت وإلّا فبإمكانك تركهم والعودة إلينا، وعلاوة على هذا، إنك ستستفيد من فرصة جديدة للتنقل في هذه البلاد العظيمة وتضيف إلى خبرتك شيئًا جديدًا فما هو قولك؟

فكّرت بالأمر قليلًا، واستعرضت صورة نيويورك وعدم الاستقرار بها بعدما مُلئت برائحة البارود المتفجّر في أوروبا، وبعدما صُمّت الآذان فيها بفعل ما كانوا يسمعونه ويقرأونه عن دوي المدافع وأزيز الطائرات وتفجير قنابلها، مرت هذه الصور جميعًا أمام خيالي، فوافقت على رأي الأستاذ بدور، وما هي إلّا بضعة أيام حتى نقلني القطار إلى مدينة سيدر رابدس في أيوا تلبية لمطلب جاليتها الإسلامية.

تقع مدينة سيدر رابدس في ولاية أيوا المشهورة بزراعة الذرة، وهي مدينة هادئة واسعة تشتهر بطيبة تربتها وكثرة إنتاجها من أصناف الذرة والشعير والبازلاء، فقد كانت تنتج سنويًّا 770 مليون رطل من الذرة و165 مليون رطل من الشعير و65 مليون رطل من البازلاء، وهي بذلك متفوّقة على غيرها من الولايات، وتُعَدُّ في الوقت نفسه الولاية الثانية التي تهتم اهتمامًا كبيرًا بتربية المواشي إذ يبلغ عدد أبقارها سبعة ملايين بقرة وفيها أكثر من مليون وسبعمائة ألف رأس من الغنم، وفيها للعلم قسط وافر حيث فيها جامعات هنَّ جامعة أيوا، والجامعة الأميركية، وجامعة ديموين حاضرة الولاية، وفيها أيضًا ثلاث عشرة كلية يدرّس فيها مختلف العلوم

وثلاث عشرة كلية للأحداث، ومساحة الولاية 56,290 ميلًا مربعًا يقطن فيها 2,757,537 من البشر ويفصلها عن ولاية نبراسكا نهر مزوري من الجهة الشرقية. وتقع هذه الولاية في وسط الولايات المتحدة تقريبًا، وهي معتدلة المناخ، جوّها لطيف، فيها هواء عليل، وتشعر بحرارة خفيفة في أيام الصيف، أما في الشتاء فبردها قارس وثلوجها كثيرة، وكان تعداد نفوس سيدر رابدس آنذاك خمسة وستين ألفًا، ويمر بها القطار السريع المنطلق من نيويورك إلى سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا. وذهبتُ إليها بالقطار، فاستُقبلت بحفاوة زائدة من قبل جاليتها العربية، وأُنزلت في ناديها الإسلامي، وكان يتألف من طابقين الأول عبارة عن غرفة واسعة لها منافعها خصِّصت للاجتماعات الأسبوعية والاحتفالات الوطنية، وكان الطابق الثاني مكونًا من صالة واسعة أعدَّت لإقامة الشعائر الدينية وبجانبها غرفة خصِّصت للسكن وكان النادي قائمًا وسط منفسح من الأرض وكان محاطًا بأربعة شوارع، وله حديقة زاهية بالورود والأشجار الباسقة. وحضر في اليوم الثاني لقدومي أحد محرري صحيفة «كازات» التي كانت تصدر في تلك المدينة وذلك بناء على طلب من السيد حسن عجرم الذي كان رئيسًا للنادي، وأخذ مني حديثًا صحفيًا، وكان موضوعه عن البلدان العربية، وعن جولاتي في الولايات المتحدة الأميركية وكانت ليلة الجمعة من كل أسبوع موعد الاجتماع للجالية في ناديهم، وحدَّثت الحاضرين عن المملكة العربية السعودية، وقد حضر هذا الاجتماع بعض الإخوان العرب المسيحيين، وطلبوا مني أن أحدِّثهم عن أوطانهم العربية، فلبَّيت مطلبهم، وكنت أثناء دراستي في معاهد دمشق قد غيَّبت عن ظهر قلب سورة «عم» مع تفسيرها السهل بشكل ممتع، ويعود الفضل بذلك لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار، الذي كان يلقي علينا دروسًا باللغة العربية وبالتفسير والفقه والتوحيد، فتلوت عليهم هذه السورة مع تفسيرها، فخيِّل إليهم أنني رجل عالم من كبار علماء الإسلام، وبتشجيع منهم بدأت إلقاء الدروس الدينية كل أسبوع، وكانوا يواظبون على دروسهم العربية صباحًا أثناء العطلة الصيفية للمدارس الأميركية ويمكثون حتى الظهيرة، وكان واحدًا من هؤلاء جميعًا لديه إلمام بالقراءة والكتابة بالعربية بفضل عناية والديه به فلقد علَّماه القراءة والكتابة، واسم هذا الطالب حسن شرانق، وكان

هناك خمسة آخرون لديهم بعض الخبرة بالقراءة والكتابة، كما كان بينهم طالبتان هما عائشة وليلى حمد لديهما بعض الثقافة العربية، وقد تفوَّقتا فيما بعد بدراستيهما وتوسَّعت مداركهما فقد استفادتا من وجود بعض من عرب فلسطين من الباعة المتجوِّلين الذين كانوا يتردّدون إلى بلدتهم، واستفادتا من عناية والديهما بهما.

لم يَرُقْ ما لاقيته من احترام ونجاح وتقدير لبعض الإخوان من التجار المتجولين، وخُيِّل إليهم أنني نحَّيتهم عن مراكزهم التي كانوا يتمتعون بها من قبل، وأخذوا يحرجونني ببعض الأسئلة الدينية وغيرها بمشهد من رجال الجالية أثناء الاجتماعات الأسبوعية أو في منازل أعضاء الجالية، وكنت أجيب عن بعض الأسئلة وأعتذر عن الإجابة عن بعضها الآخر موضحًا عدم المعرفة. وفي أحد أيام الاجتماعات الأسبوعية باغتني أحدهم بسؤال قائلًا: ما معنى قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[1]، وفيم أنزلت، ومتى كانت هذه الغلبة للروم؟ من حُسن الحظ كنت قبل سؤاله بأيام قلائل قد طالعت تفسير هذه الآية الكريمة، فقُمت بتفسيرها وشرحت أسباب نزولها، فبُهتوا لذلك، فقد أراد الله ألّا أحرَج في موقفي فله الحمد والمنَّة. ومع هذا لا بد من أن أبيِّن أن هؤلاء التجار كانوا يحبّون الخير، ومن خيرة الشباب ثقافة، فقد حصل الطالب حسن شرانق على معلومات جمّة منهم وبفضل ذلك تفوَّق على غيره من تلاميذ المدرسة. وكان التنافس بين الطلبة في المدرسة شديدًا، كلٌّ منهم يرغب في أن يكون الأول في صفه وشجَّعهم على هذا التنافس آباؤهم وهكذا لم يَمْضِ سوى بضعة أشهر على فتح المدرسة حتى ختم القرآن الكريم معظمهم وصاروا يتصفَّحون الجرائد العربية ويطالعون بعض الكتب، ولكَم كانت دهشتي عظيمة عندما قاموا بأداء بعض التمثيليات العربية، وكان أعظم نجاح أصابوه في تمثيل رواية بلقيس ملكة سبأ، التي كتبتها لهم، وتعاونوا فيما بينهم على إصدار مجلة أسبوعية أسموها «المسلم الأميركي»، وصدرت هذه المجلة بعشرين صفحة كُتبت بالإنجليزية، وأوجدوا لها مراسلين من الشبيبة العربية في

(1) سورة الروم، الآيات: 1 - 4.

الولايات المجاورة، وأخذوا ينقلون أخبار الجاليات العربية في كل ولاية، وقد تولّى تحريرها التلميذان: عبدالله عجرم، وعبدو عمر، وتولّت عائشة حمد رئاسة التحرير، وكانت أختها ليلى تساعدها أحيانًا، وهكذا طارت شهرة الجاليات العربية في هذه المدينة وازداد احترامها وتقديرها من قبل الجاليات العربية في الولايات الأخرى المجاورة وجاء لزيارتها بعض أفراد هذه الجاليات من ذلك أسرة رشيد خطار وإخوته فريد وسعيد ويوسف ونجيب وأولادهم، وغالبًا ما تَتِم الزيارات في يومي السبت والأحد من كل أسبوع.

التحق بالمدرسة في العطلة الصيفية بعض الشبّان من الولايات المجاورة أذكر منهم قاسم علوان نزيل مدينة أشلاند من ولاية كنتاكي، وكانت بين أسرته وبعض أسر هذه الجالية صلة من القربى، وترأّس قاسم علوان وعبدالله عجرم فيما بعد الجاليات العربية في الولايات المتحدة الأميركية وكندا، وقد زارا القاهرة على رأس وفد المغتربين واجتمعا بالرئيس الراحل جمال عبدالناصر.

ولقد احتلّت هذه الجالية العربية مركز الصدارة بين الجاليات العربية الإسلامية المقيمة في الولايات المتحدة لمحافظتها على آدابها وأخلاقها العربية وعقيدتها الإسلامية ولِمَا هي عليه من الألفة والمودّة، وكنت أشعر براحة تامة وسعادة عندما كانت تستقبل زوارها العرب القادمين من مختلف الولايات بفائق الاحترام والتقدير سواء منهم الغني أو المعسر، والحق أقول لم أرَ طيلة إقامتي بينهم أحدًا التجأ إليهم فخيّبوا ظنّه، كانوا يتجاملون مع زوارهم ويلبّون طلباتهم بتواضع ودون فخر ولا منّة.

نعم إنهم ذاقوا طعم العيش الهنيء منذ وقت قريب، ولكن النعمة لم تبطرهم ولم تجعلهم يشمخون بأنوفهم أو يصعرون خدودهم فحافظوا على طبيعتهم كما كانوا من قبل، وظلّت أخلاقهم عربية نقية وعقيدتهم إسلامية صلبة ولقد ضمّت الجالية العربية في سيدر رابدس الأشخاص التالية أسماءهم وعائلاتهم:

حسين شرانق

خليل شرانق

حسن عجرم

أبو خليل عجرم

زين العاصي

يحيى العاصي

نجيب بدره

قاسم بدره

حسين خلف

محمد العاصي

علي أبو خليل

حسين الخضر

حسن مرعي

مرعي الداهوك

عبدو عمر

أسرة حمد

هاجر أفراد هذه الجالية الإسلامية تباعًا منذ ستين عامًا، وقدموا من البقاع في لبنان، وقد هاجرت ثماني أسر من بلدة واحدة هي جنين، ومارسوا الأعمال التجارية ونالوا التوفيق، واختصّوا بأعمال السمانة، ومن بينهم أسرتان يعمل أفرادهما في المصانع الأميركية، وأسرة اختصت بصناعة الأحذية، وأسرتان عملتا بالزراعة وهما الأخوان محمد العاصي ويحيى، فهُما يمتلكان مزارعهما الخاصة بهما، وقد زار يحيى القاهرة في صيف عام 1380هـ (1960م)، ونشرت مجلة الأخبار حديثًا صحفيًّا له. وكانت الجالية العربية الإسلامية تُقيم حفلاتها الدينية والوطنية في ناديها الإسلامي وغالبًا ما شاركها احتفالاتها الجاليات العربية من الولايات الأخرى ولا سيما أسرة رشيد خطار وأبناء إخوته الأربعة فريد وسعيد ويوسف ونجيب مع أسرهم، وأذكر أنه حلّ مرة عيد الأضحى فاحتفلنا به ثم ما لبث أن حلّ عيد الميلاد فاحتفلنا به اجتماعيًّا وألقيت بالمناسبة كلمة نشرتها جريدة البيان النيويوركية.

لم أحاول في السنوات الأولى لهجرتي الكتابة في الصحف العربية، ولكن الذي حدا بي فيما بعد للكتابة في الصحف ما نقلته يومًا الصحف العربية في نيويورك عن مجلة الأندلسي البرازيلية الجديدة عن محاضرة ألقاها الأستاذ جميل بيهم وكان موضوعها «المرأة في البادية»، وقد استند الأستاذ بيهم في بحثه إلى ما اختبره بنفسه نتيجة مخالطته لجماعة من البدو الذين جاوروا مزرعته في لبنان، وقد ذكر المرأة البدوية بما لا يشرِّفه كعربي مسلم ووصَمَها بأمور هي براء منها «كبراءة الذئب من دم يوسف».

ما هي الدوافع التي حدَت بالأستاذ بيهم لإلقاء هذه المحاضرة؟ ولماذا راوغ فيما كتبه وتخبط تخبطًا شديدًا كما يتخبَّط الإنسان في فيافي إفريقيا؟ فكنت تراه كأن جبلًا يعلو به مرة ومنخفضًا يهوي به أخرى، يحاول الولوج إلى أدغالها فلا يلبث أن يفرّ من وحوشها المفترسة، ولقد أغاظني تهجُّمه عليها دونما سبب، وأظن - مع أن بعض الظن إثم - أن الذي دفعه إلى إلقاء محاضرته هو: ذكر مزرعته، فقط تطاول بها على الناس وتباهى، ولم يُقِم للناس - سامحه الله - وزنًا، ولم يحفظ شيئًا من كرامة الملايين من عرب البادية. ولقد اعتبر نفسه عربيًّا من ذرّية العرب البُداة ولكنه لم يحفظ للأمم العربية مكانتها وأهانها، فأهان نفسه وحطّ من كرامته دون أن يدري.

فتناولتُ القلم وسطّرت ما يلي ردًّا عليه ونشرته في جريدة البيان التي كانت تصدر في نيويورك «للناس مذاهبهم حينما يكتبون، وفي أيِّ موضوع يطرقون، والذي يُرجَى منهم هو: توخّي الحقائق والتثبُّت فيما يدعون، والباحث في أخلاق الأمم وعاداتها، لا يسعه أن يهمل الاطّلاع الواسع والخبرة والدراية بأحوال مَن يجعلهم موضوع بحثه، ومن الخطأ كلّ الخطأ أن يستدلّ المرء على أخلاق وعادات أمّة من معرفته بأفرادٍ قلائل منها واتّخاذهم مثالًا لبقيّة مجموعها. ولعلّنا نلوم بعض الكتاب الغربيين الذين يمرون ببلادنا على عجل مرَّ السحاب، ونتناولهم بألسنة حداد شداد لسخافتهم وتلفيقهم أخبارًا مزوّرة عن بلادنا، تشويهًا لسمعتنا وامتهانًا لكرامتنا وحطًّا من أخلاقنا، إذ إنهم يرون الشرق وأهله ليسوا من الأهمية بمكان ليُكتب عنهم كما يُكتب عن البشر، وهكذا كان شأن الأستاذ جميل بيهم في محاضرته «المرأة في البادية» إنّه لم يحفظ حرمة للملايين من قومه المنتشرين في

البادية العربية، ولم يَرْعَ لهم كرامة، ونقَلَ عنهم أشياء تفتقر إلى إثبات، ولا تصدر عن أبناء الصحراء المترفِّعين بأخلاقهم عن كل ما يشينهم، فكأنه - هداه الله - لم يقف على فضائلهم ليتحدَّث عنها كأنّنا نحن العرب نسينا ماضينا وأنفسنا وأدبنا، وأخذنا نحبِّذ كل ما هو غربي.

حتى ترَّهات كُتَّابهم المسخَّرين ننسج على منوالها كما فعل الأستاذ جميل بيهم. فلو أنه - هداه الله إلى طريق الصواب - خصَّص قسمًا من وقته للبحث والحقيقة وتجوَّل في الجزيرة العربية وبين قبائلها، فاحصًا دارسًا عادات أهلها وأخلاقهم، متبينًا منزلة المرأة بينهم لَمَا تسرَّع في حُكمه عليها وعليهم، ولما قال عنها «إنها سقط المتاع، وإنها لا شيء حتى في نظر نفسها، إذ إنها تفتخر إذا ضُربت» لا يا سيدي الأستاذ، إنَّ ما استنتجته من عادات وأخلاق جماعة من البدو مجاورين لمزرعتك لا ينطبق على القبائل البدوية المنتشرة في صحرائنا العربية، فهذه جماعة ألِفَت حياة الراحة والدِّعة والخنوع بسكناها حول القصور، فمَسَخت أخلاقها وخرجت من العائلة البدوية، وأخذت تجاري الحضر بكثير من عاداتهم وطبائعهم، ولسوء الحظ لم يفلح هؤلاء الأعراب لأنهم غدوا والحالة هذه لا بدوًا مع البدو يتمتّعون بحرية الصحراء، وينتعشون بهوائها النقي، وتَصقُل أدمغتهم حرارة شمسها وجفاف جوّها النشيط الهادئ، ولا حضرًا مع الحضر، نالوا قسطًا من التهذيب الحضري، بل خسروا السمت العربي الذي هو أثمن جوهرة في تيجان ساكني الصحراء المزدانة بالإباء والأنفة وصدق الحديث. وإن تجوالي في باديتنا العربية، ووقوفي على أخلاق سكّانها وعاداتهم يجعلانني أخالفك فيما ذهبت إليه في محاضرتك «المرأة في البادية »، ولا ينبئك مثل خبير. هؤلاء قومنا من سلالة الذين اهتدوا بهدي القرآن واتّبعوا تعاليمه، وتأدّبوا بأدبه، فهم عرب مسلمون في عقائدهم وفي معاملاتهم وفي تربيتهم لا شرع خاص لهم يتدخل بأمورهم غير الإسلام، لم تتبدَّل منهم الطباع ولم تتغير فيهم الأخلاق، ولا تزال الأُسَر العربية من ساكني المدن ترسل أولادها ليقيموا بينهم ويتخلّقوا بأخلاقهم كما كان يفعل عرب مكة قبل الإسلام.

وأمراء الأسرتين الأموية والعباسية فيما بعد، يرسلونهم - كما ذكرت - من

المدن ليقيموا بين البداة في البادية ليتطبّعوا بطبائعهم وليكسبوا فضائلهم، والمرأة البدوية اليوم هي بأخلاقها وفضائلها كسالفاتها اللواتي ذكرهن تاريخنا العربي، فمجَّد ذكرهن وأعلى شأنهن، وهي تتمتع اليوم بنفوذ كبير ومقام سامٍ رفيع بين قومها وذويها ولها من الحقوق ما يجعلها بعيدة كل البعد أن تكون «كسلعَة تُباع وتشترى وتورِث ولا تَرِث ويُقايَض عليها في الزواج».

أمّا أنها «تقوم بأعمال شاقة ومنوط بها كل شيء حولها»، فإن ذلك لكونها تشعر بمسؤولية الحاكم المطلق والراعي الأمين في صحرائها الواسعة ومملكتها الكبرى، فترى الواجب يدعوها لتهتم بشؤونها وتتعهّد كل ما يحيط بها، فهي تجمع الوقود وتُحضر الماء، وتنوب عن زوجها أثناء غيابه في استقبال الضيوف ومحادثتهم وإعداد طعامهم وتقديمه لهم، وإنها تفاخر بخدمة منزلها ونسج خيمتها وخياطة ثوبها وسياسة ماشيتها وتربية أولادها، فخرها بوضع السرج على ظهر فرس زوجها حينما يذهب لقتال أعدائه، أو حماية ماشيته، وتفعل هذا عن طيب خاطر وسماحة نفس، وهي باسمة شاكرة، فلا تسمعها يومًا شاكية حالها ولا متبرمة بعيشها، وترى الحياة حلوة كلها بشقائها ونعيمها وكدرها وسرورها ولا تيأس إذا مسَّها الدهر بسوء لا يُطاق، تصادِف إحداهن وقد مضى عليها يوم أو بعض يوم دون طعام، فلا تشكو ولا تتبرم، إذا حدَّثتك بلهجة حلوة صادقة تفيض رقّة وأدبًا لا خنوع فيها ولا تملُّق وفي هذا أكبر دلالة على طيب عنصرها، وسموّ أخلاقها وكرامة نفسها وحسن تربيتها، وهي تحافظ على سمعتها كامرأة عربية شريفة، وهذا ما حمل البدوي أن يذكر اسمها مفاخرًا إذا انتسب، تراه يفعل ذلك أينما كان في المجالس أثناء حديثه مع الناس أو في حروبه عندما يواجه عدوه فيقول منتسبًا وبكل حماسة أنا أخو سلمى، أنا أخو عليا، أنا أخو شمّا أنا أخو نوره، إنها أسماء فتيات عربيات يذكُرُهن الرجال وقت اللمّات وعند الشدائد، والمرأة العربية تعمل اليوم ما كانت تعمله أخواتها منذ قرون مديدة، إنها بطلة الحروب والغارات، تذكّرنا بأخواتها العربيات، بطلات اليرموك، من أمثال خولة بنت الأزور وسواها.

واحترام البدوي للمرأة في البادية يكاد يكون سُنَّة متبعة، وعادة موروثة كابرًا عن كابر، وهذه أشعار العرب تسبح بحمدها وتمجِّد ذكرها:

إنا محيوك يا سلمى فحيينا   وإن سقيت كرام الناس فاسقينا
وإن دعيت إلى جلى ومكرمة   يومًا إليك سراة الناس فادعينا

تقرأ هذا وغيره من نفائس القول يا سيدي الأستاذ ثم تَدَّعي أنها في نظر البدوي «من سقط المتاع»، فلو كانت كما ذهبت إليه، هل يجاهر البدوي بذكر اسمها؟ والبدوي من أعرق الناس في الإباء والشهامة والشمم والترفع عن النقائص، وهل كانت تحيي كرام الناس وتسقيهم، وتدعو إلى الجلى والمكرمات؟

إن الآية الكريمة التي استشهدت بها على إهانة العرب للنساء وكراهتهم لهن وهي قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ لقد خفي عليك أيها الأستاذ مغزى هذه الآية الكريمة وسبب نزولها.

إنها نزلت بحق أفراد كانوا ينتمون إلى قبيلتَي خزاعة ومضر وبعض تميم، وكانت هذه القبائل قد هجرت جماعة منها الحياة البدوية وتحضَّرت، وعلى هذا نزلت بحق طائفتين عربيتين من الحضر والبدو، ولا يحقُّ لك أيها الأستاذ أن تستشهد بها على جماعة دون الأخرى.

وسبب نزول هذه الآية هو: أنَّ مشركِي العرب ادَّعوا أن الملائكة إناثًا وأنهم بنات الله، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝﴾[1].

وكانت فئة صغيرة من العرب في الجاهلية تَئِد البنات. خوفًا من العار وخشية أن لا يجدوا لكريماتهم أزواجًا أكفّاء، وقد أجاد الشاعر حافظ إبراهيم في الإحاطة بهذا المعنى، وهو يتحدَّث على لسان اللغة العربية بقوله:

ولدت فلمّا لم أجد لعرائسي   رجالًا أكفاء وَأَدْتُ بناتي

استنكرت غالبية القبائل العربية البدوية وأد البنات، وأخذ بعض رجالات العرب يقاومون هذه العادة الخبيثة بشتّى الوسائل، وقد حُفِظ عن صعصعة التميمي جدُّ الفرزدق أنه فدى الموءودات وحالَ دون وأدهن، ولهذا أشار الفرزدق في شعره مفتخرًا:

(1) سورة النحل، الآيتان: 57، 58.

وجدي الذي منع الوائدات ... وأحيا الوئيد ولم يوئد

يؤخذ من هذا وغيره أن وأد البنات كان شاذًا وقليلًا دَفَعت إليه أسباب غير اعتيادية، وُجِدَت قبل الإسلام وحرَّمها هذا الدين الحنيف.

قد يُغفر لك أيها الأستاذ المحاضر كل ما ادَّعيته، واستنتجته عن المرأة في البادية وما وصَمْت به أهل البادية، إلّا قولك: «وكان من البديهي أن تبقى المرأة التي عرفنا مقامها عند البدو محرومة من التربية والتعليم» فما الذي تعنيه بالتربية والتعليم؟ هل تعني أنها لا تحسن استعمال الشوكة والسكين في طعامها، وأنها لا تنام على سرير وثير وغير ذلك من المحدثات؟ أم تعني التربية الأخلاقية؟ وهذا ما تُلام عليه، ولن نَغفر لك هذه الزلّة أبدًا، فالمرأة البدوية في أخلاقها وتربيتها وآدابها مستقيمة كالصراط السوي، وطاهرة كالسحابة في سمائها، ونقية كهواء صحرائها.

أمّا قولك: «محرومة من التعليم» فاللوم يقع عليكم أنتم يا رجالات الأمة وقادتها، والتقصير صادر عنكم أيها المثقفون، فالواجب يدعوكم للإسراع في مقاومة الأمِّية، واستئصال شأفة الجهل من بين البدو وتعليمهم مبادىء القراءة والكتابة، كما فعل الملك عبد العزيز آل سعود مع السارحين في البوادي النائية عن العمران وبذلك تكونون حقًّا مخلصين لأمتكم ووطنكم. فقد بدَّل عبد العزيز حياة الجزيرة من بداوة إلى حضارة ومن جهل إلى معرفة.

تستقبل الولايات المتحدة كل عام آلاف البشر من أنحاء العالم زوّارًا، ومهاجرين، ومن هؤلاء جماعات من الشعب العربي، وكان لهؤلاء العرب شرف المساهمة في النهوض إلى المستوى اللائق بها الذي تتمتع به الآن وصحيح أنّ هجرة العرب جاءت متأخرة عن بقية شعوب العالم، فهي قد ابتدأت منذ أكثر من مائة سنة بقليل، ولكن العرب أخذوا بنصيبهم في تعزيز مكانة وطنهم الجديد والذود عن كيانه.

كان إخواننا العرب اللبنانيون في طليعة المهاجرين من البلاد العربية، هاجروا إليها مع أسرهم، وما زالوا يعملون فيها بجدٍّ ونشاط وإخلاص، ومن دون ملل أو فتور حتى أصبحوا في السنوات الأولى من هجرتهم - لا أقول من الطبقة الأولى

في الشعب الأميركي في أعمالهم وأحوالهم الاجتماعية، لكنهم والحق يُقال - حافظوا على آدابهم ونشاطهم حتى غدوا من أوائل الطبقة الوسطى، وساعدهم على نيل هذه المرتبة التجارية والاجتماعية طبيعة أخلاقهم وعاداتهم العربية المحترمة وحُسن أحدوثتهم بين طبقات هذا الشعب العظيم، فقد انتشروا في هذه البلاد واندمجوا مع أهلها، ولا تخلو مدينة من مدن الولايات المتحدة إلّا وتجد فيها جماعة من العرب اللبنانيين الذين أسّسوا النوادي والجمعيات وأقاموا دور العبادة ونبغ منهم المحامون والأطباء والقضاة والنواب ورؤساء البلديات، وأساتذة المعاهد العلمية والجماعات والشعراء والأدباء، وتُظهر الإحصاءات أن عدد اللبنانيين في الولايات المتحدة يفوق مجمل تعداد سكان لبنان حاليًّا.

لم تكن الجالية اللبنانية وحدها التي حازت على الشهرة الواسعة والنجاح الكبير، بل حظيت بالشيء نفسه الجاليات العربية الأخرى التي قَدِمت من فلسطين وسورية والعراق وبقية الأقطار العربية.

قُلت إنَّ السمعة الطيبة وحُسن الأحدوثة هي التي أوصلت الجاليات العربية إلى المركز الاجتماعي والاقتصادي الممتاز، فأنت تسمع بين آونة وأخرى عن إدخال أفراد من الشعب الأميركي السجن بسبب السرقة أو الاختلاس أو الاعتداء على الأموال والأعراض، لكن نادرًا ما تجد بين هؤلاء مَن هو من أصل عربي، وفي الحقيقة من حسن حظِّ الجاليات العربية أنه لم يُسمع قط أن أحدًا منها أعدم أو قتل أو اختلس أو اعتدى على مال أو عرض، ولهذا قلت إن المهاجرين العرب هم خيرة شعب أميركا في الخلق والاستقامة.

ولقد أحرز أدباء العرب في المهجر قصب السبق في تكاتفهم وفي إنتاجهم الأدبي وفي تعزيز لغة آبائهم وأجدادهم، فأنشأوا الصحف والمجلات العربية وأقاموا جمعيتهم المسماة «الرابطة القلمية»، التي عزَّزت مركزهم ولا يذكر تاريخ وطنهم الجديد أن جالية من جالياته العديدة أجمعت كلمة مفكِّريها وكتّابها على التكاتف والتعاضد في الإنتاج الأدبي كالجالية العربية، وقد عناهم الشاعر حليم دموس في قصيدته التي نظمها عن اللغة العربية في المجمع العربي بدمشق حيث قال:

في بلاد الغرب منها | عصبة راموا علاها
حبها رغم التنائي | في حشاهم قد تباهى
عزَّزوها فتجلت | لغة يسبي بهاها
بمعانٍ رائعات | رجع الدهر صداها

لا يسعني عند ذكري لهذا الرعيل الأول من مهاجري العرب إلّا أن أقف بكلّ إجلال وتقدير لهذه النخبة الصالحة من أبناء العروبة، الذين رفعوا في دار هجرتهم اسم وطنهم الأول عاليًا مزهوًّا، وهذا الوطن يقدِّر جهادهم المبرور وحِفظهم لكرامتهم وللغة الآباء والأجداد، وأوفى هؤلاء: إيليا أبو ماضي، جبران خليل جبران، نسيب عريضة، ندرة حداد، عبد المسيح حداد، رشيد أيوب، أبو علي خير الله، حبيب كاتبة، سليمان بدور، سلوم مكرزل، الدكتور شطارة، فوزي البريدي، سليمان كرم وغيرهم.

خلف من بعدهم خلف، أتوا إلى هذه البلاد، منهم من اتَّخذ الكتابة مهنة وأراد أن يَلحَق بالرَّكب الأول من أدباء العروبة، ولكن البون كان شاسعًا بين ما كتبه المهاجرون الأوائل وما كتبه من اتَّبعهم من العرب في الثلاثينيات من هذا القرن، فالأوائل أوقفوا أنفسهم على خدمة وطنهم وأمتهم ولغتهم وكانوا حقًّا مجدِّين ومخلصين، وكان هؤلاء على عكسهم، وإنك لتلمس الفوارق الظاهرة بين أخلاق السابقين واللاحقين، وكذلك بين الكتابات والعمل، وكأن الشاعر عناهم بقوله:

هذا من الآسن المائي جبلته | وذاك من طاهر السلسال مجبول
شتان بينهما شتان لو علمت | أبناء أمي أخواتي البهاليل

ولنقف على الفوارق بينهم، إليك ما قاله شاعرٌ من الرعيل الأول هو ندرة حداد عندما عاودته الذكرى لوطنه ومرتع صباه، فقد عبَّر عن أشواقه وحنينه إلى تلك الربوع وإلى ساكنيها من أبناء قومه فقال:

لا زار جفني الكرى لا هزني الطرب | إن كنت يومًا لغير العرب أنتسب
هم الكرام وأبناء الكرام، هم | القوم الأماثل في الدنيا وإن نكبوا

إن طال أو لم يطل عنهم تفرقنا | هم الأحبة إن غابوا وإن قربوا
يا أيها الشرق كم في الغرب مكتئبًا | يئن إنه مشتاق وينتحب
يبكي على إلفه النائي البعيد وقد | دهتك فيه خطوب الدهر والنوب
هي الحياة فأحلاها وأجملها | ألا أراني عن الأحباب أغترب

إن كان هذا ما تغنّى به الشاعر ندرة حداد وأعرب به عن مشاعره فإليك ما كتبه أحد المهاجرين الجدد من أدباء العرب في إحدى الصحف العربية تحت عنوان «إلى أين يقودنا التفكير في تقرير مصيرنا».

استهلّ مقاله متهجِّمًا على قومه العرب لركوبهم الجمال ولاختلاف ملابسهم، فذكر الطربوش والكوفية والعقال، وبتعبير يشمئز لسماعها كل إنسان، وكان ممّا قاله ودعا إليه أن يعود العرب إلى الوراء ويطلبون حماية بعض الحكومات الأوروبية ذات الجيوش القوية والاستعدادات الحربية والعمل تحت إرشاداتها.

كان هذا الكاتب شابًّا في مقتبل العمر جديد العهد بالحياة، ذكَّرتني كتاباته بذاك الشاب الذي استقلّ الباخرة من ميناء بيروت إلى فرنسا، وعند إقلاع الباخرة ما كان منه إلّا أن تناول «طربوشه» الذي كان معتمًّا به، وألقاه في اليم، واستبدله بقبعة أوروبية، وكنت وقتها أودِّع صديقًا متوجهًا إلى إيطاليا، ولمّا رآه أحد الحضور صاح به: إنك لأحمق أيها الشاب، هل استبدلت أخلاقك قبل استبدالك للطربوش؟

قلت كان ذلك المهاجر جديد عهد بالحياة، ولهذا لم أتطرَّق إلى ذكر اسمه عندما رددت عليه كما فعلت مع الأستاذ جميل بيهم، الذي كان قد تجاوز العقد الرابع من العمر، وله تجارب كثيرة في الحياة، واكتفيت بكتابة مقال تحت العنوان الذي اختاره هو لمقاله «إلى أين يقودنا التفكير في تقرير مصيرنا»؟ ونشرته أيضًا في البيان وقلت فيه:

إن ركوبنا النجائب في صحرائنا العربية لا يزرينا، ولُبسنا الطربوش والكوفية والعقال في مدننا وأمصارنا لا يقلِّل من هيبتنا إن كنّا عصبة واحدة، ولكن الذي يزرينا ويجعلنا محتَقَرين في نظر العالم هو تخاذلنا وانشقاقنا واحتقار بعضنا بعضًا.

وإن العتاد الحربي لا يُفيد الأمة شيئًا إنْ هي فقدت معنوياتها ودبَّت الفرقة بين صفوفها. هذه هي فرنسا لم يغن عنها استعدادها الحربي شيئًا ولا كثرة سكانها من الملايين، إنّ تخاذلها وتقهقرها أمام ألمانيا بهذه السرعة التي أدهشت العالم كانت بسبب اختلاف كلمتها، ففرنسا المتخاذلة على نفسها هي التي ارتمت بصورة مخجلة تحت أقدام ألمانيا، والثلاثة ملايين من الفلنديين المتّحدين، أصحاب الإيمان القوي بمتانة أخلاقهم هم الذين وقفوا أربعة أشهر وجهًا لوجه أمام الجيش الروسي، الذي إذا ذُكِر تَهلع القلوب منه.

لماذا نطلب من الحكومات الأوروبية حمايتنا، والعمل تحت إرشاداتها؟ فلقد جرَّبنا الحماية من قبل والارتماء في الأحضان، هل الحماية مهما كان نوعها، ومهما اختلفت طرقها سوى طوق من حديد، يلتف على عنق الأمة ويكبِّل أياديها.

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافات ووحدانا

لنُضِفْ بأس هؤلاء الرجال وقوّة مراسهم على القتال وتصلُّبهم وحنكة قائدهم عبد العزيز آل سعود وتجربته إلى ما لدينا من علم وثقافة، فنكون بذلك أمة يُخشى بأسها ويُحذر بطشها، ومرة ثانية تطاول هذا الكاتب في مقالٍ كَتَبه تحت عنوان «القضية العربية بين الأمس واليوم» وتطرّق في بحثه الجديد إلى إمارة شرقي الأردن ومملكة الحجاز فرددتُ عليه بالعنوان نفسه، وكنت في ردّي الأول لم أذكر اسمه، ولكنني ذكرت اسمه في ردِّي الثاني، وكنت مؤدبًا، فحبَّذت بعض آرائه وانتقدته في بعضها وإليك بعض ما قلته:

وكان يُرجى للمقال أن يكون له صدى أبعد، وفائدة أعمّ، وتقديرًا أكبر لدى القرّاء، لو سمّى الكاتب جميع الإمارات والممالك العربية التي جاء قيامها من التجارب الخاسرة في الجزيرة العربية، التي أسفرت عن إخفاق تام، ولم يكْتَفِ بذِكر إمارة شرقي الأردن، ومملكة الحجاز، إذ إن القارىء يتوخّى من الكاتب أن يكون حياديًا لا ينحاز إلى فئة دون أخرى، ويجدر به أن لا يقتضب أحاديثه إذا خاض في المواضيع العامة، فجعلها مبتورة مبهمة، ومن اللائق به أن يُشبِعها درسًا وتنقيحًا، فيبيِّنها للناس واضحة الشكل ليلمّ القارىء بالموضوع من كافة جهاته.

لا يا سيدي البري، ما هذا الأمر الذي اضطرَرْت معه لتقصُر مقالك على ذِكر إمارة شرقي الأردن ومملكة الحجاز، وتعِفُّ عن ذكر باقي الممالك والإمارات؟ هل لك مآرب أخرى في التعرُّض إلى هذه الإمارة وهذه المملكة أو موعَزٌ إليك لتكتب ذلك؟ أم هذا ما تعتقده وتؤمن به؟

لا، لا يا سيدي البري إنّك تعلم، كما أن كل إنسان في هذه الكرة الأرضية ممّن لهم إلمام بالسياسة العامة يعلم أن إمارة شرقي الأردن، هي كغيرها من الإمارات والممالك القائمة في أطراف الجزيرة العربية، خاضعين إلى نفوذ أجنبي ومرتبطين بمعاهدات مع الحكومات الاستعمارية الأوروبية، فهم بطبيعة الحال والواقع مضطرّون إلى التملُّق لهم ومسايرتهم فيما يريدون.

أمّا مملكة الحجاز - كما سمّيتها - وأعتقد أنك تعني المملكة العربية السعودية، فهي حرّة طليقة لا سُلطة لأحد عليها، فهي قائمة بنفسها تتمتع بالطمأنينة الداخلية والاستقلال الخارجي، وهي سائرة بخطى ثابتة في المصلحة العربية العامة، وقامت بتجارب عديدة لم تخفق بواحدة منها، وعلى رأسها رجل لم يكن يومًا ثرثارًا، وضع تاج مُلكه على رأسه بيده لا لأحد بذلك منّة - إلّا لله وحده - ولا يزال يرينا في كلِّ يوم من ضروب الحنكة والكياسة، في إدارة سياسة مملكته ما جعله يزداد إجلالًا وإكبارًا لدى العالم أجمع وإذا تبقّى لنا نحن العرب بعض الاحترام والمكانة في نفوس الأمم فيعود الفضل به لهذه المملكة الفتيّة القائمة في الحجاز مهد العالم الإسلامي، وفي نجد قلب الجزيرة العربية، وإلى رجلها البطل عبد العزيز آل سعود.

بعد ذلك لم أسمع أن عبدالله بري كتب شيئًا في هذه المواضيع، أو تطرَّق لذكر قومه العرب بما يشينهم أو يسيء إليهم.

هذا هو البون الشاسع بين الرعيل الأول وما عملوه في دار هجرتهم، وبين المهاجرين اللاحقين من أبناء أمتهم، ويعود السبب في ذلك إلى أنَّ الرعيل الأول من المهاجرين الأوائل كانوا أمتَن أخلاقًا وأصلب عقيدة، وأقوى إيمانًا بوطنهم وأمّتهم، وأمتن علاقة مع لغتهم من المهاجرين الجدد، ولم يَرَ المهاجرون الأوائل ما فعلته الأمم الأوروبية المستعمرة الغاشمة بأوطانهم وساكنيها من ذلّ واستعباد وقهر وتفرقة.

المهاجرون الجدد رأوا كل ذلك، ومشوا في هذا الظلام الداكن لا يرون فيه بارقة أمل في الحرية والاستقلال، وعلى هذا اعتادوا على الذلّ والاستعباد واستساغوا لأنفسهم حياة الخنوع والمذلّة والاستكانة التي قدَّمها لهم المستعمر الأوروبي وهي التي حالَت بينهم وبين عروبتهم وأبعدتهم عنها.

حدَث أنه بعد ثلاثة أشهر من إقامتي في سيدر رابدس، وقبل اعتداء اليابانيين على بيرل هاربر، وكانت الحكومة الأميركية لم تدخل الحرب بعد. حضرَ إلى النادي الإسلامي رجلان من رجال الحكومة وسألاني هل تتجنَّد إذا دخلت الولايات المتحدة الحرب، فأجبتهم بقولي: إنني ببلد هاجرتُ إليه محبَّة فيه وإنني اليوم أتمتّع بخيراته وحرياته، ولا أمانع مطلقًا أن أتجنَّد فيما إذا دخلت الولايات المتحدة الحرب وخاضت غمارها، فشكراني وانصرفا.

عزمتُ على ترك هذه الجالية الإسلامية بعد أن أقمت بين ظهرانيها أتمتع بتقديرها واحترامها ستة عشر شهرًا، مرَّت وكأنها أيام قلائل، وتركتها لا زاهدًا فيها ولا كرهًا لجاليتها الإسلامية التي كنت أحترمها وموضع إكرامها، لكن عزمت على تركها بعد أن أسَّست فيها مدرسة لتعليم العربية والإسلام وبعد أن أصبح بإمكان أهالي هذه الجالية رعاية شؤون مدرستهم إذا لم يجدوا مدرِّسًا آخر.

استخرتُ الله وقرَّرت العودة إلى نيويورك وأرسلت في اليوم الثاني إعلانًا نشرته بعض الصحف العربية، وجَّهته إلى مَن لديه الكفاءة ليأخذ مكان عملي في هذه الجالية وليقوم بإدارة النادي والمدرسة العربية، ولم يتقدَّم أحد، وبقيت المدرسة تُدار بواسطة تلاميذها المتفوِّقين، ولا سيما الطالب السيد عبدالله حسن عجرم وقد غدا فيما بعد رئيسًا للجاليات العربية في الولايات المتحدة الأميركية وكندا، وقد قام، كما قلت، بزيارة القاهرة على رأس وفد للمغتربين واجتمع بالرئيس جمال عبدالناصر، ثم خلفه في مركزه السيد قاسم علوان نزيل أشلاند كنتاكي، وكان من المنتسبين إلى المدرسة، وقد زار أيضًا القاهرة والتقى بالرئيس جمال عبد الناصر.

كنت قبل أيام من تركي مدينة سيدر رابدس قد تلقَّيت دعوة من أحد معارفي وهو السيد علي العبدوني نزيل لوكن وسط فرجينيا، وسبق لي أن وعدّته بالزيارة،

وهكذا شدَدَت الرحال إليه، بعدما ودَّعت جالية سيدر رابدس وداعًا حارًّا، متمنيًا لها حياة سعيدة حافلة بالمسرّات ورغد العيش، وأسدلت الستار على العلاقة بيني وبينها، وكان بودِّي أنّها بقيت مشرَّعة لأتمِّم تمثيل دوري على مسرح حياة هذه الجالية كرئيس ديني لها وواعظ ومعلِّم لناشئتها، ولقد كان وقع مغادرتي على هذه الناشئة أشدّ من وقعه في نفوس آبائهم، وهذه هي مشيئة القدَر تتصرَّف بالإنسان أحيانًا دون إرادته، وقال الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

تلقيت أثناء إقامتي في مدينة لوكن برقية من الأستاذ نبيه فارس، وكان معاونًا لرئيس القسم العربي في إذاعة صوت أميركا، يدعوني فيها للانضمام إلى هيئة هذه الإذاعة، ولم أرغب في الاستجابة لطلبه وصمَّمت على رفضه، ولكن برقياته المتواصلة وإلحاحه بضرورة قبول عرضه أثَّر بي فنزلت عند رغبته وتوجَّهت إلى مدينة نيويورك حيث التحقت بهذه الإذاعة.

الفصل الخامس عشر

السنوات الأخيرة في أميركا
أحداث مثيرة وفراق حزين

أخبرت في اليوم الأول لاستلامي العمل في إذاعة صوت أميركا أن أكتب ما أريد وأذيعه، ولبثت على هذا بضعة أيام أكتب وأذيع دون مراجعة أحد أو رقيب، وبعد أسبوعين أصدر رئيس القسم - وهو أميركي الجنسية - بيانًا أمر فيه أن يَعرِض المذيعون عليه كل ما يكتبونه ومن ثم يُذاع، وقدّمت لهذا الرئيس ما كتبته فجرى قلمه الأحمر على بعض الجمل، فقلت له: إن حكومة الولايات المتحدة الأميركية لم تُصدِر حتى الآن بيانًا بشأن حقوق وحريات العرب والمسلمين في أوطانهم، حتى نبني على هذا البيان ونستمدّ منه مادة نمشي عليها فيما نقوله، وسيكون لذلك وقع أبلغ تأثيرًا لدى المستمعين من العرب والمسلمين، فرمقني بنظرة فيها من الاستغراب ما فيها، وتلقَّيت منه جوابًا فيه من الغموض ما يُشتَمّ منه عدم الاكتراث بالعرب والمسلمين، وأوضح لي ما أسلفه قائلًا: إن العرب والمسلمين ليس لهم حكومات مستقلة، وهم تحت الانتدابين الإنجليزي والفرنسي، وستنظر حكومة الولايات المتحدة الأميركية في هذه الأوضاع بعد انتهاء الحرب، وناولني قصاصة من الورق دوَّن فيها الجملة الآتية: «مواعيد عرقوب» وقد قصد ما قاله الشاعر:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلًا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل

ثم قال: أرغب أن يكون ردُّك على ما تذيعه محطة برلين من أن الحكومة النازية سوف تسعى جاهدة بعد أن تكسب الحرب في سبيل توحيد الأقطار العربية ولسوف تترك العرب يحكمون أنفسهم دون تدخُّل منها.

حاولت فيما كتبته بهذا الشأن أن تكون كلماتي مبهمة لا يُشتَمّ منها التعرُّض

لأحد من المتحاربين، وعند عرضها على الرئيس أضاف إليها كلمات نابية عن ألمانيا، لكني لم أقُلها عند إذاعتي لِما كتبته.

وجدت في اليوم الثاني على طاولتي بعض العناوين، ولدى انتهائي من قراءتها رأيت رئيس القسم واقفًا فوق رأسي حيث أملى عليّ بعض الفقرات، ثم أردف قائلًا: يجب أن تدوّن هذه العبارات فيما ستكتبه، وكانت طافحة بالسباب والشتائم والعبارات الشائنة بحق الأمة الألمانية، كما طلب منّي أن أجابهِ بالقول يونس بحري الذي كان يذيع من محطة برلين.

لم أوافق على طلبه، وبدلًا من أن أدبج الصفحات بالشتم والسباب اكتفيت بكتابة بضعة أسطر كانت تحتوي على طلب استقالتي وعلّلت هذه الاستقالة بقولي:

إن المملكة العربية السعودية التي أنتمي إليها وأحمل جنسيتها لا تزال على الحياد، لم تُعلن عن ميلها لأحد، وأخشى أن أجاريكم ميولكم وأنزل عند رغبتكم فتغضب عليَّ حكومتي، وأسرتي ليست نكرة في البلاد العربية ولها مكانتها الرفيعة في المجتمع العربي، وبما أنه يُذكَر اسمي واسم بلادي قبل أن أذيع كلمتي فيُقال بعد الديباجة: أيها العرب تستمتعون الآن لِما يذيعه عليكم الشيخ خليل الرواف من المملكة العربية السعودية. أرجو قبول استقالتي.

قدَّمت طلب استقالتي إلى رئيس القسم فانتفض مغضبًا وقال: إن الإذاعة كتبت إلى دائرة التجنيد أنكم تساعدوننا في عملنا، والآن إذا أصرَرْت على استقالتك ستُساق إلى الخدمة العسكرية.

ساءني هذا التهديد فتمسَّكت بإصراري على الاستقالة قائلًا: إنني أفضِّل أن أجنَّد وأن أخوض غمار الحرب لملاقاة النازية الألمانية وجهًا لوجه على أن أبادلهم السباب والشتائم عبر الأثير، وغادرت المكتب.

لم أتناول طيلة عملي في صوت أميركا أجرًا، ولدى مطالبتي بذلك لم يلبِّ رئيس قسم الإذاعة مطلبي بشكل خَلا من الدبلوماسية، وخلال ذلك حاول نفرٌ من مستخدمي الإذاعة إعادتي لأعمل فيها ثانية فلم أستجِبْ، وإثر ذلك كُلِّفت من قبلهم ومن قبل مكتب الاستعلامات الأميركي أن أترجم إلى العربية ما يقرب من خمسين صفحة حَوَتْ جُملًا متداولة للمخاطبة، وقد سجّلتها على عشر أسطوانات، وقد

أخذوا يذيعونها على الجنود المزمع إرسالهم إلى بلاد المغرب والجزائر وتونس للقتال ضدّ جيوش النازية، وتقاضيت على عملي هذا كمية محترمة من الدولارات.

كانت الحرب العالمية مستعرًا لهيبها في أوجّ معمعتها، وكانت النازية الألمانية بزعامة هتلر ترفل بأثواب العزّ والسؤدد، وكان الجند النازي ينتقل من نصر إلى نصر، وكانت الجيوش الألمانية تحتلّ البلدان الأوروبية الواحدة تلو الأخرى، وكادت أوروبا بأسرها أن تستسلم لهتلر، وبلغ الضيق ببريطانيا إلى حدّ أنَّ حكومتها قرَّرت نقل عاصمتها إلى كندا وأخذت الأسرة المالكة تتأهَّب للرحيل عن مدينة لندن التي أمطرَتها النازية بقنابلها الفتّاكة الهدّامة.

حدثَ هذا كله وأكثر في برهة وجيزة من الزمن ممّا وتَّر أعصاب قاطني الولايات المتحدة وهزَّ كيان البلاد، وتأثَّر وضعي وماذا كان بإمكاني أن أعمل في هذا المعترك من الحياة، كلٌّ مهتم بنفسه، ولا يعرف ما سيحمله له الغد من مفاجآت، أضِفْ إلى ذلك انقطاع المواصلات الخارجية، فلم أعُد أسمع عن أوطاننا وقاطنيها شيئًا يخفِّف عني أعباء الحياة.

غدَت مدينة نيويورك العملاقة بمتنزَّهاتها الواسعة وملاهيها ومبانيها الشامخة وملايينها الثمانية غَدَت بناظري كقرية من قرى حوران أو من قرى نجد الصغيرة لا يجد المرء فيها ما يرفِّه به عن نفسه، وفي الحقيقة اعتراني بعض الضيق حتى إنني لزمت المنزل يومًا كاملًا أفكِّر فيما يمكن أن أعمله لكسب عيشي، وخامَرني شعور بالحزن العميق لتَرْكي العمل بالإذاعة، وحدث في هذه الفترة المضطربة أن كُلِّفت من قبل القائمين على مكتب الإذاعة البريطانية في نيويورك في أن أنقل إليهم أخبار الجاليات العربية الإسلامية في الولايات المتحدة وأن أتحدّث عمّا يقومون به من أعمال ونشاطات دينية وأن أذكر أسماء مَن التحق منهم بالجيش الأميركي، وذلك كله ليُذاع من الإذاعة البريطانية.

قمتُ في هذه الفترة بفتح ثلاث مدارس لتدريس مبادىء الديانة الإسلامية مع مبادىء العربية، وكانت المدرسة الأولى في بروكلن والثانية في هارلم والثالثة في منهاتن في الشارع الخامس - والطريق السابع والأربعين، وكنت أدرس في

المدرسة الأخيرة اللغة العربية فقط صباح كل يوم حتى وقت الظهيرة، وأتقاضى أجرًا من تلاميذها إذا لم يكونوا من المسلمين، وكان من بينهم ضابطان أميركيان.

أما في مدرستَي بروكلن وهارلم فكنت أدرس الديانة واللغة العربية وكان أغلب تلاميذهما من المسلمين الذين اعتنقوا الديانة الإسلامية منذ وقت قريب، ولم أتقاضَ أجرًا من تلاميذ هاتين المدرستين، بل كنت في أغلب الأحيان أُنفِق ما أتقاضاه من تلاميذ المدرسة الأولى عليهما، وكانت أوقات الدراسة فيهما ليلًا بعد المغرب من كل يوم من أيام الأسبوع، وكنّا نقيم صلاة الجمعة في مدرسة هارلم.

عَهدت إليَّ جالية نيويورك الإسلامية أن أكون رئيسًا دينيًّا لها وإمامًا، وأخذت أعقد قران المسلمين، وأعطي شهادات للذين دخلوا في دين الله، وأخذَت الدعوات تنهال عليَّ من الجاليات الإسلامية في الولايات المتحدة لا سيما للقيام بأعمال عقد القران.

كان من بين هذه الدعوات رسالة جاءت من جالية سيدر رابدس دُعِيت فيها للقيام بعقد قِران الآنسة عائشة حمد على شاب من شباب الجالية وكان مع الدعوة تذكرة ركوب بالطائرة، وفي اليوم المقرَّر لعقد القران فوجئت بخبر موت العريس، وكان الحادث بالفعل مزعجًا، فبدلًا من زفِّه إلى عروسه وارينا التراب وبكيناه ثم عدت أدراجي إلى نيويورك.

كما تلقَّيت دعوة من فاطمة ابنة عمر طوسون، إحدى أميرات الأسرة المالكة المصرية، وكانت تُقيم في واشنطن العاصمة، لأقوم بعقد قرانها على أميركي كان موظَّفًا في وزارة الخارجية الأميركية، وكان قد أعلن إسلامه بحضور الدكتور أبي علي خير الله قبل عقد القِران، وقد أهدتني علبة فضِّية فاخرة يمكن أن تُستخدم لحفظ الأشياء الثمينة.

تعرَّفت في هذه الأثناء على السيدة إيمي فندربلت وتوثَّقت الصداقة بيننا، وقد دعتني ذات يوم لزيارة مكتبها في مبنى «ستيت بلدنغ»، وكان مكتبًا فخمًا أعدَّته للإعلانات، وكانت في زيارتها الآنسة كارل الكاتبة الشهيرة، وقد أبدت رغبتها في أخذ حديث مني ودعتني لزيارتها في مسكنها، وبعد أسبوع ظهَرَ مقالها في أمَّهات الصحف الأسبوعية في الولايات المتحدة الأميركية.

علَّقت جريدة السائح النيويوركية بقلم الأستاذ حبيب كاتبه على ذلك المقال، وبعد أمدٍ قصير طلبَت مني هيئة الإذاعة الأميركية (إي بي سي) بواسطة السيدة فندربلت أن أزور الإذاعة لمدّة عشرين دقيقة لأجيب خلالها عن أسئلة تتعلق بالمملكة العربية السعودية وملكها عبد العزيز.

إن السيدة إيمي فندربلت هي إحدى سيدات مدينة نيويورك المتحدرة من عائلة شهيرة وهي الكاتبة البليغة المثقفة، الإنسانية النشطة، ذات الحركة الدائمة الدؤوب، انتهت من مؤلَّفها القيِّم الذي أطلقَت عليه اسم (أدب المعاشرة) أو قواعد التشريفات طبَعَته ثم نشرته في الولايات المتحدة الأميركية وجمعته في مجلَّد واحد بلغت صفحاته السبعمائة صفحة.

كان لهذا المؤلَّف رواج واسع في المحيط الأميركي، لم يحدث رواج مثيل في موضوعه ولقد أعيد طبعه سبع مرات، أول طباعة له كانت عام 1372هـ (1952م)، ثـم 1374هـ (1954م)، 1375هـ (1955م)، 1376هـ (1956م)، 1378هـ (1958م)، 1383هـ (1963م)، 1387هـ (1967م) ويفوتني العلم فيما إذا كان أعيد طبعه مرّات أخرى، أم لا . . . ولكنني أعرف حقَّ المعرفة أن عدد النسخ التي أعيد طباعتها بلغت مليونين وسبعمائة وخمسين ألف نسخة حتى عام 1387هـ (1967م).

بِيعَت كل نسخة منه بواحد وعشرين دولارًا أميركيًّا، وقد اشتريت نسخة من هذا المؤلَّف في عام 1407هـ (1987م)، عند زيارتي مع عائلتي إلى أميركا حيث زرنا شقيق زوجتي الإسكندرانية الأستاذ علي السيد كرى في كربس كسرتي بولاية تكساس. ولقد كنت أحترم هذه السيدة الفاضلة إيمي فندربلت، وأقدِّر لها مساعدتها ونبلها وشهامتها لِما أنا قائم به عن تعريف مليكنا المرحوم عبد العزيز للأمة الأميركية وعن المملكة العربية السعودية، وعن الشعب العربي الذي أنتمي إليه.

كانت السيدة فندربلت من محبِّي العرب ومن المخلصين لقضيتهم فلسطين، ولقد كنت أتبادل الرسائل معها أثناء وجودي في نيويورك، وذكرتني فيها بإعداد مقالة عن حياة الملك عبد العزيز، وبعد خروجي من المستشفى مباشرة أرسلت لها المقال المطول الذي كتبته عن حياة الملك العظيم، بعنوان: من هو عبد العزيز.

وقد نشرت هذا المقال فيما بعد عام 1361هـ (1942م)، جريدة البيان النيويوركية ونقلته عنها إحدى صحف بونس إيرس الأرجنتينية.

طلبت مني السيدة فندربلت مقابلة الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله، فلبَّيت رغبتها وقدَّمتُها إليه عند استقباله لمهاجري العرب في سفرته الأولى إلى الولايات المتحدة الأميركية عام 1362هـ (1943م)، أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان برفقته الملك خالد بن عبد العزيز رحمهما الله.

لقد قابلا الرئيس الأميركي روزفلت وقدّما إليه رسالة كانا يحملانها من والدهما العظيم، الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، لقد خاطرا بحياتهما أثناء الحرب العالمية الثانية، في الوقت الذي كانت فيه الطائرات الألمانية المقاتلة، تجوب الفضاء وتئنُّ من حمل الذخيرة الحربية، وتُلقيها على المدن والأمصار بلا هوادة. ولقد فقدتُ هذه السيدة إيمي فندربلت، كما فقدَها الكثير من أصدقائها ومعارفها ومقدِّري إنسانيتها، بعد أن أزمعَت السير لملاقاة ربِّها منذ اثني عشر عامًا، وخلَّفت وراءها رجلًا ذا نشاط ملحوظ حسبما أعرفه، واسمه لنكولن كلاراك ولم أعلم عنه شيئًا منذ أن غادرت الولايات المتحدة الأميركية عام 1368هـ (1949م)، ومع علمي هذا فلقد كتبتُ إليه في 10/ 8/ 1408هـ، الرابع والعشرين من الشهر الخامس من عام 1988م، وأرسلت هذه الرسالة إلى المطبعة التي قامت بطباعة مؤلَّف والدته (أدب الإتيكيت) ولم أستلم جوابًا لرسالتي حتى هذا التاريخ.

أخبرني أحد الأصدقاء وهو السيد جورج حكيم، وهو لبناني الأصل ينزل في نيويورك وكان على اتِّصال دائم ببعض المهتمين بالتجنيد أنَّ اسمي ظهر في دفتر التجنيد وأنني بعد أيام سأُدعى للخدمة العسكرية في الجيش الأميركي، وقال: هذا الأمر لا مفرّ منه.

كان لهذا الصديق صلة بأحد الجنرالات في الاستخبارات العسكرية الأميركية فذَكَرني لديه، وكان ممّا قاله، إن خليل يتكلم الإنجليزية والعربية ولديه إلمام باللغتين الفرنسية والتركية، فأجابه الجنرال هذا الشخص سنحتاج إليه، أفهمه ليُقدِّم نفسه للخدمة العسكرية معنا قبل أن يأخذه الجيش، إذا وافق صديقك فسأخبر الهيئة الطبّية التي ستقوم بفحصه لتهتمّ بأمره.

قدّمت نفسي إلى مكتب التجنيد، وأُحِلت على الكشف الطبي، فلمست من الطبيب اهتمامًا تامًّا بأمري، وكانت رجلي اليسرى تقصُر قليلًا عن اليمنى فقد كُسِرت وأنا في الثانية عشرة من عمري ولم تُجبَر كما ينبغي، ولم يُعِر الطبيب أيّ انتباه لها، وبعد خمسة أيام تلقّيت بطاقة التجنيد تحمل الرقم واحد للجندية الممتازة، ورسالة تُشعِرني أن أحضر إلى مكتب التجنيد لأستلم تذكرة السفر من نيويورك إلى معسكر كمب لي في فرجينيا، وكان الوقت الذي خُصِّص لإقامتي في المعسكر عشرين يومًا فقط.

كانت المهمة التي سأقوم بها في قلم الاستخبارات العسكرية دقيقة جدًّا، ومركزها ممتاز، ذلك أن قلم الاستخبارات كان لا ينتمي إليه غير الأميركيين، لكن حاجة الجيش إلى رجل مسلم يُتقن عدّة لغات ليُرافق الجيش المزمع إرساله إلى شمال أفريقيا جعلتهم في البداية يتجاوزون قواعدهم.

في اليوم الأول الذي ارتديت فيه الملابس العسكرية كانت صحف نيويورك الست تنشر صورتي على صفحاتها الأولى، وما لبثتُ أن علمت أنَّ قلم الاستخبارات استغنى عني واستعان بأحد الجنود اليهود، وهنا طُلِب مني الانضمام إلى الجيش فرفضتُ وقدَّمت طلبًا أعتذر فيه عن الخدمة في الجيش، وانقطعت عدّة أشهر عن الالتحاق بالثكنات العسكرية، ومرَّت خمسة أشهر والدوائر الحكومية ترسل لي بين فترة وأخرى والإنذار تلو الآخر مع طلب عنواني الثابت لترسل مَن يقبض عليّ ويُدخلني إلى الخدمة في الجيش الأميركي مكرهًا.

بعد خمسة أشهر وصل إلى منزلي رجلان وأخذاني بالقطار إلى محلٍّ في الصحراء وصلناه بعد مسيرة يوم وليلة، وكان هنالك مبنى كبير يودع فيه الفارّون من الجيش الأميركي وطُلِب مني الدخول إلى هذا المكان الذي كان الازدحام فيه شديدًا إلى حدٍّ أنّ الإنسان لا يمكنه السير في وسط الجنود الهاربين، ورفضت في البداية الدخول إلى المبنى وحاول الجنديان إرغامي على ذلك، وأخذ أحدهما حقيبتي اليدوية وألقاها إلى داخل السور، وكان فيها المصحف الشريف، فحاولتُ ضربه على وجهه فأمسك الجنود بيدي وأخذوني إلى الضابط المهتم بشؤون الفارِّين من الخدمة العسكرية، وكان لديه عِلمٌ بقدومي وعلى معرفة بأنني إمام المسلمين في نيويورك.

لمّا سألني عن سبب محاولة اعتدائي على الجندي أخبرته برميه لكتاب المسلمين المقدَّس على الأرض. ولقد كان بعض الأميركيين في ذلك الوقت يعتقدون أنّ بعض العرب الأميركيين يتعاطفون مع ألمانيا بسبب كرههم لليهود، ويبدو أن قائد المنطقة التي أُخِذت إليها كان متأثرًا بهذه الأفكار خاصّة أنّه عثر معي على صورة أمين الحسيني الذي زار ألمانيا وقابل هتلر. لقد أكثر من التحقيق معي كأنني جاسوس ألماني، وسألني عن العمل الذي أمارسه فأخبرته عن المدارس التي أعمل بها بتدريس اللغة العربية والإسلام وأخبرته أنّ اثنين من الضباط الأميركيين كانا من ضمن تلامذتي، فسأل عن اسميهما، ولقد فوجِئت عندما رأيتهما بعد يومين في مكتب القائد الذي استدعاهما للتعرُّف علي وللاستفسار عني. ويبدو أنهما أثنيا عليّ حيث إنني أخذت بعد يومين من مقابلتهما إلى معسكر كمب لي بولاية فرجينيا حيث حوكِمت من قبل أربعة ضباط سألوني عن سبب عدم امتثالي للانضمام إلى الجيش، فأخبرتهم بشعوري بالإهانة بسبب صرف نظر الاستخبارات العسكرية عن الاستفادة من خدماتي في الترجمة ومرافقة القوات الذاهبة إلى شمال أفريقيا.

كان الضابط الذي عُهِد إليه بالدفاع عني يهوديًّا، ولقد كان موضوعيًّا فأحسَن الدفاع عني، وسألني أحد القضاة: هل ترضى الآن أن تلبس زيَّك العسكري وتنضم إلى الجيش الأميركي؟ فقلت: نعم أقبل ولكني لن أكون متحمِّسًا كما كنت من قبل.

لم أدخل الحمام لمدة يومين كاملين، وذلك أنه كان يدخله مائة عسكري دفعة واحدة أو أكثر، فسألني المسؤول: لِمَ لا تدخل الحمام وتنظِّف بدنك؟ فأجبته: إنني لم ولن أتمكّن إذ إنني لم يسبق لي أن كشفتُ عورتي أمام الناس، فهذا محرَّم بالدين الإسلامي، فأخذ بيدي إلى رجل الدين العسكري المسؤول وكان ضابطًا، وبعد عدة أسئلة وجّهها إليّ أوضحت له أنني أصلي خمس مرات باليوم، فسألني: كم من الوقت تحتاج في كل صلاة؟ فقلت: خمس دقائق، وفي تلك الأثناء حضر ضابط اسمه الميجر سمث، وأخبره المسؤول الديني بحالي، فقال له: أعدُّوا له مكانًا خاصًّا وعاملوه كما ينبغي، إنه ليس جنديًّا عاديًّا، بل هو ضيف على الجيش الأميركي، وهكذا نصبوا لي خيمة إلى جانب المبنى، وصار يأتي كل صباح جندي

ويأخذ بيدي إلى الحمام فأدخله قبل دخول الجنود، وفي أثناء التمارين العسكرية التي كنت أشارك بها مع الجنود صرت إذا حضر وقت الظهيرة أو العصر يُسمح لي بالذهاب لأداء الفريضة بوقتها.

لم أستطِع تحمُّل قسوة التدريبات العسكرية بسبب كسر رجلي، وأُدخِلت المستشفى في كمب لي، ثم أعطيت تصريحًا بإعفاء شرفي من الخدمة العسكرية. وكان هذا التصريح يمنحني الحق بتقاضي تعويض مناسب وطالبت به دون إجابة، ثم بعد عودتي إلى المملكة طالبت مجدَّدًا وقدَّمت الوثائق المناسبة للسفارة الأميركية ولكنني لم أتمكّن من الحصول على التعويض الذي أستحقُّه.

لم تنقطع صلاتي - أثناء الأشهر الخمسة الأولى من جنديتي - بمدارس نيويورك وإمامة المسلمين فيها، وبعد التسريح من الجندية عُدتُ إلى نشاطي المعتاد وزدته عمّا كان مِن قبل من الجوانب العامّة، لكن ضيّقته بالنسبة إلى ساعات التدريس في المدارس الثلاث.

كانت الحرب العالمية الثانية لا تزال مستعرة الأوار لم تضع أوزارها بعد، وما زال شررُها يتطاير في كلِّ مكان، ولهيبها يحرق كل شيء، وأخذَت أمَمُ الأرض تتساءل: متى تنتهي هذه الحرب، وتنقشع غياهب البؤس والشقاء، فلقد قاست البشرية حتى الآن من الأهوال الشيء الكثير، وعانت من القتل والتدمير والتشريد ما لا يطاق، وبعد مُضي أكثر من ثلاث سنوات على هذا النزاع المرير بين الحلفاء ودول المحور، ظهر بصيص من الأمل أخذ يلوح في الأفق ويشير إلى أن كفّة الحلفاء بدأت ترجح بعدما أحرزوا أوّل نصر حاسم في موقعة العلمين، ومن ثم استعادوا شمال أفريقيا وطردوا قوات المحور منها.

في هذه الفترة الحرجة وأثناء هذا الصراع الشديد والنزاع المستمر قَدِمَ من المملكة العربية السعودية كما ذكرت في عام 1943م، إلى نيويورك وفد برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز وعضوية سمو الأمير خالد بن عبد العزيز، وكان مع الوفد الملكي إبراهيم السليمان رئيس ديوان الأمير فيصل، ومرزوق الريحان مرافق الأمير فيصل الخاص الذي لم يفارقه قط، بل كان يتبعه أينما ذهب.

غادر الوفد مدينة نيويورك متوجهًا إلى واشنطن، وحلَّ ضيفًا مكرَّمًا على الحكومة الأميركية في نزل (بيرل هاوس) تجاه البيت الأبيض، وقابل الأمير فيصل الرئيس الأميركي روزفلت، وقدَّم إليه رسالة من والده المغفور له الملك عبد العزيز، وتحادَث معه في أمور كانت تهمّ البلدين، لم يفصح عنها سموُّه وقتها.

وافاني الحظ في أن أكون بصحبة الوفد طيلة إقامته في الولايات المتحدة الأميركية، وفي تلك الأثناء اتَّصلت بي الجالية العربية في واشنطن للحصول على موعد من سموِ الأمير فيصل لتحظى بشرف السلام عليه والحديث إليه، وحدَّد سموه موعدًا لها، وقبل الموعد بعشر دقائق كلَّفني إبراهيم السليمان بالتوجُّه إلى السوق لإحضار أشياء قال إنها ضرورية طلبها الأمير فيصل وألحَّ على إحضارها بالحال، فقلت إن موعد زيارة الجالية العربية قد حان، فأجابني: إذا تأخرت سنأخذ الحيطة بمقابلتهم، فنفَّذت طلبه، وعدتُ إلى دار الضيافة أحمل الحاجات التي أوصاني عليها، وإذا بي أجد أفراد الجالية قد تشرَّفوا بالسلام على سمو الأمير وغادروا المنزل، ولدى مقابلتي لسمو الأمير فيصل بعد ذلك قال لي: كيف تَدَعْ أفراد الجالية العربية ثم تغادر المنزل دون أن تقابلهم، فأخبرته بما أوصاني عليه الشيخ إبراهيم، ومكث الوفد في واشنطن بضعة أيام، زار خلالها معالمها ودور آثارها ومصانعها، ودار سك النقود، وحديقة الحيوانات فيها وانهالت عليه الدعوات من أفراد الجالية العربية، فلبّى بعضها فقط، حيث لم يكن لديه متَّسع من الوقت ليلبي الدعوات جميعًا وقبل مغادرة الوفد مدينة واشنطن أقام الأمير فيصل حفلًا كبيرًا في فندق الماي فلور حضره العديد من الرسميين الأميركيين الموجودين في المدينة، ولقد كتبت اثنتان من صحف واشنطن عن الحفل الفاخر الذي سيطر عليه المظهر العربي من حيث المجلس والمأكل والملبس.

ثم غادر الوفد واشنطن إلى نيويورك، وقبل أن يغادر البلاد طلبت من سمو الأمير فيصل السماح بمرافقته للوطن العزيز، فاعتذر سموَّه قائلًا: توجد طائرة صغيرة ستقلّنا إلى لندن، ولا يوجد متَّسع فيها، حتى هدايا الملك عبد العزيز التي نحملها إلى ملك إنجلترا ورئيس الوزراء تشرشل لن يَسمح قائد الطائرة بتحميلها بطائرته، ذلك أنه يرغب أن يكون حمل الطائرة خفيفًا بسبب ظروف الحرب الدائرة

رحاها والتي طَحَن كل من اقترب منها، وعندما ودَّعته ابتسم قائلًا: في المرة الثانية إن شاء الله، فدعوت له بالسلامة في حلِّه وترحاله.

في الحقيقة كانت زيارة سمو الأمير إلى نيويورك ولندن في ذلك الوقت الحرج مخاطرة كبيرة وفيها جرأة نادرة، ولا بد أن الرسالة التي كان يحملها للرئيس روزفلت مع الرسالتين الأخريين إلى ملك بريطانيا ورئيس وزرائها أهمية قصوى، وعندما صارحتُ سموَّه حول هذه المخاطرة، قال: كل شيء يهون في سبيل مصلحة البلاد.

كان سموُّ الأمير ذا أخلاق عظيمة، يقابل الناس بلطف ويصغي إليهم ويتبادل الأحاديث معهم، وممّا يُعرف عنه أنَّ الإنسان إذا دخل مجلسه لا يملك أن يميِّز صديقه من عدوه، وهذه خصلة حميدة ميَّزته، وهي رائعة إذا ما صدَرَت عن الزعماء وأصحاب النفوذ.

كان سموُّ الأمير خالد بن عبد العزيز شابًّا مهذبًا، ومؤدبًا، ومتزنًا، يجلس في المكان اللائق به، كريم الخلق، كريم المعشر، فيه كل اللياقة والكياسة، لم يكن آنذاك قد مارس الحكم كأخيه سمو الأمير فيصل، وكانت هوايته القنص والتفسُّح في البادية بين العشائر العربية.

سألني مرزوق الريحان عن عملي في الولايات المتحدة الأميركية فأجبته: إنني لم أمارس الأعمال التجارية بعد، وإن عملي الآن هو تعليم الناشئة الإسلامية الجديدة أمور دينها مع اللغة العربية، ولديَّ ثلاث مدارس، واحدة في هارلم والثانية في بروكلن والثالثة في منهاتن، وتلاميذ المدرسة الأخيرة غير مسلمين إنهم أميركيون بعضهم جنود وضباط أتقاضى منهم أجرًا، أمّا المدرستان الأولى والثانية فلا أتقاضى منهما شيئًا، إنهم مسلمون عشرة بالمائة منهم بيض والباقي ملونون، ورغب مرزوق بزيارة هذه المدارس، فصحبته إلى الأولى والثانية، وأخبر سمو الأمير فيصل بما شاهده في المدرستين.

كنت متفائلًا جدًّا ومستبشرًا خيرًا بما كنت أقوم به من الخدمات الدينية وانتشار الإسلام في ربوع هذه البلاد العظيمة، وقد حصلت على النفوذ في أوساط المسلمين الجدد، فقد أولوني الاحترام واعتبروني مرشدهم الروحي وواعظهم الديني وإمامهم جزاهم الله كل خير.

كنت أحدِّثهم دومًا عن المغفور له الملك عبد العزيز وعمّا كان يقوم به من الأعمال المَجيدة لصالح بلاده ورعيَّته التي سجَّلها التاريخ على صفحاته الناصعة بسطورٍ من ذهب وأحرف من نور، وبدأت الصحف الأميركية العربية منها والإنجليزية تنشر أحاديثي ومقالاتي عن المملكة العربية السعودية وعن مؤسِّسها الملك عبد العزيز ويمكن للقارىء الاطِّلاع على بعض النماذج في ملاحق الكتاب.

لقد دخل في دين الله - وشهدت على ذلك - أعداد كبيرة من الأميركيين، وقد تحدَّث الرحّالة السوداني مطر في كتاب رحلاته عن نشاطاتي في الدعوة الإسلامية في أميركا وذكر أنَّ عدد مَن أسلَم على يدي وهداه الله بي من البيض والملونين قد تجاوز ألفًا وثلاثمائة واثنين وأربعين أميركيًا، وفي الحقيقة ليس لديّ إحصاءات صحيحة بعدد الذين هداهم الله بي، وعندي أنهم كانوا بضع مئاتٍ عُشرهم من البيض والباقي من الملونين، ومعروف أن الإسلام لم يميِّز بين أسود وأبيض، وأمير أو صغير، فالجميع سواسية كأسنان المشط، والجميع لآدم وآدم من تراب.

لمّا كان عدد الداخلين في الإسلام من الأميركيين يزداد يومًا بعد يوم وجدت نفسي مكلَّفًا بتلقينهم مبادىء الديانة الإسلامية، ووَضْع كتابٍ لهم بهذا الشأن، وأعانني الله وساعدني بعض الإخوان فوضعت كتابًا موجزًا باللغتين العربية والإنجليزية لقواعد الإسلام الخمسة وأركان الإيمان، وطبعت منه عشرة آلاف نسخة، وكان لهذا الكتاب رواج كبير بين فئات المسلمين في الولايات المتحدة، أخذ منه الشيخ خليل البزّي، رئيس الجالية الإسلامية الشيعية في الولايات المتحدة، مائتي نسخة، كما أخذ سعادة محمود حسن باشا سفير مصر في واشنطن، مائتي نسخة وزّعها مجانًا على أفراد المسلمين، كما طلب العديد من المسلمين المتيسرة أمورهم نسخًا تَراوح عددها ما بين العشرة إلى الخمسين نسخة.

وضعت كتيبًا آخر ابتدائيًا في تعليم اللغة العربية احتوى على كلمات سهلة وجمل بسيطة فصل أحرفها عن بعضها أحرف المدّ الثلاثة: الألف والواو والياء مثل: باب، داري، ماذا، هات، ما في، صافي، عام، فوزي، صار، حانوت، وذلك ليَسهُل على المبتدىء تلاوتها وكتابتها وقسَّمته إلى عشرين فصلًا.

بينما أنا في ذروة نشاطي هذا اتَّصلت بي هاتفيًا فتاة اسمها كونستانت ولمان ورغبَت بالتعرف إليّ، وأخبرتني أن والدها كان محاميًا شهيرًا وأستاذًا كبيرًا للقانون له مؤلفات تُدرَّس في الجامعات، كما أعلمتني أن والدها قد توفي، وأنها تعيش مع أمها وأنها ترغب بتعلُّم اللغة العربية.

بناءً على موعد اتَّفقنا عليه جاءت إليَّ فصحِبتُها إلى الأكاديمية الإسلامية فأخذَت درسًا بالعربية، ودعتني في اليوم الثاني إلى الطعام بحضور أمها، وهناك جرى الاتِّفاق بيننا على الزواج بعد أن تُعلن عن إسلامها وتصبح تُدعى كرما.

حدث هذا عام 1364هـ (1945م)، وكانت هذه الفتاة في العقد الثالث من عمرها، متخرِّجة في إحدى الجامعات، ويبدو أنها كانت مكوِّنة فكرة مسبَقة عني، وفي تلك الآونة حضر إلى الولايات المتحدة وفد كبير ضمَّ غالبية الأمراء من أبناء المغفور له الملك عبد العزيز للمشاركة في مؤتمر سان فرانسيسكو للتوقيع على ميثاق الأمم المتحدة، وقد لازمْتُ هذا الوفد وعملت مترجمًا ومرافقًا للأمير (الملك) فهد، ولهذا تأجَّل زواجي إلى ما بعد سفر الأمراء.

فقد وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وألقت ألمانيا سلاحها واستسلمت دون قيد أو شرط كما أراد الحلفاء، وتغيَّرت معالم برلين، عاصمة ألمانيا، فقد دَكّت أبنيتها الأنيقة وشوارعها المستقيمة الواسعة، قنابل الطائرات دكًا، وكانت برلين المقر الرئيس لهتلر، الرجل الذي حارب العالم وأقضّ مضجعه، فقهر فرنسا، واستولى على كثير من دول أوروبا، وأخضع لحكمه شمال أفريقيا، وأرسى جيشه قواعده في العلمين، فكان على قابِ قوسين من الإسكندرية، عاصمة الحكومة المصرية الصيفية، وتوغَّل في روسيا حتى وقف قريبًا جدًا من أبواب موسكو - ثمانية عشر ميلًا فقط - وصبَّ جامَ غضبه على لندن، فأمطرها بمتفجِّرات فتّاكة هدّامة، لم تَأْتِ على شيء إلّا جعلته كالرميم وحاول أن يلوي ذيل الأسد البريطاني ليملي عليه إراداته، ويجعله تحت سيطرته ونفوذه، كما حاول أن يجعل البحر المتوسط بحيرة ألمانية، كما حاول نابليون بونابرت من قبله ولكن جواده عثر ولم يفلح، فتراجَع أمام جحافل الحلفاء، وبفعل سيطرتهم وقوّتهم، وأخفَق في أن يجمع أمره، تاركًا وراءه في البلدان التي احتلَّها الخراب

والدمار، وبقيت جيوش الحلفاء تلاحقه حتى سقطت برلين، وانقسمت ألمانيا إلى شطرين، ووقعت فريسة بين مخالب أربع دول تقاسَمَتها فيما بينها، واتَّخذ كلٌّ منهم مقرًّا فشَرْقها تحت حكم الروس، والشطر الآخر استولت عليه الحكومات الثلاث: فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة الأميركية. واستنشق العالم نسمة الحرية، وانقشعت عن سمائه فظاعة الحروب وويلاتها وبدأ الشمل المتبعثر يلتئم، وأخذ الناس يجمعون ما تناثَر من أمورهم ويعيدون بناء ما أتَت عليه الحرب من مصانعهم ومنازلهم، وأمنوا على أموالهم وأنفسهم، فتحرَّك دولاب العمل في ربوعهم، وفتحت المصانع أبوابها وأخذت تنتج وتصدِّر.

أعلن الحلفاء عن مؤتمر للسلام، وجعلوا مقرَّه مدينة سان فرانسيسكو من ولاية كاليفورنيا، دُعِيَت إليه حكومات العالم الصديقة لدول الحلفاء وبدأت وفودها تَؤُمُّ المدينة، الواحد تلوَ الآخر، وكان من بينها وفد المملكة العربية السعودية وعلى رأسه سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز، وعضوية إخوانه الأمراء محمد، وفهد، ونواف، أبناء عبد العزيز وسمو الأمير عبدالله الفيصل، والأستاذ علي رضا زينل، وقد رافق الوفد كلٌّ من حافظ وهبة، والدكتور رشاد فرعون وإبراهيم السليمان، وصالح العباد، وعبدالرحمن البسام، وكان برفقة كلٍّ منهم أحد معاونيه، فمرزوق الريحان اختصَّ بالأمير فيصل، وذياب الجوهر بالأمير محمد، وسليمان بالأمير فهد، والدكتور فرعون بالأمير نواف، ولم أعد أذكر اسم الذي اختصَّ بمرافقة الأمير عبدالله الفيصل، وقد خُصِّص لكلِّ أمير منهم مرافق كمترجم، فأُلحِقت أنا بالأمير فهد بن عبد العزيز، وبقيت بمعيته طيلة إقامة الوفد في الولايات المتحدة الأميركية.

اهتمت شركة الزيت السعودية - الأميركية «أرامكو» اهتمامًا بالغًا، بأفراد الوفد العربي السعودي يفوق الوصف، واعتنت به اعتناءً زائدًا، لم تَرَهُ بقية الوفود، فالترحيب الكبير، والإكرام الزائد، والملاقاة الطيبة، التي قوبل بها رؤساء شركات البترول ومن أفراد الشعب الأميركي، شيء يكاد يفوق التصوُّر، ويفوق الوصف وقد خصصت الشركة لكل أمير مرافقَين اثنين من الأميركيين للمحافظة عليهم، والاعتناء بهم وبراحتهم. ووضعت تحت تصرُّف الوفد العربي طائرة خاصة نقلتهم من

نيويورك إلى سان فرانسيسكو ثم طافَت بهم أمَّهات مدن الولايات المتحدة الأميركية فشاهدوا معالمها، ووقفوا على مصانعها، وتجوَّلوا بمتنزَّهاتها ودور آثارها، وأقامت لهم الحفلات الفخمة، لتجعل من هذا كله نموذجًا حسنًا، في علاقتها مع الحكومة العربية الفتية، الغنية بذهبها الأسود.

لم يقتصر هذا الترحاب واللقاء الجميل على أفراد شركة الزيت العربية - الأميركية (أرامكو) وأفراد الشعب الأميركي بمجموعه، بل شاطرتهم به حكومة البلاد، فكلَّفت وزارة الدفاع لتحتفل بالوفد العربي، فأقامت الوزارة عرضًا للدبابات على شرفه، وأحضرت لهم ملابس الجنود فلبسوها، وقدَّمت لكلِّ فردٍ من أفراده صورًا فوتوغرافية ملونة كبيرة، وركبوا الدبّابات وهم بملابس الجنود، وطافت بهم بعض الوقت.

في الأيام التي قضاها الوفد في كاليفورنيا زار مدينة لوس أنجلوس، وتعرَّف على الكثير من رجالات السياسة والأعمال الحرّة ثم عاد إلى سان فرانسيسكو، وأقام سمو الأمير فيصل حفل غداء في أحد المنازل المشهورة في هذه المدينة دعا إليه رجال السياسة، وأرباب المصانع، والبنوك ورجال الأعمال، والرؤساء المنفذين في شركة الزيت العربية - الأميركية، وكان حفلًا فخمًا، تحدَّث القوم فيه حول مختلف الشؤون السياسية منها والاقتصادية.

أقامت شركة الزيت العربية - الأميركية على شرف الوفد العربي حفل غداء في أحد متنزَّهات سان فرانسيسكو، دعت إليه كثيرًا من وجوه المدينة من ذوي الميول السياسية والاقتصادية، وتمشَّى أعضاء الوفد في مروج المتنزّهات الخضراء، وطرقها المستقيمة، وتحت أشجارها الوارفة الظلال.

أثناء إقامة الوفد العربي السعودي في مدينة سان فرانسيسكو، قَدِمَ من دمشق لزيارة الولايات المتحدة الأميركية ثلاثة زعماء كانوا ينتمون إلى البرلمان السوري، وهم فواز الشعلان، رئيس قبيلة الرولة، وفاعور الفاعور، زعيم قبيلة الفضل، وحسن الأطرش أحد زعماء الدروز في سورية، وحلّوا ضيوفًا في الفندق الذي كان يحتلّه الوفد السعودي، فقضينا معهم أوقاتًا طيبة شيقة.

وجّه الصف الثالث من إحدى المدارس الابتدائية في مدينة سان فرانسيسكو

دعوة إلى سموّ الأمير نواف بن عبد العزيز لزيارة المدرسة وكان أصغر الأمراء سنًا، لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وأشفَعَتها ناظرة المدرسة بدعوة منها، فلبّى سموه الدعوة عن طيب خاطر، وبعد تطوافه في المدرسة، واجتماعه بالأساتذة والمهتمين بأمرها، دخل الصف الثالث، فحيّاه الطلاب، فرد التحية بأطيب منها.

ثم أجاب عن أسئلتهم التي وجّهوها لسموّه، وكانت عن زيارة سموه لأميركا، وهل كان مسرورًا؟ وهل بلادكم فيها الأشياء الموجودة في بلادنا؟ وبعدها سألهم عن أسماء القارات الخمس؟ وعدد حكومات أوروبا؟ ومن هي أقوى دولة فيها؟ وإلى أيِّ الحكومات ينتمي كلٌ من تشرشل وستالين؟ ومن منهما أكثر لباقة وسياسة؟ وأنضج فكرًا؟ ومن هي المملكة الفتية في البلاد العربية التي ظهر فيها البترول؟ ومن هو مليكها؟ وفهم التلاميذ أسئلته ولكن لم يكن لدى أيٍّ منهم الجرأة الكافية ليجيب عن سؤال واحد منها، ربما لم يكونوا قد وقفوا عليها بعد، ولم يدرسوها في مدرستهم، فقال لهم سموّه إن أسئلتي صعبة عليكم على ما أعتقد، ولكن مَن يجيبني عن سؤال واحد: من أي البلاد أتيت أنا؟ فقال أحدهم من (ساوث إريبيا) أي من جنوب البلاد العربية، فقال: ومن هو مليكي وما اسمه؟ فلم يُجِبه أحد، فقال سموه: إني متأسِّف لعدم معرفتكم اسم بلادي واسم مليكي، فكيف تدعون أميرًا لزيارتكم، ولا تعرفون اسم بلاده؟ ولا اسم مليكه؟ وأردف قائلًا:

إن اسم بلادي، المملكة العربية السعودية، واسم مليكي عبد العزيز آل سعود، وإن المملكة التي ظهر فيها البترول هي بلادي، وقبل أن يودِّعهم استأذنوه لأخذ صورة لسموِّه معهم فحقَّق مطلبهم ونزل عند رغبتهم، ثم غادر المدرسة مودِّعًا بالاحترام والتقدير.

كانت نفسية الأمراء طيلة إقامتهم في سان فرانسيسكو مُرضية للغاية، وكانت الأحاديث فيما بينهم، تدور حول ما شاهدوه ويشاهدونه من العظمة والحرية، والعمران والازدهار، في ربوع أميركا، وقد صمَّموا على أن يسير وطنهم البلاد العربية السعودية على منهاجها في العلوم والفنون والعمران والازدهار، وكانوا يبنون هذا التصميم على واردات البترول التي ظهرت بكميات كبيرة وافرة في المملكة.

لم يتسنَّ لي الاختلاط كثيرًا بسمو الأمير فيصل إذ كان نزيل فندق في سان فرانسيسكو وبقيّة الأمراء نزلاء في فندق في بيركلي وكان أخوه سمو الأمير محمد ورفاقه لا يغادرون الفندق إلّا قليلًا. وكان الأمير نواف ينهض مبكرًا، ويذهب للأسواق، ليشاهد ما تعرضه المحال التجارية من التُّحف النفيسة ولا يفوته أن يشتري ما يروق له من التحف بعض الأحيان، واعتاد سموّه أن يطرق باب غرفتي صبيحة كل يوم لأتناول معه الإفطار وليقصَّ عليَّ ما شاهده في ليلته. وفي أحد الأيام قلت إنني يا صاحب السمو لم أنَمْ طيلة الليلة الماضية فهل تأذن لي هذا اليوم أن أمكث في غرفتي لآخذ راحتي؟ ولكنه أصرَّ على مرافقتي، فامتثلتُ لأمره ونزلت عند رغبة سموه.

كان الأمير نواف أصغر أعضاء الوفد سنًّا، وكان عظيم النشاط متَّقد الذكاء، ومع أنه لم يتجاوز وقتها الثانية عشرة من عمره، كان يسأل بعض زواره عن المستر تشرشل، وعن ستالين، وعن الرئيس روزفلت، ويستوضح أيّهما أحسن سياسة وأقوى تفكيرًا، وكان بعضهم يفضّل روزفلت ثم تشرشل، لكن سموه فضَّل تشرشل ورأى فيه رجل دولة خدَمَ أمته وقادها في أصعب الظروف.

كان سمو الأمير عبدالله الفيصل يستيقظ باكرًا، ويتناول فطوره في غرفته كبقية الأمراء الذين كانوا يأخذون فطورهم في غرفهم ثَمَّ كان يأخذ مجلسه في إحدى زوايا بهو الفندق.

لقد وفِّق سموه بمرافقة شاب نشيط، يجري دم الشباب في عروقه، كان يدرس في جامعة كاليفورنيا، وكان لهذا الشاب معارف عديدون، وكان سمو الأمير عبدالله يلبّي دعواتهم فسنحت له فرص طيبة، لقد كان متأجِّج العاطفة، شديد الإحساس، جمَّ التواضع، كريم النفس، هادئًا في مشيته، تنمُّ نظراته عن خبرة واسعة، ومعرفة بأحوال الناس. وقد حملتني هذه الصفات الحميدة على التنبؤ له بمستقبل زاهر.

كانت زيارة الوفد العربي للولايات المتحدة الأميركية طيبة ومفيدة، كما أعتقد، وعلى ما تبيَّن لي، ولمسته، وسمعته من أفراده، بل كانت من أحسن الأوقات التي مرَّت عليهم في سفرهم للخارج، إذ شاهدوا معالم مدينة عظيمة

ووقفوا على ما بها من عمران وازدهار، واجتمعوا برجال أفاضل، منهم السياسيون، والمثقفون، ورجال الأعمال، وكان ما لقوه من احترام، وتقدير، يفوق الوصف.

والعرب بطبيعتهم، يقدِّرون، ويحترمون مَن يبادلهم الاحترام والتقدير، ونبيهم محمد ﷺ يقول: «إنَّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»، فالشعب العربي ومنهم السعوديون يسعون بين الناس بكِلتا الفضيلتين، الأخلاق والأموال.

كما أتيح للأمراء الالتقاء بكافّة أفراد الشعب، ومنهم الخدم والعمال، وقد رأوا العلماء واختبروا الجميع، إذ إن ديمقراطيتهم التي نشأوا عليها منذ نعومة أظفارهم كانت بعيدة كل البعد عن العنصرية، فلا أثر لها عندهم، فالملك والأمير منهم يجالسون ويقضون أوقات فراغهم مع خدمهم، ولا فرق لديهم بين الطبقات، فقيرهم كغنيهم، وخادمهم كأميرهم، فكلّهم سواسية كأسنان المشط وكلهم لآدم وآدم من تراب.

كان للصورة الفوتوغرافية التي أخِذَت لسمو الأمير فيصل وهو يصافح ذياب الجوهر مرافق الأمير محمد، أثناء نزوله من الطائرة، والابتسامة يشرق بها وجهه الصبوح، وقعها الحسن الجميل لدى كلٍّ مَن شاهدها.

كان لسمو الأمير فيصل أموره الخاصة وأشغاله السياسية، كما كان بعيدًا عنّا، ينزل فندقًا بسان فرنسيسكو، كما ذكرت، ولذا لم يتسنَّ لي الاجتماع بسموّه إلّا قليلًا، والذي أعرفه عنه أنه قليل الكلام، يتطرق في بعض الأحيان في مجلسه العام إلى الأمور السياسية، ويتكلم عنها بصورة عامة تاركًا لمن في مجلسه الخوض فيها لكي يستمع إلى آرائهم، وهذا ما جعله يتغلّب على منافسيه في السياسة، وفي غيرها من شؤون الحياة، كان يأخذ الأمور بالتجمُّل والصبر والأناة، وضبط الأعصاب، فلا يتسرَّع، أو يَبُتّ في الأمر، إلّا بعد فحص وتدقيق، لا تَعرِف في مجلسه، مَن هو المقرَّب إليه أو النافر منه أو عدوّه من صديقه، كلهم في مجلسه سواسية، يبتسم لهذا ويصافح ذاك، ويصغي للمتكلم، إذا أحب أحب، وإذا أبغض أبغض، وما من أحد يزعزعه عن معتقده أو في حبّه وبغضه، لديه موهبة في اختيار الرجال واختبارهم، كان يأخذ الأمور كلها على عاتقه، ويمضي الساعات الطِّوال لمتابعة

أمور الحكم وما أنيط به من أمور الدولة، وهو جدير بتحمُّل المسؤولية كاملة، فكان عند قول القائل:

وإنَّما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعول في الدنيا على أحد

قبل أن يعيَّن الشيخ حافظ وهبة سفيرًا للمملكة في لندن، عيَّنه الملك عبد العزيز معاونًا للأمير فيصل وكان (فيصل) نائبًا للملك في الحجاز، فأخذ سموّه يشتغل ليلًا في قصره ويُنهي جميع أمور الرعيّة المعروضة عليه، وفي الصباح يأتي حافظ للمكتب فيجد جميع الأعمال منتهية والأوراق مفصول فيها ومفروزة على الطاولة لتذهب إلى الأقسام المخصَّصة لها، ولم يجد حافظ عملًا يقوم به، وبقي على هذا أيامًا قلائل، فقدم حافظ وهبه رحمه الله استقالته لجلالة الملك عبد العزيز، فاستفسر جلالته عن سبب استقالته، فأجابه: إن فيصلًا يقوم بشؤون الرعية خير قيام، ولم يترك لي عملًا أمارسه أو أقوم به وبعد أعوام تشعبت أمور الدولة، وكثرت مطالب الشعب، وأخذ الفيصل يغادر الحجاز لحضور المؤتمرات، فعيَّن الملك عبد العزيز ياسين الرواف وخالد القرقني معاونين لسموّه.

قبل مغادرة وفد الأمراء لمدينة سان فرانسيسكو عائدين إلى المملكة أراد الملك فيصل رحمه الله أن يصطحب معه الأستاذ علي رضا، الذي كان يدرس وقتها في كاليفورنيا، للعودة والعمل في المملكة واستأذن علي رضا الملك فيصلاً، لكي يسمح له بأن يتزوج من امرأة أميركية وأن يأخذها معه إلى المملكة، فوافق الملك فيصل رحمه الله على ذلك وطلب مني أن أعقد قران الأستاذ علي رضا على زوجته الأميركية مريام علي رضا، التي اشتهرت بعد ذلك في كتاباتها ومقالاتها عن المملكة، ولقد عقدت قرانهما على بركة الله، ورافقَت السيدة مريام وزوجها وفد الأمراء في عودتهم إلى المملكة، وهي تقيم حاليًا في كاليفورنيا ويُقيم أولادها في المملكة.

وبعد العودة من سان فرانسيسكو تمَّ عقد القران في دار والدة كرما (كونستانت ولمان)، وكانت تقطن في بناءٍ يحمل الرقم 681 في شارع مدسن في نيويورك، وبحثنا عن بيت لنا فعثرنا على طابق سادس في مبنى يحمل الرقم 817 على الشارع الخامس الذي فصل شرقي نيويورك عن غربيها وهو حقًّا من أكبر شوارع مدينة

نيويورك، وهذا المنزل هو الذي سكنه منذ قرابة عشر سنوات الرئيس السابق نيكسون.

كان البيت واسعًا جدًا وقد اتخذتُه مسكنًا تجاريًا، فقد حوى ستّ غرف نوم وصالة كبيرة يمكن أن تستوعب أكثر من مائة إنسان مع غرفة طعام كبيرة وثلاث غرف للخدم، إلى جانب المطبخ الواسع. وكان المبنى يشرف على المتنزَّه الكبير في نيويورك، ويحتوي هذا المتنزه على مطعم مفتوح صيفًا وشتاء، وملاعب للأطفال وعربات تجرُّها الخيول الفاخرة يتنزَّه عليها أهالي نيويورك، وفيه عدد من المنشآت تضمّ مختلف الآثار، وتتجمَّد في الشتاء بعض الأماكن منه وتُتَّخذ ملاعب للتزلج. ودفعنا إيجار هذا الطابق مبلغ ألف دولار شهريًا، وقيل لنا إن الإيجار مرتفع فراجعنا الحكومة فأرسَلت مَن ثمَّنه وأنزل إيجاره إلى سبعمائة وخمسين دولارًا للشهر.

بعد الزواج مباشرة قرَّرت العمل بالتجارة وذهبت إلى أحد البنوك في مدينة نيويورك وطلبت مقابلة رئيسه، ولدى اجتماعي به عرَّفته بنفسي وأنني أتمتّع بصفة أول مهاجر سعودي إلى أميركا، وطلبت إعطائي سلفة مالية، وطلب مدير البنك بعض المعلومات عني فقدَّمتها له، وقام بالاتِّصال بالقنصلية الأميركية في جدّة وجاءت المعلومات مطابقة لِمَا قدّمته وحصلتُ على السلفة، وبدأتُ العمل التجاري في أعمال التصدير لا سيما الأقمشة وغيرها ووُفِّقت في الأعمال التجارية حتى أنه بات يعمل في مكتبي سبع سيّدات وذلك بالإضافة إلى زوجتي.

كان الزواج موفّقًا في البداية، وقد رُزقت من زوجتي بولد أسميته نوافًا، وكان في زوجتي حرص شديد على مستقبل ولدنا وظلّت علاقتنا على خير ما يرام، وأعمالي موفّقة ولي عملاء كبار من سوريين ولبنانيين وسواهم.

في عام 1946م، عاد الأمير فيصل لزيارة أميركا، ومن ضمن مرافقيه في هذه الزيارة الشيخ حافظ وهبة والشيخ علي رضا زينل، ومرزوق الريحان، وأثناء وجودهم في نيويورك كنت أتردَّد عليهم في فندق ولداوف إستوريا، كان الشيخ عبدالله سليمان الحمدان، وزير المالية آنذاك يقوم بزيارة لنيويورك، وكان برفقته عبدالمنعم رياض، المستشار الاقتصادي للملك عبد العزيز والشيخ عبدالله الخريجي

والسيد صدقي كعكة، وسليمان الحمد، وأحمد موصلي رئيس مكتبه، ولقد أجريت معهم بعض الصفقات التجارية وتعهّدت بتوريد بعض الأقمشة والأشياء الأخرى لهم إلى المملكة.

زار مدينة نيويورك صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله عام 1366هـ (1947م)، وكان وليًّا للعهد، قادمًا من المملكة العربية السعودية، مصطحبًا نجله الأمير ممدوح وبرفقته المشايخ سليمان الحمد السليمان وفهد بن كريديس، وفؤاد حمزة. ومن العسكريين اللواء حمد النملة، ولقد رافقت جلالته أثناء هذه الزيارة إلى واشنطن العاصمة، وحضرت الاحتفالات الكبيرة التي أقيمت لجلالته من رجال الحكومة الأميركية ومن موظفي شركة أرامكو ومن السفارة السعودية وتوجّه جلالته إلى زيارة ولاية كاليفورنيا، وعدتُ أنا إلى نيويورك مع الشيخ فهد بن كريديس، وساعدته بشراء الحاجات التي أوصانا عليها جلالته، ولقد كان ابن كريديس رحمه الله شهمًا كريم الأخلاق، ولقد سعدت برفقته كثيرًا.

كلَّفت أحد معارفي من أرباب الصحف بجمع ما تنشره المجلّات والصحف الأميركية أثناء تنقُّلات جلالته في ربوع هذه البلاد العظيمة، فجمَعَها في مجلَّدين ضخمين قدَّمتهما لجلالته.

كما زار مدينة نيويورك في تلك الفترة أيضًا في أوقات مختلفة أصحاب السمو الأمراء ناصر بن عبد العزيز رحمه الله وعبدالمحسن بن عبد العزيز رحمه الله ، وطلال بن عبد العزيز، وعبدالرحمن بن عبد العزيز - أطال الله عمريهما - ولقد رافقت كُلًّا منهم أثناء زيارتهم في التعرُّف إلى معالم مدينة نيويورك وشراء بعض الحاجات منها.

توطَّدت علاقتي بعد ذلك بسموّ الأمير طلال بعد عودتي إلى المملكة وكان سموّه قد أوصاني بشراء بعض الحاجات من أميركا، وأذكر أن سموه قد ذكر أثناء زيارته لمدينة نيويورك أنه سوف يتعلم اللغة الإنجليزية في مدة قصيرة وفعلًا، فلقد وجدت سموه عند عودتي للمملكة في السنة التالية لزيارته يتكلم الإنجليزية بطلاقة.

في سنة 1397هـ (1977م)، أثناء وجودي بمكتب سموّ الأمير طلال بالفاخرية

أطلعَني سموّه على صورة منشورة في جريدة الجزيرة للرئيس الأميركي نيكسون وعائلته واقفين أمام البناية التي كنت أسكنها في نيويورك، وعلمت بعدها أن الرئيس نيكسون استعمل لسكنه الطابق السادس الذي كنت أسكنه أثناء إقامتي في نيويورك، وكانت هذه البناية تحمل رقم 817 الشارع الخامس من مدينة نيويورك، وأثناء زيارة سموّه لنيويورك مع بعض رجاله عام 1953م، مرّوا من أمام العمارة التي كنت أسكن بها فأخبرهم سموه بأنّ خليل الرواف، أحد عقيلات نجد، كان يسكن ويدير عملًا تجاريًا في هذه العمارة. وعندما أُلقيت على سموّه مقاليد وزارة المواصلات عُيِّنت فيها رئيسًا لقسم المشتريات. ثم عملت كوكيلٍ لسموّه في المنطقة الغربية في جدة.

أعود لأذكر أن وزير المالية عبدالله السليمان أوصاني بشراء بضائع من واردات متعدِّدة للحكومة بمقدار ثلاثمائة وخمسين ألف دولار على أن أتقاضى عمولة خمسة بالمائة، وأن تكون هذه الصفقة باكورة أعمال ستتطوَّر فيما بعد، حيث أكون المسؤول عن توريد كل ما تحتاجه المملكة في المستقبل.

أوصاني في الوقت نفسه بإعادة طبع خمسة وعشرين ألف نسخة من كتاب ترجمة معاني القرآن باللغة الإنجليزية وخمسة وعشرين ألف نسخة من كتاب الإسلام للأستاذ غلوش، رئيس جمعية الشبّان المسلمين في مصر، على أن لا أتقاضى أي ربح أثناء البيع، بل يكون البيع بالتكلفة، وعلى هذا الأساس أعطاني شيكًا بمبلغ مائة ألف دولار، وكتب الشيك وقتها الأستاذ أحمد الموصلي وقال الوزير ابن سليمان: استخدم هذا المبلغ للبدء في طباعة الكتب الإسلامية ولتسديد جزء من ثمن البضائع التي أوصيت بشرائها وسوف يعطيك الشيخ أسعد الفقيه، سفيرنا في واشنطن، باقي المبلغ حالما يتسلَّم مبلغ العشرة ملايين دولار من أرامكو.

لكن أرامكو تأخَّرت في تسديد الشيك لسعادة السفير الذي شرَعَ في تأدية ثمن المشتريات على دفعات صغيرة وكانت آخر دفعة منها سبعة آلاف دولار سدَّدها خلال فترة تجاوزت السنة أمام الأمير فيصل بن عبد العزيز وكان وقتها في زيارة للولايات المتحدة. ولقد أدّى تأخير تسديد المبلغ إلى إلحاق ضررٍ كبير بأعمالي التجارية، إذ إنني اقترضت من البنوك جزءًا كبيرًا من ثمن البضاعة عند شرائها.

نتيجة مشاكلي مع البنوك والضائقة المالية التي أصابتني وتأثيرها على أعمالي التجارية أصبت بخيبة أمل شديدة وتحوَّل ذلك إلى مرضٍ شديد ألزمني الفراش مدّة شهرين كاملين.

لقد نتج عن ذلك تدخُّل زوجتي كرما في الموضوع وأدّى تدخُّلها هذا في النهاية إلى طلاقنا وفراقنا بالرغم من انسجامنا وسعادتنا في حياتنا الزوجية خاصة بعد قدوم المولود الذي رزقنا الله به، وطلاقنا مهَّد الطريق لعودتي إلى أرض الوطن، إنها إرادة الله التي تسيِّر شؤون العباد، فلقد ذهبت إلى أميركا على إثر زواجي من زوجتي الأولى الأميركية، وغادرتها بعد طلاقي من زوجتي الأميركية الثانية.

بعد أن أصبحت طريح الفراش بدأت زوجتي بملاحقة الموضوع مع أسعد فقيه لتحصِّل باقي المبلغ وأخبرته بمرضي وبالمشاكل التي أصابتنا نتيجة تأخُّر تسديد المبلغ.

بدأت زوجتي التي تضايقت من ورطتنا مع البنوك ومن ضائقتنا المالية، تلحُّ عليَّ باتِّخاذ موقف حاسم لتحصيل المبلغ عن طريق المحكمة، فزوجتي الأميركية لم تقدِّر ظروف السفارة المالية التي نتجت بسبب تأخُّر تسديد الشيك من قبل أرامكو.

كانت غالبًا ما تقول لي: لا بد من أن ترفع القضية إلى المحكمة، وحاولتُ أن أشرح لها الأمر وأوضِح لها الحقيقة فقلت: لقد قَدِمْت إلى هذه البلاد وحيدًا وبنيت خلال سنوات سمعة رائعة لبلدي ومليكي عبد العزيز، وفعلت ما فعلت عن حبٍّ ووجدان صادقَين، أتريدين مني هدم كل ما بنيته من أجل كمية من المال، ما من مال في الدنيا يساوي حبي لوطني ومليكي عبد العزيز، وإن شاء الله سوف يقوم السفير بتسديد المبلغ وسيعطينا أموالًا إضافية لتعويضنا عن التأخير وعن الضرر الذي أصابنا ولسوف تنكشف هذه الغمّة عنّا قريبًا، فاصبري ودعي عنك هذه الأفكار التي لا تفيد.

طلبتُ من زوجتي أن تمتنع عن مضايقة سعادة السفير وهدَّدتها بالطلاق، وتطوَّر الخلاف وسِرْنا في طريق الفراق.

قبل الطلاق بشهر واحد قامت بسحب مبالغ كثيرة من أرصدتي من البنوك، وطالبتني أن أجعلها شريكًا لي في أعمالي التجارية فرفضت، وأوقفتُ العمل وأعلنتُ عن إفلاسي وكانت عليّ بعض الديون لمَن كنت أتعامل معهم في البلاد العربية مثل: عبدالله الخريجي، وصدقة كعكعي، وعبد الرحمن القصيبي، فسدَّدتها وكان آخرها مبلغ ألفي دولار سدَّدته لأحد أولاد القصيبي في الرياض بعد عودتي إلى المملكة من أميركا.

إثر هذا طلَّقت زوجتي وافترقنا إلى غير عودة، وقرَّرت العمل في سبيل مغادرة الولايات المتحدة والعودة إلى الوطن العزيز، لقد استمر زواجي ثلاثة أعوام، والذي أذكره أنها كانت امرأة تحبّ التجارة والمال. وهي لا تزال حية حتى الآن، ولقد قابلتها في واشنطن أثناء رحلتي الأخيرة في صيف عام 1412هـ (1991م)، إلى أميركا، ولقد تمكَّنت في السابق من قطع صلتي مع ولدي نواف حيث غيَّرت اسمه ولم أعُدْ أعلم عنه شيئًا لسنوات طويلة ثم علِمْت من بعض الإخوان المصريين الذين كنت أعرفهم في أميركا أنَّ نوافًا الذي أصبح اسمه كليف أبو شادي كان ضمن الذين ذهبوا إلى حرب فيتنام.

لقد طويت بقرار الطلاق والنية بالعودة إلى الوطن صفحة غالية من حياتي، صفحة كلها نشاط في سبيل بلدي ومليكي وأمتي وعقيدتي، فلن يكون بعد اليوم نشاطات دعوية، ولا افتتاح مدارس، ولا خطابات، ولا مهرجانات. لن يكون بعد اليوم اجتماعات كالتي عقدتها في منزلي لتأبين عبدالمنعم رياض، وكما فعلت عندما كنت أحتضن وفود الدول العربية في الأمم المتحدة، ففي عام 1367هـ (1948م) - على سبيل المثال - عندما قرَّرت الأمم المتحدة الاعتراف بإسرائيل خرجت وفود الدول العربية من الجمعية العامة وهي بحالة سيئة جدًّا من الانهيار النفسي، والغضب الشديد، فوجَّهت دعوة لهذه الوفود العربية للاجتماع في منزلي للتباحث حول كل ما جرى والتخطيط لما يمكن عمله وللقيام بمظاهرة إعلامية يستنكرون فيها الاعتراف اللاإنساني بإسرائيل وباغتصاب الصهاينة لفلسطين العربية.

حضر الاجتماع أكثر من سبعين رجلًا من كبار شخصيات العرب السياسية والدبلوماسية مع أرباب الصحف والمجلات وبعض زوار لندن مثل أمين زيدان

نجل جرجي زيدان، صاحب المؤلفات المشهورة وصاحب جريدة المقطم، وتكلم في الاجتماع الأستاذ الكبير فارس الخوري، وأعرب عن استيائه الشديد ورفضه للقرار الذي اتّخذته الأمم المتحدة والدول الكبرى.

كانت تربطني بالأستاذ فارس الخوري صداقة كبيرة، فعندما أقمْتُ حفل تأبين لعبد المنعم رياض تكلَّم فيه الأستاذ الخوري، وحضر ذلك الحفل في منزلي محمود حسن باشا، السفير المصري في واشنطن، وحضر معه قنصل مصر، كما كان من بين الحضور أمين زيدان، وأصحاب الصحف العربية الست في نيويورك، وهم إيليا أبو ماضي، صاحب «السمير» وفوزي البريدي، صاحب «الإصلاح»، وعبد المسيح حداد، صاحب «السائح»، والشيخ سليمان بدور، صاحب جريدة «البيان»، والأستاذ المكرزل، صاحب «الحياة»، وكذلك صاحب جريدة «مرآة الغرب»، والبقية من الشعراء العرب وعلِّية القوم من عرب نيويورك، وكان عريف هذه الحفلة أبو شادي الأستاذ الأديب أحمد زكي.

كنت أيضًا قد أقمت حفلًا خاصًا للأستاذ أحمد زكي تكلَّم يومها فيها عن الإسلام والمرأة المسلمة.

مع أواخر عام 1948م، أوائل عام 1367هـ، عزمت على مغادرة الولايات المتحدة إلى الوطن العزيز، وهنا قدَّمت كشفًا إلى الحكومة بحساباتي التجارية، حيث لا يمكن لأيِّ تاجر مغادرة الولايات المتحدة الأميركية إلّا إذا قَدَّم كشف حساباته وسدَّد ما ترتَّب عليه من ضريبة الدخل، وضريبة الدخل في الولايات المتحدة تُدفع تصاعديًا بعد أن يُخصم منها مصروف الأسرة الشهري مع ما تحتاجه الأسرة من الملبوسات وما يقدَّم من تبرعات للجمعيات الخيرية مع إيجار المنزل والمشافي والأموال المرسلة إلى الخارج لمساعدة الأهل لمن كان أهله خارج الولايات المتحدة، وبلغت ضريبتي السنوية للعام الأخير في الولايات المتحدة (6600) دولار. وسدَّدت هذا المبلغ وأعدَدْتُ العدّة للسفر.

الجزء الثالث

فراق طويل ثم لقاء

يختلف الجزء الثالث من الكتاب عن الجزءين الأول والثاني، فهو أقرب إلى الخاتمة منه إلى الجزء المستقل، ولم أستعرض فيه تفاصيل ذكريات حياتي بعد العودة إلى الوطن الغالي، وإنَّما اكتفيت بتقديم نبذة موجزة عن بعض الأحداث والانطباعات المهمة التي مرَّت بي. وكذلك قصة زيارتي الأخيرة للولايات المتحدة عام 1412هـ (1991م)، التي توَّجها الله بلقائي مع الابن نواف الذي أقرَّ عيني به بعد أن تجاوزت الخامسة والتسعين من عمري، وبعد أن فقدت الاتِّصال به خمسة وأربعين عامًا.

عندما تركت الولايات المتحدة الأميركية وعدت إلى المملكة كنت قد تجاوزت الخمسين من عمري، ولكن بدايتي لحياة جديدة بعد العودة لم تجعلني أنظر للحياة بمنظار رجل في العقد الخامس من عمره وإنما نظرة شاب في الثلاثين، يوشك أن يدخل مرحلة جديدة من حياته، ولقد طالت حياتي ولله الحمد بعد العودة وامتدَّت إلى ما يقارب النصف قرن، ولكنها كانت على الإجمال أقل إثارة وصخبًا من حياتي في المرحلتين السابقتين.

وها أنا ذا قد تجاوزت الخامسة والتسعين من عمري، أحمد الله ربي على الصحة والعافية وأشكره على مدِّي بالقوة والصبر، اللذين ساعداني على الانتهاء من هذا الكتاب وتقديمه للقارىء العربي الكريم.

الفصل السادس عشر

العودة إلى أرض الوطن

كما جئت إلى أميركا عن طريق البحر، أراد لي الله أيضًا أن أغادرها بالبحر أيضًا. فبعد أن عزمت على مغادرتها منعني الطبيب من ركوب الطائرة لمرض ألمَّ بي، فركبتُ باخرة تابعة لإحدى شركات النقل التي كنت أشحن عليها البضائع المصدَّرة إلى عملائي بالشرق الأوسط. ولم تأخذ الشركة أجرة ركوبي بسبب معاملاتي التجارية الطويلة معها والصلة التي تربطني بمديرها. وكانت الباخرة تحمل عددًا من التجار من مختلف القارات، وكان البحر هادئًا ولم نشعر بالتعب وأمضينا على ظهر الباخرة أحد عشر يومًا إلى أن وصلنا إلى أحد الموانىء الإيطالية ومن ثم واصَلت الباخرة سيرها نحو الإسكندرية، وأمضيت بعض الوقت على ظهر السفينة أتحدث إلى مختلف التجار الذين كانت أحاديثهم شيِّقة ومفيدة. ولكن معظم وقتي أمضيته وحيدًا أفكر وأتأمل، لقد كان شريط حياتي في أميركا بحلوه ومرِّه يمرُّ من أمامي وكأنه فيلم بدأ بزواجي الأول وانتهى بطلاقي الثاني. أكثر من ثلاثة عشر عامًا من حياتي أمضيتها في هذه الدولة الكبيرة وكنت أشعر من اليوم الأول أنني لن أستقرّ بها، فلقد كان حنين الوطن يطغى دائمًا على متعة الحياة في أميركا.

عشت فيها أيامًا من الفقر وأخرى من الغنى رأيت فيها الراحة والشقاء، وحقَّقت النجاح في أشياء كثيرة وأصِبْت بخيبة أمل في أشياء أخرى، وكما يقال إن أنصف الدهر «فيوم لك ويوم عليك».

وها أنا ذا اليوم أعود أدراجي إلى الوطن وفي نفسي مسحة من الحزن على فراق بلد المهجر ولهفة من الشوق لرؤية الأهل والوطن. وكان ينغِّص نهفتي بالعودة مسألة ولدي نواف الذي أخذته أمه بعد أن حكمت المحكمة لصالحها وضاعت في زحام نيويورك، بل في زحام أميركا وكنت أثناء رحلة العودة أمنِّي

نفسي بلقائه بعد فترة قصيرة. فلقد كنت أعتقد أن قلب أمه سَيَلين وسوف تمكّنني من رؤيته. ولهذا فقد بدأت حتى قبل وصولي إلى أرض الوطن أفكّر بأمر عودتي إلى أميركا لرؤية نواف. ولو علمت في ذلك الوقت أنني لن أراه ثانية إلّا بعد أن أتجاوز الخامسة والتسعين من عمري لكانت قواي قد انهارت ولكنت قد سقطت في اليمّ من ظهر الباخرة وابتلعتني أمواجه. ولم يكن فقدان نوّاف هو الشيء الوحيد الذي كان يشغل تفكيري أثناء رحلة العودة في الباخرة. فلقد كنت أفكر في ظروفي وما آلت إليه حالتي. فبعد سنوات طويلة في المهجر أعود أدراجي وحيدًا إلى الوطن وقد تجاوزت الخمسين من عمري. لقد كان عليَّ أن أبدأ حياتي من جديد. ولكن هل يمكن للإنسان أن يبدأ حياته من جديد وقد تجاوز الخمسين من عمره؟ هل يمكن أن يبدأ عملًا ويكوّن أسرة جديدة في هذا الوقت المتأخر من عمره؟

هل فاتني القطار؟ أم إن الرحلة تتّسع للجميع؟ رفعت وجهي نحو خالقي عزَّ وجَل ورجوته أن يسهّل أمري ويعينني في القادمات من أيام حياتي.

وبعد وصول الباخرة إلى الإسكندرية أخذ أحد موظفي الجمارك مني خنجرًا جميلًا كان الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أهداني إياه أثناء زيارته إلى سان فرانسيسكو عام 1364هـ (1945م)، وأذكرُ أنَّ موظف الجمرك قال لي يومها: إنّ هذا الخنجر ذو حدّين ولا يمكن السماح بإدخاله لمصر إلّا بتصريح خاص. وأخبرت نائب القنصل السعودي في مصر في ذلك الوقت والذي أصبح سفيرًا فيما بعد الأستاذ أمين أبو الذهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الخنجر وقام باسترداده من إدارة الجمارك بالإسكندرية. وفي القاهرة أمضيت ستة أيام بضيافة صديقي عبدالحي عامر الذي عشتُ معه في لوس أنجلوس وعدت معه بالسيارة من كاليفورنيا إلى نيويورك، ولم أزل حتى الوقت الحاضر أزوره بين الحين والآخر إمّا في منزله في القاهرة أو بالإسكندرية.

بعد الأسبوع الأول الذي تلا عودتي والذي أمضيته مع عبد الحي عامر في تذكُّر أيام لوس أنجلوس، اتّصلت بالشيخ فوزان السابق رَحِمَهُ ٱللَّهُ سفير المملكة في مصر وكانت تربطني معه معرفة ومودّة قديمة، ولم ينقطع اتّصالي به أثناء وجودي في المهجر، وبعد عودتي من أميركا أصبحت أنزل بضيافته كلما أزور القاهرة. لقد كان رحمه الله لا يسمح لي بالذهاب إلى الفنادق.

فالسفارة - كما كان يقول - فيها غرف واسعة كثيرة. وكان يخصِّص لي الغرفة المجاورة لمكتبه والمُعَدَّة ليأخذ بها راحته. وكان من موظفي السفارة وقتها الأستاذ خير الدين الزركلي الشاعر والأديب والمؤرخ المعروف.

سألني الشيخ فوزان السابق يوم وصولي إلى القاهرة عام 1368هـ (1949م)، عن برامجي. فأخبرته في رغبتي بالتوجُّه إلى المملكة لزيارة جلالة الملك عبد العزيز وتقديم الولاء والاحترام له ولكي أعرض على جلالته بعض الأمور المتعلقة بتجارتي. فقال حسنًا تفعل، وسوف أكتب أنا إلى الملك عبد العزيز أخبره بقدومك وببعض نشاطات الدعوة التي كنت تقوم بها في أميركا، فلقد كان الشيخ فوزان على علم بأخباري في أميركا من خلال الرسائل التي كنا نتبادلها.

في ذلك الوقت صادف في القاهرة وجود صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله الفيصل الشاعر المشهور وكان وقتئذٍ وزيرًا للداخلية ولقد استلم سموه فيما بعد أعباء وزارة الصحة إضافة إلى الداخلية. لقد كانت معرفتي به قديمة ووثيقة، وتعود إلى فترة زيارته للولايات المتحدة عام 1364هـ (1945م)، من ضمن وفد الأمراء الذي رأسَه والده الشهيد فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وعند قدومي لزيارته في القاهرة أخبرني سموّه عن عزمه على المغادرة إلى جدّة، فسافرت معه وأمضيت في ضيافته في مكة المكرمة عدة أشهر أدَّيت خلالها فريضة الحج. وكان جلالة الملك عبد العزيز في ذلك الوقت مقيمًا في جدة مشغولًا بموسم الحج وباستقبال رؤساء وفود البعثات الإسلامية التي قَدِمَت لأداء الحج، ولقد زرت جلالته في جدة قبل الحج وبعده. ولقد استقبلني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أفضل استقبال وطلب مني أن أحدّثه عن أميركا وما رأيته فيها. كما زرت في مكة في ذلك الوقت أيضًا سمو الأمير طلال بن عبد العزيز وكانت فرحتي الكبيرة بلقاء شقيقي ياسين وعمّي قاسم اللذين قَدِما لأداء فريضة الحج. وفي مكة أيضًا قابلت الأمير نايف بن شعلان أحد مستشاري جلالة الملك عبد العزيز الذي سبق أن قدم إلى نيويورك للعلاج عام 1366هـ (1947م).

بعد أداء فريضة الحج ذهبت إلى الرياض لأداء بعض الأعمال وزيارة ولي العهد الملك سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولقد بقي جلالته في ذلك الوقت في الرياض لرعاية شؤونها ولم يرافق والده بالسفر إلى مكّة. وبقيت في ضيافته بالرياض شهرًا كاملًا

ولقد كلَّف رحمه الله مستشاره فهد بن كريديس بملاحظة شؤوني. ولقد كان ابن كريديس طيلة فترة إقامتي في الرياض خير الصاحب والصديق وبذل قصارى جهده لتأمين راحتي وتلبية احتياجاتي.

تعود معرفتي بالأستاذ فهد إلى عام 1366هـ (1947م) أثناء زيارته لمدينة نيويورك مع الملك سعود. ولقد أبقاه الملك سعود في نيويورك أثناء ذهابه إلى كاليفورنيا وأشرفتُ بدوري على مساعدته في نيويورك. ولقد ردَّ ابن كريديس مساعدتي بأفضل منها وأمضينا معًا وقتًا طويلًا في الرياض نتحدَّث عن أيام زيارته لنيويورك وعن المناطق التي اصطحبته لرؤيتها.

بعد مغادرة الرياض رجعت إلى مكة وحَلَلَت ثانية في ضيافة الأمير عبدالله الفيصل، وأثناء وجودي في مكّة اتصلت ببعض عملائي من التجّار السعوديين الذين كنت أرسِل لهم مختلف أنواع البضائع من أميركا. ولقد كانت لي بعض الحقوق المستحقّة لدى بعضهم ولقد قاموا مشكورين بتسديدها بالكامل. فلقد حصلت على مبلغ يصل إلى حوالي 20 ألف دولار من السادة عبدالله الخريجي وصدقة كعكي وأحمد بقشان وتوفيق هاشم. ودفعت من جانبي مبلغ ألفي دولار إلى الأستاذ خليفة القصيبي كانت متبقّية في ذمتي لوالده الشيخ عبدالرحمن ﵀ من معاملات تجارية سابقة بيننا.

كذلك فلقد تسلَّمت من الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز ﵀ مبلغ ثمانية آلاف دولار ثمن بعض الأشياء التي كنت قد أرسلتها إليه من نيويورك قبل مغادرتي لها.

أثناء وجودي في مكّة في ذلك الوقت قمت أيضًا بزيارة الأمير نواف بن عبد العزيز حيث تحدَّثنا معًا عن زيارته للولايات المتحدة قبل عدة سنوات عندما قَدِم سموّه مع وفد من الأمراء لتوقيع ميثاق سان فرانسيسكو.

تطرَّق بنا الحديث إلى تطورات السياسة العالمية وفهمت من سموه يومها أنه لم يزل يعتقد أن ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية هو أفضل زعيم سياسي في تاريخ الغرب الحديث. ولقد أهداني سموه خاتمًا ثمينًا من الألماس وكذلك سجادتان نفيستان من صنع أيادي رجال أصفهان من أعمال

إيران، ونظرًا إلى أنني لم أكن متزوجًا في ذلك الوقت فلقد بعتُ الخاتم لعدم حاجتي إليه ولرغبتي في تحصيل أكبر قدر من النقد للبدء في تجارة جديدة. ولقد اشترى الخاتم مني السيد أحمد بقشان ونقَدَني خمسمائة جنيه مصري ثمنًا له يوم كان الجنيه المصري في أوجّ قيمته حيث كانت قيمته تزيد على الجنيه الإسترليني بخمسة قروش مصرية.

بعد أن أمضيت عدّة أشهر في مكة المكرمة كنت خلالها أُكثِر التردُّد إلى زيارة الأمير طلال. سافرت إلى القاهرة بصحبة الأمير عبدالله الفيصل الذي ذهب إليها للمداواة لقد كانت القاهرة مركز العلاج الأساسي للكثير من السعوديين في ذلك الوقت. ولكن تطور الخدمات الصحية في المملكة وتوسُّعها فيما بعد جعل المملكة ولله الحمد تمتلك أفضل الإمكانات الصحية المتطورة في العالم. ولكن الوضع الصحي لم يكن على هذا المستوى من التقدُّم كما ذكرت في السابق. وأقمت مع الأمير عبدالله الفيصل مدّة شهر كامل أثناء تلقّيه العلاج. ولقد أقمنا في سرايا كبير خصَّصته لسموّه الحكومة المصرية بالقرب من سرايا عابدين الشهير. وبعد شفاء الأمير المحبوب والشاعر الإنساني صاحب الحسّ المرهف عُدنا جميعًا إلى الرياض للسلام على جلالة الملك عبد العزيز ونزلنا بصحبة سموّه في دار الأمير عبد العزيز بن مساعد أمير حائل عندئذٍ، ولقد كان للأمير عبدالله الفيصل منزلة رفيعة لدى جلالة الملك عبد العزيز الذي كان يكنُّ لحفيده محبّة كبيرة جدًّا. ولقد أكرمني الملك عبد العزيز ﵀ أيّما إكرام.

بعد انقضاء مدّة قصيرة تركت الرياض إلى القاهرة ومكثت في ضيافة الشيخ فوزان السابق عدة أيام أخبرته خلالها عن رغبتي بزيارة دمشق والتوجه بعد ذلك إلى الولايات المتحدة لممارسة التجارة فيها من جديد، ولمحاولة البحث عن الولد نواف، وعملًا بمشورة الشيخ فوزان رجعت إلى مكة للاستئذان من الملك عبد العزيز قبل العودة إلى الولايات المتحدة وفي مكة أقمتُ مع الشيخ سليمان البسام في دار ضيافة الملك عبد العزيز الذي قدَّم لنا سيارة خاصة لاستخدامها أثناء إقامتنا في ضيافته في مكة. وكان الشيخ سليمان يتردَّد إلى زيارة بعض أقاربه في مكة وهو الأمر الذي أتاح لي فرصة استخدام سيارة الضيافة الملكية للتنقل بين مكة

وجدة والمدينة. ولم تكن الطرق في ذلك الوقت كما هي عليه في الوقت الحاضر ولكنها لم تكن سيئة. فلقد كان التنقل بين مدن الحجاز منذ ذلك الوقت سهلًا ومريحًا. وفي بعض الأوقات كنت أتوغّل بسيارتي قليلًا في الصحراء أبحث فيها عن مَشاهد تذكّرني بأيام قديمة كنت خلالها أجوب الصحراء مع العقيلات ولا أعرف السفر إلّا عبر الصحراء الواسعة فرارًا من المنازل والغرف الجميلة داخل الجدران الأربعة التي كنت أعتبرها كغرف السجن.

ولم تُتحْ لي فرصة للاستئذان من الملك عبد العزيز بالعودة إلى أميركا فلقد كان مجلسه دائم الاكتظاظ بالحضور وكلّما هَمَمْت بمكالمته في الموضوع كنت أرجىء الأمر لوقتٍ لاحق ولكن يبدو أنّ جلالته قد عرف بمسألة عزمي على السفر إلى أميركا من الشيخ فوزان السابق الذي كتب له بالأمر من القاهرة.

فبعد عودتي من رحلتي إلى المدينة بالسيارة أخبرني الشيخ سليمان البسام أنّ بعض رجال الملك عبد العزيز كانوا يبحثون عنّي طيلة النهار. وفي مساء ذلك اليوم التقيتُ في منزله في جدّة بالشيخ عبدالله السليمان والشيخ محمد سرور الصبّان والشيخ إبراهيم الطبيشي. ولقد همس الشيخ محمد سرور في أذني وأعلمني أن الملك عبد العزيز قد أمر لي بتذكرة إركاب إلى أميركا من القاهرة. وأدركتُ عندها أن الشيخ فوزان السابق رحمه الله قد كتب إلى الملك عبد العزيز بهذا الخصوص. وأوصاني الشيخ محمد سرور بشراء بعض البضائع للملك فور وصولي إلى أميركا وطلب مني مراجعة السفارة لاستلام قيمة البضاعة. فأخبرته بأن عودتي للولايات المتحدة قد تأخّرت بعض الوقت وأن الأشياء التي يريدونها يمكن تأمينها بوقت أسرع وسعر أرخص من فرنسا.

أبديتُ استعدادي للسفر إلى فرنسا لشرائها. ويبدو أن وزراء الملك عبد العزيز أخذوا بمشورة شراء البضاعة من فرنسا ولكنهم لم يكلّفوني بتأمينها. فلقد علمت فيما بعد أن الشيخ عبدالله السليمان قد أوفَد السيد عبد القادر إدريس أحد مرافقي الملك فيصل بن عبد العزيز إلى فرنسا لشراء الأشياء المطلوبة.

بعد عودتي إلى القاهرة صرف لي السفير السعودي الجديد في مصر الشيخ عبدالله الفضل تذكرة سفر إلى الولايات المتحدة تنفيذًا للأوامر التي تلقّاها من

الملك عبد العزيز وكنت أنا أُعِدُّ العدّة للسفر إلى دمشق لزيارة بعض الأهل والأصدقاء قبل العودة إلى أميركا. هذا ما كنتُ أنويه ولكن الله أراد لي شيئًا آخر. وصدَقَ مَن قال إنّ الإنسان يسعى ويريد ولكن الله يفعل ما يريد. فبينما كنت أعِدُّ عدَّة السفر إلى دمشق قبل مغادرتي إلى أميركا دخل عارض جديد في حياتي وغيَّر عليّ مخطط سفري وحياتي في السنوات الباقية من عمري. ففي أوائل عام 1369هـ أواخر عام 1949م، وأثناء وجودي في فندق سميراميس رأيت امرأة مصرية كلّها حيوية وجمال ونشاط. رأيتها تدخل الفندق لزيارة إحدى قريباتها. ولقد أعجِبْت بها من أول نظرة وملَكَت عليَّ فؤادي. فانتظرتها حتى غادرت الفندق ولحقت بها بسيارة أجرة. وعرفت المنزل الذي دخلته.

لم أنَمْ إلّا ساعات قليلة في تلك الليلة. فلقد أمضيت معظم الليل وصباح اليوم التالي أفكّر في أمر تلك المرأة المصرية التي لا أعرف عنها شيئًا والتي استحوذت على مكانة كبيرة في نفسي منذ النظرة الأولى. ونويت أن أتزوجها وعرفتُ من عدم وجود دبلة الزواج في يدها أنها غير متزوجة، فأنا أعرف حرص المصريين والمصريات على لبس دبل الزواج.

في عصر ذلك اليوم كنت في طريقي إلى منزل تلك المرأة التي أراد الله لها أن تكون زوجتي الثالثة بعد زواجي وطلاقي من الأميركيتين.

دخلت المنزل بكلّ ثقة وهدوء وقابلتُ شقيق زوجة المستقبل السيد حسن أحمد كرى وأخبرته عن نفسي وبأنني أرغب الزواج من المرأة الشابة التي رأيتها بالأمس. واستغرب في البداية موقفي ولكنه سرعان ما وثِقَ بي وعرفتُ منه أنّ تلك المرأة هي أخته وأنها تعيش في الإسكندرية مع والدتها وأنها قَدِمَت لزيارة القاهرة لعدّة أيام فقط. وأخبرني أيضًا أن والدهما السيد أحمد كرى الذي توفي في السنة الماضية كان عضوًا في البرلمان المصري وأمين صندوق حزب الوفد أيام الزعيم سعد زغلول. خطبت الفتاة من أهلها وخلال أيام أخبروني بالموافقة وبعد فترة وجيزة تمَّ عقد القران، وبعد الزواج سكنت مع زوجتي الجديدة في شقّة جميلة بالزمالك وكان جاري في العمارة نفسها الشيخ كمال أدهم. ولقد سبق أن قابلته مقابلة قصيرة أثناء زيارته الخاطفة إلى سان فرانسيسكو لزيارة بعض أمراء الوفد

السعودي عام 1364هـ (1945م)، ومنذ جيرة الزمالك توثَّقت معرفتي بالشيخ كمال أدهم فكان الأخ الكريم خير صديق وكما يُقال (كم من أخٍ لم تلده أمك) ولم أزل أتردَّد إلى زيارته حتى الوقت الحاضر. ومن الزمالك انتقلتُ مع زوجتي للسكن في منزل جميل في مصر الجديدة لم نزَل نحتفظ به حتى الوقت الحاضر.

خلال عامي 1369 و1370هـ (1950 و1951م)، حاولت التزام بعض التعهُّدات لصالح وزارة الداخلية ووزارة الدفاع والحرس الملكي ولكن الحظ لمّا يحالفني وخلال عام 1370هـ (1950م)، تعرَّفت زوجتي في القاهرة على أم محمد، زوجة الملك فيصل رحمه الله ولقد كانت زوجتي تزورها في بيتها القريب من منزلنا في مصر الجديدة.

في عام 1371هـ (1951م)، جئت مع زوجتي إلى جدة ونزلنا لفترة وجيزة ضيوفًا في قصر الملك. ثم انتقلنا إلى منزل خاص أعطاني إياه الملك فيصل رحمه الله. وهكذا انتقلت للحياة في جدة وعملت في التجارة ومختلف أعمال الاستيراد والتعهُّدات. وكنت كثير التردُّد إلى الطائف لزيارة الملك عبد العزيز.

لقد كنت في الطائف مع الأمير طلال يوم وفاة الملك عبد العزيز رحمه الله، لقد كانت فاجعة كبيرة ألمَّت بالمسلمين جميعًا. وخلال مرافقتي الطويلة للأمير طلال لا أذكر أنني رأيت سموّه حزينًا متألمًا مثل تأثُّره وحزنه وألمه يوم وفاة والده الملك عبد العزيز. وأذكر أنني حاولت يومها التخفيف عن سموه لمَّا رأيت شدَّة حزنه وتأثره فقلت له: إنَّ المُصاب كبير يا سمو الأمير وهي إرادة الله في خلقه. فأجابني قائلًا: الحمد لله على قضاء الله. لقد فقدنا عبد العزيز يا خليل، إنه البطل وإنه القائد... أمّة في رجل واحد. وانتقل حبُّ الملك عبد العزيز رحمه الله من الأمير طلال إلى جميع أنجاله الذين لا أعرف شيئًا يشدُّ انتباههم أو يؤثِّر فيهم أكثر من الحديث عن والد هذه الأمة الملك عبد العزيز. وبما أنني لم أتفرَّغ للأعمال التجارية الخاصة بي، فلقد عملت وكيلًا للأمير طلال في المنطقة الغربية لعدة سنوات أشرفتُ فيها على أعماله التجارية وشؤونه الخاصة، وأعطاني سموه منزلًا خاصًّا للسكن بالقرب من مكان العمل. وبعد أن أصبحت أرافق سموّه في كل رحلاته تقريبًا قرَّر سموه أن يعيِّن وكيلًا آخر لكي أتفرَّغ لمصاحبته في أسفاره الكثيرة.

في عام 1374هـ (1954م)، سافرت مع زوجتي المصرية إلى سوريا ولبنان وأمضينا هناك وقتًا ممتعًا مع بعض الأهل والأصدقاء. ومنها ذهبنا إلى القاهرة ثم إلى جدة، ولقد أمضيت سنوات طويلة من عمري أتردَّد بصحبة زوجتي بين منزلنا في القاهرة ومنزلنا في جدة. لقد توفيت زوجتي مؤخرًا وغادرت هذه الحياة الفانية رحمها الله فلقد كانت امرأة فاضلة طيبة. ولقد رزقني الله منها بابنتين تعمل إحداهما في الوقت الحاضر طبيبة جراحة في المستشفى العسكري بالرياض والثانية أستاذة في إحدى مدارس الرياض الثانوية.

منذ أن عُدت من الولايات المتحدة وحتى الوقت الحاضر لم تنقطع زيارتي المتكرِّرة لسوريا ولبنان خاصة في الخمسينيات والستينيات، أحيانًا أذهب بمفردي وأحيانًا بصحبة أفراد أسرتي أو بمعية الأمير طلال. دمشق وقاسيونها، بيروت وسواحلها، أشجار الغوطة، زحلة البقاع، أرز لبنان ومياه بردى. هذه كلها ذكريات جميلة في حياتي تشدُّني دائمًا إلى زيارة سوريا ولبنان وكما يقول فريد الأطرش في بساط الريح «أنا عاشق سوريا ولبنان» والأستاذ فريد الأطرش ليس غريبًا عليّ فلقد كنت أعرفه جيدًا وقابلته مرات عديدة في القاهرة ولبنان. ولقد استمعت إليه مرّة يغني بعض أغانيه الجميلة بين عدد قليل من أصدقائه ومعارفه في محلٍّ خاص في أحد مقاهي جبل لبنان. وفي إحدى زياراتي لبيروت في أواخر الخمسينيات التقيت باللواء محمد المطلق وقد كان وقتها قائدًا للقاعدة الجوية في الظهران وذلك قبل أن يتقاعد ويتفرَّغ للأعمال التجارية. ولقد كان اللواء محمد متزوجًا من ابنة إحدى شقيقاتي التي توفَّاها الله قبل عدة سنوات في الظهران. التقيت اللواء محمد في تلك السنة في بيروت وكان يتنزّه مع زوجته وأطفاله في لبنان. ولقد كنت في السابق قد حدَّثت اللواء محمد عن جمال الجبل الذي ينتشر الأرز في مرتفعاته في إهدن أو بشري. واتَّفقنا على أن نذهب سوية من بيروت إلى جبال الأرز، ولقد كانت مناظر الطريق خلابة وشجيرات الأرز المنتشرة هنا وهناك في غاية الروعة. ولقد واجهتنا بعض مخاطر صعود الجبل بالسيارة بسبب ضيق الطريق ولكن المنظر من قمة الجبل كان رائعًا يفوق الوصف والتعبير.

مررنا ببعض القرى الصغيرة وتناولنا طعام الغداء في حديقة أحد المقاهي بين

أحضان شجيرات الأرز. وأذكر يومها أن اللواء محمد المطلق أبدى إعجابه الشديد بمناطق الأرز الجميلة، وقال: الآن عرفت لماذا اختار اللبنانيون الأرزة لتكون شعار علم بلدهم. ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي رافقت فيها اللواء محمد المطلق وأفراد أسرته في إجازتهم. فلقد رافقتهم أنا وأفراد أسرتي في رحلة ممتعة إلى الولايات المتحدة في بداية السبعينيات.

أثناء زيارتي المتكرِّرة لدمشق في الخمسينيات والستينيات كنت أقيم في دار شقيقي ياسين أو دار شقيقي محمد عيد. وكان نهر يزيد أحد فروع نهر بردى يمرُّ في حديقة منزل شقيقي ياسين. وكنت أعشق كل ليلة تأمُّل مياه نهر يزيد التي تعكس مصابيح الحديقة وهي تمر من أمام أعيننا. ولقد كانت زوجتي تحبُّ الذهاب إلى متنزّه الربوة القريب من دمشق حيث تنحدر المياه من أحد فروع بردى في واجهة المقهى. ومنذ بدأت الحرب الأهلية في لبنان اقتصرت زياراتي على دمشق ومصايفها ولقد حرمتني الحرب وأهوالها من زيارة بيروت وجارة الوادي والتمتع بمناظرها الخلابة.

وإذا كنت أتردد على سوريا ولبنان للتمتع بالطبيعة الجميلة والنسيم العليل ولكي أبحث عن ذكريات طفولتي في دمشق، فإن لمصر في حياتي قصة أخرى. فلقد زرت القاهرة أول مرة عام 1337هـ (1919م)، وزرتها عدة مرات قبل هجرتي إلى أميركا عام 1354هـ (1935م) ولمّا عدت إلى أرض الوطن قَدِمت عن طريق الإسكندرية والقاهرة. ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم أصبحت لي القاهرة منزلًا ثانيًا أتردَّد إليه مرات عديدة كلّ عام. ومع زيادة معرفتي بمصر تبيَّن لي حب أهلها للغريب ورحابة صدورهم ولطف ألسنتهم ورقة قلوبهم المفعمة بالخير. لقد تعرَّفت إلى الكثير من أبنائها ودرست ثقافتهم وحبّهم للعلم والمعرفة. وإن لفتة سريعة لمعالم مصر وآثارها تُنبئنا عن أهمية أهلها.

أزهَرها وجامعاتها العديدة وأدباؤها وعلماؤها، مكتباتها وصحفها ومتاحفها ومسارحها وأهراماتها، وصوت أم كلثوم والموسيقى الشرقية فيها، كل هذا وغيره يجعل القاهرة مدينة رائدة في عالمنا العربي. إن القطر المصري بشماله وجنوبه بنيله ومزارعه بإسلامه وعروبته بزعمائه وأبطاله يتألق عاليًا منذ فجر التاريخ. إن منجزات

الفراعنة العلمية التي لم تزل مذهلة ليس فقط كما نراها في الأهرامات ولكن في ابتكارهم لتحنيط ملوكهم وأبطالهم وأثريائهم، ذلك التحنيط البشري الذي لم يزل علماء هذا القرن عاجزين عن معرفة سرِّه رغم ما لديهم من آلاف الاختراعات العظيمة التي صعدوا بواسطتها إلى الفضاء والعقل المصري المبدع لم يكن غائبًا عن ميدان أبحاث الفضاء.

لم أجد في القاهرة سحر لبنان ونسيمه العليل ولا ذكريات طفولتي التي أمضيتها في أحضان قاسيون، ولكنني وجدت حضارة عريقة وثقافة عميقة ومنجزات فنٍّ وعلوم وأدب وفكر. لهذا فلقد وجدت في القاهرة ما يروي عطشي إلى القراءة والمعرفة. ففي القاهرة أمسكت بالقلم في بداية الستينيات وبدأت أخطُّ أولى صفحات هذا الكتاب. وإنَّ أحد الأسباب التي تدفعني إلى مواظبة حضور مجلس الأمير طلال اليوم بالرغم من تقدُّمي بالسنّ هو اهتمامي بالاستماع إلى مواضيع العلم والثقافة والأدب التي تُثار فيه.

لقد تركت جدة عروس البحر الأحمر في عام 1390هـ (1970م)، وانتقلت للعيش في الرياض لأن ابنتي الكبيرة أرادت الالتحاق بكلية الطب، ولم تكن هناك عندئذٍ كلية للطب في جدة. وكان لديّ أثناء إقامتي في جدة مزرعة من الحمام محاطة بالأسلاك من جميع جهاتها وعندما قرّرت الرحيل إلى الرياض أعطيت الحمام إلى أحد الأصدقاء وأنزلت جميع الأسلاك التي تحيط ببيت الحمام ولم يبقَ منه غير سقفه الخشبي. ولم تمْضِ ساعة من الزمن إلّا وإحدى الحمامات البيضاء التي كنت أقتنيها تعود إلى ما بقي من بيت الحمام الذي أزلت آثاره ونزلت تلك الحمامة في مكان العشّ الذي نشأت وترعرعت في أكنافه، وبقيت يومين لا تفارق مكانها لا تأكل ولا تشرب، برغم الحَب الذي كنت أنثره على الأرض أمامها، والماء الذي أقدّمه لها فلم تتناول حبة منه ولا قطرة ماء حتى سقطت ميتة.

فالحمامة فضّلت أن تموت في وطنها، المكان الذي فتحَت عينيها فوجدت نفسها في ربوعه، المكان الذي كانت فيه مقيّدة غير حرة، كانت تجد فيه ماءها وغذاءها، ورفاقًا لها نشأت بينهم، وعندما أبعدَت عنه عادت إليه مسرعة، فوجدت

الحواجز قد أزيلت، فلم يَبْقَ من وطنها الأول غير سقف، فبقيت مستظلّة تحته، تراودها الذكريات السالفة الحلوة، إلى أن ماتت.

تذكّرني هذه القصة بقصة أخرى حدثت معي في منتصف عام 1342هـ (مطلع عام 1924م)، فلقد غادرت ورفيقًا لي القطر المصري برًّا وكان معنا حصان، وجمل يحملان زادنا وأمتعتنا، فوصلنا بعد سفر شاقّ ضواحي مدينة غزة بفلسطين، وأقمنا ثلاثة أيام عند صديق لنا أعرابي في بيته المنسوج من شعر الماعز، لنستعيد قوتنا ثم نواصل السفر إلى دمشق وكان هذا من معارفنا وكان آباؤه معروفين لدى القوافل النجدية ويُعرَفون بأولاد غنام. كان لدى هذا الأعرابي كلب كنتُ وصديقي نهتمّ بإطعامه طيلة إقامتنا بضيافته، وعند مغادرتنا غزة تبعنا هذا الكلب، وبقي يمشي وراءنا نهارًا ويحرسنا ليلًا، إلى أن وصلنا مدينة دمشق، وأقام هذا الكلب في دمشق ثلاثة أيام في الحي الذي نسكنه، وكان موضع الرعاية منّا، ومن أبناء الحي الذين سموه الكلب المصري نظرًا إلى قدومه معنا من مصر ثم فقدناه ولم نعلم أين ذهب.

وقدِّر لي بعد مضي ثلاثة أشهر زيارة هذا الأعرابي في مدينة غزة التي تبعد مئات الأميال عن دمشق، فوجدت الكلب الذي رافقنا حتى دمشق هناك عند أهله وفي وطنه. لم تَرُقْ له الحياة في مدينة دمشق عاصمة بني أمية وإحدى عجائب الدنيا السبع، ففضّل العودة إلى وطنه، الذي أحبّه أكثر من بقاع العالم أجمع ففيه يرتع مع رفقائه، ولذلك فهو محب له وشغوف به.

لقد ملَّ هذا الكلب التنقُّل في شوارع دمشق. وعانى من الطعام الدسم الشهي الذي كان يقدَّم إليه، والعناية الفائقة التي كنّا نحوطه بها، وفضَّل أن يعود إلى وطنه إلى مراتع لهوه وصباه. فقطع مشيًا من دمشق إلى غزة أكثر من ستمائة كيلومتر إلى أن وصل إليه ليتمرَّغ على رماله الصفراء ويلهو في مروجه الخضراء. وكنّا أثناء قدومنا إلى دمشق قد بتنا ليلة واحدة في فندق القنيطرة. ولقد أخبرنا صاحب الفندق فيما بعد أنه شاهد الكلب الذي كان بصحبتنا يعود للفندق ثانية ويمضي في فنائه ليلة واحدة ثم يختفي في صباح اليوم التالي.

إن الإنسان مثله مثل الحيوان مفطورٌ على حب الوطن، يسافر ويطوف أقطار

الدنيا ودائمًا يحن إلى الوطن يريد العودة إليه. وأثناء إقامتي في الولايات المتحدة لاحظت أن جميع العرب يحبّون سماع أخبار الوطن ويتمنّون العودة إليه ولكن مصاعب الحياة ومشاغل الدنيا تعترض طريقهم. ولقد اطَّلعت على مقال بقلم السيدة أسمى طوقان نشرته في مجلة العربي الكويتية في عددها الرابع والأربعين تتحدّث فيه عن حب الوطن وتحاول في تصوير عاطفي رائع أن تصف للعالم ألمَ الشعب الفلسطيني بعد خروجه من فلسطين عام 1367هـ (1948م)، ففي مقالها «الوطن يا له من وطن» تقول السيدة طوقان إن الوطن هو «هذا الثرى الذي تدوسه أقدامنا، أطفالنا عندما نخطو خطوتنا الأولى المتعثرة، وتردِّد أجواؤه صدى ضحكاتنا صغارًا، وتردِّد أرجاؤه قصة غرامنا الأول شبَّانًا. . . وقصة طموحنا وعركنا ونجاحنا كبارًا. . » لقد وجدت في كلامها عن الوطن الكثير من المعاني التي كانت في نفسي أثناء وجودي في أميركا.

أعود إلى ابنتي آسيا التي اختارت دراسة الطب وبدأت السنة الأولى الإعدادية مع بعض صديقاتها السعوديات في جامعة داخلية في سويسرا. وبعد انقضاء السنة الأولى على دراستهن قَدِمْن إلى الرياض بعد أن فتحت كلية الطب في الرياض أبوابها للطالبات. وتخرَّجت ابنتي آسيا في كلية الطب في جامعة الملك سعود وتدرَّبت في مستشفى الملك عبد العزيز الجامعي ثم سافرت إلى بريطانيا وتخصَّصت بالجراحة تحت إشراف إحدى مدرِّساتها البريطانيات التي درَّستها في الرياض. وحصلت آسيا على شهادة تخصُّص الجراحة من بريطانيا وعادت لتخدُم وطنها في المستشفى العسكري بالرياض.

أمّا ابنتي الثانية أميمة فلقد درست الكيمياء والأحياء بجامعة الملك سعود وتقوم الآن بتدريسها في إحدى ثانويات الرياض. وإن مسيرة تعليم المرأة في المملكة تجسِّد في الحقيقة عملية تطوُّر رائعة يقف وراءها شهيد هذه الأمة الملك فيصل رحمه الله فلقد أصرَّ على فتح أبواب التعليم أمام المرأة مثلها مثل الرجل. وقبل استشهاد الملك فيصل بليلة واحدة ذهبْتُ لزيارة جلالته في قصره بالمعذر وقَدِمَ العديد من الناس بمطالبهم المختلفة وتناولوا طعام العشاء على مائدة جلالته. وبعد انصراف معظم الحضور بقي مع جلالته سمو الأمير محمد بن سعود الكبير والأمير

فيصل بن سعد أمدَّ الله بعمرهما ومؤلِّف هذا الكتاب. وجلسنا فترة طويلة نتجاذب أطراف الحديث وبعد أن استأذنت للانصراف طلبَ منّي جلالة الملك أن أراجعه في صبيحة اليوم التالي في قصر الحكم وذلك لأنني كنت قد طلبت مساعدة من جلالته في مسألة خاصة ووعَدَ بإنجازها في اليوم التالي. وفي صبيحة اليوم التالي وأثناء وجودي مع بعض المراجعين ننتظر مقابلة الملك وقعت الواقعة الأليمة وعلِمْنا بحادثة الاغتيال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فلقد فقدت المملكة بطلًا آخر من أبطالها العظام، وأحد بُناة مجدها العظام.

إن ابنتي وغيرهما من فتيات هذه الأمة مدينات بتعليمهن إلى البطل الشهيد فيصل. وإنني اليوم فخور بابنتي الطبيبة الجرّاحة آسيا وكذلك ابنتي أميمة المدرِّسة التي تتفانى في خدمة عملها، عندما أرى ابنتي أميمة وقد تجاوزتُ الخامسة والتسعين من عمري وهي تسهم في تعليم بنات هذا الوطن وأرى ابنتي آسيا تعمل ليل نهار في خدمة المرضى بالمستشفى العسكري أفلا يحق لي أن أفخر بابنتَيّ وأثني على ذكر البطل الشهيد فيصل الذي سهَّل فتح قنوات التعليم أمام المرأة في بلدنا؟!.

بعد عودتي من الولايات المتحدة، عملت كما ذكرت أيضًا مع سمو الأمير طلال ورافقته في أسفاره ورحلاته وكان لي شرف الاطِّلاع عن كثب على كل منجزاته الخيِّرة. ولقد لفت انتباهي بشكل خاص نزعته الإنسانية واهتمامه بالتعليم والصحة وحبِّه للأطفال. فلقد عرفته إنسانًا خيِّرًا وأميرًا نبيلًا وسياسيًّا ودبلوماسيًّا وإداريًّا ناجحًا. كما رأيت سموّه يتألق في مجال الأعمال الخاصة حتى أصبح من أشهر رجال الأعمال المرموقين في العالم. ولقد رأيت فيه أيضًا اهتمامًا بالعلم والمعرفة حيث يهتمُّ بشكلٍ خاص بالأدب والتاريخ والفنون كما يحبّ الاطِّلاع على حضارات العالم الأخرى. إن حياة سمو الأمير صاخبة منذ بدايتها ومليئة بالأحداث والمنجزات. فقبل وفاة والده الملك عبد العزيز رحمه الله كان الأمير طلال مسؤولًا عن القصور الملكية. وعندما أصبح سموه وزيرًا للمواصلات (1370 - 1372هـ) (1952 - 1954م)، عملت معه مديرًا للمشتريات وأمينًا

للمستودع في الوزارة. وإضافة إلى وزارة المواصلات فلقد أصبح الأمير طلال وزيرًا للمالية في مطلع الستينيات وكذلك نائبًا لرئيس المجلس الأعلى للأماكن المقدَّسة في مكة المكرمة ونائبًا لرئيس المجلس الأعلى للتخطيط. ولقد أخبرني أحد الدبلوماسيين المخضرمين أن الأمير طلال تمكَّن عندما كان سفيرًا للمملكة العربية السعودية في فرنسا عام 1375هـ (1955م)، خلال سنة واحدة من خلق العديد من الصِّلات العامة والروابط مع مختلف فئات المجتمع الفرنسي.

إلى جانب مهامه السياسية والدبلوماسية، كان الأمير طلال يشرِف على العديد من النشاطات الإنسانية والاجتماعية. فلقد دفعه اهتمامه بالتعليم منذ عام 1372هـ (1952م)، إلى تبنّي إرسال بعثات تعليمية عديدة من الشباب السعودي للدراسة على نفقته الخاصة في جامعات مصر ولبنان. وفي عام 1374هـ (1954م)، أسَّس أول مدرسة للتدريب المهني في المملكة، وفي عام 1377هـ (1957م)، أنشأ أول مدرسة لتعليم البنات في الرياض، وفي السنة نفسها أقيمت أول كلية للبنين في مكة المكرمة في قصر الزهراء الذي أهداه سموه إلى الحكومة السعودية.

والتعليم ليس هو المجال الوحيد الذي يحظى باهتمام الأمير طلال. فلقد أسَّس سموه عام 1378هـ (1958م)، أول مستشفى خاص في الرياض وخصص 70% من إمكاناته للعلاج المجاني و10% لعلاج الأطفال. ثم أهدى الأمير طلال هذا المستشفى للدولة ويُعرف الآن بمستشفى الملك عبد العزيز الجامعي.

كما ذكرت سابقًا، فلقد رافقت سمو الأمير طلال في عددٍ من رحلاته إلى الدول العربية والأوروبية وإلى الولايات المتحدة وبعض دول أميركيا اللاتينية وقد لا أبالغ إذا قلت إنَّ سموّه قد زار معظم أرجاء الدنيا في البرِّ والبحر والجو. وعلى الرغم من أنَّ رحلات الأمير طلال ليست طويلة كما بيَّنت مسبقًا، إلّا أنَّ سموّه يُنجز خلالها الكثير من الأعمال. فالمعروف عن الأمير طلال الدِّقة والتنظيم وحُسن التحكُّم في الوقت، وتتعدَّد أسباب رحلات الأمير طلال. فهناك رحلات نشاطاتها إنسانية، ورحلات خاصة بحضور المؤتمرات واللقاءات الاجتماعية والثقافية والسياسية العربية والدولية. وهناك رحلات خاصة بالعمل التجاري، ورحلات

الاستجمام والراحة التي تشتمل في الأغلب على بعض النشاطات الإنسانية والاجتماعية التي لم تكن معدَّة مسبقًا.

خلال سنوات 1400 – 1404هـ (1980 – 1984م)، كان الأمير طلال مبعوثًا خاصًا لمنظمة اليونيسيف الدولية، ومنذ عام 1401هـ (1981م)، وسموّه يرأس برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية والإنسانية وكذلك فقد أصبح الأمير طلال منذ عام 1402هـ (1982م)، عضوًا فعالًا في رابطة تطوير معهد باستير الدولي، كما ساهم في عام 1403هـ (1983م)، في تأسيس اللجنة المستقلة للقضايا الإنسانية الدولية ومقرّها جنيف. ولم يزل سموه منذ ذلك الوقت يسهم بشكل رئيس في أنشطة اللجنة المختلفة وتستحوذ مختلف النشاطات الدولية والإنسانية على جزءٍ كبير من اهتمام ووقت وجهد الأمير طلال الذي يقدِّم لها مختلف أنواع الدعم المالي والمعنوي والشخصي والتنظيمي الذي تحتاج إليه. وإن تقارير ومنشورات اليونيسف مليئة بصور سموه مع أطفال العالم الفقراء في آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية. ولقد تقلّد سموه أرفع الأوسمة الإنسانية في العالم تقديرًا للجهود الكبيرة التي بذلها وما زال يبذلها في مجال المساعدات الإنسانية النبيلة. ولقد رأيت سموه يتقلّد في جنيف وفي تونس اثنين من هذه الأوسمة الإنسانية المميزة. وفي الحفل الذي أقيم في جنيف لمنحه وسام التقدير الإنساني وقَفَ جمعٌ من السعوديين والعرب يستمعون وكلهم فخر واعتزاز إلى بعض منجزات ونشاطات الأمير طلال الإنسانية. ولقد كنت أقف بالقرب من سموه في تونس في الحفل الذي قلّده فيه رئيس الجمهورية التونسية الأسبق الحبيب بورقيبة أرفع الأوسمة الإنسانية العالمية. ولقد سمعت سموّه يقول لبعض أصدقائه بعد أن تسلَّم وسام التقدير: عندما تذهب أجيال وتأتي أجيال ولا يبقى للإنسان إلّا ذكراه فلن يكون شيء أحبُّ إلى نفسي من أن أذكر بالأعمال الخاصة بمساعدة الأطفال الصغار. فطلال الأمير وطلال السياسي وطلال التاجر كلها لا تهمّه قدر اهتمامه بطلال الإنسان الذي يحسّ بآلام البؤساء.

الأمير طلال سواء في رحلاته أو مقرّ إقامته يبدأ الساعات الأولى من نهاره بقراءة أو سماع أو مشاهدة أخبار العالم. وبعد إفطار خفيف لا يتعدّى أحيانًا القليل

من حبّات الفاكهة يبدأ ممارسة أعماله المختلفة. وإذا كان لديه اجتماع في ذلك اليوم خاص بنشاطاته الإنسانية أو المالية أو بالمنظمات التي يرأسها أو ينتمي إلى عضويّتها تراه يهتمّ بالإعداد الكامل لهذا الاجتماع وللمناقشات الخاصة به. وفي عصر بعض الأيام يُتابع الأمير طلال ممارسة الأعمال التي لم تُنجَز في الصباح. وفي مجلسه المسائي تتنوّع الموضوعات التي يتحدَّث بها سموه مع الحاضرين. ويحرص سموه قبل النوم على سماع ومشاهدة أخبار العالم المسائية.

ويحبّ الأمير طلال حياة الطبيعة ويُكثر من الذهاب إلى البادية أو إلى مزرعته الخاصة، وإذا كان مسافرًا فإنه يحرص على التمتع بمناظر الطبيعة الريفية بعيدًا عن صخب المدن الكبيرة. ويهتم سموّه بعالم الحيوان ولديه مجموعة واسعة من كتب الطبيعة ومختلف أنواع الحيوانات بالعالم. ويُجيد سموه قراءة العربية والإنجليزية. ويحرص الأمير طلال على تزويد مكتبته بأحدث الإصدارات العربية ونشرات المال والاقتصاد والسياسة الدولية الأسبوعية واليومية. وفي تربيته لأولاده وتنشئتهم يركِّز الأمير طلال على ثلاثة أمور أساسية: التمسُّك بالقيم العربية والإسلامية أولًا، والاهتمام بالعمل والمعرفة ثانيًا، والتوجُّه نحو النشاطات الإنسانية ثالثًا. وتتَّضح هذه الخصال في الحقيقة في جميع أولاد الأمير طلال كما عرفناهم ونعرفهم. وهذه نشاطات الوليد الإنسانية غنية عن التعريف، وإنّ تعدُّد اهتمامات الأمير طلال وعلاقاته الاجتماعية وسِعَة إمكاناته قد مكَّنته من التعرُّف على كبار الأدباء والمثقفين والسياسيين والفنانين العرب وغير العرب. وأذكر أنّي دُعيت مع الأمير طلال ذات يوم لتناول طعام الغداء بالقاهرة في بيت الموسيقار الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب رحمه الله. ولقد نسي الأستاذ عبد الوهاب بسبب انشغاله بإعداد لحن جديد أنّنا قادمون للغداء ولم يخبر زوجته لكي تعدّ لنا الحمام والملوخية بالأرانب على الطريقة المصرية كما كان الاتفاق. وعند قدومنا لمنزله ضرب الأستاذ عبد الوهاب يده على رأسه وأشار إلى بعض النوتات الموسيقية المتناثرة في مجلسه وهو يقول: المعذرة فلقد انشغلت بإعداد الألحان منذ الصباح الباكر. وخلال دقائق ارتدى الأستاذ عبد الوهاب ملابسه وخرج علينا بكامل أناقته، وذهبنا جميعًا إلى مطعم فندق سميراميس لتناول الغداء هناك. وأذكر أن الأمير طلال أصرَّ يومها

على تسديد حساب المطعم ووافق الأستاذ عبد الوهاب على ذلك شريطة أن نَعِدَهُ بتناول الحمام والأرانب والملوخية في منزله في وقت لاحق.

أثناء وجود الأمير طلال في إحدى رحلاته في باريس قَدِمَ إلى زيارته الأستاذ محمد عبد الوهاب. وطلب سموه من الأستاذ عبد الوهاب أن يرافقه بالطائرة إلى القاهرة، ولكن الأستاذ عبد الوهاب اعتذر وأخبر الأمير بخوفه من ركوب الطائرة. وغادر الأمير طلال إلى القاهرة وبقيت مع بعض مرافقي سموه في باريس وكان الأستاذ عبد الوهاب يزورني يوميًا، ولقد سعدت بصحبته أيّما سعادة. واصطحبني معه مرة إلى أحد الأستوديوهات الموسيقية لكي يسجّل إحدى أغنياته. ولم يكن مدير الأستوديو حاضرًا وقت وصولنا وجلسنا ننتظره، ولمّا طال انتظارنا طلب مني الأستاذ عبد الوهاب أن أعزف على البيانو الموجود في طرف الأستوديو لكي يتدرّب على الأغنية التي يريد تسجيلها. فأخبرته بأنني لا أعرف شيئًا عن الموسيقى أو البيانو. فأخبرني بأن أكتفي بتحريك أصابع يدي على البيانو، ففعلت ذلك وكانت الأصوات المنبعثة من البيانو غير منسّقة أو إيقاعية. ولكن الأستاذ عبد الوهاب تمكّن بطريقة عجيبة من ترديد بعض مقاطع من أغنيته وأذكر منها الآن:

ردت الروح على المضنى معك   أحسن الأيام يوم أرجعك
مرّ من بعدك ما روعني   أترا يا حلو بعدي روعك

بعد دقائق قليلة من هذا المشهد الغريب الذي يغني فيه الأستاذ عبد الوهاب على أنغام موسيقى أحد أبناء العقيلات في باريس، جاء صاحب الأستوديو وبدأ التسجيل الفعلي للأغنية. وبعد ذلك بأيام أقلّنا القطار بصحبة الأستاذ عبد الوهاب من باريس إلى مدينة جنوا الإيطالية ومنها إلى نابولي. ومن هناك ركبنا إحدى البواخر الإيطالية إلى الإسكندرية. وتأخّر سفر الباخرة ساعة كاملة بانتظار عودة اثنين من رفاقنا من رحلتهم إلى جزيرة كابري الجميلة. ولقد أراد قبطان الباخرة السفر من دونهم ولكن الأستاذ عبد الوهاب أقنعه بلباقته ولطفه بانتظارهم لبعض الوقت. فخرجَت السفينة إلى عرض البحر وانتظرتهم خارج الميناء مدّة ساعة كاملة، وبعد وصولهما صعِدا على سلم الباخرة الذي أنزَلْته إلى الزورق الذي نقلهما من الميناء إلى السفينة.

بعد صعود رفيقينا مشت السفينة باسم الله مجراها ومرساها وكان البحر هادئًا نسبيًا والباخرة تنساب بهدوء في مياه البحر المتوسط الجميلة. ولكن لم تمْضِ عدّة ساعات حتى هبَّت عاصفة قوية من الرياح وبدأت ذوائب الأمواج البيضاء تلاطِم بعضها ويَخال الناظر إليها أنّها تستعدّ لمعركة حربية. واشتدّت الرياح وارتفعت الأمواج وتمايلت الباخرة في سيرها كما يتمايل شارب الخمر الثمل وعصفت فيها الأنواء حتى بَدَت وكأنها ريشة تتقاذفها الأمواج والرياح. وكانت غرفتي إلى جانب غرفة الأستاذ عبد الوهاب على ظهر السفينة، ورأيت الكراسي والطاولات تتمايل وتمشي من طرف إلى طرف في غرفته من شدَّة ميلان السفينة. وتساقطت الأسطوانات التي أحضرها معه الأستاذ من فرنسا على أرض الغرفة وتهشَّم بعضها. ورأيت الموسيقار الكبير مكفهرَّ الوجه خائفًا وقد أمسَكَ بمقبض خاص في جدار غرفته لكي يحمي نفسه من الانزلاق أو السقوط أرضًا نتيجة اهتزازات السفينة.

بعد ساعة واحدة عاد البحر إلى سكونه وهدوئه وسحره وجماله، وصعدنا ثانية إلى سطح السفينة نتنفَّس الصعداء ونتمتَّع بعليل النسيم بعد العاصفة وبقيَ البحر على هدوئه حتى وصلنا الإسكندرية، وخلال الرحلة أمتعنا الأستاذ عبد الوهاب ببعض أغانيه الجميلة. وقلت للأستاذ عبد الوهاب بعد انقضاء العاصفة: ألا تعتقد أن أخطار ركوب البحر قد لا تقلُّ عن الطائرة؟ فأجاب: ربما، ثم تابع قوله بما يفيد بأنه يفضِّل مخاطر البحر على مخاطر الطائرة.

في إحدى زياراتي للأستاذ محمد عبد الوهاب في القاهرة قَدِمَت الفنانة تحية كاريوكا وقد كنت أعرفها من الولايات المتحدة حيث أشرفتُ على عقد قرانها من رجل أميركي بعد اعتناقه الإسلام. فعندما كنت رئيس جمعية المسلمين في نيويورك حضر إلى منزلي في أحد الأيام الأستاذ أبو علي خير الله وأخبرني بأن أحد الأميركيين يرغب اعتناق الإسلام. وفي اليوم التالي قدم خير الله إلى منزلي وبصحبته الرجل الأميركي ومعهما السيدة تحية كاريوكا. وبعد أن أشهر الرجل إسلامه عقد قرانه على السيدة تحية. وتعرَّفت السيدة كاريوكا في تلك الليلة إلى زوجتي الأميركية الثانية (والدة نواف)، وأمضت معها بعض الوقت. وعندما قابلت السيدة تحية كاريوكا في ذلك الحفل في القاهرة أخبَرَت الحضور عن زيارتها لمنزلي في نيويورك وعقد قرانها على الأميركي وسألتني عن زوجتي الأميركية.

قَدِمَ إلى جدة عام 1377هـ (1957م)، الشيخ عبد الرؤوف مدير المركز الإسلامي في العاصمة الأميركية واشنطن وإمام المسلمين هناك، ولقد جاء الداعية الفاضل إلى الأراضي المقدَّسة لكي يعتمد ويُباحث في أمر تفسير معاني القرآن الكريم الذي ترجمه العلامة عبدالله يوسف علي الباكستاني إلى اللغة الإنجليزية. فلقد علم الشيخ عبد الرؤوف أنني أملك حقَّ طبع الكتاب حيث أشرَفْتُ على الطبعة الأخيرة منه أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأميركية.

أخبرني الشيخ عبد الرؤوف بحاجة المسلمين الماسَّة في الولايات المتحدة إلى نسخ إضافية من كتاب ترجمة معاني القرآن الكريم وطلب مني الإذن بالموافقة على توليه القيام بإصدار طبعة جديدة في أميركا. وسألني فيما إذا كنت أريد مبلغًا مقطوعًا أو نسبة من ثمن بيع كل نسخة وذلك مقابل إعطائه الإذن بالنشر. فأخبرته أن الربح لم يكن هو الدافع وراء اهتمامي بنشر هذا الكتاب وحرصي على إتاحته بين المسلمين في الولايات المتحدة. كما أخبرته بأن مهمَّتي اقتصرت على الإشراف، وأمّا تكلفة الطباعة فلقد دفعها الشيخ عبدالله السليمان الذي طلب تجنُّب تحقيق أيّ ربح من عملية الطباعة وأعطيت الشيخ عبد الرؤوف الإذن بالطباعة دون أيّ مقابل وكتبتُ له موافقة خطّية بذلك ولم أقيده بأيّ كمية محددة وتركت له حرية طبع النسخ التي يحتاج إليها. ولقد أشرف الشيخ عبد الرؤوف - جزاه الله خيرًا - بعد ذلك على إصدار عدّة طبعات من الكتاب لخدمة المسلمين في أميركا. وأثناء حديثي مع الشيخ عبد الرؤوف عن كتاب تفسير معاني القرآن الكريم أخبرته بتفاصيل تسهيل الله سبحانه وتعالى لطباعة هذا الكتاب تحت إشرافي عندما كنت إمام المسلمين في نيويورك. فلقد كنت أشعر بالحاجة إلى ضرورة توفُّر هذا الكتاب بين أيدي المسلمين الأميركيين. ولقد وجدت منه نسخًا محدودة في بعض مكتبات نيويورك. وكان ثمنه مرتفعًا وقد اشتريت نسخة لي من إحدى المكتبات بمبلغ أربعين دولارًا، وكنت أعتمد عليه بشكل كبير في دروس الدعوة.

لمّا جاء وزير المالية السعودي الشيخ عبدالله السليمان ﵀ إلى نيويورك عام 1365هـ (1946م)، قَدِمَ معه مستشار الملك عبد العزيز المالي عبدالمنعم رياض بك. ولقد كان الأستاذ رياض على علم بهذا الكتاب وبأهميته الكبيرة الناتجة عن

سهولة ووضوح التعابير الإنجليزية التي استخدمها الشيخ عبدالله يوسف علي ﵀ لشرح معاني كلمات القرآن الكريم. ولمّا علم الأستاذ رياض بأهمية الحاجة الماسة إلى هذا الكتاب في أميركا في ذلك الوقت أشار على الشيخ عبدالله السليمان أن يعهد إليّ - بوصفي إمام المسلمين في نيويورك - مسؤولية الإشراف على إصدار طبعة جديدة منه. وفعلًا فلقد استدعاني الشيخ ابن سليمان ﵀ وطلب مني طبع خمسة وعشرين ألف نسخة من كتاب تفسير معاني القرآن الكريم، وخمسة وعشرين ألف نسخة من كتاب الشيخ غلوش رئيس جمعية الشبان المسلمين في القاهرة عن سيرة الرسول محمد ﷺ باللغة الإنجليزية. واشترط ابن سليمان ﵀ استبعاد الربح من عملية الطباعة وطلب أن تُباع النسخة الواحدة من كلٍّ من الكتابين بسعر تكلفتها. ولتنفيذ طباعة الكتابين المذكورين أعطاني عبدالله السليمان ﵀ من أمواله الخاصة لإرضاء الله سبحانه وتعالى مبلغ مائة ألف دولار، ولقد كتب الشيك بهذا المبلغ السيد أحمد الموصلي بحضور الشيخ سليمان الحمد السليمان مدير مالية جدة والمقيم حاليًا في عروس البحر الأحمر جدة. وبعد استلامي الشيك من الشيخ ابن سليمان اتّصلت بوكيل الشيخ عبدالله يوسف علي في نيويورك وأخبرته برغبة الشيخ عبدالله السليمان وطلبت منه تفويضي حق الطباعة، وأعطيته مقابل ذلك مبلغ ستة عشر ألف دولار أميركي ثم طبعت خمسة وعشرين ألف نسخة من كتاب تفسير معاني القرآن الكريم وخمسة وعشرين ألف نسخة من كتاب سيرة الرسول تأليف الشيخ غلوش. وأرسلت جزءًا من النسخ إلى مكة المكرمة بناء على طلب الشيخ ابن سليمان وأشرفت على بيع بعض النسخ في نيويورك بسعر التكلفة. وبالنسبة إلى كتاب تفسير معاني القرآن الكريم فلقد حدَّدت سعر بيع النسخة الواحدة بأربعة دولارات وذلك لتغطية تكلفة الطباعة والتخزين والشحن التي بلغت ثلاثة دولارات وخمسة وسبعين سنتًا، وأضفتُ على سعر بيع النسخة الواحدة مبلغ خمسة وعشرين سنتًا تُدفع لأولاد العلامة عبدالله يوسف وذلك حسب الاتّفاق مع وكيله في نيويورك.

ولم أكن أعلم يوم أعطيت إذن طباعة هذا الكتاب إلى الشيخ عبد الرؤوف أن الله سوف يشرِّفني ويُتيح لي ثانيةً فرصة الإشراف على طباعة المزيد من نسخه.

فلخدمة آلاف المسلمين غير الناطقين بالعربية، طلَبَت مني رابطة العالم الإسلامي بعد ذلك طباعة عشرة آلاف نسخة من الكتاب أنجزتها كاملة دون تحقيق أيّ ربح منها. ولقد طبعتها في مطبعة الحياة في بيروت التي كان يُشرف عليها الأستاذ كامل مروة رحمه الله ثم طبعت المزيد من نسخ هذا الكتاب القيِّم لحساب الرابطة أيضًا. ولقد بلغ عدد النسخ التي أشرفت على طباعتها من الكتاب سبعين ألف نسخة منها خمسة وعشرين ألف نسخة في الولايات المتحدة وخمسة وأربعين ألف نسخة في السعودية ولبنان.

الفصل السابع عشر

قرة عيني بنواف بعد فراق طويل

في إحدى إمسيات شهر محرم 1411هـ الموافق نيسان/أبريل عام 1991م، اتّصلت بولد شقيقي عثمان وطلبتُ منه القدوم لكيّ أحدِّثه في أمرٍ مهم. وخلال ساعة كنّا سوية نرتشف القهوة في حديقة منزلي في الفاخرية. وأخبرته عن رغبتي في زيارة الولايات المتحدة الأميركية في الصيف القادم وطلبت منه مرافقتي في السفر. وسألني الدكتور عثمان عن سبب اهتمامي بزيارة أميركا فقلت له بهدوء: إنني يا بن أخي أشعر بحنين إلى زيارة بعض المناطق التي عشت بها أثناء إقامتي هناك في نيويورك، وأيوا، ولوس أنجلوس، وفلوريدا، إن أمكن. ومن يدري فعسى الله أن يجمعني بولدي نواف قبل أن أفارق هذه الدنيا الفانية.

ألَمْ تقل لي إنه عاد من حرب فيتنام سالمًا؟ ألم تقل لي إن السيدة صفية أبو شادي رأت اسمه في دليل الهاتف في نيويورك في مطلع الثمانينيات؟ ألم تقل لي إن صديقك الأميركي الذي يعمل في وزارة الخارجية الأميركية قد وعدك بمساعدة شخصية للبحث عن ابن عمك نواف؟ فابتسم الدكتور عثمان وقال: إنك في الحقيقة يا عمّ تريد السفر إلى أميركا لكي تبحث عن نواف.

فنظرت إليه نظرة ثاقبة ثم أجبته قائلًا: فعلًا هذا هو السبب الأهم ولكنني أريد أيضًا استعادة ذكرى سنين خلَت وذكريات مضت. فنظر إليّ نظرة فيها الكثير من معاني العزم والأمل والتشجيع وقال فلنتوكل على الله ونعدّ العدّة للسفر. إن أمامنا عدة أشهر لترتيب الكثير من الأمور.

بعد مدة من الوقت غادر ابن أخي المنزل دون أن يعلم بأمر الحلم الذي أيقظ في نفسي رغبة زيارة أميركا والبحث عن نواف. فلقد أخفيت عنه أنني حلمت ثلاث مرات خلال أسبوع واحد بأنني أسير في شوارع نيويورك، وفي أرياف أميركا

بصحبته وفي كل مرة نلتقي صدفة برجل يُقال لي في الحلم إنه ولدي نواف. وإنني منذ فراق نواف قبل خمسة وأربعين عامًا ولديَّ شعور غريب لم يفارقني بأنني سوف ألقاه يومًا. وفي أعقاب هذا الحلم الأخير بدأت أتيقَّن أن ساعة لقائي به بإذن الله قد اقتربت. ولهذا قرَّرت أن أوكِّل أمري لله وأتّجه إلى الولايات المتحدة.

جاءني الدكتور عثمان بعد عدة أيام لترتيب أمور السفر. وسألني عن المناطق التي أريد زيارتها في الولايات المتحدة الأميركية بالتحديد. فأخرجت ورقة صغيرة من جيب ثوبي كنت قد كتبت عليها أسماء المدن التي أريد زيارتها وهي: نيويورك، واشنطن، كليفلاند في أوهايو، سيدر رابدس في أيوا، دونيدن في فلوريدا، كربس كرستي في تكساس، وكذلك مدينة لوس أنجلوس. واعترض ابن أخي على كثرة هذه المناطق التي لن نتمكّن في إجازتنا القصيرة من زيارتها جميعًا، فإجازة الصيف بسبب ظروف حرب الخليج - كما قال - ستكون قصيرة خاصة أننا سنحتاج إلى تمضية أسبوعين في نيويورك وواشنطن حيث سنركّز بحثنا على نواف. واتَّفقنا بعد جدلٍ طويل على استبعاد دونيدن في فلوريدا وأن نترك الظروف تحدِّد أمر زيارتنا إلى لوس أنجلوس، ولكننا اختلفنا في مسألة زيارة كليفلاند. فلم يكن ابن أخي يعتقد أن هناك ضرورة تستدعي زيارتها وسألني عن سبب اهتمامي بزيارة هذه المدينة الصناعية. فأخبرته بأنني أرغب بزيارة بيت السيدة مذر الذي سكنت فيه لمدة أسبوع أثناء إقامتي في أميركا وألقيت فيه محاضرة على جمع النسوة عن بعض الدول العربية والإسلامية. فقال ابن أخي: إنني أعرف جيدًا تفاصيل زيارتك للسيدة مذر وزوجها في كليفلاند في أواخر الثلاثينيات، كما أعرف أهمية هذه الزيارة في نفسك، فلقد حدَّثتني عنها عدة مرات، ولكن لا أمل لنا الآن بعد انقضاء هذه السنوات في العثور على السيدة مذر أو على بيتها. فلقد مرَّت أكثر من اثنتين وخمسين سنة على تلك الزيارة. فماذا تتوقع أن نجد؟ إن أميركا اليوم ليست مثل أميركا التي كنت تعرفها في الثلاثينيات ولن تجد شيئًا في كليفلاند تتذكّره أو يذكِّرك بتلك الزيارة. ولكن بالرغم من معارضة الدكتور عثمان على زيارة كليفلاند بقيت مصرًّا على الذهاب إليها أثناء توجهنا إلى أيوا. لقد كنت متيقنًا أن بيت السيدة مذر سيكون قائمًا في مكانه على البحيرة وأردتُ اصطحاب ابن أخي لزيارته.

بعد عدة أيام عرفت من ابنتي الطبيبة الجرَّاحة آسيا أنها ستكون في الصيف

موجودة في مستشفى كليفلاند للقيام ببعض الدراسات والأبحاث الطبية. ولقد سُعِدْت بهذا الخبر كثيرًا وأصبح لدي الآن سبب آخر لتدعيم رغبتي في زيارة كليفلاند. وأثناء انشغالي مع ابن أخي عثمان بإعداد العدّة للسفر وترتيب حجوزات الطائرة وحجوزات الفنادق وإصدار جوازات السفر وغير ذلك من الإجراءات، أثناء كل ذلك كنت أفكِّر بالفارق الكبير بين الاستعداد للسفر هذه الأيام وبين التأهُّب للسفر مع قوافل العقيلات بالماضي. الرحلة من الشام إلى القصيم كانت تأخذ عدة أشهر واليوم نقطعها في عدة ساعات دون مشقَّة أو عناء. لقد عشت هذا الانتقال الهائل من عصر سفينة الصحراء إلى عصر سفينة الفضاء.

أثناء ترتيبات السفر وإعداد العدَّة له اتَّصلت بإحدى العائلات اللبنانية في سيدر رابدس في أيوا وأخبرتها بأمر زيارتي لهم في الصيف القادم. ولم تصدِّق السيدة عجرم لشدَّة دهشتها بأنني سأزورهم حقًّا في هذا العمر. واتّصلت عدّة اتصالات وأخبرتُ ابن أخي عثمان بأن جميع اللبنانيين الموجودين في سيدر رابدس متشوّقون لرؤيتي بعد هذه المدة الطويلة. فلقد كنت أتبادل رسائل محدودة مع بعضهم بينما انقطعت صلة الوصل بيني وبين معظمهم. وآخر اتّصال لي بهم كان منذ أكثر من عشر سنوات واعتقدوا أنني كنت من عداد الموتى، ولهذا فلقد كانت المفاجأة كبيرة عندما سمعوا بأمر زيارتي لهم في خلال عدة أشهر. ولقد كنت بدوري في أشدِّ الشوق لرؤيتهم وزيارة مدينتهم والمركز الإسلامي الذي أسَّسته بها قبل أكثر من خمسين عامًا.

قبل سفرنا بأسبوع أخبرني الدكتور عثمان بأن الملحق الثقافي الأميركي في الرياض قد تمكَّن من تحديد مكان الحديقة التي أهداها السيد أليسون والد زوجتي الأميركية الأولى إلى مدينته في ولاية نيوجرسي والتي أصبحت منذ ذلك الوقت تُعرف باسم (أليسون بارك) لقد أخبرت القارىء بأمر هذا البارك أثناء حديثي عن الأيام التي أمضيتها مع زوجتي الأميركية الأولى فرانسيس. فلقد أخذتني زوجتي برفقتها لزيارة الحديقة العامة التي تحمل اسم والدها. وأذكر أننا وقفنا عند زيارتنا للبارك أمام صورة لوالدها السيد أليسون منحوتة في صخرة كبيرة في طرف الحديقة المطلّ على نهر هدسن الذي يمرُّ في الوادي الذي يطلُّ عليه البارك.

عندما عزمت على زيارة أميركا قبل عدَّة أشهر بصحبة ابن أخي عثمان أخبرته عن رغبتي في زيارة (أليسون بارك)، ولكن المشكلة التي كانت تعترض تحقيق هذه الزيارة هي عدم تذكُّري لاسم المدينة أو المقاطعة أو المنطقة التي يوجد بها البارك، فكلُّ ما أذكره أن الحديقة تقع على نهر هدسن في ولاية نيوجرسي في مكان لا يبعد كثيرًا عن مدينة نيويورك.

لهذا طلبنا مساعدة الملحق الثقافي الأميركي في الرياض لتحديد موقع حديقة السيد أليسون. وكتب الملحق إلى الهيئة المسؤولة في ولاية نيوجرسي عن الحدائق العامة وطلب مساعدتها في تحديد موقع (أليسون بارك)، وتمَّ ذلك بالفعل، وحصلنا من الملحق الثقافي الأميركي في الرياض - مشكورًا - على موقع البارك في مدينة (أنجل وود) في نيوجرسي.

كانت القاهرة هي محطتنا الأولى، فلقد كان عليَّ إنجاز بعض الأشغال في مدينة النيل العظيمة قبل التوجه إلى أميركا. وكذلك فإن ابن أخي الذي يكتب قصة حياتي باللغة الإنجليزية كان يريد مقابلة صديقي عبد الحي عامر الذي أقمتُ معه مدّة سنتين في لوس أنجلوس ورافقته في رحلة شيِّقة بالسيارة من غرب الولايات المتحدة إلى شرقها. ولقد كان عبد الحي عامر في الإسكندرية ولم نتمكَّن من زيارته هناك بسبب ضيق الوقت وقرَّرنا تأجيل اللقاء معه إلى وقت آخر.

غادرنا القاهرة بعد ثلاثة أيام متّجهين إلى نيويورك. وبالرغم من أنني قد زرت الولايات المتحدة عدّة مرات بعد انتهاء هجرتي وعودتي منها، إلّا أنني كنت أشعر وكأنني أعود إلى أميركا لأول مرة منذ غادرتها بالسفينة في عام 1368هـ (1949م) وبعد أن خلد معظم ركاب الطائرة إلى النوم كنت أنا غارقًا في التفكير أستعيد معظم ذكريات حياتي السابقة هناك. كيف سأجد اللبنانيين في أيوا؟ وماذا حلَّ بالمدرسة الإسلامية التي أسَّستها في نيويورك؟ وهل سأتمكَّن من زيارة منزل السيدة مذر في كليفلاند؟ وهل سأتمكَّن من رؤية كل المناطق التي أريد رؤيتها؟ وهل، وهل، وهل..؟ وأهم من هذا كله هل سأجد ولدي نوافًا؟ لديّ شعور خفيّ بأنني سوف ألقاه ولكن متى وكيف وأين..؟ الله وحده أعلم. وإذا وجدته فكيف ستكون أحواله؟ وهل يعرف أن والده عربي من السعودية أم تراه يظنُّ أنَّ والده هو رجل

أميركي أم إنه السيد أبو شادي؟ هل أخبرته أمه بالحقيقة؟ ولماذا لم يحاول الاتِّصال بي إذا عرف أنني والده؟ ربما ظنَّ أنني لا أريده أو أنني فارقت الحياة، تُرى ما هي أحوال والدته؟ وهل ما زالت على قيد الحياة أم إنها من عِداد الموتى؟ نواف الآن في الخامسة والأربعين من عمره تُرى ماذا يعمل؟ وهل هو متزوج؟ وهل لديه أطفال؟ وهل تمكَّن من تحقيق مستوى جيّد من التعليم مثل أخته في الرياض أم إن ظروف حياته مع أمه لم تمكِّنه من تحقيق ذلك؟

عشرات الأسئلة الخاصة بنواف تزاحمت في مخيلتي ولكنني لم أتمكن حتى من التخمين في الإجابة عنها. فلقد انقطعت أخبار نواف عني منذ زمن بعيد، ولم أعُدْ أدري ماذا حلَّ به وأين انتهى به المطاف. فبعد عودتي إلى الوطن تزوّجت مطلقتي الأميركية (والدة نواف) من الطبيب الأديب الشاعر المصري الأصل أحمد زكي أبو شادي. وقبل قدومه إلى أميركا عمل وكيلًا لكلِّية طب جامعة القاهرة. وكذلك فلقد كان شاعرًا نشطًا وأخرج العديد من دواوين الشعر منها «أطياف الربيع» و«مصريات» و«عودة الراعي» وآخرها «من السماء» طبعه في أميركا. ونَظَم قصصًا تمثيلية منها «أردشير» و«عبده بك» وأنشأ لنشر منظوماته مجلَّتين سمّى إحداهما «أدبي» والثانية «أبولو».

ارتبط اسم الثانية بتكوين جماعة خاصة بالشعر العربي الحديث. كما ارتبط اسم أبي شادي بتكوين جماعة أخرى سماها «جماعة النحالة» وأصدر لها مجلة «مملكة النحل» فلقد أراد أن يكون نحّالًا ومزارعًا متخصِّصًا وأصدر في ذلك بعض الكتب والمجلات منها مجلة «الدجاج» ومجلة «الصناعات الزراعية» كما أصدر مجلة «الطبيب والمعمل» وترجم العديد من الكتب. وفي منتصف الأربعينيات ضاقت به مصر فهاجر مع أولاده إلى بريطانيا ومنها إلى أميركا وكتب في بعض صحفها العربية وعمل في إذاعة صوت أميركا، وألَّف في نيويورك جماعة أدبية سماها «رابطة منبرقا».

لقد تعرَّفت إلى الأستاذ أحمد زكي أبو شادي بعد قدومه إلى الولايات المتحدة، وعمل معي في تجارتي في نيويورك، ولقد كان رجلًا فاضلًا يتمتع بأخلاق حميدة وكان لي خير العون في الكثير من الأعمال والنشاطات التي كنت

أمارسها. ولهذا فلقد شعرت بالاطمئنان على مستقبل نوّاف عندما تزوَّجت مطلَّقتي فرانسيس من السيد أبي شادي. ولقد بقيت على اتِّصال دائم معه أبادله الرسائل وكان ينقل لي تباعًا أخبار نواف ويُطمئِنني عن أحواله. وفي تلك المراسلات أخبرني أنَّ والدة نواف قد غيَّرت اسمه إلى (كليف) كما أسقطت عنه لقب الرواف وأعطته لقب عائلتها ويلمان فأصبح أسمه (كليف ويلمان) عوضًا عن نواف الرواف، وكتبتُ إلى الأستاذ أبي شادي أكثر من مرة أطلب منه أن يُقنع والدة نواف لكي توافق على زيارتي لولدي في الولايات المتحدة أو ترسله لزيارتي في المملكة أو أي مكان آخر في العالم ولكنها كانت ترفض بشدّة وإصرار وتلوِّح إلى القضاء في كل مرة كان زوجها الأستاذ أبو شادي يناقشها بالموضوع ويحاول إقناعها. ولقد كان القاضي الأميركي الذي حكم في مسألة طلاقنا عام 1367هـ (1948م)، شديد التحيُّز لزوجتي الأميركية. ولقد ألزَمني بالحصول على إذن قضائي في كل مرّة أريد فيها زيارة نواف. فلقد كان يخشى - كما أخبرته زوجتي - أن أهرب به إلى السعودية. وهكذا فلقد كسِبَت زوجتي حقَّ رعاية نواف بمفردها. ولم يكن القضاء الأميركي عادلًا في هذه القضية.

بعد الفوز بقرار المحكمة أصبحت والدة نواف تعمل ما في وسعِها لكي تَحول بيني وبين زيارة نواف أو رؤيته. وفي إحدى زياراتي للولايات المتحدة مع سمو الأمير طلال في مطلع الخمسينيات أرسل لها الأمير طلال أحد مساعديه وأخبرها بلسان الأمير طلال بأنه على استعداد للقيام بتحمُّل جميع مصاريفه إلى أن يبلغ العشرين من عمره ولكنها رفضت وأصرت على موقفها ولم يتمكّن الأستاذ أحمد زكي أبو شادي من تغيير موقفها. وبقيتُ على اتّصال بالأستاذ أحمد زكي أبو شادي إلى أن بلغني خبر وفاته في عام 1375هـ (1955م)، وعلمت بعد ذلك من بعض الأصدقاء أنه قد تبنّى في السنة الأخيرة من حياته ولدنا نوافًا الذي أصبح يحمل منذ ذلك الوقت لقب أبو شادي وأصبح اسم نواف الكامل منذئذٍ (كليف ويلمان أبو شادي) وعلمت أيضًا أنه بعد سنة من وفاة الأستاذ أحمد زكي أبو شادي رحمه الله تزوَّجت مطلقتي الأميركية من رجل أميركي وذهبت معه بصحبة نواف ولقد كان عمره في ذلك الوقت عشر سنوات وانقطعت أخباره عنّي بعد ذلك لفترة طويلة.

عندما سافر الدكتور عثمان الرواف، ولد شقيقي ياسين، للدراسة في الولايات المتحدة في النصف الأول من السبعينيات طلبتُ منه أن يسأل الأستاذة صفية ابنة الأستاذ أحمد زكي أبو شادي عن أخبار نواف ومكان وجوده إذا كانت تعرف ذلك. ولم يجد الدكتور عثمان صعوبة بالاتِّصال بالأستاذة أبو شادي التي كانت تعمل عندئذٍ في القسم العربي في إذاعة صوت أميركا في واشنطن. وجاءتني الأخبار من ولد شقيقي عثمان. فلقد أخبرته الأستاذة أبو شادي أن والدة نواف تزوَّجت بعد وفاة السيد أبو شادي من رجل أميركي يدعى كيث غاردنر وذهبت معه إلى بريطانيا وأخذت نوافًا معها وكان في العاشرة من عمره. كما أخبرته بأنها لم تَرَ نوافًا أو أمه (وهي زوجة أبيها وليست أمها) منذ سفرهما إلى لندن، ولكنها قرأت في إحدى الصحف الأميركية عام 1967م اسم نواف (كليف أبو شادي) ضمن أسماء مقاتلي فرقة الفرسان الأميركية الأولى الموجودين في فيتنام. ولقد اتَّصل الدكتور عثمان أثناء وجوده بوزارة الدفاع الأميركية وطلب مساعدة المسؤولين بتحديد مكان نواف ولكن دون جدوى. وعندما نشرت وزارة الدفاع الأميركية قائمة تشتمل على أسماء القتلى والمفقودين في حرب فيتنام لم يكن اسم نواف (كليف) من ضمنها، وبذلك فلقد عرفت بأن نوافًا قد عاد سالمًا ولله الحمد من حرب فيتنام. ولقد حاولت بعد ذلك أن أبحث عنه بأكثر من طريقة ولكن دون فائدة. ولكن كان لديَّ إحساس خاص بأن الله سوف يجمعني به قبل مفارقتي لهذه الحياة. إن الحديث عن نواف دائمًا يؤلمني ويترك حزنًا عميقًا في نفسي.

وصلت الطائرة إلى نيويورك يوم الأحد وتجنبًا لزحام المدينة توجَّهنا إلى أحد فنادق مدن نيوجرسي الصغيرة القريبة من نيويورك. وفي الطريق إلى الفندق مرَرنا بطريق نيوجرسي السريع الذي ينقسم في أطراف نيويورك إلى ثمانية طرق سريعة محاذية لبعضها. ففي أقصى اليمين هناك مساران وأحيانًا ثلاثة مسارات للشاحنات والسيارات الكبيرة ويلي ذلك حاجز مرتفع ثم مساران وأحيانًا ثلاثة مسارات للسيارات الصغيرة التي تسير في الاتجاه نفسه.

بعد فاصل الوسط الكبير يأتي الطرف المعاكِس في الطريق الذي يشتمل بدوره على مسارات للسيارات الصغيرة مفصولة عن مسارات السيارات الكبيرة.

أمضينا يومَي الأحد والاثنين مستريحين بالفندق بين النوم والأكل ومشاهدة برامج التلفزيون الممتعة وبعضها تواصل بثّ برامجها بشكل مستمر.

في صباح الثلاثاء بدأنا القيام بأشغالنا، وكان علينا أن ننجز خمسة أمور في منطقة نيويورك: 1 - زيارة أليسون بارك، 2 - زيارة المدرسة الإسلامية التي أسّستها في هارلم، 3 - زيارة الشقة التي كنت أسكن بها في نيويورك، 4 - زيارة جامعة برنستون لمقابلة اثنين من أساتذتها اللذين تربطهما بالدكتور عثمان معرفة قديمة، 5 - حضور حفل خاص عند إحدى العائلات الأميركية التي تسكن في إحدى مدن ولاية نيوجرسي القريبة من مدينة نيويورك، فأحد أبناء هذه الأسرة الطيّبة التي تتحدر من أصل إيطالي وتدعى أسرة «زبروني» كان صديق دراسة لابن أخي عثمان وسكنا معًا في شقة واحدة ولم تنقطع عرى الصداقة بينهما منذ ذلك الوقت، ولمّا عرف السيد جان صديق الدكتور عثمان بأمر حضورنا إلى منطقة مدينة نيويورك في آب/أغسطس 1991م، أصرَّ على حضورنا الحفل الخاص الذي سيقيمه والداه في بيتهم احتفالًا بولده الجديد الذي رزقه الله إياه قبل عدّة أشهر.

انطلقنا أول الأمر في صباح الثلاثاء نبحث عن (أليسون بارك) ولم يكن لدينا عنوان محدَّد للبارك ولكن المعلومات التي حصلنا عليها من الملحق الثقافي الأميركي في الرياض توضِح لنا أنه يقع بالقرب من جسر جورج واشنطن. أمضينا بعض الوقت نبحث عن البارك ولكن دون جدوى. فصعوبة البحث عن مكان في أميركا أحيانًا لا تقلُّ عن صعوبة تحديد موقع في صحرائنا العربية.

لمّا اقترب موعد الدكتور عثمان في جامعة برنستون التي تبعُد مسير ساعة واحدة تقريبًا بالسيارة عن مكاننا توجَّهنا إليها وأرجأنا البحث عن البارك حتى بعد ظهر ذلك اليوم. ولقد كان الطريق الفرعي الذي أخذناه إلى برنستون جميلًا، بل رائعًا. وأعاد إلى ذاكرتي الطرقات القديمة التي كنت أعرفها في أميركا قبل تشييد الطرقات السريعة الجديدة. كان لقاء ابن أخي عثمان مع الأستاذين هنري بينن وجان وتربري طويلًا بعض الشيء وفي البداية تحدَّثوا عن حرب الخليج والتطوّرات الخاصة بها ولكن سرعان ما أصبحت أنا محور حديثهم، خاصة عندما علما بأنني أثناء حياتي في الولايات المتحدة كنت على معرفة باثنين من أصدقائهما العرب

وهما فرحات زيادة وتشارلس عيساوي. وبعد تناول طعام الغداء في مطعم صغير في برنستون عدتُ أنا وعثمان ابن أخي ياسين باتّجاه نيويورك للبحث عن أليسون بارك. ووجدنا ضالّتنا بعد ساعة من البحث المضني: البارك متوسّط الحجم ويتّسم بالنظافة والهدوء. ولقد اختلف شكله بعض الشيء عن المظهر الذي رأيته عندما دخلته لأول مرة مع زوجتي الأولى عام 1354هـ (1935م)، ووقفنا أمام صورة والدها المنحوتة في صخرة كبيرة في وسط جهة البارك المطلّة على نهر هدسن.

وقفت مع الدكتور عثمان أمام الصخرة نفسها والتقطنا بعض الصور التذكارية واتَّكأت بيدي على سور الحديقة وأخذتُ أتأمّل منظر الوادي الساحر الذي تنساب فيه مياه النهر المتدفِّقة. وتذكَّرت زوجتي فرانسيس. لقد كانت تقف بجانبي في هذا المكان قبل سبعة وخمسين عامًا، تذكَّرتها وهي تشرح لي وقتها عن ماضي أسرتها الثرية وتاريخ هذه الحديقة التي أهداها والدها إلى بلدية مدينة أنجل وود.

لم يكن أمامنا وقت طويل فالبارك يقفل أبوابه في الخامسة ووصلنا إليه في الرابعة. ولقد أمضيت الساعة بأكملها أتأمّل وأتذكّر. وفي طرف البارك يوجد بيت صغير يسكن فيه موظف البلدة المسؤول عن البارك. ولقد سُرَّ بمقابلتنا خاصة عندما علم بقصة زواجي من ابنة السيد أليسون، وعلمنا منه أن جميع أفراد عائلة أليسون قد انتقلوا من مدينة أنجل وود وتفرّقوا في مختلف أنحاء الولايات المتحدة. ولم يقفل موظف البلدية أبواب البارك في وقته اليومي المعتاد ولكنه بقي معنا نتجاذب أطراف الحديث حتى الساعة السادسة. وفي طريق العودة وقفنا في أطراف مدينة أنجل وود وتناولنا طعام العشاء. لقد كنت منهكًا من التعب ولكن التعب يهون عند استعادة هذه الذكريات الجميلة القديمة.

بعد عودتنا إلى الفندق شعرتُ بتعب وإرهاق شديدين وفجأة بدأ الدم ينزف بشدّة من أنفي ومن فمي بكميات كبيرة أصابتني بالخوف وأصابت ابن أخي بالروع. واتَّصل عثمان بالموظفين بالفندق وأخبرهم عن حالتي وخلال دقائق كنت في طريقي إلى المستشفى بداخل سيارة الإسعاف. وتوقَّف النزيف ولله الحمد بعد وصولي إلى المستشفى بوقت قصير. وبدأت حالتي الصحية تتحسّن. وبعد ثلاث ساعات من الفحوصات والتحاليل والمراقبة غادرت عيادة الطوارىء وعدت برفقة

الدكتور عثمان إلى الفندق. فالنزيف ولله الحمد - كما قال الأطباء - كان أمرًا عاديًا نتج عن تعرّضي للشمس طويلًا في ذلك اليوم. وبعد وصولي إلى الغرفة بالفندق شعرت بتجدُّد نشاطي واستعدت قوتي فحمدت الله وشكرته وشاهدت التلفاز بعض الوقت ثم رحت في نوم عميق.

لقد كان يُفترض وفق مخطَّط رحلتنا أن نذهب إلى واشنطن في صباح اليوم التالي للبحث في أمر نواف مع صديق الدكتور عثمان الذي يعمل في وزارة الخارجية الأميركية، ثم العودة إلى نيويورك في نهاية الأسبوع لإتمام ما بقي لنا من حاجات نقضيها هناك وحضور حفل صديق الدكتور عثمان الخاص بالمولود الجديد. واستيقظت صباح الأربعاء على صوت ابن اخي يتحدَّث بالهاتف مع صديقه مايكل في واشنطن ويُخبره بتأخير قدومنا لزيارته بعض الوقت بسبب النزيف الذي أصابني. ولمّا سمعت الحديث، رفعت رأسي من السرير مباشرة وطلبت من عثمان عدم تغيير مواعيد السفر. وقلت متابعًا حديثي: سوف نتوكّل على الله ونسافر إلى واشنطن اليوم. وبعد جدل طويل وافق عثمان على مطلبي وتوجّهنا بعد الإفطار على بركة الله إلى واشنطن بالسيارة. وصلنا إلى العاصمة الفيدرالية الأميركية بعد عدة ساعات وسلكنا إليها طريق نيوجرسي السريع ثم الطريق السريع (95)، وفي رحلتي الأولى بين الولايات المتحدة الأميركية التي تحدَّثتُ عنها بإسهاب في الجزء الثاني من هذا الكتاب، لم تكن الطرق السريعة موجودة في أميركا والطريق الأساسي الذي كان يربط بين ولايات الشرق كان (روت 1) الممتدّ من فلوريدا حتى كندا. ولقد شعرت بالغبطة عندما علمت أن هذا الطريق لم يزل طريقًا تجاريًّا وزراعيًّا وسياحيًّا مهمًّا حتى الوقت الحاضر. وبالرغم من راحة السفر على الطرقات السريعة الحديثة إلّا أنني أفضِّل الطرقات القديمة فلقد كانت أجمل. وفي الطريق إلى واشنطن تذكَّرت أمر النزيف الذي أصابني بالأمس وخفت أن يعود ثانية، وصحوتُ من حلم يقظة مزعج وقلت للدكتور عثمان: يا بن أخي لو أصابني مكروه وفارقت الحياة أثناء رحلتنا هذه في أميركا فأرجو أن تدفنني في سيدر رابدس في ولاية أيوا عند تلامذتي المسلمين اللبنانيين هناك. وما أن انتهيت من

كلامي حتى فوجئت بابن أخي يوقف السيارة عند أول مخرج واجهنا ونظر إليّ نظرة قلق شديد وقال: هل تشعر بتعب؟ ألم أقل لك إن الراحة اليوم كانت أفضل من السفر؟ هل تريد أن تذهب إلى أقرب مستشفى في أول مدينة تواجهنا؟ أم هل تريد أن نتوقَّف للراحة في أول فندق يقابلنا على الطريق؟ فقلت له لا عليك يا ابن أخي فإنني بخير ولكنها فكرة خطرت لي فقلتها لك. فتوكَّل على الله يا ابن أخي وتابع سيرك نحو واشنطن فإنَّ لنا فيها أمرًا مهمًّا نريد أن نقضيه وعسى الله أن يبلغنا مرادنا ويجمعنا بنواف.

بعد استراحة طويلة في الفندق بواشنطن وتناول الطعام ذهبنا لزيارة السيد (مايكل أورستي) صديق الدكتور عثمان. وتعود معرفتهما أيضًا إلى أيام الدراسة في الولايات المتحدة. ويعمل السيد مايكل في وزارة الخارجية الأميركية ولقد أمضى فترة من عمله في السفارة الأميركية بالرياض في أواخر الثمانينيات، حيث تجدَّد لقاؤه بابن أخي عثمان. ولقد كان السيد مايكل على علمٍ بقصّة ولدي نواف ومحاولتي البحث عنه ولقد قابلناه في الرياض عام 1408هـ (1988م)، حيث اصطحبني أنا وعثمان لمقابلة القنصل الأميركي في الرياض للتحدُّث بشأن نواف. وفي صيف 1409هـ (1989م)، عاد السيد مايكل إلى واشنطن وبقي على اتّصال مع عثمان ووعَدَه بالمساعدة الجادّة في البحث عن نواف في حالة قدومنا للولايات المتحدة. أمضينا سهرة ممتعة مع أسرة السيد مايكل وأفضل ما فيها اتّخاذنا الخطوة الأولى التي أوصلتنا بحمد الله إلى الابن نواف. فلقد أخبرنا السيد مايكل عن معرفته بمكتب للتحريات الخاصة الذي يديره شخص يمكن الوثوق به. فهو شريف ومخلص في أداء عمله ولا يبتزُّ الأموال كغيره من العاملين في مهام التحريات الخاصة. ومن منزله اتّصل السيد مايكل بصاحب مكتب التحريات ورتَّب لنا موعدًا لمقابلته وأوصاه بمساعدتنا. وفي اليوم التالي الذي صادف منتصف شهر آب/ أغسطس ذهبنا لمقابلته وأعطيناه ما لدينا من معلومات عن نواف وكذلك سدَّدنا الدفعة الأولى من تكاليف البحث عنه وانصرفنا ولم يكن ابن أخي عثمان يعلّق أملًا كبيرًا على جهود التحرّي الخاص فلقد سبق له أن لجأ في السابق إلى اثنين من أمثاله أحدهما في نيويورك والآخر في لوس أنجلوس ولكن دون جدوى. أمّا أنا

شخصيًّا فلقد كنت شديد التفاؤل وأذكر أنني قلت لابن أخي بعد مغادرتنا لمكتبه: أعتقد أن هذا الرجل سوف يساعدنا فعلًا في العثور على نواف.

في صباح اليوم التالي عدنا إلى منطقة نيويورك وسكنّا في الفندق نفسه الذي أقمنا فيه قبل عدّة أيام في ولاية نيوجرسي. وبعد عصر ذلك اليوم ذهبنا إلى قلب مدينة نيويورك لزيارة العمارة التي كنت أعيش فيها في الأربعينيات، وكذلك لزيارة المدرسة الإسلامية التي أسّستها في هارلم. وحتى يتسهَّل أمر تنقُّلنا في المدينة ولكي لا نضلّ الطريق فيها فلقد ذهبنا إليها في ليموزين خاص طلبناه بواسطة الفندق. وطلبنا من سائق الليموزين أن يأخذنا أولًا إلى العمارة التي كنت أسكن بها في الشارع الخامس مقابل (سنترال بارك) لقد وجدت أن المنطقة أمام العمارة لم تزل كما هي وكأنني - والله - تركتها في الأمس اللهم باستثناء بعض الأوساخ المتناثرة في أطراف الشارع هنا وهناك على الرصيف المحاذي لسنترال بارك. خرجت من السيارة وتمشيت أمام العمارة في الشارع الخامس وعبرت إلى الطرف الآخر ووقفت بمحاذاة البارك ونظرتُ إلى نوافذ شقتي المطلّة عليه. الله الله يا دنيا.. ليت الأربعينيات تعود يومًا لأخبرها بما فعلت التسعينيات. ولم أنسَ بالطبع التقاط بعض الصور التذكارية ولقد سمح لنا بواب العمارة بالدخول إلى بهو المبنى ولكنه لم يأذن لنا بالصعود إلى الشقة التي كنت أسكنها. تُرى ماذا حلَّ ببوّاب العمارة الذي كان يعمل هنا في الأربعينيات عندما كنت أنا من سكان هذه العمارة. هكذا سألت نفسي. وبعد انقضاء حوالي نصف ساعة من التأمُّل والتذكُّر طلبت من سائق الليموزين أن يأخذنا إلى الشارع الثامن والأربعين. وفي الطريق بدأت ألاحظ بشكلٍ أوضح تردّي حالة مدينة نيويورك وعندما وصلنا إلى الشارع الثاني والأربعين لم يكن جميلًا كما كان عهدي به في السابق فهو اليوم مليء بالمتسولين المتشردين وبالأوساخ المرمية على طرفيه أمام كلّ محلّ وكل مبنى. ولقد كانت حالة منطقة هارلم أسوأ من أي شيء يمكن أن يخطر على بالي. ولم نتمكن من العثور على المدرسة الإسلامية لأنني لم أتذكَّر عنوانها بالتحديد فالذاكرة تخونني أحيانًا في بعض الأشياء. وبعد شيء من البحث عن المدرسة قرَّرنا أن نغادر هارلم قبل أن يحلَّ الظلام حتى لا نتعرَّض لأيٍّ من المخاطر التي يمكن أن تواجه غريبين مثلنا في

هارلم تحت أجنحة ظلام المساء. هكذا اقترح سائق الليموزين وأيَّده ابن أخي عثمان، ولم يكن لي بدٌّ من الاستسلام لطلبهما. واتّجهنا نحو نفق لينكولن عائدين إلى نيوجرسي. وكنت أتأمل في الشوارع المكتظة بالأشكال الغريبة المخيفة حقًّا. ماذا حلَّ بك أيتها المدينة العظيمة؟ فلقد كانت شوارعك نظيفة جميلة وأناسك عاديين يظهرون بأحسن مظهر ويلبسون أحسن الملبس ويعاملون الناس أحسن معاملة. فلقد كنت أمشي ليلًا بمفردي في شوارع هارلم لعدّة سنوات في الأربعينيات ولم يصبني مكروه ولم أتعرَّض في يوم لأيٍّ حادثة سيئة، واليوم نسعى ثلاثتنا للهروب بسيارتنا من هارلم قبل أن يحلَّ الظلام. لست أدري ماذا أصاب نيويورك ولكن يبدو أنها قد تحوَّلت من مدينة عظيمة إلى مدينة تعيسة؟ أمر يصعب تصديقه ولكن يبدو أنه حقيقة واقعة.

أمضيت أمسيتي بين الراحة ومشاهدة التلفاز، وأمّا الدكتور عثمان فلقد أمضى معظم المساء منكبًّا على كتابة رسالة إلى مكتب الضمان الاجتماعي الأميركي يسألهم فيها المساعدة في البحث عن نواف. فلقد أراد ابن أخي طرق أكثر من باب في مسألة البحث عن نواف. فإضافةً إلى مكتب التحرّيات الخاصة في واشنطن أراد أن يرسل هذه الرسالة إلى مكتب الضمان الاجتماعي في بلتمور في ولاية ميرلاند وذلك عملًا بنصيحة القنصل الأميركي في الرياض.

في صباح اليوم التالي ذهبنا نتسوّق في أحد المجمَّعات الجميلة القريبة منّا، وبعد الظهر اتّجهنا إلى حفل أسرة السيد جان صديق الدكتور عثمان الحميم. لقد كان اللقاء حارًّا بين الصديقين، وكان الحفل رائعًا يحتوي على أطيب المأكولات الإيطالية طبعًا. هذا وإن أحد إخوة السيد جان الحاضرين في الحفل كان محاميًا جيدًا، ولم يضيِّع الدكتور عثمان فرصة الاجتماع به في الحفل فانفرد به مدّة نصف ساعة وأطلعه فيها على الرسالة التي كتبها إلى الموظفين في الضمان الاجتماعي وأدخَلَ عليها بعض التعديلات بناءً على توصية المحامي التي حصل عليها بصورة مجانية أثناء الحفل. وغادرنا الحفل في المساء بعد أن سمع الجميع بعض تفاصيل حياتي في الولايات المتحدة. وأثناء مغادرتنا قالت لي إحدى العجائز الموجودات في الحفل ربما إحدى عمّات أو خالات السيد جان قالت لي: ما دمت قد جئت

في هذا العمر الكبير تبذل مجهودًا خاصًا في البحث عن ولدك فأعتقد أن الله سوف يجمعك به. وطلب الجميع من ابن أخي عثمان أن يخبرهم بالنتائج الخاصة بالبحث عن نواف.

صباح اليوم التالي توجّهنا عائدين إلى واشنطن. وفي المساء زرنا شقيقة عثمان مع زوجها الأخ حمود الرشودي الذي كان يمضي إجازته مع أفراد أسرته في واشنطن.

صباح الثلاثاء اتّصلنا بمكتب التحريات الخاصة وسألنا عن صاحبه وعلمنا أنه في نيويورك وتركنا رقم هاتفنا في الفندق وطلبنا منهم الاتِّصال بنا عند عودته. ثم توجَّهنا لزيارة السفارة السعودية وتناولنا طعام الغداء في السفارة مع الأستاذ صالح الراجحي وعدد من الموظفين العاملين في السفارة ولقد أعطى ابن أخي عثمان الرسالة التي كتبها إلى مكتب الضمان الاجتماعي الأميركي للأخ صالح وطلب منه تأمين طباعتها في السفارة. فقلت للدكتور عثمان بعد عودتنا إلى الفندق: يا ابن أخي لقد أتعبْتَ نفسك بهذه الرسالة فلقد أمضيت أمسية كاملة في كتابتها ثم عرضتها على المحامي في الحفل وطلبت ملاحظاته عليها واليوم أعطيتها للأخ صالح وطلبت منه تأمين طباعتها بالسفارة. ولماذا لا تنتظر نتائج البحث بواسطة مكتب التحريات الخاصة فقد لا نحتاج إلى هذه الرسالة أبدًا. فابتسم وقال سيكون خيرًا إن شاء الله. وفي مساء ذلك اليوم ذهبنا لزيارة أسرة السفير الشيخ إبراهيم السويل رحمه الله فلقد كانت تربطني به صداقة حميمة.

صباح اليوم التالي ذهبنا للمركز الإسلامي في واشنطن. وأذكر الآن أنني في الأربعينيات كنت أجمع التبرعات لبناء هذا الصرح العظيم، وفي الستينيات كان الشيخ عبد الرؤوف مدير المركز في ذلك الوقت يوزِّع على المسلمين في المركز ترجمة القرآن الكريم للشيخ يوسف علي التي أشرفتُ على طباعتها عدَّة مرات. وتأمَّلت اليوم في وضع المركز الإسلامي ولاحظت أنه بالرغم من أهميته يُعاني من ثلاث مشاكل مهمة: فليس فيه مكان لموقف السيارات، ومكتبته صغيرة مقارنة بأهميته في الولايات المتّحدة، ويفتقر أخيرًا إلى قاعة مناسبة لاستقبال الضيوف غير المسلمين الذين يريدون التعرُّف إلى الإسلام عن طريق السمع والمناقشة وطرح الأسئلة.

عُدنا إلى الفندق في ذلك المساء بعد تناول العشاء في أحد المطاعم العربية في واشنطن، وجلست أنا أتفحّص بعض الأوراق والصور القديمة الخاصة بي التي أريد إدراجها في مذكرات حياتي، وأما ابن أخي عثمان فلقد كان يقرأ بعض الأوراق التي كانت معه. ولقد أعلمنا موظّف الهاتف في الفندق عند عودتنا بأن السيد جورج قد اتّصل من نيويورك وأنه سوف يتّصل مرة ثانية. ولم يكن أيّ منّا يعرف أحدًا بهذا الاسم في نيويورك، فلم نَدْرِ مَن هو ولم نَدْرِ ماذا يريد، وبعد حوالي الساعة من عودتنا إلى الفندق رنَّ جرس الهاتف في الفندق وأجاب ابن أخي عثمان. لقد كانت الساعة تقترب من السابعة وكنت أنا جالسًا بالقرب منه أعبث بأوراقي وصوري القديمة كعادتي كل مساء في السنوات الخمس الأخيرة. وفجأة سمعته يقول هذا عظيم - لقد قالها بالإنجليزية طبعًا - ثم طلب من محدِّثه أن ينتظر لحظة ونظر إليَّ وصوته مليء بالفرحة والغبطة، مبروك يا عمّ فلقد وجدوا نوافًا. رميتُ الأوراق والصور من يديَّ اللتين بدأتا بالارتعاش وقلت له أكمل الحديث مع المتَّصل أكمل الحديث فلقد كنت أخاف أن ينقطع خطّ الاتصال أو أنني أردت التأكُّد من أن ما نسمعه صحيح وأكيد وليس وهمَ خيالٍ أو دُعابة من أحدٍ ما. وتابع عثمان الحديث مع محدِّثه وطلب مني أن أناوله ورقة وقلمًا وكتب رقم هاتف وعنوانًا وأدركت أنها إمّا رقم نواف أو رقم الشخص الذي سيوصلنا إلى نواف. وخلال دقائق انتهت المكالمة التليفونية التي سمعته يقول في آخرها حسنٌ جدًّا، سوف أتَّصل به الآن وسوف نزورك في مكتبك بواشنطن في الأسبوع القادم لنحدِّثك عن التفاصيل ولنُنهي جميع الإجراءات، وإنَّ العمّ خليل وكذلك أنا نشكرك جزيل الشكر على جهودك العظيمة المثمرة. لقد أصابني شيء من الارتباك وأنا أسمع التفاصيل. وبالرغم من أن وجود نواف كان في مخيلتي طوال الشهور الأربعة الماضية، وبالرغم من أن شعورًا خفيًّا كان ينبئني بأمر العثور عليه إلّا أنَّ هوْل المفاجأة كان أكبر ممّا تصورت. فلم أذكر أنني مرَرْت بمثل هذه اللحظات طيلة حياتي. وحاولت أن أهدِّىء بعض الشيء مظاهر الإثارة في نفسي لكي أتمكن من التركيز وفهم التفاصيل التي ألقاها على مسمعي ابن أخي الحبيب الذي يرجع إليه الفضل بعد الله في هذه المسألة. أصغيت إليه يقول: يا عمّ إنها لفرحة كبيرة، ويبدو

أن الله قد أذن لك أخيرًا بمقابلة نواف. إن المتحدِّث على الهاتف هو صاحب التحري الخاص الذي أوكلنا إليه مهمة البحث عن نواف. لقد اتّصل بنا من نيويورك والسيد جورج الذي اتّصل أثناء غيابنا هو شريك له في نيويورك يتعامل معه في قضايا التحريات، لقد أراد أن يحدِّثنا من مكتب صديقه بعد الظهر ويعلمنا بالخبر السعيد ولكنه لم يجدنا، وعاود الاتصال الآن من فندقه في نيويورك. فلقد عثروا اليوم في الصباح من مصادرهم الخاصة على عنوان نواف ورقم هاتفه. إنه يقيم في فلوريدا بالقرب من ميامي في مدينة تدي هولي وود. ليس هولي وود في كاليفورنيا ولكن هولي وود في فلوريدا، ولقد أخذت رقم هاتفه وعنوانه. وسألت ابن أخي بعد أن استجمعت تفكيري المشتَّت، هل نتصل به نحن أم مكتب التحرّي الخاص؟ فأجاب قائلًا: إن مهمة التحري الخاص تنتهي عند إيجاد العنوان والهاتف والاتّصال هو من شأننا وأمر خاص بنا. فقلت له: ماذا تنتظر إذًا هيّا اتصل به. ورأيت شيئًا من الارتباك على وجه الدكتور عثمان وهو يجيبني: ولكن ماذا سأقول له؟ قُلْ له أي شيء قلْ له إنني والده خليل وإنني أريد أن أراه وأتعرف إليه. هكذا قلت لابن أخي وأنا والله أدرك صعوبة المهمة التي كان عليه إنجازها. ولمّا استجمع قواه وبدأ بالاتصال شعرت أنا بالارتباك ثانية وطلبت منه أن يتريث قليلًا. ثم قلت له لماذا لا نكتب له رسالة نشرح له فيها التفاصيل؟ أليس هذا أفضل من مفاجأته بالاتّصال الهاتفي؟ ولقد راقت الفكرة لابن أخي عثمان وجلس يكتب بعض الأسطر إلى ابن عمه نواف، ولكنه توقف بعد دقائق وقال إنّ مدة زيارتنا لأمريكا محدودة والرسالة قد تأخذ عدة أيام لكي تصل إليه. فقلت له إنني في حيرة من أمري وطلبت منه أن يفعل ما يرى أنَّ فيه الخير والصواب. ففكر قليلًا وعاد إلى كتابة الرسالة. وتركته في صالة الجلوس ودخلت إلى حجرة النوم وجلست على مقعد كبير في طرفها أفكر في الأمر ثم أفكر. وبعد دقائق استخرت الله سبحانه وتعالى وقرَّرت أن نتَّصل بالابن نواف بالهاتف. وعُدت ثانية إلى صالة الجلوس وقلت للدكتور عثمان توقَّف عن الكتابة فليس لدينا أي وقت نضيعه لقد اتّكلت على الله وعزَمت على فكرة الاتصال بالهاتف. فهيّا نتحدث معه الآن.

خلال دقائق كان ابن أخي يتحدّث مع زوجة نواف في فلوريدا، فلم يكن

نواف موجودًا في منزله عند اتصالنا، وغني عن القول إن مفاجأتها كانت كبيرة ولقد مرَّ بعض الوقت قبل أن تستوعب الخبر. واتّفقنا على معاودة الاتصال مرة أخرى. ثم اتصلنا بالأستاذ مايكل أروستي وأخبرناه بتطورات الموضوع وذهبنا لزيارته، فلقد كنّا أنا وابن أخي في غاية الإثارة وكأننا غير مصدِّقين تلاحق الأحداث السارّة. ومن منزل السيد مايكل اتصلنا ثانية بنواف وتحدَّث إليه عثمان طويلًا مدة نصف ساعة ثم تحدَّثت إليه أنا وفي صوتي رجفة وأول كلمة قلتها له: نواف كيف حالك. قلتها بالعربية فقال لي عثمان الجالس بجانبي إن نوافًا لا يعرف العربية فانتبهت لنفسي وأعدتُ العبارة نفسها مرة ثانية ولكن باللغة الإنجليزية في هذه المرة. لم يكن حديثي معه طويلًا فلم أدرِ ماذا أقول واتفقنا على محادثته ثانية بعد العودة إلى الفندق. وتمَّ هذا فعلًا واتَّفقنا على زيارته في فلوريدا.

قبل أن نخلد للنوم اتَّصلت ببعض الأصدقاء والأقرباء في المملكة وأعلمتهم بخبر العثور على نواف، وفي مقدِّمتهم صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبد العزيز وكذلك الأستاذ كمال أدهم، فلقد كانا على اهتمام دائم بالموضوع ولقد ساعداني كثيرًا وسهّلا لي مهمة البحث عن نواف جزاهما الله عني كل خير، وكذلك اتّصلت ببعض الأهل والأقرباء ومنهم شقيقتي عائشة في الرياض وابن عمي أمير عرقة الشيخ محمد الرواف.

في ظهر اليوم التالي أقلّتنا الطائرة إلى فلوريدا، المدينة التي يقيم فيها نواف. إنها مدينة سياحية جميلة. وسكنّا في أحد الفنادق المطلّة على البحر، واتّصلنا بنواف بعد وصولنا مباشرة، وبعد ساعة رنّ جرس الهاتف بغرفتنا وتكلّم ابن أخي عثمان ثم نظر إلي وقال: وأخيرًا سوف تقرّ عينيك يا عمّ برؤية ولدك نواف، إنه في الصالة ينتظرنا مع زوجته وابنته. وخلال دقيقتين وجدت نفسي في بهو الفندق وجهًا لوجه أمام نواف وزوجته وابنته، تسمّرت عيناي في نواف وتسمّرت قدماي على الأرض فلم أعُدْ أقوى على السير خطوة واحدة. وقفت قبل الوصول إليه بمسافة قصيرة أتأمّل فيه ونهض هو من مجلسه وأخذ ينظر إلي وكأنه يريد أن يتأكّد بأنني والده. وقطع الدكتور عثمان حبل الصمت وقال هالو كلايف (اسم نواف الأميركي) فأجاب نواف هالو وأسرع باتّجاهي واحتضنني واحتضنته. تركته عندما كان عمره

سبعة أو ثمانية أشهر وأحتضنه اليوم رجلًا في الخامسة والأربعين. تركته طفلًا رضيعًا وأراه اليوم أمامي رجلًا طويلًا بهيَّ الطلعة، حَسَن الهندام. رأيت دمعة في عينَيّ زوجة نواف وأنا أصافحها وسمعتها تقول أهلًا بابا خليل، ثم أخبرتني بأن والدها يعود إلى أصل عربي وينتمي إلى أسرة المعقد إحدى العائلات المسيحية السورية العريقة. وأمّا ابنته فلقد كانت في غاية السعادة والابتهاج. ولقد علمت فيما بعد بأنها في الحقيقة ليست ابنته وإنّما ابنة زوجته من زواج سابق، أمّا ابنته الفعلية التي أنجبها من زوجته السابقة الفيتنامية فهي تعيش مع أمها في كاليفورنيا. فعندما كان نواف في فيتنام مع فرقة الفرسان الأميركية الأولى تزوج من سيدة فيتنامية وأنجبت له طفلة جميلة سماها أندروميدا. وعندما عاد إلى الولايات المتحدة بعد نهاية الحرب اصطحب معه زوجته وابنته الصغيرة وبقيا معًا عدة سنوات ثم فرَّق الطلاق بينهما وبقيت ابنته مع والدتها في كاليفورنيا.

بقينا مع نواف وأسرته ستة أيام مرّت وكأنها ست ساعات. ولقد أكرمني ربّي مرات ومرات في حياتي ولكنني لم أشعر بأعظم من هذا الشعور في عمري، فأنا لم أجد نوافًا فقط ولكنني وجدته في حالة صحية واجتماعية جيدة. فهو متوسّط الحال ينتمي إلى الطبقة الوسطى الأميركية يعيش حياة كريمة ويتحلى بأخلاق حميدة وآداب رفيعة. يعمل في تثمين العقارات وبيعها لحسابه الخاص وكذلك لحساب بعض الشركات والبنوك. لطيف المعشر، واسع الاطّلاع متعدِّد المواهب، كريم، يحب مساعدة الآخرين، يتحلى بالكثير من خصائص الشهامة العربية. لقد أمضينا معظم الوقت نتحدّث ونُصغي لبعضنا البعض يسألني وأجيبه وأسأله ويجيبني في سنوات حياته الأولى كان يعتقد أن السيد أحمد زكي أبو شادي هو والده. وبعد وفاة السيد أبو شادي بسنة واحدة أي عندما كان نواف في العاشرة من عمره اكتشف من الوثيقة التي تبنّاه بها السيد أبو شادي أن والده الفعلي هو رجل من السعودية اسمه خليل الرواف وأن السيد أبو شادي قد احتضنه منذ الصغر ثم تبنّاه فيما بعد، إن نوافًا لم يزل يذكر جيدًا السيدة صفية ابنة السيد أبو شادي، فلقد عاشا معًا في المنزل نفسه حتى وفاة والدها. عندما علم نواف أنني والده كان صغيرًا ولم يَدْرِ في ذلك الوقت ما هو المقصود بالسعودية ولا أين تقع، وبعد ذلك بسنة واحدة

سافر مع أمه وزوجها الجديد السيد كيث جاردنر إلى بريطانيا وبقي هناك حتى الثانية عشرة من عمره وأنهى تعليمه المتوسط والثانوي في بريطانيا حيث التحق في البداية في مدرسة بريطانية ثم انتقل للمدرسة الأميركية في بريطانيا. ففي المدرسة البريطانية كانوا يضربون الأطفال ولكن الضرب لم يكن معمولًا به في المدرسة الأميركية. لقد سرّني ما سمعت منه ولو أنني كنت معه في بريطانيا لأهَنْت الأستاذ الذي ضربه ولأخذته بيدي من المدرسة البريطانية إلى الأميركية، لقد تركتُ مدرستي التركية بدمشق بعد المرحلة الابتدائية لأنني لم أطِقْ ضرب الأساتذة الأتراك ولا إهانتهم لنا. وفي الصحراء وجدت حريتي مع قوافل العقيلات. حريتي التي لم أفقدها يومًا ولله الحمد منذ وجدتها في الثانية عشرة من عمري.

ترك نواف أمه في بريطانيا عندما كان في الثامنة عشرة من عمره وعاد إلى الولايات المتحدة والتحق بالجيش الأميركي وبعد سنتين ذهب إلى فيتنام وبقي فيها ست سنوات. وبعد عودته من فيتنام وطلاقه من زوجته الفيتنامية استقرّ في نيويورك عشر سنوات كاملة. وفي منتصف السبعينيات كتب نواف - كما يقول - ثلاث رسائل إلى السفارة السعودية يطلب فيها مساعدته في العثور على والده خليل الرواف، وعندما مرّت سنة كاملة ولم يتلقَّ أيّ ردٍّ اعتقد أن والده قد توفي أو أنه لا يرغب في الاتّصال به ولهذا فلقد قرَّر أن يترك موضوع البحث عن والده، ولكنه لم ينْسَ أبدًا أنه عربي ولم يزَلْ يحتفظ بخنجر عربي جميل أعطته إياه أمه عندما كان في الثالثة عشرة من عمره وأخبرته بأن هذا الخنجر هو هدية والده إليه. ويقول نواف إن نظرته نحو السعودية قد تعمَّقت أثناء حرب الخليج. فلقد برز اسم السعودية في أجهزة الإعلام الأميركية ليل نهار واهتم هو مثل بقية الأميركيين بمتابعة الأخبار اليومية ولكنه كان يشعر باهتمام خاص يشدّه نحو الصحراء فلقد كان يعلم بأن والده ينتمي إلى تلك الأرض التي تساهم الولايات المتحدة في الدفاع عنها.

لقد علمت من نواف بأنَّ أمّه لم تزل على قيد الحياة وأنها تعيش في ولاية كنتيكت مع زوجها كيث جاردنر الذي يصغرها بحوالي عشر سنوات. لقد عادا معًا من بريطانيا في السبعينيات وأقاما بعض الوقت في نيويورك ثم انتقلا قبل عدّة

سنوات واستقرا في كنتيكت. وفي مساء اليوم الثاني من زيارتنا لنواف، اتّصل بوالدته وأخبرها بقدومي لزيارته. ولم تصدِّق الخبر وتوقّفت عن الكلام برهة ثم قالت: خليل جاء لزيارتك؟ هل أنت جاد؟ هذا غير معقول. ولم تكن كونستانس تعتقد بأنني لم أزل على قيد الحياة، فإنني أكبرها بخمسة عشر عامًا. وطلبت كونستانس أن تكلّمني على الهاتف ولم أمانع في مكالمتها. وتحدَّثت معي عدة دقائق وقالت في بدايتها إنني لا أصدِّق ما يحدث الآن ولكن كما ترى يا خليل فلقد أصبح نواف رجلًا وسوف ترى عندما تعرفه جيدًا بأنه رجل ممتاز. وبعد انتهاء زيارتنا لنواف سافرنا إلى كليفلاند وسيدر رابدس، وأثناء وداعنا في المطار طلب مني نواف أن أعود لزيارته مرة أخرى قبل مغادرة أميركا إلى السعودية ولكنني أخبرته بصعوبة تحقيق ذلك بسبب ضيق الوقت، واتَّفقنا على الالتقاء بواشنطن بعد انتهاء رحلتي إلى بعض الولايات الأميركية.

وفي كليفلاند رأيت ابنتي آسيا وسعدتُ بها كثيرًا وحدَّثتها عن أخيها نواف وطلبت منها أن تحضر إلى واشنطن بعد أسبوعين لكي تقابله وتتعرَّف إليه، فأخبرتني بأنها لا تستطيع الحضور إلّا في عطلة نهاية الأسبوع بسبب ارتباطها بالأبحاث والعمل والدراسة في مستشفى كليفلاند. فطلبت من ابن أخي عثمان أن يرتِّب موعد لقائنا مع نواف في واشنطن في أيام عطلة نهاية الأسبوع لكي تتمكن الدكتورة آسيا من الحضور.

إن السبب الأساسي الذي دفعني إلى القدوم لكليفلاند هو زيارة السيدة مذر إن كانت لم تزل على قيد الحياة أو زيارة بيتها الكبير والتحدُّث مع المتبقين فيه من أفراد أسرتها. فلم تكن السيدة مذر تكبرني إلّا ببضع سنين. وها أنا اليوم حيٌّ أرزق وأتمتع بصحة جيدة. فقد تكون هي أيضًا مثل حالتي. وحتى لو أنها توفيت فإنني أذكر أنها حدّثتني أثناء زيارتي لها قبل ثلاثة وخمسين عامًا عن ولدها الوحيد الذي كان يعمل في منجم الفحم الخاص بهم. فمَن يدري لعلّه لم يزل يحافظ على البيت الكبير المطلّ على البحيرة الجميلة. وبالرغم من أن ابن أخي عثمان كان يعتقد منذ بداية الرحلة بأنَّ جهودنا في البحث عن السيدة مذر أو بيتها أو الأحياء من أفراد أسرتها لن تُثمِر عن شيء إلّا أنه لم يمتنع عن بذل أيّ مجهود من شأنه أن يُساعد

في الوصول إليهم. لقد كان الأمل ضعيفًا في تحقيق أي شيء ولكن الله مكَّنني من مقابلة حفيدة السيدة مذر. قبل قدومنا إلى كليفلاند اتّصل الدكتور عثمان بسيدة لبنانية تُقيم في كليفلاند كان زوجها أحد تلامذتي في المدرسة الإسلامية في سيدر رابدس بولاية أيوا. وحدَّثها في موضوع السيدة مذر وطلب منها المساعدة الممكنة، وأحالَت بدورها المسألة إلى ولدها الذي أنهى لتوِّه دراسة الماجستير في إحدى الجامعات الأميركية. وتحدّث مع ابن أخي عثمان بالهاتف من واشنطن وشرح له الموضوع بالتفصيل وأعطاه المعلومات التي لدينا ولم تكن كثيرة. فكلُّ ما لديّ هو رسالة موجَّهة لي في نيويورك تحمل توقيع السيدة مذر وتشتمل على التفاصيل الخاصة برحلتي إلى كليفلاند والمحاضرة التي سوف ألقيها في منزلها على عضوات جمعية النسوة من أثرياء المدينة التي كانت تنتمي إليها.

بعد وصولنا إلى الفندق بقليل قَدِمَ الشاب اللبناني الأصل واسمه السيد عمر لزيارتنا وأخبرنا بأنه وَجَد بعض المعلومات المهمة في مكتبة المدينة العامة عن السيدة مذر التي توفيت قبل خمسة عشر عامًا. فلقد كانت سيدة مشهورة من أثرياء كليفلاند ذات نشاطات اجتماعية وخيرية متعدِّدة. ولقد تحوّل بيتها - بناءً على رغبتها - إلى مركز خاص لعقد السيمينارات والاجتماعات العلمية والخيرية. وبموجَب وصيَّتها فإنه بإمكان أيّ جمعية علمية أو اجتماعية أو خيرية أن تَستخدم منزلها دون مقابل لعقد المؤتمرات أو الندوات أو الاجتماعات، واتّصل السيد عمر بمنزل السيدة مذر الذي أصبح مركزًا للاجتماعات العلمية أو الخيرية وعَلِم أن حفيدة السيدة مذر (ابنة ولدها) واسمها أرلين تدير المركز وكذلك جميع النشاطات الخيرية التي أسَّستها جدتها. وعندما اتّصل لم تكن السيدة أرلين موجودة وأخبره العاملون في المركز بأنها ستعود بعد عدة أيام. لقد كانت أخبارًا مثيرة حقًّا ورجَوْت الله في سرعة عودة أرلين من سفرها فلم يكن لدينا وقت طويل نمضيه في كليفلاند. انصرف السيد عمر من زيارتنا في الفندق حوالي الثانية ظهرًا ووعدنا بمحاولة الاتِّصال ثانية بمركز الاجتماعات ليعرف فيما إذا كانت السيدة أرلين قد عادت إلى العمل.

بعد ذلك بقليل قَدِمت الدكتورة ابنتي حسب الموعد لزيارتنا وخرجْنا معها في جولة حول المدينة. وبعد عودتنا إلى الفندق وجدنا رسالة مختصرة من الأستاذ عمر

تقول: أرجو الاتّصال في أسرع وقت ممكن. واتّصل به ابن أخي عثمان في الحال وعَلِم منه أنَّ السيدة أرلين قد عادت إلى كليفلاند وأنّه تحدَّث معها بالهاتف وأخبرها عن معرفتي القديمة بجدَّتها وعن وجودي في كليفلاند في الوقت الحاضر، وأنها أبدت اهتمامًا خاصًّا بذلك وتريد منا أن نتّصل بها بالهاتف في صباح الغد وبالتحديد في الساعة الحادية عشرة. وفي الموعد المحدد. اتَّصل بها الدكتور عثمان ولم يكن يصدِّق ما يحدث أمامه من تطوّرات سريعة. فلقد دعتنا إلى زيارتها في الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم وطلبت منه أن نأتي بالرسالة التي أرسلتها لي السيدة مذر في نيويورك، وفجأة شعرت بأهمية هذه الرسالة التي احتفظت بها هذه السنوات الطويلة. واتَّصلت بابنتي آسيا وطلبت منها مرافقتنا في زيارتنا للسيدة أرلين التي سوف تستقبلنا في مركز الاجتماعات العلمية والخيرية وهو منزل جدَّتها السابق. ولم نكن نعرف طريقنا جيدًا في كليفلاند ولكن السيد عمر قَدِم معنا - مشكورًا - لكي يساعدنا في الوصول إلى المركز وفي الموعد المحدَّد دخلت سيارتنا من بوابة الحديقة الكبيرة التي يقع في طرفها المنزل الكبير المطل على البحيرة. لقد رأيت الدكتور عثمان ينظر إليّ ويبتسم. فلقد أصبح يعرف أنني شديد الحنين إلى الذكريات. لقد حدَّثته كثيرًا عن زيارتي للسيدة مذر وعن كرمها هي وزوجها وعن جمال منزلهم والخدم الذين يعملون فيه. وعن البحيرة والحديقة والبوابة التي دخلنا منها قبل لحظات.

كانت السيدة أرلين مع اثنتين من مساعداتها بانتظارنا أمام باب المنزل. لقد وجدت الحفيدة مثل جدّتها لطيفة وكريمة ومؤدّبة. سيدة في منتصف العقد الخامس من عمرها، أنيقة في مظهرها ومحدِّثة لبقة. وبعد أن رحَّبت بنا أحسن ترحيب اطَّلعت على رسالة جدتها وصوَّرت نسخة منها في آلة التصوير التابعة للمركز واحتفظت بها لنفسها وأعادت لنا الأصل. وبعد دقائق من وصولنا جلسنا في الشرفة المطلّة على البحيرة وطلَبت مني أن أحدِّثها بالتفصيل عن زيارتي إلى جدَّتها. وبدأت أستعيد ذكريات تلك الزيارة وأرويها لهم. ولقد كانت إحدى مساعدات السيدة أرلين تدوِّن بعض ما كنت أقول. فالسيدة أرلين تنوي إعداد كتاب عن حياة جدَّتها وسوف تُدرِج فيه - كما قالت - زيارتي إلى منزل جدّتها في نهاية

الثلاثينيات، وكذلك زيارتي الثانية التي جاءت بعد أكثر من خمسين عامًا. حدّثتهم عن زيارتي بالتفصيل فلقد أعطاني الله عادة تدوين بعض أحداث حياتي منذ الصِّغر. ولقد مكَّنتني هذه المذكّرات من تقديم هذا الكتاب الذي تعود بعض أحداثه إلى ثمانين عامًا مضَت. إنَّ قصة زيارتي للسيدة مذر مدوَّنة في مذكّراتي بشكل جيد ولقد استعرضتها في الجزء الثاني من الكتاب. ولهذا لم أجد أيّ صعوبة في رواية تفاصيل الزيارة. ويبدو أنَّ رؤيتي للمنزل قد أعادت إلى ذاكرتي أشياء جديدة لم أدوِّنها حتى في مذكّراتي. حدَّثتهم عن زهور الحديقة والخيول الثلاثة الموجودة فيها، حدَّثتهم عن الأثاث الفاخر والسرير الأثري في غرفتي وحمّامها الكبير وحنفيّاته ومقابضه الذهبية. حدَّثتهم عن المحاضرة والمجلس العربي الذي أعدَّته السيدة مذر لينسجم مع المناسبة. كما حدَّثتهم عن أنواع الطعام العربي التي أكلناها بشهية كبيرة بعد الانتهاء من التحدُّث عن الدول العربية، حدَّثتهم عن طعام الإفطار الذي كنّا نتناوله كل صباح أثناء أيام الزيارة في الشرفة نفسها التي نجلس بها الآن. حدَّثتُ السيدة أرلين وبقية الموجودين في الجلسة عن كلِّ الأشياء التي تذكَّرتها عن تلك الزيارة. وبعد الانتهاء من حديثي الطويل ذهبنا جميعًا بجولة في غرف المنزل الكبير والحديقة الكبيرة وأخذنا العديد من الصور التذكارية وخاصة في الحديقة الخضراء الجميلة. وأثناء تجولنا أخبرَتْنا السيدة أرلين أنها سمعت من والدها الذي توفّي قبل سنتين عن زيارتي الأولى لمنزل جدّتها. والمحاضرة التي ألقيتها على أعضاء الجمعية النسائية. القصة المتداولة في الأسرة - كما أخبرها والدها - أنّ جدّتها السيدة مذر أعدَّت حفلًا عربيًّا خاصًّا في منزلها ودعَت إليه مجموعة من سيدات المجتمع البارزات واستدعت شيخًا عربيًّا حقيقيًّا لكي يحدِّثهن عن الدول العربية. ولهذا السبب فلقد تركت زيارتنا اليوم - كما قالت السيدة أرلين - أثرًا كبيرًا في نفسها. فلقد كشفنا لها تفاصيل صفحة جميلة من صفحات حياة جدَّتها العظيمة. وبعد حوالي الساعتين غادرنا المنزل مودَّعين من السيدة أرلين ومساعداتها حتى ركبنا في سيارتنا وقالت لنا وهي تقول مع السلامة أرجو أن تحافظوا على الاتّصال الدائم بنا. ومن منزل السيدة مذر - (أعني من مركز المحاضرات

والاجتماعات العلمية والخيرية) – ذهبنا إلى أحد المطاعم اللبنانية وأكلنا أطيب المأكولات اللبنانية التي يمكن أن يشتهيها الإنسان.

إن رحلتي إلى الولايات المتحدة برفقة ابن أخي عثمان كانت مليئة بالمفاجآت والأحداث السعيدة. ولقد توَّجها الله برؤية الابن نواف مع الانتقال من مشهد سعيد إلى آخر. فبَعد أن تركنا كليفلاند توجَّهتُ أنا والدكتور عثمان إلى سيدر رابدس للقاء تلامذتي اللبنانيين. اختلف شكل المدينة كثيرًا عن عهدي القديم بها. فلقد توسَّعت كثيرًا وازداد البنيان الحديث فيها ولكن بعض شوارعها ومعالمها القديمة لم تزل كما كنت أعرفها بالسابق.

عشيّة وصولنا إلى المدينة أقامت السيدة فاطمة عجرم زوجة المرحوم حسن عجرم حفل عشاء كبير في منزلها على شرفنا ودَعَت له بعض العائلات اللبنانية التي كنت أعرفها، لقد توسّع حجم الجالية اللبنانية المسلمة في سيدر رابدس كثيرًا، فعندما كنت إمامهم قبل أكثر من خمسين عامًا كان عددهم يقتصر على ثلاث عشرة أسرة تضم جميعها حوالي خمسين شخصًا أو أكثر بقليل. وأمّا اليوم فلقد انضمّت إليهم عائلات لبنانية جديدة وازداد عددهم إلى بعض مئات أو أكثر. جميع أرباب الأسر الثلاث عشرة الذين كنت أعلِّم أبناءهم وبناتهم انتقلوا إلى رحمة الله وكذلك بعض زوجاتهم وعدد قليل من تلامذتي الأبناء. ولهذا فإنني في هذه الرحلة إلى سيدر رابدس لم أقابل حسن عجرم وخليل عجرم، وحسين شرانق وخليل شرانق، وزين العاصي وحسن وخلف ومحمد العاصي وعلي أبو خليل وحسين الخضر وحسن مرعي وعبده عمر ويحيى عاصي ونجيب بدرة وقاسم سدرة ومرعي الداهوك. فلقد ماتوا جميعًا ولكنني قابلتُ بعض الطاعنات في السن من نسائهم ومعظم أبنائهم وبناتهم الذين كنت أعلِّمهم العربية والإسلام في المركز الإسلامي. فلقد كان في الحقيقة لقاء بين التلاميذ وإمامهم وما زالوا حتى اليوم يصرّون على مناداتي بالإمام. بعضهم في العقد الخامس وبعضهم في العقد السادس من أعمارهم، ولقد أصبحوا رجال الجالية الآن وبعضهم اعتلى مكان الصدارة الاجتماعية في المدينة. محمد عجرم ولد المرحوم حسن عجرم من أشهر أطباء الأسنان في المدينة وأولاد المرحوم عاصي يملكون مؤسسة تجارية كبيرة ولهم كثير

من المعاملات والأعمال مع بعض رجال الأعمال في المملكة وبعض دول الخليج وكذلك فقد قابلت جاسم علوان التلميذ الصغير الذي كان أبوه السيد علوان يرسله في الصيف من أشلاند في ولاية كنتاكي لكي يتعلّم العربية والإسلام في سيدر رابدس. ولقد تمكَّن بدوره أيضًا من النجاح في مجال الأعمال الحرة مع بعض رجال الأعمال في المملكة وبعض دول الخليج، وبعد عودتي من رحلتي الأخيرة إلى الولايات المتحدة بعدة أشهر قَدِمَ إلى الرياض السيد نبيل عاصي في رحلة عمل ولقد سُعِدْت بمقابلته في الرياض ولقد سبق أن زارنا مع والده المرحوم عاصي ووالدته مهيبة عاصي وأحد أشقائه. وإن زيارتهم لي في جدة في ذلك الوقت لها قصة طريفة. فلقد قدموا أصلًا لأداء فريضة الحج وكان والدهم المرحوم عاصي يعلم أنني أقيم في جدة ولكن لم يكن لديه عنوان السكن أو رقم الهاتف. فلقد كان رحمه الله من أعزِّ أصدقائي وكذلك أراد لولديه أن يعرِفَاني فلقد قَدِما إلى هذه الدنيا بعد أن تركت المدرسة الإسلامية وغادرت سيدر رابدس عائدًا إلى نيويورك في بداية الأربعينيات. ولكلِّ هذا فلقد رغب والدهم رحمه الله في زيارتي ولكنه لم يعرف كيف يجدني، سأل عني مطوِّفه فلم يعرفني وسأل عني أحد مراكز الشرطة ولكنه لم يصل إلى نتيجة، وسأل عني بعض المراكز الحكومة الرسمية في الحج ولكن دون جدوى. ولمّا يئس من كل هذا بدأ يسأل الأشخاص السعوديين الذين يقابلهم أثناء إقامته في جدة. سأل عني في الفندق الذي سكن فيه وفي المحال التجارية التي اشترى منها بعض الهدايا والأشياء وسأل عني كل سائق تاكسي كان يركب معه. ولمّا كاد اليأس يثنيه عن البحث أراد الله لي وله ولزوجته مهيبة أن نلتقي من جديد وأن أتعرَّف على ولديه الشابين. فلقد رأى سجادة فاخرة للصلاة معلَّقة في أطراف أحد محلات بيع السجاد في جدة. فدخل إلى المحل لشرائها وسأل صاحب المحل عني ولم يصدِّق في البداية ما سمعته أذناه عندما أخبره صاحب محل السجاد بأنه يعرفني ولديه عنواني ورقم هاتفي. والحقيقة أن صاحب المحل يعرفني جيدًا لأنني كنت في ذلك الوقت أعمل وكيلًا للأمير طلال بن عبد العزيز في المنطقة الغربية ولقد كان مكتب الأمير يتعامل معه لشراء جميع أنواع السجاد الخاص بالأمير. ومن حسن الحظ أنني كنت في مكتب الأمير عند اتِّصال صاحب

محل السجاد وخلال دقائق معدودة وصلتُ إليهم هناك ودعوتهم إلى منزلي. وأثناء زيارتي الأخيرة إلى سيدر رابدس ذكّرتني الحاجة مهيبة التي لم تزل على قيد الحياة بهذه القصة ثم روَتْها بالتفصيل لابن أخي عثمان وبعض الأشخاص الآخرين.

أقام لي تلامذتي القدماء ثلاث حفلات كبيرة في الأيام القليلة التي مكثتها بينهم، وقابلتُ أبناء الجيل الثالث والرابع من ذرّية اللبنانيين من الشباب والفتيات الذين سمعوا عن المدرسة الإسلامية الأولى في سيدر رابدس وأرادوا التعرُّف إلى الأستاذ الذي أسسها أو الإمام الأول كما يسمّونني، وصلينا معهم الجمعة في المركز الإسلامي الجديد الذي يحتوي على مسجد واسع ومكتبة وصالة استقبال كبيرة وقاعة للاحتفالات الاجتماعية.

بعد الصلاة اصطحبني محمد عجرم لزيارة المركز الإسلامي القديم الذي ضمّ غرفة للصلاة وغرفتين للدراسة وغرفة ثالثة في الجزء الأسفل من المبنى كنت أستخدمها للنوم. المبنى لم يزل قائمًا ولكنه قديم ومهجور. تجوّلتُ في غرف المبنى وشرحت لابن أخي عثمان عن المكان الذي كنت أجلس فيه مع التلاميذ لدراسة القرآن واللغة العربية. ولقد استغرب ابن أخي من صغر حجم الغرفة التي كنتُ أنام بها وكذلك في ضيق حمامها. ولما رأيت علامة الاستغراب على وجهه قلت له إنَّ مَن يبدأ حياته مع رحلات العقيلات يستطيع أن يتحمّل جميع مشقات الحياة التي يمكن أن تواجهه.

لم نتمكن من مغادرة سيدر رابدس بسهولة لأن تلامذتي وأبناء أصدقائي هناك أصرّوا على تمديد زيارتي عندهم، وأخيرًا أذِنوا لي بالسفر بعد أن وعدتهم بزيارة طويلة لاحقة تستغرق عدة أشهر. وأثناء وداعنا في المطار قالت إحدى سيدات الجالية اللبنانية لابن أخي عثمان: «لا تنس أن تعود بالإمام خليل لزيارتنا السنة القادمة»، فقال لها الدكتور عثمان مبتسمًا إن شاء الله فإن إمامكم سيعود إليكم سالمًا في العام القادم. وبعد مغادرة سيدر رابدس أوصلني ابن أخي عثمان إلى كربس كرستي في تكساس لزيارة السيد علي كرى، شقيق زوجتي المصرية التي تعيش معي الآن في الرياض حلو الحياة ومرّها، وبقيت في كربس كرستي عند

السيد علي كرى عدة أيام بينما ذهب الدكتور عثمان لزيارة بعض أصدقائه في سياتل، ومن هنا اتصل بنواف واتّفق معه على الالتقاء بعد أسبوع في فندق شيراتون في التايسن كورنر في شمال فرجينيا بالقرب من واشنطن. واتّصلتُ بابنتي آسيا في كليفلاند وأخبرتها بمكان وموعد اللقاء وأكّدت، وأراد الله لهذا اللقاء أن يتوسع، فلقد اتّصل الدكتور عثمان وأخبرني بأن أم نواف زوجتي السابقة كونستانس ترغب في الحضور إلى واشنطن لمشاهدة جمع الشمل بيني وبين ولدها نواف، وسألني إذا كنت أمانع ذلك ففكّرت قليلًا ثم قلت له حسنًا إنني لا أمانع في حضورها فلقد مرَّ وقت طويل على قضية الخلاف بيننا والطلاق. إن حضورها مهم سواء بالنسبة إليها أو بالنسبة إلى نواف. وفي صباح اليوم التالي اتّصلت بالدكتور عثمان في سياتل وطلبت منه أن يرتِّب مع نواف أمر قدوم ابنته أندروميدا في كاليفورنيا لحضور اللقاء أيضًا فإنها حفيدتي الحقيقية وأريد أن أراها.

وهكذا التقى الجميع في لقاء جميل استمرّ خمسة أيام في الأسبوع الثاني من أيلول/سبتمبر، فلقد قَدِمَ إلى فندق شيراتون على التوالي أنا وابن أخي عثمان أولًا ثم نواف وزوجته وابنتهما مليسه ووالد زوجته السيد ألبرت معقد وبعد ذلك وصلت الدكتورة آسيا من كليفلاند ثم والدة نواف من كنتيكت وأخيرًا وصلت ابنته من كاليفورنيا. وأثناء وجودهم في واشنطن ذهبنا جميعًا باستثناء والدة نواف لزيارة السيدة صفية أبو شادي ابنة السيد أحمد زكي أبو شادي التي تسكن بالقرب من واشنطن. ولقد سبق لي أن زرتها مع الدكتور عثمان قبل ثلاثة أسابيع من زيارتنا لنواف في فلوريدا ولا نستطيع أن ننسى طبعًا الجهود التي بذلتها السيدة صفية والمعلومات التي زوّدتنا بها أثناء البحث عن الابن نواف. ولقد استعاد نواف والسيدة صفية بعض ذكريات الماضي التي جمعتهما، فنواف لم يزل حتى الوقت الحاضر يحمل لقب أبو شادي بعد أن تبنّاه السيد أحمد زكي أبو شادي - والد السيدة صفية - وبعد زواج السيد أبو شادي من والدة نواف أقاموا جميعًا في بيت واحد في واشنطن لمدّة ست سنوات انتهت بوفاة السيد أبو شادي، حيث سافر نواف مع أمه وزوجها الجديد السيد كيث جاردنر إلى لندن ولم يَرَ نواف السيدة صفية منذ ذلك الوقت وحتى زيارتنا لها في هذه الليلة. لقد كان عمر نواف في ذلك

الوقت عشر سنوات ولهذا فهو يذكر السيدة صفية جيدًا. ولقد طلب منها نواف في تلك الأمسية أن تغفر بعض هفوات طفولته إن هو أخطأ بحقِّها في ذلك الوقت. فقالت السيدة صفية لا عليك يا نواف فالكبار يعتبرون شقاوة الصغار من ضمن الذكريات الجميلة. وانتهت تلك الأمسية الحافلة بالذكريات والقصص الجميلة بعد أن اتَّفق نواف والسيدة صفية على تبادل الرسائل والزيارات.

أثناء وجودنا في واشنطن تحدَّثت مع زوجتي السابقة كونستانس وتجاهلتُ مشاكل الماضي وكذلك فعلت هي وأبدت سرورها البالغ بلقائي مع نواف، وقالت حبَّذا لو يزورك في السعودية ليتعرَّف على جذوره هناك، فقلت في نفسي، الله الله يا دنيا فلقد كانت تمنعني حتى من زيارته لأنها كانت تخشى أن أهرب به إلى السعودية. والآن تطلب مني بنفسها أن أستدعيه لزيارة أرض جذوره. ولكن لا بأس فنواف ولدي وإنني أحبّه الآن كبيرًا كما كنت أحبُّه بالأمس صغيرًا، وإن فرحتي بلُقياه لا تقدَّر بثمن ولن تكتمل فرحتي إلّا إذا قدِمَ إلى المملكة وتعرَّف على أبناء عمومته، ولقد استغرب عندما علم بأن عددهم يزيد على المائتي رجل.

قبل انتهاء لقائنا بيوم واحد قَدِمَ مندوب مجلة المجلة وأجرى لقاء مطولًا، معي ومع نواف ومع الدكتور عثمان ولقد تمَّ نشره بعد ذلك بشكل قصة مثيرة بعنوان رجل من بريدة يعثر على ولده الأميركي بعد 45 عامًا، ولقد رتَّب اللقاء المكتب الإعلامي السعودي في واشنطن. جزاهم الله عني كل خير فلقد ظهرت صورتي مع نوّاف على غلاف مجلة المجلة وأعطتني شهرة كبيرة ولقد أسعدني كثيرًا لقاء ابنتي آسيا مع أخيها نواف في واشنطن، وليس غريبًا على الإخوة غير الأشقاء لأبناء رجال العقيلات أن يلتقوا أحيانًا بعد سنٍّ متقدمة. فبعض العقيلات كانوا يتزوّجون في مصر والشام ومناطق أخرى إضافة إلى زوجتهم الأولى في نجد. وبعد مرور الوقت يلتقي الإخوة والأخوات أبناء المصرية مع أبناء النجدية مع أبناء العراقية أو السورية ومع أبناء العسيرية أو الأبهاوية أو الهندية. وهكذا أَضَفْتُ إلى هذه القائمة الخاصة بالعقيلات ابن الأميركية. وكذلك فلقد سعدت بلقاء حفيدتي المولودة في فيتنام. وكذلك بابنة زوجة نواف التي يعتبرها في مقام ابنته تمامًا. وأما زوجة نواف ووالدها فلقد تحدَّثا كثيرًا عن رغبتهما في زيارة سوريا للبحث عن جذورهم وأقاربهم هناك.

ودَّعتُ نوافًا على أمل اللقاء القريب إمّا في أميركا أو في السعودية وتركنا تحديد موعد اللقاء للمستقبل. وبعد سفر الجميع بقيت أنا والدكتور عثمان وحيدين ننتظر موعد سفرنا عائدين إلى المملكة في اليوم التالي.

منذ أن تجاوزت السبعين من عمري، تضاءل اهتمامي بالتجارة ولكن قلبي لم يزل مفعمًا بحب الرحلات والقراءات والكتابة والمعرفة والاطّلاع على التطورات والمنجزات العلمية الجديدة. وقد يرى البعض في ذلك دليلًا على حب الدنيا والتمسك بها، وقد يستغربون ذلك من رجل تجاوز الخامسة والتسعين من عمره. ولكن المسألة بالنسبة إلي هي طبعٌ اعتَدْتُ على ممارسته منذ سنين طويلة. وتساعدني صحتي الجيدة - ولله الحمد - على المحافظة عليه. ومن أكثر الأشياء التي أحمد الله عليها بعد الصحة والعافية في سنِّ الشيخوخة هي انشغالي بأداء الكثير من الأمور وعدم شعوري بالملل والفراغ. فوقتي مشغول دائمًا بالقراءة أو الكتابة أو العبادة أو السفر أو بحضور مجلس الأمير طلال أو زيارة الأقرباء والأصدقاء أو سماع الموسيقى والأغاني القديمة خاصة التي تشتمل على قصائد عميقة في معناها جميلة في كلماتها، بعض الوقت أمضيه بمداعبة أحفادي الصغار، وبين الحين والآخر أذهب لزيارة بعض معارفي في البادية. ولقد انشغلت أخيرًا بكتابة الرسائل إلى نواف في أميركا.

بالرغم من تقدُّم سن الشيخوخة فإنني كثيرًا ما أقوم بمفاجأة أقربائي من الشباب والشابات بزيارة خاطفة. فلي في مدن المملكة وكذلك في دمشق والقاهرة وبغداد أكثر من أربعين رجلًا وامرأة وأكثر من مائة طفل أكون بالنسبة إليهم خالهم، أو عمهم، أو عمّ أمهم، أو أبيهم، وتراني أطرق باب أحدهم ظُهْرَ يوم فجأة وأشاركهم طعامهم الموجود، ويستيقظ بعضهم أحيانًا في صباح الخميس أو الجمعة على طرقٍ لباب منزلهم. وقد تكون زيارة مزعجة في صباح يوم الراحة ولكن ما تأتي الساعة الثامنة إلا ونحن جميعًا نأكل الفول والحمص والجبن والشاي في إفطار لذيذ، وبعد الانتهاء من تناول الإفطار أتركهم لأعمالهم وربما ليعودوا إلى النوم والراحة وغالبًا ما أذهب لزيارة قريب آخر لشرب الشاي والقهوة معه.

لا أنام إلّا ساعات قليلة في الليل، وأمضي جزءًا منه أعبد ربي وأناجيه

وأشكره على نعمة الصحة والهمّة وراحة البال. وأحيانًا أوقظ سائق سيارتي مع الفجر ليأخذني إلى أطراف مدينة الرياض. وهناك نصلّي الفجر في الصحراء ثم نراقب شروق الشمس ونحن نشرب القهوة ونأكل بعض حبّات التمر ثم نعود أدراجنا إلى الرياض. وحتى منتصف الثمانينيات كنت أقود سيارتي بنفسي ولا أعتمد على السائق. وبعد أن توسَّعت شبكة الطرق التي تصل بين مدن المملكة أصبحت أقود سيارتي بين الرياض والقصيم وجدة ومكة وحائل والدمام. وإنني دائمًا أجد متعة خاصة في تأمُّل رمال الصحراء على جانبي الطريق. ولا أبالغ إذ أقول إن متعتي بطبيعة الصحراء تفوق متعتي بالغابات الأميركية التي كنت أتأملها أثناء سفري بين ولايات الشرق الأميركي، والسبب في ذلك بسيط، فطبيعة أميركا ساحرة وجميلة ولكن طبيعة الصحراء العربية تمُتُّ بصلة خاصة لذكريات طفولتي وشبابي. وإن رؤية الجِمال على أطراف الطرق الصحراوية في المملكة يبعث في مخيلتي دائمًا ذكرى رحلاتي الأولى مع العقيلات. غالبًا ما أتذكر وأنا أقود سيارتي عبر الصحراء متَّجهًا للقصيم أو حائل «مزيونة» الذلول الأولى التي امتطيتها في أول رحلة من دمشق إلى بريدة مع العمّ محمد الأحمد الرواف.

لقد فقدت منذ عدة سنوات ميزة قيادة السيارة والشيخوخة هي السبب. وهذه هي طبائع الأمور فعندما يتقدَّم الإنسان في العمر ويصبح شيخًا عجوزًا يرمي باللائمة في كثير من الأشياء التي يعجز عنها على الشيخوخة. فمنذ تجاوزت الثمانين من عمري بدأ أفراد أسرتي خاصة زوجتي وابنتي تُكثِران الإلحاح عليّ لكي أتوقف عن قيادة السيارة. فلقد كانتا تعتقدان أن مقدرتي على التحكُّم بالسيارة لم تعد كالسابق وكنت أصرُّ على اعتقادي بخطأ رأيهما وأتمسك بقيادة سيارتي بنفسي. وبدأ عدد حوادث السيارات التي أتعرّض لها يتزايد وكان رجال المرور يطلبون مني في كل مرة اعتزال القيادة. وفي أحد الحوادث صدَمْت في الطائف في خريف السنة الأولى أو الثانية في بداية السبعينيات إحدى سيارات الشرطة صدمة قوية ولم أُصِبْ شخصًا بأيّ أذى في الحادث ولكن رجل الشرطة الذي كان يقود السيارة الثانية تعرّض لبعض الإصابات وأعطيته مبلغًا من المال وتنازل عن حقّه ضدّي، ولكن رجال الشرطة أوقفوني في قسم الشرطة ولم يُخلوا سبيلي إلّا بعد أن كفلني أمير

الطائف عبد العزيز بن معمر ﵀ وذهبت بعد ذلك لمقابلة الأمير نايف وطلبتُ منه أن يُسقط عنّي تسديد قيمة سيارة الشرطة التي تدمَّرت في الحادث. ولم يكتَفِ سموه بذلك، بل أعطاني سيارة بدل سيارتي التي أصيبت أيضًا بخراب كبير في الحادث وطلب مني - أمدَّ الله في عمره - أن أكون أكثر انتباهًا في قيادة السيارة في المستقبل.

ومع مرور الأيام امتنعت زوجتي وابنتي عن ركوب السيارة عندما أقودها خوفًا على نفسيهما من صدمة قوية، وأحيانًا كنَّ يخفين مفاتيح السيارة عني ولكنني كنت دائمًا أجدها بطريقتي الخاصة وأنطلق بالسيارة وكلّي حذر حتى لا أتورّط في أيّ حوادث أخرى. وبعد أن صدمت إحدى الأشجار الكبيرة في أحد شوارع الرياض قبل عدّة سنوات اقتنعت بأن الوقت قد حان لكي أتخلّى عن ركوب السيارة كما تخلّيت عن ركوب الخيل والجِمال قبل ذلك بسنوات طويلة. ولم أعُدْ منذ ذلك الوقت أقود سيارتي بنفسي وأصبحت أعتمد على السائق. وأحيانًا يذهب بي السائق إلى البر لكي أمارس هواية قيادة السيارة بعيدًا عن الشوارع والطرقات المعبَّدة حيث لا شيء أصدمه أو يصدمني. وعندما يعيش الإنسان قرابة قرن كامل بكلِّ صحته وعافيته وأحاسيسه، فإنه ينظر للحياة من منظار خاص لا يُدركه إلّا هو ولا يفهمه إلّا مَن كان في مثل عمره. فالسيارة التي أتحدّث عن متعة قيادتها أذكر أنّ نفسي أوجَسَت خيفة عندما رأيتها لأول مرة قبل الحرب العالمية الأولى بقليل. وعندما سمعت عن الطائرة لأول مرة في حياتي ظننت أنا وأصحابي أن محدِّثنا عنها كان رجلًا معتوهًا. رأيت الناس ينتقلون من حياة إلى حياة ثم إلى حياة أخرى، رأيت القيم تتبدّل والعادات تتغيّر مرات ومرّات. كانت أحداث الحرب العالمية الأولى تدور حولنا في البادية العربية الشاسعة، وفي الولايات المتحدة انخرطتُ في الجيش الأميركي وكِدْت أن ألتحق بصفوف الجنود الذين شاركوا في معارك الحرب العالمية الثانية. الدولة العثمانية بالنسبة إليّ هي ليست تاريخًا أقرأ عنه بالكتب وإنما واقع عشته وتفاعلت معه. فلقد سكنت في دمشق في ظلِّ السيادة العثمانية وتعلّمت اللغة التركية في الكتاتيب. أعرف القاهرة وقد كان عدد سكانها لا يتجاوز بضع مئات الألوف وأعرفها وقد أصبحت مدينة الستة ملايين نسمة. عندما زرت الرياض

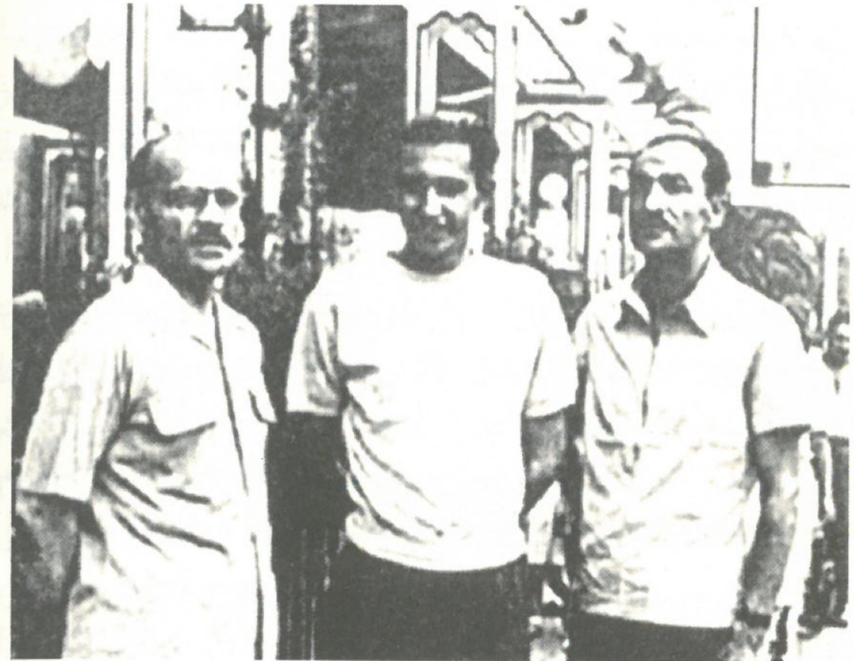
أوّل مرة كانت منفوحة مدينة متميِّزة تفصلها عن الرياض مسافة لا بأس بها. وأذكر أنني رأيت الملك عبد العزيز رحمه الله في الحلم قبل عدة سنوات يسير في شوارع الرياض الحديثة. ولمّا اقتربت للسلام عليه قال لي: هذه الرياض هي الرياض نفسها عاصمة مُلكي يا خليل؟ فلمّا قلت له أجل، ابتعد عني وهو يقول: الحمد لله ما شاء الله، الحمد لله ما شاء الله.

بعد أن تجاوزت التسعين من عمري وجدت نفسي أحظى باهتمام الصحفيين السعوديين والعرب والأجانب. بعضهم أجروا مقابلات مطوّلة معي سألوني خلالها عن حياتي وأسفاري، وبعضهم كتبوا مقالات عن بعض مظاهر حياتي العامة والخاصة. ويهتم الصحفيون الأجانب عادة بحياتي التي أمضيتها في الولايات المتحدة وأكثر ما يشدّ اهتمامهم مشاركتي في أحد الأفلام السينمائية مع جان وين، وأحيانًا أجلس على أحد الكراسي الكبيرة في مجلسي أو أتمدَّد على سريري وأستعرض شريط ذكريات حياتي. أتذكّر الكثير وأنسى الكثير أيضًا. وأحيانًا أذكر حوادث تعود إلى أكثر من ثمانين سنة وكأنها تحدُث أمامي الآن، وأنسى حوادث وقعت قبل سنتين أو ثلاث أو قبل أسابيع. ولقد كان نجاحي في التجارة نجاحًا مؤقتًا لم يدُمْ لوقت طويل. وبذلت الكثير في سبيل الدعوة الإسلامية ولكنني لم أصبح من الدعاة المتخصِّصين. ولقد كانت الفرصة مفتوحة أمامي لأغوص في عالم السينما في هوليود ولكنني رفضتها، كما رفضت فرصة أخرى للارتقاء في إذاعة صوت أميركا. ولم أحرص في بداية حياتي على الارتباط بعمل حكوميّ يشدُّني ويقيِّد حريتي، لقد قمت برحلات عديدة وأسفار طويلة ولكني لست رحّالة لأن الرحالة لا يعرف الاستقرار، وحياتي موزّعة بين الرحيل تارة والاستقرار تارة أخرى.

الآن وقد مرّت بي هذه السنون الطويلة وعشت الحياة بحلوها ومرها وانتقلت من باديتها إلى ناطحات سحابها، لو سئِلْت عن أحَبّ المناظر الطبيعية إلى نفسي لقلت الصحراء ليس لأنها أجمل من الغابات والبحيرات والأنهار والسواحل التي أعرفها ولكن لأن لي معها ذكريات قديمة، وكما قال الشاعر:

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلّا للحبيب الأول

والحب هو حب الأشخاص والديار والأوطان، ولو سُئلت عن أحلى أيام حياتي لقلت هي أيام رحلتي الأولى مع العقيلات ورحلتي مع زوجتي الأميركية الأولى عبر ولايات الشرق الأميركي. وكذلك الأيام التي أمضيتها مع العائلات اللبنانية في سيدر رابدس عندما كنت أعلِّم أبناءها اللغة العربية والإسلام. وأخيرًا فإن أيام رحلتي الأخيرة إلى الولايات المتحدة التي التقيت فيها ولدي نوافًا كانت لا تُنسى ولن تُنسى في حياتي الباقية، ولو خُيِّرت أن أكون إنسان آخر فلن أختار إلّا خليل الرواف. ولو سئلت عن حكمتي الأساسية في الحياة لنصحت بالتطلع دائمًا إلى مستقبل أفضل بنظرة تفاؤلية والعمل المتواصل وعدم القول والتفكير والهمّ والغم بمشاكل الدنيا. فأيام الحياة كفيلة بمعالجة الكثير من المشاكل التي تواجهنا. فإذا لم تكن هناك حلول مقبولة فهناك القناعة والنسيان وهما خاصّيتان عظيمتان أنعم الله بهما على الإنسان.



الأمير نواف بن عبد العزيز في مدينة كان في فرنسا عام 1952م



شقيق المؤلف ياسين الرواف مع الشيخ أحمد القاسمي مدير عام الأوقاف في سوريا
والدكتور نجيب الأرمنازي سفير سوريا في إنجلترا - دمشق 1960م



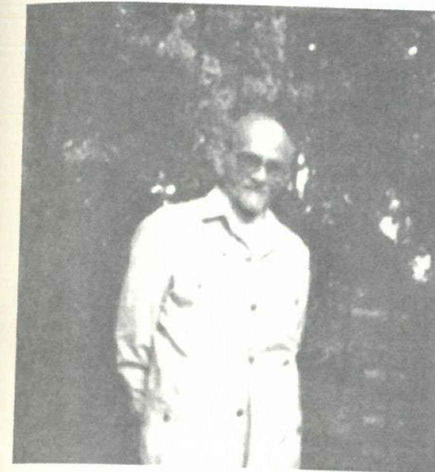
شقيق المؤلف ياسين الرواف مع بعض علماء الدين - دمشق 1960م



المؤلف مع ابنتيه: د.آسيا والأستاذة أميمة - برج القاهرة 1975م



رياض بن محمد عيد الرواف.
عمل مستشارًا في السفارة السعودية
في دمشق وبيروت. دمشق 1961م



المؤلف يقف أمام إحدى بوابات المنتزه
الذي أهداه والد زوجته الأميركية الأولى
إلى ولاية نيوجرسي 1991م



المؤلف مع السفير سليمان البسام.



في دمشق عام 1981م. مع محمد ربيع بن نعمان عثمان، توفيق بن مهدي عثمان،
مهدي بن نعمان عثمان، حسان بن ياسين الرواف.



في أرض ديار بيت الحاج نعمان عثمان. دمشق 1981م
المؤلف وحسان ياسين الرواف، نعمان أحمد عثمان، توفيق بن مهدي عثمان.



الأمير نايف بن عبد العزيز أثناء زيارته لسوريا عام 1988م.
وتفقده للمدرسة السعودية للأيتام ويبدو في الصورة الشيخ أحمد الكحيمي



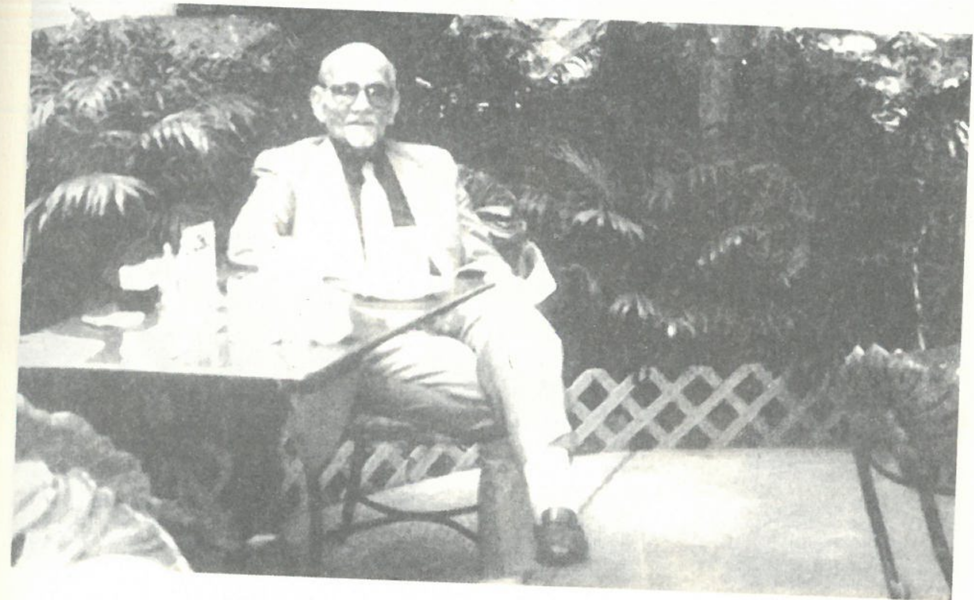
الأمير نايف بن عبد العزيز يتجول في مدرسة الأيتام السعودية في دمشق



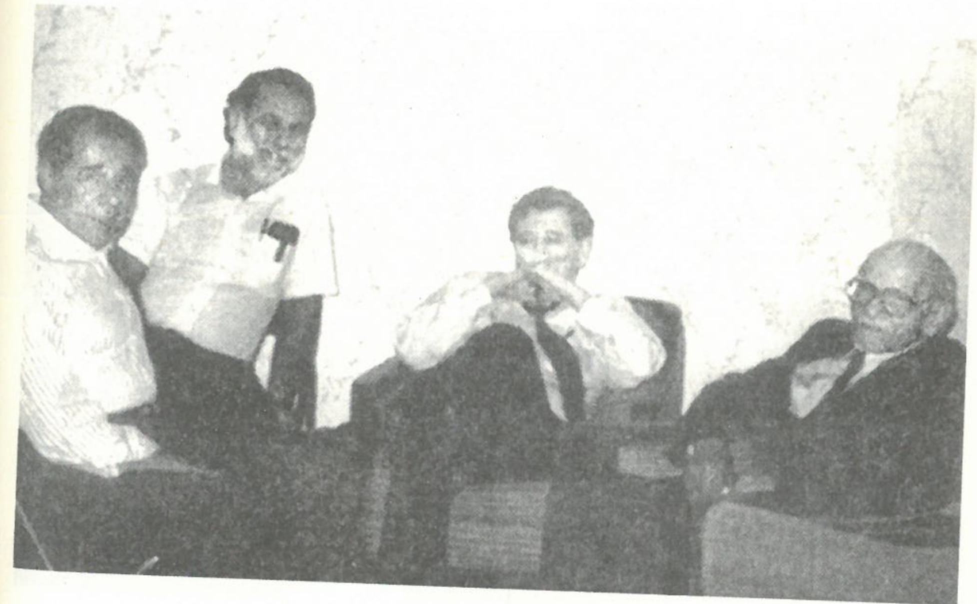
المؤلف مع ابن أخته الشيخ الكحيمي - السفير السعودي في سوريا.
حفل السفارة في اليوم الوطني السعودي عام 1989م



المؤلف في حديقة القصر التابعة لمنزل السيد والسيدة ماذر - كليفلاند أوهايو 1991م



المؤلف في حديقة أحد الفنادق أثناء زيارته الأخيرة لأميركا - 1991م



المؤلف مع بعض تلامذته الأميركيين في مدرسة ايوا أثناء زياته في صيف 1991م



المؤلف أمام البناية التي سكن فيها في نيويورك قديماً.
الصورة التقطت أثناء زيارته لأميركا عام 1991م



المؤلف وولده نواف في فلوريدا 1991م



نواف الرواف يدفع والده في
مطار فلوريدا 1991م



الأمير طلال بن عبد العزيز وعلى يمينه المؤلف أثناء تناول وجبة عشاء في الرياض



الأمير طلال بن عبد العزيز والمؤلف وأبو بدر، من شيوخ قبيلة عتيبة



المؤلف مع أمير عرقة الشيخ محمد الرواف وعبد الله بن عبد الرحمن الرواف.
مزرعة الرواف في عرقة 1990م



المؤلف يقرأ خبر صحيفة الندوة عن لقائه بابنه نواف بعد 45 عامًا من الغياب



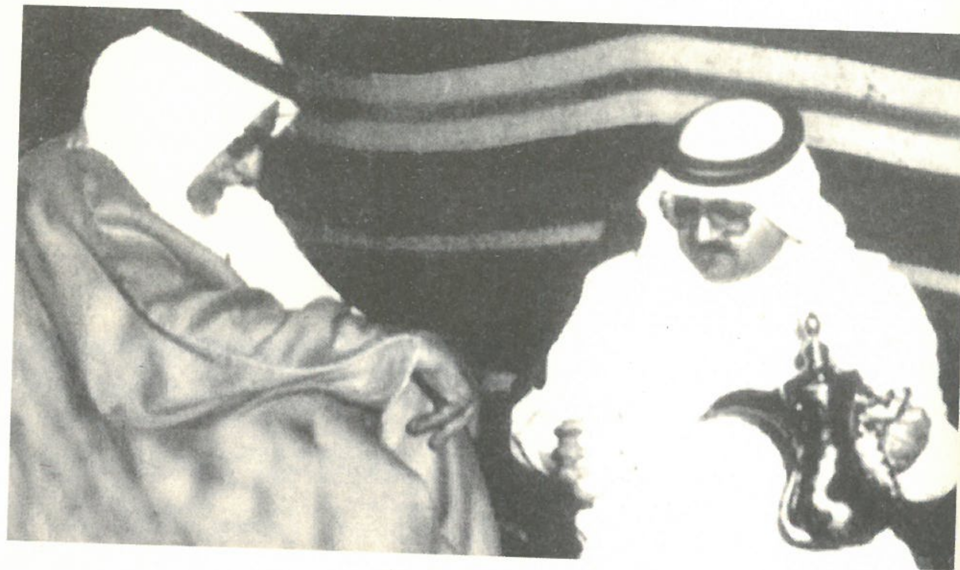
خليل الرواف وسعد بن ثويني.



المؤلف 1991م



المؤلف عام 1980م



في بستان الرواف مع ابن أخيه د. عثمان ياسين الرواف - 1998م



محمد عبد العزيز الرواف، أمير عرقة، من أبناء عمومة المؤلف.



المؤلف يروي إحدى قصصه القديمة في منزله بالرياض 1992م

بعض المقالات التي نشرت للمؤلف في الأربعينيات الميلادية في الصحف والمجلات العربية التي كانت تصدر في الولايات المتحدة مثل جريدة السائح ومجلة الحياة.

النهضات الإصلاحية في جزيرة العرب(*)

بقلم الأديب الشيخ خليل الرواف
«أثناء تجواله في الولايات الأميركية»

حدَّثنا التاريخ أنَّ بني العباس لمّا تمَّ لهم القضاء على حكم بني أمية وسلطتهم في المشرق العربي، وانتزاع الخلافة الإسلامية منهم، وعمَدوا إلى قطع علاقاتهم السياسية مع شبه الجزيرة العربية، ولم يمْضِ قرن على تسلُّمهم الزعامات الإسلامية حتى تمَّ لوزرائهم ما أرادوه من بترِ هذه العلاقات وإهمال شأن العرب في داخل جزيرتهم.

نشأ عن هذا الأمر عزلة قائمة بين الجزيرة والعالم العربي لازَمَتها بضعة قرون، ولولا مكّة وكعبتها، والمدينة وحُرمتها، وتردُّد المسلمين إليهما في كل عام لأداء فريضة الحج لأُهْمِلت هذه الديار مبعثُ النور ومنشأ الإصلاح إهمالًا كاملًا أفقدَها مركزها الأدبي والاجتماعي وقضى على معالمها وآثارها وأصبحت وكأنها لم تغن بالأمس ولم تكن موطنًا لتلك الرؤوس المفكّرة والأيدي العاملة في إقامة الدولة الأموية العربية، وكأنها لم تكن حاكمة وغيرها من البلاد كان محكومًا.

بيد أنّ رجالها لم تخلّد في هذه العزلة والانقطاع خلودًا يثبط عزائمها ويقضي على تفكيرها، بل احتفظوا بالسمت العربي والأخلاق الفاضلة، ولازمت هذه السِّمة فضلة علم وسعة من تعاليم دينها أبقى لها مركزها الاجتماعي مُهابًا وصان إليهم مكانتهم الأدبية وألزمتهم المحافظة على عاداتهم وأخلاقهم ضمن دائرة محدودة.

وكان خلال هذه الفترة من الزمن تعاودهم ذكريات طيِّبة سَلَفَت وأعمال جليلة دَرَجت فتوقِفُهم على ماضٍ مجيد وعزٍّ نشرَ راياته على الخافقين، فتهبّ بهم هذه

(*) كُتِب هذا المقال عام 1942م، ونُشِر في جريدة البيان النيويوركية.

الذكريات، وتبعث فيهم روح الحركة والنشاط، وتجعلهم يفكرون تفكيرًا جدِّيًا سائلين أنفسهم أمَا كنّا مصدر النور ومنشأ الهداية والإرشاد فما يمنعنا من إعادة الكرَّة ونشر هذا النور مرة ثانية؟

فكانوا يحاولون من حين لآخر نفض غبار هذه العزلة، ويعملون لخلع هذا الانقطاع ويتصلون بالعالم العربي اتصالًا وثيقًا ظنًّا منهم أنهم يستطيعون التعاون معهم على تحقيق الغايات النبيلة، والأماني القومية ومُثُلها العليا، فباتوا ينشدون هذه الأمنية ويسعَوْن إلى تحقيقها. فقيَّض الله لهم رجلًا منهم ومن أفذاذهم، هو المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب فأخذ ينشر تعاليم الدين الإسلامي تحت حماية أمير الدرعية محمد بن سعود الذي بايعه على المعونة والنصرة، وانتشرت رسالته الإصلاحية في الأقطار العربية مقتفية أثر النبي محمد ﷺ.

بعد وفاة المُصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب أخذ ينقص التسامح الذي واكب هذه التعليمات القيِّمة، ويرجع هذا التناقص إلى العوامل النفسية والاجتماعية والسياسية التي لازمت أبناء الجزيرة منذ أن قطع العباسيون علاقاتهم معهم وأهملوا شأنهم إهمالًا لا يُغتفر لهم بوجهٍ من الوجوه.

هناك أسباب أخرى على جانب عظيم من الأهمية، وهي مقاومة الترك لهذه الإصلاحات التي قام بها المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد أشفق الترك على اضمحلال نفوذهم في البلدان العربية مهبط الوحي ومنشأ الإسلام وعزَّ عليهم أن يروا دولة عربية تنازِعهم سلطتهم الدينية. ووافق قيام هذه الحركة الإصلاحية لمحمد بن عبدالوهاب نهضة مصر المدنية التي أقام دعائمها، وأشاد صرحها زعيم مصر محمد علي فكان التُرك على وجَلٍ من هذه النهضة معًا فحاول التُرك إغراق الفريق بمقاتلة الآخر للقضاء على نهضتيهما فتمَّ لهم ما أرادوه فشب بين أنصار الفريقين نيران حرب أضعَفَت قوة المصريين، وكادت أن تقضي على النهضة الإصلاحية النجدية قضاء مبرمًا.

بالرغم ممّا أصيبت به النهضة الإصلاحية النجدية من الأخطار الخارجية وما انتابها من الفوارق، وما رُمِيَت به من تقوُّلات وافتراءات إلى قادتها وزعمائها فقد أيقَظَ صوتها القوي الشعور القومي في الأقطار العربية وبعثَ فيها القوى الكامنة،

ووجَّهها إلى العمل لرفع مستواها الاجتماعي، ومهَّد السبيل أمام قادتها ومُصلحيها ممّا لمسنا أثره في النهضتين المصرية والمهدية السودانية وفي رسالتَي جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، وقد كان الآخران يتوخَّيان من نهضتيهما إزالة البِدَع التي دخلت على الدين الإسلامي، والأخذ بتعاليمه كما كان يفعل المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

ثم يقفُ العالم اليوم على نهضة نجدية سعودية ثانية انبعثت من البقعة التي انفجرت منها ينابيع النهضة الأولى - ورجالها هم أحفاد رجال تلك النهضة - وقيَّض الله لها قائدًا خبيرًا ثاقب النظر، عبقري النفس، ليِّن العريكة، سهلًا متسامحًا، وهو: عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، فأزال بحنكته السياسية وبحُسن نيته الحواجز التي واكبت النهضة الأولى، وقعَدَت بها عن إدراك غاياتها ومُثُلها العليا، ولذلك تمَّ لها الفوز والبقاء وأدَّت رسالتها على الوجه المطلوب، وصار لها في الأمصار العربية التي قاومت النهضة الأولى أشدّ مقاومة أنصارًا ومؤيدين.

النهضة السعودية الحديثة لم تقتصر على إصلاح ناحية واحدة، كما كان شأن النهضة الأولى، بل تناول إصلاحها مختلف نواحي الحياة العامة، علميًّا، وعمرانيًّا، واقتصاديًّا، فبعد أن تمَّ لعبد العزيز جمع كلمة العرب في شبه جزيرتهم، والقضاء على منازعاتهم والفوضى الضاربة أطنابها فيما بينهم والضرب على أيدي العابثين بالدين - بدَّل مجرى حياتهم من بداوة قعدت بهم عن سموّ التفكير والعمل المتواصل - إلى حضارة رفعت مستواهم ووسَّعت دائرة معارفهم، وهيَّأتهم للعمل متكاتفين، فشيَّدوا في مواقع ماشيتهم دُورًا استوطنوها، وأقاموا حولها المزارع والحقول، فأصبحَت جنّات ذات بهجة. ونرى عبد العزيز بطل توحيد الجزيرة العربية شديد الحرص على رفاهية شعبه ورفع مستواه العلمي والأدبي والاقتصادي، فقد عزَّز دور العلم، وأنشأ المدارس في المملكة، وأرسل البعثات العلمية إلى الأمصار العربية والعواصم الأوروبية، والجامعة الأميركية في بيروت، والجامعات المصرية تعجّ بالشباب السعودي، وأحكَمَ أطراف المملكة بشبكة اتّصال لاسلكية جمع موظفيها عربًا وسعوديين، ونجده يعتني اعتناء خاصًّا بالصحة العامة فأقام

المستشفيات في أمّهات المدن السعودية والمستوصفات في أنحاء البلاد، أطباؤها مصريون، وسعوديون، وسوريون.

تُشرِف الحكومة العربية السعودية على أعمال البعثات الفنية المصرية والأميركية لاستخراج كنوز الأرض. فمصر تهتم بالريّ والزراعة، والأميركيون يبحثون عن المعادن والزيوت، ويؤمل أن يكون لأعمال البعثات شأنٌ يُذكر في وجود البترول، وهناك مشاريع عمرانية أخرى كإنشاء مسلخ في منى تُنحَر فيه الأضحية، ومشروع تنوير البلدان الحجازية بالكهرباء وتسيير (الترام) فيها وإعادة تسيير الخط الحجازي بين السعودية وبين البلدان السورية، وجميع هذه المشروعات تُدرَس على بساط البحث بين الشركات العالمية والحكومة.

أمّا صلاته مع الدول والممالك والحكومات فهي صِلات متينة قائمة على الاحترام وحفظ الحقوق. أمّا ما أقامه من عدل وإحسان فهذا ما صار مضربَ الأمثال وغدا معلومًا لدى الخاص والعام.

عرف القرن العشرون زعماء كثيرين قاموا في مختلف القارات الخمس فإذا قارنّا بين أعمالهم وأعمال عبد العزيز فلا يسعنا إلّا الاعتراف بأنَّ عبد العزيز يكاد يكون في مقدِّمتهم بدون أن ننقص من شأنهم. إنّ هؤلاء الزعماء عند نهوضهم كان لهم أوطانهم وحكوماتهم ولهم جيوش وأموال طائلة.

أما عبد العزيز فقد قام بنفسه منفردًا، وبمعونة الله أوجَدَ وطنًا، وأنشأ حكومة وجمع شعبًا، فكأنه أوجد شيئًا من لا شيء، وهذه هي الزعامة الحقيقية.

بلا عنوان

حديثي هذا يتناول صديقًا لي عرفته منذ أن وطِئت قدماي أرض الولايات المتحدة الأميركية. ركنتُ لصُحبته وأنِسْتُ بعشرته طيلة أربعة أشهر، وكنت أجِلّه وأحترمه لخُلُق فيه كريم ولأدبه الجمّ رغم ما كان يعترضه أحيانًا من حالات نفسية تزعجني وتنغِّص عليّ هذه العشرة وتكادُ تقطع حبالها ثم افترقنا، وباتت رسائلي تتساقط عليه الواحدة تلو الأخرى طيلة سنين فكان لا يجيبني إلّا على الخامسة أو السادسة منها، ثم حجب عني رسائله فلم أعد أسمع منه شيئًا. ولا تسألني عن دهشتي وسروري عندما اعترض طريقي في أحد شوارع العاصمة واشنطن فكان لقاء جميلًا وسلامًا حارًّا.

كيف صحة الأخ وكيف أنت والدهر. قال: الصحة كما ترى أمّا شأني والدهر فلا أزال أجاريه ميوله وأهواءه وأعلِّل النفس بالمستقبل الآتي وبالأماني الحسان.

ظننت أن الأيام وصفحاتها غيَّرت من ظنِّك الحسن بالدهر شيئًا، فوجدتُك الآن كما تركتك منذ سنين مستسلمًا للدهر تعصف بك نفسياته وأنت لا تبدي حراكًا، أمَا لهذا الاستسلام من آخر؟ عجيب أمرك يا هذا! أما آن لك أن تتنبأ عن المستقبل وما سيأتي به مما مرّ عليك، فهل تضع حدًّا للظنِّ الحسن بالدهر والمستقبل؟ ألا تريه غضبك وسخطك عليه ولو مرة واحدة لعلَّه يُحسِن إليك بعد طول إساءته.

قال: مهلًا. لا تأخذني بحدَّتك ولا تستشيطن غضبي بنزاقتك، فلست للأيام بمستسلم كما ذهبت إليه ولا بالغبي كما يُتخيَّل إليك فقد اختبرت الدهر وبانَ لي خيره وشره ووقفت على حسنه وسيئه وعرفتُ كيف ينقضُّ على الأمان قاطفًا أزهارها النضرة ويعبث بالأحلام فتبدو لمرتقبها كسرابٍ يحسبه الظمآن ماء، ولكن لا يخفاك أن للدهر غاية وهو سائر وراءها تخالف غايتنا، ونهاية يطلبها تباين نهايتنا، أليس من الحكمة أن نجاريه في ميوله وغاياته؟

دَعْكَ من هذه الفلسفة التي لا تزيد الإنسان إلّا وهنًا على وهن.

قال: ليست هي بفلسفة وإنما هي الحقيقة وإنّا باتّباعنا إياها والإقرار بإرادتها راحة لأنفسنا، فلذلك تجدني مهما لاقيتُ من الأيام فلستُ من الناقمين عليها والمتبرّمين بعشرتها، وتَراني إذا ما جاءتني وغيرها أستقبلها بنفسٍ مطمئنة وثغرٍ يفتر بِشْرًا، وأهلّل لها كلّما ألّمت بي على اختلاف أطوارها وتباين أخلاقها باسمة عابسة، أم واهبة مانعة، ولا يتبادر لذهنك أنني بوداعتي التي أظهرتها نحو الأيام وركوني إليها واستبشاري بما سيأتي به من أحداث أخلُدُ مع سكون لياليها، بل إنني ساعٍ مجتهد متنبّه يقِظ، أعمل بلا ملل وأغدو بلا تعب ألِجُ كلّ فجٍّ وأطرق كل باب، ملقيًا دلوي بين الدِّلاء فمرّة تحمل ماء عذبًا زلالًا وآنًا آسنًا كدرًا.

فهذا هو شعوري نحو الأيام ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فكما أنّ المرء يعيش فيها بالأماني «فإن هي ضاعت فالحياة على الأثر» كذلك هي جهاد وجلاد. ومن هذه الوجهة أسمح لكَ أن تردّد معي قول القائل الذي حاولت أن تقاطعني حديثي فيه:

وحسن ظنّك بالأيام معجزة   فظن شرًّا وكُنْ منها على وجل

ثم واصل محدِّثي كلامه قائلًا: ألا علمت أنني سأكون عمّا قريب جنديًّا من جنود (العمّ سام) فقد وافتني بطاقة من دائرة التجنيد تحمل النمرة الأولى، فشعرتُ بعودة الشباب إليَّ مرّة أخرى بعد أن ودّعته وداعًا ظننتُ أنْ لا رجعة له من بعدها أبدًا.

هل أنت تحبِّذ الجندية وتميل لخدمة بلاد أنت غريب فيها؟

فابتسم ثم انتفض وقال: إنّي من المؤمنين بالقتال وبالذود عن الأوطان وإنه من أشرف ما يعمله الإنسان لبقائه عزيزًا سالمًا، أمّا كوني غريبًا فهذا لا يعترض سبيلي في خدمة بلادٍ قضيت في ربوعها أوقاتًا جميلة وإنني ككلِّ عربي أحفظ الجميل وأفي بالعهد، وإنّني كما قال الأول:

تباعد بأرض تكون فيها   ولا تقل إنّني غريب

فإذا ما دعاني (العم سام) للذود عن حماه والدفاع عن مبدئه فلن أسأله (لأيِّ

حرب أم بأيِّ مكان) وإنّي كرجل أعلم أنَّ الطعن والقتال كتب علينا (وللغانيات جرُّ الذيول) على أنَّ الغانيات في زمننا هذا لم تجرِّر الذيول ويلتهين بسفاسف الأمور، بل اشتركن والرجال بالدفاع عن حماهن فهنَّ يذكّرننا بشقائقهن ذوات الكواعب العربيات اللواتي رافقن الغزاة وأظهرن من الفروسية ما كان يُظهره الرجال.

هنا طربت لقول محدِّثي وغفرت له فلسفته الطويلة التي لم أفهم منها شيئًا فقلتُ له إن حديثك الأخير أعجبني فهات حدِّثني عن العربيات وزِدني من حديثك عنهن.

قال دَعْ عنك هذا، تلك أمة قد كان لها ما كسبت ولنا ما كسبنا فالأولون عملوا وكان عملهم متقنًا وشريفًا فما كان عملنا؟ ألهَتْنا أعمالهم وتَغَنَّينا بها حتى قعدت بنا عن الجَدّ والسعي وغدونا نحن بمؤخِّرة الأمم علمًا وعملًا وتفكيرًا، فبترديدنا ذِكْر مآثرهم وطيب أفعالهم، وقعودنا عن مجاراتهم واتِّباع آثارهم أصبحنا هدف قول القائل:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها منذ كان أوّلهم   يا للرجال لشعر غير مسؤوم

رويدك يا هذا واستعمل الرفق بالتأنيب فما طلبتُ منك التحدُّث عنهم للفخر والتبجُّح ولكن للعبرة والذكرى.

قال: إذا كان من هذه الجهة ولهذه الغاية فاستمع لما أقوله:

واقعة اليرموك، من المواقع الفاصلة في الحروب العربية وكان جيش العدو يفوق الجيش العربي عددًا وعدّة ولمّا بدأت طلائعه بالزحف، انقسمت العربيات المرافقات للجيش إلى فرقتين فأقواهن عضلًا وأضخمهن جثة وقفن في مؤخرة الجيش يحمِلْن أعمدة الخيام ليضربن بها كلَّ من تحدِّثه نفسه بالفرار، وأجملهن وجهًا وأعدلهن قوامًا يقدمن الغزاة ينخين الأبطال ويحثّونهم على الجلاد. وينشدن:

نحن بنات طارق
نمشي على النمارق

إن تُقبِلوا نعانق

أو تُدبِروا نفارق

فراق غير وامق

هل من كريم عاشق

يحمي حمى العواتق

فهذه الموقعة كان أبطالها نساء عديدات.

أمّا موقعة حمص فكانت بطلتها آنسة واحدة، وهي خولة بنت الأزور فقد علمت أن أخاها ضرارًا وقعَ في الأسر ولم تَقْوَ جنود خالد بن الوليد أن تقتحم جيش العدو لتنقذ ضرارًا من الأسر فأرجأ ذلك إلى الغد ولكن خولة لم تصطبر للغد في نصرة أخيها أو الأخذ بثأره إن كان قتيلًا، فارتَدَت ملابس الفرسان، وامتطت ظهر جواد كريم تخاطب روح أخيها:

أشقيق أين تراب وجهك كائن ... فأضم طيب رماده لرمادي

تالله لو أُنعى إليك قتيلة ... لملأت بسمي صفحة الآباد

وأخذت ثأري والسماء صوارم ... والأرض تخفق بالفتى الميّاد

ثم نهرت جوادها فانبرى بها يطوي الأرض طيًّا وينهبها نهبًا، فما كان من خالد ورجاله إلّا اتّباع هذا الفارس المغوار الذي لم يتحقّق مَن هو وحمَلوا على القوم حملة عنيفة تبدّدت فيها أبناء حمص، فألفت خولة أخاها مكبّلًا بسلاسل من حديد ففكّتها وألقت عنها خمارها فإذا بخالد ورجاله يصيحون مرحى لخولة.

فحرَّك محدِّثي قدميه ورفع إحدى يديه وحيَّاني بالتحية العسكرية وقال: أراك غدًا وذهب ينقل خطاه كالجندي في حالة الاستعراض، فاستوقفته سائلًا: هل لي أن أنقل حديثك إلى الناس؟

فقال: لك الخيار، وليكن «بلا عنوان».

من هو عبد العزيز؟(*)

بقلم خليل الرواف

يتحدَّث الناس فيما بينهم، قائلين: ما شأن هذا الرجل الذي ظهر في الصحراء العربية، فلفت إليه الأنظار، وأصبح حديث الناس تنعته الصحف العالمية بأجلِّ الألقاب، فتصِفَه تارة بسيد العرب وزعيمها، ومرة تقول: أفضل من أنجبته الصحراء. ما لأمم الأرض على تباين غاياتها، واختلاف آرائها، تتقرب منه وتطلب ودَّه؟

وما أظن هذه الصحراء الجافّة القاحلة، تفاجئنا من حين لآخر بالعباقرة الأفذاذ من الرجال؟

أيكون السرّ في ذلك، حرارة شمسها، التي تصقل العقول فتجعل منها نورًا يشعّ سناه، وألمعيّة نادرة المثال؟

أم إنَّ الله الذي حرمها ما وهبَ غيرها من بقاع الأرض من نبت بهيج، وماء عذب سلسبيل، عوَّضها بنَبتٍ من الرجال المصلحين؟ فأنجب منها عبد العزيز ليرفع ما اطمأنّ من رؤوس ساكنيها، ويُصلح ما فسد من شأنهم، وما اعوجّ من أخلاقهم ليجعل من هذه الجزيرة مصدرًا للنور، كما كانت من قبل في العصر الأموي، منشأ للرؤوس المفكِّرة في إقامة الدولة.

يتساءل الناس ويتعجّبون، وحقَّ لهم أن يتعجَّبوا من رجل قام بنفسه وحيدًا منفردًا فأسَّس مملكة مترامية الأطراف من دون أن تتوفر لديه أسباب لهذا العمل إذ لم يكن يملك غير قلب كبير يتفانى بحبِّ العرب والإسلام، ونفس كريمة مطمئنة تسعى لاسترجاع ما فقَدوه من العزّة والسؤدد والسعادة.

(*) نشرت هذه المقالة في جريدة البيان ونقلتها عنها إحدى صحف الأرجنتين.

فيجعل من جموعهم المتفرقة المتخاذلة، وحدة قوية مُحْكَمة الحلقات لا تنفصم عُراها ليُقيم في ربوع جزيرته العدل والأمان والاستقرار.

ولد عبد العزيز في مدينة الرياض عاصمته اليوم، وهاجَر مع والده الإمام عبدالرحمن الفيصل، مع مَن هاجرَ من عائلة آل سعود إلى مدينة الكويت.

الكويت: المدينة الهادئة الساكنة، الناشطة العاملة، المكتظّة بخليط من الشعوب السامية، المتصلة حدودها بملك الأكاسرة، وبالرافدين العراق، والبلدان النجدية، القائمة سدًّا منيعًا لمياه الخليج العربي تؤمها المراكب التجارية الهندية وغيرها من المراكب التجارية، وتَرِدُ إليها القوافل البرية القادمة من الديار النجدية رغبة في مسابلها، وطمعًا بخيراتها، ممّا تُخرِجه من مياه الخليج العربي من اللؤلؤ المكنون، وما تحمله إليها المراكب التجارية الهندية من الأقمشة الجيدة الزاهية، والفاخرة المتنوعة، وممّا تُنبته أراضي الهند من شتى أصناف البهارات المتعدِّدة، ومن كثرة تردُّد القوافل النجدية عليها، تُعَدُّ من بعض الموانىء النجدية، كما هي اليوم تُحسب من ثغور العراق بعد البصرة، وإنْ كانت منفصلة عن العراق انفصالًا تامًّا، ولها أميرها الخاص، وحكومتها المحلية المرتبطة بدار السفارة البريطانية، مع بقية الإمارات التسع القائمة على الخليج العربي.

في هذه المدينة نما عبد العزيز وترعرع وكان يعترض القوافل النجدية القادمة إليها لمساءلتها، سائلًا رجالها عن نجد وأهلها، فمن مُصْغٍ لحديثه، ومنهم الخائف من حكّام نجد من آل الرشيد، الأعداء الألدّاء لآل سعود، وفي كِلا الأمرين المصغي لحديثه، والآخر الحذر الخائف، كان يجد عبد العزيز في ذلك ما يُضاعف حزنه وما يزيد آلامه وشقاءه، وكان ورود هذه القوافل وصدورها يثير في نفس عبد العزيز الفتى اليافع كوامن الذكرى، ولواعج الأسى، فكان يستقبلها بقلبٍ مجروح خافق ويودِّعها بدمعة حائرة يدفعها الذل والقهر، وتمنعها الأنَفَة والإباء، وهو بين هذا وذاك يحدِّث نفسه ها أنا قد بلغت مبلغ الرجال، وهؤلاء أقراني من الفتيان ينظرون إليَّ نظرة تختلف عمّا ينظر بعضهم لبعض، يقدِّمونني عليهم حتى في اللعب والمرح، وأنا دونهم سنًّا.

عن أي شيء تنم نظراتهم؟ وما يعنون من ورائها؟ ألطول قامتي وزيادتي عنهم

بسطة في الجسم؟ أم إنَّ هناك كامنًا في نفوسهم يدفعهم لاحترامي. لا يعرفون من أمره شيئًا.

ماذا نتوخى من وراء مكوثنا في الكويت، لا طائل لنا من هذا المكوث؟ إننا نعاني ذلَّ الغربة، وضَنك العيش، أليس من العار على آل سعود أن يكونوا عالة على غيرهم، وقد كانوا من قبل أهل فضل على الناس وعَوْنًا لهم على تقلب الدهر، يدفعون عنهم عادياتها، يؤمنون خائفهم، ويقيلون عاثرهم؟

فلأغادر هذه البلدة المضيافة ولأحاول إرجاع مجد آل سعود، وأعيد لنجد سيرتها الأولى من الاستقرار والأمان ولكن بماذا؟ وكيف السبيل إلى ذلك؟ لا مال لديَّ أستعين به على قضاء هذه الأمنية، ولا رجال تشدُّ عضدي وتؤازرني، ودون ذلك خرط القتاد.

اثنا عشر جملًا هزيلًا، هذا كل ما أبقى الدهر لآل سعود من متاع الدنيا، وبيننا وبين الرياض صحراء واسعة الفضاء، مزروعة هنا وهناك بأعداء أشدّاء، وإنَّ خصمنا لقويّ شديد. إذًا فالمغامرة، فإن كان النجاح، وإلّا نموت فنُعْذَر.

هكذا أبت نفس عبد العزيز الأبية، وطموحه اللانهائي، أن يبقى في الكويت مستسلمًا للحوادث تصرفه كيف تشاء.

لم يفلح عبد العزيز ورجاله الاثنا عشر في محاولتهم الأولى، فعادَ إلى الكويت يجرُّ وراءه أذيال الهزيمة والفشل.

غير أنَّ إخفاقه لم يقلِّل من عزيمته، ولم يلن من إرادته ولم يزِدْهُ كلام الناس إلّا نشاطًا ومضيًّا، وتصميمًا وقوّة، إلى بلوغ ما كرَّس له نفسه.

أعاد الكرَّة مرة ثانية ومعه أربعون رجلًا يؤمنون بمبادئه ولا يسألونه لأيِّ حرب أم بأيِّ مكان.

قطع هذه الصحراء العربية الواسعة، وقَرُبَ من الرياض، ولم يَبْقَ بينه وبين سور الرياض سوى مقدار ميلين اثنين، وتوجّه نحو الرياض هو وسبعة من رجاله الأشدّاء، وأبقى بقية مرافقيه الثلاثة والثلاثين بمكان يُعرف بـ(أبو مخروق)، هو تلٌّ واسع مرتفع عن الأرض مخروق من نصفه، قائلًا لهم:

إذا صلَّيتم فريضة صلاة الصبح، ولم يأتكم منّا خبر، فارجعوا خفافًا إلى الكويت واسألوا الله لنا الرحمة والمغفرة.

انقضَّ عبد العزيز ورجاله السبعة على الرياض، فتسلَّقوا سورها، واستولوا على قصر الحكم، ونادى منادٍ مع أذان الفجر إنَّ المُلك لله ثم لعبد العزيز، ومَن أراد السلامة والعافية فليأمَّ داره.

وفي ضحى هذا اليوم، يوم الفتح، جلس عبد العزيز في دار الإمارة يتقبَّل مبايعة الناس له على السمع والطاعة.

فأصبَحَ بين عشية وضحاها أميرًا للرياض، وإمامًا للمسلمين ودرَجَت الأيام، تتبعها الشهور، وتتلوها السنون، ونجم عبد العزيز ينتقل من نصرٍ إلى نصر آخر، فتغلَّب بعد مشقَّة بالغة وعناء طويل، على مَن وقف في سبيل دعوته، وعلى مَن ناصَبوه العداء من الأمراء المنتشرين في جنوب الجزيرة وفي غربها وشمالها.

كما ألَّف بين شيوخ القبائل المتنافرة، فما لبث هذه القبائل من بعد تنافرها أن عادت إلى الركون والاستقرار. وانتقل كثير من هذه القبائل من الحياة البدوية إلى الحياة الحضرية فأنشأوا القرى وبنوا الدور، وعمَّروا الأرض وزرعوها واستقرّوا للراحة، بعد الحوادث المفجعة التي عصفت رياحها الشديدة فيما بينهم.

وإن يعجَب السائلون بعبد العزيز، فرجاله الذين واكبوا سيره أكثر تعجُّبًا وأشدّ تحيُّرًا دفعهم تحيُّرهم لتسميته بالمخلف أي المخلف لظنونهم وما يتخرَّصون، فكان إذا مكّنه الله من الذين وقفوا معترضين لِمَا هو قائم به من توحيد الكلمة والحياة الأفضل وليُعيد للعرب ما فقدوه من قوة الشكيمة، وصلابة العود والعزّة والسؤدد، ويجعلها - أي الأمة العربية - منيعة الحمى، يرجى خيرها، ويُحذَر من بطشها، تذهب ظنون مرافقيه بأنَّ عبد العزيز سيُجزيه شر ما اقترفت يداه ولكن عبد العزيز يرى ما لا يرون، فيقرِّب هذا المسيء ويُحسِن إليه، فكان يجيب معترضيه على حلمه ونبله وبُعْد نظره بقوله: ماذا نستفيد من قصاص هؤلاء الذين وقفوا في سبيل دعوتنا إنهم لا يعلمون حقيقة ما نحن نجاهد لأجله، إننا نُجاهد لتحقيق المُثُل العليا لإعلاء كلمة التوحيد، وحقن الدماء لا لهدرها، إننا نجاهد لتحقيق ما فقدته الأمة العربية من ماضيها المجيد، وسؤددها، وعزَّتها المثلى.

نريد رجالًا ذوي مبادىء عالية، وأخلاق متينة نمنحهم ثقتنا، ونستعين بآرائهم وأفكارهم على المُضيّ في سبيل دعوتنا القائمة على توحيد الله وكتابه وسُنَّة رسوله محمد ﷺ.

فالصَّفح عنهم أقرب للتقوى، لنُدنيهم منّا لنتَّخذ منهم جلساء لنا ووزراء.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

بهذه الأخلاق القيِّمة العالية، وبهذا الحلم والنبل العظيم مَلَك عبد العزيز من العرب الرقاب، وأصبحت العرب في جزيرتها عروقًا نابضة في تقديره واحترامه، وقلوبًا خافقة إكبارًا وإعجابًا به، وترى فيه الرجل القويّ الصالح لزعامتها.

وهذا ما أثار إعجاب الناس به، وتساؤلهم عنه، وهذا ما حدا بجلالة الملك فيصل بن الحسين ملك العراق، حين بسَط يده لأخيه عبد العزيز، مصافحًا ومتناسيًا ما جرى بين العائلتين السعودية والهاشمية، فيما مضى من سالف الأيام وقد أجاب فيصل للائميه ومعارضيه على ما أقدَمَ عليه من صداقة أخيه عبد العزيز بقوله:

إني أرى بأخي عبد العزيز ما لا يرون.

وعبد العزيز كثير الاتِّصال بشعبه، يقدمون للسلام عليه في كل يوم، لا أحد يمنعهم، يتحدَّث إليهم بلهجته العربية العذبة ويستشهد أثناء حديثه بآيات من القرآن المجيد وبأحاديث النبي محمد ﷺ.

ومن أحاديثه التي لا يزال صداها عالقًا في ذاكرتي. قوله: في مجتمع ضمَّ وفود حجّاج بيت الله الحرام القادمين من مختلف بلدان العالم، وكان لكثيرٍ من شعبه مقاعد فيما بينهم، كان ذلك عام 1927 ميلادية. فاستهلَّ حديثه بالآية الكريمة الآتية: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[2].

ليس باستطاعتي، ولا باستطاعة أحد، أن يجعل السلام سائدًا في الجزيرة العربية، والأمن مستتبًا فيها، ولكنها إرادة الله جلَّت قدرته وعلَت حكمته، شاء أن

(1) سورة فصلت، الآيتان: 34، 35.
(2) سورة الأنفال، الآية: 17.

يَهدي العرب بعد ضلالتهم، ويجمع كلمتهم بعد تفرُّقها ليكونوا إخوانًا بعد تقاطعهم، وأعزّاء بعد ذلّهم، فسخَّرني لهذا العمل.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[1]..

ولا فخر لي بذلك، إذ الأمر منه وإليه سبحانه.

لا شيء ينفع الإنسان إلّا عمله ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾[2].

نعم الأمر كله بيده، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وهو الذي ألهَمَ أهل البادية هدايته، فجعل من السارق أمينًا مؤتمنًا، يقف في الطرقات، ينادي بين الناس، عن لقطة وجَدَها، أو ماشية وجدها هائمة في الصحراء أو متاع عُثِر عليه في الأسواق، وقد كان من قبل تطاوعه نفسه ليقتل رجلًا لينال ثوبًا من أثوابه، أو درهمًا من دراهمه أليست هذه هداية من الله الكريم.

وهل في مقدرة أحد، أن يتسلَّط على القلوب فيستلّ منها الضغائن ويزيل منها الأحقاد، ويوجِّهها لعمل الخير، وعلى الأفكار، فيوقظُها ويرشدُها لِما فيه الصلاح والفلاح فيجعل من السارق أمينًا مؤتمنًا، ومن القاتل إنسانًا رحيمًا، غير الله سبحانه.

لكُم علينا أيّها الإخوان النُّصح والإخلاص. ولنا عليكم الطاعة فيما يرضاه الله. فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

كلُّنا راعٍ، وكلّنا مسؤول عن رعيَّته، لا فضل لأحد على أحد إلّا بالتقوى، والعمل الصالح. فكونوا عونًا لي على إقامة حدود الله، فإنَّ يدَ الله مع الجماعة.

ثم يوجِّه كلامه إلى شعبه قائلًا:

وأنتم أيها الشعب الكريم، ساكني هذه البقعة الطيبة من الأرض المباركة، كما تعلمون، أن لا غاية لي من وراء ما أرمي إليه، وما أنا قائم به، سوى عزِّكم ونصرتكم وسعادتكم، فلا أطلب منكم أن تنظروا إليَّ كمَلِك، بل كفرد من جموعكم، إن أطيب كلمة وأحسنها تنادونني بها وأوقعها في نفسي قولكم يا عبد العزيز.

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 63.

(2) سورة التوبة، الآية: 105.

لا فرق عندي بين غنيّكم وفقيركم، فأنتم عندي سواء، وإنَّ ما يُصيب أحدكم من سوء فكأنني المُصاب به، إني أضحّي بنفسي لترتاحوا، وألبس أبسط الثياب وتلبسون أفخرها وأزهاها، وآكل من أبسط الأطعمة وتأكلون ألذّها وأشهاها.

إني لا أخاف عليكم الأمم، ولكني أخوَف ما أخاف عليكم هو أنفسكم، تركنون لهذه الأمم، وأنتم مكتوفو الأيدي عن مجاراتها في العمل الصالح، وأن تشغلكم زخارف الدنيا عن الآخرة، فتكونوا من الهالكين.

لم نُسِنَّ لكم شرعًا خاصًّا نُجبركم على اتِّباعه، بل أقَمْنا فيكم شرع الله وسنَّة رسوله محمد ﷺ.

فاحمدوا الله على ما أنعَمَ به عليكم، واشكروه ليزيدكم من فضله.

لم ينْزَوِ عبد العزيز داخل جزيرته، ويكتفي بما قام به من الإصلاح والأمن في ربوعها، ولم يَدَعْ أهلها بعزلة عن العالم، بل اتّصل بالعالم اتصالًا وثيقًا، وأحسَنَ سياسته معه طبقًا لما يتطلَّبه مركزه الديني، كخادم للحرمين الشريفين قبلة المسلمين. فصادَقَ هذه الأمم جميعها، واستثنى منها الأمم الملحدة، ونظر إليها بمنظارٍ واحد، ليسهل على المسلمين المقيمين في بلاد غير إسلامية حجَّ بيت الله الحرام. فاحترمته جميعها، واعترفت بمُلكه.

وكان أقرب الأمم إليه الأمة الأميركية، لقد منح شركاتها حقَّ التنقيب عن البترول والمعادن، بشروط تحفَظ بلاده من التدخل الأجنبي في أمورها الداخلية والخارجية.

عرف هذا القرن - القرن العشرون - زعماء كثيرين، قاموا في مختلف القارات الخمس، فإذا قارنّا أعمالهم، بما قام به عبد العزيز في الجزيرة العربية فلا يسعُنا إلّا الاعتراف بأن عبد العزيز كاد يكون في مقدِّمتهم، دون أن نُنْقِص من شأنهم شيئًا، إنّ هؤلاء الزعماء نشأوا في شعوب لهم حضارتهم، وفنونهم وثقافتهم، وعند صعودهم لمراكز الزعامة، كان لهم أوطان، وحكومات، وجيوش وخزائن لأموالهم وموارد كثيرة لا تَنفد.

أما عبد العزيز، فقد قام بنفسه وحيدًا منفردًا، دون أن يكون له ما كان لهؤلاء

الزعماء من أوطان قائمة، وجيوش جرّارة، وأموال وفيرة، فبعونٍ من الله ثم بحكمة عبد العزيز البالغة، وسياسته الرشيدة الحميدة المتَّزنة، جمع شعبًا وأوجد وطنًا، وأنشأ حكومة، فكأنه أوجد شيئًا من لا شيء.

هذه هي الزعامة الحقيقية.

أديب سعودي وذاك الكاتب الأميركي الناكر للجميل(*)

تلقَّينا من الفاضل الغيور الشيخ خليل الرواف أحد أدباء المملكة العربية السعودية ونزيل ديونيدن فلوريدا الكتاب الآتي نصه:

حضرة الأستاذ الجليل الفاضل سليمان بدور المحترم صاحب البيان الأغر.

تحية عاطرة وسلامًا زكيًّا وبعد، أغتنم هذه الفرصة للتحدُّث إليكم عن بُعْد وبواسطة الكتابة راجيًا الله أن تكونوا ممتَّعين بالصحة والعافية ونعومة البال. هذا وإنَّ البيان يرِدُني بانتظام فأنكَبُّ على مطالعته ملتقطًا أخباره التي أجد بنفسي ميلًا شديدًا للوقوف عليها. وإني لأقدِّر لحضرتكم مواقفكم المشرِّفة وأعمالكم الجليلة المباركة في الذود عن حياض العروبة وصون سمعتها.

وقفت على كلمتكم، بل غضبتكم العربية المنشورة في عدد 4542 من البيان الأغرّ حول تصريح الأميركاني (هويتني كربنتر) على إثر عودته من زيارة للمملكة وقد قدَّرتُ لكم هذا الدفاع وشكرتُكم من صميم القلب وإني لأحفَظُ لحضرتكم بكثيرٍ من التقدير والاحترام هذه الحَميَّة القومية والغيرة على السعودية. وقبل قد مرَرت بهذا الحديث المنوه عنه للمستر كربنتر في جريدة (الهرالد - تريبون) وكتبتُ كلمة في هذا الموضوع وفي اليوم التالي وقفتُ على حديث آخر لكربنتر المذكور نُشِرَ في الجريدة نفسها وفيه يُثني على جلالة الملك ويعدِّد مآثره وينوِّه بقوّته وعظَمَتِهِ وما لقِيَه هناك من حُسن الوفادة. فاستغربتُ أمر هذا الرجل يومًا يذِمُّ ويومًا يمدح، ولكنني ولم أزل أشعر بامتعاض داخلي من هذا الرجل الوضيع وأمثاله من مرتادي البلاد العربية.

غير أنَّ حديثكُم أزالَ من نفسي بعض هذا الامتعاض إذ قد لمستُ فيه روح العربية الحقَّة واستنشقتُ من نسيمها العذب وأريجها العطر فأكبَرْتُ فيكم هذه الغيرة

(*) نشر هذا المقال في جريدة البيان.

والحميَّة، وكما أن الحق لا يخلو من ناصر والعدل من ذاكر والخير من أعوان، كذلك العروبة لا تخلو من أنصار حقيقيين مخلصين من أبنائها فبارك الله فيكم.

خلال إقامتي في نيويورك اجتمعتُ بهذا الرجل في الباخرة التي أقلّته إلى إيطاليا في طريقه إلى البلدان العربية، ومن حديثي القليل معه عرفت شيئًا من أخلاقه وما تنطوي عليه سريرته. وقد صارحتُ القول بذلك رفيقي الذي ذهبتُ معه لوداع كربنتر. وقد جاء ما تفرَّسته به حقًّا. على أنني انخدعت به أيضًا لِمَا كنتُ أسمع عنه خلال إقامتي في نيويورك من الثناء عليه وعلى جماعة الأميركان وعن مشاريعهم العمرانية التي زعموا أنّهم يحققونها في البلاد العربية.

لا أعلم مدى هذا الظنّ الحَسن المجبولين عليه نحن العرب ومنتهاه، ومتى نحرِّر أنفسنا من شدَّة وطأته؟ إن سلامة نيَّتنا ونقاوة قلوبنا متسلِّطتان حتى على أفكارنا، فجعلت على قلوبنا أكنة، ووضعت على أبصارنا غشاوة فلا نعي الحق ولا نرى الصالح. وحبَّذا لو نتّبع القول العربي الذي سمعناه وحفظناه منذ نعومة أظفارنا (إن سوء الظن من حسن الفطن)، ولكننا تسامحنا لدرجة العجز فلم نسِيء الظن بأحد فأساءت الأمم الظنّ بنا، ففقدنا كل شيء حتى احترام أنفسنا لأنفسنا.

إنَّ جلالة الملك عبد العزيز لا يخفاه شيء من نيّات أبناء الغرب ونظرهم إلينا خصوصًا أمثال هؤلاء الجماعة الذين يكسبون شهرتهم بخداعنا والحدِّ من كرامتنا، وهو حفظه الله محافظ على حِماه وعرينه. وهو شديد الحرص على حُسن سمعة العرب فما كان ليسمح بزيارة المملكة لهذا الرجل لولا توسُّط بعض الإخوان في نيويورك وسورية. وإن أبواب مملكته ستبقى إن شاء الله مغلقَة بوجوه هؤلاء المشعوذين ككربنتر وأمثاله. ولكن جلالته يرحِّب بالموثوق بهم والذين يُرجى منهم فائدة للعرب. وأمثال هؤلاء قليلون، بل وجودهم نادر.

اعذرني أيها الأستاذ فقد أطلتُ عليكم الحديث وإنه لذو شجون. هذا والله أسأل أن يمدَّك بمعونته ويحفظ بقاءكم والسلام عليكم وعلى كافة الأصدقاء ورحمة الله وبركاته.

الدعوة إلى الخير

من الأمور المسلَّم بها أنه لا تقوم لأمة قائمة ما لم يكن لأفرادها جامعة تضمُّهم ووحدة تجمعهم وتربط أجزاءهم بعضها ببعض، وإنَّ من دواعي ربط أواصر الأمة وتوحيد كلمتها - قيام أفرادها بالدعوة إلى الخير فيما بينهم والعمل متكاتفين للنهوض بها. فبالأخذ بأسباب هذه الدعوة وبالمناصرة والمؤازرة تصبح أمّة حيّة محترمة الجانب منيعة الحمى وبغير هذه الأسباب لا يتسنى لأيِّ جماعة أن تنشد البقاء وتتبوَّأ مكانها الأسمى على سطح الغبراء.

وليس أمر تبليغ الدعوة إلى الخير ملقى على جماعة معيَّنة من الأمّة ولا هي وقفٌ على أحد منهم، بل هي مُشاعة بين الناس وفي متناول مختلف الطبقات. فالأمة كلّها مكلَّفة بالقيام بها والأخذ بأسبابها ومراعاة أحكامها. قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] فكلمة (أمة) لا تعني جماعة خاصة من الناس دون آخرين، بل يتناول مدلولها كل فردٍ، ولذا فمن اللازم على الجماعات الإسلامية التبشير بهذه الدعوة.

ولا تحتاج الدعوة إلى الخير إلى تفسير وإيضاح، فإن معناها جليٌّ واضحٌ لذوي الفطرة السليمة، فهي البحث عن الفضائل وعمل المعروف بين الناس واتِّباع الهدى والرشاد - هي كلمات طيبة يوحي بها الضمير ويدفعها الواجب فيذيعها لسان لا ينطق الفحش من القول فتجِدُ سبيلها إلى القلوب فتستلُّ منها الضغائن وتملؤها رحمة وإنسانية وتستقر في النفوس فتذهب نافرها.

ويتطلب من الذين يدعون إلى الخير استقامة المبدأ ولين العريكة ورحابة الصدر. فيدعون الناس بالحكمة والموعظة الحسنة لتجِدَ دعوتهم آذانًا صاغية ويكون لها الأثر المطلوب. قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: «**ولو كنت فظًّا غليظ**

(1) سورة آل عمران، الآية: 104.

القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله».

كما أنه يجب على الدّاعين مراعاة البيئة والمحيط وسياسة الدولة التي يعيشون تحت لوائها وأن يكون لهم إلمام بطبائع الناس وأخلاقهم وعاداتهم، فالناس مختلفون في الأذواق والأمزجة متباينون في الفكرة والآراء ولكل منهم شرعة ومنهاج. فكُن أيّها المسلم من دعاة الخير ومن المستقيمين عليه لتكن بذلك متّبعًا سُنّة نبيك محمد ﷺ إذ قال له الله تعالى: ﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[1] ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2]، واحرصْ هداني الله وإياك على أن تكون مثالًا صالحًا لغيرك وأحدوثة طيبة للناس. وفّقنا الله جميعًا لما فيه مرضاته إنه أكرم مسؤول.

(1) سورة الشورى، الآية: 15.

(2) سورة النحل، الآية: 125.

الأم والتربية[*]

استرعى انتباهي عنوان لمقال اجتماعي قرَأتُه في إحدى أعداد جريدة البيان «الأم والتربية» بقلم السيدة روز محمود حمادة، فالموضوع عظيم النفع وخطير الشأن في الوقت ذاته، وذلك لِما له من علاقة وصِلة مباشرة وتأثير كبير على الناحية الاجتماعية.

وقد تناول كثير من الأدباء هذا الموضوع ودرسوه من شتى نواحيه غير أن أكثر الأقلام التي تناولت هذا الموضوع لم تبلغ الفائدة المطلوبة، وكانت أبحاثهم غامضة مُبهمة، فيَجِد القارىء صعوبة في فهمها وفي الوصول إلى ما يرمون إليه، غير أن السيدة حمادة في مقالها الأخير المختصر المفيد أفهَمَتنا بصورة واضحة معنى كلمة الأم وأوقفتنا على مغزاها وعذوبة لفظها وتأثيرها في النفوس، وليس أدلّ على ذلك من قولها «فإن كل شيء في الحياة يرمز ويتكلم عن الأمومة، وبيَّنت ما يترتَّب على الأم من مسؤوليات جِسام، ومعرفة أصول التربية وما عليها من واجبات كمربِّية لرجال الغد الذين على عواتقهم تُلقى أعباء الحياة، وبأيديهم يوضَع مستقبل الوطن وإليهم تصير مقاليده. لا أحد يُنكر عظم مسؤولية ومبلغ ما عليها من الواجبات كأمٍّ بنين، ولا مَن يُنكِر مقامها الاجتماعي كمربية ومعلمة، لذلك نرى مع السيدة حمادة أن الواجب يقتضي من الأم أن تكون مثقَّفة، واعية، متعلِّمة ليتسنى لها تربية أولادها وفلذات أكبادها تربية أخلاقية متينة ينشأون عليها، وتؤهِّلهم للقيام بواجبات الحياة وما تتطلَّبه من إرادة وعزيمة وحكمة ومعرفة ودراية ليصبحوا أعضاء صالحين في جسم المجتمع الإنساني، فالأم بهذا المعنى هي المدرسة الأولى التي يأخذ عنها النشء الجديد دروسه الابتدائية المعوَّل عليها في نجاحه عندما يخوض معترك الحياة ليفوز في مضمارها، فبقَدر ثقافته وتهذيب الأم ونفاسة دروس التربية

(*) نشر هذا المقال في جريدة البيان في نيويورك عام 1938م.

والأخلاق التي تغذِّيه بها يُقاس النشء الجديد، فالأم هي كلُّ شيء في هذه الحياة وإلى هذا يشير نابليون بقوله: «تهزُّ السرير بيدٍ وبالأخرى تهزّ العالم».

وقد تنبَّهت الأم الغربية إلى منزلة المرأة ومكانتها الاجتماعية فاعتبرتها العضو الثاني في جسد الإنسانية، فحيوية هذا الجسد وصلاحيته للبقاء يتطلَّبان سلامة وصلاحية كل العضوية، فاعتنت بتثقيفها وتعليمها اعتناءً بانَ أثره في نشأتها الجديدة، وأطلقت حريتها ورفَعَت شأنها إلى أن ساوتها والرجل في بعض الحقوق، عسى ألّا تسلبها الأيام المقبلة السريعة الآتية التي تحمل معها قسوة الرجل وجبروته ما توصَّلت إليه من حرية وحقوق، كما كان شأنها وشقيقتها العربية التي سبقت إلى هذا المضمار، كانت المرأة العربية تتمتَّع بنفوذٍ كبير ومقامٍ سامٍ وحرية ممتازة منحتها إياها شريعة الإسلام السمحاء منذ ثلاثة عشر قرنًا.

فالمتتبِّع لتطورات المرأة العربية، والواقف على ما كانت عليه من الثقافة والتهذيب، وما كان لها من الامتيازات والحقوق التي كفِلَها لها الإسلام يرى أنَّ المرأة الغربية في هذا العصر، عصر المدنية والنور كما نسمّيه، لم تَنَلْ بعد كامل الحرية الواسعة التي توصَّلت إليها زميلتها العربية تحت راية الإسلام منذ ثلاثة عشر قرنًا.

ولمَا كان موضوعنا اجتماعيًّا فلا مانع من التوسع فيه، فنأتي على ذكر ما خوَّلته الشريعة الإسلامية للمرأة من الحقوق التي رفعت ذكرها وأعلَت شأنها فنبَّهت فيها الشعور بوجودها في هذه الحياة وأحيَت فيها الآمال في تقدير إنسانيتها، جاء في الحديث الشريف عن النبي محمد ﷺ: **النساء شقائق الرجال**، أي من نظائرهم وأمثالهم، بهذا فاتَح محمد ﷺ أصحابه المجتمعين حوله، مبيِّنًا مركز المرأة في الهيئة الاجتماعية ولم يغفلها ﷺ في حجَّة الوداع في ذلك المشهد الرهيب فقال ﷺ **«أوصيكم بالنساء خيرا»**.

ومن أحاديثه ﷺ قوله:

1 - إن خياركم خياركم لأهله.

2 - الله الله في النساء إنهنّ عوان بين أيديكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله.

3 - ما أكرم المرأة إلّا كريم، وما أهانها إلّا لئيم.

4 - الجنة تحت أقدام الأمهات.

5 - مَن كانت له ابنة فأدَّبها وأحسن تأديبها كانت له منحة ومسيرة من النار إلى الجنة.

6 - من حمل طرفه من السوق لعياله فكأنما حمل صدقة حتى يضعها وليبدأ بالإناث قبل الذكور.

7 - مَن كانت له أخوات وبنات وصَبَر على ولائهن وضرائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته لهن.

وصرَّح القرآن الكريم بأنها والرجل سواسية في الحقوق والواجبات فقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1] وخوَّلت الشريعة الإسلامية للمرأة المسلمة حقَّ المبايعة كما أعطتها للرجال كما حدث في فتح مكة إذ أوحى الله إلى نبيه محمد ﷺ أن يتقبَّل مبايعة النساء ويأخذ منهن العهد والميثاق كما أخذه من الرجال، وبهذا ما فيه من تنبيه لشأن المرأة ورفع ذكرها.

وجاء قول الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[2] فقالت إحداهن: لم نأت يا رسول الله إلى هنا وفي قلوبنا أثر للشك[3].

وتابع الرسول قوله: «**ولا يسرقن ولا يزنين**» فقالت المرأة نفسها أوَتزني الحرة يا رسول الله. ثم تابع حديثه قائلًا: «**ولا يقتلن أولادهن**» قالت المرأة نفسها ربيناهم صغارًا أونقتلهم كبارًا، قال - ﷺ - «**إني لأسمع صوت هند بنت عتبة ماضغة كبد عمّ رسول الله**، فأجابت بقولها: نعم إنها هي وما خفِيَ عليك أعظم فالعفو والمغفرة يا رسول الله، فقال ﷺ: «**الإسلام يجبُّ ما قبله**».

فإذا قارنّا بين هذه المبايعة التي تشرَّفت بها النساء العربيات منذ ثلاثة عشر

(1) سورة البقرة، الآية: 228.
(2) سورة الممتحنة، الآية: 12.
(3) وإنك لتأخذ علينا عهدًا لم تأخذه من الرجال قبلنا وسنعطيكه.

قرنًا، وبين ما نالته المرأة الغربية من حقّ التصويت في زمن قريب في الانتخابات لوَجَدنا أنَّ شرف هذه المبايعة يفوق شرف التصويت من وجوه كثيرة إذا تمعن فيها القارىء تظهر له جلية واضحة.

وخوَّلها حق الدفاع عن نفسها إذا أحدٌ لمَزَها بسوء ونالَها بشَرّ كما فعلت إحدى النساء وكانت تستمع لخطاب الخليفة الثاني الفاروق عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ورجل من رجال الإسلام الأفذاذ، وكان يأمر بتخفيض مهور النساء رفقًا بمتوسِّطي الدَّخل فقالت له: «على رسلك يا بن الخطاب أين أنت من قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾[1] لم يتبرم الفاروق ولم تأخذه العزَّة بالإثم، بل حمد الله وقال أخطأ عمر وأصابت المرأة.

أفسح الإسلام للمرأة العربية المجال ومهّد لها طريق العلم فنبَغَ منهن نساء فاضلات كنَّ المرجع لأهل العلم والأدب من الرجال وأشركها الرجل في خطاب التكليف وقرَنَ اسميهما بصورة لم تكن متاحة إلّا في الشريعة السمحاء ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[2] إلى آخر الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[3].

وكانت المرأة العربية المسلمة تتمتع بحقوق الاستجارة وتجير من يستجير بها من أعداء المسلمين وتنقذهم من القتل كما حدث لأم (عمرو) في إحدى الوقائع واستجار بها اثنان من المشركين واعترض عليها أحد الصحابة، فذهبت إلى النبي ﷺ وقصّت عليه الخبر قائلة: «**إن لي من الحقوق في استجارتهما كما لغيري من الرجال**»، فقال ﷺ: «**أجَرْنا من أجرت يا أم عمرو**».

ألم تَرَ معي أيها القارىء الكريم أن المرأة الغربية مهما توصَّلت إليه من الحقوق لن تتمكّن من أن تباري المسلمة في مضمار الاستجارة.

لقد أعطت الشريعة الإسلامية للمرأة المسلمة صلاحية حقِّ الطلاق كما منحته

(1) سورة النساء، الآية: 20.
(2) سورة الأحزاب، الآية: 35.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 36.

للرجال، وخوَّلتها أن تتصرف في أموالها ما تشاء وألزَمَت الزوج بالإنفاق عليها مهما عظمت ثروتها، في الوقت الذي كانت فيه المرأة الفرنسية متقيِّدة بما تملكه من مالٍ وعقار لزوجها حتى الثلاثينيات من القرن العشرين. هذه مجرَّد لمحة من الحرية والحقوق التي كانت المرأة المسلمة تتمتَّع بها وما كانت عليه من علمٍ وثقافة وأدب وأخلاق ومن تربية عالية تبعث فيها حياة العزة والكرامة، وهذا يتنافى وما ذهب إليه البعض من أنَّ التعاليم الإسلامية تقفُ في سبيل تثقيف المرأة وتربيتها وتحدُّ من حريتها وتحرمها حقوقها. أضِفْ إلى ذلك غيرة الرجال الشديدة وتسلُّطهم القاسي الأليم على النساء. وقد يتساءَل المرء عن سبب هذا التدهور السريع والتقهقر المريع الذي تعانيه المرأة المسلمة الآن والتقصير في نيل كثير من الحقوق والإحجام عن تلقّي العلوم والمعرفة على عكس ما كانت عليه المرأة في فجر الإسلام.

فالجواب عن هذا السؤال ليس بالعسير، فإنَّ أول امراة منحتها الشريعة الإسلامية حقوقها وحرّيتها هي المرأة العربية، ثم أعطَتْ مثلها لغيرها من نساء الأمم الأخرى الداخلة في الإسلام، فلمّا ضعف أمر العرب وانطفأ نبراسهم وأسنِدَت الخلافة إلى غيرهم وتولّت أمور المسلمين أممٌ أعجمية حوَّرت الأحكام وعبثت بنصوص الشرائع وعملت على إذلال العرب وخضوعهم لسلطانها نشأ عن ذلك فتورٌ في الهِمَم وتثبيت في العزائم وانحلال في الأخلاق، ممّا أضعَف شأن المرأة. وليس بالعجيب أنها سُلِبَت حقوقها فمُنِعت من مناهل العلم وحِيلَ بينها وبين مصادر الضوء ومنابع المعرفة وبدأت مرحلة الاضمحلال، وأصبح الجهل يحتلُّ فيها كلَّ موقع كان بالأمس يتلألأ منه نور العلم. حدث هذا في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الذي بدأت أنواره تضيء فتكشف الظلام القاتم والتي عاشت في دياجيره زمنًا طويلًا لا ترى فيه بريقًا خافتًا من أنوار الحرية التي منحتها لها الشريعة الإسلامية، ولتزيل من طريقها العقبات التي وقفت في سبيل ثقافتها وازدهارها ومضيِّها في طلب العلم والمعرفة، فتُعيد إليها سيرتها الأولى في الثقافة والإرشاد فخطت الخطوة الأولى وستلحق بها أوطان العالم العربي فيحصل على حريته يومًا ما بعيدًا كان أو قريبًا.

الزكاة(*)

هي الركن الثالث من أركان الإسلام الخمس التي بُنِيَ عليها، وهي الركيزة العتيدة للدين الحنيف، لِمَا تتركه من الأثر البليغ في تخفيف وطأة الفاقة، والحاجة لدى من قعدَ به الحظ عن سبيل العيش واكتساب الرزق.

فرضها الله على ذوي اليسر ومقدارها ربع عُشر المال يؤديها الأغنياء في كل عام للفقراء والمساكين لتكون لهم عونًا على المضي في الحياة، وتستأصل من قلوبهم الحسد والحقد والضغينة. ولعظم منافعها وعلوِّ شأنها أتى على ذكرها القرآن العظيم سبعين مرة مؤكِّدًا على تأديتها.

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1].

فالزكاة إذًا هي طهر وتزكية للنفس وصلة دائمة بين الأغنياء والفقراء، كما أن على ذوي اليسر ومَن لديهم فضيلة مال حقوقٌ وواجبات لجميع البشر على اختلاف عقائدهم، فالتعاليم الإسلامية بيِّنة واضحة وظاهرة تنبىء بأنَّ الخَلق كلهم عيال الله وأحبَّهم إليه أنفعهم لعياله وأن الله مع العبد ما دام العبد في عون أخيه يهدينا إلى ذلك ثناء الله جلّت قدرته، وعظمت على الأبرار الذين أعمالهم خالصة لوجهه الكريم. قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۞﴾[2]. لقد قرن الإسلام اسم الأسير في هذه الآية وأسماء اليتامى والمساكين سواء كان الأسير يعتقد معتقد المسلمين أم لا يعتقد، لأن الإسلام لا فرق لديه للقيام بين الأعمال الخيِّرة والإنسانية.

(*) نشر هذا المقال في جريدة البيان عام 1938.

(1) سورة التوبة، الآية 103.

(2) سورة الإنسان، الآيتان: 8، 9.

والآيات السابقة أثبتت طريق المساواة والإخاء والعدالة وأحكمت الصلة بين الناس وبشَّرت بالمودة والشفقة والرحمة بينهم.

وقد طرق أبوابها في زماننا هذا لتقرير قاعدة المساواة بين الأغنياء والفقراء فلم يهتدوا إلى سُنَّة عادلة فيها «ولو لمسوها في الإسلام لوجودها».

ومن الغريب العجيب أن نرى هؤلاء القوم يبشِّرون بها جماعة من المسلمين، كما قام غيرهم يدعونهم لاعتناق الشمولية والدكتاتورية والديمقراطية، وفاتَهم جميعًا أن هذه المذاهب والمبادىء القائم النزاع بين معتنقيها هي وفضائلها موجودة بالإسلام، فللإسلام عدالة قويمة محكَمَة توجب على ذوي العسر حقوقًا وواجبات معينة تؤخذ من ذوي اليسر وتُعطى لذوي العسر والفاقة.

وإن للإسلام شمولية لا غلوَّ في مبادئها الوطنية.

وإن للإسلام سلطوية لا تستعبد الفرد ولا تخالف مَنْ لم يَرَه أولي الأمر في الصالح العام وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1].

والخليفة الأول للمسلمين أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين خالف مستشاريه في أمور خطيرة الشأن بقتاله للمرتدين عن الإسلام وامتناعهم عن أداء الزكاة، وفي تسيير الجيش الذي أمر رسول الله ﷺ بتوجُّهه إلى ديار الشام وعقد لواءه لأسامة بن زيد، قائلًا: والله لن أفلَّ جيشًا أمر رسول الله قبل وفاته بتوجيهه إلى ديار الشام، وقد أمَرَ ﷺ أن أكون وعمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح من أفراد هذا الجيش، ولمّا تولى أبو بكر بجانب أسامة عند مسير الجيش، وكان أسامة ممتطيًا صهوة جواده، فحاول أسامة الترجُّل فأبى أبو بكر قائلًا: لا تفعل لا تفعل فلا يضرَّني أن أغبر قدمي في السير بجانب هذا الجيش، واستأذن أبو بكر قائد الجيش أسامة بن زيد ليُبقي عمر بن الخطاب بجانبه فأَذِن له.

وكان من معارضة عمر بن الخطاب للخليفة أبي بكر خوف عمر على الإسلام أن يعتريه الانكماش وأن يلحقه الضرر والخطر بعد انتقال رسول الله ﷺ للرفيق الأعلى.

(1) سورة النساء، الآية 59.

فأغلَظَ أبو بكر القول على عمر بن الخطاب ﷺ، وأمسك بتلابيبه وهزه هزًّا عنيفًا قائلًا : يا بن الخطاب شجاع في الجاهلية وجبان في الإسلام والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه.

وكانت زكاة الأموال تُجبَى من الأغنياء وتُعطى للمستحقين والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم.

وكان تسيير جيش أسامة بن زيد لديار الإسلام في الصالح العام - لقد قال أعداء الإسلام لو لم يكن في الإسلام من قوّة لما سَيَّر مثل هذا الجيش.

وكان أبو بكر يأخذ برأي عمر بن الخطاب وبرأي الصحابة ومَن هم دونهم فكان بعمله هذا ديمقراطيًّا من الطراز الأول.

وللإسلام ديمقراطية حقيقية حافظة لحقوق الأفراد والجماعات، إنَّ أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له الحق، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق، قال ذلك أبو بكر الصديق لمّا وُلّي الخلافة وعندما ألقِيَت مقاليد الحكم لعمر بن الخطاب بعد وفاة أبي بكر تسنَّم محراب المسجد قائلًا : مَن رأى فيَّ اعوجاجًا فليقوِّمه. فنهض أحد الأعراب من صفوف المسلمين واستلَّ ، نه قائلًا : يا بن الخطاب. لو نرى فيك اعوجاجًا لقوَّمناه بسيوفنا هذه وهزَّ سيفه بيده.

لم يغضب عمر بن الخطاب لمقالة الأعرابي، ولم تأخذه العزَّة بالإثم عندما شَهَرَ الأعرابي حسامه وهزَّه بيده، بل حمد الله الذي أوجَد في الإسلام مَن يقوِّم اعوجاج عمر بن الخطاب. فهل للديمقراطية مهما تسامَت وعَلا شأنها أن تذعن للأفراد واحتجاجهم في مجتمع كبير كالديمقراطية الإسلامية، ومن المخاطب عمر ابن الخطاب الخليفة الثاني للمسلمين وشخصية ممتازة في الإسلام.

والإسلام الذي منح هذه الديمقراطية للأفراد نجده من جهة ثانية قد قيَّد الحرية الفردية إذا لم تقيَّد بالمصلحة العامة، يهدينا لذلك حديث الرسول محمد ﷺ الذي مثَّل فيه الحرية الفردية ما لم تضِر بالمصلحة العامة أروع تمثيل، قائلًا : قوم ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا فصار لكلِّ واحد منهم موضع، فنقر رجلٌ منهم موضعه بفأس فقيل له ما تصنع، قال: هو مكاني أصنع فيه ما أشاء فإن أخذوا على يديه نجى ونجوا وإن تركوه هلَك فهلكوا.

فيؤخذ ممّا أسلفنا أن الإسلام وإن كان يجنح للمبادىء الديمقراطية ويفضِّلها على غيرها من النُّظم والشرائع القائمة وإنه أول من أسَّس قواعدها الحقيقية وعرفها للتاريخ، ولا أقول منكِرًا إنّ النُّظم والتعاليم القانونية القائمة اليوم تكاد تكون مأخوذة من التعاليم الإسلامية لِما بها من قواعد الشورى وحرية الفكر والعمل، غير أن الإسلام لم يقيِّد متبعيه بنوع من الحكم، بل قامَ على نظام قويّ من الشريعة الإسلامية فكَفَل له المناعة والبقاء. فهذا هو الإسلام بمُثُله العليا بمبادئه السامية بأحكامه المرنة العادلة ديمقراطية حقيقية متّبعة اشتراكية قويمة صلبة لا غموض فيها، ودكتاتورية تمشي والصالح العام، وشمولية لا غلوّ في مبادئها الوطنية.

وهذه المبادىء والنُّظم الأربعة التي قرَّرت قواعدها شعوب العالم، واتَّخذ كلُّ شعب من الشعوب واحدة منها وفاتَهُم جميعًا أنّ هذه النُّظم موجودة بفضائلها في الإسلام، فما بال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا.

فيا أيها المسلمون إنَّ من كمال إسلامكم أن تؤدّوا زكاة أموالكم فإنها من محاسن دينكم ولتكن من خالص أموالكم وأطيبه كسبًا. وفَّقني الله وإياكم لِما يحبّه ويرضاه وإنه أكرم مسؤول.

على هامش الحوادث

نعم على هامش الحوادث. وليست هي حوادث الحروب والمعارك والدمار والخراب والقتال والصراع القائم اليوم في أقطار الأرض وفي هذا العصر الذي نسمِّيه عصر النور والمدنيّة، لقد مُجَّت الأذواق ومَلَّت الآذان وسئمت النفوس ما تفاجئها به الحرب وويلاتها من الأنباء وما تتركه وراءها من آثار تنبىء عن مبلغ البربرية البشرية وإفسادها وعبثها في ربوع الأرض ومحاولتها فكَّ معالم العلم والعرفان وزلزلة أطواره ممّا وصلت إليه من الانحطاط الخلقي ممّا لم يحدِّثنا التاريخ عنه بالعصور الغابرة - وإنما حديثي يتناول الإصلاح والسلام السائد في ناحية من نواحي الأرض - وهو الشرق الأدنى. وما هو الشرق ومَن هُم أهله غير العرب والإسلام الذين ما زال التاريخ يدوِّن لهم في كل يوم يمرّ مكرمة وعدلًا وإنسانية.

بالأمس حمَلَت إلينا تموُّجات الأثير خبرًا اهتزَّت له أوتار قلوب أبناء الأمة العربية سرورًا وفرحًا، وطفحت وجوههم بشرًا وأمنًا، وارتفعت به رؤوسهم عزًّا وفخرًا والخبر هو زيارة ملوك العرب وأمراؤها بيت المقدس ليقرِّروا السلام فيما بينهم ويتداولوا البحث بمصيرهم، ثم شدّوا رحالهم لدار الكنانة لتقديم احتراماتهم لجلالة ملكها فاروق الأول ليشاركهم في مهمَّتهم التي كرّسوا أنفسهم لتحقيقها وهي خدمة العرب والإسلام. ها هم ملوك ورؤساء العرب يتناسون ما بينهم من منازعات ومنافسات ويلتقون في بيت المقدس.

إذا احتربت يومًا وفاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

وليست هذه بأول ظاهرة شريفة من ظواهر الاتّحاد الذي لاحَ أفقه في سماء المنطقة العربية - فقد سبقتها ظاهرات أخرى منذ أربعة عشر عامًا وذلك باجتماع الملكين المغفور له فيصل الأول وعبد العزيز في الخليج العربي ثم عقبها معاهدات بين قطريهما بقيت محترمة ومأخوذًا بها، لم يُعبَث بنصوصها ولم تكتُبها أيدٍ

مستعمرة لتحنث بمدلولها ولكنّها كُتِبت بأيدٍ عربية كريمة وأملتها نفوس شريفة لم تعرف إلّا الخير والوفاء بالوعود.

ثم عقب هذه المعاهدة الحلف الثلاثي اليماني والعراقي والسعودي فوفود البلاد العربية للندن للبحث في شؤون قطر من أقطارهم وهو فلسطين. واليوم يشرق بدر هذه الزيارة المباركة في ربوعهم. كل هذا شاهد على توحيد صفوف العرب والإخوان يناصر بعضهم بعضًا.

«ليس من الحكمة إغضاب الملك عبد العزيز أقوى ملك عربي في الجزيرة العربية ومناصبته العداء» كما قال الوزير المفوَّض العراقي علي جودة بك الأيوبي لمراسل صحف العاصمة واشنطن عندما سألوه رأيه بإنشاء الجيش الصهيوني في فلسطين وأردف قائلًا: «وهو صاحب الصوت القوي الذي يهزّ القسم الأكبر من العالم العربي لمكانته ونفوذه بينهم وبكلمة منه يوجِّههم إلى أيّ ناحية يريدها».

فهذا الملك الجليل القَدْر المشرف على الستين عامًا من عمره يقطع آلاف الأميال ويجتاز صحراء واسعة وجبالًا ووهادًا فيَصِل القدس الشريف فيُبلِّغ مسجده الأقصى تحيَّة الحرمين مكة والمدينة. ثم يذهب العاهل السعودي الكبير مع ملك العراق لزيارة مصر ومقابلة فاروق. بطل السعودية وموحِّدها وملك الكنانة وفيصل العراق يتعارفون ويتباحثون في الإصلاح والتهذيب ثم ينفَضُّون وفي نفس كلٍّ منهم محبة وولاء وإخلاص. إنها لذكرى قيِّمة ستبقى في النفوس إلى حين.

لا نكران بأن العرب في مقدِّمة أمم الأرض حبًّا للسلام وحسمًا للنزاع يَعترف بذلك كلّ مَن تَتَبَّع آثارهم وقد برهنوا على هذا الحب من قبل ومن بعد ولا يزالون وقد كان آخر برهان لهم هو موقف ابن سعود والإمام يحيى منذ بضع سنين فقد أنهيا مشاكلهما بصورة لم تسبِق لأيِّ أمّة من قبلهم.

وقد أطنبت صحف العالم على روح المسامحة التي سادت الموقف وجرت في بنود معاهدتهما فقد قالت هذه الصحف: لو أن مشاكل الأمم الأوروبية حُسِمت بالصورة التي حُسِمت بها مشاكل الإمامين اليماني والسعودي وتمشَّت فيها روح الإنسانية والمكرُمات التي تمشَّت في معاهدتهما لَسَاد السلام في الأرض. ولكن

أنّى للأمم الغاشمة المستعمرة التنازل الذي ظهر من جانب ابن سعود نحو أخيه الملك يحيى حميد الدين.

إن المنازعات التي حدثت في الماضي بين ملوك العرب وأمرائها كان يضرِم نارها أمم أوروبية مستعمِرَة ويرسلون وراءها أقوالًا لهم يظهر في تعبيراتها النُّصح والإخلاص وفي مضمونها الشرّ والفساد، ليشغلوا العرب بأنفسهم ويلهوهم عن النظر في إصلاح حالهم. فانخدعت العرب في الماضي بأقوالهم المعسولة وتحقّقوا بعد ذلك عن نواياهم الضارّة. فالعرب اليوم حذرون يقظون يجنحون للاتّحاد ويحقّقون السلام الدائم لهم. وسيكون لزيارة ملوك العرب بعضهم بعضًا وعَقْدِهم مؤتمرهم أثرٌ بليغ ومفعوله للبعيد ليس من الوطن العربي وإنما في العالم الإسلامي كله أعجميّه وعربيّه، فمسلمو القارات الخمس يتطلّعون باهتمام زائد ويراقبون عن كثب أعمال الأمم العربية المستقلّة وهم شغوفون ليروها عاملة في جمع صفوفها وتوحيد آرائها في هذه الأيام العصيبة وستغيّر هذه الزيارة مجرى أمورهم السياسية وتتناول مختلف نواحي حياتهم العامة وتجعل منهم أمّة محترمة الجانب لها مكانتها في العالم.

إنّ موقف الأمة الإسلامية من هذه المشادّة الدولية الحاضرة هو من أشرف المواقف وأحسنها فإنها حتى الآن لم يَبْدُ منها ميل ظاهر وعمل إيجابيّ لأي فريق من المتحاربين لحبّها للسلام ولعلمها بأن هذه الحرب ليست حربها وإن كان بعض أوطانها أضحت مسرحًا للدول المتقاتلة وهم يحتملون ضرباته بصبرٍ وتجمّل.

فلذا يتّضح لنا أهمية شأن العرب والإسلام في هذه الحرب. وإنّ من ينجح باستمالتهم إليه من الأمم المتحاربة فإنه لا محالة سيُحرِز النصر عاجلًا أم آجلًا، إذ إن ثلاثمائة مليون عربي ومسلم لهم أوطانهم التي لها جغرافيتها الممتازة ورجالها الأشدّاء إذا وُضِعُوا في ميزان دول الحلفاء فإنه لا محالة ستُرجّح كفّة من يكونون بجانبه.

وهذا أمر يتوقّف على المقدرة لفهم العرب والإسلام وإدراك غاياتهم ومقاصدهم التي تدعو للحرية والعدالة والمساواة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (1) (2)

لا بد لكلِّ أمة مهما عَظُمَ شأنها وعَلَت مكانتها من قائدٍ يرعاها ويقودها في الطريق الأقوم ومن حسن حظّ الشعب المؤمن في الديار المقدّسة أنْ منحه الله تعالى قائدًا مؤمنًا عبقريًّا ورث المجد كابرًا عن كابر.

لقد هيّأ الله تعالى من قبل للديار المقدسة المغفور له الملك عبد العزيز فوحّد شعبها، ووطّد الأمن والسلام فيها، وأرسى دولتها الحديثة وجاء من بعده أولاده يكمِلون ما شرع به، ويسيرون على المنهج الذي رسمه لهم وهم: الملك سعود، وفيصل، وخالد غفر الله لهم وأثابهم على أعمالهم التي مارسوها في سبيل نصرة العرب وعزِّ الإسلام واتّباعهم للشريعة الإسلامية وجعلها دستورًا لهم يسيِّرون أمور دولتهم، ويمشون على ما جاءت به الشريعة السمحاء من عدل وإنصاف.

إذا سيد منا خلا قام سيد   قؤول لما قال الكرام فعول

يقود المسيرة الآن خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود، وولي عهد مؤتَمَن على المصالح متكاتف مع أخيه يعاضِدُه ويعاونه في جميع المجالات هو: صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبد العزيز النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء، رئيس الحرس الوطني، والنائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران والمفتش العام.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 105.

(2) مقال كتبه المؤلف عن التنمية في المملكة.

إنَّ من حسن طالع الشعب السعودي أنْ مَنَّ الله عليه بملك كريم من أبنائه وبولي عهد أمين، ملك متميِّز بين الملوك، بذ أقرانه بإيمانه وأصالته وشمائله وخصاله وأعماله، وولي عهد مؤتمن على المصالح متكاتف مع أخيه يعضده ويعاونه في جميع المجالات.

الملك فهد سليل الأمجاد يرى في نفسه فردًا من أفراد شعبه، وواحدًا بين أمة متماسكة، وواحدًا أوقف وقته ونفسه وكل طاقاته على رعاية شعبه والرقي بالإسلام والمسلمين جهادًا في سبيل الله، وابتغاء مرضاته.

فيه اجتمع الإيمان والإخلاص والشهامة والإباء، لذلك تراه وتراهم ليِّني الجانب، متواضعين بين المؤمنين، فيهم عزَّة الإسلام، وشهامة الإيمان، والسماحة بلا حدود، لم يقصدهم قاصد إلّا لبُّوه، ولم يستَغِثْ بهم مستغيث إلّا أغاثوه، يتجاوز ويتجاوزون عن الأخطاء، ويغفرون الزلّات، يأخذ ويأخذون بيدِ الضعفاء جريًا على سُنَّة والدهم غفر الله له وأسكنه فسيح جناته، لذلك استحوذوا على القلوب، ولهَجَت بحبِّه وحبهم النفوس.

لقد حباه الله بقسطٍ وافر من الرجولة والشجاعة والإقدام والحكمة والتدبُّر، ومزَجَ هذا كله بإيمان راسخ وإخلاص كلّه صفاء، لذلك كان رجل الساعات الحرجة، أمسك بكل حزم بمقاليد الأمور وحافظ على الأمن والاستقرار في الديار المقدَّسة، وأعلن وولي عهده وإخوانه الحرب بلا هوادة على البِدَع والضلالات ولم يهادنوا أعداء الإسلام، والخارجين عن سُنَّة النبي المصطفى ﷺ ولم تأخذهم قط في الله لومة لائم، همهم إرضاء الله والحفاظ على الشريعة الإسلامية القويمة.

من هنا جاءت مواقف خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين الشجاع ضدَّ الذين سعوا في الأرض فسادًا وأرادوا انتهاك الحرمات وتمزيق صفوف المسلمين، فهُما في المسائل التي تتعلق بالعقيدة لا يساومان ولا يراجعان ويثْبُتان مثلما ثَبُت المؤمنون خلال تاريخ الإسلام المجيد.

منذ أن تسلَّم الملك فهد زمام الأمور أوقف نفسه ووقته على رعاية شؤون البلاد والمسلمين، يعمل دون توقُّف بكل يقظة وانتباه وتدبّر لا يكاد يمر يوم إلّا ولخادم الحرمين الشريفين مأثِرة تُذكَر وعمل محمود فيه الثواب العظيم.

ولا يمكنني أن أعدِّد هذه المآثر وتكفي الإشارة إلى تخفيف الأعباء عن الشعب، صرف الأموال الطائلة لرعاية الجامعة الإسلامية، الاهتمام الذي ما فوقه اهتمام بالجامعات والمدارس وشؤون التعليم ورعاية التراث الإسلامي وبناء المستشفيات والمرافق العامة.

أما الجيش درع الوطن والمسلمين فقد أولاه كل العناية والرعاية يحرص على تدريب أفراده أفضل تدريب ويؤمِّن له كل سلاح مفيد من كل مصدر من المصادر العالمية.

لقد باتت المملكة تمتلك الآن بفضله أفضل الطرق في العالم، وأوسع المطارات وأحسنها خدمة وتجهيزًا، وموانىء بلادنا أصبحت لا تُحصى عددًا تستقبل أكبر السفن.

في عهده الميمون دخلت البلاد عصر التصنيع والإنتاج، ولم تعد تعتمد على الاستيراد، إنَّ بلادنا تنتج كفايتها من الحبوب وأنواع الخضروات وتصدِّر كميات كبيرة من إنتاجها الصناعي والزراعي.

وتتمتع بلادنا بسمعة عطرة في الداخل والخارج، فالأعمال التي تمَّت بشأن توسيع الحرم المكّي وتأمين الراحة لضيوف الرحمن في الحرمين الشريفين لم يعرف تاريخ الإسلام لها مثيلًا، وجميع أوساط العالم تتحدث عمّا يبذله مع إخوانه في سبيل تحرير القدس الحرم الإسلامي الثالث.

إنك حيثما ذهبت في طول ديار المسلمين وعرضها تجِدُ في كل بقعة مستشفى أو مدرسة أو معهدًا أو مؤسسة أو . . . أو . . . رَعَتْه المملكة العربية السعودية وترعاه وتعتني به بتوجيهات من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد وولي عهده الأمين.

وفي البلاد غير المسلمة المساجد والمعاهد وشؤون الرعاية الشاملة في سبيل الله بلا حدود تراه تحت عناية ورعاية خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين وإخوانه الأمراء.

وحدِّث عن المساعدات للدول العربية ودول المواجهة ولعرب الأرض المحتلّة وللمقاومة العربية والإسلامية حدِّث بلا حرج.

لقد أدرك خادم الحرمين الشريفين أن أنظار العالم قاطبة تتّجه نحو بلاده وأن المسلمين الذين يتوجهون في صلواتهم نحو بيت الله الحرام، يرنون بأبصارهم نحوه كخادم للحرمين، وأنهم يرجون منه بعد الله العون والرعاية فالمؤتَمَن على بيت الله مؤتَمَن على النفوس والأبدان. انطلاقًا من هذا كله أدرك الملك فهد أنَّ دولته ينبغي أن تكون قوية الإدارة تتمتع بكفاءة مثالية، وأن هذه الدولة تحتاج إلى الأموال الطائلة للقيام بمسؤولياتها الإسلامية الجسام وبمشاريعها الإنسانية الخيِّرة، لذلك اهتم بالاقتصاد الوطني اهتمامًا كبيرًا، وسعى سعيًا حثيثًا نحو إقامة توازن إداري ومالي واقتصادي، وبفضل ذلك باتت الإدارة الحكومية في أيْدٍ أمينة وجيل نشأ في ظلِّ رعاية الأسرة السعودية الكريمة، فامتاز بالإيمان والضمائر الحية والقدرة على ضبط الأمور وهكذا بِتْنا نملك اقتصادًا قويًّا، والريال السعودي الآن من أقوى العملات العالمية وأكثرها استقرارًا.

يا خادم الحرمين الشريفين لقد رعيتم الأمن والاستقرار رعاكم الله ومدَّ بعمركم، واعتنيتم بالحرمين الشريفين عناية ما فوقها عناية، أثابكم الله ووفَّقكم لمَرضاته ومنحكم العون منه، يا خادم الحرمين الشريفين أدخلتم الفرح والسرور بهباتكم السخيَّة ومساعداتكم المتواصلة إلى قلوب الملايين من المسلمين وسواهم رعاكم الله وجعل أيامكم مشرقة بالفرح ومنحكم القوة والصحة.

إنني قد دخلت العقد العاشر من عمري، باسم الملايين من المسلمين وبني البشر أتقدَّم لكم بقرب حلول موسم الحج وعيد الأضحى المبارك بكلِّ التهاني والتبريكات راجيًا الله تعالى لكم ولولي عهدكم الأمين المزيد من التوفيق وأن يحفظكم وجميع إخوانكم الأمراء أبناء إمامنا المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس هذا الكيان الكبير، ثمرة جهاده المبرور لرفع شأن الأمة العربية ولعزِّ الإسلام واسترجاع مجده وسؤدده. هذه التهنئة صادرة عن قلبي المفعم بحبّكم وهي موثَّقة بخبرتي التي حصَّلتها من خلال أعمالي في الديار المقدَّسة والوطن العربي وبلدان العالم قاطبة.

إنني إذ أثني على النهضة التي تعيشها بلادنا في ظلِّ قيادتكم أقول الحقيقة ولا

أستهدف سوى تبيانها، فقد شهدت حتى الآن كل لون من ألوان الحياة وبتُّ لا أتوخّى سوى ذكر الحقيقة والصدق.

والحقيقة والصدق ينطقان أنَّ بلادنا تنعم في ظلِّ حكم خادم الحرمين الشريفين وأخيه ولي عهده الأمين بعصرها الذهبي وبأروع فترات نهضتها.

مدَّ الله عمركم وجعل التوفيق حليفكم إنه أكرم مسؤول.

خليل الرواف

الملاحق

نشرت ترجمة هذا البحث في مجلة ناوبن كورت التي تصدر بشيكاغو بأميركا.

وقد رأى فيه الشيخ خليل الرواف خير صورة لقرّاء لغة الضادّ عن الحياة الأدبية في جزيرة العرب ولا سيما أنَّ الذين بحثوا في الحركة الوهابية أهملوا في العقلية والأدبية وأنَّ الدكتور طه حسين قد عالَج كل هذا في بحثه الدقيق - الذي نتقدَّم به إلى القرّاء - بتفكيره العميق وأسلوبه الرشيق. لذلك استأذنت حضرة الدكتور طه حسين في نشر هذا البحث فتفضّل رحمه الله - بالإذن.

وقد عهد الشيخ خليل الرواف إلى مكتبنا بالإشراف على طبعه ونشره فكان لنا بذلك من شرف الموضوع وشرف المؤلّف وشرف صاحب الفكرة ما نسجله في أول صفحة من صفحات هذه الرسالة.

مكتب النشر العربي - دمشق

الحياة الأدبية في جزيرة العرب

تستطيع أن تنشر لبلاد العرب في هذه الأيام صورتين مختلفتين أشدَّ الاختلاف وكلتاهما مع ذلك صادقة صحيحة. فهي قسم من آسيا يسمى باسم واحد منذ عصور بعيدة جدًا ولكنه يتألف من أقطار وأقاليم تختلف في طبيعتها وتباين أحوالها الجغرافية والاجتماعية والسياسية والدينية أيضًا، فمنها الخصب الغني ومنها الجدب القاحل ومنها ما سكنه الحضر وخضعوا للأجنبي خضوعًا تامًّا، ومنها بعد هذا كله من يذهبون في الدين مذهب أهل السُّنة ويتشدَّدون في المحافظة على عقائد السلف الصالح من المسلمين، ومَن يذهبون مذهب الشيعة معتدلًا أو متشدِّدًا، ومن يُقيم حياته الدينية على التصوّف، ومن يعيش عيشة المسلمين العاديين في البلاد الإسلامية الأخرى، ومَن جَهِل الإسلام جهلًا تامًّا وانغمس في نوع من البداوة هو أشبه شيء بصورة الشعر العربي القديم من حياة العرب الجاهليين الذين كانوا يعبدون الأوثان والأشجار قبل ظهور الإسلام.

تجد هذا كله في بلاد العرب فلا تكاد تصدِّق أنَّ لهذه البلاد وحدة ما إذ ليس من اليسير أن تتحدَّث عنها وعن آدابها كما تتحدَّث عن أي بلد آخر من بلاد الشرق العربي، فأنت تستطيع أن تتحدث عن مصر وعن سورية وعن تونس أو الجزائر فتصِف حياتها الاجتماعية والسياسية والأدبية والدينية في غير مشقّة ولا صعوبة، لأنّ لكل بلد من هذه البلاد وحدته السياسية والجغرافية واللغوية. وهذه الوحدة تمكّنك من أن تصِفَ كل بلد من هذه البلاد وصفًا مقاربًا إن لم يكن دقيقًا كل الدقة. أما بلاد العرب أو جزيرة العرب كما يسميها الجغرافيون فليس لها من هذه الوحدة حظ، فما تقوله عن الحجاز لا يصدُق عن اليمن وما تقوله في أمرٍ نجد لا يصلح بالقياس إلى تهامة، فليس هناك قطر واحد وإنما هناك أقطار وأقاليم.

وهذه الصورة التي أصوِّرها لك الآن من بلاد العرب قريبة كلَّ القُرب من

الصورة التي تجدها لهذه البلاد في الشعر الجاهلي حين لم تكن هذه الأقاليم كلّها تتّفق إلّا بالاسم، وحين كانت تختلف في اللغات واللهجات وفي النظم السياسية والاجتماعية والدينية باختلاف الأقاليم والأقطار، وحين لم يكن الجمل (وهو أداة المواصلات الوحيدة) يستطيع أن يلغي ما بين هذه الأقاليم من الفروق. فهذه الأقاليم لا تزال اليوم كما كانت قبل الإسلام فلمْ تُلْغَ فيها المسافات ولم تقرّب بينها السكك الحديد ولم يؤثّر فيها تأثيرًا قويًّا استعمال التلغراف على قلّة استعماله ولا مرور السفن البخارية على سواحلها في البحر الأحمر أو بحر العرب أو الخليج العربي. فهي إذن على حالها القديم تكاد تكون معزولة عن العالم الخارجي لا يكاد يوحّد اتصال وطيد بين أقاليمها الداخلية. ومن الغريب أنّ الوضع السياسي بعد الحرب الكبرى يشبه جدًّا وضعها السياسي في القرن الخامس والسادس للميلاد قبل أن يظهر الإسلام فيوثّق الصلة بينها وبين بلاد الشرق الأدنى والأوسط.

كانت أطراف الجزيرة العربية في القرن الخامس والسادس للميلاد متّصلة بالدول الأجنبية المجاورة لها - فكانت أطرافها من جهة الشام متّصلة بدولة البيزنطيين ونشأ عن هذا الاتصال أن نُظّمت علاقات سياسية بين كل من أمراء الغسانيين وقياصرة قسطنطينية أشبه بعلاقات الحماية في هذا العصر الحديث. وأي شيء الآن لأمراء شرقي الأردن؟ هي إمارة الغسانيين القدماء فيها مدن لها حظّ ضئيل من الحضارة وفيها بادية قوية غنية وعلى رأسها أمير غسانيّ قبل الإسلام وهو هاشمي الآن. وهذه الإمارة كانت خاضعة لحماية قسطنطينية قبل الإسلام وهي خاضعة الآن لحماية لندن. وأطراف الجزيرة من ناحية العراق كانت متصلة بالفرس تقوم فيها إمارة عربية يحميها أكاسرة الفرس وتحافظ هي على حدود الدولة الساسانية من غارة البدو. وهي الآن تقوم فيها مملكة عربية على رأسها لخمي كما كانت الحال من قبل، بل هاشمي. وليس يحميها الفرس وإنما يحميها الإنجليز. وبلاد اليمن وما يتصل بها من الأقاليم الجنوبية في الجزيرة كانت في القرن الخامس والسادس موضع النزاع بين الفرس والروم. وكانت تخضع للروم بواسطة الحبشة أو تخضع للفرس مباشرة أو تظفر باستقلال ضئيل يظلُّ موضع النزاع بين أولئك وهؤلاء. وهي الآن كما كانت من قبل بعضها خاضع لسلطان الإنجليز

مباشرة على الساحل، وبعضها مستقل ولكنه موضع النزاع والتنافس بين القوة الإنجليزية والقوة اليمانية.

تغيرت أسماء الدول الحامية لأطراف الجزيرة أو الطامعة فيها وتغيرت بعض الشيء أشكال الحماية والطمع لم يتغير، فالدول الأجنبية تحمي أطراف جزيرة العرب إما خوفًا من البدو وإما رغبة في بسط النفوذ التجاري وإما للأمرين جميعًا، وطريقة العرب أنفسهم في فهم العلاقة بينهم وبين الأجانب لم تتغير في القرن العشرين. فهي كما كانت في القرن الخامس والسادس تقوم على الحاجة إلى المال والخوف من القوة، فإنّ الأجانب المجاورين للجزيرة من كان منهم أشدّ قوة وأكثر مالًا، فهو صاحب النفوذ عند هؤلاء الناس.

أمّا قلب الجزيرة وداخلها فلم يتغير كذلك إلّا قليلًا، بادية مستقلة استقلالًا تامًّا تُظهر الخضوع والطاعة لأمراء الحضر رغبة أو رهبة أو خوفًا وطمعًا فليس هناك فرق بين إمام صنعاء في اليمن وبين ملك من ملوك حمير في العصر القديم له سلطته المركزية في الحضر، ولكن أصحاب البادية مستقلون لا يخضعون له إلّا بمقدار ما يخافون أو يطمعون في عطائه ومثل هذا في نجد وتهامة والحجاز.

هذه إحدى الصورتين اللتين أشرتُ إليهما في أول هذا الفصل، أما الصورة الثانية فتمثّل بلاد العرب من حيث إنها وحدة متشابهة في بعض الوجوه، فالدين الرسمي لهذه البلاد هو الإسلام واللغة الرسمية لهذه البلاد هي لغة القرآن والحضارة الرسمية في هذه البلاد هي الحضارة الإسلامية القديمة. إذن فمَهما يختلف سكان الجزيرة العربية في موطنهم الجغرافي وفي نظامهم السياسي وفي مذهبهم الديني وفي علاقاتهم بالأجانب وفي لهجاتهم الخاصة فهم جميعًا مسلمون وهم جميعًا يكتبون لغة القرآن إذا كتبوا ويفكّرون ويعيشون على نحو ما كان يفكر ويعيش المسلم قبل أن تتوثّق الصلة بينه وبين الأوروبيين والأميركيين.

فمن هذه الناحية يستطيع الباحث عن الآداب في البلاد العربية أن يتحدّث عنها في مقال واحد كأنه يتحدّث عن شعب واحد. على أنّ من الحق عليه أن يلاحظ الظروف الخاصة التي تحيط ببعض الأقاليم فتجعل في آدابه صفات ليست في غيرها من آداب الأقاليم الأخرى. ولكن الكلام عن الأدب في جزيرة العرب

يحتاج إلى أن تُحَلّ مسألة مشكلة قبل الشروع في ذلك. إنَّ بلاد العرب هي مهد الأدب العربي القديم وفي شمالها ووسطها ظهر الشعر الجاهلي وفي الحجاز ظهر القرآن ومن الحجاز ونجد وتهامة انتشرت اللغة العربية وما كانت تحمل من أدب ودين إلى بلاد الشرق الأدنى فغمرت أكثره وظلَّت موطنًا للأدب الخالص طوال القرن الأول للهجرة. فكبار الشعراء في العصر الأموي جميعًا من البادية أو من حواضر الحجاز ونجد.

ومع أن العراق قد عظم شأنه جدًّا في العصر العباسي ونبَغَ فيه جماعة من الشعراء منهم من أصله فارسي ومنهم من أصله من هذه الأخلاط السامية التي كانت تنتشر في العراق والجزيرة والشام - فقد ظلَّ في البادية شعراء ممتازون كانوا يقدِمون على الخلفاء والوزراء في بغداد إلى أواخر القرن الثالث للهجرة. ثم انقطعت الصلة الأدبية أو كادت تنقطع بين جزيرة العرب وبلاد الشرق العربي وعادت الجزيرة العربية إلى ما كانت فيه قبل الإسلام من عزلة تامة في الأدب وشديدة في السياسة وغيرها من مظاهر الحياة. فما سبب هذه العزلة التي نشأ عنها أن أصبحت هذه البلاد - التي كانت مصدر النور للشرق الإسلامي كله - موطن الجهل والظلمة؟ وأصبحت هذه البلاد - التي كانت مهد اللغة العربية والأدب العربي - أقل البلاد حظًّا من الامتياز في الأدب واللغة والدين فضلًا عن العلوم الأخرى؟

ليس الجواب عن هذا السؤال عسيرًا فقد كانت الدولة الأموية عربية خالصة وكان خلفاء بني أمية ينظرون إلى الجزيرة العربية نظرًا خاصًّا لأنها موطن الأرستقراطية الحاكمة من جهة ولأنها موطن الأمة التي يستمدُّ منها الجُند من جهة أخرى فليس غريبًا إذًا أن تكون الجزيرة العربية أشدُّ بلاد الإسلام امتيازًا في ذلك الوقت كانت موطن الرؤوس المفكرة وموطن الأيدي العاملة بالجيش وعمال الدواوين. وقد أقصي العرب شيئًا فشيئًا عن الجيش والدواوين.

ولم تكن بلاد العرب تشبه بالخصب والغنى بقية البلاد الإسلامية فأهملتها الدولة ويئست هي من الخلافة. ولم تكن المواصلات بينها وبين عاصمة الخلافة منظَّمة ولا سهلة، فليس عجيبًا أن تضعف العلاقة بينها وبين مركز الحكومة

الإسلامية شيئًا فشيئًا حتى انقطعت انقطاعًا عامًّا. أضف إلى ذلك أنَّ تغلُّب الفرس والترك على بغداد لم يكن من شأنه أن يحتفظ بالعلاقة بين جزيرة العرب نفسها ومواطن الحضارة الإسلامية وأن جزيرة العرب نفسها لم تكن من الغنى والثروة بحيث تستطيع أن تعيش لحسابها فتحتفظ بحظِّها من الحياة الأدبية الراقية ومن الحضارة التي جُلبت إليها أيام الأمويين. لهذا كله انسحبت الجزيرة - إنْ صحَّ هذا التعبير - من الحياة الإسلامية العامة فأمّا باديتها فعادت إلى جاهليتها قليلًا قليلًا وأمّا حواضرها فقد احتفظت بشيء ضئيل تقليدي من الحضارة والأدب والعلم. ولولا أن البلاد المقدَّسة في الجزيرة العربية وأن المسلمين يحجّون إلى مكة والمدينة في كل عام وأن لليمن أهمية خاصة في التجارة أثناء القرون الوسطى، لأُهمِلت هذه البلاد إهمالًا تامًّا ولَنَسِيها تاريخ المسلمين.

نشأت عن هذه العزلة آثار سيئة جدًّا في حياة الآداب واللغة العربية العامة وفي حياة اللغة والآداب في جزيرة العرب نفسها بنوع خاص، فقد كان اتصال العالم الإسلامي بجزيرة العرب في القرون الأولى للتاريخ الإسلامي يبعث في الآداب العربية في العراق والشام ومصر روحًا من البداوة وحياة الصحراء يمنحها شيئًا من القوة والجزالة في الألفاظ والأساليب والمعاني أحيانًا. فلمّا انقطعت هذه الصلة أمعن الأدب العربي في الحضارة والترف وفقد روحه العربي الخالص شيئًا فشيئًا حتى استحال آخر الأمر إلى جسم لا تكاد تمشي فيه روح الحياة، فَسُدَت ألفاظه فكَثُرَت فيها العجمة وفسدت معانيه لإسراف الشعراء والكتّاب في التدقيق وفسدت أساليبه فظهرت فيها الركاكة والغموض.

وكانت جزيرة العرب في تلك القرون الأولى تستفيد من هذا الاتصال فكان وفود الأعراب إلى حواضر العراق والشام ووفود أهل الحضر إلى مدن الحجاز ونجد يثير في نفوس الأعراب معاني ما كانت لتثور في نفوسهم لو ظلّوا في عزلتهم الأولى. ويكفي أن يلاحَظ أنَّ الغزل الحجازي - وهو أجمل ما قيل في الإسلام من الغزل - إنّما هو نتيجة لتبادل الصِّلات بين جزيرة العرب وحواضر العراق والشام ومصر. على أن العلم نفسه قد خسر بهذه العزلة خسارة لا سبيل إلى تعويضها بحال من الأحوال، فمن المحقَّق أن أعراب الحجاز لم ينصرفوا عن

الإنتاج الأدبي بمجرَّد أن انقطعت الصلة بينهم وبين مراكز الحضارة الإسلامية فكان فيهم الشعراء والخطباء والقصّاص والرواة، ولكن شعرهم وقصصهم وآثارهم الأدبية بوجه عام لم تكن تُنقَل إلى مدارس البصرة والكوفة، وبغداد وتدرس فيها كما كانت الحال في القرون الأولى ولم تكن تدوَّن في البادية وإنما كانت تحفظها الذاكرة عشرات السنين ثم يذهب بها صوت الرواق والحفَّاظ وتندثر في الصحراء كما تندثر الرمال بتأثير الرياح.

وعلى هذا أخذت اللغة العربية وآدابها في الجزيرة تتغير وينالها التطور من حين إلى حين دون أن يدوَّن هذا التطور أو يُسجَّل، وأصبح من المستحيل الآن أن نعرف الصلة الحقيقية بين اللهجات العربية في الجزيرة الآن وبين اللهجات التي كانت فيها أثناء القرون الثلاثة الأولى. على أن العلاقات لم تنقطع بين بلاد العرب وبين البلاد الإسلامية الأخرى من كل وجه، فقد كان المسلمون يحجّون في كل سنة كما قدمت، وكان مركز اليمن التجاري يهم بلاد البحر الأبيض المتوسط دائمًا، ولذلك لم تكَدْ تفسد العلاقة بين الجزيرة وبغداد حتى قامت مقامها علاقات أخرى بين الجزيرة والقاهرة وحرصت القاهرة منذ أيام الفاطميين على أن يكون نفوذها عظيمًا جدًّا في الحجاز واليمن بنوع خاص، ولكن هذه العلاقات كانت سياسية دينية أكثر مما كانت أدبية علمية والذين يريدون أن يتتبعوا تاريخ الأدب العربي داخل الجزيرة يستطيعون أن يظفروا بشيء من ذلك في مدن الحجاز واليمن، وذلك بفضل هذه العلاقة بين القطرين وبين مصر وبفضل المكانة الدينية لمكة والمدينة، أمّا نجد فإن حياتها الأدبية قد ضاعت ضياعًا تامًّا إلى أواخر القرن الثامن عشر تقريبًا.

وعلى كل حال فإن في جزيرة العرب أدبين مختلفين أحدهما شعبي يتَّخذ لغة الشعب أداة للتعبير لا في جزيرة العرب وحدها، بل في البوادي العربية كلها في الشام ومصر وأفريقيا الشمالية، وهذا الأدب - وإن فَسُدَت لغته - حيٌّ قويّ له قيمته الممتازة من حيث إنه مرآة صافية لحياة الأعراب في باديتهم، وهو في موضوعاته ومعانيه وأساليبه يشبه كل الشَّبَه الأدب العربي القديم الذي كان ينشأ في العصر الجاهلي وفي القرون الأولى للتاريخ الإسلامي ذلك لأن حياة العرب في

البادية لم تتغيَّر بحال من الأحوال، فحياة القبيلة الاجتماعيّة والسياسية والمادية الآن كما كانت منذ ثلاثة عشر قرنًا. فطبيعي إذًا أن يكون الشعر المصوِّر لهذه الحياة كالشعر الذي يصور الحياة القديمة وأن يكون موضوعه ما يقع بين القبائل من حروب ومخاصمات تدعو إلى الفخر والمدح والهجاء والرثاء وما يثور في نفس الأفراد من أنواع الآلام واللذات التي تدعو إلى الغناء بالشكوى حينًا والحب حينًا آخر والعتاب مرة ثالثة. والقصيدة العربية الشعبية الآن كالقصيدة العربية القديمة تبدأ بالغزل القليل البسيط المؤثِّر ثم تنتقل إلى الإبل والصحراء فتُطيل في ذلك ثم تصل إلى غرضها من مدح أو فخر أو غيرهما من فنون الشعر. ومثل ذلك يقال في الخطابة، فالبدوي الآن فصيح كالبدوي القديم حلو الحديث محبّ للسمر والقصص إذا اطمأن واستراح، خطيب بليغ إذا كان بينه وبين غيره خصومة أو جدال. وهذا الأدب العربي الشعبي يرويه في البادية جماعة من الرواة يتوارثونه عن آبائهم ويورثونه لأبنائهم ويكسبون بروايته حياتهم المادية ومكانتهم الممتازة أحيانًا. ولسوء الحظ لا يُعنَى العلماء في الشرق العربي بهذا الأدب الشعبي عناية ما لأن لغته بعيدة عن لغة القرآن وأدباء المسلمين لم يستطيعوا بعد أن ينظروا إلى الأدب على أنه غاية تطلب لنفسها وإنما الأدب عندهم وسيلة إلى الدين.

أما الأدب الآخر هو أدب تقليدي لا يكاد يوجد في البادية وإنما مركزه الحواضر عادة وهو أدب قد اتَّخذ له القرآن أداة للتعبير، وإذا كان الأدب الشعبي مصورًا للحياة العربية تصويرًا صادقًا ممتازًا، فإن الأديب التقليدي بعيد كل البعد عن هذا التصوير. ذلك لأنه متكلِّف مصنوع لا صلة بينه وبين الطبيعة الحرة، فهو ما يحسُّه الشعراء والكتاب وإنما يمثِّل ما يريد الشعراء والكتاب أن يضعوه فيه. حظّ النفاق فيه أكثر من حظ ما هو تقليدي لا يصدر فيه أصحابه عن أنفسهم وإنما يقلدون فيه أهل الحضر من المصريين والسوريين والعراقيين. كذلك كان أدباء المدن في الجزيرة العربية طول القرون الوسطى وكذلك هم الآن. ونستطيع أن نؤكد أن أهل الحجاز يستمدّون أدبهم التقليدي من مصر والشام بنوع خاص وقد يتأثَّرون بغير المصريين والسوريين من الذين يَفِدون عليهم للحج. ولكن كتبهم الذين يدرسونها في مكة والمدينة من الكتب التي يدرسها المصريون في الأزهر وشعرهم

الذين يقرأونه أو يحفظونه هو الشعر الذي يُقرأ ويُدَرَّس في مصر والشام، فهم إن أرادوا أن يكتبوا في العلوم الدينية قلدوا المصريين كما أنهم يقلدونهم في الدروس وهم إن أرادوا أن يَنظُموا الشعر قلَّدوا المصريين والسوريين.

أما أهل اليمن فليس تأثُّرهم بمصر أقل من تأثر الحجازيين، وإن كان لهم مذهبهم الديني الخاص بهم على كلِّ حال يذهبون مذهب المصريين في درس العلوم الدينية واللغوية هم تلاميذ الأزهر يفدون عليه فيتعلّمون ثم يعيدون على بلادهم فيعلِّمون. والغريب أنهم لا يزالون يدرسون العلوم الرياضية على نحو ما كانت تُدرَّس في الأزهر قبل أن يمسّه التجديد في أوائل هذا القرن، فالفلك والحساب والمساحة والهندسة والطبيعة كل ذلك يدرس هناك كما كان يدرَّس في الأزهر وغيره من المعاهد الإسلامية قبل أن تتأثر بالحضارة الأوروبية الحديثة. ولليمن شعر ولكنه تقليدي كشعر الحجاز يذهب فيه أصحابه مذهب المصريين قبل أن يرتقي الشعر المصري. وأنت تكلِّف نفسك مشقّة شديدة إن أردت أن تلتمس في اليمن أو في الحجاز شعرًا له قيمة فنية حقيقية إنما هو ألفاظ مرصوصة يكثر فيها البديع وتدور حول معانٍ نافعة. وما رأيت في أربعة أو خمسة من الشعراء يضيعون وقتهم في صنعاء في نظم القصائد الطويلة الركيكة حول هذا المعنى، أي الأمرين خير، قرب الروح من الروح أم قُرب الجسد من الجسد.

وقل مثل هذا في مدح الحجازيين واليمانيين ورثائهم وهجائهم وغزلهم كلام لا طائل تحته ولا غناء، فيه صورة صحيحة لما كان يُقال في مصر والشام قبل خمسين سنة.

أمّا شرقي البلاد العربية فتأثّرت بالعراق أشدَّ من تأثُّره بمصر والشام، ففي بعض القرى في أطراف الجزيرة ممّا يلي العراق شعراء وأيضًا علماء في اللغة والدين وهم تلاميذ العلماء والشعراء الذين يظهرون في بغداد والبصرة. ولم يكن أهل العراق أحسن حالًا من السوريين والمصريين أيام السلطان التركي فليس غريبًا أن يكون تلاميذهم في أطراف الجزيرة العربية وفي نجد مقلدين متكلفين.

وإنه لمما يُضحِك أن تقرأ طائفة من الشعراء رواها الألوسي لجماعة من شعراء نجد يصفون بها عينًا ينبع منها الماء الحار هناك ويختلف الناس إليها للاستشفاء.

لا تجد في ذلك الكلام المنظوم فنًّا ولا شعرًا بالجمال ولا تصويرًا له ولا شيئًا يبعث في نفسك اللذة الفنية وإنما هي ألفاظ سقيمة ثقيلة قد زادها النَّظم السيىء فسادًا ورداءة.

هذه كانت حال الأدب في بلاد العرب إلى وقت قريب جدًّا، إلى ما بعد الحرب الكبرى: تقليدٌ شديد عقيم للمصريين والسوريين والعراقيين في علوم الدين واللغة وفي الأدب.

ولكن حركة التجدُّد العلمي والأدبي ظهرت في مصر والشام والعراق منذ القرن الماضي واشتدت جدًّا في هذا القرن لا سيما بعد الحرب بفضل هذا الاختلاط العنيف الذي يزداد كل يوم بين الشرق والغرب، فتأثر كل شيء بحركة التجديد هذه في الشرق حتى الأزهر نفسه، ولم يكن بُدٌّ من أن يصل أثر هذه الحركة إلى بلاد العرب لأن الحرب الكبرى هزَّتها كما هزَّت غيرها من البلاد، ولأنها اتّصلت بالأوروبيين اتصالًا مباشرًا شديدًا بعد الحرب ولأن العلاقات كثرت جدًّا بينها وبين الشرق العربي. وكما أنها كانت تقلِّد هذه البلاد فيما كان عندها من أدب القرون الوسطى فلا بد من تقليدها في أدبها الحديث.

على أن الباحث عن الحياة العقلية والأدبية في جزيرة العرب لا يستطيع أن يهمل حركة عنيفة نشأت فيها أثناء القرن الثامن عشر فلفتت إليها العالم الحديث في الشرق والغرب واضطرَّته أن يهتم بأمرها وأحدثت فيها آثارًا خطيرة هانَ شأنها بعض الشيء ولكنه عاد فاشتدَّ في هذه الأيام وأخذ يؤثّر لا في الجزيرة وحدها، بل في علاقاتها بالأمم الأوروبية أيضًا. هذه الحركة هي حركة الوهابيين التي أحدثها محمد بن عبد الواهب شيخ من شيوخ نجد.

نشأ محمد بن عبد الوهاب في بيت علم وفقه وقضاء، تثقَّف على يد أبيه ثم رحل إلى العراق فسمع من علماء البصرة وفقهائها آراءه الجديدة القديمة معًا، فسخط عليه الناس وأُخرِج من البصرة، وكان يريد أن يذهب إلى الشام فحالَ الفقر بينه وبين ذلك فعاد إلى نجد وأقام مع أبيه حينًا يُناظر ويدعو إلى آرائه حتى ظهر أمره وانتشر مذهبه.

وانقسم الناس فيه قسمين: فكان له الأنصار وكان له الخصوم، وتعرَّضت

حياته آخر الأمر للخطر، فأخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر ليجيروه ويحموا دعوته حتى انتهى به الأمر إلى قرية الدرعية، وهناك عرض نفسه على أميرها محمد بن سعود فأجاره وبايعه على المعونة والنصرة. ومن ذلك اليوم أصبح المذهب الجديد مذهبًا رسميًّا يعتمد على قوة سياسية تحميه، بل تنشره في أقطار نجد بالدعوة اللَّيِّنة حينًا وبالسيف والحرب في أكثر الأحيان. وعند هذا التحالف بين الدين والسياسة نشأت في الجزيرة العربية دولة سياسية عظم أمرها واشتدَّ خطرها حتى أشفق منها الترك أشدّ الإشفاق، فقاوموها ما وسعتهم المقاومة، فلما لم يفلحوا استعانوا بالمصريين وكان أمرهم إذ ذاك إلى محمد علي الكبير، فنجح المصريون في إضعاف هذه الحركة وإزالة هذه الدولة الجديدة وردِّ أمرائها إلى ما كانوا عليه قبل ذلك من التواضع. فلا بد من وقفة قصيرة عند هذه الحركة التجديدية لنعرف ما هي وما مبلغ تأثيرها في الحياة العقلية العربية في هذا العصر الحديث.

قلت إن هذه الحركة التجديدية قديمة معًا. والواقع أنها جديدة بالنسبة إلى المعاصرين لكنها قديمة في حقيقة الأمر لأنها ليست إلّا الدعوة القوية إلى الدين الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية. هي الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالصًا لله وحده ملغية لكلِّ واسطة بين الله وبين الناس. هي إحياء للإسلام العربي وتطهير له ممّا أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب. فقد أنكر محمد بن عبد الوهاب على أهل نجد ما كانوا اعتادوا من جاهلية في العقيدة والسيرة. كانوا يعظِّمون القبور ويتَّخذون بعض الموتى شفعاء عند الله ويعظِّمون الأشجار والأحجار ويرَون أنَّ لها من القوة ما ينفع ويضر. وكانوا قد اعتادوا في سيرتهم إلى حياة العرب الجاهلية فعاشوا من الغزو والحرب ونسوا الزكاة والصلاة وأصبح الدين اسمًا لا مسمى له فأراد محمد بن عبد الوهاب أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين قومًا مسلمين حقًّا على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرنًا.

ومن الغريب أن ظهور هذا المذهب الجديد في نجد قد أحاطت به ظروف تذكِّر بظهور الإسلام في الحجاز فقد دعا صاحبه إليه باللين أول الأمر فتبعه بعض الناس ثم أظهر دعوته فأصابه الاضطرار وتعرَّض للخطر ثم أخذ يعرض نفسه على

الأمراء ورؤساء العشائر كما عرض النبي محمد ﷺ نفسه على القبائل ثم هاجر إلى الدرعية وبايعه أهلها على النصر كما هاجر النبي إلى المدينة. ولكن ابن عبد الوهاب لم يرِد أن يشتغل بأمور الدنيا فترك السياسة لابن سعود واشتغل هو بالعلم والدين واتَّخذ السياسة وأصحابها أداة لدعوته، فلمّا تمَّ له هذا أخذ يدعو الناس إلى مذهبه فمَن أجاب منهم قَبِلَ منه ومن امتنع عليه أغرى به السيف وشنَّ عليه الحرب، وقد انقاد أهل نجد لهذا المذهب وأخلصوا له الطاعة وضحّوا بحياتهم في سبيله على نحو ما انقاد العرب للنبي وهاجروا معه.

ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب وحاربوه في داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها لكان المرجو جدًّا أن يوحِّد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة كما وحَّد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول. ولكن الذي يعنينا من هذا المذهب أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب. وقد كان هذا الأثر عظيمًا خطيرًا من نواح مختلفة. فهو قد أيقظ النفس العربية ووضع أمامها مثلًا أعلى أحبَّته وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللسان. وقد لفت المسلمين جميعًا وأهل العراق والشام ومصر بنوع خاص إلى جزيرة العرب.

فبينما كان الترك والمصريون يحاربون الوهابيين كان أنصار القديم من علماء العراق سواء منهم أهل السنة والشيعة يردُّون على هذا المذهب ويكفِّرون أصحابه. وكان الوهابيون يناضلون عن مذهبهم. وكان أولئك وهؤلاء ينشرون الرسائل والكتب التي يضعونها. كما أخذوا ينشرون الكتب القديمة التي يُرجَع إليها في التِماس الأدلّة والبراهين. وكذلك عادت الحياة القوية إلى مذهب أحمد بن حنبل الذي تبعه النجديون، ونُشِرت كتب ورسائل كثيرة لابن تيمية وابن القيم، واستفاد العالم العربي كله من هذه الحركة العقلية الجديدة.

وليس من شكٍّ عندي في أن هذه الحركة نفسها قد أيقظت أهل اليمن أيضًا، فنهضوا يدفعون عن مذهبهم الزيدي، وينشرون كتبهم القديمة ويؤلفون كتبًا جديدة في الفقه والتوحيد والحديث. وما زالت مطابع القاهرة إلى الآن تطبع الكتب المختلفة لحساب الوهابيين من أهل نجد والزيديين من أهل اليمن.

وفي أثناء هذه الحركة العنيفة ظهر حول الأمراء المجاهدين من أهل نجد جماعة من الشعراء أخذوا يفتخرون بانتصارهم في المواقع ويعتذرون عمّا يصيبهم من الهزيمة وليس من الممكن أن يقال إنهم جدَّدوا الشعر وأحدثوا فيه ما لم يكن. ولكنهم على كل حال عادوا به إلى الأسلوب القديم وأسمعونا في القرن الثاني عشر والثالث عشر في لغة عربية فصيحة هذه النغمة العربية الحلوة التي لم تكن تسمع من قبل. هذه النغمة التي لا يقلِّد صاحبها فيها أهل الحضر ولا يتكلَّف فيها البديع وإنما يبعثها حرة ويحمِّلها كل ما تجيش به نفسه من عزّة وطموح إلى المثل الأعلى ورغبة قوية في إحياء المجد القديم.

نجح المصريون في إخماد هذه الحركة الوهابية، وقد نجحوا في إفساد هذه النهضة ولكنهم لم يقتلوها! أضعفوا سلطانها السياسي ولكن سلطانهم السياسي قد أضعفته أوروبا بمعاهدة سنة 1840م، وعجز الترك عن أن يحكموا قلب الجزيرة العربية فاستراح الوهابيون وواسوا جراحهم واستأنفوا قوّتهم ونشاطهم ومضت نهضتهم الدينية في سبيلها ثم تبعته في هذه الأيام نهضة سياسية بسطت سلطانها على نجد كله وعلى الحجاز كله وأعادت لهم المثل الأعلى وهو توحيد الكلمة العربية. ولكن بلوغ هذه الغاية الآن ليس من السهولة واليُسر بحيث كان أوائل القرن التاسع عشر، فقد استيقظ الشعور القومي في البلاد العربية كلها وأحاطت بجزيرة العرب من جميع أطرافها قوة ليس فيها ما كان في القوة التركية من الضعف والفساد والاضطراب والفقر وهي قوة الإنجليز. وليس الذي يعنينا هو المستقبل السياسي لهذه البلاد وإنما الذي يعنينا هو المستقبل الأدبي. ومن المحقَّق أن هذا المستقبل الأدبي سيكون باهرًا في يوم من الأيام قريب أو بعيد.

جمع ملك الوهابيين الآن جزءًا عظيمًا جدًّا من الجزيرة العربية ولم يَبْقَ سبيل إلى أن يظلَّ الوهابيون وغيرهم من ملوك العرب وأمرائهم بمعزل عن الحياة العلمية العامة كما كانوا من قبل، بل هم مضطرون إلى أن يتّصلوا بالممالك الإسلامية والأوروبية اتصالًا سياسيًّا واقتصاديًّا منظمًا. وقد بدأوا ينظِّمون هذا الاتصال بالفعل فللوهابيين وزير مفوض في لنودرة، وملك الوهابيين على اتّصال مستمر بممثلي الإنجليز في عدن. وقد بدأ الإيطاليون يدورون حولهم. وهناك صلات

أخرى ربما كانت أشدّ وأسرع تأثيرًا من هذه الصلات السياسية والاقتصادية وهي الصلة العقلية التي تُحدِثها الصحف والمجلات، والكتب تطبع الآن بكثرة في مصر وفلسطين والشام والعراق وأميركا. وكلها أو أكثر منها يصل إلى كثيرين من أهل الجزيرة العربية، وهم يقرأون ويفهمون أحيانًا ويعجزهم الفهم أحيانًا أخرى. ولكنهم يعجبون على كل حال، والإعجاب أوّل التقليد، والتقليد أول الإنتاج الفني.

وقد بدأت بشائر الحالة الجديدة ظاهرة جلية، ففي مكة صحيفة تنطق بلسان الحكومة وتنشر أدبًا وسياسة على نحو ما كانت تفعل الجريدة الرسمية أول الأمر، كانت القِبلة أيام ملك الهاشميين وهي الآن تُسمى أم القرى. وكانت في مكة مجلة الإصلاح. وفي مكة مطابع. وفي مكة أيضًا وغيرها من مدن الحجاز مدارس مدنية على نحو المدارس المصرية الابتدائية تدرَّس فيها أوليات العلم درسًا حديثًا وتعلَّم فيها بعض اللغات الأوروبية. كل هذا إلى جانب التعليم الديني القديم، وأغرب من هذا أنَّ دعوة التجديد الفكري والأدبي قد ظهرت في الحجاز منذ أعوام بتأثير ما يكتبه المصريون والسوريون وهذه الدعوة عنيفة جدًّا فهي ساخطة أشدّ السخط على كلِّ قديم في الحجاز: على التعليم الديني والأدبي وعلى نظام الحكم وعلى الحياة الاجتماعية. وقوام هذه الدعوة أن الحجاز يجب أن يحيا حياة الأوطان الحرّة المستقلة وأن يحتفظ من قديمه بالدين واللغة ويأخذ عن الأوروبيين بعد ذلك ما استطاع، وأن يستفيد من إقبال المسلمين عليه للحج فلا يفنى هو في المسلمين، وأن يُعنى أهله أشدّ العناية بالتعليم المدني وباللغة الإنجليزية والفرنسية لأن إحداهما لغة الاقتصاد والتجارة والأخرى لغة العلم والأدب.

وقد بدأ الحجاز بالفعل يرسل شبابه إلى مصر ليدرسوا فيها العلم على نحو ما يدرسه المصريون. وأصحاب الدعوة إلى التجديد لا يكتفون بهذا، بل يريدون أن يبعثوا أبناء الحجاز إلى باريس ولندن. وبدأ الحجازيون المجدِّدون ينشِئون الشعر والنثر على مذهبهم الجديد ولكنهم لم يوفَّقوا بعد إلى أن يكوِّنوا للحجاز شخصية أدبية، إنما هم تلاميذ السوريين، والسوريين المهاجرين إلى أميركا بنوع خاص. فمثلهم العليا في الأدب يلتمسونها عند الريحاني وجبران خليل جبران ومن إليهما.

ومع قوة محافظة النجديين على إسلامهم، فلن يستطيعوا مقاومة الحركة التجديدية التي تأتيهم من العراق ومصر، وبين يديَّ الآن طائفة من القصائد غير قليلة أنشأها جماعة من الشعراء النجديين في مدح الملك عبد العزيز بن سعود. والذي يقرأ هذه القصائد يجد فيها تأثيرًا جدًّا للروح العراقي الذي يتجلى في شعر جميل الزهاوي ومعروف الرصافي وعبد المحسن الكاظمي، والروح المصري الذي يتجلى في شعر حافظ وشوقي، ولكن للشعر النجدي الجديد شخصية تميِّزه من شعر العراق ومصر، فهو في تأثيره بالشعراء المحدثين محافظ في لغته محافظة غريبة يتخيَّر القوافي الصعبة ويطيل فيها ويُكثِر منها ويُسرف في الألفاظ الغريبة البدوية كأنه يلتمسها من المعاجم وكأنه يأخذها من لغة البادية النجدية التي هي في مادتها على كلِّ حال لغة الشعر العربي القديم. وقلَّما يستطيع الشعراء النجديون أن يتتبَّعوا شعراء العراق في تأثّرهم بفلسفة المعري والخيام أو بالنزعات الأوروبية الحديثة أو يتتبعون المصريين في تجديدهم العنيف لألفاظ الشعر وأساليبه ومعانيه وإنما هم معتدلون. وهم إلى إحياء الشعر القديم أقرب منهم إلى إيجاد شعر جديد وهم بدويّون على كل حال وهم ينشدون المَلك في شعرهم كما كان يفعل القدماء. ويجيزهم الملك على هذا الشعر بالإبل أحيانًا وبالثياب أحيانًا وأحيانًا أخرى يجيزهم بالذهب والفضة. وأهل نجد يختلفون إلى العراق كثيرًا والعراقيون يصعدون إلى نجد ولا بد من أن يعود الحال بين القطرين إلى ما كان عليه أيام بني أمية من التعاون الأدبي القوي.

وفي تهامة وعسير حياة عقلية ولكنها ضئيلة جدًّا وهي ممعنة في التصوُّف متأثرة في ذلك بأفريقيا الشمالية ولكنها لم تُحدِث نهضة أدبية ولم يتغيَّر من حال الأدب شيئًا.

أما اليمن فهي أشد البلاد العربية محافظة على القديم القرون الأولى، يُعنى أهلها بأمور الدين على الطريقة الزيدية من الشيعة وينشرون الكتب الكثيرة في هذه العلوم يطبعونها في مصر. ولهم شعر كثير ولكنه ما زال قديمًا متأثِّرًا بالروح المصري الشامي الذي كان منبثًّا في الشعر قبل النهضة الحديثة. والشعر عندهم مختلط بعلم الدين فقلَّما تجد منهم عالمًا دينيًّا إلّا وله مشاركة في الشعر وأكثر

أئمتهم شعراء وإمامهم يحيى الآن يجيد الشعر على النحو القديم. ومن الغريب أمر اليمن أنها ظلَّت طوال القرون الوسطى أكثر البلاد العربية من العلم والأدب في حواضرها وكان يُرجى أن تكون أسرع البلاد العربية إلى الأخذ بأسباب الحياة الجديدة. ولكن الآن ربما كانت أشد البلاد الإسلامية كلها تمثيلًا للحضارة القديمة والأدب القديم، وأهل اليمن يفدون على مصر ولكنهم يفدون للتجارة أو لدرس العلم في الأزهر، وليس منهم مَن يفكِّر في الاتّصال بالمدارس الحديثة. وليس فيها مطبعة ومصدر ذلك فيما يظهر إشفاق أهل اليمن من الأجانب وإغلاق أبواب بلادهم في وجوه الأجانب من المسلمين والأوروبيين جميعًا، ولكن الحضارة الحديثة المادية قد استقرت على سواحل اليمن ولا بد من أن تقتحم الأبواب المغلقة ولن تستطيع اليمن منذ الآن أن تقاوم هذه الحضارة.

وجملة القول إن جزيرة العرب الآن تشتمل على نوعين مختلفين من الحياة العقلية، إحداهما محافِظَة قديمة لا تزال قوية بحُكم الجهل وانتشار الأمية، والأخرى مجدِّدة لا تزال ناشئة بحكم الاتصال بأوروبا والبلاد الإسلامية الراقية. وسيشتدّ الصراع بين هذين النوعين من الحياة ولكن النصر محقَّق للحياة الجديدة لأن جزيرة العرب قد فتحت للحضارة الأوروبية ولن تستطيع أن تُغلق أبوابها بعد اليوم في وجه هذه الحضارة. وقد يُقال إن جزيرة العرب قد فُتحت للحضارة الإسلامية في القرون الأولى ثم أُغلِقت من دونها فما الذي يمنع أن تفتح للحضارة الإسلامية في القرون الأولى ثم تغلق من دونها بعد حين؟ والجواب على ذلك يسير سهل، فقد كانت الحضارة الإسلامية القديمة تدخل بلاد العرب على ظهر الإبل وفي الكتب المخطوطة فأمّا الآن فهي تقتحم هذه البلاد بالسيارات البخارية والتلغراف والتلفون والكتب المطبوعة والصحف والمجلات، وأنّى للبادية أن تقاوم هذه القوى المختلفة؟ المستقبل إذًا للحياة الجديدة لجزيرة العرب وسيكون هذا المستقبل قريبًا في بعض البلاد وبعيدًا في بعضها الآخر ولكنه سيكون على كل حال.

ملحق الوثائق

برقية إلى المؤلف من الملك عبد العزيز أرسلها إليه في بغداد
ردًّا على برقية من المؤلف يهنئه فيها بالعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها

ديوان جلالة الملك

نمرة [٢]

عدد [٧٧٢]

في ــــ سنة ١٣٤

بترسل خادماً من قبلك يأتي به بل ارسل الى كبيرهم وقوله له نبي مع فلان فاذا جاء ينفذ الامر . ومن قبل دور
جميعها اجعل النظر عليها عن الفساد ولا لك حق تتداخل فيها موجب القرارات المنظمة لها كلا يشتكي
العقارير التي عنده فاذا ذكر لك ان احد متشكي على احد او اخل فاكشف على المسئلة وان نهم
صلحة المسئلة فمسى فان كان الامر غير ذالك فارفعه الى النيابة . ومن جهة خدامك الذي تحت يد
فاظن منهم تراهم هم الخراب لا يحق لاحد منهم ان يتداخل في جميع الامور الا بامر منك فاذا امره احد
يروح الى درب وجانك وقال فلان لم يطع الامر وسبني وعمل وعمل فلا تأخذ كلامه بالقبول بل
الى الرجل هذا بعينه وقابله معه فتراك تجد الامر مختلف والكلم في محله زين كما ان الغضب في محله زين
اما من قبل الخدمة على القعاودي اما الحاضرة فليس للخدام عليهم خدمة لا قليل ولا كثير جميع دعاوي
تصدر الى الشرع ويصير الذي يمشي في امرهم الشرطة موجب تعقيد لكن اي الحاضرة واما البادية
اذا شدوا جيش وراحوا بخدمتهم فالخدمة على الماية عشره وغير ذالك لا انا اخذ شي واهل
والعيون فحاربهم حساب اهل المدينه في جميع الامور اما من قبل اخويائك الذي يصيرون عندك
زود من ثلاثين رجال لا يصير خيرهم هو ودهم بما يبين مثل العساكر ولا تفرقهم ولا يعرفون
لا يصيرون مثل اخويا مشاري . واما انت يا ياسين الرواف فمسئولية الاحكام والتقريرات
مرجع عليك في الامور فاما الامور الحادثه فعلى طبقتين الطبقة الاولى فهي الامور التي مرجعها الى
الشرع فهذه ما امضاه الشرع فامضوه ولا لكم حق الاعتراض عليه . واما الطبقة الثانيه فهي

مقطع من خطاب الملك عبد العزيز موجّه إلى عبد العزيز بن إبراهيم
وشقيق المؤلف ياسين الرواف في المدينة المنورة بتاريخ 29/ 4/ 1346هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها

ديوان جلالة الملك

نمرة [٢]

عدد [٧٧٢]

في ــــ سنة ١٣٤

تنقسم على طبقتين الطبقة الاولى هي الامور الكبار التي تقرر في المدينة وترجع النيابه عنها فاعملو
كما تامركم به النيابة فان اخطات النيابة فمسئوليتها اعظم من مسئوليتك واما الامور الخفيفه
واحكام البلد التي لا تحتاج الى مراجعة النيابة فمسئوليتها على المجلس واكبر مسئوليتها على الامير
وعليك اذا قرر توقيع وهي مخالفة ولا لاحد حق يمضي على امر ما يمضي به الامير والمعاون وهذا
خط لي اما الترتيبات لا ترتيبكم ولا ترتيب مجالسكم ولا ترتيب عمالكم فالعمدة على ما قررته
هيئة المراقبه حافظ وجماعته والنيابة هذا في امور الدوائر واما ترتيب الامر بالمعروف والنهي
عن المنكر والمحكمة الشرعية والحرم ودوائره وما يجري فيه الراجعة للدين والشرع فالعمل على ما قرره
الشيخ عبد الله بن حسن فتعمل به ويحكم الامر فيه اما من عندنا او من النيابة لكن الكلام
قبل الاخوان الذي ياتونكم الى المدينة احشموهم غايه واذا جاء لكم احد منهم وقال رأيت
منكر كذا وكذا فتقل ترفعه الى هيئة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي ان شاء الله تزيله
وما امرت به فعلناه وهم لا تخلوهم يمدون ايديهم لو اذا مدوا ايديهم فازجروهم بالتي هي احسن
خبروه بان لا يعود مرة ثانيه ولما ذكر حرر ليكون معلوم والسلام

٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

عدد ٧/٢/٢٨

في [illegible] جمادى الاولى سنة ١٣٥٢

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل ... الى جناب المكرم محمد عبد الرواف

سلمه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فقد اطلعنا على كتابكم بشأن طلبكم الرخصة بالسفر لسوريا تعلمون محلكم عندنا وانتم محسوبون علينا كاحد اولادنا ونحن عيناكم في عملكم في الخارجية لمصلحتكم ولتكونوا مستقيمين عندنا للازم فان كنتم ترغبون السفر فلامانع عندنا وانتم ولدلنا اينما كنتم هذا ما لزم بيانه



والسلام

الرياض في ٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥٠

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل ... الى جناب المكرم خليل الرواف سلمه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد ، فقد تلقينا كتابيكم المؤرخين ١٣٥٠/٤/٢٤ و ١٣٥٠/٦/٥ . واحطنا علما بما شرحتم بهما من الاخبار بارك الله فيكم ولابد ان شاء الله تواصلونا على الدوام بما يستجد عندكم من الاخبار اخبار طرفنا لله الحمد ساكنة ولم يحدث ما يوجب الذكر الا دائم الخير نحمد الله على ذلك هذا ما لزم بيانه والله يحفظكم والسلام



الرقم ٢٠/٤/١
التاريخ ٨/٦/١٣٥٠
للوارد

مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها

ديوان جلالة الملك

ORIGINAL DEPARTMENT OF STATE OF THE UNITED STATES OF AMERICA ORIGINAL

AMERICAN CONSULATE AT Naples, Italy,

September 18, 1935.

...S CARD IS ISSUED FOR THE IDENTIFICATION OF THE PERSON
...OSE NAME APPEARS ON THE REVERSE SIDE AS THE BEARER
[XXXXXXXX] QUOTA IMMIGRATION VISA No. -1-
Hajes and Nies, ISSUED BY THIS CONSULATE.
...S CARD IS NOT TRANSFERABLE AND WILL NOT BE VALID FOR
...POSES OF IDENTIFICATION IN THE UNITED STATES UNTIL DULY
...NED BY AN IMMIGRANT INSPECTOR AT A PORT OF ENTRY TO
...UNITED STATES.

...867671

Homer M. Byington, Jr.
Vice- CONSUL OF THE U. S. A.

تأشيرة للمؤلف من السفارة الأميركية في ايطاليا 1935م

صورة لتصريح الهجرة الذي منحته الحكومة الأمريكية للمؤلف عام 1935م والمعروف بـ(البطاقة الخضراء) وأنه أول رجل يهاجر إلى أمريكا من السعودية

IMMIGRANT IDENTIFICATION CARD
UNITED STATES
DEPARTMENT OF LABOR

EL-RAOIF

Khalil Ben Ibrahime,
GIVEN NAME

Hajes & Nies,
COUNTRY OF BIRTH

Jan. 25, 1906.
DATE OF BIRTH

Saudi Arabian.
NATIONALITY

brown
COLOR OF EYES

PORT OF ARRIVAL

STEAMSHIP

DATE ADMITTED

STATUS OF ADMISSION

IMMIGRANT'S SIGNATURE

IMMIGRANT INSPECTOR

ORIGINAL

بسم الله الرحمن الرحيم

Khalil Al-Rawaf

Imam of Young men's Muslim ac

انا خليل الروف امام جمعية الشبان المسلمين في الولايات الامريكية المتحدة

ابدي انه قد حضر الى مركز جمعية الشبان المسلمين كل من صالح احمد

مثني والآنسة عزيزة بنت سليم حنا الخوري المقيمة اليوم في شارع

رايلس تحت رقم ٨٩ في بركلين من ولاية نيورك . وقد نطقت الآنسة

عزيزة امامي بالشهادة اللتان امليتهما عليها وشهدت ان لا اله الا الله وان محمداً

رسول الله ، فارجو الله لها التوفيق والنجاح وحسن العاقبة

خليل الروف

حرر في ٧ ذو الحجة سنة ١٣٦٦ هـ

الموافق ١٩ اكتوبر سنة ١٩٤٧ م

Salih ahmed ...

حضرة الأخ الأعز الأوفى النبيل الأستاذ خليل إبراهيم الروف حفظه الله

[illegible]

... (الأستاذ شكري المهندس) ...

[illegible]

صورة من إحدى صفحات كتاب (ترجمة معاني القرآن الكريم)، الذي أشرف المؤلف على طبعه وتوزيعه عدة مرات في نيويورك ولبنان.

THE HOLY AL-QURAN
IN ARABIC AND ENGLISH

Sheikh Khalil Al-Rawaf
Imam of The Young Men's Moslem Association
55 Madison Ave. or 877 Fifth Ave.
New York City

And the End is (best)
For the righteous.

THE HOLY AL-QURAN
IN ARABIC AND ENGLISH

BELOW IS A SAMPLE PAGE

Genuine Arabian Sheik Serves As Army Private at Camp Lee

CAMP LEE: From a genuine Arabian sheik to a buck private just like that. Private Khalil El Raoof, of Company G, Tenth Quartermaster Training Regiment, formerly Sheik Khalil Ben Ibrahime Al-Rawaf, had that experience and as yet he's still pretty much amazed.

Khalil holds visa No. 1 from his nation, Saudi-Arabi, to the United States, and is the leader of 50,000 Moslems in this country. Prior to coming into the army he broadcast for the OWI to Saudi-Arabia, asking them to go "all out" aiding the Allies.

Saudi-Arabia on Right Side

This was unnecessary though, because Saudi-Arabia is very much on the right side. Oil and mining concessions in Saudi-Arabia are always given to the United States. El Raoif said that recently his king, Ibn Saud, has refused many offers from Axis countries for vital materials, when the offers were many fold what America was paying.

Sheik Khalil came to the United States in 1933 "for a visit," but soon found that his services were very much in demand at many places, so he's remained here ever since. He has served as technical advisor for films in Hollywood dealing with Arab dress, manners and methods, has written books on the Arabic language for study by Americans, and has been of great aid to the War Department in helping officers and enlisted men understand Arabic.

He was wanted by Washington for intelligence work, but lack of citizenship made such a thing impossible. Besides speaking Arabic, El Raoif can also speak good English, French and Turkish.



Private Khalil El Raolf
Former Sheik U. S. Soldier



A SHEIK
Takes to a Pup T...

IN ARABY

Sheik's a Private



ARABIAN SHEIK WILL APPEAR AT STEWART FIELD

NOTED VISITOR WILL RIDE The FAMOUS EVANS' HORSES FOR HIGH SCHOOL FUND

Sheik Khalil Ben Ibrahime Al-Rawaf, first visitor to the United States from Nejd Saudi and holder of passport No. 1 from that country, will appear in person at Stewart field Saturday night at 8 o'clock in aid of the high school athletic fund.

Sheik Al-Rawaf, close personal

خبر في صحيفة أميركية من الجندي خليل الرواف.

inellas County News

turesque Arab Sheik, Visiting Dunedin,
ds Blooded Steeds From His Desert Home

RALPH D. REED



HEIK KHALIL BEN IBAHIMAF AL RAWIFF WITH ...

... He would have an op... In New York he and ... guests of Lowell ... the New York Ad... to appear on his program.

Heart Arab's Read...

Sheik Khalil is 33 ye... His build is slight and ... swarthy. His eyes are ... piercing and although ... he has the traditional ... the Arab and short black ... tache.

With less than two yea... he has good command of ... lish language although h... able to express himself ... in his native tongue or ... which he speaks fluently.

The distinguished visit... of his title through his ... now dead—who was chi... tribe of Bne Taman and ... the sheik's grandfather, ... armed escort for the an... grimages to Mecca—the ...

Sheik Khalil says his ... the center of Arabia—has ... lation of more than 6,000, ... ple, now united under t... king, Ibn Saud.

Helps Form Kingd...

While Lawrence of A... given credit for organizi... tribes against the Tu... sheik says his king unit... than 45 tribes of Centra... and brought together ... ferent states to form ... kingdom which dates f... World war. The sheik ... young for service in the ... he had heard his people ... the deeds of Lawrence.

Questioned on the sit... the Holy Lands betw... Arabians and the Jew... Khalil said there are no... cent Arabs and 40 per c... in there. He pointed ... prior to the Jewish ... Germany, the Jews ... had lived in peace, but ... new Jews coming into t... try made trouble. He sa... sorry for the Jews and ... only man in the world ... find an answer to the p... his own king who, he ... President Roosevelt a ... plaining all details of t... tion.

Referring to his own ... the sheik said all A... honest. "The people wh... the desert," he said, "are ... ful and have clean he... people like the United S... cause they don't try to ... with politics of other c...

Invites Evans to A...

The sheik has invited ... accompany him back ... and his host may accep...

Sheik Khalil has ... Mecca, the forbidd... has a brother now in ... City. He said the pilgri... by his father and gr... took 40 days to cross t... from Damascus to Mec... of the big caravans h... sands of pilgrims.

Another brother is ...

خبر في صحيفة أميركية عن مشاركة المؤلف في معرض الخيول

ARABIAN SHEIK VISITS VALLEY

Likes America Because of Freedom

A visitor in Charleston this week was Khalil Al-Rawaf, an Arabian sheik, who has been visiting at the home of Sam Dandy, 1586½ Washington street, East.

Sheik Khalil came to America five years ago, liked it so well he stayed, and may make it his permanent home. He has studied in Los Angeles high school, served as technical director in an Arabian picture for Universal Studios, appeared on a Lowell Thomas radio program in 1939, rode white Arabian horses in a show in Madison Square Garden, and visited in 38 states.

His father and grandfather both were sheiks, governing the Beni Tameen tribe in South Arabia. Two brothers still reside in South Arabia, one in the diplomatic service. His mother lives in Damascus, Syria.

There are 300 Americans in Arabia, according to Sheik Khalil, who said his king would deal only with American business. The Standard Oil and American mining concerns receive concessions where other nations are turned down, he said.

"I like America because it has freedom ... religion, speech and ..." the visitor declared. He will go to Cleveland Wednesday evening.

Dog Fanciers Of 2 Counties May Organize

Sanctioned Kennel Shows Considered

(By Times Staff Correspondent)

CLEARWATER—Plans for the formation of a Kennel club in the peninsular area, embracing Pinellas and Hillsborough counties are being considered by a group of dog fanciers who met Sunday as guests of R. Wilson Evans at his Arabian horse farm east of Dunedin.

Sunday Morning, January 22, 1939



HE PALM BEACH POST

SHEIK IS VISITOR AT PALM BEACH

Palm Beach, mecca for visiting nobility of every nationality, is entertaining its first sheik.

For Sheik Khalil Ben Ibrahime Al-Rawiff of Nejd Saudia, Arabia, is the weekend guest at the Ocean View Hotel of Robert Wilson Evans, of New York, once one of Palm Beach's best known young men. Of late Mr. Evans has virtually deserted the resort for his ranch near Dunedin, where he

SEPTEMBER 13, 1940.

YUGOSLA... WOMAN, 90, AND ...RABIAN SHEIK REG...TER AS ALIENS

The oldest alien to register thus far and a former Arabian sheik have been fingerprinted at the Cedar Rapids alien registration office.

The oldest a...n was Mrs. Mary

تغطية صحافية عن المؤلف ونشاطه في أميركا

Arabian Sheik Spending Winter Season In Dunedin

Khalil Al Rowif, sheik of Nejd, Arabia, is spending the winter months in Dunedin, being located at the Yacht Club Inn.

Sheik Al-Rowif came to Dunedin upon the invitation of R. B. Evans, owner of the Evanco Farms, just out of Dunedin, whom the sheik met at the Egyptian embassy in New York. The sheik rode Mr. Evans' thoroughbred Arabian horse in the horse show held recently in the Madison Square Gardens in New York.

The sheik plans to ride at the Evans farm each day during his visit here.

Coming to the United States about twenty months ago, the sheik has visited in 25 states. He was the first man to visit the United States from his section of Arabia however, others have come to visit [illegible] that time.

[illegible] arrival in the United [illegible] sheik was unable to [illegible] but he attended [illegible] language and [illegible] time speaks fluent [illegible]

[illegible] stated that he likes [illegible] especially [illegible] climate, its location on the water, the friendliness of the people here and the quietness of the town. When asked if he liked to fish, the sheik replied that he did and that he plans to go deep sea fishing next week.

Sheik Al-Rowif came to the United States to stay only a few months but he liked the country so well that he decided to stay and see more of it. He will be in this country for about a year more. He plans to attend the New York World's Fair and the San Francisco Exposition and plans to be in New York during the theatre season.

The sheik's father is hereditary ruler over 20,000 people in Arabia. His king, he stated, united the tribes of Arabia following the World War and built a number of cities and towns. He stated that there is no unemployment in Arabia.

A picture of the sheik with the Arabian horse, owned by Mr. Evans, which he rode in the Madison Square Garden horse show appeared in a recent issue of the picture magazine Life.

الشيخ العربي يقضي فصل الشتاء في دندن.

SHEIK RAWAF ENDS HIS MOSLEM INSTRUCTORSHIP HERE; PRAISES AMERICAN TRADITIONS, FREEDOM

After spending 18 months in Cedar Rapids as leader and instructor of the local Moslem community at Rose of Fraternity temple, Sheik Kahlil-el-Rawaf, an hereditary chieftain in his native Arabia, will leave Cedar Rapids Friday for lecture and study among other Islamic communities of the United States.

Sheik Rawaf has acquainted Americo-Moslem youth with Arabic religion, language and history in the daily classes which he conducted at the temple.

"At the same time," Sheik Rawaf said, "I have carefully instructed the young people in the principles of Americanism and American tradition. America is a great land—a country where a man has the liberty to do as he pleases as long as he does not interfere with the rights of others."

Sheik Rawaf came to the United States about three and one-half years ago. He holds immigration visa number one from his country of Saudi in Arabia. From Cedar Rapids he will go to Ashland, Ky., thence to West Virginia and New York City.

"I have made many friends here among people of all races and nationalities," the sheik said. "Our people abroad have the highest regard for the American people, and the Saudi government has dealt predominantly with American interests. American companies developing oil and mining industries in Saudi have been welcomed."

Sheik Rawaf explains that the nomadic character of the Arabians is vanishing quite rapidly and with their government's encouragement they are now becoming town and city dwellers. The sheik, himself, has dealt extensively in livestock including camels, sheep and thoroughbred Arabian horses.

"George Washington rode one of the first Arabian horses imported into the United States," Sheik Rawaf said. "Since his day up to and including 1939, 13,000 Arabian horses have come into this country."

Americo-Moslem

MHAMMED OMAR and ABDALLAH IGRAM, Editors

VOLUME I — CEDAR RAPIDS, IOWA, FEBRUARY 12, 1941

واعتصموا بحبل الله جميعاً

EDITORIAL

The Sheik Khalil Al Rawaf being an ardent solicitor and advisor to our newspaper, asked me to write for our editorial an article on the start of our newspaper. So here goes—

Abdallah, my partner, is one of those "funny book" (comic magazine) readers. If you have ever read one you know there are advertisements on the back for all kinds of novelties. Upon this particular one that he was reading was an advertisement for a modern amateur press, "buy your own type, sent postpaid one dollar." Abdallah must have taken this to heart, at any rate, one evening rather late (11 o'clock) the telephone rang downstairs. Since I have had the habit of going to bed at a reasonable time and was consequently in bed when the telephone most startlingly awoke the entire household. With a muffled oath, I ran downstairs and upon picking up my sleep-disturber, the excited voice of Abdullah Igram fairly shouted at me "Hey Mhammed, I've got the swellest idea. Let's start a newspaper, and buy a dollar press." He just about knocked me over with this but I was so dumbfounded by this all I could ...

Omar — Igram

idea of a dollar press— The next morn... called him up and we started making p... but the idea of buying a dollar press was ... to drive out of his head. We looked ar... for a bigger press until we found one ... sixteen dollars. We were on the verge of ... ing it when we decided it would be takin... big a start, so we started to look for a rea... able printer. We finally found one that r... pleased us. Then having the literary ... established, we set about getting our finan... standing established. Of course, it was ... that came to our rescue. We didn't think ... should charge very much for the ads, s... decided that twenty-five cents for two is... and with this rate we set out and got a ... ads in this manner. But one day while t... ing to our printer we mentioned our r... and he was so startled at first that he thou... we were kidding. "That rate is absolutely ... surd," he said. And upon reaching a deci... we changed the rate from twenty-five c... for two column inches for two issues, to f... cents for one column inch for one issue. ... even at that new rate we barely break e... The first Sunday we found time we sat d... and wrote the complete paper.

So that is the start of what we hope ... prove to be a successful project. We b... are absolutely interested in journalism, ... the advancement of "Arabic Literature." ... write the paper entirely unassisted ex... that we have two girls, Lila Hamed, and ... Hamed, type it before going to press.

MOSLEM SUPPER

Annual suppers are held each year by ... Rose of Fraternity Lodge at which hu... crowds are accommodated. All food is stric... Oriental and is prepared at the C.S.P.S. h... where the suppers are held. All participate ... the event of the supper. The older peo... cook and prepare the meal while the ...

Americo-Moslem

هذه المجلة انشأها تلاميذ المدينة
في سيدر رابيدس آيوا

ABDALLAH IGRAM, Editor

Volume 1 — CEDAR RAPIDS, IOWA, AUGUST 30, 1941

Sheik Rawaf Ends His Moslem Instructorship Here: Praises American Traditions, Freedom

SHEIK KHALIL AL-RAWAF

After spending 16 months in Cedar Rapids as leader and instructor of the local Moslem community at Rose of Fraternity temple, Sheik Khalil Al-Rawaf, a hereditary chieftain in his native Arabia, will leave Cedar Rapids Friday for lecture and study among other Islamic communities of the United States.

Sheik Rawaf has acquainted Americo-Moslem youth with Arabic religion, language and history in the daily classes which he conducted at the temple.

"At the same time," Sheik Rawaf said, "I have carefully instructed the young people in the principles of Americ... a man has the liberty to do as he pleases as long as he does not interfere with the rights of others."

Sheik Rawaf came to the United States about three and one-half years ago. He holds immigration visa number one from his country of Saudi in Arabia. From Cedar Rapids he will go to Ashland, Ky., thence to West Virginia and New York City.

Shiek Rawaf explains that the nomadic character of the Arabians is vanishing quite rapidly and with their government's encouragement they are now becoming town and city dwellers. The Sheik himself has dealt extensively ...

We, the editors of the A...ico-Moslem and staff are sorry to lose such a fine f... and worthy advisor, but ... that in whatever he does ... wherever he may travel h... as fine a success as he is ... find and we know he will ... of luck, Sheik Al-Rawaf, fr... all.

١٢٢٧ CCC LOS ANGELES EXAMINER

Sheik Will Attend High School Here

NOTED VISITOR W...
The FAMOUS EVAN
HORSES FOR HIGH
SCHOOL FUND

Sheik Khalil Ben Ibrahim
Rawaf, first visitor to the
States from Najd Saudi and
of passport No. 1 from that co
will appear in person at S
field Saturday night at 8
in aid of the high school a
fund.

Sheik Al-Rawaf, close pe
friend of King Abdul Azzus,
ute monarch of Nejd Saudi,
in Florida at the personal
tion of R. Wilson Evans, ow
the famous blue ribbon A
horses, which have attracte
tion-wide interest this year.

The horses will be exhibit
the program and Sheik Al-
will give an exhibition of ri

Evans, who makes his
home in Dunedin, has show
horses at 17 of the leading
shows in the East during th
year, including Philadelphia,
do, Piping Rock, and winding
Madison Square Garden, New

"Rider and Driver," magazi
voted to the interests of hor
and horsewomen, describe
horses as the "most photogr
horses of the season." One
... was featured in Life
... with a photogr
Sheik Al-Rawaf. During th
the horses were awarded
sixty ribbons and a numb
trophies.

Before riding the horses the
will speak briefly about his
land, which now comprise
largest Arab state in the
After spending almost all o
life in the Arabian desert, h
sent to this country by King
Azzus to learn American cu
and to study economic and
conditions here. He plans
turn to his native land in a
months.

All proceeds from the exhi
will go to the Senior high s
athletic fund. The Junior c
ber of commerce is cooper
with the high school in prese
the program.

rab Sheik on Visit Here
hows Country's Progress
ive U. S. Oil Concessions

er Guarded Pilgrimages Holy City of Mecca— ord Picture of Saudi rabia Shatters Belief

(By Roger M. Dove)

popular conception of an Ara-
eik is generally a vision of a
y adventurer attired in the
ary aqual headpiece and flow-
bes, mounted on a spotless
steed for which his native land
ous the world over, and gallop-
ross endless sand dunes punder-
wreaking havoc with an orna-
sword of flashing steel.

Has Regal Bearing

were surprised, indeed, yes-
afternoon, to learn nothing
ther from the truth when our
friend and prominent Win-
rchant, Charles F. Shakar, in-
up to his residence on 86
l street for the purpose of
a 24-carat member of royal-
a Khalil Ben Ibraham Al-Ro-
Najd, Saudi Arabia.
d, it was nothing less than
ing upon seeing Mr. Shakar's
est to find him a dapper,
us individual of 33 years, his
frame of medium height
l in a sports suit of the latest
He did not even have a horse
tly pawing the dirt at his
a matter of fact; and rather
andishing some type of desert
in our face, greeted us with
a handshake and proffered a

ncely-chiseled tanned features
mouth together with a well-
d mustache, trim goatee and
white teeth, give him a refined,
lished appearance that sets
art as one worthy of the class
dinage.

On Good-Will Tour

as been in the United States
nd will minister for some time
ing on the golden slopes o
la last year and passing th
n Florida, but ere long wil
n Atlantic liner and sail back
Asiatic home. He has made
addresses at scattered points
being feted here for severa
fore continuing the tour and
nd Winsted much to his lik

No Foreign Entanglements

It was a herculean task to bring about this renaissance in Arabia, foreign nations ever trying to organize the land to their liking, and history says the greatest accomplishments by the king were achieved during the World war when the great powers had more than enough trouble in Europe and permitted Asia to solve its own problems. And as long as Saudi Arabia has advanced to its present state through no outside help, the government is able to remain somewhat aloof and avoid all dangerous alliances.

Saudi Arabia is progressive, having constructed a long string of fine highways in the last 10 or 15 years over which cars of foreign makes speed and excellent schools educate the children. English and other languages are taught in the schools as well as the practical professions of radio, telephone, airplane, etc., to say nothing of efficient hospitals now established.

The country is rich in natural resources, particularly oil, and despite lucrative offers from England, France, Germany, Italy and Japan for the privilege of operating the wells, preferred to have Standard Oil Co. of America do the pumping, even though the latter's price was less than half the other bids. The opinion was that in this way there would be no entanglements, for the United States would not attempt to regulate certain government policies as it was feared the Europeans and Asiatics might attempt to do.

Mining of such minerals as gold, silver, coal and iron and pearl fishing are all thriving industries, and certain sections are conducive to ranching and raising horses, cattle, sheep and other livestock. As a matter of fact, Sheik Al-Rowarf told us that everyone in his country has work. It being a most prosperous era, and freely predicted that within a few years it will become imperative to have foreigners immigrate there to furnish added necessary labor.

Issue Own Passport

To substantiate this claim, he pointed out that the annual quota for emigration from Saudi Arabia to the United States is 100 persons, but in addition to himself no one has availed themselves of this opportunity and he

Thrive on Simple Li...

Life in Saudi Arabia is
simplicity, practically ev
ing an occupation, as we
but there are no amusem
as theatres, clubs or the lik

The principal diversion
horses and the gaining of
for expert horsemanship. A
a boy is able to walk, he is
a horse and from thence o
his leisure hours are spent
hard and fast across sand
throwing spears at targets
gaging in other maneuver
young sports also play foot
terned somewhat after the
game; and while in this cou
sheik has watched baseball
and golf exhibitions and enj
all immensely.

The sale of alcoholic beve
Nejd is strictly taboo. The
little smoking, and neither
nor alcohol are imported or
When we paused momentaril
discussion to devour some ic
which Mrs. Shakar graciou
ed, Khalil Ben Ibraham Al
forlornly confessed that the
s unknown in his land.

No Jails or Hotels

Nejd is famous for its hos
and an almost unbelievable
that there are neither hotels
in that state. Travelers have
culty in gaining a night's lo
being the custom to put up fr
several days in the residence
prince—the rulers of a small
all those who seek such shel

Regarding the absence of p
stitutions, we were informed
crimes were settled in an unor
fashion, quick justice being
in the matter of petty crimes b
ing the culprit to pay for his m
and the parties involved
shake hands as firm friends,
murderer is put to death on th
lotine.

Upon learning of our surpr
finding him wearing ...
type clothes, the sheik admi
had been difficult for him to d
his woolen garments. At fi
confided, neckties choked him
felt as though going around
ly naked, or "just by myself"
quaintly explained it. The gent
Saudi Arabia always wear the
nosae attire, but the workers i
oil fields and those engaged in
manual labors are dressed in cl
much like ours. Most of the city
ple in Arabia also have Ar...
robes and headpiece.

Lowell Thomas Program

Among the highlights of his
journ in the United States was a
pearance on the radio program
noted news commentator, L
Thomas, when the latter, in rec
his visit to Arabia, carried on a
versation in the native tongue.
sted listeners were among th
hear the broadcast.

Last winter he displayed

IE PALM BEACH POST

SHEIK IS VISITOR AT PALM BEACH

Palm Beach, mecca for visiting nobility of every nationality, is entertaining its first sheik.

For Sheik Khalil Ben Ibrahime Al-Raviff of Nejd Saudia, Arabia, is the weekend guest at the Ocean View Hotel of Robert Wilson Evans, of New York, once one of Palm Beach's best known young men. Of late Mr. Evans has virtually deserted the resort for his ranch near Dunedin, where he breeds thoroughbred Arabian horses.

The two met in New York and the sheik, who has been in this country a year, was persuaded to ride one of Mr. Evans' Arabian horses in the show at Madison Square Garden. Since that time he has been visiting at the ranch.

Said by many to resemble the late Valentino, whose most famous role was "The Sheik", revived last year, the Arabian visitor directed a picture ... versal while in California ... to return soon to his native country, where he ... of 30,000 people ... [illegible]

SEPTEMBER 13, 1940,

YUGOSLAV WOMAN, 90, AND ARABIAN SHEIK REGISTER AS ALIENS

The oldest alien to register thus far and a former Arabian sheik have been fingerprinted at the Cedar Rapids alien registration office.

The oldest alien was Mrs. Mary Miller, 90, 102[illegible] Third street SE. She is a citizen of Yugoslavia, although she came to the United States and Cedar Rapids in 1903 and Yugoslavia did not become a country until after the World war. She was born in Dalmatia.

Persons who are ill or infirm can be fingerprinted in their homes when necessary, but Mrs. Miller was able to come to the office.

The Arabian sheik was Khalil Ben Ibrahime El Raoif, 1335 Ninth street NW. His far-distant address is Boreydah Nejd Saudi, Arabia. He now teaches the Mohammedan religion in the local Moslem temple. He has been in the United States five years and in Cedar Rapids five months and was the subject of a feature story in The Gazette recently.

RECEPTION GIVEN ADAMS VISITO[RS]

Sheik Khalil Ben I[bra]ham Al-Roware

Sheik Khalil Ben Ibraham Roware of Nejd Arabia, w[ho is] spending a few days in Ada[ms in] the course of a good will to[ur of] America, and Mr. and Mr[s.] George of Syria, former well k[nown] Adams residents who are soo[n to] leave on the return trip to [their] home after visiting here fo[r the] past month, were guests of [honor] at a reception given last nig[ht at] the home of Mr. and Mrs. [...] George of 80 Summer street. [...] 60 guests were present incl[uding] friends and relatives from W[ater]bury and Winsted Ct., New [...] city, Pittsfield, North Adams [and] Adams.

The evening was spent in a[n] enjoyable manner with a[...] dancing and exhibitions of Or[iental] dancing featuring the program.

A luncheon [was] served by the hostess and there [was] also a birthday cake present[ed to] Mrs. K. George who observed [her] birthday anniversary recently.

Mr. and Mrs. George who [are] leaving this week for New [York] city where they will visit rel[atives] and friends before sailing [next] month for Syria were both [pre]sented gifts. They acknowledg[ed the] presentations graciously and [ex]pressed their pleasure at [re]visiting Adams and renewin[g] friendships here and their re[gret at] their approaching departure.

The people of Arabia a[re con]solidated into a solid unit and everybody is working toward developing the nation to retain its centuries old place in history.

Already the two capitals, Alreh in Nejd and Mecca in Hejaz have automobiles, radios, telephones and airplanes. In the king's palaces there are automatic telephones and all modern utilities.

Equal Justice For All

Justice is equal for all. The king is absolute but there are no classes—all are treated alike. In many ways the Arabian people are further advanced than some other nations, the student continued.

Recently minerals and oil have ...

ARABIA SETS NEW GOALS

... who came to Los Angeles recently to study.

El Raoif has come to America to study modernization—electricity, engineering, automobiles, radio and other developments of ...

حيوية الدين الاسلامى

... ان العالم اليوم في بحثه وتدقيقه غيره بالامس فهو حر التفكير، طليق من ... لا تستمليه الا الحقائق، فهو ولوع بتقصيها عامل للعثور عليها ... اخذ برفع النقاب عن كل مايحيط به، من نظم مختلفة، وشرائع ... وكة، واحكام متباينة، يدرسها درسا علميا ... ويحللها تحليلا فنيا صرفا تحت ضوء الحقيقة والنور، ليرى ايها اعظم هدى وصلاحا لهذا الوجود.

صورة مقال للمؤلف نشره في إحدى الصحف العربية في أميركا.

...المفوضون في واشنطن

من قصيدة للشاعر اللاذقي المتكتم ... مبعوي الجيلاه الابيات الاتية :

طاح وريب الدهر غدرا بالغزاة

بني ايوب تلقاهم هنـا

لا ولا ابناء حمدان الاباة

الدولة امسى خبرا

وصلاح الدين رب التاج مات

... مات صلاح الدين بطلا مجاهدا ... سبيل المجد العربي وترك وراءه ذكرا ... وتاريخا مجيدا دون بفخر واعجاب ... اذا ذكر صلاح الدين تذكر معه ... وشدة – بمهارة حربية نادرة ، ... مع العظمة والقوة، رحمة وانصافا ... وابقى فلسطين لنا عربية صرفة ... فيها

... دارت الايام دورتها واعاد التاريخ ... فلسطين تعاودها نكبات ... ومحن قاسية دكتها دكا ورمتها ... بين يدي غشوم عنيد ... لفلسطين العربية ... منشأ رسول الرحمة والانسانية ... الاولى وثالث حرميهم ... الدين اخر بعد ... الزمان ومصمات الايام ?

... فقد فلسطين في ادوار محنها من ... ويذود عن حياضها ... ملوكها وعاهلها قلبا ولسانا ... مضحية بكل غال ...



سعادة مفوض العراقي في واشنطون علي جودت بك الايوبي

المفوض العراقي

وقف السيد الايوبي بالامس في مجمع حافل شامخ الرأس عالي الجبين يجيب عن سؤال طرح عليه يتعلق بانشاء الجيش الصهيوني في البلاد المقدسة نشرته صحف العاصمة جاء فيه :

انشاء مثل هذا الجيش في فلسطين الذي يؤدي حتما الى اثارة حفيظة العرب اصدقائهم ويجعلهم يؤمنون بالدعاية المحورية القائلة : اذا انتصرت الحلفاء ستكون البلاد العربية لقمة سائغة لهم

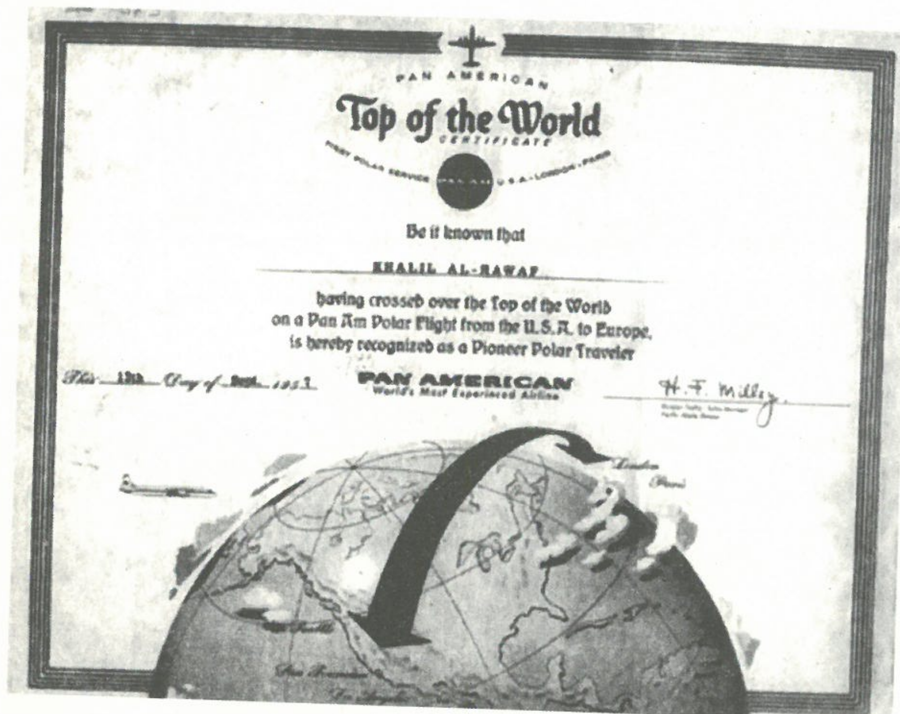
وليس من الحكمة اثارة غضب الملك ...

رغبة في انشاء هذا الجيش

وهذا التصريح الذي فاه به الوزير العراقي ابلغ تصريحا سياسيا سمعته عن قضية فلسطين واقوى دفاعا ظهر حتى اليوم من زعماء العرب فهو يحمل مع نصائحه التي ابداها انذارا وتهديدا خفيا بطرق دبلوماسية مرنة

ولا غرابة في الامر ان يكون للسيد الايوبي هذا الموقف وهذا الدفاع المجيد المشرف عن العرب واوطانها – اذا علمنا ان فخامته يعتبر في طليعة رجال العرب علما واخلاصا ، حسبا وعرفانا ...

مقتطفات من المقالات التي ظهرت في الصحف الأميركية عن المؤلف



الوثيقة التي حصل عليها المؤلف من شركة طيران (بان أميركان) بوصفه أحد الركاب الذين سافروا في أول رحلة من أميركا إلى أوروبا تمرّ عبر القطب الشمالي، وذلك عام 1957م



الصخرة التذكارية التي كُتب عليها اسم والد زوجة المؤلف السيد أليسون الذي أهدى المنتزه لولاية نيوجرسي.

فهرس الأعلام (*)

أ

(*) لم يرد اسم عبد العزيز آل سعود في الفهرس نظراً لوروده في أغلب صفحات الكتاب.

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

ل

م

ن

هـ



الكتاب

تؤرّخ هذه المذكرات لمسيرة قرنٍ كامل من أحداث مشرق الوطن العربي، عاصرها المؤلف وعاش في أجوائها، خاصةً مرحلة تأسيس وقيام الدولة السعودية الثالثة، فكان شاهدًا على المرحلة بكل تفاصيلها.

تستمد مذكرات خليل الرواف أهميتها من أنّ كاتبها أخذ يدوّنها ويوثقها في سنٍّ مبكرة من عمره، رغم الترحال الطويل الذي وسَمَ حياته، من مشرق الوطن العربي إلى أوروبا وأميركا، التي أمضى فيها شطرًا من حياته، حينما وصلها في ثلاثينيات القرن المنصرم، زوجًا ورحّالةً جوّابًا، ومشاركًا في التمثيل ضمن فريق «هوليود».

تتناول هذه المذكرات الطريق التجاري الطويل الذي رسمه «العقيلات» من أعماق نجد إلى وهاد الشام وسواد العراق ومياه النيل، لتوثق شيئًا من صفحات تلك التجربة الفريدة.

لم يفُتْ المؤلف أن يُفرد فصلًا لقصته أو مأساته مع ابنه الأميركي «نواف» الذي فرّقت بينهما الأقدار فورَ ولادته، ولم يلتقه إلا بعد مُضي خمسين عامًا، في قصة هي أقرب ما تكون إلى الخيال.

ولِد المؤلف قريبًا من عام 1895 وتوفي عام 2000م في مدينة الرياض، وما بين دفّتي الكتاب مسيرة الرحلة وتفاصيلها.

ISBN 978-614-418-130-0



جداول Jadawel
www.jadawel.net